

سُبُلُ الْمُهَذَّبِ وَالْمُتَمَكِّنِ
فِي سِيرَةِ خَيْرِ الْعِبَادِ مُحَمَّدٍ ﷺ

تَأليف

الإمام محمد بن يوسف الصالح الشامي
المتوفى ٥٩٤٢ هـ

تقريباً وتعليقاً

الشيخ عادل أحمد عبد الموجود
الشيخ علي محمد معوض

مكتبة النعمانية

مخلة جنك پشاور فون ٩٠٥٢٥٥٠١ - ٢٢١



سُبُلُ الْهُدَى وَالرَّشَادِ

فِي سِيَرَةِ خَيْرِ الْعِبَادِ ﷺ

تَأليف

الإمام محمد بن يوسف الصالح الشامي

المتوفى ٩٤٢ هـ

تحقيق وتعليق

السيد عايد محمد معوض

السيد عادل أحمد عبدالمجيد

المجلد الثالث

ناشر
مكتبة نعمانية

مسجد جنك، پشاور

فون: ۰۳۲۱-۹۰۵۲۵۵۰

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

جماع أبواب معراجہ صلی اللہ علیہ وسلم

قد كنتُ أفردتُ كتاباً حافلاً في هذا الباب سَمَّيْتُهُ: «الآيات البَيِّنَاتِ في معراجِ سيدِ أهلِ الأرضِ والسماءاتِ»، ثم ظَفِرْتُ بِأَشْيَاءَ لَمْ يَتَيَسَّرَ الوُقُوفُ عَلَيْهَا إِذْ ذَاكَ، فَجَمَعْتُ كتاباً آخَرَ سَمَّيْتُهُ: «الفضلُ الفائقُ في معراجِ خيرِ الخلائقِ»، فَاجْتَمَعَ فِيهِ فَوَائِدُ وَنَفَائِسُ لَا تَوْجِدُ مَجْمُوعَةً إِلَّا فِيهِ، فَرَأَيْتُ أَنْ أَذْكَرَ هُنَا خِلَاصَتَهُ:

الباب الأول

في بعض فوائد قوله تعالى

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء ١].

الكلام على هذه الآية من وجوه:

الأول: في سبب نزولها: قال الإمام العالم العلامة أبو حيان أثير الدين محمد بن يوسف الغرناطي - بفتح الغين المعجمة وسكون الراء وبالطاء المهملة - في تفسيره المسمى بالنهر: «سبب نزولها أن رسول الله ﷺ لما ذكر الإسراء به كذبوه، فأنزلها الله تعالى».

الثاني: في وجه اتصال هذه السورة بما قبلها: قال الإمام فخر الدين الرازي، والبرهان النسفي: «وجه الإتصال بما قبلها أن في تلك السورة ذُكِرَ الخليل ﷺ وذكُرَ أوصافه الشريفة، وتشريعاته العليّة من الحضرة الأزلية، والأمر باتباع ملة الحنيفية، والافتداء به في العقائد الدينية، وفي هذه السورة ذكر من أتبع ملة بالصدق، وأقام سنته على الحق، وفي آخر تلك السورة أمر نبينا ﷺ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل ١٢٥]. وأمره بعد ذلك بالصبر فقال: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل ١٢٧] والصبر هو التحمل للمكاره، والتحمل من جملة ما يؤدّي إلى التجمل، ومنه ما ذُكِرَ في أول هذه السورة.

النهر: لما أمره الله تعالى بالصبر، ونهاه عن الحزن عليهم، وأن يضيق صدره من مكربهم، وكان من مكربهم يشبّهه إلى الكذب والشجر والشعر وغير ذلك مما رموه به، فأعقب الله تعالى ذلك بشرفه وفضله واحتفائه به وعلو منزلته عنده.

الشيخ رحمه الله تعالى في مناسباته: «هذه السورة والأربعة بعدها من قديم ما نزل، روى الشيخان عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال في سورة بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: هُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الْأَوَّلِ وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي».

التلاد - بكسر المثلثة الفوقية وتخفيف اللام أي مما حُفِظَ قديماً، وهذا وجه في ترتيبها، وهو اشتراكها في قدم النزول وكونها مكّيات، وكلها مشتملة على القصص.

وظهر لي في وجه اتصالها بسورة النحل أنه سبحانه وتعالى لما قال في آخرها: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [النحل ١٢٤]. فشر في هذه السورة شريعة أهل السبت وشأنهم، فذكر فيها جميع ما شرع لهم في التوراة.

كما روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «التوراة كلها في خمس

عشرة آية من بني إسرائيل. وذكر عصيانهم وفسادهم وتخريب مسجدهم، ثم ذكر استفزازهم النبي ﷺ وإرادتهم إخراجه من المدينة وسؤالهم إياه عن الروح. ثم ختم السورة بآيات موسى التسع، وخطابه مع فرعون. وأخبر أن فرعون أراد أن يستفزهم من الأرض فأهلك. وأرث بني إسرائيل الأرض من بعدهم. وفي ذلك تعريض بهم أنهم كما استفزوا النبي ﷺ من المدينة، فسيخرجون منها ويترثها هو وأصحابه كنظير ما وقع لهم مع فرعون لما استفزهم. وقد وقع ذلك أيضاً. ولما كانت السورة مُصدّرة بتخريب المسجد الأقصى افتتحت بذكر إسرائ سيدنا محمد المصطفى إليه، تشریفاً لحلول ركابه الشريف وجبراً لما وقع من تخريبه. انتهى.

الثالث: في حكمة استفتاحها بالتسبيح:

ابن الجوزي في زاد المسير: الحكمة في الإتيان به هنا وجهان: أحدهما: أن العرب تُسَبِّح عند الأمر العجيب، فكأن الله تعالى عَجِبَ خَلْقَهُ بما أسدى إلى رسول الله ﷺ من الإسرائ به.

الثاني: أن يكون خرج مخرج الرد عليهم، لأنه ﷺ لما حَدَّثَهُم عن الإسرائ به كَذَّبُوهُ، فيكون المعنى تَنَزَّهُ اللهُ تعالى أن يَتَّخِذَ رسولا كَذَّاباً.

القاضي تاج الدين السبكي في تذكرته سأل الإمام: ما الحكمة في افتتاح سورة الإسرائ بالتسبيح والكهف بالتحميد؟ وأجاب بأن التسبيح حيث جاء قُدِّمَ على التحميد نحو: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [النصر ٣] سبحان الله والحمد لله.

وأجاب ابن الزمِّلَكَاني - بفتح الزاي واللام -: [أن] سورة سبحان لما اشتملت على الإسرائ وكَذَّبَ المشركون به النبي ﷺ، وتكذبه تكذيب الله تعالى، أُتِيَ «سُبْحَانَ» لتتزيه الله عز وجل عما يُنْسَبُ إليه من الكذب، وسورة الكهف لما نزلت بعد سؤال المشركين عن قصة أصحاب الكهف وتأخير الوحي نزلت مُبَيِّنَةً أن الله تعالى لم يقطع نعمته على نبيِّه ولا على المؤمنين، بل أتم عليهم النعمة بإنزال الكتاب، فناسب افتتاحها بالحمد على هذه النعمة.

الرابع: في الكلام على سبحان الله:

محمود الكرماني في «برهانه»: «كلمة استأثر الله تعالى بها، فبدأ بالمصدر في بني إسرائيل ثم بالماضي في الصَّفِّ والحَشْرَ لأنه أسبق، ثم بالمضارع في الجمعة والتغابن، ثم بالأمر في الأعلى استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها»، انتهى.

وقوله: «فبدأ بالمصدر» أي بالاسم الموضوع موضع المصدر.

وروى الحاكم أن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، سأل رسول الله ﷺ عن معنى «سبحان الله»، فقال: «تنزيه الله من كل سوء».

وروى ابن أبي حاتم عن علي رضي الله تعالى عنهما، قال: «سبحان الله، اسم يُعَظَّمُ الله تعالى به نفسه ويتحاشى به عن السوء».

الماوردي رحمه الله تعالى: «هو ذِكْرُ يُعَظَّمُ اللهُ تعالى به لا يصلح إلا له».

وأما ما ذُكِرَ في قول الشاعر.

«سبحان من علقمة الفاخر».

فعلى سبيل الشذوذ.

صاحب النظم^(١): «السَّبْحُ - في اللغة - التباعد، يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل ٧]، أي تباعداً طويلاً. فمعنى سبح الله تعالى بعده عما لا ينبغي. وللتسبيح مَعَانٍ أُخْرَ ذَكَرْتُهَا في كتاب: القول الجامع الوجيز الخادم للقرآن العزيز.

الإمام موفق الدين بن يعيش رحمه الله تعالى في شرح المُفَصَّل: «اعلم أنهم قد عَلَّقُوا الأعلام على المعاني فأطلقوها على الأعيان، فمن ذلك قولهم: سبحان، وهو عندنا عَلَمٌ وَاقِعٌ على معنى التسبيح، وهو مصدر معناه البراءة والتنزيه وليس منه فِعْلٌ، وإنما هو واقع التسبيح الذي هو المصدر في الحقيقة، جُعِلَ عَلَمًا على هذا المعنى فهو معرفة لذلك، ولا ينصرف للتعريف وزيادة الألف والنون. وأما قول الشاعر: «سُبْحَانَهُ ثُمَّ سُبْحَانًا يَعُودُ لَهُ»، ففي تنوينه وجهان: أن يكون ضرورة، والثاني: أن يكون أراد الفكرة».

الضياء بن العليج رحمه الله، في البسيط: «لفظ المصدر لأنه مصدر سَبَّحَ إِذَا قَالَ: سبحان الله، ومدلول سبحان التنزيه لا اللفظ».

قلنا: التسبيح بمعنى التنزيه أيضاً لأن معنى سَبَّحْتُ نَزَّهْتُ اللهُ تعالى، فتطابقا حيثُذِي على معنى التنزيه، فصَحَّ تعليق سبحان على التسبيح، واستعماله عَلَمًا قَلِيلًا، وأكثر استعماله مُضَافًا إِلى فاعله أو إِلى مفعوله. فإذا أُضِيفَ فليس بعَلَمٍ لأن الأعلام لا تُضَافُ.

قال: وقيل «سبحان» في البيت مضاف حُذِفَ المضاف إليه للعلم به وليس بعلم».

(١) أبو الحسن علي بن عبد العزيز بن الحسن الجرجاني القاضي بجرجان ثم بالري ذكره الشيخ أبو إسحاق في طبقاته فقال: كان نقيباً أديباً شاعراً وفيه يقول صاحب بن عباد:

إذا نحن سلمنا لك العلم كله فدع هذه الألفاظ ننظم شذورها
انظر شذرات الذهب ٥٦/٣، ٥٧.

أبو عمرو بن الحجاج^(١) رحمه الله تعالى في أماليه: «الدليل على أن سبحان عَلِمَ للتسبيح قول الشاعر:

قَدْ قُلْتُ لَمَّا جَاءَنِي فَخْرُهُ سُبْحَانَ مِنْ عِلْقَمَةَ الْفَاحِرِ^(٢)

ولولا أنه عَلِمَ لوجب صَرْفُهُ لأن الألف والنون في غير الصفات إنما تمنع مع العَلْمِية».

الشهاب السمين رحمه الله تعالى في إعرابه: «قيل هو مصدر لأنه سُيِّعَ له فِعْلٌ ثلاثي، وهو من الأسماء اللازمة للإضافة. وقد يُفْرَدُ، وإذا أُفْرِدَ مُنِعَ من الصرف للتعريف، وزيادة الألف والنون كما في البيت السابق. وقد جاء مُتَوْنًا كقوله:

سُبْحَانَهُ ثُمَّ سُبْحَانًا يَعُودُ لَهُ وَقَبْلَنَا سَبَّحَ الْجُودِيُّ وَالْجُمْدُ^(٣)

فقيل ضرورة وقيل هو بمنزلة قبل وبعد، إن نوى تعريفه بَيَّيَ على حاله، وإن نُكِّرَ أُغْرِبَ، منصرفاً. وهذا البيت يساعد على كونه مصدراً لا اسم مصدر لوروده منصرفاً. ولقائل القول الأول أن يجيب عنه بأن هذا نكرة لا معرفة. وهو من الأسماء اللازمة للنصب على المصدرية فلا تنصرف. والناصب له فِعْلٌ مُقَدَّرٌ لا يجوز إظهاره».

أبو شامة رحمه الله: «حيث جاء منصوباً نصب المفعول المطلق اللازم إضمار فعله، وفعله إما فعل أمر أو خبر. وهو في هذه السورة مُخْتَمِلٌ للأمرين أي سَبَّحُوا الذي أسرى بعده أو سُبَّحَ الذي أسرى بعده، على أن يكون إبتداءً ثناءً لله تعالى على نفسه كقول (الحمد لله رب العالمين)».

القرطبي رحمه الله تعالى: «العامل فيه على مذهب سيبويه الفِعْلُ الذي من معناه لا من لفظه إذ لم يجيء من لفظه فِعْلٌ، وذلك مثل قعد القُرْفُصَاءِ واشتمل الصَّمَاءِ. فالتقدير عنده أَنْزَهُ اللهُ تَعَالَى تَنْزِيهَاً، فوق «سبحان الله» مكان^(٤) قولك تنزيهاً». انتهى.

الزمخشري رحمه الله تعالى: «سُبْحَانَ عَلِمَ للتسبيح كعثمان لرجل وانتصابه بفِعْلٍ

(١) عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، أبو عمرو جمال الدين بن الحجاج: فقيه مالكي، من كبار العلماء بالعربية. كردي الأصل. ولد في أسنا (من صعيد مصر) ونشأ في القاهرة، وسكن دمشق، ومات بالإسكندرية سنة ٦٤٦ هـ. وكان أبوه حاجباً فُتِرَفَ به. من تصانيفه «الكافية» في النحو، و«الشافية» في الصرف، و«منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل». انظر الأعلام ٢١١/٤.

(٢) البيت للأعشى ويروى

أَقُولُ لَمَّا جَاءَنِي فَخْرُهُ سُبْحَانَ مِنْ عِلْقَمَةَ الْفَاحِرِ

انظر لسان العرب ١٩١٤/٢.

(٣) البيت لأمية بن أبي الصلت انظر اللسان ١٩١٥/٢

(٤) في أ: فهو بمنزلة.

مُضَمَّر [متروك إظهاره، تقديره] أَسْبَحُ الله سبحانه. ثم نزل منزلة الفعل فَسَدُ مَسَدُهُ وَدَلُّ عَلَى التنزيه البليغ من جميع القبائح التي يضيفها إليه أعداء الله.

الطبيعي رحمه الله تعالى: «وذلك في جلب هذا المصدر في أصل هذا التركيب للتوكيد، وهو أَسْبَحُ تسبيحاً ثم أسبح سبحان، ثم في حذف العامل وإقامته مقامه للدلالة على أن المقصود بالذات هو المصدر، والفعل تابع، فيفيد الإخبار بسرعة وجود التنزيه».

وروي عن الكسائي أنه جُعِلَ مُنَادَى تقديره يا سبحانك، وأباه الجمهور.

السفاسقي والسمين^(١): «ورُدُّ بأنه لم يُسمع دخول حرف النداء عليه، وزعم بعضهم أن لفظه لفظ التثنية ومعناه كذلك كَلْبَيْتِكَ. وهو غريب. ويلزمه أن يكون مُفْرَدُهُ سُبْحاً وألا يكون منصوباً بل مرفوعاً، وأن نونه لم تسقط بالإضافة وأن فتحها يلزم».

ومن الغرائب أيضاً ما حكاه الماوردي عن أبان بن تغلب - بالمشناة الفوقية والغين المعجمة - أن سبحان كلمة أصلها بالنبطية «شبهانك» ففُزِّبَتْ «سبحانك». والذي أضيف إلى سبحان مفعول به لأنه المُسْبِح، ويجوز أن يكون فاعلاً لأن المعنى تنزه الذي أسرى بعبدته.

الخامس: في الكلام على «أسرى»:

البرهان النسفي: قال أهل اللغة: أسرى وسرى لغتان. زاد غيره: يختصان بسير الليل.

السمين: فيكون سَرَى وأَسْرَى كسقى وأسقى. والهمزة هنا ليست للتعدي، خلافاً لابن عطية، وإنما المُعَدِّي الباء في «بعبدته». وتقدم في البقرة أنها لا تقتضي مصاحبة الفاعل للمفعول عند الجمهور، خلافاً للمبرد. وبسط الكلام على ذلك هنا وفي البقرة.

السفاسقي: الباء للتعدي وترادف الهمزة عند الجمهور خلافاً للمبرد والسهيلي في أنها تقتضي مصاحبة الفاعل للمفعول في الفعل بخلاف الهمزة حتى قال السهيلي: إذ قلت قَعَدْتُ به فلا بُدُّ من مشاركة ولو باليد. ورُدُّ عليهما بالآية: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة ١٧] لأن الله لا يوصف بالذهاب مع النور. ورُدُّ عليهما أيضاً بقول الشاعر:

(١) أحمد بن يوسف بن محمد، وقيل: عبد الدائم، العلامة شهاب الدين أبو العباس الحلبي ثم المصري، النحوي المقرئ الفقيه، المعروف بابن السمين. قرأ النحو على أبي حيان، والقراءات على ابن الصائغ، وسمع وولي تصدير إقراء النحو بالجامع الطولوني، وأعاد بالشافعي، وناب في الحكم بالقاهرة، وولي نظر الأوقاف بها، وصنف تصانيف حسنة، منها تفسير القرآن مطول، وقد بقي منه أوراق قلائل، قال الحسيني: في عشرين سفرأ، وإعراب القرآن سماه الدر المصون في أربعة أجزاء، ومادته فيه من تفسير شيخه أبي حيان إلا أنه زاد عليه، وناقشه في مواضع مناقشة حسنة وقد تمنا بتحقيقه، وأحكام القرآن وشرح التسهيل شرحاً مختصراً من شرح أبي حيان، وشرح الشاطبية. قال الإسوي: كان فقيهاً بارعاً في النحو، والتفسير، وعلم القراءة، ويتكلم في الأصول خيراً دناً. توفي في جمادى الآخرة، وقيل: في شعبان سنة ست وخمسين وسبعمائة بالقاهرة. ابن قاضي شهبة ١٨١٣.

ديار التي كانت ونحن على منى تحل بنا لولا نجاء الركائب^(١)
 أي تحلنا فالباء هنا للتعدية، ولم تقتض المشاركة لأن الديار لم تكن حراماً فتصير حلالاً،
 ولكون الباء بمعنى الهمزة لا يُجمع بينهما، فلا يُقال أذهبتُ بزيد.

وَجَزَمَ ابن دحية - بفتح الدال وكسر ها - وابن المنير، بما قاله المُبرِّد فقالا: «يؤخذ من
 قوله: «أسرى بعبده» ما لا يؤخذ إن قيل: بعت إلى عبده، لأن الباء تفيد المصاحبة، أي صحبته
 في مشراه بالإلطف والعناية والإسعاف». زاد ابن دحية: «ويشهد لذلك قوله ﷺ: «اللهم أنت
 الصاحب في السفر».

ويؤخذ من ذلك أن من قال: لله علي أن أخرج بفلان، يلزمه الحجج معه، بخلاف ما لو
 قال: لله علي أن أخرج فلانا، فإنه يلزمه أن يُجهزه للحج من ماله. والفرق بين الصورتين ما تعطيه
 الباء من المصاحبة. انتهى. وتقدم رد ذلك.

الحافظ: «أسرى مأخوذ من الشرى وهو سير الليل، فقول العرب أسرى وسرى إذا سار
 ليلاً، هذا قول الأكثر».

وقال الحوفي: أسرى سار ليلاً، وسرى سار نهاراً».

قال الحافظ في موضع آخر: «وقيل أسرى سار من أول الليل، وسرى سار من آخره»
 وهذا أقرب. ولم يختلف القراء في أسرى، بخلاف قوله تعالى في قصة لوط: ﴿فَأَسْرِبْ
 بِأَهْلِكَ﴾ [هود ٨١]. فقرأت بالوصل والقطع، وفيه تعقيب على من قال من أهل اللغة: إن
 أسرى وسرى بمعنى.

قال السهيلي: «الشرى من سريت إذا سرت ليلاً، يعني فهو لازم. والإسراء يتعدى في
 المعنى، لكن حذف مفعوله حتى ظن من ظن أنهما بمعنى واحد، وإنما معنى «أسرى بعبده»،
 جعل البراق يُسري به، كما تقول: أمضيتُ كذا أي جعلته يمضي، لكن حذف المفعول لقوة
 الدلالة عليه، والاستغناء عن ذكره، إذ المقصود بالذكر المصطفى لا الدابة التي سارت به.
 وأما قصة لوط فالمعنى: سرت بهم على ما يتحملون عليه من دابة ونحوها، هذا معنى قراءة
 القطع. ومعنى الوصل: سرت بهم ليلاً، ولم يأت مثل ذلك في الإسراء، إلا أنه لا يجوز أن يُقال:
 «سرى بعبده» بوجه من الوجوه».

قال الحافظ والنسفي: «الذي جزم به هو من هذه الحبيثة التي قَصُرَ فيها الإشارة إلى أنه
 سار ليلاً على البراق. والآن لو قال قائل: سرتُ بزيد بِمَعْنَى صاحبه لكان المعنى صحيحاً».

(١) البيت لقيس بن الخطيم انظر اللسان ٩٧٢/١.

السادس: في الكلام على العبد:

أجمع المسلمون على أن المراد بالعبد هنا سيدنا محمد رسول الله ﷺ، وهو لغة المملوك من نوع مَنْ يَغِقِل. قال في المُحَكَّم: «العَبْدُ الْإِنْسَانُ حُرّاً كَانَ أَوْ رَقِيقاً، لِأَنَّهُ مَمْلُوكٌ لِبَارئِهِ». وقال غيره: «إِنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ التَّعْبُدِ وَهُوَ التَّذَلُّلُ».

قال ابن الأنباري: «العبد الخاضع لله من قولهم: طريق مُعْبَدٍ إِذَا كَانَ قَدْ وَطَّقَهَا النَّاسُ». وللإمام جمال الدين بن مالك^(١) بيتان في جموع عبء، وذليل الشيخ زحمة الله عليهما بمثلهما ووطأ قبلهما بيت، فقال:

جُجُوعٌ لِعَبْدٍ لِإِنِّ مَالِكٍ نَظْمُهَا وَزِدْتُ عَلَيَّهَا مِثْلَهَا فَاسْتَفِيدُ وَجُدُ
عِبَادٌ عَبِيدٌ جَمْعُ عَبْدٍ وَأَعْبُدُ أَعَابِدُ مَعْبُوداً مُعْبَدَةٌ عُبُدُ
كَذَلِكَ عُبْدَانٌ وَعِبْدَانٌ أَتَيْنَا كَذَلِكَ الْعِبْدِيُّ وَآمَدُ أَنْ شِئْتَ أَنْ تَمُدُ
وَقَدْ زِيدَ أَعْبَادٌ عُجُودٌ عِبْدَةٌ وَخَفَّفَ بِفَتْحٍ وَالْعِبْدَانِ إِنْ تَشُدُ
وَأَعْبَدَةٌ عَبْدُونَ تُمَّتْ بَعْدَهَا عَبِيدُونَ مَعْبُوداً بِقَضْرِ فَخُذْ تَشُدُ

الإسنوي^(٢) رحمه الله تعالى: «قال سيبويه: العبد في الأصل صفة، ولكنه استعمل استعمال الأسماء».

الشيخ زكريا^(٣) رحمه الله تعالى في فتح الرحمن «قال تعالى: ﴿يَعْبُدُهُ﴾ دون نبيه أو حبيبه لئلا تُضِلُّ أُمَّتَهُ أَوْ لِأَنَّ وَصْفَهُ بِالْعِبُودِيَةِ الْمُضَافَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَشْرَفُ الْمَقَامَاتِ».

(١) محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجبلي، أبو عبد الله، جمال الدين: أحد الأئمة في علوم العربية. ولد في جيان (بالأندلس) وانتقل إلى دمشق فتوفي فيها. أشهر كتبه «الألفية» في النحو، وله «تسهيل الفوائد»، و «شرح له» توفي سنة ٦٧٢ هـ. الأعلام ٢٣٣/٦، بُيِّنَةُ الوُعَاةِ ٥٣، وغاية النهاية ١٨٠/٢.

(٢) عبد الرحيم بن الحسن بن علي بن عمر بن علي بن إبراهيم، الإمام العلامة، منقح الألفاظ، محقق المعاني، ذو التصانيف المشهورة المفيدة، جمال الدين أبو محمد القرشي، الأموي، الإسنوي المصري. ولد بإسنا في رجب سنة أربع وسبعمائة، وقدم القاهرة سنة إحدى وعشرين وسبعمائة، وسمع الحديث، واشتغل في أنواع من العلوم، توفي فجأة في جمادى الآخرة سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة، ودفن بترته بقرب مقابر الصوفية. ومن تصانيفه: جواهر البحرين في تناقض الحبرين والتنقيح على التصحيح - وشرح المنهاج للبيضاوي وهو أحسن شروحه وأنفعها - والهداية في أوامير الكفاية - والمهمات - والتمهيد - وطبقات الفقهاء - وطرز المحافل في أفاض المسائل - ومن تصانيفه أيضاً: كافي المحتاج في شرح منهاج النووي. انظر الطبقات لابن قاضي شهبة ٩٨/٣، ٩٩، ١٠٠، والبدر الطالع ٣٥٢/١، والمقدّم الذهب لابن الملقن ٢٨٧، والأعلام ١١٩/٤، وشذرات الذهب ٢٢٤/٦.

(٣) زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري السنيكي المصري الشافعي، أبو يحيى: شيخ الإسلام. قاضي مفسر، من حفاظ الحديث. ولد في سنيكة (بشرقية مصر) وتعلم في القاهرة وكف بصره سنة ٩٠٦ هـ. نشأ قهراً معدماً، له تصانيف كثيرة منها «فتح الرحمن في التفسير»، و «تحفة الباري على صحيح البخاري» و «فتح الجليل» تعليق على تفسير البيضاوي، و «شرح إيساغوجي» في المنطق، و «شرح ألفية العراقي» في مصطلح الحديث، و «شرح شذور الذهب» في النحو، و «تحفة نهباء العصر». توفي سنة ٩٢٦ هـ. الأعلام ٤٦/٣.

الأستاذ أبو علي الدُّقَّاق^(١) رحمه الله تعالى: «ليس للمؤمن صفة أتم ولا أشرف من العبودية، ولهذا أطلقها الله تعالى على نبيه في أشرف المواطن، كقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء ١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف ١]، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم ١٠]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان ١].

الشيخ عبد الباسط البلقيني رحمه الله: «ومن هنا يؤخذ الجواب عن وصفه ﷺ بذلك ووصف يحيى عليه السلام بالسيادة في قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا، وَخَصُورًا﴾ [آل عمران ٣٩].

الأستاذ أبو القاسم القشيري^(٢) رحمه الله: «في معناه أنشدوا:

يَا قَوْمِ قَلْبِي عِنْدَ زَهْرَاءَ يَغْرِقُهُ الشَّامِعُ وَالرَّائِي
لَا تَدْعُنِي إِلَّا بِمَا عِبْدَهَا فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي»

العوفي رحمه الله: «والسبب في ذلك أن الإلهية والسيادة والربوبية إنما هي في الحقيقة لله عز وجل لا غير. والعبودية في الحقيقة لمن دونه. فإذا كان في مقام العبودية فهو في رتبته الحقيقية، والرتبة الحقيقية أشرف المراتب إذ ليس بعد الحقيقة إلا المجاز، ولا بعد الحق إلا الضلال».

البرهان النسفي رحمه الله: «قيل لما وصل النبي ﷺ إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في المِجْرَاجِ، أوحى الله تعالى إليه: يا محمد أشرفك؟ قال: يا رَبِّ تنسبني إلى نفسك بالعبودية، فأنزل الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ الآية.

وأقوال القوم في العبد والعبودية كثيرة، والألفاظ مختلفة معانيها، وكل أحد يتكلم

(١) الحسين بن علي بن محمد، الأستاذ أبو الدقاق النيسابوري، الزاهد العارف، شيخ الصوفية. تفقه بمرو عند الخصري، وأعاد عند القفال وبرع في الفقه، ثم سلك طريق الصوفية، وصحب الأستاذ أبا القاسم النضرابادي، وأخذ الطريقة عنه، وزاد عليه حالاً ومقالاً، واشتهر ذكره في الآفاق، وانتفع به الخلق، ومنهم أبو القاسم القشيري صاحب الرسالة، وحكى عنه أحوالاً وكرامات. مات في ذي الحجة سنة ست وأربعمائة، وقيل: سنة خمس. انظر طبقات ابن قاضي شهبة ١٧٨/١.

(٢) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد، الأستاذ أبو القاسم القشيري النيسابوري. أحد العلماء بالشرعية والحقيقة. أخذ الطريقة عن الشيخ أبي علي الدقاق وأبي عبد الرحمن السلمي، ودرس الفقه على أبي بكر الطوسي حتى فرغ من التعليق وقرأ الكلام على أبي بكر بن فورك وأبي إسحاق الإسفراييني وبرع في ذلك، وحج مع البيهقي وأبي محمد الجويني. ذكره الخطيب البغدادي ومات قبله، وقال: كتبنا عنه وكان ثقة، وكان يقص، وكان حسن الموعظة، مليح الإشارة، وكان يعرف الأصول على مذهب الأشعري والفروع على مذهب الشافعي. وقال ابن السمعاني: لم ير أبو القاسم مثل نفسه في كماله وبراعته، جمع بين الشرعية والحقيقة. وقال ابن خلكان: صنف أبو القاسم التفسير الكبير، وهو من أجود التفاسير، وصنف الرسالة في رجال الطريقة، وذكر له الذهبي مصنفات أخرى. ولد في ربيع الأول سنة ست وسبعين وثلاثمائة، وتوفي في ربيع الآخر سنة خمس وستين وأربعمائة عن تسع وثمانين سنة، ودفن إلى جانب أستاذه أبي علي بالمدرسة. ابن قاضي شهبة ٢٥٤/١١.

بلسان حاله على قدر مقامه، فقال أبو حفص النيسابوري رحمه الله: «العبد هو القائم إلى أوامر سيده على حدّ النشاط حيث جعله محل أمره».

ابن عطاء^(١) رحمه الله: «العبد الذي لا يملك له».

الجريري - بفتح الجيم -: «حقيقة العبد هو الذي يتخلّق بأخلاق ربّه».

رؤيم رحمه الله تعالى: «يتحقق العبد بالعبودية إذا أسلم القياد من نفسه وتبرّأ من حوله وقوته، وعلم أن الكل له وبه».

عبد الله بن محمد رحمه الله: «حُزّت صِفَةُ العبودية إن كنت لا ترى لنفسك ملكاً، وتعلم أنك لا تملك لها نفعاً ولا ضراً. ورحم الله من قال:

وَكُنْتُ قَدِيمًا أَطْلُبُ الْوَضْلَ مِنْهُمْ فَلَمَّا أَتَانِي الْجِلْمُ وَازْتَفَعَ الْجَهْلُ
تَيَقَّنْتُ أَنَّ الْعَبْدَ لَا مَطْلَبَ لَهُ فَإِنْ قَرَّبُوا فَضْلٌ وَإِنْ أَبْعَدُوا عَدْلُ
وَإِنْ أَظْهَرُوا لَمْ يُظْهِرُوا غَيْرَ وَضْفِهِمْ وَإِنْ سَتَرُوا فَالَسْتَرُ مِنْ أَجْلِهِمْ يَخْلُو

الإمام الرازي رحمه الله، دل قوله بعبده على أن الإسراء كان بجسد رسول الله ﷺ، لأن العبد اسم للجسد والروح، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ [العلق: ٩، ١٠].

السابع: في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَيْلًا﴾.

الحافظ رحمه الله تعالى: «ليلاً ظرف للإسراء وهو للتأكيد، وفائدته رفع توهم المجاز، لأنه قد يُطلق على سير النهار أيضاً، ويُقال بل هو إشارة إلى أن ذلك وقع في بعض الليل لا في جميعه، والعرب تقول: سَرَى فلان لَيْلاً إذا سار بَغْضَه، وسَرَى في لَيْلَةٍ إذا سار في جميعها. ولا يقال أسرى لَيْلاً إلا إذا وقع سيره في أثناء الليل، وإذا وقع في أوله يقال أَدْجَج، ومن هذا قوله تعالى في قصة موسى وبنى إسرائيل: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا﴾ [الدخان: ٢٣]، أي من وَسَطِ الليل».

أبو شامة رحمه الله تعالى: «إنما تُسبب السرى إلى الليل لما كان السرى واقعاً فيه كقوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧]، أي يُنصَر فيه، فهو من باب قوله: «لَيْلٌ نائم وساهر، أي يحصل فيه النوم والشهر، وهذا باب من أبواب المجاز معروف».

(١) أحمد بن محمد بن عبد الكريم، أبو الفضل تاج الدين، ابن عطاء الله الإسكندري: متصوف شاذلي، من العلماء. كان من أشد خصوم شيخ الإسلام ابن تيمية. له تصانيف منها «الحكم العطائية - طه في التصوف، و«تاج العروس - طه في الوصايا والعظات، و«لطائف الحزن في مناقب العرسى وأبي الحسن - طه توفي بالقاهرة. وينسب إليه كتاب «مفتاح الفلاح» وليس من تأليفه.

واستشكل كثير من الناس كون «ليلاً» ظرفاً للإسراء. ووجه الإشكال أنه قد تقدم أن الإسراء هو سائر الليل، فإذا أُطلق الإسراء فهم أنه واقع ليلاً، فهو كالصُّبوح في شرب الصباح، لا يحتاج إلى قوله: شربت الصُّبوح صباحاً.

وجوابه أن الأمر وإن كان كذلك إلا أن العرب تفعل مثل ذلك في بعض الأوقات إذا أرادت تأكيد الأمور. والتأكيد نوع من أنواع كلامهم وأسلوب منه. والعرب تقول: أخذ بيده، وقال بلسانه. وفي القرآن العزيز: ﴿وَلَا طَائِرُ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦]، وقال جرير:

سَرَى نَحْوَهَا لَيْلاً كَأَنَّ نُجُومَهُ قناديلُ فِيهِنَّ الذُّبَالُ الْمُفْتَلُ^(١)

الذُّبَالُ: جمع ذُبَالَةٍ - بضم الذال المعجمة وهي الفتيلة.

الجوهري^(٢): «وإنما قال ليلاً، وإن كان السرى لا يكون إلا بالليل للتأكيد، كقولهم: سرتُ أمس نهاراً والبارحة ليلاً».

الزمخشري: [فإن قلت الإسراء لا يكون إلا بالليل فما معنى ذكر الليل؟ قلت]: أراد بقوله ليلاً بلفظ التنكير تقليل مدة الإسراء وأنه وقع السرى في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة، وذلك أن التنكير فيه قد دلَّ على معنى البعضية، ويشهد لذلك قراءة عبد الله وحذيفة «من الليل» أي بعض الليل كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ [الإسراء: ٧٩] يعني الأمر بقيام الليل في بعض الليل.

قال أبو شامة: «وهذا الوجه لا بأس به، وقد زاد شيخنا أبو الحسن - يعني السخاوي في تفسيره أيضاً وتقريراً، فقال: وإنما قال: «ليلاً»، والإسراء لا يكون إلا بالليل، لأن المدة التي أسرى به فيها لا تُقطع في أقل من أربعين يوماً، فقطعت به في ليل واحد المعنى سبحان الذي أسرى بعبد في ليل واحد من كذا إلى كذا، وهو موضع التعجب». قال: «وإنما عُديل عن ليلة إلى ليل، لأنهم إذا قالوا: سرى ليلة، كان ذلك في الغالب لاستيعاب الليلة، ف قيل: ليلاً أي في ليل».

وتعقب صاحب الفوائد كلام الزمخشري بكلام تعقبه فيه الطيبي، ثم قال الطيبي:

(١) انظر ديوان جرير (٣٤٣).

(٢) إسماعيل بن حماد الجوهري، أبو نصر. لغوي، من الأئمة. وخطه يذكر مع خط ابن مقلة. أشهر كنه «الصحاح» - وله كتاب في «العروض» ومقدمة في «النحو» أصله من فاراب، ودخل العراق صغيراً، وسافر إلى الحجاز فطاف البادية، وعاد إلى خراسان، ثم أقام في نيسابور. توفي ٩٩٣ هـ الأعلام ٣١٣/١.

ويمكن أن يراد بالتنكير التعظيم والتفخيم، والمقام يقتضيه، ألا ترى كيف افتتحت السورة بالكلمة المُنْبِئَة عنه؟ ثم وصف المُسْرَى به بالعبودية، ثم أردف تعظيم المكانين بالحرام وبالبركة لِمَا حَوَّلَهُ، يُعْظَمُ الزمان ثم يُعْظَمُ الآيات بإضافتها إلى صيغة التعظيم، وَجَمَعَهَا لتشمل جميع أنواع الآيات، وَكُلُّ ذَلِكَ شَاهِدٌ صِدْقٍ عَلَى مَا نَحْنُ بِصُدَدِهِ، وَالْمَعْنَى مَا أَعْظَمَ شَأْنٌ مَنَ أُسْرِي [به] يَمُنُّ حَقُّقٌ لَهُ مَقَامُ الْعِبُودِيَّةِ، وَصُحِّحَ لَهُ اسْتِنْهَالُهُ لِلْعُنَايَةِ السَّرْمَدِيَّةِ لَيْلًا، أَي لَيْلٌ لَهُ شَأْنٌ جَلِيلٌ.

ابن المنير رحمه الله تعالى: «وإنما كان الإسراء ليلاً لأنه وقت الخلوة والاختصاص عُزْفًا، ولأنه وقت الصلاة التي كانت مفروضة عليه في قوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٢] وليكون أبلغ للمؤمن في الإيمان بالغيب، وفتنة للكافر».

ابن دحية رحمه الله: «كرم الله نبينا ﷺ ليلاً بأمر منها: انشقاق القمر، وإيمان الجن به، ورأى أصحابه نيرانهم، كما في صحيح مسلم، وخرج إلى الغار ليلاً. والليل أصل، ولهذا كان أول الشهور، وسواده يجمع ضوء البصر، ويحدد كليل النظر، ويشتد فيه بالسمر. وكان أكثر أسفاره ليلاً. وقال عليه الصلاة والسلام: «عليكم - بالدُّلْجَةِ فَإِنَّ الْأَرْضَ تُطَوَّى بِاللَّيْلِ». والليل وقت الاجتهاد للعبادة. وكان ﷺ يقوم حتى تورمت قدماه. وكان قيام الليل في حقه واجباً، فلما كانت عبادته ليلاً أكرم بالإسراء [به] فيه ليكون أجر المصدق به أكثر، ليدخل فيمن آمن بالغيب دون من عاينه نهاراً، وقدم الحق تبارك وتعالى الليل في كتابه على ذكر النهار، فقال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ﴾ [الإسراء: ١٢]، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢] إلى غير ذلك من الآيات».

وصح أنه ﷺ قال: «يُنزَلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلُّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»، الحديث^(١).

وهذه الخصيصة لم تجعل للنهار، نبه بها ﷺ لِمَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنَ اللَّيْلِ مِنْ سَعَةِ الرَّحْمَةِ وَمُضَاعَفَةِ الْأَجْرِ وَتَعْجِيلِ الْإِجَابَةِ، وَإِبْطَالِ كَلَامِ الْفَلَّاسِفَةِ أَنَّ الظُّلْمَةَ مِنْ شَأْنِهَا الْإِهَانَةُ وَالشَّرُّ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَكْرَمُ أَقْوَامًا فِي اللَّيْلِ بِأَنْوَاعِ الْكِرَامَاتِ كَقَوْلِهِ فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ [الأنعام: ٧٦] الآية. وفي لفظ بقوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنْ

(١) أخرجه البخاري ٦٦/٢ (دار الفکر) ومسلم ٥٢١/١ (٧٥٨-١٦٨) وأبو داود (٤٧٣٣-١٣١٥) وابن ماجه (١٣٦٦) والبيهقي في السنن ٢/٣

اللَّيْلِ ﴿هُود: ٨١﴾. وفي موسى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢] وناجاه ليلاً، وأمره بإخراج أهله ليلاً.

بعض أهل الإشارات: «لما محا الله آية الليل، ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢] انكسر الليل، فَجَبِرَ بَأَن أُسْرِيَ فِيهِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ. انتهى.

أبو أمامة بن النُّقَاش رحمه الله: «ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر في حق النبي ﷺ، وليلة القدر أفضل في حق الأمة، لأنها لهم خَيْرٌ مِنْ عَمَلٍ أَكْثَرَ مِنْ ثَمَانِينَ سَنَةً مِمَّنْ كَانَ قَبْلَهُمْ. وأما ليلة الإسراء فلم يأت في أرجحية العمل فيها حديث صحيح ولا ضعيف، ولذلك لم يُعَيَّنْهَا النَّبِيُّ ﷺ.»

ويؤخذ من قول الإمام البلقيني رحمه الله في قصيدته التي مدح فيها النبي ﷺ:

أَوْلَاكَ رُؤْيَتْهُ فِي لَيْلَةٍ فَضُلْتُ لَيْلِي الْقَدْرِ فِيهَا الرَّبُّ أَرْضَاكَ

أن ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر.

قال في الاصطفاء: «ولعل الحكمة في ذلك اشتغالها على رؤيته تعالى التي هي أفضل كل شيء، ولذا لم يجعلها ثواباً عن عمل من الأعمال مطلقاً، بل مَنْ بِهَا عَلَى عِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَفْضُلاً مِنْهُ تَعَالَى.»

تنبيه: اختلف هل الليل أفضل من النهار؟ فَرَجَّحَ كُلًّا مُرْجِحُونَ. وقد ألف الإمام أبو الحسين بن فارس^(١) اللغوي كتاباً في التفضيل بينهما فذكر وجوهاً في تفضيل هذا ووجوهاً في تفضيل هذا.

الثامن: في الكلام على قوله تعالى (مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ):

«مِنْ» ههنا لا ابتداءً الغاية.

الزركشي رحمه الله في كتابه: «إعلام الساجد بأحكام المساجد»: الْمَسْجِدُ لُغَةً مَفْعِلٌ بِالْكَسْرِ اسْمٌ لِمَكَانِ السُّجُودِ وَبِالْفَتْحِ اسْمٌ لِلْمَصْدَرِ.»

(١) أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين: من أئمة اللغة والأدب. قرأ عليه البديع الهمداني والصاحب ابن عباد وغيرهما من أعيان البيان. أصله من قزوين، وأقام مدة في همدان، ثم انتقل إلى الري فتوفي فيها سنة ٣٩٥ هـ وإليها نسبته. من تصانيفه «مقاييس اللغة - طه» و«المجمل»، و«الصاحبي» في علم العربية، ألفه لخزانة الصاحب بن عباد، و«جامع التأويل» في تفسير القرآن، أربعة مجلدات، و«النيروز»، و«الإنباع والمزاوجة» و«الحماسة المحدثنة» و«الفصيح» و«تمام الفصيح» و«متخير الألفاظ» و«ذم الخطأ في الشعر» و«اللامات» و«أوجز السير لخير البشر» الأعلام ١/١٩٣.

قال أبو زكريا الفراء^(١): «كل ما كان على فَعَلٍ يَفْعُلُ كَدَخَلَ يَدْخُلُ، فَاَلْمَفْعِلُ منه بالفتح إسماءً كان أو مصدرًا، فلا يقع فيه الفرق مثل دَخَلَ مَدْخَلًا. ومن الأسماء ما ألزموها كَشَرِ العين منها: المَشْجِدُ والمَطْلِعُ والمَغْرِبُ والمَشْرِيقُ وغيرها، فجعلوا الكشر علامةً للاسم، وربما فتحه بعض العرب. وقد رُوِيَ المَشْجِدُ المَشْجِدُ والمَطْلِعُ المَطْلِعُ».

قال: «والفتح في كله جائز وإن لم نسمعه».

قال في الصحاح: «والمَشْجِدُ بالفتح جبهة الرجل حيث يصيبه السجود».

وقال أبو خَفْص الصُّقْلِيُّ - بفتحتين - في كتاب تثقيف اللسان «يقال مسجد بفتح الميم، حكاة غير واحد، فتحصلنا فيه على ثلاث لغات».

والمَشْجِدُ بكسر الميم الخفرة بضم الخاء المعجمة وهي الحصير الصغير، قاله العسكري.

وأما عَرَفًا فكل موضع من الأرض لقوله ﷺ: «جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا». قلتُ وسيأتي الكلام على هذا الحديث في الخصائص.

ولما كان السجود أشرف أفعال الصلاة لقرب العبد من ربه اشتق اسم المكان منه، فقيل مَسْجِدٌ، ولم يقولوا مَزْجِعٌ. ثم إن العُرْفَ خَصَّصَ المَسْجِدَ بالمكان المَهَيَّأً للصلوات الخمس حتى يخرج المُصَلِّي المُجْتَمِعَ فيه للأعياد ونحوها، فلا يُعْطَى حُكْمُهُ، وكذلك الرُّبُط والمدارس فإنها هُيئت لغير ذلك.

التاسع: في الكلام على قوله: الحرام.

أبو شامة: أصل الحرام المنع، ومنه البيت الحرام، وفلان حرام أي محرم وهو ضد الحلال، وذلك لما مُنِعَ منه المُخْرِمُ مما يجوز لغيره، ولَمَّا مُنِعَ في الحرم مما يجوز في غيره من البلاد.

الماوردي رحمه الله في كتاب الجزية من حاويه: «كُلُّ مَوْضِعٍ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ المَسْجِدَ الحَرَامَ فالمراد به الحَرَمُ، إلا في قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤] فإنه أراد به الكعبة.

الحافظ رحمه الله تعالى: «لفظ المسجد الحرام في الأصل حقيقة الكعبة فقط، وهو

(١) يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، مولى بني أسد (أو بني منقر) أبو زكرياء، المعروف بالفراء: إمام الكوفيين، وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب. كان يقال: الفراء أمير المؤمنين في النحو. من كُتِبَ «المقصود» والممدود، و «المذكر والمؤنث»، وكتاب «اللغات». واشتهر بالفراء. ولما مات وُجِدَ «كتاب سيبويه» تحت رأسه فقيل: إنه كان يشيع خطأه وَيَتَقَدُّ مخالفته. توفي سنة ٢٠٧ هـ انظر الأعلام ١٤٥/٨، ١٤٦. ووفيات الأعيان ٢/٢٨٨، وغاية النهاية ٣٧١/٢.

المعني بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]، وبقوله ﷺ لما سأله أبو ذر عن أول مسجد وُضِعَ في الأرض فقال: «المسجد الحرام». واستعمله بعد ذلك في المسجد المحيط بالكعبة في قوله: «صلاة في المسجد الحرام بكذا وكذا صلاة»، على وجه التغليب المجازي. وفي قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١] على قول من يقول المراد به مكة، لأنه كان في بيت أم هانئ. وفي دور مكة والحرم حولها في قوله: «ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام». كل ذلك من باب التغليب المُسَوِّغ للمجاز المُتَوَسِّع فيه وإلا لزم الاشتراك في موضع لفظ المسجد الحرام، والمجاز أولى منه، وكيف يقال بالاشتراك؟ والفهم ما تبادر عند الإطلاق إلى الكعبة، أو إليها مع المسجد حولها، ولا يتبادر إلى مكة كلها إلا بقرينة. انتهى مُلَخَّصًا.

العاشر: في الكلام على الأقصى.

البرهان النسفي رحمه الله: «اتفقوا على أن المراد به مسجد بيت المقدس، وسُمِّي بالأقصى لبعده المسافة بينه وبين المسجد الحرام».

الزمخشري رحمه الله: «سُمِّي الأقصى لأنه لم يكن وراءه مسجد».

الكفيل: فثبت له هذا التُّغْت وإن كان وراءه بعد^(١) مساجد هي أقصى منه، لأن العَلَمِيَّة إذا أثبتت لسبب لم يَضُرَّ زَوَالُ السَّبَبِ».

ابن دحية رحمه الله: «وهو مَعْدِنُ الأنبياء من لدن الخليل ﷺ، ولذا جُمِعُوا له هناك كلهم، وأنهم في محلَّتْهم ودارهم، ليدل ذلك على أنه الرئيس المُقَدَّم، والإمام الأعظم ﷺ».

أبو شامة: «هو بيت المقدس الذي عَمَرَهُ نَبِيُّ اللَّهِ سليمان ﷺ بأمر الله عز وجل، وما زال مُكْرَمًا مُخْتَرَمًا، وهو أحد المساجد الثلاثة التي لا تُشَدُّ الرِّحَالُ شرعاً إلا إليها، أي لا تقصد بالزيارة والتعظيم من جهة أمر الشارع إلا هذه الثلاثة. وكان أبعد مسجد عن أهل مكة أو من النبي ﷺ، والأقصى أفعل من القَصِيي والقاصي هو البعيد».

ابن أبي جَمْرَةَ - بفتح الجيم وبالراء - رحمه الله: «والحكمة في إسرائه ﷺ أولاً إلى بيت المقدس، لإظهار الحق على من عاند، لأنه لو عُرج به من مكة إلى السماء، لم يجد لمعاندة الأعداء سبيلاً إلى البيان والإيضاح. فلما ذكر أنه أسرى به إلى بيت المقدس سأله عن أشياء من بيت المقدس كانوا رأوها وعَلِمُوا أنه لم يكن رآها قبل ذلك. فلما أخبرهم بها

(١) في أ: كانت بعد وراءه

حصل التحقق بصدقه فيما ذكر من الإسراء به إلى بيت المقدس في ليلة. وإذا صَحَّ خَبْرُهُ فِي ذَلِكَ لَزِمَ تَصَدِيقَهُ فِي بَقِيَّةِ مَا ذُكِرَ. انتهى.

وقيل: ليحصل له العروج مستويًا من غير تعويجٍ لِمَا رُوِيَ عَنْ كَعْبِ بْنِ جَرَّاحٍ أَنَّ بَابَ السَّمَاءِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ مَضْعَدُ الْمَلَائِكَةِ يُقَابِلُ بَابَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قَالَ: وَهُوَ أَقْرَبُ الْأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ بِثَمَانِيَةِ عَشْرٍ مِيلاً.

الحافظ: «وفيه نظر. وقيل ليجمع بين القِبْلَتَيْنِ، لأن بيت المقدس كان هجرة غالب الأنبياء فحصل له الرحيل إليه في الجملة ليجمع بين أسباب الفضائل. وقيل لأنه محل الحشر، فأراد الله تعالى أن تطأه قَدَمُهُ لِيَسْهَلَ عَلَى أُمَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقَوْفَهُمْ بِبِرْكَاتِهِ. وقيل أراد الله سبحانه وتعالى أن يزيه القبلة التي صلى إليها مدة، كما عُرفَت الكعبة التي صلى إليها. وقيل لأنه مجمع أرواح الأنبياء فأراد الله تعالى أن يُشْرِفَهُمْ بِزِيَارَتِهِ ﷺ. وقيل لتفاؤل حصول التقدير له جساً ومعنى.

ابن دحية: «ويحتمل أن يكون الحق سبحانه وتعالى أراد ألا يُخْلِي تربةً فاضلةً من مشهده وَوَطْءٍ قَدَمَيْهِ، فَتَمَّ تَقْدِيسَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ بِصَلَاةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ فِيهِ. فلما تم تقديسه به، أخبر ﷺ أنه: لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لِأَنَّهُ مَوْلَدُهُ وَمَسْقَطُ رَأْسِهِ وَمَوْضِعُ نُبُوتِهِ، وَمَسْجِدِ الْمَدِينَةِ، لِأَنَّهُ مَحَلُّ هِجْرَتِهِ وَأَرْضُ تَرْبَتِهِ، وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، لِأَنَّهُ مَوْضِعُ مَعْرَاجِهِ ﷺ».

رموز الكنوز: «فإن قيل الإسراء والمعراج كانا في ليلة واحدة، فهلاً أخبرهم تعالى بعروجه إلى السماء؟ قلت: استدرجهم إلى الإيمان بذكر الإسراء أولاً، فلما ظهرت أمارات صدقه، وضحت لهم براهين رسالته، واستأنسوا بتلك الآية الخارقة، أخبرهم بما هو أعظم منها وهو المعراج، فحدثهم النبي ﷺ، وأنزل الله تعالى سورة النجم».

الإمام الرازي والبرهان: «اعلم أن كلمة «إلى» لانتهاى الغاية فمدلول قوله تعالى: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ أنه وصل إلى ذلك المسجد، ولا دلالة في اللفظ على أنه دخل».

قلت: قال المحققون: إذا كانت «إلى» لانتهاى الغاية، فإن دلت قرينة على دخول ما بعدها عمل بها، نحو قرأت القرآن من أوله إلى آخره. فالقرينة هنا ذكر الآخر وجعله غاية. وقيل القرينة هي كون الكلام مسبوقة لحفظ القرآن كله، وذلك منافٍ لخروج الغاية، فتعين دخولها، أو دلت القرينة على خروج ما بعدها عمل بها نحو: ﴿أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: 187]. والقرينة في آية الإسراء العلم لا يُسْرَى بِهِ إِلَى الْبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَلَا يَدْخُلُهُ وَصَرَّحَتْ الشُّنَّةُ الصَّحِيحَةُ بِمَا اقْتَضَتْهُ الْقَرِينَةُ مِنْ دَخُولِهِ ﷺ بَيْتَ الْمَقْدِسِ.

الحادي عشر: معنى قوله: ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾:

الراغب رحمه الله: «الْبَرَكَهُ ثُبُوتُ الْخَيْرِ الْإِلَهِيِّ فِي الشَّيْءِ، وَالْمُبَارَكُ مَا فِيهِ ذَلِكَ الْخَيْرُ».

المصباح: «البركة الزيادة والنماء، وبَارَكَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ فَهُوَ مُبَارَكٌ، وَالْأَصْلُ مُبَارَكٌ فِيهِ». الأنموذج: فإن قيل: كيف قال: ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾، ولم يُقَلِّ بِارَكْنَا عَلَيْهِ أَوْ فِيهِ، مع أن البركة في المسجد تكون أكثر من خارج المسجد وحوله، خصوصاً المسجد الأقصى؟ قلنا أراد البركة الدنيوية كالأنهار الجارية والأشجار المثمرة، وذلك حوله لا فيه. وقيل أراد البركة الدينية فإنه مقر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومُتَعَبِّدُهُمْ وَمَهْبِطُ الْوَحْيِ وَالْمَلَائِكَةِ. وإنما قال: ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾، لتكون بركته أعم وأشمل، فإنه أراد بما حوله ما أحاط به من أرض الشام وما قاربه منها، وذلك أوسع من مقدار بيت المقدس، ولأنه إذا كان هو الأصل، وقد بَارَكَ فِي لُوحِاقِهِ وَتَوَابِعِهِ مِنَ الْبِقَاعِ كَانَ هُوَ مُبَارَكًا فِيهِ بِالطَّرِيقِ الْأُولَى بِخِلَافِ الْعَكْسِ. وقيل أراد بالبركة: الدينية والدنيوية وَوَجْهُهُمَا مَا مَرَّ.

وقيل المراد: باركنا ما حوله من بَرَكَهٍ نَشَأَتْ مِنْهُ، فَعَمَّتْ جَمِيعَ الْأَرْضِ، لِأَنَّ مِيَاهَ الْأَرْضِ كُلَّهَا أَصْلُ انْفِجَارِهَا مِنْ تَحْتِ صَخْرَةِ بَيْتِ الْمَقْدَسِ». انتهى.

الكفيل: «فإن قيل إذا كانت البركة حول المسجد الأقصى فماذا يتميز عليه المسجد الحرام؟ قلت: البركة حول المسجد الأقصى باعتبار الدنيا ورفاهيتها وخصبها، والبركة حول المسجد الحرام باعتبار الدين والفضل وتضعيف الحسنات فيه للطائفين والعاكفين والمتوطنين والوافدين، لأن الأجر يكون على قدر النصب، وهو واد غير ذي زرع، نَزَّهَهُ اللهُ عَنْ خِصْبِ الدُّنْيَا وَسَعْتِهَا، لِئَلَّا يَكُونَ الْقَصْدُ إِلَيْهِ مَمْرُوجًا بِقِصْدِ الدُّنْيَا، فَهَذِهِ الْبَرَكَهُ الدِّينِيَّةُ أَفْضَلُ مِنْ تِلْكَ الْبَرَكَهَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ». انتهى.

«وحوله» منصوب على الظرف أي أوقعنا البركة حوله، وقيل تقديره: بَارَكْنَا مَا حَوْلَهُ. أبو عبيد الهزوي رحمه الله تعالى: «رَأَيْتُ النَّاسَ حَوْلَهُ وَحَوَالِيَهُ وَحَوَالَهُ وَيُجْمَعُ أَحْوَالًا». الراغب: حَوْلَ الشَّيْءِ جَانِبُهُ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يَتَحَوَّلَ إِلَيْهِ وَالضَّمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى».

الثاني عشر: في الكلام على قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾.

السِّمِينِ وَابْنِ عَادِلٍ^(١): «قَرَأَ الْعَامَّةُ بَنُونَ الْعِظْمَةِ، جَزِيًّا عَلَى «بَارَكْنَا»، وَفِيهِ التَّفَاتُ مِنْ

(١) عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي، أبو حفص، سراج الدين: صاحب التفسير الكبير «اللباب في علوم الكتاب» توفي سنة ٨٨٠. انظر الأعلام ٥/٥٨٠.

الغيبية في قوله: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ إلى التكلم في «باركنا» و«لثريته»، وقرأ الحسن «لثريته» بالمشناة التحتية أي الله تعالى.

وعلى هذه القراءة في الآية أربع التفاتات، لأنه التفت أولاً من الغيبة في «أَسْرَى» إلى التكلم في «باركنا». ثم التفت ثانياً من التكلم في «باركنا» إلى الغيبة. «لثريته». ثم التفت ثالثاً إلى التكلم في «آياتنا». ثم التفت رابعاً إلى الغيبة في ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. الزمخشري: «وطريقة الالتفات من طرق البلاغة.

الطبيبي: «وذكر أن قوله: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ» يدل على مشراه من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، فهو بالغيب أنسب. وقوله: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ دال على إنزال البركات وتعظيم شأن المنزل، فهو بالحكاية على التفضيم أخرى. وقوله: «لثريته» بالياء إعادة إلى مقام السر والغيوبة من هذا العالم، فالغيوبة بهما ألتق. وقوله: «مِن آيَاتِنَا» عوّد إلى التعظيم على ما سبق وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ إشارة إلى مقام اختصاصه بالمنح والزلفى وغيبة شهوده في عين «بي يسمع وبي يُبصر» فالعود إلى الغيبة أولى» انتهى.

ومعنى الرؤية هو ما أرى تلك الليلة من العجائب والآيات الدالة على قدرة الله تعالى ومنها ما ذكره في القصة.

أبو شامة: «مِن» هنا للتبعيض، وإنما أتى بها هنا تعظيماً لآيات الله، فإن هذا الذي رآه محمد ﷺ وإن كان جليلاً عظيماً فهو بعض بالنسبة إلى جملة آيات الله وعجائب قدرته وجيل حكمته. والآية العلامة الظاهرة على ما يلازمها، فمن علم ملازمة العلم للطريق المنهاج، ثم وجد العلم على أنه وجد الطريق، وكذا إذا وجد شيئاً مصنوعاً، فإنه يعلم أنه لا بُدَّ له من صانع، فأية الشيء علامته الظاهرة، ثم غلب ذلك على صدق الرسل، وعلى الإلهية وكرامات الأولياء وما أشبه ذلك».

البرهان النسفي: «فإن قيل الآية تدل على أنه تبارك وتعالى ما أراه إلا بعض الآيات وقال في حق إبراهيم ﷺ ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الانعام: ٧٥]، يدل على أنه تعالى أراه جميع الآيات، فيلزم أن يكون معراج إبراهيم أفضل من معراج محمد ﷺ، فنقول: ملكوت السموات والارض بعض آيات الله أيضاً بعضاً مخصوصاً، والبعض المطلق أفضل من البعض المخصوص، إذ المطلق يُضَرَفُ إلى الكامل. والجواب المشهور عنه هو أن بعض آيات الله أفضل من ملكوت السموات والارض. انتهى.

الثالث عشر: في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

السمين: «الصحيح أن الضمير في «إنه» لله تبارك وتعالى».

الطبيبي: «ولا يعد أن يرجع الضمير إلى العبد، كما نقله أبو البقاء عن بعضهم، قال: «إنه

السميع، لكلامنا، «البصير» لذاتنا. وأما تَوْسُطُ ضمير الفعل فللإشعار باختصاصه بهذه الكرامة وَخَدَّةً، ولعل السَّرَّ في مجيء الضمير مُخْتَمِلاً للأمرين الإشارة إلى المطلوب وأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما رأى رب العِزَّة وسمع كلامه به.

الماوردي: «في الحكمة بالإتيان بالسميع والبصير هنا وجهان: أحدهما: أنه تعالى وصف نفسه بهما، وإن كانا من صفاته اللازمة لذاته في الأحوال كلها، لأنه حَفِظَ لرسوله عند الإسراء به في ظلمة الليل، فلم يَضُرَّهُ أَلَّا يُبْصِرَ فيها، وسمع كلامه دُعَاءَهُ فَأَجَابَهُ إلى ما سأل. الثاني: أن قومه لما كَذَّبُوهُ حين أخبرهم بِإِسْرَائِهِ، فقال: السميع، يعني لما يقولونه من تصديق أو تكذيب. البصير، فيما يفعله من الإسراء والمعراج.

الزمخشري: «إنه هو السميع» لأقوال محمد، «البصير» بأفعاله، العالم بتَهْدِئِهَا وِخْلُوصِهَا فَيُكْرِمُهُ وَيُقَرِّبُهُ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ.

ولم يَتَّقَبْ ذَلِكَ الطيبي ولا الشُّكُونِي - بالفتح والضم - في التمييز مع مبالغته في التنكيب^(١) والاعتراض عليه. وقال صاحب الكفيل: «ذَكَرَ صِفَتِي السَّمْعَ وَالْبَصَرَ تَنْبِيْهُاً عَلَى أَنَّهُ عَلِمَ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ وَكِرَامَاتِهِ، وَالْبَصِيرَ بِآيَاتِهِ، وَكَمَا أَنَّهُ أَعْلَمَ فَهُوَ أَسْمَعُ وَأَبْصُرُ. وَالْمُرَادُ أَنَّهُ السَّمِيعُ لِمَنْ صَدَّقَ بِالْإِسْرَاءِ الْبَصِيرَ بِمَنْ كَذَّبَ بِهِ»، ثم ذكر كلام الزمخشري السابق، ثم قال: «وفي كلامه هذا إيماء إلى القول بإيجاب الجزاء وتلويح إلى اعتقاده أن فضائل النبوة مكتسبة، فاحذر هذه العقيدة. انتهى.

الغزالي رحمه الله: المقصد الأسنى: «السميع هو الذي لا يعزب عن إدراكه مسموع وإن خَفِيَ، فيسمع السَّرَّ والنجوى، بل ما هو أدق وأخفى، ويدرك دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصُّمَاءِ، يسمع بغير أَصْمِخَةٍ وَأَذَانٍ، وَسَمْعُهُ مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يَتَطَرَّقَ إِلَيْهِ الْخَدَثَانِ. وَمَهْمَا نَزَّهَتْ السَّمْعُ عَنْ تَغْيِيرِ الْمَسْمُوعَاتِ وَقَدَّسَتْهُ عَنْ أَنْ يَسْمَعَ بِأُذُنٍ وَآلَةٍ عَلِمَتْ أَنَّ السَّمْعَ فِي حَقِّهِ عِبَارَةٌ عَنْ صِفَةٍ يَنْكَشِفُ بِهَا كِمَالُ صِفَاتِ الْمَسْمُوعَاتِ. وَمَنْ لَمْ يَدَقِّقْ نَظْرَهُ فِيهِ وَقَعَ بِالضَّرُورَةِ فِي بَحْرِ التَّشْبِيهِ فَخُذْ جِذْرَكَ وَدَقِّقْ فِيهِ نَظْرَكَ».

وقال أيضاً: «البصير هو الذي يُشَاهِدُ وَيَرَى ولا يعزب عنه ما تحت الثرى، وإبصاره مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يَكُونَ بِخَدَقَةٍ وَأَجْفَانٍ، مُقَدَّسٌ عَنْ أَنْ يَرْجِعَ عَنْ انطباع الصور والألوان في ذاته تعالى، كما تنطبع في خدقة الإنسان، وإن ذلك من التغير والتأثير المقتضى للحدَثَانِ. وإذا نُزَّهَ عَنْ ذَلِكَ كَانَ الْبَصَرُ فِي حَقِّهِ عِبَارَةٌ عَنْ الصِّفَةِ الَّتِي يَنْكَشِفُ بِهَا كِمَالُ نَعْوَتِ الْمَصْنُوعَاتِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ».

(١) التنكيب: التثنية. انظر المعجم الوسيط ٩٥٨/٢.

الباب الثاني

في تفسير أول سورة النجم

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ. وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ. وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ. ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ. فَأُوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أُوْحَىٰ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ. أَفَتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ. وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ. عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ. إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ. مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ. لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١: ١٨].

الكلام على هذه الآيات من وجوه: الأول: في سبب نزولها.

النهر: «سببه قول المشركين إن محمداً يخلق القرآن».

الثاني: في مناسبة هذه السورة لما قبلها:

قال الإمام الرازي والبرهان النسفي رحمهما الله، قد قيل: إن الشور التي تقدمت وهي التي أقسم الله تعالى فيها بالأسماء دون الحروف: الصافات والذاريات والطور وهذه السورة بعدها، فالقسم في الأولى لإثبات الوجدانية، كما قال: ﴿إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات: ٤]. وفي الثانية لوقوع الحشر والجزاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ. وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات: ٥، ٦]. وفي الثالثة لدوام العذاب بعد وقوعه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧، ٨]. وفي هذه السورة لبيان النبوة كما قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] إلخ. لتكمل الأصول الثلاثة: الوجدانية والحشر والنبوة.

والوجه الآخر في المناسبة لما قبلها هو أن الكفرة بالغوا في المكابرة والمعاندة في حق النبي ﷺ، وطعنوا فيما نطق به من الكلام، كما مر بيانه في تلك السورة، فقال في هذه ما يدل على صدقه في دعواه، ويصدق ما نطق به وأجراه مؤكداً بالقسم.

وأما مناسبة أول هذه السورة إلى آخر ما قبلها فمن وجوه: أحدها: أن اختتام تلك السورة بالنجم وافتتاح هذه السورة بالنجم مع القسم. ثانيها: أنه تعالى أمر رسول الله ﷺ بالصبر في آخر تلك السورة، كما قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨] والصبر أمر صعب، فذكر في أول هذه السورة ما يدل على علو منزلته وعظم شأنه ليسهل عليه ذلك الأمر.

ثالثها: لما قال لنبيه ﷺ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبَّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩] بين له أنه جزاء بخير، فقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢] وزاد الشيخ رحمه الله

تعالى، في مناسبتة وجهاً آخر، وهو أن [سورة] الطور فيها ذكر ذرية المؤمنين وأنهم تبع لآبائهم، وهذه فيها ذكر ذرية اليهود في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

فقد روى ابن المُنْذِرِ وابن جَبَّان عن ثابت بن الحرث الأنصاري قال: «كانت اليهود تقول إذا هلك لهم صبي صغير هو صديق، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «كَذَبَتْ يَهُودٌ، مَا مِنْ نَسْمَةٍ يَخْلُقُهَا اللَّهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ إِلَّا أَنَّهُ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ الآية. ولما قال الله تعالى هناك في المؤمنين: ﴿الْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَأَهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] أي ما نقصنا الآباء مما أعطينا البنين مع نفعهم بعمل آبائهم، قال هناك في الكفار أو في الكبار: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩]، خلاف ما ذكر في المؤمنين الصغار». انتهى.

أبو حَيَّان رحمه الله: «هذه السورة مكية، ومناسبتها لآخر ما قبلها ظاهر، لأنه تعالى قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ [الطور: ٣٣] أي اختلق القرآن، ونسبوه إلى الشعر، وقالوا هو كاهن، هو مجنون، فأقسم تعالى أنه ﷺ ما ضل، وأن ما أتى به هو الوحي من الله. وهي أول سورة أعلن رسول الله ﷺ بقراءتها في الحرم، والمشركون يسمعون، وفيها سجد وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإنس غير أبي لهب فإنه رفع حفنة من تراب إلى جبهته وقال يكفي هذا». قلت: ذكر أبي لهب هنا غريب.

روى الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود قال: أول سورة نزلت فيها سجدة، النجم، فسجد رسول الله ﷺ، وسجد الناس كلهم إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فرأيته قتيلاً كافراً وهو أمية بن خلف. وروى ابن مردويه وابن خلف عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ سجد في النجم وسجد من حضر من الجن والإنس والشجر، زاد ابن أبي شيبة إلا رجلين من قريش أرادا بذلك الشهرة، وسمى أحد الرجلين المُبْهَمِينَ في الرواية السابقة، والثاني الوليد بن المغيرة كما عند ابن سعد. وروى البخاري عن ابن عباس قال: سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس.

الثالث: في الكلام على القسم الواقع هنا.

الشيخ رحمه الله تعالى في الإتيان: [وقد قيل ما معنى القسم منه تعالى؟ فإنه إن كان لأجل المؤمن] فالمؤمن يُصَدِّقُ بمجرد الإخبار من غير قسم، وإن كان لأجل الكافر فلا يفيد، وأجيب بأن القرآن نزل بلغة العرب، ومن عاداتها القسم إذا أرادت أن تؤكد أمراً.

وأجاب الأستاذ - بضم الهمزة وبالذال المعجمة - أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى

بأن الله ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدهما وذلك أن الحَكَمَ يفصل باثنين إما بالشهادة وإما بالقسم، فذكر تعالى في كتابه النوعين حتى لا يبقى لهم حُجَّةٌ فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨] وقال: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣] وعن بعض الأعراب أنه لما سمع قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] ﴿فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣]، صاح وقال: من ذا الذي أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين؟ ولا يكون القسم إلا باسم مُعْظَمٍ، وقد أقسم الله تعالى بنفسه، في القرآن في سبعة مواضع، بقوله: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي﴾ [يونس: ٥٣]، ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَخْشُرَنَّهِنَّ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم: ٦٨]، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٢٩٢]، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النساء: ٦٥]، ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، والباقي كله قسم بمخلوقاته. فإن قيل: كيف أقسم بالخلق وقد ورد النهي عن القسم بغير الله تعالى؟ قلنا أُجِيبَ عنه بأوجه: الأول أنه على حذف مضاف أي ورب النجم. وكذا الباقي. الثاني: أن العرب كانت تُعْظَمُ هذه الأشياء وتُقْسِمُ بها فنزل القرآن على ما يعرفونه. الثالث: أن الأقسام إنما تكون بما يُعْظَمُ المُقْسِمُ ويُجِلُّهُ وهو فوقه. والله سبحانه وتعالى ليس فوقه شيء، فأقسم تارة بنفسه وتارة بموضوعاته لأنها تدل على باديء وصانع.

ابن أبي الإصبع^(١) رحمه الله تعالى في كتابه أسرار الفوائح: «القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل.

وروى ابن حاتم عن الحسن قال: «إن الله تعالى يُقْسِمُ بما شاء من خلقه وليس لأحد أن يُقْسِمَ إلا بالله تعالى.. والقسم إما ظاهر وإما مُضْمَرٌ وهو قسمان: قسمٌ دَلَّتْ عليه اللام نحو ﴿لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٦] وقسمٌ دَلَّ عليه المعنى نحو: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] تقديره: والله... وأكثر الأقسام في القرآن المحذوفة الفاعل لا تكون إلا بالواو، فإذا ذُكِرَتِ الباءُ أُتِيَ بالفِعْلُ كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٠٩] ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ [النساء: ٦٢] ولا تجد الباء مع حذف الفاعل، ومن ثم أخطأ من جعل قسماً

(١) مُحَرِّثُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ مُحَرِّثِ بْنِ ثَعْلَبَةَ، مِنْ عَدَوَانَ، يَنْتَهِي نَسَبُهُ إِلَى مُضَرَ: شَاعِرٌ حَكِيمٌ شَجَاعٌ جَاهِلِيٌّ. لَقِبَ بِذِي الْإِصْبَعِ لِأَنَّ حَيَّةَ نَهَشَتْ إِصْبَعَ رِجْلِهِ فَقَطَعَهَا، وَيُقَالُ: كَانَتْ لَهُ إِصْبَعٌ زَائِدَةٌ. وَعَاشَ طَوِيلًا حَتَّى عَدَّ فِي الْمَعْمَرِينَ. لَهُ حُرُوبٌ وَوَقَائِعٌ وَأَخْبَارٌ. وَشِعْرُهُ مَلِيٌّ بِالْحِكْمَةِ وَالْعِظَّةِ وَالْفَخْرِ، قَلِيلُ الْفُزْلِ وَالْمَدِيحِ، وَهُوَ صَاحِبُ الْقَصِيدَةِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي يَقُولُ فِي أُولَاهَا:

«أَسِيدُ إِنْ مَالًا مَلَكَتْ لِمَنْ بِهِ سِيرًا جَمِيلًا»

انظر الأعلام ١٧٣/٢ .

بالله: ﴿إِنَّ الشُّرَكَاءَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤].
﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾
[المائدة: ١١٦].

ابن القيم: «اعلم أن الله سبحانه وتعالى يُقسِمُ بأُمُورٍ على أُمُورٍ وإنما يُقسِمُ بنفسه المَوْصُوفَةَ بصفاته وآياته المستلزمة لذاته وصفاته. وأقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته، فالقسَمُ إما على جملة خبرية وهو الغالب كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣] وإما على جملة طلبية كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلُنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، مع أن هذا القَسَمَ قد يُراد به تحقيق المُقسَمِ عليه، فيكون من باب الخَبَرِ، وقد يُراد به تحقيق القَسَمِ فالمُقسَمِ عليه يُراد بالقَسَمِ توكيده وتحقيقه، فلا بُدَّ أن يكون مما يَحْسُنُ فيه ذلك كالأُمُور الغائبة والخفية إذا أُقسِمَ على ثبوتها فأما الأُمُور المشهورة الظاهرة كالشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض، فهذه يُقسَمُ بها ولا يُقسَمُ عليها. وأما ما أُقسَمَ عليه الرَّبُّ فهو من آياته، فيجوز أن يكون مُقسِماً به ولا ينعكس».

الإمام الرازي رحمه الله تعالى: «أقسم تعالى في بعض السور بمجموع كقوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾، وفي بعضها بإفراد كقوله ﴿وَالطُّورِ﴾، ولم يقل والأطوار والبحار، والكلمة فيه أن أكثر الجموع أقسم عليها بالمتحركات. والريح الواحدة ليست بثابتة مستمرة حيث يقع القسم عليها، بل هي مُتَبَدِّلَةٌ بأفرادها، مستمرة بأنواعها، والمقصود منها لا يحصل إلا بالتبدل والتغير، فقال: ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ إشارة إلى النوع المستمر لا إلى الفرد غير المستقر. وأما الجبل فهو ثابت غير متغير عادة، فالواحد من الجبال قائم زماناً ودهراً فأقسم في ذلك بالواحد. وكذلك قوله: ﴿وَالنَّجْمِ﴾، ولو قال: والريح، لَمَا عَلِمَ المُقسَمُ به وفي الطور عَلِمَ. والسور التي افتتحتها القَسَمُ بالأسماء دون الحروف، كان القَسَمُ فيها لإثبات أحد الأصول الثلاثة وهي: الوجدانية والرسالة والحشر وهي التي يتم بها الإيمان.

ثم إنه تعالى لم يُقسِمَ لإثبات الوجدانية إلا في سورة واحدة من تلك السور وهي: «الصافات»، حيث قال تعالى فيها: ﴿إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات: ٤]، وذلك لأنهم وإن كانوا يقولون: أَجْعَلَ الآلهة إلهاً واحداً، على سبيل الإنكار فقد كانوا يبالغون في الشرك، لكنهم في تضاعيف أقوالهم وتصاريف أحوالهم كانوا يُصرِّحون بالتوحيد، وكانوا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَشَخَرَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١].

فلم يبالغوا في الحقيقة والإنكار المطلوب الأول، فاكتفى بالبرهان ولم يُكثِر من

الأيمان في سورتين منها أقسم لإثبات صدق رسول الله ﷺ، وكونه رسولا في إحداهما بأمر، وهو قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿ [النجم: ١، ٢]. وفي الثانية بأمرين وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿ [الضحى: ١، ٢، ٣] وذلك لأن القسم على إثبات رسالته قد كثر بالحروف والقرآن العظيم، كما في قوله تعالى: ﴿يَس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾، إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿ [يس: ١، ٢، ٣]. وقد ذكرنا الحكم فيه أن من معجزات النبي ﷺ القرآن، فأقسم به ليكون في القسم إشارة واقعة إلى البرهان. وفي باقي السور كان المقسم عليه الحشر والجزاء، وما يتعلق به يكون إنكارهم في ذلك خارجا عن الحد، وعدم استيفاء ذلك في سور القسم بالحروف. وأقسم تعالى بمجموع السلامة المؤنثة في خمس سور، ولم يُقسم بمجموع السلامة المذكورة في سورة أصلاً. فقال ﴿وَالصَّافَاتِ﴾ [الصافات: ١٠]، ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ [الذاريات: ١]، ولم يقل ﴿والصالحين من عبادي﴾، ولا المقربين، إلى غير ذلك، مع أن الذكور أشرف وذلك لأن المجموع بالواو والنون في الأمر الغالب، لمن يعقل..

وقد ذكرنا أن القسم بهذه الأشياء ليس لبيان التوحيد إلا في صورة ظَهَرَ الأمر فيه، وحصل الاعتراف منهم، ولا للرسالة لحصول ذلك في سورة القسم بالحروف والقرآن، بقي أن يكون المقصود إثبات الحشر والجزاء، لكن إثبات الحشر لثواب الصالح وعقاب الطالح، ففائدة ذلك راجعة إلى من يعقل فيلزم أن يكون القسم بغيرهم. والشور التي أقسم فيها لإثبات الوجدانية أقسم في أول الأمر بالساكنات حيث قال: ﴿وَالصَّافَاتِ﴾ وفي السور الأربع الباقية أقسم بالمتحركات فقال: ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾، ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ [المرسلات: ١]، ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ [النازعات: ١]، ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾، وذلك لأن الحشر فيه جمع وتفريق، وذلك بالحركة ألتق. وفي السور الأربع أقسم بالرياح على ما بين، وهي التي تجمع وتفرق، فالقادر على تأليف السحاب المتفرق بالرياح الذارية والمرسلة قَادِرٌ على تأليف الأجزاء المتفرقة بطريق من الطرق التي يختارها بمشيئته تبارك وتعالى.

وقال الإمام أيضاً في موضع آخر: «اعلم أنه تعالى لم يُقسم على الوجدانية ولا على النبوة كثيراً، لأنه أقسم على الوجدانية في سورة الصافات، وأما النبوة فأقسم عليها بأمر واحد في هذه السورة، وبأمرين في سورة «الضحى»، وأكثر من القسم على الحشر وما يتعلق به. فإن قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١] وقوله: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١] وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]، إلى غير ذلك، كلها في الحشر وما يتعلق به، وذلك لأن دلائل الوجدانية كثيرة، كلها عقلية كما قيل:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَّهُ آيَةٌ تَذُلُّ عَلَيَّ أَنَّهُ وَاحِدٌ^(١)

ودلائل النبوة أيضاً كثيرة، وهي المعجزات المشهورة المتواترة، وأما الحشر فإمكانه يثبت بالعقل، وهذا أظهر، وأما وقوعه فلا يمكن إثباته إلا بالسمع، فأكثر فيه القَسَم ليقطع به المُكَلَّف ويعتقده اعتقاداً جازماً.

الرابع: في الكلام على النَّجْم [النجم: ١]:

صاحب القاموس: «في المطلع النَّجْم الكوكب الطالع والجمع أَنجُم وَأَنْجَام ونُجُوم ونُجْم، والنَّجْم أيضاً الثَّرِيَّا، والنَّجْم من النبات ما نَجَمَ على غير ساق، والنَّجْم الوقت المضروب».

اللباب لابن عادل: «سُمِّي الكوكب نَجْمًا لطلوعه، وكلُّ طالع نَجْمًا»، يقال: نَجَمَ السُّنُّ والقَرْنُ والنَّبْتُ إذا طَلَع، زاد القرطبي: «ونَجَمَ فلان بيلد كذا أي خرج على السلطان».

ابن القيم: «اختلف الناس في المراد بالنَّجْم، فقال الكلبي عن ابن عباس: أقَسَمَ بالقرآن إذ أنزل نجوماً على رسول الله ﷺ: أربع آيات وثلاث آيات والسورة، وكان بين أوله وآخره عشرون سنة، وكذلك روى عطاء عنه، وهو قول مقاتل والضحاك ومجاهد، واختاره الفراء».

والهُيَوِيُّ على هذا القول النزول من أعلى إلى أسفل، وعلى هذا سُمِّي القرآن نجماً لتفرقه في النزول. والعرب تسمي التفرق تَنَجُّمًا والمتفرق مُتَنَجِّمًا. ونُجُوم الكتابة أقساطها، وتقول جعلتُ مالي على فلان نجوماً مُنَجِّمةً، كل نجم كذا وكذا. وأصل هذا أن العرب كانت تجعل مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت لحلول ديونها وأجالها، فيقولون: إذا طلع النجم - يريدون الثَّرِيَّا - حلَّ عليك كذا، ثم يُجِعل كل نجم تفریقاً وإن لم يكن مُوقَّتاً بطلوع نَجْم.

قال الإمام الرازي: «ففي هذا القَسَم استدلال بمعجزات النبي ﷺ على صدقه، وهو كقوله تعالى: ﴿يَس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ١، ٢، ٣] وقال ابن عباس في رواية علي بن أبي طلحة وعطية: يعني الثَّرِيَّا إذا سقطت وغابت، وهُوِيُّها مغيبها، وهو الرواية الأخرى عن مجاهد، والعرب إذا أطلقت النَّجْم تعني به الثريا، قال الشاعر:

إِذَا طَلَعَ النَّجْمُ عِشَاءً ابْتَنَفَسَ الرَّاعِي كِسَاءً^(٢)

وفي الحديث: «ما طلع نَجْم قط وفي الأرض من العاهة شيء إلا ارتفع»، رواه الإمام

(١) البيت لأبي العافية وقوله

فيا عجا كيف يمضى الإله أم كيف يجعده الجاهد
ولله في كل بحر بابسة وفي كل نسكية شاهد

انظر الديوان. دار الكتب العلمية ص ٦٢.

(٢) البيت في الكشاف ٢٧/٤.

أحمد، وأراد بالنجم الثريا. وهذا القول اختاره ابن جرير والزمخشري. وقال السمين إنه الصحيح، لأن هذا صار علماً بالغلبة، وقال عمر بن أبي ربيعة:

أَحْسَنُ النُّجْمِ فِي السَّمَاءِ الثُّرَيَّا وَالثُّرَيَّا فِي الْأَرْضِ زَيْنُ النِّسَاءِ

قال الإمام الرازي: «ومناسبة هذا القول إن الثريا أظهر النجوم عند الرازي لأن له علامة لا تلبس بغيره في السماء ويظهر لكل أحد. والنبى ﷺ يتميز عن الكل بآيات بينات، فأقسم به، ولأن الثريا إذا ظهرت من المشرق بالبلد حان إدراك الثمار، وإذا ظهرت بالشتاء أو الخريف تقل الأمراض. والنبى ﷺ إذا ظهر، قل الشك والأمراض القلبية وأدركت الثمار الحكيم».

وقال أبو حمزة، بالحاء المهملة والزاي، «والشمالي - بضم المثناة وتخفيف الميم وباللام: يعنى النجوم إذا انثرت يوم القيامة. وقيل أراد به الشقرى. وقال السدي والثوري:

«أراد به الزهرة». وقال الأخفش: «أراد به الثبت الذي لا ساق له، ومنه قوله تعالى:

﴿وَالنُّجْمِ وَالشَّجَرِ يَسْجُدَان﴾ [الرحمن: ٦] وهويته سقوطه.

قال الإمام الرازي: «لأن الثبات به نبات القوى الجسمانية وصلاحتها، والقوة العقلية أولى بالإصلاح، وذلك بالرسل، وإصلاح الشبل، ومن هذا يظهر أن المختار هو النجوم التي في السماء لأنها أظهر عند السامع. وقوله تعالى: ﴿إِذَا هَوَى﴾ أدل عليه، ثم بعد ذلك القرآن لما فيه من الظهور، ثم الثريا.

وقال جعفر بن محمد - رضي الله عنهما -، كما نقله القاضي: «أراد به النبي - ﷺ - إذ نزل ليلة المعراج والهوي النزول».

صاحب السراج: «ويعجبني هذا التفسير لملاءمته من وجوه، فإنه ﷺ نجم هداية، خصوصاً لما هُدي إليه من فرض الصلاة تلك الليلة، وقد علمت منزلة الصلاة من الدين، ومنها أنه أضاء في السماء والأرض. ومنها التشبيه بسرعة السير، ومنها أنه كان ليلاً، وهو وقت ظهور النجم، فهو لا يخفى على ذي بصر وأما أرباب البصائر فلا يمترون كأبي بكر الصديق - رضي الله عنه - انتهى».

وقال مجاهد في رواية عنه: «نجوم السماء كلها». وجزم أبو عبيدة وقال: ذهب إلى لفظ الواحد بمعنى الجمع، قال الشاعر:

فبانت تَعْدُ النُّجْمَ فِي مُسْتَجِيرَةٍ^(١)

أي تعد النجوم. قال ابن جرير: «وهذا القول له وجه، ولكن لا أعلم أحداً من أهل التأويل قاله». انتهى.

(١) هذا شطر بيت للراعي النهمري. انظر الكشاف ٢٧/٤.

قلت: قد تقدم نقله عن مجاهد، ونقله الماوردي عن الحسن أيضاً. وقال الإمام الرازي: «ومناسبة ذلك أن النجوم يُهْتَدَى بها فأقسم بها لما بينهما من المشابهة والمناسبة».

وقال ابن عباس في رواية عكرمة: أراد النبي تَزْمَى بها الشياطين إذا سقطت في آثارها عند استراق السمع. وهذا قول أبي الحسن الماوردي. وسببه أن الله تعالى لما أراد بَعَثَ محمد ﷺ وسلم رسولا، كَثُرَ انقضاض الكواكب قبل مولده، فدُعِرَ أكثر العرب منها وفزعوا إلى كاهن، كان يُخبرهم بالحوادث، فسألوه عنها فقال: انظروا إلى البروج الاثني عشر فإن انقَضَ منها شيء فهو ذهاب الدنيا، وإن لم ينقَضْ منها شيء فسيحدث في الدنيا أمرٌ عظيم، فاستشعروا ذلك، فلما بُعِثَ النبي ﷺ كان هو الأمر العظيم الذي استشعروه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾، هوى لهذه النبوة التي حدثت.

الإمام الرازي: «إن الرجوم تبعد الشياطين عن أهل السماء والأنبياء يعدون الشياطين عن أهل الأرض».

ابن القيم: «وهذه الراوية عن ابن عباس أظهر الأقوال، ويكون الحق سبحانه وتعالى قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المُشَاهِدَةَ التي نصبها آية وحفظاً للوحي من استراق الشياطين له، على أن ما أتى به رسوله حَقٌّ وصدق لا سبيل للشياطين ولا طريق لهم إليه، بل قد حرس بالنجم إذا هوى رسداً بين يدي الوحي وحرساً له، وعلى هذا فالارتباط بين المُقَسِّمِ به والمُقَسِّمِ عليه في غاية الظهور، وفي المُقَسِّمِ به دليل على المُقَسِّمِ عليه، فإن النجوم التي تُزْمَى بها الشياطين آيات من آيات الله تعالى، يحفظ بها دينه ووَخِيته، وآياته المُنَزَّلَةَ على رُسُلِهِ، بها ظهر دينه وشَرْعُهُ، وأَسْمَاؤُهُ وصفاته. وجُعِلَت هذه النجوم المُشَاهِدَةَ خدماً وحرساً لهذه النجوم الهادية. وليس بالبَيِّنِ تسمية القرآن عند نزوله بالنجم إذا هوى ولا تسمية نزوله هُويًا، ولا عهد في القرآن بذلك فيُحْتَمَلُ هذا اللفظ عليه وليس بالبَيِّنِ أيضاً تخصيص هذا القسم بالثُرَيَّا وحدها إذا غابت، وليس بالبَيِّنِ القَسَمِ بالنجوم عند تثارها يوم القيامة؛ بل هذا مما يُقَسِّمُ الرب عليه، ويدل عليه بآياته، فلا يجعله نفسه دليلاً لعدم ظهوره للمُخَاطَبِينَ ولا سيما منكرو البعث. فإنه سبحانه وتعالى إنما يستدل بما لا يمكن جحده ولا المكابرة فيه، فأظهر الأقوال قول الحسن وابن كثير وهذا القول له اتجاه».

الخامس: في الكلام على «هوى»:

السمين: «العامل في «إذا» إما فِعْلُ القَسَمِ المحذوف وتقديره: أُقَسِّمُ بالنجم وقت هُويِهِ». قال أبو البقاء وغيره: «وهو مُشْكِلٌ، فإن فِعْلُ القَسَمِ إنشاء، والإنشاء حال. و«إذا» لِمَا يُسْتَقْبَلُ من الزمان، فكيف يتلاقيان؟»

الطبيعي نقلاً عن المقتبس: «الوجه أن «إذا» قد انسلخ عنها معنى الاستقبال، وصار للوقت المجرد، ونحوه: آتيك إذا احمرَّ البشر، أي وقت إحمراره، فقد عُرِّي عن معنى الاستقبال لأنه وقت الغيبة عنه، بقوله: آتيك».

قال الشيخ عبد القاهر: «إخبار الله تعالى بالمتوقع مقام الإخبار بالواقع، إذ لا تكلف فيه، فيجري المستقبل مجرى المُحَقَّق الماضي».

السمين: «وإما مُقَدَّرٌ على أنه حال من النجم، إذ أقسم به حال كونه مُسْتَقَرًّا في زمان هويّه. وهو مُشْكِلٌ من وَجْهَيْنِ: أحدهما: أن النجم جُئَةٌ والزمان لا يكون حالاً عنها، كما لا يكون خبراً، الثاني: «إذا» للمستقبل، فكيف تكون حالاً؟».

وأجيب عن الأول: المراد بالنجم القطعة من القرآن، والقرآن، نزل مُنْجَمًا في عشرين سنة. وهذا تفسير ابن عباس وغيره. وعن الثاني: بأنها حال مُقَدَّرَةٌ، وأما العامل فهو نفس النجم الذي أريد به القرآن، قاله أبو البقاء. وفيه نظر لأن القرآن لا يعمل في الظرف، إذا أريد به أنه اسم لهذا الكتاب المخصوص. وقد يقال إن النجم بمعنى المُنْجَم كأنه قيل: والقرآن المُنْجَم في هذا الوقت».

المصباح: هَوَى يَهْوِي من باب ضَرَبَ هُوِيًّا بضم الهاء وفتحها، وزاد ابن القوطية هواءً بالمدّ، سقط من أعلى إلى أسفل قاله أبو زيد وغيره». قال الشاعر:

فَشَجَّ بِهَا الْأَمَاعِزَ وَهِيَ تَهْوِي هُوِيَّ الدَّلْوِ أَسْلَمَهَا الرُّشَاءُ^(١)

يُزَوِّي بالفتح والضّم.

الراغب: «الهوى سقوط من علو». ثم قال: «والهويّ ذهاب في إنحدار والهويّ ذهاب في ارتفاع». وقيل: «هوى في اللغة مَقْصِدُهُ السفل أو مصيره إليه وإن لم يقصده». وقال أهل اللغة: هوى بفتح الواو يَهْوِي هويًّا سقط من علو، وهوى يَهْوِي هويًّا أي صبأ.

القرطبي: هوى وانهوى فيه لغتان بمعنى وقد جمعهما الشاعر في قوله:.

وكم منزلٍ لولايٍ طِخَتْ كما هَوَى بأجرامه من قُلَّةِ الشِّيقِ مُنْهَوِي

الشِّيقُ بكسر النون المُشَدَّدَةِ أرفع موضع في الجبل.

الإمام الرازي: «الفائدة في تقييد القسم بالنجم بوقت هويّه أنه إذا كان في وسط السماء بعيداً عن الأرض لا يهتدي به الساري، لأنه لا يعلم به المشرق من المغرب ولا الجنوب من الشمال: فإذا زال تبين بزواله، وتمييز جانب عن جانب، كذلك النبي ﷺ خفض جناحه

(١) انظر ديوان زهير ص ٨٩، ٩٤.

للمؤمنين، وكان على خلق عظيم وخصَّ الهويُّ دون الطلوع لعموم الاهتداء به في الدين والدنيا. أما الدنيوي فلما ذُكر، وأما الديني فكما قال الخليل ﷺ ﴿لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] وفيه لطيفة وهي أن القسم بالنجم يقتضي تعظيمه، وقد كان من المشركين من يعبد، فنبه بهويّه على عدم صلاحيته للإلهية، وهويّه أفرقه.

السادس: في الكلام على قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾: [النجم: ٢] السمين: «هذا جواب القسم».

الإمام الرازي والبرهان النسفي: أكثر المُفسِّرين قالوا: لا تُفَرِّق بين الضلال والغَيِّ. وقال بعضهم: إن الضلال في مقابلة الهدى، والغَيِّ في مقابلة الرشد، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وتحقيق الفرق فيه أن الضلال أعم استعمالاً في المواضع، تقول: ضلُّ بعيري ورخلي ولا تقول: غوى، فالمراد من الضلال ألا يجد السالك إلى مقصده طريقاً مستقيماً. والغواية ألا يكون له إلى القصد طريق مستقيم، ويدل على هذا أنك تقول للمؤمن الذي ليس على طريق السداد: إن سعته غير رشيد، ولا تقول: إنه ضال. فالضالُّ كالكافر، والغاوي كالفاسق، فكأنه تعالى قال: ﴿مَا ضَلَّ﴾ أي ما كفر، ولا أقل من ذلك، فما فسق، ويؤيد ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦] الآية. أو يقال: الضلال كالعدم والغواية كالوجود الفاسد في الدرجة والمرتبة. ويحتمل أن يكون معنى «ما ضلَّ» أي ما جنَّ، فإن المجنون ضالٌّ، وعلى هذا فهو كقوله تعالى ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢] الآية. فقوله: ﴿وَإِنْ لَكَ لِأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: ٣]، إشارة إلى أنه ما غوى بل هو رشيد مُرشد إلى حضرة الله تعالى. وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، إشارة إلى قوله هنا: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ [النجم: ٣]، فإن هذا خُلُقٌ عظيم. وقد أشار قوله تعالى ﴿مَا ضَلَّ﴾ إلى أنه على الطريق، ﴿وَمَا غَوَى﴾ إشارة إلى أنه على الطريق المستقيم ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ إلى أنه مسلك الحاذة، ركب من الطريق، فإنه إذا ركب متنه كان أسرع وصولاً إلى المقصد، ويمكن أن يقال إن قوله ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ دليل على أنه ما ضلَّ وما غوى، وتقديره: كيف يضلُّ أو يغوي وهو لا ينطق عن الهوى؟ وإنما يضل من يتبع هواه، ويدل عليه قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

القرطبي: وقيل ما غوى ما خاب مما طلب قال الشاعر:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْتَمِدِ النَّاسُ أَمْرَهُ وَمَنْ يَغْوِ لَا يَغْدَمُ عَلَى الْغَيِّ لَأَيَّمَا

أي من خاب في طلبه لاهمه الناس، ثم يجوز أن يكون إخباراً عما بعد الوحي، ويجوز أن

يكون إخباراً عن أحواله على التعميم، أي كان أبداً مؤخداً لله. وهو الصحيح.

ابن القيم: نفى الله سبحانه وتعالى عن رسوله الضلال المُتَافِي للهدى والغَيِّ المنافي للرشد، ففي ضمن هذا النفي الشهادة له بأنه على الهدى والرشد، فالهدى في علمه والرشد في عمله، وهذان الأصلان هما غاية كمال العبد، وهما سعادته وصلاحه، وبهما وصف النبي ﷺ. خلفاءه، فقال: «عليكم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي»^(١).

«فالراشد ضد الغاوي، والمهدي ضد الضال وهو الذي زكت نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح وهو صاحب الهدى ودين الحق، لا يشتبه الراشد المهدي بالضال الغاوي، إلا على أجهل الخلق وأعماهم قلباً وأبعدهم من حقيقة الإنسانية، ورحم الله القائل:

وَمَا انْتِفَاعُ أُخِي الدُّنْيَا بِنَاطِرِهِ إِذَا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الْأَنْوَارُ وَالظُّلُمُ

والناس أربعة أقسام: الأول: ضالٌّ في علمه، غاوٍ في قصده وعمله، وهؤلاء سواد الخلق، وهم مخالفو الرسل. الثاني: مهتدٍ في علمه غاوٍ في قصده وعمله، وهؤلاء هم الأمة العَصِيَّةُ وَمَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ، وهو حال كل من عرف الحق ولم يعمل به. الثالث: ضالٌّ في علمه ولكن قصده الخير وهو لا يشعر، الرابع: مهتدٍ في علمه راشدٌ في قصده وهم ورثة الأنبياء، وهم وإن كانوا الأقلين عدداً فهم الأكثرون عند الله قَدْرًا، وهم صفوة الله تعالى من خلقه. وتأمل كيف قال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾، ولم يقل: محمداً، تأكيداً لإقامة الحجة عليهم بأنه صاحبهم، وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله، وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا غيٍّ ولا ضلال، ولا ينقمون عليه أمراً واحداً قط. وقد نبه تعالى على ذلك بقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ [المؤمنين: ٦٩]، وبقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢].

السابع: في الكلام على قوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾: [النجم: ٣].

قال [تعالى] أولاً: «ما ضلَّ» و«وما غوى»، بصيغة الماضي، وعبر هنا بصيغة المستقبل، وهو ترتيب في غاية الحُسن، أي ما ضلَّ حين اعتزلكم وما تعبدون حين اختلى بنفسه. وما ينطق عن الهوى الآن حيث أُرْسِلَ إليكم وجُعِلَ شاهداً عليكم، فلم يَكُنْ أولاً ضالاً ولا غاوياً، وصار الآن مُنْقِذاً من الضلالة ومُرْشِداً وهادياً، والله سبحانه وتعالى يصون من يريد إرساله في صغره عن الكفر والمعائب، فقال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ﴾ في صغره لأنه لا ينطق عن الهوى.

(١) أخرجه أبو داود ٢٠١/٤ (٤٦٠٧) والترمذي [٢٦٧٦] وابن ماجه (٤٢) وأحمد في المسند ١٢٦/٤ والطبراني في الكبير ٢٤٦/١٨ والبيهقي في السنن ١١٤/١٠ وابن عبد البر في التمهيد ٦٦/٨.

ابن عادل: «فاعل ينطق إما ضمير النبي ﷺ، وهو الظاهر، وإما ضمير القرآن كقوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩].

ابن القيم: تنزه تعالى عن نطق رسوله ﷺ عن أن يضدر عن هوى، وبهذا الكمال هداه وأرشده، ولم يقل: وما ينطق بالهوى، لأن نفي نطقه عن الهوى أبلغ، فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به؟ فتضمن نفي الأمرين: نفي الهوى عن مصدر النطق، ونفيه عن النطق نفسه، فنطقه بالحق، ومصدره الهدى والرشاد، لا الغي والضلال.

اللباب: قال النحاس^(١): «قول قتادة أُولَى وتكون» «عن» على بابها أي ما يخرج نطقه عن رأيه، إنما هو يُوخِي من الله تعالى، لأن بغده ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَخْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤]. وقيل: هو بمعنى الباء، أي ما ينطق بالهوى، أي ما يتكلم بالباطل، وذلك أنهم قالوا: إن محمداً يقول من تلقاء نفسه. المصباح: الهوى مقصور مصدر هويته من باب تعيب إذا أخيبته وعلقت به، ثم أطلق على ميل النفس وانحرافها عن الشيء ثم استعمل في ميل مذموم فيقال أتبع هواه.

الإمام البيهقي: «وأحسن ما يقال في تفسير الهوى أنه المحبة، لكن من النفس، يقال هويته بمعنى أحبته. والحروف التي في هوي تدل على الدنو والنزول والسقوط ومنه الهاوية، فالنفس إذا كانت ذنبة وتركت المعالي وتعلقت بالسفاسف فقد هوت فاخص الهوى بالنفس الأتارة بالسوء».

الشعبي: «إنما سمي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه». وقال بعض الحكماء: «الهوى إله معبود، له شيطان شديد، يخدمه شيطان مريد، فمن عبد أوثانه، وأطاع سلطانه، وأتبع شيطانه، ختم الله تعالى على قلبه، وحرم الرشاد من ربه، فأصبح صريع غيبه، غريق ذنبه، وقال عز من قائل ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً، فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

وقال النبي ﷺ: «ثلاث منجيات وثلاث مهلكات، فالمنجيات: خشية الله في السر والعلانية، والحكم بالعدل في الرضا والغضب، والاقتصاد في الفقر والغنى، والمهلكات: شح

(١) أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي المصري، أبو جعفر النحاس: مفسر، أديب. مولده ووفاته بمصر. كان من نظراء نطويه وابن الأنباري. زار العراق واجتمع بعلمائه. وصنف «تفسير القرآن» و «إعراب القرآن» و «تفسير أبيات سيويه» و «ناسخ القرآن ومنسوخه» و «معاني القرآن» انظر الأعلام ٢٠٨/١.

مطاع، وهوى مُتَّبِع، وإعجاب المرء برأيه^(١). رواه البزار عن أنس.

وقال عليه السلام: «ما تحت ظل السماء من إله يُعْبَد من دون الله، أعظم عند الله من هوى مُتَّبِع»^(٢). رواه الطبراني عن أبي أمامة. وقال بعض الحكماء: «الهوى خادع الألباب، صَادَ عن الصواب، يُخْرِج صاحبه من الصُّبْحِجِجِ إلى المعتلِّ، ومن الصريح إلى المُخْتَلِّ، فهو أعمى يُبْصِر، أصم يسمع». كما قال النبي صلى الله عليه وآله: «حُبُّكَ الشَّيْءَ يعمي ويصم»^(٣). وقال آخر: «على قدر بصيرة العقل يرى الإنسان الأشياء، فمن سلِمَ عَقْلُهُ من الهوى يراها على حقيقتها، والنفس الكدِرَةُ المتبعة لهواها ترى الأشياء على طبعها. وقيل كان على خاتم بعض الحكماء: «من غلب هواه على عقله افتضح». وقال ابن دُرَيْدٍ في مقصورته:

وَأَفَةُ الْعَقْلِ الْهَوَى فَمَنْ عَلَا عَلَى هَوَاهُ عَقْلُهُ فَقَدْ نَجَا

الثامن: في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَخْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤].

الإمام الرازي: «هذا تكملة للبيان، وذلك أن الله تعالى لما قال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ كَأَنَّ قَائِلًا يَقُولُ فَعَمَّ ذَا يَنْطِقُ، أَعْنِ الدليل والاجتهاد؟ فقال: لا، إنما ينطق عن حضرته تعالى بالوحي، وهذا اللفظ أبلغ من أن لو قيل: هو وَخْيٌ يُوحَى. وكلمة «إِنْ» استعملت مكان «ما» للنفي، كما استعملت «ما» للشرط مكان «إِنْ».

اللباب: «يُوحَى صِفَةٌ لِيُوحَى، وفائدة المجيء لهذا الوصف أنه يَنْفِي المجاز، أي هو وَخْيٌ حَقِيقَةٌ لا مُجْرَدٌ تسمية كقولك: هذا قَوْلٌ يُقَالُ. وقيل تقديره: يُوحَى إليه، ففيه مزيد فائدة». ونقل القرطبي عن السجستاني أنه قال: «إِنْ شِئْتَ أَبَدَلْتَ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَخْيٌ يُوحَى﴾ من ﴿وَمَا ضَلَّ صَاحِبِكُمْ﴾ قال ابن الأنباري: وهذا غلط لأنَّ إِنْ الخفيفة لا تكون مُبَدَلَةٌ من «ما» بدليل أنك لا تقول: والله ما قُمْتُ إِنْ أنا لقاعد».

ابن القيم: «أعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل، أي ما نطقه إِلَّا وَخْيٌ يُوحَى، وهذا أحسن من قول مَنْ جعل الضمير عائداً إلى القرآن فإنه يَعُمُّ نَطْقَهُ بِالقرآن والسنة، وأن

(١) ذكره العجلوني ٣٨٦/١ بنحوه وعزاه للبزار والطبراني عن أنس بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل ٧١٥/٢ والفتني في تذكرة الموضوعات (١٧٢) وذكره الهيثمي في المجمع ١٨٨/١.

(٣) أخرجه أبو داود (٥١٣٠) وأحمد في المسند ١٩٤/٥ والخطيب في التاريخ ١١٧/٣ وذكره العجلوني في الكشف

٤١٠/١ وقال: قال في المقاصد: رواه أبو داود والعسكري عن أبي الدرداء مرفوعاً وموقوفاً والوقف أشبهه، وفي سننه

ابن أبي مريم ضعيف، ورَوَاهُ أحمد عن ابن أبي مريم فوقفه، والرفع أكثر ولم يصب الصغاني حيث حكم عليه بالوضع.

وكذا قال العراقي ابن أبي مريم لم يتهمة أحد بكذب إنما سرق له حلى فأنكر عقله، وقال الحافظ ابن حجر: تبعاً

للعراقي وبكفينا سكوت أبي داود عليه فليس بموضوع ولا شديد الضعف فهو حسن انتهى. وقال القاري: بعد أن ذكر ما

تقدم فالحديث إما صحيح لذاته أو لغيره مرتق عن درجة الحسن لذاته إلى صحة معناه، وإن لم يثبت معناه.

كليهما وَخِي. قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] وهما القرآن والسنة.

وروى الداري^(١) عن يحيى بن أبي كثير^(٢) قال: «كان جبريل ينزل على النبي ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن». قلت وفي الصحيحين أن رجلاً سأل النبي ﷺ وهو بالجفرانة [فقال: يا رسول الله] كيف ترى في رجل أحرَمَ بعُمْرَةٍ بعد ما تَضَمَّخَ بالخلوق؟ فنظر إليه رسول الله ﷺ ساعة ثم سكت..

فجاءه الوحي، ثم سُرِّيَ عنه، فقال: أين السائل؟ فجيء به فقال: انزع عنك العُجْبَةَ واغسل أثر الطيب واصنع في عُمْرَتِكَ ما تصنع في حِجَّتِكَ^(٣).

وروى الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: كنتُ أكتب كل شيء أسمعُه من رسول الله ﷺ، أريد حِفْظَه، فنهتني قريش وقالوا: تكتب كل شيء سمعته من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ بَشَرٌ يتكلم في الرضا والغضب. فأمسكت عن الكتابة حتى ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأوماً بأصبعه إلى فيه وقال: «اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج مني إلا حقاً»^(٤).

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لا أقول إلا حقاً». وقال بعض أصحابه: «إنك تداعبنا يا رسول الله، قال: إني لا أقول إلا حقاً»^(٥).

وروى الإمام أحمد والطبراني والضياء في صحيحه عن أبي أمّامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ مِثْلِ الْحَيِّينِ أَوْ مِثْلِ أَحَدِ الْحَيِّينِ رُبْعَةَ وَمُضْرَ. فقال رجل: يا رسول الله وما رُبْعَةَ وَمُضْرَ؟ قال: إني ما أقول إلا ما أقوله»^(٦). - الثاني

(١) [عبد الله بن كثير الداري المكي، أبو تغلب، القاري، أحد الأئمة صدوق، من السادسة، مات سنة عشرين ومائة] انظر التقريب ٤٤٢/١.

(٢) يحيى بن أبي كثير الطائي، مولاهم، أبو نصر اليمامي، ثقة، ثبت، لكنه بدلس ويرسل، من الخامسة، مات سنة اثنين وثلاثين، وقيل قبل ذلك. التقريب ٣٥٦/٢.

(٣) أخرجه البخاري ٧/٣ (١٧٨٩) ومسلم ٨٣٦/٢ (١١٨٠ - ٦).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٦٤٦) وأحمد في المسند ١٦٢/٢ والدارمي ١٢٥/١ والحاكم في المستدرک ١٠٦/١.

(٥) أخرجه الترمذي (١٩٩٠) وأحمد في المسند ٣٤٠/٢ والبيهقي في السنن ٣٤٨/١٠ وابن عبد البر في التمهيد ٤/٢٢١ وذكره الهيثمي في المجمع ١٧/٩ والسيوطي في الدرر ١٢٢/٦ وابن كثير في البداية والنهاية ٥٥/٦.

(٦) ذكره الهيثمي في المجمع ٣٨٤/١٠ وعزاه لأحمد والطبراني بأسانيد وقال: ورجال أحمد وأحد أسانيد الطبراني رجالهم رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن مسرة وهو ثقة.

بضم الهمزة وفتح القاف والواو المُشَدَّدة - أي ما يُقَوِّله الله من الوحي، ولهذا مزيد بيان في أبواب عِصْمَتِهِ.

الإمام الرازي؛ «هو ضمير معلوم أو ضمير مذكور، فيه وجهان: أشهرهما أنه ضمير معلوم، وهو القرآن، كأنه تعالى يقول: «ما القرآن إلا وحي»، وهذا على قول من قال: ليس المراد بالنجم القرآن، وأما على قول من قال: هو الوحي فضمير مذكور. والوجه الثاني: أنه عائد إلى مذكور ضمناً، وهو قول النبي ﷺ وكلامه، وذلك لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ في ضمنه النطق وهو كلامٌ وقَوْلٌ، فكأنه تعالى يقول: وما كلامه ولا نُطْقُهُ إِلَّا وَحْيِي. وفيه وجه آخر، وهو أن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: ٣] رَدُّ على الكفرة حيث قالوا: قَوْلُهُ قَوْلُ كَاهِنٍ، وقالوا: قَوْلُهُ قَوْلُ شَاعِرٍ، فقال تعالى: ﴿إِن هُوَ إِلَّا وَحْيِي يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤]، وليس بقول شاعر كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ، وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١، ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿إِن هُوَ إِلَّا وَحْيِي يُوحَىٰ﴾، إِبْلَغٌ من قول القائل: هو وَحْيِي، وفيه فائدة غير المبالغة، وهي أنهم كانوا يقولون: هو قول كاهن، هو قول شاعر. والمراد نفي قولهم وذلك يحصل بصيغة النفي فقال: ما هو كما تقولون، وزاد فقال: بل هو وَحْيِي.

أنوار التنزيل: «اِخْتَجَّ بهذه الآية مَنْ لَمْ يَزِ الاجتهاد للنبي ﷺ. وأجيب عنه بأنه إذا أُوْحِيَ إليه أن يجتهد كان اجتهاده وما يُشَدُّ إليه واجباً وفيه نظر لأن ذلك حينئذ بالوحي».

الطبيبي «هذه الآية واردة في أمر التنزيل وليس فيها لمُشْتَدِلٌ أَنْ يَسْتَدِلَّ شيئاً من أمر الاجتهاد نفيّاً ولا إثباتاً، لأن الضمير في «هو» للقرآن، بدليل من فسر النجم بنجوم القرآن». وبتسط الكلام على ذلك، ثم أورد حديث طلحة بن عبيد الله في تأبير النخل^(١)، وسيأتي مع الكلام عليه في أبواب عصمته ﷺ.

وقال الإمام الرازي: «القول بأن النبي ﷺ لم يجتهد خلاف الظاهر: فإنه في الحرب اجتهد وحرّم، قال الله تعالى: ﴿لِمَ تَحَرَّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [مريم: ١]، وأذن، قال الله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

التاسع: في الكلام على قوله تعالى: «عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ» [النجم: ٥].

التبنيان: «أخبر تعالى عن وصف من عَلَّمَهُ بالوحي أنه مضادٌ لأوصاف الشيطان مُعَلِّمُ الضَّلَاةِ وَالْعَوَايَا، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠]

(١) تأبير النخل: تلقيحه. انظر المعجم الوسيط ٢/١.

وفي وصفه بذلك تنبيه على أمور:

الأول: أنه بقوته يمنع الشياطين أن تَدْتُو منه وأن ينالوا منه شيئاً أو يزيدوا فيه أو ينقصوا منه، بل إذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقربه.

الثاني: أنه مُوال لهذا الرسول الذي كذبتموه ومعاضد له ومُؤادٍ له وناصِرٍ، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاةُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحریم: ٤] الآية. ومن كان هذا القوي وليه ومن أنصاره وأعوانه ومُعلّمه. فهو المَهْدِيُّ المنصور. واللّه هاديّه وناصره.

الثالث: أن من عادى هذا الرسول فقد عادى صاحبه ووليّه جبريل، ومن عادى ذا القوة والشدة فهو عرضة للهلاك.

الرابع: أنه قادر على تنفيذ ما أمر به بقوته فلا يعجز عن ذلك مُؤادٍ له كما أمره.

السمين: فاعل علّمه جبريل ﷺ وهو الظاهر. قال الماوردي والقرطبي إنه قول الجميع إلا الحسن، فإنه، قال هو الباري تعالى لقوله عز وجل: ﴿الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ١، ٢] ويكون «ذو مِرَّة» تمام الكلام.

اللباب: «يجوز أن تكون هذه الهاء للنبي ﷺ، وهو الظاهر، فيكون المفعول الثاني محذوفاً أي علمه النبي ﷺ الوحي أي المُوحى، ويجوز أن يكون للقرآن والوحي، فيكون المفعول الأول محذوفاً أي علمه النبي.

الإمام الرازي: «الأولى أن يقال الضمير للنبي ﷺ، تقديره علّم محمداً شديد القوي جبريل، ويكون عائداً إلى صاحبكم، تقديره: ما ضلّ صاحبكم، وشديد القوي هو جبريل، أي قواه العلمية والعملية كلها شديدة، ثم في قوله: ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ فوائد:

الأولى: أن مدح المُعلّم مدح للمُتعلّم، فلو قال: علّمه جبريل ولم يصفه ما كان يحصل للنبي ﷺ فضيلة ظاهرة.

الثانية: أن فيه ردّاً عليهم بحيث قالوا: أساطير الأولين، فقال: لم يُعلّمه أحدٌ من الناس علّمه شديد القوي.

الثالثة: فيه الوثوق بقول جبريل ﷺ، ففي قوله تعالى: ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ جميع ما يوجب الوثوق لأن قوة الإدراك شرط الوثوق بقول القائل على ما عرف، وكذلك قوة الحفظ، فقال: (شديد القوي) ليجمع هذه الشروط، فيصير كقوله تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠، ٢١].

اللباب: «شديد القوي من كافة الصفة المشبهة لمرفوعها فهي غير حقيقية، هذا ما جزم

به الزمخشري وتابعوه. وقال صاحب الكفيل: «بل هي مضافة إلى مفعولها، وبسط الكلام على ذلك، والشديد البين القوة».

روى ابن عساكر عن معاوية بن قرة^(١) - بضم القاف وتشديد الراء - رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «مَا أَحْسَنَ مَا أُنْتَى عَلَيْكَ رَبُّكَ: «ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ» ما كانت قُوَّتُكَ وما كانت أَمَانَتُكَ؟ قال: أما قُوَّتِي فَإِنِّي يُعِثُّ إِلَى مَدَائِنِ لُوطٍ وَهِيَ أَرْبَعٌ مَدَائِنٍ، وَفِي كُلِّ مَدِينَةٍ أَرْبَعٌ مِائَةِ أَلْفٍ مَقَاتِلِ سِوَى الذَّرَارِيِّ، فَحَمَلْتَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ السُّفْلَى حَتَّى سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ أَصْوَاتَ الدَّجَاجِ وَتُبَاحِ الْكِلَابِ، ثُمَّ هَوَيْتُ بِهِمْ فِقَلْبَتُهُمْ. وَأَمَّا أَمَانَتِي فَلَمْ أَوْمِرْ بِشَيْءٍ فَعَدَوْتُهُ إِلَى غَيْرِهِ». وقال محمد بن السائب: «من قوة جبريل أنه اقتلع مدائن قوم لوط من الماء الأسود فحملها على جناحه حتى رفعها إلى السماء حتى أسمع أهل السماء تباح كلابهم وصياح ديكهم، ثم قلبها، ومن قوته أيضاً أنه أبصر إبليس يكلم عيسى ابن مريم ﷺ على بعض عُقَابِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّمَةِ فَنَفَحَهُ بِجَنَاحِهِ نَفْحَةً فَأَلْقَاهُ فِي أَقْصَى جَبَلٍ بِالْهِنْدِ. وَمِنْ قُوَّتِهِ هَبُوطُهُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامِهِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ، وَصُعُودُهُ إِلَيْهَا فِي أَسْرَعِ مِنْ طَرَفَةِ عَيْنٍ».

العاشر: في الكلام على قوله تعالى: «ذو مِرَّةٍ» [النجم: ٦].

القرطبي: قال قطرب: تقول العرب لكل جزل الرأي حصيف العقل ذو مِرَّةٍ، قال الشاعر:

قَدْ كُنْتُ قَبْلَ لِقَاكُمْ ذَا مِرَّةٍ عِنْدِي لِكُلِّ مُخَاصِمٍ مِيزَانُهُ

وكان من جزالة رأيه وحصافة عقله أن الله تعالى ائتمنه على وحيه إلى جميع رُسُلِهِ.

الجوهري: «والمِرَّةُ القوةُ وشدة العقل، ورجل مَرِيرٌ أي قوى ذو مِرَّةٍ. قال:

تَرَى الرَّجُلَ النَّجِيفُ فَتَزْدِيرِيهِ وَخَشُو ثِيَابِهِ أَسَدٌ مَرِيرٌ

ابن القيم: «أي جميل المنظر، حسن الصورة، ذو جلاله، ليس شيطاناً، أقبح خلق الله

تعالى وأشوههم صورة، بل هو من أجمل الخلق وأقواهم وأعظمهم أمانة ومكانة عند الله، وهذا

تعديل لسند الوحي والنبوة، وتزكية له، كما ذكر نظيره في سورة التكويد، فَوَصَّفَهُ بِالْعِلْمِ وَالْقُوَّةِ

وجمال المنظر وجلالته. وهذه كانت أوصاف الرسول البشري والملكي، وكان

رسول الله ﷺ أشجع الناس وأعلمهم وأجملهم وأصفاهم نفساً.

الإمام: «في قوله: «ذو مِرَّةٍ» وجوه: الأول: ذو قوة، قلت ورواه الفرّيائي عن مجاهد

(١) معاوية بن قرة بن إياس الخزني أبو إياس البصري. عن علي مرسل، وابن عباس وابن عمر. وعنه قاعدة وشعبة وأبو عوانة وخلق. وثقه ابن معين وأبو حاتم. قال خليفة: مات سنة ثلاث عشرة ومائة، ومولده يوم الجمل. انظر الخلاصة ٤٢، ٤١/٣.

ويدل على هذا قوله ﷺ: «لا تَجِلُّ الصَّدَقَةُ لِعَنِيٍّ وَلَا لَذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ». رواه الإمام أحمد. الثاني: ذو كمال في العقل وفي الدين جميعاً. الثالث: ذو منظرٍ وهيبَةٍ عظيمة. الرابع: ذو خُلُقٍ حَسَنٍ. قلت زاد الماوردي خامساً: ذو غَنَاءٍ.

قلت: ولا تنافي بين هذه الأقوال، فإنه ﷺ متصف بها. فإن قيل: على قولنا ذو مِرَّةٍ، قد تقدم بيان كونه شديد القوي، فكيف تقول قواه شديدة وله قوة؟ فالجواب من وَجْهَيْنِ: أحدهما: أن ذلك لا يحسن إذا كان وصفاً بعد وصف، وأما إذا جاء بدلاً فيجوز، كأنه قال: عَلَّمَهُ ذُو قُوَّةٍ، ونزل شديد القوى فليس وصفاً له وتقديره ذو قوة عظيمة أو كاملة. الثاني: أن إفراد «مِرَّةٍ» بالذكر ربما تكون لبيان أن قواه المشهورة شديدة وله قوة أخرى خَصَّهُ اللهُ تعالى بها.

على أنا نقول المراد ذو شدة وهي غير القوة، وتقديره عَلَّمَهُ مَنْ قَوَاهُ الشَّدِيدَةَ، وفي ذاته أيضاً شِدَّةً، فإن الإنسان ربما يكون كثير القوة صغير الجثَّة. وفيه لطيفة وهي أنه تعالى أراد بقوله: «شديد القوى»، أي قوة العلم، وبقوله: «ذو مِرَّةٍ»، أي شدة في الجسم، قَدَمَ الْعِلْمِيَّةِ عَلَى الْجِسْمِيَّةِ، كما قال تعالى: «وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ» [البقرة: ٢٤٧]، وتقدم الكلام على «ذو» في اسمه ﷺ: «ذو الوسيلة»، فراجع.

الحادي عشر: في الكلام على قوله تعالى: «فاستوى»، وهو بالأفق الأعلى:

[النجم: ٦-٧].

اللباب: «قال مكي: استوى يقع للواحد وأكثر ما يقع من إثنين ولذلك جعل الفراء الضمير لإثنين».

الماوردي والقرطبي: «فاستوى» يعني جبريل أي ارتفع وعلا إلى مكانه في السماء، بعد أن عَلَّمَ محمداً ﷺ، قاله ابن المُسَيَّب وابن جُبَيْر. وقال الإمام: «إنه المشهور»، وقيل «فاستوى» أي ظهر في صورته التي خلقه الله تعالى عليها، لأنه كان يأتي النبي ﷺ في صورة آدميين كما كان يأتي إلى الأنبياء، فسأله رسول الله ﷺ أن يُرِيَهُ نفسه التي خلقه الله عليها، فأراه نفسه مرَّتين: مرَّةً في الأرض ومرَّةً في السماء، فأما في الأرض ففي الأفق الأعلى، وكان النبي ﷺ بِحِزَاءِ، فطلع له جبريل من المشرق، فسَدَّ الأرض إلى المَغْرِبِ، فَخَرَّ النبي ﷺ مَغْشِيّاً عَلَيْهِ، فنزل إليه في صورة آدميين وَضَمَّهُ إِلَى نَفْسِهِ وجعل يمسح العُتْبَارَ عَنْ وَجْهِهِ، فلما أفاق النبي ﷺ قال: «يا جبريل ما ظننتُ أن الله تعالى خلق أحداً على مثل هذه الصورة». فقال: يا محمد، إنما نشرتُ جَنَاحَيْنِ من أجنحتي وأن لي ستمائة جناح سعة كل جناح ما بين المشرق والمغرب. فقال: «إن هذا لعظيم». فقال له: وما أنا في جنب ما خلقه الله إلا يسيراً، ولقد خلق الله تعالى إسرافيل له ستمائة جناح، كل جناح قَدْرُ أجنحتي، وإنه

ليتضاءل أحياناً . يتضاءل بالضاد المعجمة والهمزة من مخافة الله تعالى حتى يكون بقدر الوضع . بفتح الواو والصاد وبالعين المهملتين، يعني العصفور الصغير، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣].

وأما في السماء فعند سيذرة المنتهى، ولم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا نبينا ﷺ.

ابن كثير: «وهذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء، بل قبلها ورسول الله ﷺ في الأرض في أوائل البعث بعد فترة الوحي».

الباب: «في الضمير وجهان: أحدهما: وهو الأظهر أنه مبتدأ، «وبالأفق» خبره، والضمير لجبريل أو للنبي ﷺ. ثم في هذه الجملة وجهان: الأول: أنها حال من فاعل «فاستوى» قاله مكّي. قال القرطبي: والمعنى فاستوى جبريل عالياً على صورته ولم يكن النبي ﷺ قبل ذلك رآه عليها حتى سأله إياها على ما ذكرنا، انتهى.

«الثاني: أنها مستأنفة، أخبر الله تعالى بذلك، ثانيهما: أن «وهو» معطوف على الضمير المستتر في استوى. وضمير استوى إما أن يكون لله تعالى وهو قول الحسن أو لجبريل أو لمحمد، وهذا ضعيف، لأنه يقال استوى هو وفلان ولا يقال استوى وفلان إلا في ضرورة الشعر، والصحيح استوى جبريل وجبريل بالأفق الأعلى على صورته الأصلية لأنه كان يتمثل للنبي ﷺ إذا نزل بالوحي في صورة رجل، فأحب النبي ﷺ أن يراه على صورته الحقيقية فاستوى جبريل في أفق المشرق فملاً الأفق».

وروى الإمام أحمد، وعبد بن حنيد، وابن المنذر، والبيهقي، وأبو نعيم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته، له ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق وتسقط من أجنحته التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس في الآية قال: سأل النبي ﷺ جبريل أن يراه في صورته، فقال: ادع ربك، فدعا ربه عز وجل، فطلع عليه سواد من قبل المشرق، فجعل يرتفع ويتشر، فلما رآه رسول الله ﷺ ضيق، فأتاه فقرب منه ومسح الغبار عن وجهه.

المصباح: «الأفق بضمين الناحية من الأرض ومن السماء والجمع آفاق، زاد في الصحاح: والأفق بضمه فسكون مثل عشر وعشر».

الماوردي: «في الأفق الأعلى ثلاثة أقوال: أحدها: مطلع الشمس قاله مجاهد، الثاني: هو بالأفق الذي يأتي منه النهار قاله قتادة يعني طلوع الفجر، الثالث: هو أفق السماء وهو جانب من جوانبها، قاله ابن زيد، ومنه قول الشاعر:

الإمام الرازي: «أي فكان بين جبريل ومحمد ﷺ مقدار قوسين أو أقل، فهذا على استعمال العرب وعاداتهم، فإن الأُميرتين منهم أو الكبيرتين إذا اصطلحا وتعاقدا خرجا بقوسيهما، جعل كل واحد منهما قوسه بطرف قوس صاحبه، ومن دونهما من الرعية يكون كفه بكف صاحبه فيمدان باعنيهما، لذلك فسُمي مبايعة. وعلى هذا ففيه مقدار قوسين أو كان جبريل سفيراً بين حضرة الله تعالى عنه ومحمد ﷺ فكان كالتبّع لمحمد ﷺ، فصار كالمُتابع الذي يمدّ الباع لا القوس».

اللباب: القاب: القدر تقول: هذا قاب هذا، أي قدره ومثله: القيب والقاد والقيد والقيس.

الجوهري: «وقال بعضهم في الآية أراد قابني قوس قلبه. وفي الحديث الصحيح: لقاب قوس أحدكم [أو موضع قدّه] من الجنة خَيْرٌ من الدنيا وما فيها». والقوس معروفة، وهي ما يُزْمَى بها وهي مؤنثة وشذوا في تصغيرها، فقالوا قويس من غير تأنيث، وإنما ضرب المثل بالقوس لأنها لا تختلف بالقاب وإن لم يَجْر لها ذكر لعدم اللبس».

الواحدى: «المراد بالقوس التي يُزْمَى بها عند الجمهور، قال: وقيل المراد الذراع لأنها يُقاس بها».

القرطبي: «وقال سعيد بن جبير، وعطاء، وإبو إسحق الهمداني، وأبو وائل (١) شقيق ابن سلمة «فكان قاب قوسين» أي قدر ذراعين، والقوس الذراع يُقاس بها كل شيء، وهي لغة بعض الحجازيين، وقيل هي لغة أزد شنوءة أيضاً». قلت: ورواه ابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود أيضاً.

قال الحافظ: وبينني أن يكون هذا القول هو الراجح، فقد روى الطبراني وابن مردويه والضياء بسند صحيح عن ابن عباس قال: القاب والقيد والقوسان الذراعان.

اللباب: «أو» هنا كهي في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ لأن المعنى بأحد هذين المقدارين في رأي الرائي أي لتقارب ما بينهما لا (٢) يشك الرائي في ذلك. وقال ابن القيم: «أو» هنا ليست للشك بل لتحقيق قدر المسافة، وأنها لا تزيد على قوسين البتة، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، تحقيقاً لهذا القدر وأنهم لا ينقصون عن مائة ألف أو يزيدون رجلاً واحداً، ونظيره قوله تعالى: ﴿لَمَ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ

(١) شقيق بن سلمة الأسدي، أبو وائل، الكوفي، ثقة، مخضرم، مات في خلافة عمر بن عبد العزيز، وله مائة سنة. القرطبي (٣٥٤١١).

(٢) سقط في أ.

ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴿[البقرة: ٧٤]، أي لا تنقص قسوتها عن قسوة الحجارة، بل إن لم تزد على قسوة الحجارة لم تكن دونها. وهذا المعنى أحسن وألطف وأدق من قول من جعل «أو» في هذا الموضع بمعنى بل، ومن قول من جعلها للشك بالنسبة إلى الرائي، وقول من جعلها بمعنى الواو فتأمل، وجزم بذلك ابن كثير.

اللباب: «أدنى أفعال تفضيل، والمفضل عليه محذوف أو أدنى من قاب قوسين، فمعنى الآية: ثم دنا جبريل بعد استوائه في الأفق الأعلى من الأرض، فتدلى، فنزل إلى محمد ﷺ، فكان قاب قوسين أو أدنى بل أدنى.

تنبيه: هذا الذي قلناه من المُقْتَرَب الداني الذي صار بينه وبين محمد ﷺ قاب قوسين أو أدنى، إنما هو جبريل، نقله القاضي عن الجمهور. وقال الحافظ عماد الدين بن كثير: إنه هو الصحيح في التفسير، كما دل عليه كلام أكابر الصحابة. قال ابن القيم: لأن جبريل هو الموصوف بما ذكر من أول السورة إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى، عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ١٣، ١٤] هكذا فسرهُ النبي ﷺ في الحديث الصحيح لعائشة، قالت عائشة رضي الله عنها: سألت رسول الله عن هذه الآية، فقال: «ذاك جبريل لم أره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين»، رواه مسلم، ولفظ القرآن لا يدل على غير ذلك من وجوه:

الأول: أنه قال: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ وهذا جبريل الذي وصفه بالقوة في سورة التكوير.

الثاني: أنه قال: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٦] أي حسن خلق، وهو الكريم في سورة التكوير.

الثالث: أنه قال: ﴿فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ وهي ناحية السماء العليا وهذا استواء جبريل.

الرابع: أنه قال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾، فهذا دنو جبريل، وقد نزل إلى الأرض حيث كان رسول الله ﷺ بها. وأما الدنو والتدلى في حديث المفراج فرسول الله ﷺ كان فوق سبع سموات.

الخامس: أنه قال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾. والذي عند السدرة قطعاً هو جبريل، وبهذا فسرهُ النبي ﷺ، فقال: «ذاك جبريل».

السادس: أن الضمير في قوله: «ولقد رآه»، وقوله: «دنا فتدلى»، وقوله: «فاستوى»، وقوله: «وهو بالأفق الأعلى» واحد، فلا يجوز أن يخالف بين المُفَسِّرِينَ من غير دليل.

السابع: أنه سبحانه وتعالى أخبر أن هذا الذي «دنا فتدلى» كان بالأفق الأعلى، وهو أفق السماء، فدنا من الأرض فتدلى لرسول الله ﷺ، والدنو والتدلي الذي في حديث شريك غير هذا، وكذا جزم ابن كثير بأن الدنو والتدلي في حديث شريك غير الذي في الآية.

وروى مسلم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، في هذه الآية قال: «رأى بفؤاده مرتين»، فجعل هذا إحداها، ولهذا مزيد بيان في الباب الثالث.

الرابع عشر: في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [سورة النجم: ١٠].

ابن عادل متابعاً للإمام الرازي: «في فاعل أوحى وجهان: الأول: أن الله تعالى أوحى، وعلى هذا ففي «عنده» وجهان: أحدهما: أنه جبريل، أي أوحى الله تعالى إلى جبريل، وعلى هذا ففي فاعل أوحى الأخير وجهان: أحدهما: أنه الله تبارك وتعالى أيضاً. والمعنى حيثئذ: فأوحى الله تعالى إلى جبريل الذي أوحاه الله تعالى أيهما أكثر تفخيماً وتعظيماً للموحي، ثانيهما: فاعل أوحى الثاني جبريل، أي أوحى الله تبارك وتعالى إلى جبريل ما أوحى جبريل، وعلى هذا فالمراد من الذي أوحى إليه جبريل يحتمل وجهين: أولهما: أن يكون مُبَيَّنًا، وهو الذي أوحى جبريل إلى محمد ﷺ، ثانيهما: أن يكون عاماً. أي أوحى الله تعالى إلى جبريل ما أوحى إلى كل رسول. وفيه بيان أن جبريل أمين لم يخُنْ في شيء مما أوحى إليه، وهذا كقوله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] وقوله ﴿مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ﴾ [التكوير: ٢١].

الوجه الثاني: في «عنده»، على قولنا هو الله تعالى، أنه محمد ﷺ، أي أوحى الله تعالى إلى محمد ما أوحى إلى كل رسول به أُنْهَمَةٌ للتفخيم والتعظيم.

الوجه الثاني في فاعل أوحى الأول: هو أنه جبريل أوحى إلى عبده أي إلى عبد الله يعني محمداً ﷺ، ما أوحى إليه ربه عز وجل، قاله ابن عباس في رواية عطاء، والكلبي، والحسن، والربيع، وابن زيد. وعلى هذا ففي فاعل أوحى الثاني وجهان: أحدهما: أنه جبريل أي أوحى جبريل إلى عبد الله ما أوحى جبريل للتفخيم، وثانيهما: أن يكون هو الله تعالى أي أوحى جبريل إلى محمد ما أوحى الله تعالى إليه.

وفي ﴿مَا أَوْحَىٰ﴾ وجوه: الأول: فضل الصلاة، الثاني: أن أحداً من الأنبياء لا يدخل الجنة قبلك ولا قبل أمثلك. الثالث: أن «ما» للعموم، والمراد كل ما جاء به جبريل.

الخامس عشر: في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم: ١١].

ابن القيم: «أخبر الله تعالى عن تصديق فؤاده لما رآه عيناه، وأن القلب صدق العين،

وليس كمن رأى شيئاً على خلاف ما هو به، فكذَّب فؤاده بصره، بل ما رآه يبصره صدقه الفؤاد وعلم أنه كذلك. يُقال كذَّبته عينه وكذَّبته قلبه وكذَّبته جسده إذا أخلف ما ظنه وحَدَسَهُ. قال الشاعر:

كَذَّبَتْكَ عَيْنُكَ أَمْ رَأَيْتَ بَوَاسِطِ غَلَسِ الظُّلَامِ مِنَ الرَّبَابِ خَيْالاً^(١)؟

أي أرتك ما لا حقيقة له. فنفي الله تعالى هذا عن رسول الله ﷺ، وأخبر أن فؤاده لم يكذب ما رآه.

الماوردي: «في الفؤاد قولان: أحدهما: أنه أراد صاحب الفؤاد، فعبر عنه بالفؤاد، لأنه قُطِبَ الجسد وبه قوأم الحياة. الثاني: أنه أراد نفس الفؤاد لأنه محل الاعتقاد».

اللباب: «قرأ هشام^(٢) وأبو جعفر^(٣) بتشديد الدال من «كذَّب»، والباقون بتخفيفها. فأما الأولى فإن معناها أن ما رآه محمد ﷺ بعينه صدقه قلبه، ولم ينكر الداري «أل» لتعريف ما علم حاله لسبق ذكر محمد ﷺ في قوله: «إلى عبده» وفي قوله (وهو بالأفق الأعلى) وقوله (ما ضل صاحبكم)، أي لم يقل إنه خيال لا حقيقة. و«ما» الثانية مفعول له موصولة، والعائد محذوف، ففاعل «رأى» ضمير يعود على النبي ﷺ».

وأما قراءة التخفيف فقليل فيها كذلك. وكذَّب يتعدى بنفسه. وقيل هو على إسقاط الخافض أي فيما رآه، قاله مكي وغيره. قال حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه:

لَوْ كُنْتُ صَادِقَةً الَّذِي حَدَّثْتَنِي لَنَجُوتِ مَنْجَا الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ^(٤)

أي في الذي حدثتني، وجوز «ما» في وجهين: أحدهما: أن تكون بمعنى «الذي»، فيكون المعنى: ما كذَّب الفؤاد الذي رأى بعينه، والثاني: أن تكون مصدرية.

(١) البيت للأخطل انظر اللسان ٣٢٨١/٤.

(٢) هشام بن عمار بن نصير بن ميسرة أبو الوليد السلمي وقيل: الظفري الدمشقي، إمام أهل دمشق وخطيبهم ومقرنهم ومحدثهم ومفتيهم، ولد سنة ثلاث وخمسين ومائة، وقال النسائي: لا بأس به وقال الدارقطني: صدوق كبير المحل، وكان فصيحاً علامة واسع الرواية، قال عبدان الأهوازي: سمعته يقول ما أعدت خطبة منذ عشرين سنة وقال محمد بن حريم: سمعته يقول في خطبته: قولوا الحق يريكم الحق منازل أهل الحق يوم لا يقضي إلا بالحق، وقال أبو علي أحمد بن محمد الأصبهاني المقرئ لما توفي أيوب بن تميم رجعت الإمامة في القراءة إلى رجلين: ابن ذكوان وهشام، قال: وكان هشام مشهوراً بالنقل والفصاحة والعلم والرواية والدراية رزق كبر السن وصحة العقل والرأي فارتحل الناس إليه في القراءات والحديث، مات سنة خمس وأربعين. ومائتين وقيل سنة أربع وأربعين غاية النهاية ٣٥٤/٢، ٣٥٥.

(٣) يزيد بن القعقاع الإمام أبو جعفر المخزومي المدني القارئ، أحد القراء العشرة تابعي مشهور كبير القدر، ويقال اسمه جندب بن فيروز وقيل: فيروز، مات بالمدينة سنة ثلاثين ومائة وقيل: سنة اثنتين وثلاثين، وقيل: سنة تسع وعشرين وقيل: سنة سبع وعشرين وقيل: سنة ثمان وعشرين. انظر غاية النهاية ٣٨٢/٢، ٣٨٣، ٣٨٤.

(٤) انظر ديوان حسان بن ثابت ص ٢١٣، ٢١٤.

ابن القيم: فيكون المعنى: ما كَذَّبَ فؤاده رُؤْيَتَهُ، وعلى التقديرين فهو إخبار عن تطابق رؤية القلب لرؤية البصر وتوافقهما، وتصديق كل واحد منهما لصاحبه، وهذا ظاهر في قراءة التشديد. وقد استشكلها طائفة منهم المُبَرِّد، وقال في هذه القراءة بُعْد، لأنه إذا رأى بقلبه فقد عَلِمَهُ أيضاً بقلبه، وإذا وقع العلم فلا كذب معه، فإذا كان الشيء في القلب معلوماً فكيف يكون معه تكذيب؟.

والجواب عن هذا من وَجْهَيْنِ: أحدهما: أن الرجل قد يتخيل الشيء على خلاف ما هو به فيكذبه قلبه، إذ يُرِيهِ صورةَ المعلوم على خلاف ما هي عليه كما تَكْذِبُهُ عَيْنُهُ، فيقال كَذَبَهُ قلبه وكَذَبَهُ ظَنُّهُ وكَذَبَتْهُ عَيْنُهُ، فنفي ذلك سبحانه وتعالى عن رسول الله ﷺ، وأخبر أن ما رآه الفؤاد كما رآه، كمن يرى الشيء على حقيقة ما هو به، فإنه يصح أن يقال لم تَكْذِبْهُ عَيْنُهُ. الثاني: أن يكون الضمير في «رأى» عائد إلى الرائي لا إلى الفؤاد، ويكون المعنى: ما كذب الفؤاد ما رآه البصر، وهذا بحمد الله لا إشكال فيه، والمعنى: ما كذب الفؤاد بل صدقه، وعلى القراءتين فالمعنى: ما أوهمه الفؤاد أنه رأى ولم يَرِ وَلَا أَتَاهُمْ بَصَرُهُ. انتهى.

اللباب تبعاً للإمام الرازي: «ويجوز أن يكون فاعل «رأى» ضميراً يعود على الفؤاد [أي] لم يشك قلبه فيما رأى بعينه». قال الزمخشري: [ما كَذَّبَ فؤاد محمد ﷺ ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام، أي ما قال فؤاده، لما رآه: لم أعرفه ولو قال ذلك لكان كاذباً، لأنه عرفه، يعني أنه رآه بعينه وعرفه بقلبه ولم يشك في أن ما رآه حق].

فما كَذَّبَ الفؤاد، هذا على قراءة التخفيف، يقال كَذَبَهُ إذا قال له الكذب، وأما على قراءة التشديد فمعناه: ما قال إن الذي رآه كان خفياً لا حقيقة له. وأما الرائي فقيل هو الفؤاد كأنه تعالى قال: ما كذب الفؤاد ما رآه الفؤاد، أي لم يقل إنه جن أو شيطان، بل تَيَقَّنَ أن ما رآه بفؤاده صدق صحيح. وقيل الرائي هو البَصْرُ أي ما كذب الفؤاد ما رآه البَصْرُ، ولم يتدارك أن ما رآه البصر خيال. ويُحْتَمَلُ أن تكون «أل» للجنس أي جنس الفؤاد، ويكون المعنى: ما كذب الفؤاد ما رأى محمد ﷺ، أي شهدت القلوب بصحة ما رآه محمد ﷺ.

واختلفوا في المرئي ما هو؟ فقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه حُلَّتَا رُفْرَفِ أَخْضَرٍ قَدْ مَلَأَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. رواه القرطبي والترمذي وصححه. وقيل رأى الآيات العجيبة. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: رأى ربه بفؤاده مرّتين، رواه مسلم وغيره. وسيأتي الكلام على رؤية الله تعالى في الباب الثالث.

السادس عشر: في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَلَسْتَمَارُؤُهُ عَلَى مَا يَرَى﴾.

[النجم: ١٢].

ابن القيم: «أنكر عليهم سبحانه وتعالى مكابرتهم وجحدهم له على ما رآه مما يُنكر على الجاهل مكابرتة لعالم، ومماراته له على ما عَلَّمَهُ».

اللباب: «قرأ الأخوان: «أَفْتَمُرُونَهُ» بفتح التاء وسكون الميم، والباقون «تَمَارُونَهُ»، وعبد الله بن مسعود والشعبي: «أَفْتَمُرُونَهُ» بضم التاء وسكون الميم. فأما الأولى ففيها وجهان: أحدهما: أنه من مَرَيْتُهُ حَقَّهُ إِذَا غَلَبْتُهُ عَلَيْهِ وَجَحَدْتُهُ إِيَّاهُ، وَعُدِّي بَعْلَى لَتَضَمُّنُهُ مَعْنَى الْغَلْبَةِ، وَأَنْشَدُوا:

لَعِنُ هَجْرَتِ أَخَا صِدْقٍ وَمَكْرَمَةٍ لَقَدْ مَرَيْتِ أَخَا مَا كَانَ يَمْرِيكَ

لأنه إذا جحده حقه فقد غلبه عليه. قال المُبَرِّدُ: يُقَالُ مَرَأَهُ عَنْ حَقِّهِ وَعَلَى حَقِّهِ إِذَا مَنَعَهُ مِنْهُ وَدَفَعَهُ عَنْهُ. قَالَ وَمِثْلُ «عَلَى» بِمَعْنَى «عَنْ» قَوْلُ بَنِي كَعْبِ بْنِ رَبِيعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَلَيْكَ أَيِ رَضِيَ عَنْكَ».

ابن القيم: «على بابها ليست بمعنى «عن» كما قاله المُبَرِّدُ، بل الفعل مُتَضَمِّنٌ مَعْنَى الْمَكَابِرَةِ، وَهَذَا فِي قِرَاءَةِ الْأَلْفِ أَظْهَرَ».

الثاني: أنه من مراه كذا على كذا أي غلبه فهو من المراء وهو الجِدَالُ. وأما الثانية: فهي من ماراه يماريه، جادله واشتقاقه من مَرَى الناقة، لأن كل واحد من المتجادلين يَمْرِي ما عند صاحبه. وكان من حقه أن يَتَعَدَّى بفي كقولك: جادله في كذا. وإنما ضُمِّنَ الْغَلْبَةُ فَعُدِّي تَعْدِيَّتِهَا. وأما قراءة عبد الله فمن «ماراه» رباعياً، والمعنى: «أفتجادلونه»، أي كيف تجادلونه على ما يرى مع أنه رأى ما رأى عَيْنَ الْيَقِينِ؟ ولا شك بعد الرؤية.

القرطبي: «والمعنيان متداخلان لأن مجادلتهم جحود، وقيل: إن الجحود كان دائماً منهم وهذا جدال جديد».

ابن القيم: «القوم جمعوا بين الجدال والدفع في الإنكار، فكان جدالهم جدال جحود ودفع لا جدال استرشاد وتبيين للحق. وإثبات الألف يدل على المجادلة، والإتيان بعلي يدل على المكابرة، فكانت قراءة الألف مُتَضَمِّنَةً لِلْمَعْنَيْنِ جَمِيعاً، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ جَادَلُوا حِينَ أُشْرِيَ بِهِ، فَقَالُوا صِفْ لَنَا بَيْتَ الْمَقْدِسِ، وَأَخْبِرْنَا عَنْ عَيْرِنَا فِي الطَّرِيقِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا جَادَلُوهُ بِهِ. والمعنى: أفتجادلونه جدالاً ترمون به دفعه عما رآه وعلمه وتيقنه؟ فإن قيل: هلاً قيل: أفتمارونه على ما رأى؟ بصيغة الماضي، لأنهم إنما جادلوه حين أُشْرِيَ بِهِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَمَا الْحِكْمَةُ فِي إِبْرَازِهِ بِصِيغَةِ الْمُضَارَعِ؟ فَالْجَوَابُ أَنَّ التَّقْدِيرَ: أفتمارونه على ما يرى؟ فكيف وهو قد رآه في المساء، فماذا تقولون فيه؟».

السابع عشر: في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾. [النجم: ١٣].

ابن القيم: «أخبر تعالى عن رؤيته لجبريل مرة أخرى. فالمرة الأولى كانت دون السماء بالأفق الأعلى والثانية كانت فوق السماء عند سدرة المنتهى».

ابن كثير: «هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التي خلقه الله عليها، وكانت ليلة الإسراء... وتقدم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يثبت الرؤية ليلة الإسراء ويستشهد بهذه الآية، وتابعه جماعة من السلف والخلف، وقد خالفه جماعات من الصحابة والتابعين». قلتُ وسيأتي تحقيق ذلك في بابه.

الباب: «الواو في «ولقد» يُحتمَل أن تكون عاطفة، ويُحتمَل أن تكون للحال، أي كيف تجادلونه فيما رآه، وهو قد رآه على وجه لا شك فيه؟ والنزلة فَعْلَةٌ من النزول كجلسة من الجلوس، وفي نصبها ثلاثة أوجه: أحدها: أنها منصوبة على الظرف الذي هو مَرَّةٌ، لأن الفَعْلَةَ إسم للمَرَّة من الفعل، فكانت في حكمها. قال الشهاب الحلبي: وهذا ليس مذهب البصريين، وإنما هو مذهب القراء، نقله عنه مكِّي. الثاني: أنها منصوبة نصب المصدر الواقع موقع الحال، أي رآه نازلاً نَزْلَةً أُخْرَى، وإليه ذهب الحوفي وابن عطية الثالث: أنها منصوبة على المصدر المؤكد، فقدَّره أبو البقاء مرةً أُخْرَى أو رؤيةً أُخْرَى. قال الشهاب الحلبي: وفي تأويل نَزْلَةَ برؤية، نظر، وأخرى تدل على سبق رؤية قبلها، وعند سدرة المنتهى ظرف مكان لرأى».

الثامن عشر: في الكلام على السدرة وإضافتها إلى المنتهى.

قال الإمام الرازي: «يُحتمَل وجوهاً: أحدها: إضافة الشيء إلى مكانه كقولك: أشجار بلدة كذا، فالمنتهى حينئذ موضع لا يتعداه ملك أو روح من الأرواح. قال كعب الأحمدي: هي في أصل العرش على رؤوس حَمَلَةِ العرش، وإليها ينقضى علمُ الخلائق وما خَلَفَهَا بحيث لا يعلمه إلا الله تعالى. ثانيها: إضافة المَحَلِّ إلى الحَالِ فيه، كقولك: كتاب الفقه، وعلى هذا فالتقدير: سدرة عندها منتهى العلوم. ثالثها: إضافة الملك إلى مالكة كقولك: دارُ زيدٍ أو شجرة زيد، وحينئذ المنتهى إليه محذوف تقديره: سدرة المنتهى إليه. قال الله تعالى: ﴿وَإِنِّي إِلَٰهِي رَبُّكَ الْمُنتَهَى﴾ [النجم: ٤٣]. فالمنتهى إليه هو الله تعالى، وإضافة السدرة إليه حينئذ كإضافة البينة للتشريف والتعظيم، كما يقال في التسبيح: يا غاية رُغْبَاهِ ويا منتهى أَمَلَاهِ».

القرطبي: «اختلف لم تُسمَّيت سدرة المنتهى على أقوال تسعة: الأول لأنه ينتهي إليها ما هبط من فوقها فيُقْبَضُ منها وإليها ينتهي ما يُعْرَجُ من الأرض، رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود. الثاني: علمُ الأنبياء ينتهي إليها ويُعْرَبُ عما وراءها، قاله ابن عباس. الثالث: أن الأعمال تنتهي إليها وتُقْبَضُ منها، قاله الضحاك. الرابع: لانتهاء الملائكة والأنبياء إليها

ووقوفهم عندها. الخامس: لأن أرواح الشهداء تنتهي إليها، قاله الربيع بن أنس. السادس: لأنه تأوي إليها أرواح المؤمنين، قاله قتادة. السابع: لأنه ينتهي إليها كل من كان على سنة محمد ﷺ ومنهاجه، قاله علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، والربيع بن أنس أيضاً. الثامن: [هي شجرة على رؤوس حَمَلَة العرش] إليها ينتهي علم الخلائق. التاسع: لأن من رُفِع إليها فقد انتهى في الكرامة.

الماوردي: «فإن قيل: لم اختيرت السُدْرَة دون غيرها؟ قيل لأن السُدْرَة تختص بثلاثة أوصاف: ظلٌ مديد، وطعمٌ لذيذ، ورائحةٌ ذكيّة، فشابهت الإيمان الذي يجمع قولاً ونيةً وعملاً، فظُلُّها من الإيمان بمنزلة العمل لتجاوزها، وطعمها بمنزلة النية لكرمونه أي استتاره، ورائحتها بمنزلة القول لظهوره».

الصحاح: «السُدْر شجر النبق الواحدة سُدْرَة والجمع سُدْرَات أي بكسر فسكون وسُدْرَات بكسرتين، وسُدْرَات بكسر ففتح، وسُدْر بكسر ففتح»، وسيأتي في شرح القصة الكلام على أصلها.

تنبيه: جاء في النهي عن قطع السُدْر أحاديث. فروى أبو داود والطبراني والبيهقي والضياء في صحيحه عن عبد الله بن حُبْشِيٍّ بضم المهملة ثم مُوحَّدة ساكنة، ثم معجمة بعدها ياء ثقيلة، ابن جُنَادَة، بضم الجيم وبالنون والذال المهملة، السُّلُولِي، بفتح السين المهملة ولا ميم، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَطَعَ سُدْرَةَ صَوَّبَ اللهُ رَأْسَهُ فِي النَّارِ»، زاد الطبراني يعني من سُدْر الحَرَم. وقال أبو داود رحمه الله تعالى: يعني من قَطَعَ السُدْرَ فِي فَلَاحٍ يَسْتَظِلُّ بِهَا ابْنُ السَّبِيلِ وَالْبَهَائِمُ عَبَثًا وَظُلْمًا بِغَيْرِ حَقِّ يَكُونُ لَهُ فِيهَا. وروى البيهقي عن أبي ثور أنه سأل الشافعي عن قطع السُدْر فقال: لا بأس به. وقد رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اغْسِلْهَا بِمَاءٍ وَسِدْرٍ»، فيكون محمولاً على ما حمله عليه أبو داود. وقال البيهقي: وروينا عن عُزْرَةَ أَنَّهُ كَانَ يَقْطَعُهُ وَهُوَ أَحَدُ رَوَاةِ النَّهْيِ، فَيُشَبَّهُ أَنْ يَكُونَ النَّهْيُ خَاصًّا كَمَا قَالَ أَبُو دَاوُدَ.

وقال الخطابي: سئل المُزْنِي^(١) عن هذا فقال: وجهه أن يكون النبي ﷺ سئلَ عَمْرٍ هَجَمَ عَلَى قَطْعِ سِدْرٍ لِقَوْمٍ أَوْ يَتِيمٍ أَوْ لِمَنْ حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُقْطَعَ عَلَيْهِ، فَتَحَامَلَ عَلَيْهِ فَتَقَطَعَهُ فَاسْتَحَقَّ مَا قَالَ، فَتَكُونُ الْمَسْأَلَةُ سَبَقَتْ لِسَامِعٍ فَسَمِعَ الْجَوَابَ وَلَمْ يَسْمَعْ الْمَسْأَلَةَ وَجُعِلَ نَظِيرُهُ

(١) إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل بن عمرو بن إسحاق أبو إبراهيم، المزني، المصري، الفقيه الإمام صاحب التصانيف. أخذ عن الشافعي وكان يقول: أنا خلق من أخلاق الشافعي، كان زاهداً، عالماً، مجتهداً، مناظراً، محجاجاً، غواصاً على المعاني الدقيقة، صنف كتباً كثيرة قال الشافعي: المزني ناصر مذهبي. ولد سنة خمس وسبعين ومائة وتوفي في رمضان، وقيل: في ربيع الأول سنة أربع وستين ومائتين، وكان مجاب الدعوة. انظر طبقات ابن قاضي شهبة ٥٨/١.

حديث أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ قال: «إنما الربا في النسيئة»، فسمع الحواري ولم يسمع المسألة وقد قال: «لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلاً بمثل يداً بيد». واحتج المزني بما احتج به الشافعي من إجازة النبي ﷺ أن يُغسل الميت بالسدر، ولو كان حراماً لم يَجُز الانتفاع به. وقال: والورق من السدر كالغصن. قال: وقد سَوَّى رسول الله ﷺ، فيما حَرَّمَ قَطْعَهُ من شجر الحرم بين ورقه وغيره، فلما لم يَمْنَع من ورق السدر، دَلَّ على جواز قطع السدر.

قال الشيخ رحمه الله تعالى في فتاويه: «والأولى عندي في تأويل الحديث أنه محمول على سدر الحرم، كما وقع في رواية الطبراني. قال ابن الأثير في النهاية: «قيل أراد به سدر مكة لأنها حرم وقيل سدر المدينة، نهى عن قطعه ليكون أنساً وظلاً لمن يهاجر إليها، وقيل أراد السدر الذي يكون في الفلاة يستظل به أبناء السبيل والحيوان أو في ملك إنسان، فيتحامل عليه ظالم فيقطعه بغير حق، ومع هذا فالحديث مضطرب الرواية فإن أكثر ما يُروى عن عروة بن الزبير، وكان هو يقطع السدر ويتخذ منه أبواباً. قال هشام: وهذه أبواب من سدر قَطَعَهُ أَبِي، وأهل العلم مُجمعون على إباحة قطعه».

وروى أبو داود عن حسان بن إبراهيم قال: «سألت هشام بن عروة عن قطع السدر، وهو مُشند ظهره إلى قصر عروة، قال: ترى هذه الأبواب والمصاريع إنما هي من سدر قطعه أبي من أرضه».

التاسع عشر: في الكلام على قوله تعالى: ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ [النجم: ١٥] قال القرطبي: هذا تعريف بموضع جنة المأوى وأنها عند سدر المنتهى، وهي عن يمين العرش، وقيل أوى إليها آدم عليه الصلاة والسلام إلى أن أُخْرِجَ منها. وقيل: إن أرواح المؤمنين كلهم في جنة المأوى، وهي تحت العرش فيتنعمون [بنعيمها ويتنسمون بطيب ريحها]. وقيل: لأن جبريل وميكائيل عليهما السلام يأويان إليها.

اللياب: «جملة إبتدائية في موضع الحال، والأحسن أن يكون الحال الظرف، وجنة المأوى فاعل به. والعامّة أن جنة إسم مرفوع وقرأ أمير المؤمنين علي، وأبو الدرداء^(١)، وأبو هريرة، وابن الزبير، وأنس من الصحابة رضي الله تعالى عنهم وزير بن حُبَيْش، ومحمد بن كعب من التابعين: جنة فعلاً ماضياً، والهاء ضمير المفعول يعود للنبي ﷺ، والمأوى فاعل

(١) عومر بن زيد بن قيس الأنصاري، أبو الدرداء، مختلف في اسم أبيه وإنما هو مشهور بكنيته، وقيل: اسمه عامر، وعومر لقب، صحابي جليل، أول مشاهده أحد، وكان عابداً، مات في آخر خلافة عثمان، وقيل: عاش بعد ذلك.

بمعنى سِتْرَةٌ إِيوَاءُ اللَّهِ إِيَّاهُ. وَيُقَالُ ضَمَّهُ الْبَيْتَ وَاللَّيْلَ، وَقِيلَ جَنَّهُ بِظِلَالِهِ وَدَخَلَ فِيهِ.

قال الإمام الرازي: «ويحتمل أن يكون الضمير في «عندها» على هذه القراءة عائداً إلى النِّزْلَةِ، أي عند النِّزْلَةِ جَنَّ مُحَمَّدًا الْمَأْوَى، أي سِتْرَهُ، والصحيح أنه عائد إلى، السُّدْرَةِ».

اللباب: «وهذا قول الجمهور، وقد أنكرت عائشة رضي الله تعالى عنها هذه القراءة، وتبعها جماعة وقالوا: «أَجَنَّ اللَّهُ مِنْ قَرَأَهَا». فإذا ثبتت قراءة عن مثل هؤلاء فلا سبيل إلى ردها. ولكن المستعمل إنما هو «أَجَنَّهُ» رباعياً، فإن استعمل ثلاثياً تَعَدَّى «بعلی»، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ [الأنعام: ٧٦]. وقال أبو البقاء: هو شاذٌ والمستعمل: «أَجَنَّهُ».

العشرون: في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم: ١٦].

ابن القيم: «لما ذكر سبحانه رؤية محمد ﷺ لجبريل عليه السلام عند سدره المنتهى، استطرد منها وذكر أن جنة المأوى عندها وأنه يغشاها من أمره وخلقه ما يغشى، وهذا من أحسن الاستطراد، وهو أسلوب لطيف جداً في القرآن».

اللباب: «إِذْ» منصوب يراه.

الإمام: «العامل في «إِذْ» ما قبلها أو ما بعدها، فيه وجهان. فإن قلنا ما قبلها ففيه احتمالان: أظهرهما رآه أي رأى وقت ما يَغْشَى السُّدْرَةَ الذي يَغْشَى. والاحتمال الثاني العامل فيه الفعل الذي في النزلة أي رآه نزلة أخرى، تلك النزلة وقت ما يغشى السدره ما يَغْشَى، أي نزوله لم يكن إلا بعد ما ظهرت العجائب عند السُّدْرَةِ وَغَشِيَهَا مَا غَشِيَهَا، فحيث نزل محمد نَزْلَةً، إشارة أنه لم يرجع من غير فائدة. وإن قلنا العامل فيه ما بعدها فالعامل: ما زاغ البصر، أي ما زاغ بَصْرُهُ وقت غشيان السدره ما غشيتها.

واختلفوا فيما يغشى السدره فقيل فَرَّاشٌ أو جرادٌ من ذهب وهو قول ابن عباس وابن مسعود والضحاك. قال القرطبي: ورواه ابن مسعود وابن عباس مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: «رَأَيْتُ السُّدْرَةَ يَغْشَاهَا فَرَّاشٌ مِنْ ذَهَبٍ وَرَأَيْتُ عَلَى كُلِّ وَرْقَةٍ مَلَكًا يُسَبِّحُ اللَّهَ تَعَالَى».

قلتُ وقول الإمام: «إن هذا ضعيف، لأن ذلك لا يثبت إلا بدليل سمعي، فإن صح فيه خبر وإلا فلا وجه له قصور شديد، فإن الحديث في صحيح مسلم وغيره. ومثله لا يقال بالرأي. وقيل: ملائكة يَغْشَوْنَهَا كأنهم طيور يرتقون إليها مُتَشَوِّقِينَ مُتَبَرِّكِينَ بها زائرين كما يزور الناس الكعبة، وقيل يغشاها أنوار الله تعالى لأن النبي ﷺ لما وصل إلى السُّدْرَةِ تجلى لها ربه تبارك وتعالى كما تجلى للجن، فظهرت الأنوار، ولكن السُّدْرَةُ كانت أقوى من الجبل وأثبت، فجعل الجبل دَكًّا، ولم تتحرك الشجرة وخرَّ موسى صعقاً، ولم يتزلزل محمد ﷺ».

قلت: ولا منافاة بين هذه الأقوال، فقد ورد أن كلاً منها يغشاها كما سيأتي ذلك في القصة. وقيل أبهمه تعظيماً له كأنه قال: إذ يَغْشَى السدرة ما الله أعلم به من دلائل ملكوته وعجائب قدرته.

الإمام: «يغشى يستر، ومنه الغواشي أو من معنى الإتيان، يقال فلان يَغْشَانَا كل وقت أي يأتينا، الوجهان محتملان».

الحادي والعشرون: في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾:

الصحاح: «الزَيْغُ المَيْلُ، وقد زَاغَ يَزِيغُ وزَاغَ الْبَصَرُ أي مال».

ابن القيم: «قال ابن عباس: «ما زَاغَ الْبَصَرُ يميناً ولا شمالاً، ولا جاوز ما أمر به». وعلى هذا المُفَسِّرُونَ، فنفى تعالى عن نبيه ﷺ ما يعرض للرأي الذي لا أدب له بين أيدي الملك والعظماء من التفاته يميناً وشمالاً لما بين يديه، وأخبر عنه بكمال الأدب في ذلك المقام، وفي تلك الحضرة، إذ لم يلتفت جانباً، ولم يمدَّ بَصْرَهُ إلى غير ما أرى من الآيات وما هناك من العجائب، بل قام مقام العبد الذي أوجب أدبه إطرأه وإقباله على ما أريد له دون التفاته إلى غيره، ودون تطلعه إلى ما لم يره، مع ما في ذلك من ثبات الجأش وسكون القلب وطمأنينته. وهذا غاية الكمال. فزَيْغُ الْبَصَرِ التفاته جانباً، وطمأنينه مدته أمامه إلى حيث ينتهي. فتزة في هذه السورة عملة عن الضلال وقصده عن الغي ونطقه عن الهوى وفؤاده عن تكذيب بصره، وبصره عن الزيف والظغيان. وهكذا يكون المدح:

تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانِ مِنْ لَبِنٍ شَيْبًا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالًا

اللباب تبعاً للإمام الرازي: «اللام في البصر تحمّل وجهين: أحدهما: المعروف وهو بصر محمد ﷺ، أي ما زَاغَ بَصَرُ مُحَمَّدٍ، وعلى هذا فعدم الزيف لوجوه: إن قلنا الغاشي للسدرة هو الجراد أو الفَرَّاش، فمعناه لم يلتفت محمد إليه ولم يشتغل به، ولم يقطع نظره عن مقصوده. وعلى هذا فَعَشِيَانِ الجراد والفَرَّاش يكون ابتلاء وامتحاناً للنبي ﷺ. وإن قلنا أنوار الله تعالى فيه وجهان: أحدهما: لم يلتفت مُنَنَّةً ويُسْرَةً، بل اشتغل بمطالعتها، وثانيهما: ما زَاغَ الْبَصَرُ بضعفه، ففي الأول بيان أدب محمد ﷺ، وفي الثاني بيان قوته. الوجه الثاني في اللام: أنها لتعريف الجنس، أي ما زَاغَ بَصْرُهُ أصلاً في ذلك الموضع لعظم الهيبة. فإن قيل: لو كان كذلك لقال: ما زَاغَ بَصْرِي، فإنه أدل على العموم لأن التكررة في معرض النفي تعم. فالجواب هو كقوله تعالى: ﴿لَا تُذِرْكُمُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ولم يقل لم يدركه بصره.

الثاني والعشرون: في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا طَفَى﴾: [النجم: ١٧].

اللباب تبعاً للإمام الرازي: «فيه وجهان: أحدهما أنه عطف جملة مستقلة على جملة

أخرى. الثاني: أنه عطف جملة تقديره مُقَدَّرَةٌ على جملة. فمثال المستقلة: خرج زيد ودخل عمرو، ومثال المُقَدَّرَة: خرج زيد ودخل، الوجهان جائزان هنا. أما الأول فكأنه تعالى قال عند ظهور النور: ما زاغ بَصْرُ مُحَمَّدٍ وما طغى محمد بسبب الالتفات، ولو التفت لكان طاغياً. وأما الثاني فظاهر. فإن قيل بأن الغاشي للسُدْرَة جراد، فالمعنى لم يلتفت إليه وما طغى، أي ما التفت إلي غير الله تعالى، ولم يلتفت إلى الجراد ولا إلى غير الجراد، بل إلى الله سبحانه وتعالى. أما على قول من قال غَشِيهَا نور، فقوله تعالى: «ما زاغ» أي ما مال عن الأنوار. وما طغى، أي ما طلب شيئاً وراءه. وفيه لطيفة وهي أن الله تعالى قال: ما زاغ وما طغى ولم يُقَلِّ ما مال وما جاوز، لأن الميل في ذلك الموضع والتجاوز مذمومان، فاستعمل الزئغ والطغيان فيه. وفيه وجه آخر، وهو أن يكون ذلك بياناً لوصول النبي ﷺ إلى شدة اليقين الذي لا يقين فوقه، ووجه ذلك أن بصره ﷺ ما زاغ أي ما مال عن الطريق، فلم يَزِ الشيء على خلاف ما هو عليه بخلاف من ينظر إلى عين الشمس مثلاً، ثم ينظر إلى شيء أبيض فإنه يراه أصفر وأخضر، يزيع بَصْرُهُ عن جادة الإبصار. وقوله: «وما طغى» أي ما تَحَيَّلَ المعدوم موجوداً، وقيل: «وما طغى» أي ما تَحَيَّلَ المعدوم موجوداً وقيل: «وما طغى» أي ما جاوز ما أمر به.

الثالث والعشرون: في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾

[النجم: ١٨].

اللباب: «في الكبرى وجهان؛ أظهرهما أنه مفعول رأى من آيات ربه حال مَقْدَمِهِ، والتقدير: لقد رأى الآيات الكبرى من آيات ربه. والثاني أن «من آيات ربه» هو مفعول الرؤية، والكبرى صفة لآيات ربه. وهذا الجمع يجوز وصفه بوصف المؤنثة الواحدة، وحسنه هنا كونها فاصلة».

الإمام الرازي: «في الكبرى وجهان: أحدهما: أنهما صفة لمحذوف تقديره لقد رأى من آيات ربه. ثانيهما: صفة لآيات ربه، فيكون مفعول رأى محذوفاً تقديره: رأى من آيات ربه الكبرى آيةً أو شيئاً».

القرطبي: «ويجوز أن تكون «من» زائدة، أي رأى آيات ربه الكبرى. وقال بعضهم: آيات ربه الكبرى هي أنه رأى جبريل عليه السلام في صورته».

قال الإمام: «والظاهر أن هذه الآيات غير تلك لأن جبريل وإن كان عظيماً لكن ورد في الأخبار أن لله ملائكة أعظم منه. والكبرى تأنيث الأكبر، فكأنه تعالى قال: رأى من آيات ربه آيات هي أكبر الآيات. وروى الإمام أحمد والترمذي وصححه، عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: «رأى جبريل في حُلَّةٍ من زُفْرِفٍ قد ملأ ما بين السماء والأرض».

قال الحافظ: «وبهذه الرواية يُعرّف المراد بالرُفرف وأنه حُلَّة، ويُؤيِّده قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُتَكِينٌ عَلَى رُفْرِفٍ خُضِرٍ﴾ [الرحمن: ٧٦]. وأصل الرُفرف ما كان من الديداج رقيقاً حَسَن الصفة. ثم اشتهر استعماله في الستر، وكل ما فضل من شيء وُعِطِف وتُني فهو رُفرف».

القرطبي: «هو ما رأى تلك الليلة في مسراه في عوده وبدئه وهذا أحسن».

قال الإمام: «وهذه الآية تدل على أن النبي ﷺ لم يَرِ اللهُ تَعَالَى ليلة المعراج وإنما رأى آيات الله تعالى وفيه خلاف، ووجه الدلالة أنه تعالى ختم قصة المعراج ها هنا برؤية الآيات وقال سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] إلى أن قال: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ ولو كان رأى ربه لكان ذلك أعظم ما يمكن، فكانت الآية للرؤية، وكان أكبر شيء هو الرؤية».

ابن كثير: «وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة إلى أن الرؤية تلك الليلة لم تقع لأنه قال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك للناس».

خاتمة: اشتملت هذه الآيات على قَسَمِهِ تَعَالَى على هداية نبيه محمد ﷺ، وتنزيهه عن الهوى وصدقه فيما تلا، وأنه وَخِيَّ يُوحَى، يُوصَلُهُ إِلَيْهِ جبريل الشديد القوي عن الله تبارك وتعالى العَلِيِّ الأَعْلَى، واحتوت أيضاً على تزكية جملته ﷺ وعصمته من الارتباب في هذا المَشْرَى، ثم أخبر تعالى فيها عن فضيلته بقصة الإسراء وانتهائه إلى سِدْرَةِ المُنْتَهَى، وتصديق بصره فيما رُوي أنه رأى من آيات ربه الكبرى.

الباب الثالث

في اختلاف العلماء

في رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لربه تبارك وتعالى ليلة المعراج

اعلم أن الصواب الذي عليه أهل الحق [أن] رؤية الله سبحانه وتعالى ممكنة غير مستحيلة عقلاً، وأجمعوا أيضاً على وقوعها في الآخرة، وأن المؤمنين يَرَوْنَ الله تعالى. وزعمت طوائف من أهل البدع أن الله تعالى لا يراه أحدٌ من خلقه، وأن رؤيته مستحيلة عقلاً. وهذا الذي قالوه خطأ صريح وجهل قبيح.

وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ومن بعدهم من سلف الأمة على إثبات رؤية الله سبحانه وتعالى في الآخرة للمؤمنين. ورواها أحد وعشرون صحابياً عن النبي ﷺ، وآيات القرآن العظيم فيها مشهورة، واعتراضات المبتدعة عليها، لها أجوبة مذكورة في كتب المتكلمين من أهل السنة.

وأما رؤية الله تعالى في الدنيا فممكنة عقلاً وسمعاً، ومذهب أهل الحق أن الرؤية قوة يجعلها الله تعالى في خلقه، ولا يُشترط فيها اتصال الأشعة ولا مقابلة المرئي ولا غير ذلك. ولكن جرت العادة في رؤية بعضنا بعضاً بوجود ذلك على جهة الاتفاق لا على سبيل الاشتراط.

وقد قرّر أئمتنا المتكلمون ذلك بالدلائل الجليّة، ولا يلزم من رؤية الله تعالى إثبات جهة الله - تعالى عن ذلك - بل يراه المؤمنون لا في جهة، كما يعلمون أنه لا في جهة. وبيان الدليل العقلي على جوازها بطريق الاختصار أن الباري سبحانه وتعالى موجود، وكل موجود يَصِيحُ أن يُرَى، فالباري عَزَّ وَجَلَّ يَصِيحُ أن يُرَى. أما الصغرى فظاهرة، وأما الكبرى، فلأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدمًا. وقد تبيّن أن الموجود هو العلة لصحة الرؤية، ولا يلزم من جوازها وقوعها وعدم تعلّقها، إنما هو ليجزي عاداته تعالى بقدم خلقها فينا الآن، مع جواز خلقها فينا، إذ هي غير مستحيلة وهنا أبحاث محلّها الكتب الكلامية.

وبيان الدليل الشرعي على جوازها في الدنيا أن موسى بن عمران، رسول الله وكليمه، العارف به سأل الله سبحانه وتعالى الرؤية، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] مع اعتقاده أنه تعالى يُرَى، فسألها. وفي هذه الآية دليلان. الأول: مُحال أن يجهل نبي ما يجوز على الله تعالى وما لا يجوز عليه، بل لم يسأل إلا جائزاً غير مُحال، لاستحالة سؤال المُحال من الأنبياء، ولكن وقوعه ومشاهدته من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، ومن

أعلمه إياه وأطلعه عليه، فقال له تعالى غَيْرُ نَافٍ لِلْجَوَازِ: «لَنْ تَرَانِي»، دون لَنْ أَرَى الْمُؤَذِّنَةَ بنفسه أي لَنْ تُطِيقَ وَلَا تُحْتَمَلُ رُؤْيِي الْآنَ لِتَوْقُفِهَا عَلَى مُعَدِّ لَهَا فِي الرَّائِي لَمْ يَوْجَدْ فِيكَ بَعْدَ. ومثل له مثلاً بما هو أقوى من نبيّه موسى ﷺ وأثبتت، وهو الجبَلُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وهذا هو الدليل الثاني: وبيانه أنه تعالى علق رؤية موسى إياه تعالى باستقرار جبل المناجاة في مكانه وقت التجلي له، والشيء المعلق بالممكن ممكن، إذ معنى التعليق الإخبار بثبوت المعلق عند ثبوت المعلق به. وعلى هذا فالشرطية خبرية إذا كان الجزاء في الأصل خبرياً كما هنا. فثبت إمكان الرؤية ضرورة أن الله تعالى أخبر بوقوعها على بعض التقادير، والمُحال لا يقع على شيء من التقادير أصلاً، وإذا ثبت الإمكان انتفى الامتناع وبالعكس وهنا أبحاث محلها الكتب الكلامية. وقول موسى ﷺ: «تُبْتُ إِلَيْكَ»، أي من الإقدام على سؤالي إياه في الدنيا ما لم تُقدِّره لي. وقيل: إن قوله ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] إنما كان لما غَشِيَهُ مِنْ شِدَّةٍ مَا أَفْضَى بِهِ إِلَى أَنْ صَبِقَ، كما تقول من فعل جَائِرٍ عَرَكَ مِنْهُ مَشَقَّةٌ: تُبْتُ عَنْ فَعْلٍ مِثْلَهُ.

وقال القاضي أبو بكر الهذلي، في قوله تعالى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي ليس لبشر أن يطيق النظر إلي في الدنيا وأن من نظر إلي في الدنيا مات، أي في الحال، بشهادة صغق موسى إذ رأى الجبل، وقال القاضي: «وقد رأيت لبعض السلف والمتأخرين أن رؤيته تعالى في الدنيا ممتنعة، لا من حيث ذاتها، لثبوت جوازها فيها بما مر، وإنما امتنعت فيها لضعف تراكيب أهل الدنيا وقواهم، وكونها متغيرة عرضة للآفات من نوائب مقلقلة ونواكب للأكباد معلقة تنذر بالموت والفناء، فلم تكن لهم قوة على الرؤية في الدنيا. فإذا كان في الآخرة ورُكِبوا تركيباً آخر ورزقوا قوياً ثابتة باقية وأتمت أنوار أبصارهم وقلوبهم حصل بذلك قوّة على الرؤية في الآخرة».

وقد رأيت نحو هذا للإمام مالك بن أنس رحمه الله قال: «لم يُرَ فِي الدُّنْيَا لِأَنَّهُ بَاقِي وَلَا يُرَى الْبَاقِي بِالْفَانِي. فإذا كان في الآخرة ورزقوا أبصاراً باقية رُئِيَ الْبَاقِي بِالْبَاقِي» وهذا الذي قاله الإمام مالك كلام حسن مليح، وليس فيه دلالة على الاستحالة إلا من حيث ضعف القُدرة، فإذا قوى الله تعالى من شاء أقدره على حمل أعباء الرؤية في حقه في أي وقت كان.

قال الحافظ: «ورقع في صحيح مسلم ما يؤيد هذه التفرقة في حديث مرفوع فيه: «واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا». وأخرجه ابن خزيمة - بخاء معجمة مضمومة فزاي مفتوحة - من حديث أبي أمامة، ومن حديث عبادة بن الصامت. فإذا جازت الرؤية في الدنيا

عقلاً، فقد امتنعت سمعاً. لكن من أثبتها للنبي ﷺ له أن يقول إن المتكلم لا يدخل في عموم خطابه.

قال القاضي: «ولا حجة لمن استدل على منعها بقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] لاختلاف التأويلات في الآية، فقد قيل: المراد بالإدراك الإحاطة، فلا نفى فيها لمطلق الرؤية، وقيل: لا تدركه أبصار الكفار، وقيل غير ذلك: والجواب الصحيح أنه لا دلالة في هذا النفي على عموم الأوقات ولا حال من الأحوال لأنه مشكوك عنه. فمن أين أن المراد لا تدركه الأبصار في وقت من الأوقات ولا حال من الأحوال؟ بل يتعين الحمل على النفي بالنسبة إلى دار الدنيا جمعاً بين الأدلة السمعية.

وقال أبو العباس القرطبي في المفهم: «الأبصار» جمع مَحَلَّى بالألف واللام، فيقبل التخصيص، وقد ثبت ذلك سمعاً في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] فيكون المراد الكفار، بدليل قوله تعالى: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَيَّ رُبُّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] قال: فإذا جازت في الآخرة جازت في الدنيا لتساوي الوقتين بالنسبة إلى الرائي انتهى.

قال الحافظ: «وهو استدلال جيد».

وقد يُشْتَدَلُّ بهذه الآية على جواز إمكان الرؤية، إذ لو امتنعت الرؤية لما حصل التمدح في الآية بنفي الرؤية، ووجه الملازمة أن الممتنع مُتَنَفِّ في حد ذاته، فلا يكون نفيه صفة مدح، لأنه ضروري كالمعدوم الممتنع الرؤية، لا يُمدح بعدم رؤيته، إذ لا يكون: «المعدوم لا يُرى» تمدحاً، لامتناع رؤية المعدوم. وقد ثبت التمدح بنفي عدم رؤيته تعالى فتكون رؤيته ممكنة، والحاصل أن التمدح بنفي عدم الرؤية إنما يكون في إمكان رؤيته تعالى لكنه لا يُرى للامتناع وتعذر الإبصار والتحجب بحجاب الكبرياء والجلال لا في أنه لا يُرى لامتناع رؤيته تعالى. لكن الصفات السلبية على هذا، صفات تمدح، وإن جعلنا الإدراك في الآية عبارة عن الرؤية على وجه الإحاطة بجوانب المرئي وحدوده. فدلالة الآية حينئذ على جواز الرؤية بل على تحققها بالوقوع، أظهر من دلالتها على الجواز بما ذكر من التمدح. إذ المعنى على هذا لا تدركه الأبصار، إذ نظرت إليه على وجه الإحاطة، لأنه تبارك وتعالى، مع كونه مرئياً بالأبصار لا تدركه الأبصار على وجه الإحاطة، لتعالیه قطعاً عن التناهي وعن الاتصاف بالحدود التي هي النهايات والجوانب على ما تبين في كتب الكلام.

والإحاطة بما لا يتناهي مُحَال. ولهذا مزيد بيان يأتي في الكلام على حديث عائشة رضي الله عنها. ومع القول بجوازها في الدنيا، لم يحصل لبشر غير نبينا ﷺ، على ما في

ذلك من الخلاف، ومن ادعاها غيره فهو ضال. كما جزم بكفره الإمام موفق الدين الكواشي^(١) - بالفتح والتخفيف وبالمعجمة - والإمام المهدوي^(٢) في تفسيريهما، والإمام جمال الدين الأزدبيلي^(٣) - بالفتح وسكون الراء وضَم الدال المهملة وكسر الموحدة وسكون التحتية - في كتاب «الأنوار»، إذ قد سألتها نبي الله ورسوله وكليهما موسى بن عمران، ولم تحصل له، أفتحصل لآحاد الناس؟ هذا مما يُتوقفُ فيه.

فصل: وإذا عَلِم ما تقرر ففي رؤية النبي ﷺ لربه تبارك وتعالى ليلة المعراج مذهبان: ففتها عائشة وهو المشهور عن ابن مسعود، وجاء مثله عن أبي هريرة، وإليه ذهب كثيرون من المُحدِّثين والمتكلمين. وبالغ الحافظ عثمان عن سعيد الدارمي، فنقل فيه الإجماع، والثاني أنه رآه. وروى عبد الرازق عن مَعْمَر عن الحسن أنه كان يحلف بالله أن محمداً ﷺ رأى ربه. وروى ابن خزيمة عن عروة بن الزبير إثباتها، وكان يشتد عليه إنكار عائشة لها. وبه قال سائر أصحاب ابن عباس، وبه جزم كعب الأحمبار والزهري ومعمرو وآخرون. وبه قال الشيخ أبو الحسن الأشعري^(٤) وغالب أتباعه. وجنح ابن خزيمة إلى ترجيحه بما يطول ذكره. ثم اختلفوا:

(١) أحمد بن يوسف بن الحسن بن رافع بن الحسين بن سويدان الشيباني الموصلية، موفق الدين أبو العباس الكواشي: عالم بالتفسير، من فقهاء الشافعية. من أهل الموصل. كان يزوره الملك ومن دونه فلا يقوم لهم ولا يعاب بهم. من كتبه: «تبصرة المتذكرة» في تفسير القرآن، و«كشف الحقائق» و«تلخيص في تفسير القرآن العزيز». توفي ٦٨٠هـ. الأعلام ٢٧٤/١.

(٢) أحمد بن عمار بن أبي العباس المهدوي التميمي، أبو العباس: مقرر أندلسي أصله من المهدي بالقيروان. رحل إلى الأندلس في حدود سنة ٤٠٨هـ وصنف كتاباً، منها «التفصيل الجامع لعلوم التنزيل» وهو تفسير كبير للآيات، يذكر القراءات والإعراب، واختصره وسماه «التحصيل في مختصر التفصيل» توفي نحو ٤٤٠هـ. الأعلام ١٨٤/١.

(٣) محمد بن عبد الغني الأزدبيلي، جمال الدين: نحوي. له «شرح نموذج الزمخشري» في النحو. توفي سنة ٦٤٧هـ. الأعلام ٢١١/٦.

(٤) علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى، الشيخ أبو الحسن الأشعري البصري. إمام المتكلمين، وتاصر سنة سيد المرسلين، والذات عن الدين، والمصحح لعقائد المسلمين. مولده سنة ستين ومائتين، وقيل: سنة سبعين. أخذ علم الكلام أولاً عن أبي علي الجبائي شيخ المعتزلة، ثم فارقه، ورجع عن الاعتزال، وأظهر ذلك، وشرع في الرد عليهم، والتصنيف على خلافهم. وقال أبو بكر الصيرفي: وهو من نظراء الشيخ أبي الحسن، كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله الأشعري فحجرهم في أقماع السمسم. قال الخطيب البغدادي: أبو الحسن الأشعري المتكلم، صاحب الكتب والتصانيف في الرد على الملحدة وغيرهم من المعتزلة والرافضة، والجهمية والخوارج، وسائر أضاف المتدعة. وهو بصري سكن بغداد إلى أن توفي. وقد جمع الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر له ترجمة حسنة، ورد على من تعرض له بالطعن، وذكر فضائله، ومصنفاته، ومتابعته في كتبه المذكورة السنية، وانتصارها لها، وذبه عنها ومن أخذ عنه من العلماء الأعلام، سماه «تبيين الكذب المفترى فيما نسب إلى الشيخ أبي الحسن الأشعري»، وهو كتاب مفيد مطبوع ومتداول بين أهل العلم توفي في سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

انظر الطبقات لابن قاضي شهبة ١١٣/١، ١١٤، وتاريخ بغداد ٣٤٦/١١ ووفيات الأعيان ٤٤٦/٢ والبدية والنهاية ١٨٧/١١ وطبقات الشافعية للسبكي ٢٤٥/٢ وتبيين كذب المفترى ص ١٢٨ وشرحات الذهب ٣٠٢/٢ والنجوم الزاهرة ٢٥٩/٣ والجواهر المضية ٣٥٣/١.

هل رآه بعينه أو بقلبه؟ والقولان زويًا عن الإمام أحمد. وقال الإمام النووي: الراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ رأى ربه بعيني رأسه ليلة المعراج، وبسط الكلام على ذلك واستدل بأشياء نوزع في بعضها كما سيأتي بيانه في ذكر أدلة المذهب الأول.

وذهب جماعة إلى الوقف في هذه المسألة ولم يجزموا بنفي ولا إثبات لتعارض الأدلة، ورجح ذلك الإمام أبو العباس القرطبي في المفهم، وعزاه لجماعة من المحققين، وقواه بأنه ليس في الباب دليل قاطع. وغالب ما استدلت به الطائفتان ظواهر متعارضة قابلة للتأويل. قال: وليست المسألة من التعظيمات فيكتفى فيها بالدلالة الظنية، فإنما هي من المعتقدات فلا يكتفى فيها إلا بالدليل القطعي.

وقال السبكي رحمه الله في السيف المسلول: «ليس من شرطه أن يكون قاطعاً متواتراً بل متى كان حديثاً صحيحاً ولو ظاهراً وهو من رواية الأحاد، جاز أن يُعتمد عليه في ذلك لأن ذلك من مسائل الاعتقاد التي يُشترط فيها القطع، على أننا لسنا مكلفين بذلك». انتهى.

وقال القاضي في الشفاء وغيره: «لا مزية في الجواز، إذا ليس في الآيات: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿لَنْ نَرَاهُ قَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرَاهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣] نص في المنع للرؤية، بل هي مشيرة للجواز كما تقرر ذلك. وأما وجوب وقوعها لنبينا ﷺ، والقول بأنه رآه بعينه، فليس فيه قاطع أيضاً ولا نص يُعول عليه، إذ المُعول عليه فيه على آيتي النجم: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١] و﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧]. والتنازع بين الأئمة فيهما ماثور، والاحتمال لهما من حيث دلالتهما على الرؤية وعدمها ممكن، لعدم صراحتهما بها، لا أثر قاطع متواتر عن رسول الله ﷺ بذلك. وحديث ابن عباس أنه رآه بعينه أو بفؤاده إنما نشأ عن اعتقاد لم يُسند إلى النبي ﷺ حتى يُعتبر فيجب العمل باعتقاد مُضمّن من رؤيته ربه. ومثله حديث شريك عن أبي ذر في تفسير الآية بأن النبي ﷺ رأى ربه، وحديث مُعَاذ: «رَأَيْتُ رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ»^(١)، مضطرب الأسناد والمتن. وحديث أبي ذر مُخْتَلِفٌ من حيث اللفظ مُخْتَمِلٌ لأن يكون رآه أو لم يره، مُشْكِلٌ من حيث جعل ذاته نوراً، فزوي: «نوراً أنى أراه»^(٢). بفتح أوله وتشديد النون - أي نوراً لن أراه، أي ليجزي العادة بأن النور إذا غشى البصر حجبه في رؤيته لما وراءه، وزوي: «نوراني» أي بكسر النون الثانية وتشديد التحتية.

(١) أخرجه السوطي في اللاكئ ١٥/١ وأخرجه من طرق بنحوه الخطيب في التاريخ ١٥٢/٨ وابن سعد في الطبقات ٧/

٣٠٤ وابن الجوزي في الملل ١٦/١ وابن أبي عاصم في السنة ٢٠٤/١.

(٢) أخرجه مسلم (١٦١) والترمذي (٣٢٨٢) وأحمد في المسند ١٥٧/٥ وأبو نعيم في الحلية ٦١/٩ وسيأتي بتسامه في نص المصنف رحمه الله.

قال القاضي: «وهذه الراوية لم تقع لنا، ولا رأيها في أصل من الأصول، ومُحال أن تكون ذاته تعالى نوراً، إذ النور جسم يتعالى الله عَزَّ وَجَلَّ عنه، ومن ثمَّ كانت تسميته نوراً بمعنى ذي النور أو خالقه. وفي الحديث الآخر: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ فقال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ نُورًا». وليس يمكن الاحتجاج بواحد منهما لإفصاحهما بأنه لم يره، فإن كان الصحيح «رَأَيْتُ نُورًا»، فقد أخبر رسول الله ﷺ بأنه لم يره الله تعالى، وإنما رأى نوراً منعه وحجبه عن رؤية الله تعالى. وإلى قوله: «رَأَيْتُ نُورًا» يرجع قوله: «نور أنى أراه»، أي كيف أراه مع كون حجاب النور المُغشِّي للبصر، وهذا الحديث مثل الحديث الآخر من حيث المعنى: حجاب نور، كما رواه مسلم وغيره. وقال أيضاً في الإكمال: وقف بعض مشايخنا في هذا. وقال: ليس هذا عليه دليل واضح، ولكنه جائز، ورؤية الله تعالى في الدنيا جائزة.

ذكر أدلة القول الأول

زاد الشيخ ١٠ وعبد الرزاق وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُمْ عَنْ مَسْرُوقٍ، زَادَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَمَنْ بَعْدَهُ عَنْهُ، قَالَ: لَقِيَ ابْنَ عَبَّاسٍ كَعْبًا بِعَرَفَةَ فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّا بَنُو هَاشِمٍ نَزَعُمْ، وَفِي لَفْظِ نَقُولُ: إِنْ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ مَرَّتَيْنِ. فَكَبَّرَ كَعْبٌ حَتَّى جَاوَبَتْهُ الْجِبَالُ. ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ رُؤْيِيهِ وَكَلَامَهُ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ [فَكَلَّمَ مُوسَى مَرَّتَيْنِ] وَرَأَى مُحَمَّدًا ﷺ مَرَّتَيْنِ». ثُمَّ اتَّفَقُوا. قَالَ مَسْرُوقٌ: فَدَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَقُلْتُ يَا أُمَّتَاهُ، هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ؟ فَقَالَتْ: لَقَدْ قَفَّ شَعْرِي بِمَا قُلْتُ، أَيْنَ أَنْتِ مِنْ ثَلَاثٍ مَنْ حَدَّثَكَ هُنَّ فَقَدْ كَذَبَ، وَفِي لَفْظٍ: فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ وَفِي لَفْظٍ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، ثُمَّ قَرَأَتْ ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَخِيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَيْبٍ فَقَدْ كَذَبَ، وَفِي لَفْظٍ: فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: ﴿وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤] وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ قَدْ كَتَمَ فَقَدْ كَذَبَ، وَفِي لَفْظٍ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧] وَلَكِنَّهُ رَأَى جِبْرِيْلَ فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ.. زَادَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ قَالَ وَمَسْرُوقٌ: وَكُنْتُ مَتَكِنًا فَجَلَسْتُ فَقُلْتُ: أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣]. إِنْ أَوَّلَ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: «لَا، إِنَّمَا رَأَيْتُ جِبْرِيْلَ مُنْهَبِطًا».

وروى الإمام أحمد عن طريق قمام، ومسلم عن طريق مُعَاذِ بْنِ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ، وَمِنْ طَرِيقِ يَزِيدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، ثَلَاثُهُمْ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي فَرَسٍ: لَوْ رَأَيْتُ

رسول الله ﷺ لسأله، فقال: عن أي شيء كنت تسأله، قال: كنت أسأله: هل رأى ربه تبارك وتعالى. قال: إني قد سأله قلت: يا رسول الله: هل رأيت ربك؟ فقال: نُورٌ أتى أراه وفي رواية: رأيت نوراً.

تنبيهات

الأول: قال جماعة: لم تنفِ عائشة وقوع الرؤية بحديث مرفوع، ولو كان معها لذكرته، وإنما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرت من ظاهر الآية وما قالوه غفلة عن قولها: إنها سألت النبي ﷺ عن ذلك فقالت: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ فقال: «إنما رأيتُ جبريل منهباً».

الثاني: من قال: إن النبي ﷺ خاطبها على قدر عقلها، ومن حاول تخطئتها فيما ذهبت إليه فهو مخطيء قليل الأدب.

الثالث: قول ابن الجوزي: «إن أبا ذرّ سأل رسول الله ﷺ قبل الإسراء، فأجابه بما أجابه، ولو سأله بعد الإسراء لأجابه بالإثبات، ضعيف جداً، فإن عائشة رضي الله عنها سأله بعد الإسراء ولم تثبت لها الرؤية».

الرابع: احتجاج عائشة بالآية خالفها فيه ابن عباس، فروى الترمذي وحسنه من طريق الحَكَم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال: محمد رأى ربه. قلت: أليس الله تعالى يقول: «لا تدركه الأبصار؟» قال: «ويحك، ذلك نوره إذا تجلّى بنوره الذي هو نوره، وقد رأى ربه مرّتين». والحاصل أن المراد بالآية الإحاطة به عند رؤيته، لا نفي أصل رؤيته. وقال النووي: المراد بالإدراك الإحاطة، والله تعالى لا يُحاط به، وإذا ورد النص بنفي الإحاطة لا يلزم منه نفي الرؤية بغير إحاطة، وأما احتجاجها بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١] فالجواب عنه من أوجه: أحدها: أنه لا يلزم مع الرؤية وجود الكلام حال الرؤية، فيجوز وجود الرؤية من غير كلام، الثاني: أنه عام مخصوص بما تقدم من الأدلة، الثالث: ما قال بعض العلماء إن المراد بالوحي هنا الإلهام والرؤيا في المنام وكلاهما يسمى وحيًا. وأما قوله تعالى ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾. فقال الواحدي وغيره بمعناه غير مجاهر لهم بالكلام بل يسمعون كلامه تعالى من حيث لا يروونه، وليس المراد أن يكون هناك حجاب يفصل موضعاً عن موضع، ويدل على تحديد المحجوب، فهو بمنزلة ما يُسمع من وراء حجاب حيث لم يُرَ المتكلم.

الخامس: قول كعب: «وكلمه موسى مرتين»، فيه نظر. والحق أنه كلمه أكثر منهما، كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَلُكُ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه ١٧] وقوله عز وجل:

﴿وَمَا أَعْجَبَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٨٣]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا قَدْ فَتَا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ [طه: ٨٥] وقوله تَقَدَّسَ اسْمُهُ: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وقوله تعالى: ﴿أَذْهَبْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ [طه: ٤٣]، وقوله عز وجل ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْتِي إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ﴾، إلى غير ذلك من الآيات.

السادس: في غريب ما سبق.

«يا أمّاه»: أصله يا أمة^(١) والهاء للسكوت فأضيفت إليها ألف الاستغاثة فأبدلت تاء، ثم زيدت هاء السكوت بعد الألف. ووقع في كلام الخطابي إذا نادوا قالوا يا أمة عند السكوت وعند الوصل «يا أمّاه». فإذا تَفَجَّعُوا لِلتُّذْبَةِ قالوا: «يا أمّاه» والهاء للسكوت. وتَعَقَّبَهُ الكرماني بأن قول مسروق: «يا أمّاه» ليس للتُّذْبَةِ، إذ ليس هو تَفَجُّعاً عليها. قال الحافظ: وهو كما قال.

قَفَّ^(٢) شَغْرِي: قام من الفَرْع لِمَا حصل عندها من هيبة الله واعتقدته من تنزيهه واستحالة وقوع ذلك. قال النَّضْرُ - بالنون والضاد المعجمة - ابن شَمَيْل^(٣) - بضم الشين المعجمة وفتح الميم وسكون التحتية وباللام: القَفَّ - بفتح القاف وتشديد الفاء - كالقشعريرة، وأصله القَبْض والاجتماع لأن الجلد ينقبض عند الفرع فيقوم الشعر لذلك.

«أين أنت من ثلاث»، أي كيف يغيب فهْمُكَ عن هذه الثلاث وكان ينبغي أن يكون مُسْتَحْضِرَهَا ومعتقِدَ الكَذْبِ مِنْ يَدْعِي وقوعها.

«الفِرْزِيَّة» بالكسر: الكذب وجمعها فِرَى كعَنْب.

ذكر أدلة القول الثاني

تقدم حديث مسروق عن ابن عباس وكعب. وروى النسائي بإسناد صحيح عن طريق عكرمة عن ابن عباس قال: أتعجبون أن الخَلَّة تكون لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد ﷺ؟ ورواه ابن خزيمة بلفظ: «إن الله اصطفى إبراهيم بالخلَّة». إلى آخره. وروى ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي سلمة أن ابن عمر أرسل إلى ابن عباس رضي الله عنهم يسأله: هل رأى محمد ربه؟ فأرسل إليه أن نعم.

تنبيهات

الأول: قال الحافظ ابن كثير وابن حجر وغيرهما: جاءت عن ابن عباس أخبار مُطلَّقة

(١) انظر لسان العرب ١/١٤٤.

(٢) انظر اللسان ٥/٣٧٠٤، ٣٧٠٥.

(٣) النضر بن شميل بن خزيمة بن يزيد المازني التميمي، أبو الحسن: أحد الأعلام بمعرفة أيام العرب ورواية الحديث وفقه اللغة. توفي بحرو. من كُتبه: «الصفات» كبير، في صفات الإنسان والبهوت والجمال والإبل والغنم والطيور والكواكب والزرع، و«كتاب السلاح» و«المعاني» و«غريب الحديث» و«الأنواء». توفي ٢٠٣ هـ. الأعلام ٨/٣٣.

كما تقدم وأخبار مُقَيِّدة، فيجب حَمْلُ مُطْلَقِهَا عَلَى مُقَيِّدِهَا. فمن المُقَيِّدة ما رواه مسلم عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١]، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣]، قال: «رآه بفؤاده مرّتين». وروى أيضاً عن طريق عطاء عنه قال: «رآه بقلبه». وروى ابن مَرْدَوَيْهِ من طريق عطاء عنه أيضاً في الآية قال: «لم يره رسول الله ﷺ بعينه وإنما رآه بقلبه». وروى النسائي وابن خُزَيْمَةَ عن أبي ذَرٍّ في الآية قال: «رآه بقلبه ولم يره بعينه». وروى ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق موسى بن عبيد عن محمد بن كعب القُرظي - بالطاء المعجمة المشالة وبالتحتية - قال ابن جرير عن بعض أصحاب النبي ﷺ، قلنا: يا رسول الله، هل رأيت ربك؟ قال: لم أره بعيني، رأيتُه بفؤادي مرّتين»، ثم تلا ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨] وموسى ضعيف.

الثاني: قال الحافظ: المراد برؤية الفؤاد رؤية القلب، لا مجرد حصول العلم لأنه ﷺ كان عالماً بالله تعالى على الدوام. بل مراد من أنه أثبت له أنه رآه بقلبه أن الرؤية التي حصلت له خُلِقَتْ فِي قَلْبِهِ كَمَا تُخْلَقُ الرُّؤْيَا بِالْعَيْنِ لغيره، زاد صاحب السراج: «بخلاف غيره من الأولياء، فإنهم إذا أطلقوا الرؤية والمشاهدة لأنفسهم، فإنهم إنما يريدون «المعرفة» فاعلمه، فإنه من الأمور المهمة التي يغلط فيها كثير من الناس». انتهى. والرؤية لا يُشْتَرَطُ لَهَا شَيْءٌ مَخْصُوصٌ عَقْلاً وَلَوْ جَرَتْ الْعَادَةُ بِخُلُقِهَا فِي الْعَيْنِ. قال الواحدي: «وعلى القول بأنه رآه بقلبه جعل الله تعالى بصره في فؤاده، أو خَلَقَ لِفُؤَادِهِ بَصَراً حَتَّى رَأَى رَبَّهُ رُؤْيَا صَحِيحَةً كَمَا يُرَى بِالْعَيْنِ».

الثالث: على هذه الآثار المُقَيِّدة عن ابن عباس يمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة، بأن يُحْمَلُ نَفْيُهَا عَلَى رُؤْيَا الْبَصَرِ وَإِثْبَاتُهَا عَلَى رُؤْيَا الْقَلْبِ.

الرابع: قال ابن كثير: [فَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أُسُودُ بْنُ عَامِرٍ حَدَّثَنَا حَمَادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا] قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ»، فإنه حديث إسناده صحيح. على شرط الصحيح لكنه مختصر من حديث المنام كما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس.

الخامس: قال ابن كثير: من روى عن ابن عباس أنه رآه يبصره فقد أغرب فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة. وقول البغوي: وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه، وهو قول أنس والحسن وعكرمة فيه نظر. قلت: سبق البغوي إلى ذلك الإمام أبو الحسن الواحدي وقول ابن كثير: إنه لم يصح في ذلك شيء عن الصحابة فليس بجيد، قال: فقد روى الطبراني بسند صحيح عن ابن عباس أنه كان يقول: نظر محمد إلى ربه مرّتين: مرة يبصره ومرة بفؤاده.

الباب الرابع

في أي زمان ومكان وقع الإسراء

وفيه فصلان: الأول في مكانه. ففي رواية أنه كان عند البيت كما عند البخاري في باب بدء الخلق وفي باب المعراج في الحطيم، وربما قال في الحجر، والشك من فتادة كما بينه الإمام أحمد في روايته عن عفان عن همام ولقظه: «بيننا أنا في الحطيم»، وربما قال فتادة في الحجر. قال الحافظ: والمراد بالحطيم هنا الحجر، وأبعد من قال: المراد به ما بين الركن والمقام، أو ما بين زمزم والحجر. قال: وهو وإن كان مختلفاً في الحطيم بل هو الحجر أم لا فالمراد به هنا بيان البقعة التي وقع ذلك فيها لأنها لم تعدد لأن القصة متحدة باتحاد مخرجها.

وفي رواية الزمري عن أنس: «فُرج سقف بيتي وأنا بمكة»، وفي رواية الواقدي أنه: «أشري به من شغب أبي طالب»، وفي حديث أم هانئ عند الطبراني أنه «بات في بيتها»، قالت: ففقدته من الليل/ فقال: إن جبريل أتاني». قال الحافظ: والجمع بين هذه الأقوال أنه بات في بيت أم هانئ، وبيتها عند شغب أبي طالب، فُرج عن سقف بيته، وأضاف البيت إليه لأنه كان يسكنه، فنزل منه منزلة المالك، وأخرجه إلى المسجد، وكان به أثر النعاس، ثم أخرجه إلى باب المسجد، فأركبه البراق. قال: وقد وقع في مُرْسَل الحَسَن عند ابن إسحاق فأتاه فأخرجه إلى المسجد، وهو يؤيد هذا الجمع. انتهى.

وقال بعضهم: ليس بين قوله: «بيننا أنا في المسجد الحرام» وبين قوله: «في بيتي» وبين أم هانئ، تنافٍ لأنه قد يكون المراد بالمسجد الحرام.

الفصل الثاني: في زمانه: الصواب الذي اتفق عليه العلماء: أن الإسراء كان بعد البعثة. أما ما وقع في رواية شريك من قوله: «جاءه ثلاثة نفر قبل أن يُوحى إليه»، وفيه «فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى»، ولم يُعَيَّن المدة التي بين المجيئين، فيُحتمل على أن المجيء الثاني كان بعد أن أُوحِيَ إليه، وحينئذ وقع الإسراء والمعراج، وإذا كان بين المجيئين مدة فلا فرق بين أن تكون المدة ليلة واحدة أو ليالٍ كثيرة أو عدة سنين.

قال ابن كثير: «وهذا الحمل هو الأظهر»، وجزم به ابن القيم، وجرى عليه الحافظ، قال: «وبهذا يرتفع الإشكال عن رواية شريك، ويحصل به الاتفاق بأن الإسراء كان في اليقظة بعد البعثة وقبل الهجرة، ويسقط تشنيع الخطابي وابن حزم بأن شريكاً خالف الإجماع في دعواه أن المعراج كان قبل البعثة». قال الحافظ: «وأما ما ذكره بعض الشراح أنه كان بين الليلتين اللتين أتاه فيهما الملائكة سبع وقيل تسع وقيل ثلاثة عشر، فيُحتمل على إرادة السنين كما فهمه الشراح المذكور، وأجاب بعضهم بأن القبلية هنا هي في أمر مخصوص وليست

مطلقة، واخْتِئِلَ أن يكون المعنى قبل أن يُوحى إليه في شأن الإسراء والمعراج مثلاً، أي أن ذلك وقع بَعَثَةَ قبل أن يُنذَرَ به. ويؤيده قوله في حديث الزهري: فُرج سَقَف بيتي. انتهى.

واختلفوا في أي سنة كان، فحَزَمَ جَمَعَ بأنه كان قبل الهجرة بسنة، وجرى عليه الإمام النووي، وبالغ ابن حزم فنقل فيه الإجماع. وقال القاضي: قبل الهجرة بخمس سنين لأنه لا خلاف أن خديجة صَلَّت معه بعد فَرَض الصلاة، ولا خلاف أنها توفيت قبل الهجرة، ولا خلاف أن فَرَض الصلاة كان ليلة الإسراء، وتَعَقَّبَهُ ابن دِخْيَةَ بأن المراد بالصلاة التي صَلَّتْها معه هي التي كانت من أول البعثة، وكانت ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي، وإنما الذي فَرَض ليلة الإسراء الصلوات الخمس. وقد قالت عائشة رضي الله عنها: «إن خديجة رضي الله عنها ماتت قبل أن تُفَرَض الصلاة»؛ رواه ابن سعد، ويعقوب بن سفيان. فَالْمُعْتَمَدُ أن مراد من قال: بعد أن فَرِضَت الصلاة، ما فَرِض قبل الصلوات الخمس، إن ثبت ذلك. ومراد عائشة بقولها: ماتت قبل أن تُفَرَض الصلاة، أي الخمس، فيُجَمَع بين القولين بذلك. ويلزم منه أنها ماتت قبل الإسراء وقد حكى العسكري أنها ماتت قبل الهجرة بسبع سنين وسيأتي تحقيق ذلك في ترجمتها.

واختلفوا في أي الشهر كان [الإسراء] فحزم ابن الأثير وجمع، منهم النووي في فتاويه كما في النسخ المُعْتَمَدَة، بأنه كان في ربيع الأول، قال النووي: «ليلة سبع وعشرين». وجرى عليه جمع، وهكذا عن الفتاوى الإسني في المهمات، والأذرعى - بفتح أوله والراء وسكون الذال المعجمة بينهما - في التوسط، والزركشي في الخادم، والدميري في حياة الحيوان، وغيرهم. وكذا رأيت في عدة نسخ من الفتاوى وفي بعض النسخ من شرح مسلم كذلك، وفي أكثرها ربيع الآخر كما في نسخ الفتاوى. ونقله ابن دحية في الابتهاج، والحافظ في الفتح، وجمع عن الحرابي. والذي نقله عنه ابن دحية في كتابيه: التنوير والمعراج الصغير، وأبو شامة في الباعث، والحافظ في فضائل رجب، ربيع الأول. وقيل: كان في رجب، وحزم به النووي في الروضة تبعاً للرافعي، وقيل في رمضان، وقيل في شوال.

قال ابن عطية بعد أن حكى الخلاف والتحقيق: «إنه كان بعد شَقِّ الصحيفة وقبل بيعة العقبة». قال ابن دحية: «ويمكن أن يُعَيَّن اليوم الذي أسفرت عنه تلك الليلة، ويكون يوم الاثنين». وذكر الدليل على ذلك بمقدمات حساب من تاريخ الهجرة، وحاصل الأمر أنه استنبطه، وحاول موافقة كون المولد يوم الاثنين وكون المبعث يوم الاثنين وكون المعراج يوم الاثنين وكون الهجرة يوم الاثنين وكون الوفاة يوم الاثنين. قال: فإن هذه أطوار الانتقالات النبوية وجوداً ونبوة ومفراجاً وهجرة ووفاة، فهذه خمسة أطوار، فيكون يوم الاثنين في حقه ﷺ كيوم الجمعة في حق آدم عليه الصلاة والسلام فيه خُلِقَ وفيه أنزل إلى الأرض وفيه تاب الله عليه وفيه مات، وكانت أطواره الوجودية والدينية خاصة بيوم واحد. انتهى.

وروى ابن أبي شيبة عن جابر وابن عباس رضي الله عنهما قالاً: «وُلِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يوم الاثنين وفيه بُعِثَ وفيه عرج إلى السماء وفيه مات». وقولهما: «وفيه عرج إلى السماء» أراد الليلة لأن الإسراء كان بالليل اتفاقاً.

تنبيه: ذكر أبو الخطّاب بن دحية أن الإسراء كان في الليلة التي بين الأحد والاثنين على القول بأن الليلة تتبّع اليوم الذي قبلها. ثم قال: «ويدل على أن الليلة تتبّع اليوم الذي قبلها أن ليلة عَرَفة هي التي قبلها بإجماع، وكان بعضهم يقول: ليلة السبت في ظنّ الناس هي ليلة الجمعة». انتهى. والذي ذكره النحاة في باب التأريخ أن ليلة كل يوم هي التي قبله، لأن أول الشهر ليلة، وآخره يوم. وبذلك صرح أئمتنا الشافعية في غير موضع من كتبهم. وليلة عرفة وإن تأخرت عن يومها شرعاً فذلك في الحُكْم، وهو مشروعية الوقوف في هذا الوقت المخصوص، ولا يُفْتَرَضُ على ما سبق بقوله تعالى: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ لأن المُفَسِّرِينَ ذكروا فيه معنى غير هذا، فقال مجاهد: «في قضاء الله تعالى وعلمه لا يفوت الليل النهار حتى يدركه فيذهب بظلمته، وفي قضاء الله وعلمه لا يفوت النهار الليل حتى يدركه فيذهب بضوئه». رواه ابن المنذر.

وقال الضحاك: «لا يذهب الليل من ههنا حتى النهار من ههنا». رواه ابن أبي حاتم. وقال البغوي: «أي هما يتعاقبان بحساب معلوم لا يجيء أحدهما قبل وقته». وقيل لا يدخل أحدهما في سلطان الآخر، فلا تطلع الشمس بالليل ولا يطلع القمر بالنهار وله ضوء. فإذا اجتمعا وأدرك كل واحد منهما صاحبه قامت القيامة، وقيل: لا يتصل ليلٌ بليل ولا يكون بينهما نهار فاصل. والله أعلم.

الباب الخامس

في كيفية الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم وهل تكرر أم لا

وفيه فصلان: الأول: اعلم أنه لا خلاف في صحة الإسراء به ﷺ. إذ هو نص القرآن على سبيل الإجمال، وجاءت بتفصيله وشرح عجائبه أحاديث كثيرة منتشرة عن جماعة من الصحابة يأتي ذكرهم بعد في باب مُفْرَد، وإنما الخلاف في كيفية الإسراء، فاختلف العلماء في ذلك على أقوال: الأول وهو قول الأكثر إنه كان بالروح والجسد معاً يقظة لا مناماً، من مكة إلى بيت المقدس، إلى السموات الغلا إلى سُدْرَةِ المنتهى إلى حيث شاء العليّ الأعلى.

قال القاضي وغيره: «وهو الحق وعليه تدل الآية نصاً وصحيح الأخبار إلى السموات استفاضة ولا يُعَدَّل عن الظاهر من الآية والأخبار الواردة فيه، ولا عن الحقيقة المتبادرة إلى الأذهان من ألفاظهما، إلى التأويل، إلا عند الاستحالة وتَعَدُّر حَمَل اللفظ على حقيقته، وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة تُؤْذِن بتأويل، إذ لو كان مناماً لقال: سبحان الذي أسرى بروح عبده، ولم يقل: بِعَبْدِهِ، والعبد حقيقة هو الروح والجسد، ويدل عليه قوله تعالى ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧] أي ما عدل عن رؤية ما أمر برؤيته من عجائب الملكوت وما جاوزها لصراحة ظاهرة في كونه بجسده يقظة لأنه أضاف الأمر إلى البصر، وهو لا يكون إلا يقظة بجسده بشهادة: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٨]. ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة خارقة للعادة تُورث عدم صدقه، وإن كانت رؤيا الأنبياء وحيّاً، إذ ليس فيها من الأبلغية وخرق العادة ما فيه يقظة. وأيضاً لو كان مناماً لما استبعده الكفار ولا كذبوه، ولا ارتدّ به ضعفاء من أسلم وافتنوا به، لبُعْدِهِ عن ساحة العادة، ووقوعه في زمن يُسْتَبَعَد فيه جداً، إذ مثل هذه المنامات لا يُنْكَر، بل لم يكن منهم ذلك إلا بعد والتكذيب، والارتداد والافتتان إلا وقد علموا أن خبره إنما هو عن جسمه وحال يقظته».

وقد روى البخاري في باب الإسراء من صحيحه، وسعيد بن منصور في سننه عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة الإسراء. زاد سعيد: «وليست رؤيا منام».

قال الحافظ: «إضافة الرؤية للعين للاحتراز عن رؤيا القلب. وقد أثبت الله تعالى رؤيا القلب في القرآن بقوله: ﴿وَمَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١]، ورؤية العين بقوله ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧]. وأما ما رواه ابن مَرْدَوَيْهِ عن طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في الآية قال: «رأى أنه وصل مكة وأصحابه. فلما رَدُّهُ المشركون كان

لبعض الناس في ذلك فِتْنَةٌ». وما رواه ابن مردويه عن الحسن بن علي رضي الله عنهما، رَفَعَهُ قال: «رَأَيْتُ كَأَنَّ بَنِي أُمِيَّةٍ يَتَعَاوَرُونَ مِثْبَرِي هَذَا»، فقال: هي ﴿دُنْيَا تَنَالَهُمْ﴾، ونزلت هذه الآية، فكلاهما إسناد ضعيف والصحيح ما تَقَدَّمَ، وجزم بما قاله ابن عباس إنها رؤيا عَيْنَ لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ مجاهد وسعيد بن جُبَيْرٍ والحسن ومسروق وإبراهيم وقتادة وعبد الرحمن ابن زيد وغير واحد.

تنبيه: قال ابن دحية: «جنح البخاري إلى أن ليلة الإسراء كانت غير ليلة المعراج لأنه أفرد لكل منهما ترجمة» قال الحافظ: «ولا دلالة في ذلك على التغاير عنده، بل كلامه في أول الصلاة ظاهر في اتحادهما، وذلك أنه ترجم باب: كيف فُرِضَتِ الصَّلَاةُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ، والصلاة إنما فُرِضَتِ فِي الْمِعْرَاجِ، فَذَلَّ عَلَى اتِّحَادِهِمَا عِنْدَهُ، وَإِنَّمَا أَفْرَدَ كُلًّا مِنْهُمَا بِتَرْجُمَةٍ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا يَشْتَمِلُ عَلَى قِصَّةٍ مُنْفَرَدَةٍ وَإِنْ كَانَا وَقَعَا مَعًا.

القول الثاني: إن الإسراء كان بالجسد يقظة إلى بيت المقدس وإلى السماء بالروح، ذَهَبَ إِلَى هَذَا طَائِفَةٌ وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء: ١٠] فجعل المسجد الأقصى غاية للإسراء الذي وقع التَّعْجُبُ فِيهِ مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ كَانَ فِي بَعْضِ لَيْلَةٍ. وَالتَّعْجُبُ فِيهِ مِنَ الْكُفَّارِ تَعْجُبُ اسْتِحَالَةٍ، وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ تَعْجُبُ تَعْظِيمِ الْقُدْرَةِ الْبَاهِرَةِ. وَوَقَعَ التَّمَدُّحُ بِتَشْرِيفِ النَّبِيِّ ﷺ، وَإِظْهَارِ الْكِرَامَةِ لَهُ بِالْإِسْرَاءِ إِلَيْهِ. وَلَوْ كَانَ الْإِسْرَاءُ إِلَى مَكَانٍ زَائِدٍ عَلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى لَذَكَرَهُ تَعَالَى فَيَكُونُ ذِكْرُهُ أَبْلَغَ فِي الْمَدْحِ مِنْ ذِكْرِهِ فِيهِ..

وأجاب الأئمة عن ذلك بأن استدرجهم إلى الإيمان بذكر الإسراء أولاً، فلما ظهرت أمارات صدقه، وصححت لهم براهين رسالته، واستأنسوا بتلك الآية الخارقة، أخبرهم بما هو أعظم منها، وهو المعراج، فحدّثهم النبي ﷺ به، وأنزله الله تعالى في سورة النجم. ويؤيد وقوع المعراج عقب الأسراء في ليلة واحدة رواية ثابت عن أنس رضي الله عنه عند مسلم: «أَتَيْتُ بِالْبُرَاقِ فَزَكَيْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ»، فذكر القصة إلى أن قال: «ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا» وحديث أبي سعيد الخدري: بالخاء المعجمة المضمومة وبالذال المهملة - عند ابن إسحق: «فَلَمَّا فَرَزَعْتُ مِمَّا كَانَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ أُتِيَ بِالْمِعْرَاجِ». فذكر الحديث.

القول الثالث: إن الإسراء كان بالروح وإنه رؤيا منام، مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء وحي بشهادة: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وقوله ﷺ: «الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم»^(١).

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري ٦٧٠/٦ (٣٥٧٠).

واحتج من قال بهذا القول بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] ولو كان يقظة لقال: «الرؤية» بالتاء، وقول أنس في حديثه في رواية شريك: «وهو نائم بالمسجد الحرام». وذكر القصة الواردة ليلة الإسراء، ثم قال في آخرها: «استيقظت - أي انتبهت - من منامي وأنا في المسجد الحرام». وهذا المذهب يُعزى لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه فإن ابن إسحاق قال: «حدّثني يعقوب بن عُثْبَةَ بن المُغِيرَةَ بن الأَخْنَس أن معاوية بن أبي سفيان كان إذا سُئِلَ عن مَسْرَى رسول الله ﷺ قال: «كانت رؤيا من الله تعالى صادقة». ويعقوب وإن كان ثقة إلا أنه لم يُذكر معاوية فالحجة منقطعة.

ويُعزى أيضاً إلى عائشة رضي الله عنها، قال ابن إسحاق: «حدّثني بعض آل أبي بكر أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت تقول: «ما فقد جسد رسول الله ﷺ ولكن أُسْرِي بروحه». كذا فيما وقفت عليه من نسخ السيرة «فقد» بالبناء للمفعول. وفي الذي وقفت عليه من نسخ الشفا للقاضي «ما فقدت» بالبناء للفاعل وإسناد الفعل إلى تاء المتكلم.

وأجيب عن الأول بأن «الرؤيا» قد تكون بمعنى «الرؤية» في اليقظة كما نقله أبو الخطاب ابن دحية عن ابن عباس. قال الشيخ السهيلي في الروض: «وأنشدوا للراعي يصف صائداً:

وَكَبَّرَ لِلرُّؤْيَا وَهَشَّ فُوَادُهُ وَبَشَّرَ قَلْبًا كَانَ جَمًّا بِلَابِلُهُ

وقوله: ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] يدل على أنها رؤية عين، وإسراء شخص، إذا ليس في الحلم فتنة للناس من تعجبهم تعجب استحالة، حتى ارتد كثير من آمن. وقال الكفار: «يزعم محمد أنه أتى بيت المقدس ورجع إلى مكة في ليلته، والبعير تطرد إليها شهراً مقبلة وشهراً مذبذبة. ولو كانت رؤيا نوم لم يشتبه أحد منهم هذا، فمعلوم أن النائم قد يرى نفسه في السماء وفي المشرق وفي المغرب فلا يشتبه منه ذلك، ويؤيد كونها يقظة ما ورد من شربه تلك الليلة الماء الذي كان لسفار قريش، وضعوه في بعض مراحلهم في قدح وغطوه، فأصبحوا ولأماء فيه، فعجبوا لذلك. وإرشاد أصحاب البعير الذين ندب بعيرهم حين أنفره جس البراق حتى دلهم عليه، فأخبر أهل مكة بأماره ذلك، حتى ذكر الفرارئين السوداء والبرقاء، ووغده لقريش بقدم البعير التي أرشد أصحابها إلى بعيرهم وشرب مائهم أن تقدموا يوم الأربعاء». كما سيأتي بيان ذلك مبسوطاً في القصة. وهذا كله لا يكون إلا يقظة وقد تقدم في القول الأول عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الآية: هذه رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة الإسراء فراجعه.

في كيفية الإسراء برسول الله ﷺ وهل تكرر أم لا

وأجيب عن الثاني وهو قوله: «بيننا أنا وبين النائم واليقظان، ثم استيقظت» بأنه لا حجة في ذلك إذ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ «بين النائم واليقظان» إلى آخره أنه أول وصول المَلَكِ كان وهو نائم بشهادة حديث الحسن: «بيننا أنا نائم في الحجر جاءني جبريل فهُزَّنِي بَعْقِبِهِ، فجلستُ فلم أَر شيئاً فَعُدْتُ لمضجعي»، إلى أن قال: «فَجَرَّنِي إِلَى باب المسجد فإذا أنا بِدَابَّةٍ» أو أنه محمول على ابتداء الحال، ثم لما خرج إلى باب المسجد، فأركبه البُرَاق فاستمر في يقظته. وليس في الحديث أنه كان نائماً في القصة كلها. وأما قوله: «ثم استيقظت وأنا بالمسجد الحرام»، قال الحافظ: «إن قيل بالتَّعَدُّدِ فلا إشكال وإلا حِيلَ على أن معناه أَفَقْتُ أَي أَفَاقَ مما كان فيه من شغل البال بمشاهدة عجائب الملكوت ورجع إلى العالم الدنيوي فلم يرجع إلى عالم البشرية إلا وهو بالمسجد الحرام».

قال ابن كثير: «ويؤيد ذلك أنه ﷺ كان إذا أُوجِيَ إليه يستغرق فيه فإذا انتهى رجع إلى حالته الأولى، فَكُنِّيَ عنه بالاستيقاظ كما في حديث عائشة، حين ذهب رسول الله ﷺ إلى الطائف فكذبوه، قال: «فرجعت وأنا مهموم فلم أستيق إلا بقرن الثعالب» أي وهو مكان. وفي حديث أبي أسيد - بضم الهمزة وفتح المهملة - حين جاء بابنه إلى رسول الله ﷺ ليُحَنِّكَهُ، فوضعه على فخذ رسول الله ﷺ. واشتغل رسول الله ﷺ بالحديث مع الناس. فرفع أبو أسيد ابنه ثم استيقظ رسول الله ﷺ، فلم يجد الصبي فسأل عنه فقالوا «رُفِعَ»، فسماه المُنذِرَ أحد رواته استيقاظاً. وهذا الحَمَلُ أَحْسَنُ من تغليب شريك.

تنبيه: قال بعضهم إنه ﷺ كان تلك الليلة نائم العين حاضر القلب، غَمَضَ عينيه لئلا يشغله شيء من المحسوسات عن الله. قال القاضي: «هذا غير صحيح لأن المقام مشاهدة عجائب الملكوت بشهادة قوله تعالى: ﴿لِئْرِيهِ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: ١]، ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٨]، إذ المتبادر منه رؤية العين، ولا يصح أيضاً أن تكون في وقت صلاته بالأنبياء».

وأما ما يُغزى لعائشة رضي الله عنها، فلم يرد بَسَنَدٍ يصلح للحجة بل في سَنَدِهِ انقطاع وارد مجهول كما تقدم. وقال أبو الخطَّاب بن دحية في التنوير: إنه حديث موضوع عليها. وقال في معراج الصغير: «قال إمام الشافعية القاضي أبو العباس بن سُرَيْج: هذا حديث لا يصح وإنما وُضِعَ رَدًّا للحديث الصحيح». انتهى.

وعلى تقدير أن يكون صحيحاً ورد بالبناء للمفعول فعائشة رضي الله عنها لم تُحَدِّثْ عن مشاهدة لأنها لم تكن زوجة إذ ذاك، أو بالبناء للفاعل: «ما فَعَدْتُ جسده الشريف» فعائشة لم يدخل بها إلا بالمدينة بالإجماع، ولا كانت وقت الإسراء في سِنٍّ من يَضْبُطُ الأمور، لأنها في سنة الهجرة كانت بنت ثمان سنين. فعلى القول بأن الإسراء كان قبلها بسنة تكون بنت سبع،

وعلى القول بأكثر من ذلك تكون أصغر من ذلك، وعلى قول من قال: إن الإسراء كان بعد البعث بعام لم تكن وُلدت.

تنبية: قال في زاد المعاد: «ينبغي أن يُعلم الفرق بين أن يقال: كان الإسراء مناماً وبين أن يقال: كان بروحه دون جسده، وبينهما فرق عظيم. وعائشة ومعاوية لم يقولوا: كان مناماً، وإنما قالوا: الإسراء بروحه ولم يُفقد جسده. وفُرق بين الأمرين، فإن ما يراه النائم قد يكون أمثالاً مضروبة للمعلوم في الصور المحسوسة، فيزى كأنه عُرج به إلى السماء، أو ذُهب به إلى مكة أو أقطار الأرض، وروحه لم تصعد ولم تذهب، وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال، والذين قالوا: عُرج برسول الله ﷺ طائفتان: طائفة قالت عُرج بروحه وبدنه، وطائفة قالت عُرج بروحه ولم يُفقد بدنه. وهؤلاء لم يريدوا أن المراج كان مناماً وإنما أرادوا أن الروح ذاتها أُسرى وعُرج بها حقيقةً وباشرت من جنس ما تباشر بعد المفارقة. وكان حالها في ذلك كحالها بعد المفارقة في صعودها إلى السموات سماءً سماءً، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، فتقف بين يدي الله تعالى فيأمر فيها بما يشاء، ثم تنزل إلى الأرض».

والذي كان برسول الله ﷺ ليلة الإسراء أكمل مما يحصل للروح عند المفارقة. ومعلوم أن هذا أمرٌ فوق ما يراه النائم. لكن لما كان رسول الله ﷺ في مقام خرق العوائد، حتى سُقَّ بطنه وهو حي لا يتألم بذلك، عُرج بذات روحه المقدسة حقيقةً من غير إماتة. ومن سواه: لا يتألم بذات رُوحه الصُّعود إلى السماوات إلا بعد الموت والمفارقة، إلى آخر كلامه، وسيأتي بتمامه في باب حياته ﷺ في قبره.

الفصل الثاني: في تكررهِ:

ذهب جماعة منهم الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل الشهير بأبي شامة رحمه الله تعالى إلى أن الإسراء وقع مراراً، واحتج بما رواه سعيد بن منصور، والبزار، والبيهقي، وابن عساكر عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أنا نائم إذ جاء جبريل عليه السلام فوكز بين كتفي، فقمْتُ إلى شجرة فيها مثل وَكزي الطير، فقع جبريل في أحدهما وقعدت في الآخر، فسَمْتُ وارتفعت حتى سَدَّت الخافقين، وأنا أقلب طرْفِي، فلو شِئْتُ أن أَمْس السماء لمسست وفتِح لي بابٌ من أبواب السماء فرأيتُ النور الأعظم، وإذا دون الحجاب زُفْر الدُر والياقوت، وفي رواية فذُلِّي بسبب وهبط النور فوق جبريل مَغشياً عليه كأنه جِلْس، فعرفتُ فَضْلَ خشيته على خشيتي، فأوحى الله تعالى إلي ما شاء أن يُوحِي، وفي رواية: فأوحى إلي نبياً ملكاً أو نبياً عبداً وإلى الجنة ما أنت، فأوماً إلي جبريل وهو مضطجع: أن تَوَاضَع. قال: قلت: لا بل نبياً عبداً.

شرح غريب ما سبق

«وَكَزَّ»^(١) ضرب برفق.«وَكَزِّي»^(٢) الطائر، تشبیه بفتح الواو وهو عُش الطائر إن كان في جبل أو شجر، والمراد هنا بيتان شبيهان بعُش في الهيئة والوضع لا في المقدار. «نَمَتْ» زادت.

«الخافقان» طرفا السماء والأرض أو المشرق والمغرب وخوافق السماء جهاتها التي تهب منها الرياح الأربع.

«لَمَسِسْتُ» بكسر أول سينية وفتحها وقد يُخَفَّف وتُنْقَل حركتها إلى الميم وقد تُثْرَك الميم مفتوحة.

«أَقْلَبُ طَرْفِي» حال من الضمير قبله أي مُقَلِّباً بَصْرِي في آيات الله في الآفاق.

«جَلَسَ»^(٣) بكسر الحاء والسين المُهْمَلَتَيْنِ: كِسَاءٌ يَلِي ظَهْر الدَابَّةِ تحت الرَّحْلِ يُشَبَّه به من لَزِمَ شيئاً من خَشْيَةٍ أو نحو ذلك.

«السَّبَبُ» في الأصل الذي يُتَوَصَّلُ به إلى الماء ثم استعير لكل ما يُتَوَصَّلُ به إلى شيء.

قال الحافظ: «وحدث أنس السابق رجاله لا بأس بهم إلا أن الدارقطني ذكر له علة تقتضي إرساله. وعلى كل حال فهي قصة أخرى، الظاهر أنها وقعت بالمدينة، قال ولا بُغْد في وقوع مثل ذلك في المنام، وإنما المُسْتَفْرَبُ وقوع التعدد في قصة المعراج التي وقع فيها السؤال عن كل نبي وسؤال أهل كل سماء: هل بُعِثَ إليه؟ وفرض الصلوات الخمس وغير ذلك، فإن تَعَدَّدَ بِمِثْلِ ذلك في اليقظة لا يتجه، فيتعين ردّ بعض الروايات المختلفة إلى بعض والترجيح، إلا أنه لا بُغْد في وقوع جميع ذلك في المنام، ثم وقوعه في اليقظة على وَفْقِهِ ولهذا مزيد بيان في الباب الثامن.

وذهب جماعة منهم المُهَلَّبُ شارح البخاري، وحكاه عن طائفة، وأبو نصر القشيري، والبغوي، والسهيلي، ونقل تصحيحه عن شيخه القاضي أبي بكر العربي، وجزم به النووي في فتاويه أن الإسراء وقع مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً في النوم ومَرَّةً في اليقظة. قالوا: «وكانت مرة النوم توطئة له وتيسيراً عليه، كما كان في بدء نُبُوَّتِهِ الرؤيا الصادقة، ليسهل عليه أمر النبوة، فإنه أمر عظيم

(١) انظر لسان العرب ٤٩٠٦/٦.

(٢) المعجم الوسيط ٣٥٣/٢.

(٣) اللسان ٩٦١/٢.

تضعف عنه القوى البشرية، وكذلك الإسراء سهله عليه الرؤيا لأن هؤله عظيم، فجاء في اليقظة على توطئة وتقدمة رفقاً من الله تعالى بعبده وتسهيلاً عليه.

قال الحافظ: «ومن المستغرب قول ابن عبد السلام في تفسيره: إن الإسراء كان في النوم واليقظة ووقع بمكة والمدينة، فإن كان يريد تخصيص المدينة بالنوم ويكون كلامه على طريق اللف والنشر غير المرتب فيحتمل، ويكون الإسراء الذي اتصل بالمعراج وفرضت فيه الصلاة بمكة، والآخر في المنام بالمدينة، وينبغي أن يُزاد فيه أن الإسراء في المنام تكرر بالمدينة النبوية. ففي الصحيح في الجنائز حديث سَمُرَةَ الطويل، وفي غيره حديث عبد الرحمن بن سَمُرَةَ الطويل، وفي الصحيح حديث ابن عباس رضي الله عنهما في رؤيا الأنبياء، وحديث ابن عمر في ذلك.

قلت وسيأتي في باب مناماته ﷺ ما فيه مَقْتَع.

الباب السادس

في دفع شبهة أهل الزينغ في استحالة المعراج

اعلم أن الإسراء برسول الله ﷺ لم يُخالف في وقوعه أحد من المسلمين، وإنما طعن فيه أهل الزينغ بشبه باطلة. وقد تصدى الإمام الرازي وغيره للرد عليهم، وأنا مُورد تلك الشبه ثم أتبعها بالرد. قال أهل الزينغ والضلالة قَبَّحَهُمُ اللهُ تبارك وتعالى: «الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد غير معقولة، ولو صعد إلى السموات لوجب خرق الأفلاك، وذلك مُحال، وصعود الجِزْم الثقيل إلى السموات غير مقبول، ولأن هذا المعنى لو صَحَّ لكان أعظم من سائر معجزاته، وكان يجب أن يظهر ذلك عند اجتماع الناس حتى يستدلوا به على صدقه من ادعاء النبوة، فأما أن يحصل ذلك في وقت لا يراه فيه أحد ولا يشاهده فإن ذلك يكون عبثاً لا يليق بالحكيم».

وأجيب عن الأول أن الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد ممكنة في نفسها، والله قادر على ذلك، ويدل على صحته أن الفلك الأعظم يتحرك من أول الليل إلى آخره ما يقرب من نصف الدور، وثبت في الهندسة أن نسبة القطر إلى الدور نسبة الواحد إلى ثلاثة وشُبع فبتقدير أن رسول الله ﷺ ارتفع من مكة إلى ما فوق الفلك الأعظم فهو لم يتحرك إلا إلى مقدار نصف القطر. فلما حصل في ذلك القدر من الزمان نصف الدور كان حصول الحركة بمقدار نصف القطر أولى بالإمكان، فهذا برهان قاطع على الارتفاع من مكة إلى ما فوق العرش في مقدار ثلث الليل وأنه أمر ممكن في نفسه. وإذا كان كذلك كان حصوله في كل الليل أولى بالإمكان.

وأيضاً ثبت في الهندسة أن ما بين طرفي قرص الشمس ضعف ما بين طرفي كرة الأرض مائة وستين مرة، ثم أنا نشاهد طلوع القرص يحصل في زمان لطيف سريع، فدل على أن بلوغ الحركة في السرعة إلى هذا الحد أمر ممكن في نفسه. فإن كان الكلام مع من لا يعرف الهندسة فنقول له: أنت تشاهد الشمس والقمر والنجوم تقطع من الشروق إلى الغروب مسافة لا يُقدر على قطعها في أعوام كثيرة.

وأيضاً كانت الرياح تُسَيَّر لسليمان بن داود عليهما السلام إلى المواضع البعيدة في الأوقات اليسيرة، قال الله تعالى: ﴿عُدُّوْهَا شَهْرًا وَرَوَّاحُهَا شَهْرًا﴾ [سبأ: ١٢]، والجيش يدل على ذلك وهو أن الرياح تنفذ عند شدة هبوبها من مكان إلى مكان آخر في غاية البُغْد في اللحظة الواحدة. وقد أحضر الذي عنده عِلْمٌ من الكتاب كرسى بلقيس من أقصى اليمن إلى

أرض الشام في أقل من لمح البصر. والأجسام متماثلة في تمام ماهياتها، فلما حصل مثل هذه الحركة في حق بعض الأجسام وجب إمكان حصولها في سائر الأجسام، فهي ممكنة والله تعالى قادر على حصولها في جسد النبي ﷺ.

والجواب عن الثاني: وهو خرق الأفلاك فليس بمحال وقد منعه الثفاة للجنة والنار. قال الشيخ سعد الدين: «ادعاء استحالة المعراج باطل؛ لأنه إنما يبنى على أصول الفلاسفة من امتناع الخرق والالتصام على السموات، وإلا فالخرق والالتصام على السموات واقع عند أهل الحق، والأجسام العلوية والسفلية متماثلة متركبة من الجواهر الفردة المتماثلة، يصح على كل من الأجسام ما يصح على الآخر ضرورة التماثل المذكور، فإذا أمكن خرق الأجسام السفلية أمكن خرق الأجسام العلوية والله قادر على الممكنات كلها، فهو قادر على خرق السموات وقد ورد به السمع فيجب تصديقه».

والجواب عن الثالث: فكما أنه يُشتَبَد صعود الجسم الكثيف يُشتَبَد نزول الجسم اللطيف الروحاني من العرش إلى مركز العالم. فإن كان القول بمعراج النبي ﷺ في الليلة الواحدة ممتنعاً كان القول بنزول جبريل عليه السلام من العرش إلى مكة في اللحظة الواحدة ممتنعاً كذلك، ولو حكمنا بهذا الامتناع كان ذلك طعناً في ثبوت جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والقول بثبوت المعراج فزوع على تسليم جواز أصل النبوة، فيلزم القائل بامتناع حصول هذه الحركة امتناع نزول جبريل عليه السلام. ولما كان ذلك باطلاً، كان ما ذكره باطلاً.

والجواب عن الرابع: إن في كونه ليلاً فوائد منها: ليزداد الذين آمنوا إيماناً بالغيب، ويفتن الذين كفروا زيادة على فتنهم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، ومنها أنه وقت الخلو والاختصاص عزفاً، فإن بين جليس الملك نهاراً وجليسه ليلاً قرناً واضحاً، والخصوصية لليل، ورحم الله من قال:

الليل لي ولأجباي أنادهم قدي اضطفئهم كني يسمعوا ويعوا

وقد أخبر النبي ﷺ بالعلامات التي تفيد اليقين من وصف بيت المقدس ووصف العير التي مر بها في طريقه، وأنها تصل إليهم في وقت كذا، فكان كما ذكر كما سيأتي مفصلاً. ومع ذلك قالوا: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف ٧]. فلا فرق بين أن يُريهم ذلك نهاراً وأن يُخبرهم بخبر يفيد اليقين، وقد أراهم انشقاق القمر فقالوا: هذا: ﴿سِحْرٌ مُنْتَمِرٌ﴾ [القمر: ٤].

الباب السابع

في أسماء الصحابة الذين رووا القصة عن النبي صلى الله عليه وسلم

أبي بن كعب رضي الله عنه، رواه عنه ابن مَزْدَوِيَه من طريق عُبَيْد بن عُمَيْر، ومن طريق مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما مختصراً، وعبد الله بن الإمام أحمد في زوائد المُسْتَنَد، وابن مَزْدَوِيَه وابن عساكر بلفظ حديث أنس عن أبي ذَرٍّ حرفاً بحرف. قال الحافظ في أطراف المُسْتَنَد: «إنه وقع تحريف وكان في الأصل: «عن أبي ذَرٍّ» فسقط من النسخة لفظة «ذَرٍّ» فظُنَّ أن «أبي» [هي] «أبي»، فأُدْرَج في مُسْتَنَد أبي بن كعب غلطاً».

قلت: بَهِ الدَّارِقُطَنِي في العِلَل على أن الروم فيه من أبي ضَمْرَةَ أنس بن عياض.

وأَسَامَةَ بن زيد، ذكره أبو حفص النسفي في تفسيره ولم أقف على حديثه. وأنس بن مالك فروايتَه عن النبي ﷺ من غير واسطة رواه عنه الإمام أحمد ومسلم من طريق ثابت البناني. والشيخان من طريق شريك بن عبد الله، وابن مَزْدَوِيَه من طريق كثير بن خُنَيْس. بضم الخاء المعجمة وفتح النون وسكون المُثَنَاءِ التحتية فسین مَهْمَلَةٌ. والنسائي، وابن مردويه من طريق يزيد بن أبي مالك وابن أبي حاتم من وجه آخر.

وابن جرير وابن مردويه والبيهقي من طريق عبد الرحمن بن هاشم^(١)، ورؤي من طريق عبد العزيز بن صهيب^(٢)، والطبراني من طريق ميمون بن سيّاه^(٣). بكسر السين المهملة بعدها مثناة تحتية. وابن جرير من طريق أبي سلمة بن سليم وابن مَزْدَوِيَه من طريق أبي هاشم عن علي بن زيد وعن ثُمَامَةَ. بضم المثناة أوله، وابن سعد وسعيد بن منصور، والبزار عن أبي عمران الجوني. بفتح الجيم. وعند بعض هؤلاء ما ليس عند الآخر.

وبُرَيْدَةَ. بضم أوله وفتح الراء وسكون المثناة التحتية. ابن الخُصَيْب. بحاء مضمومة فصاد مفتوحة مهملتين. رضي الله عنه، ورواه الترمذي والحاكم وصححه، وبلال بن حمّامة، وبلال بن سعد ذكرهما أبو حفص النسفي. وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما رواه الشيخان ورواه الطبراني وابن مردويه بلفظ آخر بسند صحيح. وحذيفة بن اليمان رضي الله عنه رواه ابن

(١) عبد الرحمن بن يونس بن هاشم، أبو مسلم المَشَقَلِي، البغدادي، مولى المنصور، صدوق، طعنوا فيه للرأي، من العاشرة، مات سنة أربع وعشرين، أو بعدها. التقريب ٥٠٣/١.

(٢) عُبد العزيز بن صهيب البناني، البصري، ثقة، مات سنة ثلاثين. التقريب ٥١٠/١.

(٣) ميمون بن سيّاه، أبو بحر البصري. كان أسن من الحسن البصري، وثقه أبو حاتم، والبخاري. وقال أبو داود: ليس بذلك. وضعفه يحيى بن معين. ميزان الاعتدال ٢٣٣/٤.

أبي شَيْبَةَ وأحمد والترمذي وصَحَّحَهُ وَسَمَّرَةُ بن جُنْدُب رضي الله عنه رواه ابن مردويه.

وسهل بن سعد رضي الله عنه رواه ابن عساكر، وشَدَّاد بن أَوْس رضي الله عنه رواه البَزَّار والطبراني والبيهقي وصَحَّحَهُ. وَصُهَيْب بن سِنَان رضي الله عنه رواه الطبراني وابن مردويه وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما رواه الإمام أحمد وأبو نُعَيْم وابن مردويه من طريق قابوس - بالقاف والمُوَحَّدَة - عن أبيه بسند صحيح. والإمام أحمد وأبو يُعْلَى من طريق عِكْرَمَة. والشيخان من طريق أبي العالية ومن طريق عِكْرَمَة. والإمام أحمد والنسائي والبَزَّار بسند صحيح عن طريق سعيد بن جُبَيْر. والإمام أحمد وابن أبي شَيْبَةَ والبزار بسند صحيح من طريق زُرَّارة بن أَوْفَى، وهذه الطرق كلها مُخْتَصَرَة.

وعبد الله بن عمر بن الخَطَّاب رضي الله عنهما رواه أبو داود والبيهقي. وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما رواه ابن سعد وابن عساكر. وعبد الله بن الزُّبَيْر رضي الله عنهما. وعبد الله بن أبي أَوْفَى رضي الله عنهما ذكرهما أبو حَفْص النَّسْفِي. وعبد الله بن أسعد بن زُرَّارة رضي الله عنهما رواه البَزَّار والبخاري وابن قانع كلاهما في معجم الصحابة. وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه رواه مسلم من طريق مُرَّة، وابن عَرَفَة من طريق أبيه عن عُبَيْدِ اللَّهِ. والإمام أحمد وابن ماجه من طريق مُؤَثَّر - بضم الميم وسكون الواو وكسر المثناة - ابن عَفَّازَة بفتح المهملة والفاء ثم زاي - الكوفي.

والبَزَّار وأبو يُعْلَى والطبراني من طريق عَلْقَمَة، والبيهقي من طريق زِرَّ - بكسر الزاي وبالراء - ابن حُبَيْش - بضم الحاء المهملة وفتح الموحدة وسكون التحتية وبالشين المعجمة. وعبد الرحمن بن عباس^(١)، ذكره ابن دِحْيَة في التنوير. والعباس بن عبد المطلب، وعثمان بن عَفَّان رضي الله عنه ذكره أبو حَفْص النَّسْفِي. وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه رواه الإمام أحمد وابن مردويه. وعمر بن الخطاب رضي الله عنه رواه الإمام أحمد وابن مردويه. وأنس بن عِيَّاض ذكره ابن دحية. ومالك بن صعصعة رضي الله عنه رواه عنه الإمام أحمد والشيخان وابن جرير والبيهقي وغيرهم. وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ذكره ابن دحية. وأبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه رواه الشيخان في أثناء حديث أبي بن كعب.

وأبو الحمراء رضي الله عنه رواه الطبراني. وأبو الدرداء رضي الله عنه ذكره أبو حفص النَّسْفِي. وأبو ذَرَّ الغِفَارِي رضي الله عنه رواه الشيخان. وأبو سعيد الخُدْرِي - بضم الخاء

(١) عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة النخعي، الكوفي، ثقة، مات سنة تسع عشرة. القريب ٤٨٥/١.

المعجمة والبدال المهملة - رضي الله عنه رواه ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي من طريق أبي هارون العبدي^(١) وهو مُتَكَلِّمٌ فِيهِ.

وقد روى البيهقي عن أبي الأزهر قال: حدثنا زيد بن أبي حكيم قال: «رأيت رسول الله ﷺ في النوم، فقلت: يا رسول الله أين رجل من أمتك يقال له سفيان الثوري لا بأس به؟ فقال النبي ﷺ: لا بأس به. حُذِّثْنَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْكَ أَنْكَ لَيْلَةَ أُسْرِي بِكَ قُلْتُ: رَأَيْتُ فِي السَّمَاءِ، فَحَدَّثْتُهُ بِالْحَدِيثِ، فَقَالَ: نَعَمْ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ نَاسًا مِنْ أُمَّتِكَ يُحَدِّثُونَ عَنْكَ فِي الْإِسْرَاءِ الْعَجَائِبِ. فَقَالَ: ذَاكَ حَدِيثُ الْقُصَّاصِ.»

وأبو سفيان بن حرب رضي الله عنه ذكره أبو حفص النسفي. وأبو سلمة بن دحية وأبو سلمى راعي رسول الله ﷺ ذكره أبو حفص النسفي. وأبو ليلي الأنصاري رضي الله عنه رواه الطبراني وابن مردويه. وأبو هريرة رضي الله عنه رواه مطولاً ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي والحاكم وصححه من طريق أبي العالبة، وفي سننه أبو جعفر الرازي وهو صدوق الحفظ، ومختصراً الشيخان من طريق سعيد بن المسيب، والإمام أحمد ومسلم من طريق أبي سلمة. والإمام أحمد وابن ماجه عن طريق أبي الصلت. وابن مردويه عن طريق سليمان التيمي. وابن سعد وسعيد بن منصور والطبراني من طريق مولاة. وأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها رواه ابن مردويه. وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها رواه الحاكم وصححه والبيهقي وابن مردويه من طريق الزهري عن عروة عنها. وابن مردويه من طريق هشام عن أبيه عنها.

وأم كلثوم بنت رسول الله ﷺ ورضي الله عنها ذكره أبو حفص النسفي. وأم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها رواه أبو سعيد وابن عساكر. وأم هانئ رضي الله عنها رواه الطبراني وأبو يعلى وابن عساكر عن طريق أبي صالح وابن إسحق بلفظ آخر. والله أعلم.

(١) عمارة بن جوين، أبو هارون العبدي. تابعي لمن بمزقة. كذبه حماد بن زيد. وقال أحمد: ليس بشيء، وقال ابن معين: ضعيف، لا يصدق في حديثه. وقال النسائي: متروك الحديث قال الجوزجاني: أبو هارون كذاب مُفْتَرٌّ. توفي سنة أربع وثلاثين ومائة. ميزان الاعتدال ١٧٣/٣، ١٧٤.

الباب الثامن

في سياق القصة

اعلم رحماني الله وإياك أن في حديث كل من الصحابة السابق ذكرهم في الباب السابع ما ليس في الآخر، فاستخرتُ الله تعالى وأدخلتُ حديث بعضهم في بعض ورُتبتُ القصة على نسقٍ واحد، لتكون أحلى في الأذان الواعيات، وليتعمَّ النفع بها في جميع الحالات. فإن قلت إن أحاديث المعراج كل حديث منها مخالف للآخر. فقد يكون المعراج تعدد بعدها فلم جعلت الكُلُّ قِصَّةً واحدة؟.

فأقول: قال في «زاد المعاد»: «هذه طريقة ضَعَفَاء الظاهرية من أرباب النُّقل الذين إذا رأوا في القصة لفظة تخالف سياق بعض الرواة جعلوه مرَّةً أخرى فكلما اختلفت عليهم الرواة عَدُّوا هم الوقائع والصواب الذي عليه أئمة النقل أن الإسراء كان مرَّةً واحدة بمكة بعد البعثة، ويا عَجَباً لهؤلاء الذين زعموا أنه وقع مراراً كيف ساغ لهم أن يظنُّوا أنه في كل مرة تُفرض عليه الصلاة خمسين، ثم يتردَّد بين ربِّه وبين موسى حتى تصير خمساً، ثم يقول: «أَمْضَيْتُ فريضتي وخَفَّفْتُ عن عبادي»، ثم يعيدها في المرة الثانية خمسين ثم يحطها عشرًا عشرًا؟.

قال الحافظ عماد الدين بن كثير رحمه الله تعالى في تاريخه، بعد أن ذكر أنه لم يقع في سياق مالك بن صعصعة ذِكْرُ بيت المقدس: «وكان بعض الرواة يحذف بعض الخبر للعلم به، أو ينساه، أو يذكر ما هو الأهم عنده، أو ينشط تارة فيسوقه كُله، وتارة يُحَدِّث مُخَاطِبَهُ بما هو الأنفع له» «ومن جعل كل رواية خالفت الأخرى مرَّةً على حدة، فأثبتت إسرارات متعددة فقد أبعد وأغرب وهرب إلى غير مهزَّب ولم يحصل على مطلب»، «وذلك أن كل السياقات فيها تعريفه بالأنبياء، وفي كلها تُفرض عليه الصلوات، فكيف يُدعى تعدد ذلك؟ هذا في غاية البُعد»، «ولم يُنقل ذلك عن أحد من السلف ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبي ﷺ به أمته ولنقله الناس على التكرار». انتهى.

وقال الحافظ في الفتح نحوه وزاد: «ويلزم أيضاً وقوع التعدد في سؤاله ﷺ عن كل نبي وسؤال أهل كل باب: هل بُعث إليه؟ وفرض الصلوات الخمس وغير ذلك، فإن تعدد مثل ذلك في القصة لا يتَّجِه، فيتَّعِن رَدُّ بعض الروايات المختلفة إلى بعض أو الترجيح إلا أنه لا يُعدُّ وقوع مثل ذلك في المنام توطئة ثم وقوعه يَقْظَةً». انتهى مُلْخَصاً.

إذا عَلِم ما تقرر فأقول: «بينما النبي ﷺ عند البيت في الحجر، إذ أتاه جبريل وميكائيل ومعهما ملك آخر، فقال أولهم: أيهم؟ فقال أوسطهم هو خيرهم. فكانت تلك الليلة، فلم يرههم حتى ليلة أخرى. فقال الأول: هو هو. فقال الأوسط: نعم، وقال الآخر: خذوا سيِّد القوم

الأوسط بين الرجلين. فرجعوا عنه حتى إذا كانت الليلة الثالثة، رآهم، فقال الأول: هو هو، فقال الأوسط: نعم، وقال الآخر: خذوا سيد القوم الأوسط بين الرجلين. فاحتملوه حتى جاءوا به زمزم، فألقوه على ظهره فتولاه منهم جبريل.

وفي رواية: «فُرج سقف بيتي، فنزل جبريل، فشق من ثغرة نخره إلى أسفل بطنه، ثم قال جبريل لميكائيل: اتيني بطست من ماء زمزم كيما أظهر قلبه وأشرح صدره، فاستخرج قلبه، فغسله ثلاث مرات، ونزع ما كان فيه من أذى، واختلف إليه ميكائيل بثلاث طسوت من ماء زمزم، ثم أتى بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغه في صدره، وملاه جِلماً وعِلماً وبقيناً وإسلاماً. ثم أطبقه ثم ختم بين كتفيه بخاتم النبوة، ثم أتى بالبراق مُشرجاً مُلجماً، وهو دابة أبيض، طويل فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، مضطرب الأذنين، إذا أتى على جبل ارتفعت رجلاه، وإذا هبط ارتفعت يداها، له جناحان في فخذه يحفز بهما رجله».

وعند الشعبي بسند ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما: «له خد كخد الإنسان وغرف كغرف الفرس وقوائم كالإبل وأظلاف وذنب كالبقرة». انتهى. «فاستصعب عليه» وفي رواية «فشمس»^(١)، وفي رواية كأنها صرحت^(٢) أذنيها فرزها جبريل وقال: مة أبع محمد تفعلين هذا؟ وفي رواية: «فوضع جبريل يده على معرفته ثم قال: «ألا تستحي يا براق؟ فوالله ما ركبك خلق». وفي رواية - عبثاً لله قط أكرم على الله منه. فاستحي حتى ازفص عرقاً، وقر حتى ركبها» - وفي رواية - ركبته. وكانت الأنبياء تركبها قبله». وقال أنس بن مالك: «كانت الأنبياء تركبها قبله». وقال سعيد بن المسيب، وأبو سلمة بن عبد الرحمن: «وهي دابة إبراهيم التي كان يزور عليها البيت الحرام».

فانطلق به جبريل - وفي رواية - فانطلقت مع جبريل. وعند أبي سعيد النيسابوري في الشرف: فكان الأخذ بركابه جبريل، وبزمام البراق ميكائيل - وفي رواية: جبريل عن يمينه، وميكائيل عن يساره. فساروا حتى بلغوا أرضاً ذات نخل. فقال له جبريل: انزل فصل ههنا، ففعل، ثم ركب. فقال له جبريل: أتدري أين صليت؟ قال: لا. قال: صليت بطيبة وإليها المهاجر. فانطلق البراق يهوي به، يضع حافره حيث أدرك طرفه. فقال جبريل: انزل فصل، ففعل. ثم ركب. فقال جبريل: أتدري أين صليت؟ قال: لا. قال: صليت بمدين عند شجرة

(١) شمس الدابة شمساً، وشماساً: جمعت ونفرت. انظر المعجم الوسيط ٤٩٦/١.

(٢) صرّ الفرس والحمار بأذنيه يصرّ صراً وصرها، وأصرّ بها: سواها ونصّبها للاستماع. انظر لسان العرب ٢٤٣٠/٤.

موسى. ثم ركب. فانطلق البراق يهوي. ثم قال: انزل فَصَلْ. ففعل. ثم ركب. فقال: أتدري أين صَلَّيْتُ؟ قال: لا. قال: صَلَّيْتُ بطور سينا حيث كَلَّمَ اللهُ موسى.

ثم بلغ أرضاً بدت له قصوراً. فقال له جبريل: انزل فَصَلْ. ففعل، ثم ركب وانطلق البراق يهوي. فقال له جبريل: أتدري أين صَلَّيْتُ؟ قال: لا. قال: صَلَّيْتُ بيت لحم، حيث وُلِدَ عيسى. وبينما هو يسير على البراق إذ رأى عِفْرِيْتاً من الجِنِّ، يطلبه بشعلة من نار، كلما التفت رآه. فقال له جبريل: أَلَا أَعْلَمُكَ كلمات تقولهن، فإذا قلتهن طَفِئَتْ شُعْلَتُهُ وَخَرَّ لِفِيهِ؟ فقال رسول الله ﷺ: بلى، فقال جبريل: «قُلْ أَعُوذُ بِوَجْهِ اللهِ الْكَرِيمِ، وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر، من شرِّ ما ينزل من السماء، ومن شرِّ ما يُعْرَجُ فيها، ومن شرِّ ما ذرأ في الأرض، ومن شرِّ ما يخرج منها، ومن شرِّ فِتْنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن». فانكبَّ لفيه وانطفأت شعلته.

فساروا حتى أتوا على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان فقال: يا جبريل ما هذا؟ قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تُضَاعَفُ لَهُمُ الْحَسَنَةُ بِسَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وما أنفقوا من شيء فهو يُخْلِفُهُ. ووجد ريحاً طيبة، فقال: يا جبريل ما هذه الرائحة؟ قال: هذه رائحة ماشطة بنت فرعون وأولادها، بينا هي تمشط بنت فرعون إذ سقط المشط، فقالت: بسم الله، تَعَسَّ فرعون. فقالت ابنة فرعون: أَوْلَيْكَ رَبِّ غَيْرَ أَبِي؟ قلت: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ. وكان للمرأة ابنان وزوج فأرسل إليهم فراود المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما، فقال: إني قاتلكما، فقالا: إحساناً منك إن قتلنا أن تجعلنا في بيت - وفي رواية قالت: إن لي إليك حاجة. قال: وما هي؟ قالت: تجمع عظامي وعظام ولدي، فتدفينا جميعاً. قال: ذلك لك بما لك علينا من الحق، فأمر بثقرة من نحاس فأخميته، ثم أمر بها لتلقى فيها هي وأولادها، فألقوا واحداً واحداً، حتى بلغوا أصغر رضيع فيهم، فقال: يا أمه قبي ولا تقاعسي فإنك على الحق. قال: وتكلم أربعة وهم صغار: هذا وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى ابن مريم عليه السلام.

ثم أتى على قوم تُرَضِّخُ رُؤُوسَهُمْ، كلما رُضِخَتْ عادت كما كانت. ولا يفتر عنهم من ذلك شيء. فقال: يا جبريل من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الذين تتشاغل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة. ثم أتى على قوم على أقبالهم رِقَاعٌ وعلى أدبارهم رِقَاعٌ، يَشْرَحُونَ كَمَا تَشْرَحُ الْإِبِلُ وَالغَنَمُ، ويأكلون الضريع والزقوم ورصف جهنم وحجارتها. فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين لا يؤدُّون صدقات أموالهم، وما ظلمهم الله شيئاً، ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج في قدور، ولحم آخر نقي خبيث، فجعلوا يأكلون من النقي الخبيث ويدعون النضيج. فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل من أمته تكون عنده المرأة الحلال الطيب، فيأتي

امرأة خبيثة، فبيبت عندها حتى يُصبح، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً، فتأتي رجلاً خبيثاً فتبيت معه حتى تُصبح.

ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب ولا شيء إلا خرقتة. فقال: ما هذا يا جبريل؟ فقال: هذا مثل أقوام من أممك يقعدون على الطريق فيقطعونه، وتلا: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: ٧٦] ورأى رجلاً يشبع في نهر من دم، يُلقم الحجارة، فقال: من هذا؟ قال: آكل الربا. وأتى على قوم قد جمع الرجل منهم جزمة عظيمة لا يستطيع حملها، وهو يزيد عليها، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل من أممك تكون عنده أمانات الناس لا يقدر على أدائها، ويريد أن يتحمل عليها.

ثم أتى على قوم تُقرض ألسنتهم وشفاهم بمقاريض من حديد كلما قرضت عاد، لا يفتر عنهم من ذلك شيء، فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء الفتنة من أممك يقولون ما لا يفعلون. ومرّ بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم.

وأتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردّها. وأتى على واد فوجد ريحاً طيبة باردة كريح المسك، وسمع صوتاً، فقال: يا جبريل ما هذا؟ قال: هذا صوت الجنة تقول: يا رب إيتني بما وعدتني، فقد كثرت عُرفي واستبرقي وحريري وسندسي، وعبقري^(١) ولؤلؤي ومزجاني وفضتي وذهبي، وأكوابي وصحافني وأباريقي ومراكبي وعسلي ومائي، ولبني وخمري. قال: لك كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة، ومن آمن بي وبرؤسلي، وعمل صالحاً، ولم يُشرك بي، ولم يتخذ من دوني أنداداً، ومن خشيني فهو آمن، ومن سألتني أعطيتُهُ، ومن أقرضني جزيتُهُ، ومن توكل عليّ كفيته، إني أنا الله لا إله إلا أنا، لا أخلف الميعاد، وقد أفلح المؤمنون، وتبارك الله أجسن الخالقين. قالت: قد رضيت.

وأتى على واد فسمع صوتاً مُنكراً ووجد ريحاً مُنتنة، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا صوت جهنم تقول: يا رب إيتني بما وعدتني، فقد كثرت سلاسلي وأغلالني وسعيري وخميمي وضميري وغشاقني وعذابي، وقد بُعد قعري واشتدّ حرّي، فأيتني بما وعدتني. فقال: لك كلُّ مُشرك ومُشركة، وكافر وكافرة، وخبيث وخبيثة، وكلُّ جبار لا يؤمن بيوم الحساب: قالت: قد رضيت.

(١) عقرى قيل: هو الدجاج. وقيل: البسط التوثية. وقيل: الطنائس الثخان. انظر النهاية لابن الأثير ١٧٣/٣.

ورأى الدُّجَّال في صورته رؤية عين لا رؤيا منام، فقيل: يا رسول الله كيف رأيتَه؟ فقال: رأيتَه فيلماً نياً أقمر هجان إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب دُرِّي، كأن شجر رأسه أغصان شجرة، أشبهه بعبد العزى بن قطن^(١). ورأى عموداً أبيض كأنه لؤلؤة، تحمله الملائكة، فقال: ما تحملون؟ قالوا: عمود الإسلام، أمرنا أن نضعه بالشام. وبيننا يسير إذ دعاه داعٍ عن يمينه: يا محمد، أنظرني أسألك. فلم يُجِبْه. فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا داعي اليهود، أما إنك لو أجبتَه لتهودت أمثك. وبيننا هو يسير إذ دعاه عن شماله: يا محمد أنظرني أسألك، فلم يُجِبْه، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا داعي النصارى، أما إنك لو أجبتَه لتنصرت أمثك.

وبينا هو يسير، إذا بامرأة حاسرة عن ذراعها وعليها من كل زينة خلقها الله تعالى. فقالت: يا محمد أنظرني أسألك، فلم يلتفت إليها، فقال: ما هذه يا جبريل؟ قال: تلك الدنيا، أما إنك لو أجبتَها لاختارت أمثك الدنيا على الآخرة. وبيننا هو يسير فإذا هو بشيء يدعو متنجياً عن الطريق، يقول: هلّم يا محمد، فقال جبريل، بيّز يا محمد، فقال: من هذا؟ هذا عدو الله إبليس، أراد أن تميل إليه. وسار فإذا هو بعجوز على جانب الطريق، فقالت: يا محمد أنظرني أسألك، فلم يلتفت إليها، فقال: من هذه يا جبريل؟ قال: إنه لم يبق من الدنيا إلا ما بقي من عُمر هذه العجوز. وبيننا هو يسير إذ لقيه خلق من خلق الله، فقالوا: السلام عليك يا أول، السلام عليك يا آخر، السلام عليك يا حاشر، فقال جبريل: اردد السلام، فردّ، ثم لقيه الثانية فقال له مثل ذلك، ثم لقيه الثالثة فقال له مثل ذلك. فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: إبراهيم وموسى وعيسى.

ومرّ على، موسى وهو يصلي في قبره الكئيب الأحمر، رجل طوال سبط آدم كأنه من رجال شنوءة، وهو يقول يرفع صوته: أكرمتَه وفضلتَه، فدفع إليه، فسلم عليه فردّ عليه السلام، وقال: من هذا معك يا جبريل؟ فقال: هذا أحمد، فقل: مرحباً بالنبي العربي الذي نصح لأمتَه ودعا له بالبركة وقال: مثل لأمتك اليسر.

فساروا فقال: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا موسى بن عمران، قال: ومن يُعَاتِبُ؟ قال: يُعَاتِبُ رَبّه. قال: أو يرفع صوته على ربه؟ قال جبريل إن الله تعالى قد عرف له جدته ثم مرّ برجل قائم يصلي قال: من هذا معك يا جبريل قال جبريل: هذا أخوك محمد، فرحب به ودعا له ببركة فقال: سل لأمتك اليسر، فقال من هذا يا جبريل: قال هذا أخوك عيسى. ومرّ على شجرة كان ثمرها السرح، تحتها شيخ وعياله، فرأى مصابيح وشؤءاً. فقال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك إبراهيم. فسلم عليه فردّ عليه السلام. وقال: من هذا معك يا جبريل؟ قال: هذا ابنك

(١) أخرجه مسلم بنحوه ٢٢٥٠/٤ وأحمد في المسند ١٧٤/١.

أحمد. فقال: مرحباً بالنبي العربي الذي بَلَغَ رسالته ربه ونَصَحَ لأُمَّته، يا بُنَيَّ إِنَّكَ لَاقِي رَبِّكَ اللَّيْلَةَ، وَإِنْ أُمَّتِكَ آخِرَ الْأُمَمِ وَأَضْعَفُهَا، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ حَاجَتَكَ أَوْ جُلُّهَا فِي أُمَّتِكَ فَافْعَلْ. ودعاه بالبركة.

فسار حتى أتى الوادي الذي في المدينة يعني بيت المقدس، فإذا جهنم تنكشف عن مثل الروابي. فقيل: يا رسول الله كيف وجدتها؟ قال: «مثل الحُخْمِ» ثم سار حتى انتهى إلى المدينة، فدخلها من بابها اليماني، وإذا عن يمين المسجد وعن يساره نوران ساطعان. فقال: يا جبريل ما هذان النوران؟ قال: أما الذي عن يمينك فإنه محراب أخيك داود، وأما الذي عن يسارك فعلى قبر أختك مريم. فدخل المسجد من باب فيه تميل الشمس والقمر، فأتى جبريل الصخرة التي ببيت المقدس، فوضع أصبعه فيها فخرقها، فشَدَّ بها البُرَاقَ، وفي رواية مسلم، فربطه بالحَلَقَةِ التي تَرْتَبُطُ بها الأنبياءُ. فلما استوى بها النبي ﷺ في صخرة المسجد، قال جبريل: يا محمد هل سألت ربك أن يُرِيكَ الحور العين؟ قال: نعم، قال جبريل: فأنطَلِقْ إِلَى أَوْلَادِكَ النِّسْوَةِ فَسَلِّمْ عَلَيْهِنَ، وَهُنَّ جُلُوسٌ عَنِ يَسَارِ الصَّخْرَةِ، فَانْتَهَى إِلَيْهِنَّ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِنَ، فَزَدَدَنَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ. فقال: من أنتن؟ فقلن: «خَيْرَاتُ حَسَانٍ»، سَاءَ قَوْمٌ أَبْرَارٌ، نَقَوْا فَلَمْ يَذَرْنُوا، وَأَقَامُوا فَلَمْ يَظْعَنُوا، وَخُلِدُوا فَلَمْ يَمُوتُوا.

ثم صَلَّى هو وجبريل كل واحد ركعتين فلم يلبث إلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثيرون، فعرف النبيين من بين قائم وراكع وساجد، ثم أَهْنِ مُؤَدَّنَ وَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فقاموا ينتظرون من يُؤْمِهِمْ، فَأَخَذَ جَبْرِيلُ بِيَدِهِ فَقَدَّمَهُ فَصَلَّى بِهِمْ رَكْعَتَيْنِ. وفي رواية: ثم أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَتَدَافَعُوا حَتَّى قَدَّمُوا مُحَمَّدًا. وعند الواسطي عن كعب: فَأَذَّنَ جَبْرِيلُ وَنَزَلَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنَ السَّمَاءِ وَحَشَرَ اللَّهُ لَهُ الْمُرْسَلِينَ، فَصَلَّى النَّبِيُّ ﷺ بِالْمَلَائِكَةِ وَالْمُرْسَلِينَ، فَلَمَّا انْصَرَفَ، قَالَ جَبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ، أَتَدْرِي مَنْ صَلَّى خَلْقَكَ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: كُلُّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عند الحاكم وصححه البيهقي: فلقني أرواح الأنبياء، فأثتوا علي ربهم. فقال إبراهيم: «الحمد لله الذي اتخذني خليلاً وأعطاني ملكاً عظيماً وجعلني أمة قانتاً يُؤْتَمُّ بِي، وَأَنْقَذَنِي مِنَ النَّارِ، وَجَعَلَهَا عَلَيَّ بَرْدًا وَسَلَامًا. ثم إن موسى أثنى على ربه تبارك وتعالى فقال: «الحمد لله الذي كَلَّمَنِي تَكْلِيمًا وَجَعَلَ هَلَاكَ فِرْعَوْنَ وَنَجَاةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيَّ يَدِي، وَجَعَلَ مِنْ أُمَّتِي قَوْمًا يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ». ثم إن داود أثنى على ربه فقال: «الحمد لله الذي جعل لي ملكاً عظيماً، وَعَلَّمَنِي الزُّبُورَ، وَأَلَانَ لِي الْحَدِيدَ، وَسَخَّرَ لِي الْجِبَالَ يُسَبِّحُنَ وَالطَّيْرَ، وَأَعْطَانِي الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخَطَابَ».

ثم إن سليمان أثنى على ربه فقال: «الحمد لله الذي سَخَّرَ لِي الرِّيحَ وَسَخَّرَ لِي

الشياطين والإنس يعملون لي ما شئت من محاريب وتمائيل وجفان كالجوابي وقدر راسيات، وعلمني منطق الطير وأتاني من كل شيء فضلاً، وسخر لي جنود الشياطين والإنس والجن والطيور، وفضلني على كثير من عباده المؤمنين، وأتاني ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعدي وجعل ملكي ملكاً طيباً ليس فيه حساب ولا عقاب.

ثم إن عيسى بن مريم أتني على ربه تبارك وتعالى فقال: «الحمد لله الذي جعلني كلمته وجعل مثلي مثل آدم خلقه من تراب. ثم قال له: كن فيكون، وعلمني الكتاب والحكمة، والتوراة والإنجيل، وجعلني أبرئ الأكمه والأبرص وأخيي الموتى بإذن الله، ورفعني وطهرني. وأعاذني وأمي من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطان علينا سبيل».

فقال النبي ﷺ: «كلكم أتني على ربه وإني مثنى على ربي»، فقال: «الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين وكافة للناس بشيراً ونذيراً، وأنزل عليّ الفرقان فيه تبيان كل شيء، وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس، وجعل أمتي وسطاً، وجعل أمتي هم الأولون والآخرون، وشرح لي صدري ووضع عني وِزري ورفع لي ذكري وجعلني فاتحاً وخاتماً». فقال إبراهيم ﷺ: «بهذا فضلكم محمد ﷺ».

ثم تذاكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى إبراهيم فقال: «لا أعلم لي بها». فردوا أمرهم إلى موسى فقال: «لا أعلم لي بها». فردوا أمرهم إلى عيسى فقال: «أما وجبتُها فلا يعلمها إلا الله، وفيما عهد إليّ ربي أن الدجال خارج، ومعني قضيبان، فإذا رأني ذاب كما يذوب الرصاص، فيهلكه الله تعالى إذا رأني، حتى أن الحجر ليقول: يا مسلم إن تحتي كافراً فتعال فاقتله، فيهلكهم الله ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج. وهم من كل حدب ينسلون فيطأون بلادهم لا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يبرون على ماء إلا شربوه، ثم يرجع الناس فيشكونهم إليّ، فأدعوا الله تعالى عليهم، فيهلكهم ويميتهم حتى تحوي الأرض من ريحهم، فيُنزل الله تعالى المطر، فيجرف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر. ففيما عهد إليّ ربي أن ذلك إذا كان كذلك فإن الساعة كالحامل الميتم لا يدري أهلها متى تفجأهم بولادتها ليلاً أو نهاراً».

وأخذ النبي ﷺ من العطش أشد ما أخذه، فأتي بقدرين أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال في أحدهما لبن والآخر عسل. وفي رواية أتني بانية ثلاث مغطاة أفواهاها، فأتي بإناء منها فيه ماء فشرب منه قليلاً، وفي لفظ أنه لم يشرب منه شيئاً، ثم دُفع إليه إناء آخر فشرب منه حتى زوي، ثم دُفع إليه إناء آخر فيه خمر، فقيل له: اشرب فقال: «لا أريده قد زويت». فقال جبريل: «إنها سحرٌ على أمتك». وفي رواية: فعرض عليه الماء والخمر واللبن، وفي

رواية العسل بدل الماء فشرب من العسل قليلاً، وتنازل اللبن فشرب منه حتى روي، فضرب جبريل منكبيه وقال: «أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ، وَلَوْ شَرِبْتَ الْخَمْرَ لَفَوْتَ أُمَّتَكَ وَلَمْ يَتَّبِعَكَ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ، وَلَوْ شَرِبْتَ الْمَاءَ لَفَرَقْتَ أُمَّتَكَ»، وفي رواية قال شيخ «مُتَّكِيٌّ عَلَى مِثْبَرٍ لَهُ لَجَبْرِيلُ: وَأَخَذَ صَاحِبُكَ الْفِطْرَةَ، وَإِنَّهُ لَمُهْتَدٍ». ثم أتى بالمعراج الذي تُفْرَجُ عَلَيْهِ أَرْوَاحُ بَنِي آدَمَ، فلم ير الخلق أحسن من المعراج، له مَرْقَاةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَمَرْقَاةٌ مِنْ ذَهَبٍ. وفي رواية لأبي سعيد في شرف المصطفى أنه أتى بالمعراج من جنة الفردوس مُنْضِدٍ بِاللُّؤْلُؤِ، عن يمينه ملائكة وعن يساره ملائكة، فصعد هو وجبريل حتى انتهى إلى باب من أبواب السماء الدنيا يُقال له باب الحَفَظَةِ وعليه مَلَكٌ يُقال له إِسْمَاعِيلُ، وهو صاحب السماء الدنيا. وفي حديث جعفر بن محمد عند البيهقي: «يَسْكُنُ الْهَوَاءَ فَلَمْ يَصْعُدْ إِلَى السَّمَاءِ قَطُّ وَلَمْ يَهْبِطْ إِلَى الْأَرْضِ قَطُّ إِلَّا يَوْمَ مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ»، انتهى - وبين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك جنده مائة ألف.

فاستفتح جبريل باب السماء: قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ - وفي رواية: بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قال: نَعَمْ، قيل: مَرْحَباً بِهِ وَأَهْلَاءَ، حَيَّاهُ اللَّهُ مِنْ أَخٍ وَمِنْ خَلِيفَةٍ، فَنِعْمَ الْأَخُ وَنِعْمَ الْخَلِيفَةُ، وَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فَفَتَحَ لِهَما. فلما خلاصا إلى السماء، فإذا فيها آدم كهيته يوم خلقه الله على صورته، تُغْرَضُ عَلَيْهِ أَرْوَاحُ ذُرِّيَّتِهِ الْمُؤْمِنِينَ فيقول: رُوحٌ طَيِّبَةٌ وَنَفْسٌ طَيِّبَةٌ، اجْعَلُوهَا فِي عَلِّيَيْنِ، ثم تُغْرَضُ عَلَيْهِ أَرْوَاحُ ذُرِّيَّتِهِ الْكُفَّارِ، فيقول: رُوحٌ خَبِيثَةٌ وَنَفْسٌ خَبِيثَةٌ، اجْعَلُوهَا فِي سَجِينٍ وَعَنْ يَمِينِهِ أَسْوَدَةٌ وَبَابٌ تَخْرُجُ مِنْهُ رِيحٌ طَيِّبَةٌ وَعَنْ شِمَالِهِ أَسْوَدَةٌ وَبَابٌ تَخْرُجُ مِنْهُ رِيحٌ خَبِيثَةٌ، فإذا نظر عن يمينه ضحك واستبشر، وإذا نظر عن شماله حزن وبكى.

فَسَلَّمَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، ثم قال: مَرْحَباً بِالابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، فقال النبي ﷺ: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا أبوك آدم، وهذه الأسودة نسَمَ بَنِيهِ، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، وأهل الشمال منهم أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى، وهذا الباب الذي عن يمينه باب الجنة، إذا نظر من يدخله من ذُرِّيَّتِهِ ضحك واستبشر، والباب الذي عن شماله باب جهنم، إذا نظر من يدخله من ذُرِّيَّتِهِ بكى وحزن.

ثم مضى ﷺ هنيئاً، فإذا هو بأخوتة عليها لحم مشرح ليس يقربه أحد، وإذا بأخوتة عليها لحم قد أُرْوِجَ وَأَتَتْ، عنده ناس يأكلون منه. فقال: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أُمَّتِكَ يَتْرَكُونَ الْحَلَالَ وَيَأْتُونَ الْحَرَامَ. وفي لفظ: وإذا هو بأقوام على مائدة عليها لحم مشوي كأحسن ما روي من اللحم، وإذا حوله جيف، فجعلوا يُقْبِلُونَ عَلَى الْجَيْفِ يَأْكُلُونَ مِنْهَا وَيَدْعُونَ اللَّحْمَ. فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الزناة يُجْلُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَيَتْرَكُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ.

ثم مضى هنيهة فإذا هو بأقوام بطونهم أمثال البيوت فيها الحياة تُرى من خارج بطونهم، كلما نهض أحدهم خر، فيقول: اللهم لا تقم الساعة، قال: وهم على سابلة آل فرعون، فتجيء السابلة فتطوهم فسمعتهم يَضِجُونَ إلى الله تعالى. فقال: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أمتك ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

ثم مضى هنيهة فإذا هو بأقوام مشافيرهم كمشافر الإبل، فتفتح أفواههم ويلقَمون حجراً، وفي رواية: يُجَعَلُ فِي أَفْوَاهِهِمْ صَخْرٌ مِنْ جَهَنَّمَ، ثم يخرج من أسافلهم، فسمعتهم يَضِجُونَ إلى الله تعالى. فقال: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَفْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١] ثم مضى هنيهة فإذا هو بنساء مُعَلَّقات بِثُدِيِّهِنَّ ونساء مُنَكَّسات بِأرجلهن، فَسَمِعَهُنَّ يَضِجْنَ إلى الله تعالى، فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء اللاتي يزنين ويقتلن أولادهن. ثم مضى هنيهة إذا هو بأقوام يُقَطِّعُ من جنوبهم اللحم فيلقمونه، فيقال له: كُلْ كَمَا كُنْتَ تَأْكُلُ مِنْ لَحْمِ أَخِيكَ. فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الهَمَّازُونَ من أمتك اللَمَّازُونَ..

ثم صعدا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أوقد أُرْسِلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به وأهلاً، حياها الله من إخ ومن خليفة، فينعم الأخ وينعم الخليفة وينعم المجيء جاء. ففتح لهما. فلما خَلَصَا فإذا هو بابنَي الخالة: عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا، شبيه أحدهما بصاحبه: ثيابهما وشعرهما ومعهما نَقْرٌ من قومهما. وإذا بعيسى جَعْدٌ مربع الخلق إلى الحُمْرَةِ والبياض سبط الشجر كأنما أُخْرِجَ من ديماس أي حَمَامٍ شَبَّهَهُ بِعُزْوَةِ بن مسعود الثقفي.

فَسَلَّمَ عَلَيْهِمَا فَرَدَّا عَلَيْهِ السَّلَامَ، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ودَعَا لَهُ بخير.

ثم صعدا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أوقد أُرْسِلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به وأهلاً، حياها الله من أخ ومن خليفة فينعم الأخ وينعم الخليفة وينعم المجيء جاء. ففتح لهما فلما خَلَصَا فإذا هو بيوسف ومعه نَقْرٌ من قومه فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ودعا له بخير، وإذا هو قد أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ، وفي رواية أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللهُ، قد فضل الناس بالحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب. قال: من هذا يا جبريل؟ قال: أخوك يوسف.

ثم صعدا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن

معك؟ قال: محمد. قيل: أَوَقَدَ أُزِيلُ إِلَيْهِ؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به وأهلاً حَيَّاهُ اللهُ من أخٍ ومن خليفة، فَنِعْمَ الأَخُ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء. فلما خَلَصَا فإذا هو بإدريس فقد رفعه اللهُ مكاناً عَلياً، فَسَلَّمَ عليه فَرَدَّ عليه السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ثم دعا له بخير.

ثم صعدا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ فقال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أَوَقَدَ أُزِيلُ إِلَيْهِ؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به وأهلاً، حَيَّاهُ اللهُ من أخٍ ومن خليفة، فَنِعْمَ الأَخُ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء. ففتح لهما، فلما خَلَصَا فإذا هو بهارون، ونصف لحيته بيضاء ونصف لحيته سوداء، تكاد تضرب إلى شُرَّتِهِ من طولها، وحوله قوم من بني إسرائيل، وهو يقص عليهم فسلم عليه فَرَدَّ عليه السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم دعا له. فقال: يا جبريل مَنْ هَذَا؟ فقال: الرجل المُخَبَّبُ في قومه هارون بن عمران.

ثم صعدا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أَوَقَدَ أُزِيلُ إِلَيْهِ؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به وأهلاً، حَيَّاهُ اللهُ من أخٍ ومن خليفة، فَنِعْمَ الأَخُ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء، ففتح لهما، فجعل يَمُرُّ بالنبي والنبين معهم الرهط، والنبي والنبين معهم القوم، والنبي والنبين ليس معهم أحد. ثم مرَّ بسواد عظيم، فقال: «من هذا؟» قيل: موسى وقومه ولكن ارفع رأسك فإذا بسواد عظيم قد سَدَّ الأفق من ذا الجانب ومن ذا الجانب فقيل له: هؤلاء أمتك وسوى هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب. فلما خَلَصَا فإذا بموسى بن عمران، رجل آدم طوال كأنه من رجال شنوءة، كثير الشفر، لو كان عليه قميصان لَنَقَدَ شَعْرُهُ دونهما.

فَسَلَّمَ عليه النبي ﷺ فَرَدَّ عليه السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم دعا له بخير، وقال: يَزْعُمُ الناسُ أَنِي أكرم على الله من هذا، بل هذا أكرم على الله مني. فلما جاوزه النبي ﷺ بكى. فقال له: ما يُنْكِيكَ؟ فقال: أبكي لأن غلاماً بُعِثَ من بعدي يدخل الجنة من أمتي أكثر مما يدخل الجنة من أمتي، وَيَزْعُمُ بنو إسرائيل أَنِي أكرم بني آدم على الله. وهذا رجل من بني آدم خَلَفِي في دنيا وأنا في أُخْرَى، فلو أنه بنفسه لم أُنْأَلِ، ولكن معه كل أمتي. ثم صعد.

فلما انتهينا إلى السماء السابعة رأى فوقه رعداً وبرقاً وصواعق، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أَوَقَدَ أُزِيلُ إِلَيْهِ؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به وأهلاً، حَيَّاهُ اللهُ من أخٍ ومن خليفة، فَنِعْمَ الأَخُ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء. ففتح لهما فسمع تسبيحاً في السموات الغلا مع تسبيح كثير: سُبِّحَتِ السموات العلى من ذي

المهابة مشفقات؛ سبحان العليّ الأعلى، سبحانه وتعالى. فلما خلصا فإذا النبي ﷺ بإبراهيم رجلاً أشمط، جالس عند باب الجنة، على كُرسيٍّ مُشِيناً ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَمَعَهُ نَقَرٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، فَقَالَ: مَرْحَباً بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالابْنِ الصَّالِحِ وَقَالَ: مُزُّ أُمَّتِكَ فَلْيُكْثِرُوا مِنْ غِرَاسِ الْجَنَّةِ فَإِنَّ تَرْبَتَهَا طَيِّبَةٌ وَأَرْضُهَا وَاسِعَةٌ. فَقَالَ لَهُ: وَمَا غِرَاسُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَظِيمِ». وَفِي رِوَايَةٍ: «أَقْرَبُ عَلَى أُمَّتِكَ مِنْهُ السَّلَامُ، وَأَخْبِرُهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةٌ التَّرْبَةُ عَذْبَةُ الْمَاءِ وَأَنَّ غِرَاسَهَا؟ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ». وَهُوَ أَشْبَهُ وَلَدِهِ بِهِ، وَعِنْدَهُ قَوْمٌ جُلُوسٌ بِيضُ الْوُجُوهِ أَمْثَالُ الْقِرَاطِيسِ، وَقَوْمٌ فِي أَلْوَانِهِمْ شَيْءٌ، فَقَامَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فِي أَلْوَانِهِمْ شَيْءٌ، فَدَخَلُوا نَهْرًا، فَاغْتَسَلُوا فِيهِ فَخَرَجُوا وَقَدْ خَلَعَتْ أَلْوَانُهُمْ وَصَارَتْ مِثْلَ أَلْوَانِ أَصْحَابِهِمْ. فَجَاءُوا فَجَلَسُوا إِلَى أَصْحَابِهِمْ فَقَالَ: يَا جَبْرِيلُ مَنْ هَؤُلَاءِ الْبِيضُ الْوُجُوهِ وَمَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فِي أَلْوَانِهِمْ شَيْءٌ وَمَا هَذِهِ الْأَنْهَارُ الَّتِي دَخَلُوهَا؟ فَقَالَ: أَمَا هَؤُلَاءِ الْبِيضُ الْوُجُوهِ فَقَوْمٌ لَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ، وَأَمَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فِي أَلْوَانِهِمْ شَيْءٌ فَقَوْمٌ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا فَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَأَمَا هَذِهِ الْأَنْهَارُ فَأُولَئِكَ رَحْمَةُ اللَّهِ وَالثَّانِي نِعْمَةُ اللَّهِ وَالثَّالِثُ ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] وقيل له: هذا مكانك ومكان أمتك، وإذا هو بأُمَّتِهِ شَطْرَيْنِ: شَطْرَ عَلَيْهِمْ ثِيَابَ كَأَنَّهَا الْقِرَاطِيسُ، وَشَطْرَ عَلَيْهِ ثِيَابَ رُمْدٍ^(١)، فَدَخَلَ الْبَيْتَ الْمَعْمُورَ، وَدَخَلَ مَعَهُ الْآخَرُونَ الَّذِينَ عَلَيْهِمْ الثِّيَابُ الْبِيضُ وَحُجِبَ الْآخَرُونَ الَّذِينَ عَلَيْهِمْ الثِّيَابُ الرُّمْدُ وَهُمْ عَلَى خَيْرٍ، فَصَلَّى وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، آخِرُ مَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ خَرَجَ وَمَنْ مَعَهُ.

وفي حديث عند الطبراني بسند صحيح: «مَرَزْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي عَلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى فَإِذَا جَبْرِيلُ كَالْجِلْسِ^(٢) الْبَالِي مِنَ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَفِي رِوَايَةٍ عِنْدَ الْبِزَارِ «كَأَنَّهُ جَلَسَ لِاطْيَاءٍ». انْتَهَى، ثُمَّ أَتَى بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ وَإِنَاءٍ مِنْ عَسَلٍ، فَشَرِبَ اللَّبَنَ، فَقَالَ جَبْرِيلُ: اخْتَارْتَ^(٣) أُمَّتِكَ الْفِطْرَةَ، وَفِي رِوَايَةٍ: هَذِهِ الْفِطْرَةُ الَّتِي أَنْتَ عَلَيْهَا وَأُمَّتِكَ. ثُمَّ رُفِعَ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يَعْزُضُ مِنَ الْأَرْضِ فَيَقْبِضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يَهْبِطُ مِنْ فَوْقٍ فَيَقْبِضُ مِنْهَا. وَإِذَا هِيَ شَجَرَةٌ يَخْرُجُ مِنْ أَصْلِهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى، يَسِيرُ الرَّكَّابُ فِي ظِلِّهَا سَبْعِينَ عَامًا لَا يَقْطَعُهَا. وَإِذَا نَبَقَهَا مِثْلُ قِلَالٍ هَجَرَ، وَإِذَا وَرَقَهَا

(١) رُمْد: أي غير فيها كدورة كلون الرماد، واحدها أرمْد. انظر النهاية لابن الأثير ٢/٢٦٢.

(٢) جلس جمع جلس، وهو الكسَاء الذي يلي ظهر البحر تحت القتب، شبهها به للزومها ودوامها. انظر النهاية لابن الأثير ١/٤٢٣.

(٣) في أ: أصاب الله بك.

كأذان الفيلة، تكاد الورقة تُغطي هذه الأمة، وفي رواية: الورقة منها مُغطية للأمة كلها. وفي لفظ عند الطبراني: الورقة منها تُظلل الخلق، على كل ورقة ملك، تغشاها ألوان لا يُدرى ما هي، فلما غشيها من أمر الله تعالى ما غشيها تغيرت، وفي رواية: تحوّلت ياقوتاً وزبرجداً فما يستطيع أحد أن ينعثها من حُسنها، فيها فرّاش من ذهب، وفي رواية يلوذ بها جرادٌ من ذهب.

ف قيل له: هذه السدرة ينتهي إليها كل أحد من أمتك خلا^(١) على سبيلك، وإذا في أصلها أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقال: ما هذه يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات. وفي رواية: فإذا في أصلها عينٌ تجري يقال لها السلسبيل، ينشق منها نهران: أحدهما الكوثر، يطرد عجّاحاً مثل السهم، عليه خيام اللؤلؤ والياقوت والزبرجد، وعليه طيورٌ خضراء أنعم طير، رأى فيه آنية الذهب والفضة، تجري على رضراض من الياقوت والزمرد، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، فأخذ من آنية، فاغترف من ذلك الماء، فشرب فإذا هو أحلى من العسل، وأشد ريحاً من المسك، فقال له جبريل: هذا هو النهر الذي حباك به ربك، والنهر الآخر نهر الرحمة فاغتسل فيه، فغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أنه عليه السلام رأى جبريل عند السدرة له ستمائة جناح، جناح منها قد سد الأفق، تتناثر من أجنحته التهاويل: الدر والياقوت مما لا يعلمه إلا الله تعالى. انتهى. ثم أخذ على الكوثر حتى إذ دخل الجنة فإذا فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فرأى على بابها مكتوباً: الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بشمانية عشر. فقال: يا جبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة؟ قال: لأن السائل يسأل وعنده، والمستقرض لا يسأل إلا من حاجة. فاستقبلته جارية فقال: لمن أنت يا جارية؟ فقالت: لزيد بن حارثة.

ورأى الجنة من دُرّة بيضاء وإذا فيها جناز^(٢) اللؤلؤ. فقال: يا جبريل، إنهم يسألوني عن الجنة. فقال: إخبارهم أنها قيعان تُرابها المسك، وسمع في خارجها وجساً^(٣)، فقال: يا جبريل ما هذا؟ قال: بلال المؤذن. فسار فإذا هو بأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مُصَفّى، وإذا رُمانها كالدلاء، وفي رواية: وإذا فيها رُمان كأنه جلود الإبل المُقْتَبَة، وإذا بطيرها كالبخاتي^(٤). فقال أبو بكر: يا رسول الله إن تلك الطير لناعمة. قال:

(١) خلا عليه: اعتمد عليه. انظر المعجم الوسيط ٢٥٣/١.

(٢) جنيد في صفة الجنة «فيها جناز من لؤلؤ الجنابذ جمع جَبَلَة: وهي القَبَة، انظر النهاية لابن الأثير ٣٠٥/١.

(٣) الوجس: الصرث الخفي، وتوجس بالشيء: أحس به فستع له، انظر النهاية لابن الأثير ١٥٦/٥. والمعجم الوسيط ٢/١٠٢٥.

(٤) البختية: الأنثى من الجمال البخت، والذكر بُخْتِي، وهي جمال طوال الأعناق، وتجمع على بُخْتِي وبخاتي، واللفظة معربة. انظر النهاية لابن الأثير ١٠١/١.

أَكَلَتْهَا أَنْعَمَ مِنْهَا وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَأْكُلَ مِنْهَا. وَبَيْنَا هُوَ يَسِيرُ بِنَهْرٍ عَلَى حَافِيَتِهِ الدَّرُّ الْمُجْوُوفُ، وَإِذَا طِينَةٌ مَسَكَ أَذْفَرَ فَقَالَ: مَا هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هُوَ الْكُوْثَرُ.

ثُمَّ عُرِضَتْ عَلَيْهِ النَّارُ فَإِذَا فِيهَا غَضَبُ اللَّهِ وَزَجْرُهُ وَنَقْمَتُهُ، وَلَوْ طُرِحَ فِيهَا الْحِجَارَةُ وَالْحَدِيدُ لَأَكَلَتْهَا، فَإِذَا يَقُومُ يَأْكُلُونَ الْجَيْفَ، فَقَالَ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لَحُومَ النَّاسِ. وَرَأَى رَجُلًا أَحْمَرَ أَزْرَقَ فَقَالَ: مَنْ هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا عَاقِرُ النَّاقَةِ. وَرَأَى مَالِكَ خَازِنَ النَّارِ، فَإِذَا رَجُلٌ عَابِسٌ يُعْرِفُ الْغَضَبَ فِي وَجْهِهِ، فَبَدَأَ النَّبِيُّ ﷺ بِالسَّلَامِ، ثُمَّ أُغْلِقَتْ دُونَهُ، ثُمَّ رُفِعَ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، فَغَشِيَهَا مِنْ أَنْوَارِ الْخَلَائِقِ وَمِنْ أَنْوَارِ الْمَلَائِكَةِ أَمْثَالُ الْغُرْبَانِ حِينَ يَقْضَى عَلَى الشَّجَرَةِ وَيَنْزِلُ عَلَى كُلِّ وَرْقَةٍ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَغَشِيَهَا سَحَابَةٌ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ.

وَفِي حَدِيثٍ أَنَّ جَبْرِيلَ قَالَ لَهُ: إِنْ رَبِّكَ يُسَبِّحُ. قَالَ: وَمَا يَقُولُ؟ قَالَ: يَقُولُ: «سُبُوْحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ، سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي». فَتَأَخَّرَ جَبْرِيلُ، ثُمَّ عَرَّجَ بِهِ حَتَّى ظَهَرَ لِمَسْتَوَى سَمِعَ فِيهِ صَرِيْفٌ^(١) الْأَقْلَامِ. وَرَأَى رَجُلًا مُغَيَّبًا فِي نَوْرِ الْعَرْشِ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ مَلَكٌ، قِيلَ: لَا، قَالَ: نَبِيٌّ، قِيلَ: لَا، قَالَ: مَنْ هُوَ؟ قِيلَ: هَذَا رَجُلٌ كَانَ فِي الدُّنْيَا لِسَانَهُ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَقَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالمَسَاجِدِ، وَلَمْ يَنْتَسِبْ لَوَالِدِيهِ قَطُّ، فَرَأَى رَبَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَخَرَّ النَّبِيُّ ﷺ سَاجِدًا، وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ تَعَالَى عِنْدَ ذَلِكَ. فَقَالَ لَهُ: يَا مُحَمَّدُ. قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَبُّ. قَالَ: سَلْ: فَقَالَ: إِنَّكَ اتَّخَذْتَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَأَعْطَيْتَهُ مُلْكًا عَظِيمًا وَكَلَّمْتَ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَأَعْطَيْتَ دَاوُدَ مُلْكًا عَظِيمًا وَسَخَّرْتَ لَهُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ وَالشَّيَاطِينَ وَسَخَّرْتَ لَهُ الرِّيَّاحَ وَأَعْطَيْتَهُ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ. وَعَلَّمْتَ عِيسَى التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَجَعَلْتَهُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَيُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِكَ، وَأَعَدَّتَهُ وَأُمَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِمَا سَبِيلٌ.

فَقَالَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى: قَدْ اتَّخَذْتُكَ حَبِيبًا. قَالَ الرَّاوِي: وَهُوَ مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ: حَبِيبُ اللَّهِ. وَأَرْسَلْتُكَ لِلنَّاسِ كَافَّةً بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَشَرَحْتُ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْتُ عَنْكَ وَزْرَكَ، وَرَفَعْتُ لَكَ ذِكْرَكَ، لَا أَذْكَرُ إِلَّا وَذُكِّرْتَ مَعِيَ وَجَعَلْتُ أُمَّتَكَ خَيْرَ أُمَّةٍ أَخْرَجْتَ لِلنَّاسِ وَجَعَلْتُ أُمَّتَكَ أُمَّةً وَسَطًا، وَجَعَلْتُ أُمَّتَكَ هُمَ الْأَوْلَى وَالْآخِرُونَ، وَجَعَلْتُ أُمَّتَكَ لَا يَجُوزُ لَهُمْ خُطْبَةٌ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنَّكَ عَبْدِي وَرَسُولِي، وَجَعَلْتُ مِنْ أُمَّتِكَ أَقْوَامًا قُلُوبُهُمْ أَنَا جِيلُهُمْ، وَجَعَلْتُكَ أَوَّلَ النَّبِيِّينَ خَلْقًا وَأَخْرَجْتَهُمْ بَعَثًا، وَأَوَّلَهُمْ يُقْضَى لَهُ، وَأَعْطَيْتُكَ سَبْعًا مِنَ الْمِثَالِي لَمْ أُعْطِهَا نَبِيًّا قَبْلَكَ، وَأَعْطَيْتُكَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ عَرْشِي لَمْ أُعْطِهَا نَبِيًّا قَبْلَكَ، وَأَعْطَيْتُكَ الْكُوْثَرَ،

(١) أَسْمَعُ صَرِيْفَ الْأَقْلَامِ أَي صَوْتَ جَرِيَانِهَا بِمَا تَكْتَبُهُ مِنْ أَمْرِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَوَحْيِهِ، وَمَا يَتَسَخَّرُونَ مِنَ اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ. انظُرِ النَّهْيَةَ لِابْنِ الْأَثَمِ ٢٥/٣.

وأعطيتك ثمانية أسهم: الإسلام والهجرة والجهاد والصدقة وصوم رمضان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأني يوم خلقت السموات والأرض، فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فقم بها أنت وأمتك.

قال أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلني ربي: أرسلني رحمة للعالمين، وكافة للناس بشيراً ونذيراً، وألقى في قلوب عدوي الرغب من مسيرة شهر، وأحل لي الغنائم، ولم تجل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأعطيت فوائح الكلم وخواتمه وجوامعه، وعرضت علي أمتي فلم يخف علي التابع والمتبوع ورأيتهم علي قوم ينتعلون بالشعر، ورأيتهم أتوا علي قوم عراض الوجوه صغار الأعين كأنما أخرجت أعينهم بالمخيط فلم يخف علي ما هم، لا قومي من بعدي، وأمرت بخمسين صلاة». انتهى. وأعطني ثلاثاً: أنه سيد المرسلين وإمام المتقين وقائد القر المحجلين.

وفي حديث ابن مسعود: أعطني رسول الله ﷺ الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمة شيئاً المقيحات^(١).

ثم انجلت عنه السحابة وأخذ بيده جبريل، فانصرف سريعاً، فأتى علي إبراهيم، فلم يقل شيئاً، ثم أتى علي موسى، قال: ونعم الصاحب كان لكم، فقال: «ما صنعت يا محمد؟ ما فرض عليك ربك وعلي أمتك؟» قال: فرض علي وعلي أمتي خمسين صلاة كل يوم وليلة». قال: «فارجع إلي ربك فاسأله التخفيف عنك وعن أمتك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فإني قد خبزت الناس قبلك وبلوت بني إسرائيل وعالجتهم أشد المعالجة علي أدنى من هذا فضعفوا وتركوه، فأمتك أضعف أجساداً وأبداناً وقلوباً وأبصاراً وأسماعاً». فالتفت النبي ﷺ إلي جبريل يستشير، فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت، فرجع سريعاً حتى انتهى إلي الشجرة، فغشيت السحابة، وخر ساجداً.

وقال: «رب خفف عنا»، وفي لفظ: «عن أمتي فإنها أضعف الأمم». قال: «قد وضعت خمساً»، ثم انجلت السحابة، ورجع إلي موسى فقال: «وضع عني خمساً». قال: «ارجع إلي ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك». فلم يزل يرجع بين موسى وبين ربه، يخط عنه خمساً خمساً، حتى قال: «يا محمد»، قال: «لبيك وسعديك» قال: «هن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة لا يبدل القول لدي ولا ينسخ كتابي تخفيفاً عنك كتخفيف خمس صلوات، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن

(١) المقيحات: أي الذنوب العظام التي تُجيم أصحابها في النار: أي تلقيهم فيها. انظر النهاية لابن الأثير ١٩/٤.

عملها كتبت له عشرًا، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم يكتب شيئاً فإن عملها كتبت سيئة واحدة». فنزل حتى انتهى إلى موسى، فأخبره فقال: «ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك». قال له: «قد راجعتُ ربي حتى استحيتُ منه ولكن أرضى وأسلم». فناداه منادٍ أن «قد أمضيتُ فريضتي وخففت عن عبادي»^(١).

فقال له موسى: «اهبط بسم الله». ولم يَمُزْ على الملائكة إلا قالوا له: «عليك بالحجامة»^(٢). وفي لفظ: «مُزُّ أُمَّتِكَ بالحجامة». ثم انحدر، فقال جبريل: «مالي لم آت لأهل السماء إلا رَجَبُوا بي وضحكوا إلي، غير واحد سَلَّمْتُ عليه فرَدَّ السلام ورجب بي ودعاني، ولم يضحك إلي». قال: قال: «مالك خازن النار، لم يضحك منذ خُلِق، ولو ضحك لأحد لضحك إليك». فلما نزل إلى السماء الدنيا نظر أسفل منه، فإذا هو بِرَهَجٍ ودُخَانٍ، فقال ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم، لا يتفكرون في ملكوت السموات والأرض، ولولا ذلك لَرَأَوْا العجائب.

ثم ركب منصرفاً، فمرَّ بغير لقريش بمكان كذا وكذا، منها جَمَلٌ عليه غرارتان غرارة سوداء وغرارة بيضاء، فلما حاذى العير نفرت واستدارت وصرخ ذلك البعير وانكسر، ومرَّ بغير قد ضَلُّوا بغيراً لهم قد جمعه فلان، فسَلَّم عليهم، فقال بعضهم: هذا صوت محمد.

ثم أتى أصحابه قبيل الصبح بمكة، فلما أصبح قطع وعرف أن الناس تُكذِّبه، فقعد حزيناً، فمرَّ عليه عدو الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ قال: نعم. قال: ما هو؟ قال: أُشْرِي بي الليلة. قال: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس. قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم. فلم يَزْ أنه يُكذِّبه مَخَافَةً أن يَجْحَدَه الحديث إن دعا قومه إليه. قال: أرايت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتني؟ قال: نعم، قال يا معشر بني كعب بن لؤي.

فانفضت إليه المجالس، وجاءوا حتى جلسوا إليهما. فقال: حَدِّث قومك بما حَدَّثتني فقال النبي ﷺ: «إني أُشْرِي الليلة بي». قالوا: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس، قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم، فمن بين مُصَفَّقٍ ومن بين واضع يده على رأسه مُتَعَجِّباً، وضجوا وأعظموا ذلك. فقال المُطْعِم بن عدي: كُلُّ أَمْرِكَ قبل اليوم كان أمماً غير قولك اليوم، أنا أشهد أنك كاذب، نحن نضرب أكباد الإبل إلى البيت المقدس مُضْعِداً شهراً ومنحدرًا شهراً، أتدعي أنت أنك أتيت في ليلة؟ واللوات والغزى لا أصدقك.

(١) أخرجه البخاري، ٣٤١/٧ (٣٨٨٧).

(٢) أخرجه البخاري بلفظ، إن أمثل ما تلاوتم به الحجامة، (٥٦٩٦).

فقال أبو بكر لمطعم: يفس ما قلت لابن أخيك، جبهته وكذبتة، أما أنا فأشهد أنه صديق صادق. فقاتلوا: يا محمد صنف لنا بيت المقدس، كيف بناؤه وكيف هيئته؟ وكيف قرزبه من الجبل؟ وفي القوم من سافر إليه. فذهب ينعت لهم بناءه كذا وهيئته كذا، وقرزبه من الجبل كذا، فما زال ينعتهم حتى التبس عليه الثغث فكرب كزباً ما كرب مثله، فجيء بالمسجد وهو ينظر إليه حتى وُضِعَ دون دار عقيل أو عُقال، فقالوا: كم للمسجد من باب؟ ولم يكن عدّها، فجعل ينظر إليه ويعدّها باباً باباً، ويُعلمهم، وأبو بكر يقول: صدقت صدقت، أشهد أنك رسول الله. فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب.

ثم قالوا لأبي بكر: أفنصّدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يُصبح؟ قال: نعم إني لأصدّقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدّقه بخبر السماء في غدوة أو روضة. فبذلك سُمي أبو بكر الصديق. ثم قالوا: يا محمد أخبرنا عن غيرنا. فقال «أثبت على غير بني فلان بالروحاء قد ضلوا ناقة لهم، فانطلقوا في طلبها، فانتهيت إلى رحالهم، فليس بها منهم أحد، وإذا قدح ماء فشربت منه، ثم انتهيت إلى غير بني فلان في التنعيم يقدمها جمل أوزق عليه مشح أسود وغرارتان سوداوان وها هي ذه تطلع عليكم من الثيبة». قالوا: فمتى تجيء؟ قال يوم الأربعاء. فلما كان ذلك اليوم، انصرفت قريش ينظرون وقد ولى النهار، ولم تجيء. فدعا النبي ﷺ، فزيد له في النهار ساعة، وحُيبت عليه الشمس، حتى دخلت العير، فاستقبلوا الليل. فقالوا: هل ضل لكم بعير؟ قالوا: نعم. فسألوا العير الآخر فقالوا: هل انكسر لكم ناقة حمراء؟ قالوا: نعم. قالوا: فهل كان عندكم قصعة من ماء؟ فقال رجل: أنا والله وضعتها فما شربها أحد، متأولاً أهريق في الأرض. فرمّوه بالسحر، وقالوا: صدق الوليد، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

فائدة: أخرج ابن مَرْدَوِيَه عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ، منذ أُسرى به ريحه ريح عروس وأطيب من ريح عروس. شعر ويرحم الله تعالى من قال:

سَادَ الْأَنَامِ مُحَمَّدٌ خَيْرُ الْوَرَى	بِفَضَائِلِ جَلَّتْ عَنِ الْإِحْصَاءِ
وَجَوَامِعِ الْكَلِمِ الَّتِي مَا نَالَهَا	أَحَدٌ مِنَ الْقُصَحَاءِ وَالْبُلْغَاءِ
وَإِلَى السَّخْلَائِقِ كُلِّهِمْ إِزْسَالُهُ	فَشَفَى الْقُلُوبَ الْجَمَّةَ الْأَذْوَاءِ
وَلَهُ الشُّفَاعَةُ وَالْوَيْسِلَةُ فِي عَدِ	وَمَقَامُهُ السَّامِي عَلَى الشُّفَعَاءِ
وَيَجِيءُ يَوْمَئِذٍ كَمَا قَدْ قَالَهُ	أَنَا رَاكِبٌ وَالرُّسُلُ تَحْتَ لِوَائِي
وَلَقَدْ دَنَا مِنْ رَبِّهِ لَمَّا دَنَا	فِي لَيْلَةِ الْمِغْرَاجِ وَالْإِسْرَاءِ
سَمِعَ الْخِطَابَ بِحَضْرَةِ قُدَيْبِيَّةِ	مَا حَلَّهَا بَشَرٌ مِنَ الْعُظَمَاءِ

وَبِرُؤْيَا الْجَبَّارِ فَازَ وَيَا لَهَا
مَا نَالَ مُوسَى وَالْخَلِيلُ وَمُجْتَبَى
يَا كَثْرَ مُفْتَقِرٍ وَمَلْجَأَ عَائِدِ
أَنْتَ الْوَسِيلَةُ لِإِلَهِ فَسَلْ لَنَا
وَدُخُولَنَا الْجَنَاتِ أَوْلَ وَهَلَاةِ
بِكَ نَسْتَعِيثُ وَنَسْتَجِيرُ وَنَلْتَجِي
وَنُرُومُ فَضْلاً مِنْ جَنَابِكَ سَيِّدِي
فَالَيْكَ سَأَقُ [اللَّهُ] سُحْبَ صَلَاتِهِ
وَعَلَى صَحَابَتِكَ الرُّضَى مُتَعَدِّداً

ولله دَرُّ البوصيري حيث قال مخاطباً للذات الشريفة:

سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلًا إِلَى حَرَمٍ
وَبِتُّ تَرْقَى إِلَى أَنْ نِلْتَ مَنْزِلَةً
وَقَدَّمْتُكَ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ بِهَا
وَأَنْتَ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطُّبَاقَ بِهِمْ
حَتَّى إِذَا لَمْ تَدْعُ شَأوًا لِمُسْتَبِقِي
خَفِضْتَ كُلَّ مَقَامٍ بِالإِضَافَةِ إِذْ
كَيْمَا تَنْفُوزَ بِوَضْعِ أَيِّ مُسْتَبِرٍ
فَحَزَّتْ كُلُّ فَخَّارٍ غَيْرِ مُشْتَرِكِ
وَجَلَّ مِقْدَارُ مَا وُلِيْتَ مِنْ رُتَبِ
بُشْرَى لَنَا مَغْسَرُ الإِسْلَامِ إِنْ لَنَا
لَمَّا دَعَا اللّٰهَ دَاعِيَنَا لِطَاعَتِهِ

كَمَا سَرَى الْبَدْرُ فِي دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ
مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ لَمْ تُدْرِكْ وَلَمْ تُرَمِ
وَالرُّشْلُ تَقْدِيمَ مَخْدُومٍ عَلَى خَدَمِ
فِي مَوْكِبٍ كُنْتَ فِيهِ صَاحِبَ الْعَلَمِ
مِنَ الدُّنُوِّ وَلَا مَرْقَى لِمُسْتَبِمِ
[نُودِيَتْ] بِالرَّفْعِ مِثْلَ الْمُفْرَدِ الْعَلَمِ
عَنِ الْعُيُونِ وَسِرُّ أَيِّ مُكْتَنَمِ
وَحَزَّتْ كُلُّ مَقَامٍ غَيْرِ مُزْدَحَمِ
وَعَزَّ مِقْدَارُ مَا أُولِيْتَ مِنْ نِعَمِ
بِنِ الْعَيْنَايَةِ رُكْنًا غَيْرِ مُنْهَدِمِ
يَا أَكْرَمَ الرُّشْلِ كُنَّا أَكْرَمَ الْأُمَمِ

الباب التاسع

في تنبيهات على بعض فوائد تتعلق بقصة المعراج

الأول: قال ابن المنير: كانت كرامته ﷺ في المناجاة على سبيل المفاجأة كما أشار إليه بقوله: «بيننا أنا». وفي حق موسى عليه الصلاة والسلام عن ميعاد واستعداد فُحِيلَ عنه ﷺ أَلَمُ الانتظار. ويُؤخذ من ذلك أن مقام النبي ﷺ بالنسبة إلى مقام موسى مقام المُراد بالنسبة إلى مقام المرید.

الثاني: قال ابن دحية في قوله: «فُرج سَقْفُ بيتي»، يقال: لِمَ لم يدخل من الباب مع قوله تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]، فالحكمة في ذلك المبالغة في المناجاة، والتنبيه على أن الكرامة والاستدعاء كانا على غير ميعاد، ولعل كونه فرج عن سقف بيته توطئة وتمهيد لكونه فُرج عن صدره، فأراه المَلَكُ، بإفراجه عن السقف فالتأم السقف على الفور، كَيْفِيَّةً ما يُضنَع به، وقَرَّب له الأمر في نفسه بالمآل المُشاهد في بيته لطفاً في حقه وتبييناً لبصره، ولعله فُرج عن سقف بيته حتى لا يَفْرَج المَلَكُ، وقد جاء في هذا الأمر المهم العظيم على شيء سواه، فانصَبَ له من السماء انصباباً واحدة وهي خَرَقُ الحِجَابِ.

ولو أنه جاء على العادة من الباب لاحتاج أن يَلِجَ صَحْنُ الدار، ثم يَفْرُجَ إلى البيت الذي هو فيه وقال الحافظ: قيل الحكمة في نزوله عليه من السقف المبالغة في مفاجأته بذلك والتنبيه على أن المراد منه أن يَفْرُجَ به إلى جهة العُلُوِّ.

الثالث: الرجلان اللذان كان النبي ﷺ نائماً بينهما تلك الليلة: حمزة وجعفر رضي الله عنهما، نبه عليه الحافظ. قال ابن أبي جمرة: وفي هذا تواضعه ﷺ وحُسْنُ خُلُقِهِ، إذ أنه في الفضل حيث هو، ومع ذلك كان يضطجع مع الناس ويقعد معهم، ولم يجعل لنفسه المُكْرَمَةَ مَزِيَّةً عليهم، وفيه دليل على جواز نوم جماعة في موضع واحد، ولكن يشترط في ذلك أن يكون لكل واحد منهم ما يَشْتُرُ به جَسَدَهُ عن صاحبه.

الرابع: تقدم في أبواب صفاته الكلام على شَقِّ الصُّدْرِ وخاتم النبوة والطست والذهب وزمزم.

الخامس: في الكلام على جبريل وفيه فوائد:

الأولى: في لغات اسمه وهي إحدى وعشرون:

الأولى: جَبْرِيل بكسر الجيم والراء وياء ساكنة وهي قراءة نافع^(١) وأبي عمرو^(٢) وابن عامر^(٣)، وحَفْص^(٤) عن عاصم^(٥) وهي لغة الحجازيين. الثانية: جَبْرِيل كذلك إلا أنه بفتح الجيم وهي قراءة ابن كثير. الثالثة: جَبْرَءل كذلك إلا أنه بزيادة همزة مكسورة بعد الراء وحذف الياء وهي قراءة أبي بكر^(٦) عن عاصم. الرابعة: جَبْرَيْل كذلك إلا أنه بزيادة ياء بعد الهمزة وهي قراءة حمزة والكسائي ولغة تميم وقيس وكثير من أهل نجد كما قاله الفراء. الخامسة: جَبْرَائِل كذلك إلا أنه بزيادة ألف بعد الراء وهي رواية حمزة ونعيم بن سعيد وغيرهما عن الأعمش ورواية أبان بن تغلب^(٧). بفتح المثناة وسكون المعجمة وكسر اللام. وأبان بن يزيد العطار من رواية الثلاثة: بَكَار ويونس وعُبَيْد، عنه كلاهما عن عاصم وأبو رجاء وأبو غزوان عن طلحة ذكره الأهوازي. السادسة: جَبْرَائِل كذلك إلا أنه بكسر الجيم على وزن إسرائيل وهي إحدى الروايات عن عكرمة ورواها عنه الزبير، وقرأ بها ابن صدقة عن يحيى ذكره ابن عيسى. السابعة: جَبْرَائِل بفتح الجيم والراء وهمزة بدون ياء، وفي رواية رزين وابن قيس وابن خثيم وأبي عمران وإسماعيل عن الحسن وغيرهم وإسحاق بن سويد بخلاف عنه والحسن الرازي^(٨) عن أصحابه

(١) نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي بالولاء المدني: أحد القراء السبعة المشهورين. كان أسود، شديد السواد، صبيح الوجه، حسن الخلق، فيه دعابة. أصله من أصبهان. اشتهر في المدينة وانتهت إليه رياسة القراءة فيها، وأقرأ الناس نيفاً وسبعين سنة، وتوفي بها سنة ١٦٩ هـ. الأعلام ٥/٨.

(٢) زيان بن العلاء بن عمار بن العريان بن عبد الله بن الحسين بن الحارث بن جلهمة بن حجر بن خزاعي بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم بن مر بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر بن معد بن عدنان الإمام السيد أبو عمرو التميمي المازني البصري أحد القراء السبعة، قال الحافظ أبو العلاء الهمداني: هذا الصحيح الذي عليه الحدائق من النسب وقد قيل: إنه من بني العنبر وقيل: من بني حنيفة وحكى القاضي أسد الزبيدي أنه قيل إنه من فارس من موضع يقال له كازرون. قال عبد الوارث: وُلد أبو عمرو بمكة ونشأ بالبصرة ومات بالكوفة سنة أربع وخمسين ومائة. غاية النهاية ٢٨٨/١، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢.

(٣) عبد الله بن عامر بن يزيد، أبو عمران اليحصبي الشامي: أحد القراء السبعة. ولي قضاء دمشق في خلافة الوليد بن عبد الملك. ولد في البلقاء، في قرية «رحاب» وانتقل إلى دمشق، بعد فتحها، وتوفي فيها. قال الذهبي: مقرأ الشاميين، صدوق في رواية الحديث. انظر الأعلام ٩٥/٤.

(٤) حفص بن سليمان بن المغيرة الأسدي بالولاء، أبو عمر، ويعرف بحفص: قارئ أهل الكوفة. بزاز، نزل بغداد، وجاور بمكة. وكان أعلم أصحاب عاصم بقراءته، وهو ابن امرأته وربيه، ومن طريقه قراءة أهل المشرق. توفي ١٨٠ هـ. الأعلام ٢٦٤/٢.

(٥) عاصم بن أبي النجود ابن بهدلة الكوفي الأسدي بالولاء، أبو بكر: أحد القراء السبعة. تابعي، من أهل الكوفة، ووفاته فيها. كان ثقة في القراءات، صدوقاً في الحديث. قيل: اسم أبيه عبيد، وبهدلة اسم أمه. توفي ١٢٧ هـ. الأعلام ٢٤٨/٣.

(٦) شعبة بن عياش بن سالم الأزدي الكوفي الخياط، أبو بكر: من مشاهير القراء. كان عالماً فقيهاً في الدين. توفي في الكوفة سنة ١٩٣ هـ. الأعلام ١٦٥/٣.

(٧) أبان بن تغلب: بفتح المثناة وسكون المعجمة وكسر اللام، أبو سعد الكوفي، ثقة تُكَلِّم فيه للتشيع، من السابعة، مات سنة أربعين. التقريب ٣٠/١.

(٨) الحسن بن شبيب أبو علي الرازي مقرأ، روى القراءة عرضاً عن الفضل بن شاذان، روى القراءة عنه عرضاً عبد الرحيم. انظر غاية النهاية ٢١٥/١.

أهل العلم في أن هذه الأسماء إضافتها مقلوبة وكذلك الإضافة في كلام العجم يقولون في «غلام زيد». زيد غلام فعلى هذا يكون «إيل» عبارة عن العبد ويكون أول الاسم عبارة عن اسم من أسماء الله تعالى.

قلت: روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن المنذر عن عكرمة، وأبو الشيخ عن علي بن الحسين قالوا: اسم جبريل عبد الله وميكائيل عُبَيْدُ الله، وكل شيء راجع إلى «إيل» فهو مُعْبَدُ الله عز وجل، زاد علي بن الحسين وإسرافيل عبد الرحمن، زاد عكرمة: «والإيل»: الله.

قال الماوردي: «ولا يُغَلَمُ لابن عباس مخالف في ذلك»، وقال السهيلي: «إنه قول الأكثر». وقال الشيخ شهاب الدين الحلبي رحمه الله تعالى في شرح الشاطبية: «اختلف الناس في هذا الاسم هل هو مشتق أم لا؟ والذي عليه الجمهور أنه لا اشتقاق» إذ الأسماء الأعجمية لا اشتقاق لها. وقال آخرون: بل هو مشتق من جبروت الله تعالى.

وكذلك اختلفوا فيه هل هو اسم بسيط لا تركيب فيه أو هو مُرَكَّبٌ؟ فإن جبره معناه «عبد»، «وإيل» هو اسم الباري تعالى وقد قيل ذلك في إسرافيل، ثم اختلفوا في تركيبه، هل هو مُرَكَّبٌ تركيب إضافة أو تركيب مزج؟ فذهب بعضهم إلى الأول، ورُدُّ بأنه كان ينبغي أن يُعْرَبَ إعراب المتضايقين، فيجري الأول منهما مجرى الإعراب، ويجرى الثاني ويُتَوَّن، إذ لا مانع له من الضرف، كما انصرف «إل» في قول من جعله اسماً لله تعالى من قوله عز وجل: ﴿لَا يَرْجُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وِلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠] وهذا كما تقول: جاءني عبد الله، ورأيت عبد الله ومَرَزْتُ بعبد الله. وذهب آخرون كأبي العباس المهدوي إلى أنه مُرَكَّبٌ تركيب مزج كبعبك وحضرموت، وهذا قريب إلا أن بعضهم ردَّ عليه بأنه كان ينبغي أن يُتَنَّى الأول على الفتح ليس إلا، وأنت كما رأيتهم يكسرون الراء في بعض اللغات. ورُدُّ عليه بعضهم أيضاً بأنه لو كان مُرَكَّباً تركيب مزج لجاز أن يُعْرَبَ إعراب المتضايقين أو يُتَنَّى على الفتح كأحد عشر، فإنه مركب تركيب مزج يجوز فيه هذه الأوجه، فكونه لم يُسَمَّع فيه البناء ولا جريانه جريان المتضايقين دليل على عدم تركيبه تركيب مزج. وهذا الرد مردود لأنه جاء على أحد الجائزين، واتفق أنه لم يستعمل إلا كذلك. انتهى.

قال السهيلي: «واتفق في اسم جبريل عليه السلام أنه موافق من جهة العربية لمعناه وإن كان أعجمياً، فإن الجبر هو إصلاح ما وهى، وجبريل مُوَكَّلٌ بالوحي، وفي الوحي إصلاح ما فسد وجبر ما وهى بن الدين، ولم يكن هذا الاسم معروفاً بمكة ولا بأرض العرب، فلما أخبر النبي ﷺ خديجة به انطلقت تسأل من عنده علم الكتاب كعداس ونسطور الراهب وورقة.

فقالوا لها: قُدوس قُدوس أتى لهذا الاسم أن يُذكر في هذه البلاد كما تقدّم بيان ذلك.

الفائدة الثالثة: في بعض فضائله: ذكره تعالى في كتابه في خمسة وثلاثين موضعاً بالصريح وغيره، وذكره باسمه في ثلاثة مواضع: في البقرة في موضعين ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٧]، ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، والثالث في التحريم ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ﴾ [التحريم: ٤]، وذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم في أربعة مواضع الأول والثاني والثالث في آل عمران ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: ٣٩]، وهو جبريل وحده بدليل قراءة ابن مسعود رضي الله عنه ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ [آل عمران ٤٢] ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥] والرابع في النحل: ﴿يُنزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ يعني جبريل والروح الوحي. وذكر بلفظ الروح في ثمانية مواضع بلفظ الروح مطلقاً، وبإضافته إلى نفسه وبإضافته إلى القدس وهو الطهارة، وبوصفه بالأمانة، فقال: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤] يعني جبريل ﴿تَنزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤]، ﴿فَأَنْزَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧]، ﴿وَإِذْ نَادَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧] وفي المائدة ﴿وَإِذْ أَيْدَتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [المائدة: ٩] وفي النحل ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وفي الشعراء ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، ووصفه في موضع واحد بسبع صفات جميلة وهي: الرسالة والكرم والقوة والقزبة والمكانة وطاعة الملائكة والأمانة، وذلك في سورة التكويد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكويد: ١٩، ٢٠، ٢١].

وروى أبو الشيخ في العظمة عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أقرب الخلق إلى جبريل وميكائيل وإسرافيل وإنهم من الله بمسيرة ألف سنة». وروى أبو الشيخ عن وهب. قال: هؤلاء الأربعة أملاك: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ومَلَكُ الموت، أول من خلقهم الله من الملائكة وآخر من يميتهم، وأول من يُخَيِّبهم وهم المدبرات. وروى أبو الشيخ عن خالد بن أبي عمران قال: جبريل أمين الله تعالى إلى رُسُلِهِ، وميكائيل يُلقِي الكتب التي ترفع من أعمال الناس وإسرافيل بمنزلة الحاجب.

وروى أبو الشيخ عن عكرمة بن خالد أحد التابعين أن رجلاً قال: يا رسول الله أي الملائكة أكرم على الله؟ قال: لا أدري فجاءه جبريل فقال: يا جبريل أي الملائكة أكرم على الله؟ قال: لا أدري، فعرج جبريل، ثم هبط فقال: جبريل وميكائيل وإسرافيل ومَلَكُ

الموت، فأما جبريل فصاحب الحرب وصاحب المرسلين وأما ميكائيل فصاحب كل قطرة تسقط وكل ورقة، وأما ملك الموت فهو مؤكل بقبض روح كل عبد في بَرٍّ أو بَحْرٍ، وأما إسرافيل فأمين الله بينه وبينهم.

التبويه السادس: في لغات ميكائيل وهي سبع: الأولى وهي الأَفْصَح: ميكال بوزن ميقات وميعاد وبها قرأ أبو عمرو. الثانية: مكائيل: بهمزة فياء وهي قراءة نافع. الثالثة: ميكائيل ببياءين وهي قراءة باقي السبعة. الرابعة: ميكتيل بهمزة بعد الكاف فمُثَنِّاة تحتية وهي قراءة ابن مُحَيِّصِن. الخامسة: كذلك [أي ميكتل] إلا أنه لا ياء بعد الهمزة وبها قرأ بعضهم. السادسة: ميكايل ببياءين صريحتين بعد الألف وبها قرأ الأعمش. السابعة: ميكايل بهمزة مفتوحة بعد الألف.

التبويه السابع: في الكلام على البُرَاق، وهو بضم المُوَحَّدة وتخفيف الراء مُشْتَقٌّ من البَرِيق فقد جاء في لونه أنه أبيض أو من البَرِيق لأنه وُصِفَ بسرعة الشَّير أو من قولهم: شاة بَرِقاء إذا كان خلال صوفها الأبيض طاقات سوداء، ولا ينافيه وَصْفُهُ في الحديث بالبياض لأن البَرِقاء من الغَنَمِ مَعْدُودَةٌ في البيض. وفي حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عند أحمد والحرث: «أَبْرِقُوا فَإِنَّ دَمَ عَفْرَاءٍ أَزْكَى عِنْدَ اللَّهِ مِنْ دَمِ سَوْدَاوَيْنِ»، فجعل البَرِقاء مقابلة السوادوين تفضيلاً للبياض، فلهذا يكون البُرَاق أفضل الألوان ويجوز أن يجمع بين المعنيين فيُسَمَّى بُرَاقاً لِلْوَنِهِ ولِسُرْعَةِ مَسِيرِهِ فيكون ذلك من قبيل مُجْتَمِعِي اللَّفْظِ المُشْتَرَكِ دَفْعَةً واحدة في اللفظ ويُحْتَمَلُ أَلَّا يَكُونَ مُشْتَقًّا.

قال ابن أبي جَمْرَةَ: وإنما كان ركوب النبي ﷺ على البُرَاق إشارة إلى أن الاختصاص به لأنه لم يُنْقَلْ أن أحداً مَلَكَه بخلاف جنسه من الدواب. قال: والقنطرة صالحة لأن يَضَعْدَ بنفسه بغير بُرَاق، لكن كان البُرَاق بشارَةً له في تشريفه، لأنه لو صَعِدَ بنفسه لكان في صورة ماشٍ، والراكب خلاف الماشي. وقال ابن دِحْيَةَ: رُبَّمَا مُزِجَ خَرَقُ الْعَادَةِ بِالْعَادَةِ تَأْنِيسًا، وقد كان الخَرَقُ قادراً على أن يرفع نَبِيَّهُ ﷺ بدون البُرَاق، ولكن الركوب وصِفَةُ المَرْكُوبِ المُعْتَادِ تَأْنِيسٌ فِي هَذَا الْمَقَامِ الْعَظِيمِ بِطَرَفٍ مِنَ الْعَادَةِ، ولعل الإسراء بالبُرَاق إظهاراً لِلْكَرَامَةِ الْعُرْفِيَّةِ، فإن المَلِكِ الْعَظِيمِ إِذَا اسْتَدْعَى وَلِيًّا لَهُ وَخَصَّيْصًا بِهِ، وَأَشْخَصَهُ إِلَيْهِ بَعَثَ إِلَيْهِ بِمَرْكُوبِ سَنِيٍّ، يَحْمِلُهُ عَلَيْهِ فِي وَفَادَتِهِ إِلَيْهِ. ولم يكن البُرَاق بشكل الفرس ولكنه بشكل البغل وكان ذلك - والله تعالى أعلم - للإشارة إلى أن الركوب في سَلَمٍ وَأَمْنٍ لا في حربٍ وَخَوْفٍ، أو لإظهار المعجزة في الإسراع العجيب من دابة ما يوصف شكلها بالإسراع الشديد عادة.

فإن قيل: فقد ركب النبي ﷺ البغلة في الحرب، فالجواب: كان ذلك لتحقيق نبوته

عليه الصلاة والسلام في مواطن الضرب والطعن والانتشاب في نحر العدو، ولَمَّا كَانَ اللهُ تَعَالَى خَصَّهُ بِمَزِيدٍ مِنَ الشَّجَاعَةِ وَالْقُوَّةِ. وَإِلَّا فَالْبَغَالُ عَادَةٌ مِنْ رُكُوبِ الطَّمَانِينَةِ وَالْأَمْتَةِ، فَتَبَيَّنَ أَنَّ الْحَرْبَ عِنْدَهُ كَالسَّلْمِ قُوَّةُ قَلْبٍ وَشَجَاعَةُ نَفْسٍ، وَثِقَّةٌ وَتَوَكُّلٌ. وَرَكِبَتِ الْمَلَائِكَةُ فِي الْحَرْبِ عَلَى الْخَيْلِ لَا غَيْرَ لِأَنَّهَا بِصَدَدِ ذَلِكَ عُزْفًا دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْمَرْكُوبَاتِ. وَلَطُفَ شَكْلُ الْبِرَاقِ لَمَّا وَصَفَهُ، عَنِ شَكْلِ الْبِغْلِ، وَمَا لَطُفَ مِنَ الْبِغَالِ وَاسْتِدَارَ أَحْمَدُ وَأَحْسَنَ مِنَ الْمُطَهَّمَاتِ (١) مِنْهَا، وَذَلِكَ بِخِلَافِ الْخَيْلِ.

وَلَمْ يُسَمَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سَيَّرَ الْبِرَاقَ بِرَسُولِهِ ﷺ طَيْرَانًا، وَإِنَّمَا سَمَّاهُ بِمَا يُسَمَّى بِهِ السَّيْرَ الْمَعْتَادَ وَسَيَّرَ اللَّيْلَ عِنْدَ الْعَرَبِ سُورَى، فَيُؤْخَذُ مِنْ هَذَا أَنَّ الْوَلِيَّ إِذَا طَارِبَتْ لَهُ الْأَرْضُ الْبَعِيدَةُ فِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ يَتَنَاوَلُهُ اسْمُ الْمَسَافِرِ، وَيَشْمَلُهُ أَحْكَامُ السَّفَرِ بِاعْتِبَارِ الْفَضْرِ وَالْفِطْرِ. وَإِنَّمَا لَمْ يُذَكَّرَ الْبِرَاقُ فِي الرَّجُوعِ لِأَنَّ ذَلِكَ مَعْلُومٌ بِذِكْرِهِ فِي الصُّعُودِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَائِلَ تَقِيكُمْ الْحَرْبَ﴾ [النحل: ٢] يَعْنِي وَالْبَرْدَ.

قَالَ فِي فَتْحِ الصَّفَا: فَإِنْ قِيلَ: هَلْ كَانَ الْإِسْرَاءُ عَلَى أَجْنِحَةِ الْمَلَائِكَةِ وَالرِّيحِ كَمَا كَانَتْ تَحْمِلُ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوْ الْخَطْوَةَ كَطَيِّ الزَّمَانِ؟ قُلْتُ الْمُرَادُ إِطْلَاعُهُ عَلَى الْآيَاتِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ، وَمَا يَتَضَمَّنُ أَمْرًا عَجِيبًا، وَلَا عَجَبَ فِي حَمْلِ الْمَلَائِكَةِ أَوْ الرِّيحِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قِطْعَةٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَافَةِ، بِخِلَافِ قِطْعِهَا عَلَى دَابَّةٍ فِي هَذَا الْحَجْمِ الْمَخْخَكِيِّ عَنِ صِفَتِهَا، وَوَقَعَ مِنْ تَعْظِيمِهِ بِالْمَلَائِكَةِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ حَمْلِهِ عَلَى أَجْنِحَتِهَا فَقَطْ. فَقَدْ أَخَذَ جِبْرِيلُ بِرِكَابِهِ وَمِيكَائِيلُ بِرِمَامِ الْبِرَاقِ، وَهُمَا مِنْ أَكْبَارِ الْمَلَائِكَةِ، فَاجْتَمَعَ لَهُ ﷺ حَمْلُ الْبِرَاقِ، وَمَا هُوَ كَحَمْلِ الْبِرَاقِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَهَذَا أَتَمُّ فِي الشَّرْفِ.

وَاخْتَلَفَتِ الْأَقْوَامُ فِي صِفَتِهِ، فَقِيلَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مَا ذُكِرَ. وَقَالَ صَاحِبُ الْإِحْتِفَالِ: إِنَّهُ دُونَ الْبِغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ، وَجَهُّهُ كَوَجْهِ الْإِنْسَانِ، وَجَسَدُهُ كَجَسَدِ الْفَرَسِ وَقَوَائِمُهُ كَقَوَائِمِ الثَّوْرِ وَذَنْبُهُ كَذَنْبِ الْغَزَالِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: جَسَدُهُ كَجَسَدِ الْإِنْسَانِ وَذَنْبُهُ كَذَنْبِ الْبَعِيرِ وَعُزْفُهُ كَعُزْفِ الْفَرَسِ وَقَوَائِمُهُ كَقَوَائِمِ الْإِبِلِ وَأَظْلَافُهُ كَأَظْلَافِ الْبَقَرِ وَصَدْرُهُ كَأَنَّهُ يَاقُوتَةٌ حَمْرَاءُ وَظَهْرُهُ كَأَنَّهُ دُرَّةٌ بَيْضَاءُ. لَهُ جَنَاحَانِ فِي فِخْذَيْهِ وَهَذَا كُلُّهُ لَمْ يَصِحَّ مِنْهُ شَيْءٌ، وَمَا ذَكَرَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَمْثَلُهَا، وَلَعَلَّ السَّرْفَ فِي كَوْنِهِمَا فِي فِخْذَيْهِ لِثِقَلِ مُبَوْنَجِرِ الدَّابَّةِ، أَوْ لِأَنَّ ذَلِكَ جَارٍ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ فِي خَرْقِ الْعَادَةِ، أَوْ لِأَجْلِ الرَّكَابِ، لِأَنَّهَا لَوْ كَانَا فِي جَنْبَيْهِ عَلَى الْعَادَةِ لَكَانَا تَحْتَ فِخْذَيْ الرَّكَّابِ أَوْ فَوْقَهُمَا، وَيَحْتَضِلُّ لَهُ مِنْ ذَلِكَ مَشَقَّةٌ بِضَمِّهِمَا وَنَشْرُهُمَا خِصُوصًا مَعَ السَّرْعَةِ الْعَظِيمَةِ.

(١) الْمُطَهَّمُ: الْمُتَقَبِّحُ الْوَجْهَ. وَقِيلَ: الْفَاجِحُ الشَّنَّ. وَقِيلَ: التَّجِيفُ الْجِسْمَ، وَهُوَ مِنَ الْأَضْدَادِ. انظُرِ النَّهْجَةَ لِابْنِ الْأَثَرِ ١٤٧/٣.

وفي بعض الآثار أنه ليس بذكر ولا أنثى، فاقترضى ذلك أن يكون مفرداً بالخلق بهذه الصفة من غير توليد، وقد قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] ونقل الشيخ سعد الدين أن الملائكة الكرام لا ذكور ولا إناث إلى آخر ما ذكره. وفي أثر آخر أن جبريل خاطبه خطاب المؤمن.

واختلف في الحكمة في استصعاب البراق، فقال ابن بطال: إنما استصعب عليه لبعده بركوب الأنبياء قبله، ويؤيده ما في المبتدأ لابن إسحاق رواية وثيمة بن موسى في ذكر الإسراء، «فاستصعب البراق وكانت الأنبياء تركبها قبلي» وكانت بعيدة العهد بركوبهم فلم تكن ركبته في الفترة.

وقال ابن دحية وابن المنير: «إنما استصعب تيهاً وزهواً بركوب النبي ﷺ، وأراد جبريل بقوله: أبا محمد تستصعب؟ استنطاقه بلسان الحال إذ أنه لم يقصد الصعوبة، وإنما تاه بركوب النبي ﷺ، ولهذا قال: فازفض عرقاً، فكأنه أجاب بلسان الحال، فبريء من الاستصعاب، وعرق من خجل العتاب، وذلك قريب من رجفة الجبل به حتى قال: اثبت فإنما عليك نبي وصديق وشهيد، فإنها هزة طرب لا هزة غضب، كما سيأتي الكلام على ذلك مبسوطاً في المعجزات. قال الشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفي رحمه الله تعالى: ولا يتعد أن يقال إنما كان استصعابه فرقاً من هية سيدنا رسول الله ﷺ.

التبیه الثامن: قال الحافظ: من الأخبار الواهية أن البراق لما عاتبه جبريل عليه السلام اعتذر إليه البراق بأنه مس الصفراء اليوم، وأن الصفراء صنم من ذهب عند الكعبة، وأن النبي ﷺ مر به فقال: «تبا لمن يعبدك من دون الله»^(١)، وأن النبي ﷺ نهى زيد بن حارثة أن يمسه بعد ذلك، وكسره يوم الفتح. وقال في الزهر: هذا لا ينبغي أن يُذكر ولا يُغزى لسيدنا رسول الله ﷺ. قال الإمام أحمد - روى عنه ابنه عبد الله أنه قال: «هو موضوع» وأنكره جداً.

التبیه التاسع: قال الحافظ: من الأخبار الواهية ما ذكره الماوردي والشعبي والقرطبي في التذكرة من طريق الكلبي عن إبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الموت والحياة جسمان؛ فالموت ليس يجد ريحه في شيء إلا مات، والحياة فرس بقاء أنثى وهي التي كان جبريل والأنبياء يركبونها لا تمر بشيء ولا يجد ريحها شيء إلا حيي.

التبیه العاشر: اختلف في ركوب جبريل على البراق مع النبي ﷺ، وعلى القول به هل ركب أمام النبي ﷺ أم خلفه؟ فعند الإمام أحمد عن حذيفة رضي الله عنه أن

(١) انظر الفتح ٢٠٧/٧.

رسول الله ﷺ أتى بالبراق فلم يزايل ظهره هو وجبريل حتى انتهى إلى بيت المقدس. وفي رواية عند ابن جبان أن جبريل حمله على البراق رديفاً له، وفي لفظ «فركبه خلف جبريل فسار بهما». وفي حديث أبي ليلى أن جبريل أتى النبي ﷺ بالبراق فحمله بين يديه، رواه الطبراني. وفي حديث ابن مسعود، رَفَعَهُ: «أُتِيَ بِالْبَرَاقِ، فَرَكِبْتُهُ خَلْفَ جَبْرِيلَ». والصحيح أنه كان مُعَدًّا لركوب الأنبياء قبل سيدنا رسول الله ﷺ (١).

وروى الفاكهي بسند حسن عن علي رضي الله عنه قال: «كان إبراهيم يزور إسماعيل وأمه على البراق». وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «وكانت الأنبياء تركبها قبلي». رواه البيهقي وغيره. وقال أنس رضي الله عنه: «وكانت تُسَخَّرُ لِلْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي»، رواه النسائي وابن مَزْدَوِيَه. وقال سعيد بن المُسَيَّبِ وأبو سَلَمَةَ بن عبد الرحمن: «أُشْرِي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْبَرَاقِ، وَهِيَ دَابَّةُ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي كَانَ يَزُورُ عَلَيْهَا الْبَيْتَ الْحَرَامَ»، رواه ابن جرير.

التبیه الحادي عشر: قوله في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «وتكلم أربعة وهم صغار» فذكر ابن الماشطة وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم. وروى الشيخان من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة»، فذكر عيسى وصاحب جريج وابن الماشطة. وفي حديث مسلم عن صُهَيْبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الْأَخْدُودِ: أَنَّ امْرَأَةً جِيءَ بِهَا لثَلْقَى فِي النَّارِ أَوْ لَتَكْفُرٍ وَمَعَهَا صَبِيٌّ يَرْضَعُ فَتَقَاعَسَتْ فَقَالَ: يَا أُمَامَ اصْبِرِي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ. وفي رواية عند ابن قتيبة: إنه كان ابن سبعة أشهر. وروى الثعلبي عن الضحاک أن يحيى بن زكريا تكلم في المهد وذكر البغوي في تفسيره أن إبراهيم الخليل عليه السلام تكلم في المهد. وفي سير الواقدي أن النبي ﷺ تكلم في أوائل ما وُلِدَ. وقد تكلم في زمان النبي ﷺ مبارك الإمامة كما سيأتي في المعجزات، فهذه عشرة، وتقدم نظمهم في أبواب المولد، وسيأتي الكلام على ذلك مبسوطاً في المعجزات. وإذا عَلِمَ ذَلِكَ فَقَوْلُهُ ﷺ: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ» (٢)، قاله قبل أن يعلم الزيادة على ذلك.

التبیه الثاني عشر: ذُكِرَ فِي الْقِصَّةِ نَزُولُهُ ﷺ عَنِ الْبَرَاقِ وَصَلَاتُهُ بَعْدَهُ مَوَاضِعَ كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي الْقِصَّةِ. وَقَالَ حُدَيْفَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَزَايِلْ ظَهَرَ الْبَرَاقِ هُوَ وَجَبْرِيلُ حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ». قَالَ الْحَافِظُ: «وَهَذَا لَمْ يُسْنِدْهُ حُدَيْفَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ قَالَهُ عَنِ اجْتِهَادِهِ». قُلْتُ: وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ إِنْكَارُهُ رِبْطَ الْبَرَاقِ وَالصَّلَاةَ

(١) أخرجه مسلم ١٤٥/١ (١٦٢.٢٥٩) والنظر مسند الإمام أحمد ١٤٨/٣ والحاكم في المستدرک ٦٠٦/٤ الدر المشور للسيوطي ١٣٦/٤.

(٢) أخرجه البخاري ٢٠١/٤ ومسلم ١٩٧٦/٤ وأحمد في المسند ٣٠١/٢ والحاكم في المستدرک ٥٩٥/٢.

في بيت المقدس، مع ورود الأحاديث الصحيحة عن جماعة من الصحابة بوقوع ذلك كما سيأتي.

التبیه الثالث عشر: أنكر حذيفة رضي الله عنه رَبَطَ الْبِرَاقَ، فروى الإمام أحمد والترمذي عنه أنه لما قيل له: رَبَطَ الْبِرَاقَ قَالَ: أَخَافُ أَنْ يَفْرَ مِنْهُ وَقَدْ سَخَّرَهُ لَهُ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ؟ قَالَ الْبَيْهَقِيُّ وَالسَّهَيْلِيُّ: وَالْمُثَبِّتُ مُقَدِّمٌ عَلَى النَّافِي، يعني من أثبت رَبَطَ الْبِرَاقَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ مَعَهُ زِيَادَةٌ عِلْمٍ عَلَى مَنْ نَفَى، فهو أولى بالقبول. قال الإمام النووي: وفي ربط البراق الأخذ بالاحتياط في الأمور وتعاطي الأسباب، وأن ذلك لا يَقْدَحُ فِي التَّوَكُّلِ إِذَا كَانَ الْاعْتِمَادُ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وقال السهيلي: وفي هذا من الفقه التنبيه على الأخذ بالحزم مع صحة التوكل وأن الإيمان بالقدر كما روي عن وهب بن مثنبه لا يمنع الحزم من توقي المهالك، قال وهب: وَجَدْتُهُ فِي سَبْعِينَ كِتَابًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ الْقَدِيمَةِ، وَهَذَا نَحْوُ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «اغفلها وتوكل»^(١). فإيمانه ﷺ بأنه قد سُخِّرَ لَهُ كَأَيْمَانِهِ بِقَدْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِلْمِهِ بِهِ أَنَّهُ قَدْ سَبَقَ فِي أَمِّ الْكِتَابِ مَا سَبَقَ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ يَتَزَوَّدُ فِي أَسْفَارِهِ، وَيُعِدُّ السَّلَاحَ فِي حُرُوبِهِ، حَتَّى لَقِيَ ظَاهَرَ بَيْنِ دِزْعَيْنِ فِي غَزْوَةِ أُخْدٍ وَرَبَطُهُ لِلْبِرَاقِ مِنْ هَذَا الْفَنِّ.

التبیه الرابع عشر: في بعض فضائل بيت المقدس وفيه فوائد: الأولى: في مبدأ خلقه: روى أبو بكر الواسطي عن علي رضي الله عنه قال: كانت الأرض ماء، فبعث الله تعالى ريحاً فمسحت الماء مسحاً، فظهرت على الأرض زبده فقسمها أربع قطع، خلق من قطعة مكة ومن أخرى المدينة ومن أخرى بيت المقدس ومن أخرى الكوفة. وتقدم حديث أبي ذر في الباب الأول من أبواب بعض فضائل بلده المنيف فراجعه. وروى الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سليمان عليه السلام لما بنى بيت المقدس سأل ربه خيلاً ثلاثاً فأعطاه إياها: سأله حكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه، وسأله أيماً رجلاً خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد يعني بيت المقدس خرج من خطيبته كيوم ولدته أمه». قال النبي ﷺ: «ونحن نرجو أن يكون الله تعالى قد أعطاه ذلك»^(٢).

وروى ابن أبي شيبة والواسطي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «إن بيت المقدس لمُقَدَّسٌ فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ بِمَقْدَارِهِ فِي الْأَرْضِ» وروى الواسطي عن عطاء

(١) أخرجه ابن حبان (٢٥٤٩) وأبو نعيم في الحلية ٣٩٠/٨ وذكره المعجلوني في كشف الخفا ١٦١/١ وعزاه للترمذي عن أنس.

(٢) أخرجه النسائي في المساجد باب (٦) وأحمد في المسند ١٧٦/٢ وذكره السبوطي في الدر ١٦٠/٤.

الخراساني قال: «لما فرغ سليمان بن داود عليهما التسلياة والسلام من بناء بيت المقدس أنبت الله شجرتين عند باب الرحمة أحدهما تُنبت الذهب والأخرى تُنبت الفضة، فكان كل يوم تُنزع من كل واحدة مائة رطل ذهب وفضة، ففُرش المسجد، بلاطة ذهباً وبلاطة فضة. فلما جاء بختنصر خربه واحتمل منه ثمانين عجلة ذهباً وفضة فطرحهما برومية».

وروى الواسطي عن سعيد بن المسيب رحمهما الله تعالى أن سليمان عليه السلام لما فرغ من بناء بيت المقدس فرغ له عشرة آلاف من قُرَاء بني إسرائيل: خمسة آلاف بالليل وخمسة آلاف بالنهار، فلا تأتي ساعة من ليل أو نهار إلا والله تعالى يُعبد فيه. وروى الواسطي عن كعب الأحبار أن سليمان بن داود عليهما السلام لما فرغ من بناء المسجد خرّ ساجداً شكراً لله وقال: «يا رَبِّ مَنْ دَخَلَهُ مِنْ خَائِفٍ فَأَمَّنَهُ أَوْ مِنْ دَاعٍ فَاسْتَجَبَ لَهُ أَوْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ»، فأوحى الله تعالى إليه: «إني قد أجبتُ لآل داود الدعاء». قال: فذبح أربعة آلاف بقرة وسبعة آلاف شاة، وصنع طعاماً كثيراً ودعا بني إسرائيل إليه.

والآثار في هذا كثيرة، وقد ذكر المؤرخون في عمارته وما فيه من الجواهر والمعادن واليواقيت في سمائه وأرضه وجدراته ما تعجز عنه ملك الدنيا. فلما دخل بختنصر خربه وأخذ تلك النفائس التي فيه، وذكُر ذلك هنا ليس من غرضنا. الثانية: في بعض فضله، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١] وهذه الآية هي المُعْظَمَة لقدره بإسراء رسول الله ﷺ إليه قبل عروجه إلى السماء وإخبار الله تعالى بالبركة حوله. وتقدم الكلام على ذلك. وقال تعالى: ﴿وَجَنَّتَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

روى أبو المعالي المشرف بن المُرْجِي المقدسي في فضائله عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «الجَنَّةُ تَجُنُّ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَصَخْرَةُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ مِنْ جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ». وروى الواسطي عن مكحول قال: «مَنْ صَلَّى فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ ظَهراً وَعَصراً وَمَغْرِباً وَعِشَاءً، ثُمَّ صَلَّى الْغَدَاةَ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ».

وروى أيضاً عن كعب قال: «في بيت المقدس، اليوم فيه كَأَلْفِ يَوْمٍ وَشَهْرٍ فِيهِ كَأَلْفِ شَهْرٍ وَالسَّنَةُ فِيهِ كَأَلْفِ سَنَةٍ، وَمَنْ مَاتَ فِيهِ كَأَنَّما مَاتَ فِي السَّمَاءِ». وروى الحاكم عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «في بيت المقدس لِغَنَمِ الْمُصَلِّي، وَلِيُوشِكُنَ أَلَا يَكُونُ لِلرَّجُلِ مِثْلُ بَشَطِ قَرْشِيهِ مِنَ الْأَرْضِ حَيْثُ يَرَى مِنْهُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعاً أَوْ قَالَ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا». وروى الواسطي عن كعب قال: «إِنَّ اللَّهَ يَنْظُرُ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ كُلِّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ». والآثار في فضله كثيرة.

الثالثة: في أسمائه: الأول: المسجد الأقصى وتقدم الكلام عليه. الثاني: مسجد إيلياء بوزن كثيرياء. وحكى البكري وغيره قَصْرَ أَلْفِهِ، وحكى ابن يونس في شرح التعجيز. وابن الأثير في النهاية بتشديد الياء. وحكى صاحب المطالع وغيره حذف الياء الأولى وكسر الهزة وسكون اللام والمد، قال محمد بن سهل الكاتب: معنى إيلياء بيت الله. وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما في مُشْتَدَّ أَبِي يَغْلَى: «الإيلاء» بالألف واللام، قال النووي: وهو غريب.

الثالث والرابع: «بَيْتُ الْمُقَدَّسِ» بفتح الميم وإسكان القاف وكسر الدال مُخَفَّفَةً، «وَالْبَيْتُ الْمُقَدَّسِ» بضم الميم وفتح القاف والدال المشددة. قال الواحدي: «معناه الْمُطَهَّرُ»، قال: أبو علي المقدسي: «وأما بيت المقدس يعني بالتخفيف فلا يخلو إما أن يكون مصدراً أو مكاناً، فإن كان مصدراً كان كقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾ [يونس: ٤] ونحوه من المصادر، وإن كان مكاناً فالمعنى بيت المكان الذي جعل فيه الطهارة أو بيت مكان الطهارة، وتطهيره على معنى إخلائه من الأصنام وإبعاده منها»، وقال الزُّجَّاج: «البيت المقدس أي المكان المُطَهَّرُ، وبيت المقدس أي المكان الذي يُطَهَّرُ فيه من الذنوب، هذا ما ذكره الواحدي»، وقال غيره: «البيت المقدس وبيت المقدس لغتان الأولى على الصفة والثانية على إضافة الموصوف إلى صفة كصلاة الأولى ومسجد الجامع.

قال ابن سُرَّاقَةَ^(١): «ويقال الأرض المقدسة ثلاثة: فَلَسْطِين - بفاء مفتوحة فلام مفتوحة - والأردن - بهزة مضمومة فراء ساكنة فдал مهملة مضمومة فنون، قال البكري: مُشَدَّدَةٌ - ودمشق، وهو ما أدرك بَصْرُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حين رُفِعَ على الجبل وقيل له: «ما أدرك بَصْرُكَ فهو ميراث لك ولولدك من بعدك».

الخامس: بيت المقدس: بضم الدال وإسكانها بغير ميم، ذكره الحازمي^(٢) في أسماء الأماكن ونقل عن ابن الأثير أيضاً.

السادس: سَلَّمَ بتشديد اللام لكثرة سلام الملائكة فيه. قال ابن بَرِّي: وأصله «سلم» بالشين المعجمة لأن الشين المعجمة في العربية سين، فالسلام شلام واللسان لشان والاسم اشم، وقال البكري في حرف الشين المعجمة: «سَلَّمَ»^(٣) بفتح أوله وثانيه وتشديده على وزن

(١) محمد بن يحيى بن سُرَّاقَةَ العامري، أبو الحسن: فقيه فرضي. من أهل البصرة. منصف كتباً في فقه الشافعية والفرائض ورجال الحديث. ووقف ابن الصلاح على «كتاب الأعداد» له. توفي سنة ٤١٠ هـ. انظر الأعلام ١٣٦/٧.

(٢) محمد بن موسى بن عثمان بن حازم، أبو بكر، زين الدين، المعروف بالحازمي: باحث، من رجال الحديث. أصله من همدان، ووفاته بغداد. له كتاب «ما اتفق لفظه واختلف مسماه» في الأماكن والبلدان المشتهية في الخط، و«الفصل» في مشتبه النسبة، و«الاعتبار في بيان النسخ والمنسوخ من الآثار» في الحديث، و«عجالة المبتدي وفضالة المنتهي»، توفي سنة ٥٨٤ هـ. الأعلام ١١٧/٧.

(٣) انظر لسان العرب ٢٣١٨/٤.

فَعَلَّ اسم لبيت المقدس. وقال الهمداني: «سَلَم»: وقد تُعْرَبُهَا العرب فنقول: سَلِم. وحكى ابن القطّاع: سَلَامٌ على وزن فَعَالٍ. وقال ابن الأثير: «سَلَم» بالمعجمة وتشديد اللام اسم لبيت المقدس ويُزَوَّى بالمهملة وكسر اللام سَلِمَ كأنه عَرَبِيٌّ. ومعناه بالعبرانية: بيت السلام.

السابع: زُوي عن كعب الأحبار، أن الجنة في السماء السابعة بحيال بيت المقدس والصخرة، ولو وقع حَجَرٌ منها لوقع على الصخرة ولذلك دُعِيَتْ: أوري سَلِم، ودُعِيَتْ الجنة: دار السلام

الثامن: أوري سَلِم، بضم الهمزة وسكون الواو وكسر الراء وسكون التحتية وفتح الشين المعجمة وكسر اللام المخففة، كذا قال أبو عُبَيْدَةَ مَعْمَرُ بن المُنْثَيِّ، والأكثرُونَ بفتح الشين واللام. التاسع: كَوْرَةُ إِيْلِيَا، العاشر: أوري سَلَم. الحادي عشر: بيت إيل، أي بيت الله. الثاني عشر: «صِهْيُون»: بصاد مهملة مكسورة فهاء ساكنة فُمُثَّنَاةٌ تحية فواو فنون، ذكره البكري. قال: وهو بفتح الصاد اسم قبيلة. الثالث عشر: «مصرث» بميم فصاد فراء فشاء مثلثة. الرابع عشر: «بابوش»: بموحدين وآخره شين معجمة. الخامس عشر: «كورشيلاه». السادس عشر: «صاعون»: ذكر هذه الأسماء ابن خالويه. السابع عشر: سليم. الثامن عشر: «فُسَطُ مصر» بضم الفاء. التاسع عشر: أرض المَحْشَرِ والمَنْشَرِ. العشرون: المحفوظة. الحادي والعشرون: المُفَرَّقَةُ. الثاني والعشرون: مدينة الجنة.

الرابعة: في خصائصه: الأولى في مضاعفة الصلاة فيه: وقد اختلفت الأحاديث في مقدارها: الأول: خمسمائة صلاة: روى الإمام أحمد وابن ماجه والبخاري والقاسم الحافظ أبي القاسم بن عساكر عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ. قال: «الصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة»^(١). الثاني: ألف صلاة: روى ابن ماجه عن ميمونة رضي الله عنها، قالت: قلت: يا رسول الله أفيتنا في بيت المقدس، فقال رسول الله ﷺ: «أرض المَحْشَرِ والمنشَرِ، اتوه فصلوا فيه فإن صلاةً فيه كَأَلْفِ صلاة»^(٢). قال النووي: لا بأس بإسناده، وقال الذهبي: حديث مُنْكَر. الثالث: خمسون ألف صلاة: روى ابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الرجل في بيته بصلاة، وصلاته في مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاة، وصلاته في المسجد الذي يُجْمَعُ فيه بخمسمائة صلاة، وصلاته في المسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة». وصلاته في المسجد الحرام بمائة ألف

(١) ذكره الهيثمي في المجمع ١٠/٤ وعراه للطبراني في الكبير وقال: ورجاله ثقات وفي بعضهم كلام وهو حديث حسن.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٤٠٧) والطحاوي في مشكل الآثار ٢٤٩/١ وابن حجر في المطالب (١٣٦٥) وذكره العيني الهندي في الكنز (٣٨١٩٨) والمجلوني في كشف الخفا ٣٤٥/١.

صلاة^(١). الرابع: مائتان وخمسون: روى الطبراني في معجمه عن أبي ذر رضي الله عنه، مرفوعاً: «صلاة في مسجدي أفضل من أربع فيه»^(٢)، يعني بيت المقدس، فدل على أن الصلاة في بيت المقدس بمائتين وخمسين صلاة. الخامس: بعشرين ألف صلاة، روى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما ولهذا مزيد بيان في أبواب فضائل المدينة الشريفة.

الثانية: استحباب شد المطي إليه لما رواه الشيخان: «لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام والمسجد الأقصى»^(٣).

الثالثة: استحباب ختم القرآن فيه: روى سعيد بن منصور في سننه عن أبي مجلز - بكسر الميم وحكي فتحها وإسكان الجيم وفتح اللام وبالزاي - واسمه لاحق بن حميد، قال: «كانوا يشتحبون لمن أتى المساجد الثلاثة أن يختم بها القرآن قبل أن يخرج».

الرابعة: استحباب المجاورة به: روى الحاكم عن ثور بن يزيد عن مكحول قال: «كان عبادة بن الصامت وشداد بن أوس رضي الله عنهما يسكنان بيت المقدس». وقد سكنه عدة من الصحابة رضي الله عنهم.

الخامسة: يُستحب الصيام فيه فقد روي: «صوم في بيت المقدس براءة من النار». السادسة: استحباب الإحرام بالحج والعمرة منه: روى أبو داود عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من أهل بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»^(٤).

السابعة: يُستحب لمن لم يقدر على زيارته أن يُهدي له زيتاً، روى أبو داود وابن ماجه واللفظ له عن ميمونة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله: أفيتنا في بيت المقدس. قال: «أرض المَحْشَرِ والمَنْشَرِ، إيتوه فصلوا فيه فإن صلاة فيه كألف صلاة في غيره». قلت: يا رسول الله أرأيت إن لم أستطع أن أصل إليه؟ قال: «فتهدي إليه زيتاً ليُشْرَج فيه فمن فعل ذلك فهو كمن أتاه». المَحْشَرُ مَقْعَل من الحَشَر وهو الجمع يعني يوم القيامة، فإذا فتحت الشين فهو المصدر، وأما الموضع فهو بالكسر. قال الجوهري: المَحْشَرُ بالكسر موضع الحَشَر. انتهى. وذكر صاحب مختصر العين أن المَحْشَرُ بالكسر والفتح الموضع الذي يُحْشَرُ إليه الناس والمنشَرُ موضع النشور وهو قيام الموتى من قبورهم.

الثامنة: حُكي عن بعض السلف أن السيئات تُضَاعَف فيه، روى ذلك عن كعب

(١) أخرجه ابن ماجه (١٤١٣) وابن الجوزي في اللعل ٨٦/٢.

(٢) ذكره الهيثمي في المجمع ١٠/٤ وعزاه للطبراني في الأوسط وقال: رجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه البخاري ٧٠/٣ (١١٩٧) ومسلم ٩٧٦/٢ (٤١٥ - ٨٢٧).

(٤) أخرجه أبو داود (١٧٤١) والبيهقي ٣٠/٥ والبخاري في التاريخ ١٦٩/١.

الأحبار وأنه لما كان يأتي من حمص للصلاة فيه، فإذا صار منه قَدْرَ ميل اشتغل بالذكر والتلاوة والعبادة حتى يخرج منه بقدر ميل أيضاً ويقول: «السيئات تضاعف فيه»، أي تزداد قُبْحاً وقُبْحاً لأن العاصي في زمان أو مكان شريف أشدَّ جُرْأَةً وأقلَّ خوفاً من الله تعالى. وذكر أبو بكر الواسطي عن نافع قال: قال لي ابن عُمر: «أخرج بنا من هذا المسجد فإن السيئات تُضَاعَفُ فيه كما تُضَاعَفُ الحسنات».

التاسعة: أن الدُّجَال لا يدخل بيت المقدس. روى ابن أبي شيبة في المُصَنَّف عن سَمْرَةَ بن جُنْدَبُ رضي الله عنه عن النبي ﷺ وذكر الدُّجَال فقال: «وإنه سيظهر على الأرض كلها إلا الحَرَمَ وبيت المقدس [وأنه يحصر المؤمنين في بيت المقدس قال: فيهزمه الله وجنوده حتى إن جذم الحائط وأصل الشجرة ينادي: يا مؤمن: هذا كافر يستر بي تعالى اقتله إلى آخره].

العاشر: أن الصخرة في المسجد الأقصى كالحجر الأسود في المسجد الحرام. روى أبو نُعَيْم عن وَهْب بن مُنْبِه قال: «إن الله تعالى قال لصخرة بيت المقدس: لأضَعَنَّ عَلَيْكَ عَرْشِي ولَأَخْشُرَنَّ إِلَيْكَ خَلْقِي وليَأْتِيَنَّكَ يَوْمَئِذٍ دَاوُدُ رَاكِبًا؛ وروى أبو بكر الواسطي وابن عساكر عن يزيد بن جابر في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق ٤١]، قال: «يقف إسرافيل على صخرة بيت المقدس فينفخ في الصور فيقول: يا أيها العظام النَّخِرَةُ والجلود الممتزقة والأشعار المُنْقَطِعَةُ إن الله يأمرك أن تجتمعي لفصل الخطاب». وروى ابن جرير وابن أبي حاتم والواسطي عن قتادة في الآية قال: «كنا نتحدث أنه يُنَادِي من بيت المقدس من الصخرة وهي أوسط الأرض»، وحدثنا أن كعباً قال: هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً.

الحادية عشر: يُكْرَهُ استقبال بيت المقدس واستدباره بالبول والغائط ولا يَحْرُمُ قاله في الروض.

الثانية عشرة: رُوِيَ أَنَّهُ من دُفِنَ في بيت المقدس وَوَقِيَ فِتْنَةَ القبر وسؤال الملكين وَمَنْ دُفِنَ في زيتون الجِلَّةِ [يعني بإيلياء] فكأنما دُفِنَ في السماء الدنيا. وروى أبو نعيم في تاريخه عن أحمد بن جعفر بن سعيد قال حدثنا يحيى بن مُطَرِّف حدثنا محمد بن بكر، حدثنا يوسف بن عطية، عن أبي سفيان، عن الضُّحَّاك بن عبد الرحمن ابن عَرْزَب - بفتح المهملة وسكون الراء وفتح الزاي ثم مُوَحَّدَةً، وقد تبدل ميماً - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات في بيت المقدس فكأنما مات في السماء»^(١).

(١) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ٢/٢٢٠.

الثالثة عشرة: روى الخطيب في الموضح عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أول من يدخل الجنة الأنبياء ثم مؤذنو البيت ثم مؤذنو بيت المقدس ثم مؤذنو مسجدي ثم سائر المؤذنين»^(١).

الرابعة عشرة: ليحذر من اليمين الفاجرة فيه وكذا في المسجد الحرام ومسجد المدينة فإن عقوبتها مُعَجَلَةٌ. روى أن عمر بن عبد العزيز أمر بحمل عُثْمَانَ بن عفان الملك إلى الصخرة ليحلفوا عندها فحلفوا إلا واحداً، فدى يمينه بألف دينار، فما مرَّ الحَوْلُ على واحد منهم بل ماتوا كلهم.

الخامسة عشرة: روى ابن جرير عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم»^(٢). قيل: فأتينهم يا رسول الله؟ قال: «ببيت المقدس أو بأكناف بيت المقدس». وروى أبو يعلى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تزال عصابة من أمتي يُقاتلون على أبواب دمشق وعلى أبواب بيت المقدس وما حوله لا يضرهم خذلانٌ من خذلهم ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة»^(٣).

السادسة عشرة: روى أبو المعالي المشرف بن المُرْجِيّ المقدسي قال: «من حجَّ وصَلَّى في مسجد المدينة، ومسجد الأقصى في عام واحد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه». وإذا ثبت ذلك فقول النووي: «إنه لا أصل لذلك» فيه نظر.

السابعة عشرة: ذكر الدارمي: «أنه لا يجوز الاجتهاد يُمْنَةً ولا يُسْرَةً بمحراب بيت المقدس» وألحقه بمسجد المدينة.

الثامنة عشرة: نصُّ الصيدلاني والماوردي والرويانى والبغوي والبثديجي - بفتح المُوحَّدة وسكون النون الأولى وكسر الثانية ثم تحتية والجيم - والجويني في مختصره والغزالي في الخلاصة والخراساني في كافيهِ على استحباب صلاة العيد في مسجد بيت المقدس وأن فعلها فيه أولى من المُصَلَّى.

التاسعة عشرة: قال ابن شراقة في كتاب الأعداد: «أكبر مساجد الإسلام واحد وهو

(١) أخرجه ابن الجوزي في الملل ٣٩٣/١ والبغدادي في موضع أوام الجمع والتفريق ٥٠/١.

(٢) أخرجه البخاري ١٢٥/٩ ومسلم في كتاب الإمارة (١٧٠) وأخرجه أبو داود في كتاب الفن باب (١) والترمذي (٢١٩٢) وابن ماجه (٦) وأحمد في المسند ١٨١/٩.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ٢٥٤٥/٧ وذكره ابن حجر في المطالب (٤٢٤٤) والمنتقى الهندي في الكنز (٣٥٠٥١).

بيت المقدس». وقيل: «ما تم فيه صف واحد قط لا في عيد ولا في جمعة ولا غير ذلك».

العشرون: يُشتحب لزيارته الأماكن المشهورة بآثار الأنبياء لاسيما مواضع صلاة نبينا ﷺ.

الحادية والعشرون: حشر الكعبة إلى بيت المقدس: روى الواسطي في فضائل بيت المقدس عن خالد بن معدان - بفتح الميم - قال: «لا تقوم الساعة حتى تُزَفَّ الكعبة إلى الصخرة زَفَّ العروس، فيتعلق بها جميع من حَجَّ واعتمر، فإذا رأتها الصخرة قالت: مرحباً بالزائرة والمزور إليها». ورُوي أيضاً عن كعب قال: «لا تقوم الساعة حتى يُزَفَّ البيت الحرام إلى بيت المقدس فيتغادان إلى الجنة، فيها أهلها، والعرض والحساب ببيت المقدس» وروى ابن مردويه والأصفهاني في ترغيبه والدليلمي عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة زُفَّت الكعبة: البيت الحرام إلى قبري فتقول الكعبة: السلام عليك يا محمد، فأقول: عليك يا بيت الله، ما صنع بك أمتي بعدي؟ فتقول: يا محمد من أتاني فأنا أكفيه وأكون له شفيعاً، ومن لم يأتني فأنت تكفيه وتكون له شفيعاً»^(١). وروى الجندي عن الزُّهري نحوه.

التبیه الخامس عشر: أنكر حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه صلاة النبي ﷺ ببيت المقدس تلك الليلة، واحتج بأنه لو صلى فيه لكتب عليكم الصلاة فيه. قال البيهقي وابن كثير: والمثبت مُقَدَّم على النافي، يعني من أثبت الصلاة في بيت المقدس، وهم الجمهور من الصحابة معه زيادة علم على من نفى ذلك، فهو أولى بالقبول. والجواب عما استند إليه حذيفة رضي الله عنه منع التلازم في الصلاة إن كان أراد بقوله كُتِبَ عليكم الفرض، وإن أريد التشريع فيلتزمه، وقد شرع النبي ﷺ في بيت المقدس، فقرنه بالمسجد الحرام ومسجده في شد الرحلة وذكر فضيلة الصلاة فيه في غير ما حديث.

التبیه السادس عشر: تظافرت الروايات على أنه ﷺ صَلَّى بالأنبياء قبل العروج وهو أحد الاحتمالين للقاضي، وقال الحافظ: «إنه الأظهر»، والاحتمال الثاني «أنه ﷺ صَلَّى بهم بعد أن هبط من السماء أيضاً فهبطوا. وصححه الحافظ ابن كثير، وقال صاحب السراج: «وما المانع من أنه ﷺ صَلَّى بهم مرتين، فإن في بعض الأحاديث ذكر الصلاة بهم بعد ذكره المعراج».

التبیه السابع عشر: قيل: كيف يصلي الأنبياء وهم أموات في الدار الآخرة وليست

(١) ذكره السيوطي في الدر ١٣٧/١ وهواه لابن مردويه والأصفهاني في الترغيب والدليلمي.

دار عمل؟ وأجاب القاضي وتبعه السبكي بجوابين: الأول: إنا نقول: إنهم كالشهداء بل أفضل، والشهداء أحياء عند ربهم، فلا يتعد أن يحجوا وأن يصلوا كما ورد في الحديث الآخر، وأن يتقربوا إلى الله تعالى بما استطاعوا لأنهم وإن كانوا قد توفوا فهم في هذه الدنيا التي هي دار العمل حتى إذا فنيت مدتها، وتغلبها الآخرة التي هي دار الجزاء انقطع العمل، وحاصله أن التزخ ينسحب عليه حكم الدنيا في استكثارهم من الأعمال وزيادة الأجور. الثاني ولفظه للسبكي رحمه الله تعالى: «إنا نقول إن المنقطع في الآخرة إنما هو التكليف، وقد تحصل الأعمال من غير تكليف على سبيل التلذذ بها والخضوع لله تعالى. ولهذا ورد أنهم يستبشرون ويدعون ويقرأون القرآن وانظر إلى سجود النبي ﷺ وقت الشفاعة، أليس ذلك عبادة وعملاً؟ وعلى كلا الجوابين لا يمتنع حصول هذه الأعمال في مدة التزخ».

وقد صرح عن ثابت البناني التابعي أنه قال: «اللهم إن كنت أعطيت أحداً أن يصلي في قبره فأعطني ذلك». فرؤي بعد موته يصل في قبره، ويكفي رؤيه النبي ﷺ لموسى قائماً يصلي في قبره، لأن النبي ﷺ وسائر الأنبياء لم يقبضوا حتى خيروا بين البقاء في الدنيا وبين الآخرة فاختروا الآخرة. ولا شك أنهم لو بقوا في الدنيا لازدادوا من الأعمال الصالحة ثم انتقلوا إلى الجنة، فلو لم يعلموا أن انتقالهم إلى الله تعالى أفضل لما اختاروه، ولو كان انتقالهم من هذه الدار يفوت عليهم زيادة فيما يقرب إلى الله تعالى لما اختاروه. انتهى ولهذا مزيد بيان يأتي في باب حياته في قبره ﷺ.

التبیه الثامن عشر: هذه الصلاة التي صلاها النبي ﷺ بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، الصواب أنها الصلاة المعروفة لأن النص يحمل على حقيقتها الشرعية قبل اللغوية إلا إذا تعدر حملها على الشرعية، ولم يتعدر هنا فوجب حملها على الشرعية. وعلى هذا قال بعضهم: «كانت الصلاة التي صلاها العشاء» وقال بعضهم: «إنها الصبح».

قلت: وليس بشيء سواء قلنا صلى بهم قبل العروج أو بعده لأن أول صلاة صلاها النبي ﷺ من الخمس مطلقاً الظهر بمكة باتفاق، ومن حمل الأولية على مكة فعليه الدليل، والذي يظهر والله تعالى أعلم أنها كانت من النفل أو كانت من الصلاة المفروضة عليه قبل ليلة الإسراء، وفي فتاوى النووي ما يؤيد الثاني.

التبیه التاسع عشر: قال بعضهم: ورؤيته إياهم ﷺ في السماء محمولة على رؤيته أزواجهم إلا عيسى، لما صبح أنه رُفِعَ بجسده، وقد قيل في إدريس أيضاً ذلك. وأما الذين صلوا معه في بيت المقدس فيحتمل الأرواح خاصة، ويؤيده ما في حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عند الحاكم والبيهقي، «فلقي أرواح الأنبياء»، وفيه دليل على تشكل الأرواح

بصور أجسادها في علم الله تعالى، ويحتمل الأرواح بالأجساد ويؤيده حديث عبد الرحمن بن هاشم عن أنس رضي الله عنه عند البيهقي. وبعث الله له آدم فَمَنْ دُونَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ. وعند البزار والطبراني: «فُتِّشَ لِي الْأَنْبِيَاءُ، مِنْ سَمَى اللَّهُ تَعَالَى وَمَنْ لَمْ يُسَمَّ، فَصَلَّيْتُ بِهِمْ».

التبیه العشرون: قول سيدنا إبراهيم عليه السلام: «وَأَعْطَانِي مُلْكًا عَظِيمًا»: قال ابن دحية: لا يُعْهَدُ لِإِبْرَاهِيمَ مُلْكٌ عَزُوفِي، فِيمَا أَنْ يُزَادَ بِالْمُلْكِ الْإِضَافَةُ إِلَيْهِ نَفْسَهُ وَذَلِكَ لِقَهْرِهِ لِعِظْمَاءِ الْمُلُوكِ، وَنَاهِيكَ بِالنَّمْرُودِ، وَقَدْ قَهَرَ اللَّهُ تَعَالَى لَخَلِيلِهِ وَأَعْجَزَهُ عَنْهُ، وَغَايَةَ الْمُلْكِ الْعَظِيمِ قَهْرَ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ، فَالْقَاهِرُ أَعْظَمُ مِنَ الْمَقْهُورِ قَطْعًا. وَيَحْتَمَلُ أَنْ يُزَادَ الْإِضَافَةُ إِلَى نَبِيِّهِ وَذُرِّيَّتِهِ وَذَلِكَ نَحْوَ مُلْكِ يَوْسُفَ الصُّدِّيقِ عليه السلام وَهَلُمَّ جَرًّا كِمُلْكِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَالْكَوْثَانَ مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤] وَالْإِشَارَةُ هُنَا إِلَى ذُرِّيَّتِهِ. وَإِمَّا أَنْ يُزَادَ مُلْكُ النَّفْسِ فِي مَظْنَةِ الْاضْطِرَابِ مِثْلَ مِلْكِهِ لِنَفْسِهِ. وَقَدْ سَأَلَهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: أَلَيْكَ حَاجَةٌ؟ فَقَالَ: أَمَا إِلَيْكَ فَلَا.

التبیه الحادي والعشرون: اِخْتِلَافٌ فِي تَقْدِيمِ الْآيَةِ هَلْ هُوَ قَبْلَ الْعُرُوجِ أَوْ بَعْدَهُ؟ وَاسْتِخْلَافٌ فِي عَدْدِهَا فَأَكْثَرُ الرِّوَايَاتِ أَنَّهُ كَانَ قَبْلَهُ. رَوَى أَحْمَدُ وَالشَّيْخَانُ وَالنَّسَائِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ عَنِ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: «ثُمَّ رُفِعَ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ»، إِلَى أَنْ قَالَ: «ثُمَّ أُتِيَ بِإِنَاءَيْنِ: أَحَدُهُمَا خَمْرٌ وَالْآخَرُ لَبَنٌ»، وَعِنْدَ الْبُخَارِيِّ فِي الْأَشْرِبَةِ مِنْ طَرِيقِ شُعْبَةَ عَنِ قَتَادَةَ عَنِ أَنَسِ مَرْفُوعًا: «رُفِعَتْ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنتَهَى فَإِذَا فِيهَا أَرْبَعَةٌ أَنْهَارٌ» قَالَ: «وَأُتِيَ بِثَلَاثَةِ أَقْدَاحٍ»^(١). لَمْ يَذْكُرْ شُعْبَةُ فِي الْإِسْنَادِ مَالِكَ بْنَ صَعْصَعَةَ. وَعِنْدَ ابْنِ عَائِدٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ فِي حَدِيثِ الْمَعْرَاجِ بَعْدَ ذِكْرِ رُؤْيَيْهِ إِبْرَاهِيمَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ: «ثُمَّ انْطَلَقْنَا إِذَا نَحْنُ بِثَلَاثَةِ آيَةِ مُغَطَّةٍ».

قال الشَّهَيْلِيُّ وَابْنُ دِحْيَةَ وَابْنُ الْمُنِيرِ وَابْنُ كَثِيرٍ وَالْحَافِظُ: «لَعَلَّهُ قُدِّمَ مَرَّتَيْنِ جَمْعًا بَيْنَ الرِّوَايَاتِ». قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ وَالْحَافِظُ: «وَأَمَّا الْاِخْتِلَافُ فِي عَدْدِ الْآيَةِ وَمَا فِيهَا فَيُحْتَمَلُ عَلَى أَنْ بَعْضُ الرِّوَاةِ ذَكَرَ مَا لَمْ يَذْكُرِ الْآخَرُ، وَمَجْمُوعًا أَرْبَعَةَ آيَةٍ فِيهَا تُعْرَضُ الْآيَةُ مَرَّتَيْنِ وَأَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ مِنَ الْأَنْهَارِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ أَصْلِ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى».

التبیه الثاني والعشرون: إِذَا قُلْنَا بِعَرَضِ الْآيَةِ مَرَّتَيْنِ فَفَائِدَةُ عَرَضِ الْخَمْرِ [مَعَ] إِعْرَاضِهِ عَنْهَا فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى وَتَصْوِيبِ جَبْرِيلَ لَهُ، تَكْثِيرُ التَّصْوِيبِ وَالتَّحْذِيرِ. وَهَلْ كَانَتْ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ ١٩٨/٧ كِتَابِ الْأَشْرِبَةِ (٥٦١٠) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي الْمَسْتَدْرَكِ ٨١/١ وَذَكَرَهُ الْمُتَّقِي الْهِنْدِيُّ فِي الْكَنْزِ (٣١٨٤٦).

الخمير من خمير الجنة أو من جنس نحر الدنيا؟ فإن كان الأول فَسَبَبُ تَجَنُّبِهَا صورُها ومضاهاتها للخمر المُحرَّمة، ويكون ذلك أبلغ في الوَرَع. وإن كان الثاني فاجتنابها واضح. وعلى التقدير الأول يُسْتَفَاد منه فائدة: وهو أن من وَضَعَ من الماء ونحوه من الأَشْرِبَةِ ما يُضَاهِي الخمرَ في الصورة وهَيَأَةُ بالهيئة التي يتعاطاها [بها] أهل الشهوات من الاجتماعات والآلات فقد أتى مُتَكْرراً وإن كان لا يُحَدِّد. وذكر أصحابنا أن إدارة كأس الماء على شاربهِ تَشْبِهُهُ بِشَارِبِ الخمر حرام، ويُعَزَّرُ فاعله.

التبیه الثالث والعشرون: قال ابن دحية: اعلم أن التَّخْيِيرَ قد يكون بين واجِبَيْنِ كخصال الكفارة وقد يكون بين مُبَاحَيْنِ، وأما التَّخْيِيرُ بين واجب وممنوع أو مباح وممنوع فمستحيل، فانظر في إحضار اللبن والخمر، هل أريد به الإباحة لهما والإذن فيهما؟ كما لو أَخْضَرْتَ طَعَامَيْنِ لَضَيْفٍ وَأَبْخَثَهُمَا لَهُ، فما معنى إختياره لأحدهما؟ وما معنى قول جبريل: «اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ» أو «أَصَبْتَ»، أصاب الله بك؟ وإن كان المراد الإذن في أحدهما لا بغيره، بحيث يكون الآخر ممنوعاً لَزِمَ التَّخْيِيرُ بين ممنوع ومباح، وذلك لا يُتَصَوَّرُ، والذي يرفع الإشكال إن شاء الله تعالى أن يكون المراد تفويض الأمر في تحريم ما يُحْرَمُ منها وتحليل ما يَحِلُّ إلى إجتهد النبي ﷺ وَسَدَادَ نَظَرِهِ المَعْصُوم. فلما نظر فيها أداه اجتهاده إلى تحريم الخمر وتحليل اللبن، فوافق الصواب في علم الله تعالى، فقال له جبريل: «أَصَبْتَ»، وعلى تقدير ألا تكون الخمر مُحرَّمة لأنها إنما حُرِّمَتْ بالمدينة فيكون تَوَقُّيها وَرَعاً وتعريضاً بأنها سَحْرَمٌ.

التبیه الرابع والعشرون: قال أبو الخطاب الكلبي: «الْفِطْرَةُ تُطَلَّقُ عَلَى الْإِسْلَامِ وتطلق على أصل الخَلْقَةِ، فمن الأول قوله ﷺ: «كُلْ مَوْلُودٌ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ»^(١). ومن الثاني قوله تعالى: «فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا» [الروم: ٣٠]، وقال تعالى: «فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» [فاطر: ١]، أي مبدئ خلقهما، وقول جبريل: «اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ» أي اختَرْتَ اللبن الذي عليه بُنِيَتْ الخَلْقَةُ وبه يَنْبُتُ اللحم، أو اختَرْتَهُ لأنه الحلال الدائم في دين الإسلام، وأما الخمر فحرام فيما يستقر عليه الأمر، وقد تكون الإشارة بتقديم اللبن إلى أن شعار العلم في التعبير، كما ورد أنه عليه الصلاة والسلام قال: «رَأَيْتُ كَأَنِّي أُتَيْتُ بِقَدَحٍ مِنْ لَبَنٍ فَشَرِبْتُ حَتَّى أَرَى الرَّيَّ يَخْرُجُ مِنْ أَظْفَارِي ثُمَّ نَاولْتُ فَضَلِي عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ»، قالوا: يا رسول الله ما أولته؟ قال: «والعلم»^(١).

والإسراء وإن كان يقظة إلا ربما وقعت في اليقظة إشارة إلى حكم الفأل يُعْبَرُ كما يُعْبَرُ في المنام. ولهذا كان النبي ﷺ يحب الفأل الحسن، فكأنه لما ملىء قلبه إيماناً وحكمة أردف

(١) أخرجه البخاري ٤١٠/١٢ (٧٠٠٦).

ذلك بالعلم مطلقاً، ويجعل الله تعالى ذلك اللبن سبباً في تَرادُف العلم وأشجان القلب النبوي بأنوارها. وقال القرطبي: يحتمل أن يكون تسمية اللبن فطرة لكونه أوَّل شيء يدخل بطن المولود وَيَشُقُّ أمعاءه، والشَّرَف في ميل النبي ﷺ إليه دون غيره لكونه مألوفاً له، ولأنه لا ينشأ عن جنسه مفسدة، وأفهم قول جبريل «أصبت»، فإن اختيار الخمر خطأً عُصِم منه النبي ﷺ، وكانت المسألة حينئذ اجتهادية لأن الخمر لم تكن حُرِّمت بعد، فقد وقع تخييره في مُلك الله الأعظم.

التبیه الخامس والعشرون: ظاهر قوله: «ثم أتيت بالمعراج» أن العروج كان لا على البراق وفي ذلك خلاف، فظاهر حديث مالك بن صعصعة أنه استمر على البراق حتى عُرج به إلى السماء، وهو مقتضى كلام ابن أبي جَمْرَةَ وابن دحية. قال الحافظ: «لكن في غير هذه الرواية من الأخبار أن العروج لم يكن على البراق بل رقي في المعراج وهو السُّلم، ويؤيده قوله في حديث ثابت عن أنس كما في صحيح مسلم: «ثم أتيت بالمعراج».

وقال الحافظ ابن كثير: «إِنَّهُ لَمَّا فَرَعَ ﷺ من أمر بيت المقدس نُصِب له المعراج وهو السُّلم، فصعد فيه إلى السماء، ولم يكن الصعود على البراق كما قد تَوَهَّمه بعض الناس، بل كان البراق مربوطاً على باب مسجد بيت المقدس ليرجع عليه إلى مكة».

وقال الشيخ رحمه الله تعالى: «إِنَّهُ الصَّحِيحُ الَّذِي تَقَرَّرَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ».

التبیه السادس والعشرون: نَوْعُ ابْنِ دِحْيَةَ الْمِعْرَاجِ إِلَى عَشْرَةِ أَنْوَاعٍ عَلَى عَدَدِ سَنِي الْهَجْرَةِ، مِنْهَا سَبْعَةٌ مَعَارِيجٌ إِلَى السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، وَالْمِعْرَاجُ الثَّامِنُ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَالْمِعْرَاجُ التَّاسِعُ الَّذِي سَمِعَ فِيهِ صَرِيْفَ الْأَقْلَامِ فِي تَصْرِيْفِ الْأَقْدَارِ، وَالْمِعْرَاجُ الْعَاشِرُ إِلَى الْعَرْشِ وَالرُّفْرَفِ وَالرُّؤْيَا وَسَيَأْتِي مَا أَبْدَاهُ مِنَ الْحِكْمِ فِي ذَلِكَ.

التبیه السابع والعشرون: ورد أن بين الدرجة والدرجة في الجنة خمسمائة عام وأن الدرجة تهبط كالإبل ليضعدها عليها ولي الله تعالى ثم تُرْفَعُ به إلى مكانها والظاهر أن دَرَجَ الْمِعْرَاجِ كَذَلِكَ.

التبیه الثامن والعشرون: لا يُتَوَهَّمُ بما تسمعه في قصة المعراج من الصعود والهبوط أن بين العبد وربّه مسافة، فإن ذلك كُفِرَ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا هَذَا الصُّعُودُ وَالْهَبُوطُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعَبْدِ لَا إِلَى الرَّبِّ، وَالنَّبِيُّ ﷺ مَعَ انْتِهَائِهِ لِيَلْتَمِذَ إِلَى أَنْ كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، لَمْ يَجَاوِزْ مَقَامَ الْعِبُودِيَّةِ، وَكَانَ هُوَ وَنَبِيُّ اللَّهِ يُونُسَ بْنِ مَتَّى ﷺ إِذَا التَّقَمَهُ الْحَوْتَ وَذَهَبَ بِهِ إِلَى الْبَحَارِ يَشْقَاهَا حَتَّى انْتَهَى بِهِ إِلَى قَرَارِ الْبَحْرِ، فِي مُبَايَنَةِ اللَّهِ تَعَالَى خَلْقَهُ وَعَدَمِ الْجَهَةِ وَالْتَحْيِزِ وَالْحَدِّ وَالْإِحَاطَةِ سِوَاءً. وَقَدْ ذَهَبَ بِهِ مَسِيرَةَ سِتَّةِ آلَافِ سَنَةٍ ذَكَرَهُ الْإِمَامُ الْبَغْوِيُّ وَغَيْرُهُ.

وَإِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ فَالْمَارِدُ بِتَرْقِيهِ ﷺ وَقَطْعَ هَذِهِ الْمَسَافَاتِ إِظْهَارُ مَكَانَتِهِ عِنْدَ أَهْلِ

السموات وأنه أفضل المخلوقات. وَيَقْوِي هذا المراد بكونه أركبه البراق ونَصَب له المعراج وجعله إماماً للنبيين والملائكة، مع أنه تعالى قادرٌ على أن يرفعه بدون البراق والمعراج.

وَيُقَال لأصحاب الجهة: إنما منعكم من اعتقاد الحق استبعادكم موجوداً إلا في جهة، فَأَحْلُثُمْ ذلك. فَأَخْبِرُونَا عن العَرْش والقَوْق هل ذلك قديم؟ أو مُخَدَّث؟ فَإِنْ قَالُوا قديماً جَاهِرُوا بِقَدَمِ الْعَالَمِ وَأَدَى ذلك إلى مُخَالِئِن: أحدهما أن يكون مع الباري تعالى في الأزل غَيْرُهُ، والقديمان ليس أحدهما بأن يكون مكاناً للثاني بأوَّلِي من الآخر. ثانيهما أن الجهة والمكان إما أن يكونا جِسْمَيْن، وهذا يُؤَدِّي إلى جواز وجود الأجساد كلها، وهو قول من قال بِقَدَمِ الْعَالَمِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذلك. وَإِنْ قَالُوا: مُخَدَّث، قُلْ فَقَدْ صَدَقْتُمْ بِأَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى كَانَ موجوداً أولاً ولا جهة، والمستحيل [لا] ينقلب جائزاً أو واجباً لأن الحادث لا يحتاج إليه القديم، فإنه قَبْلَ كَوْنِهِ كَانَ مستغنياً عنه، وهو على استغنائه عنه لم يَزَلْ وكذلك لا يزال، ومُخَالٌ أن يكون خالق الكل مُفْتَقِراً إلى بعض مخلوقاته. وما ورد من الاستواء والنزول وغير ذلك من الصفات التي يُشْكِلُ إجراؤها على ظاهرها، تُؤْمِنُ بِهِ وَنَكِلُ عِلْمَ معناه إلى الله تعالى، ولا نُشَبِّهُهُ تَعَالَى بِخَلْقِهِ وَلَا نَنْفِي الصفات التي أثبتنا لنفسه وأثبتها له رسول الله ﷺ^(١).

التبیه التاسع والعشرون: نَقَلَ ابن دِخْيَةَ عن ابن حبيب، والحافظ عن ابن المنير عن ابن حبيب وأقره: أن بين السماء والأرض بحراً يسمى المكفوف تكون بحار الدنيا بالنسبة إليه كالقطرة من المحيط، فعلى هذا يكون ذلك البحر انقلب لنا نبينا ﷺ فهو أعظم من انفلاق البحر لِمُوسَى عليه الصلاة والسلام.

التبیه الثلاثون: في قدر ما بين السماء والأرض: روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه، وابن خزيمة في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أتدرون كم بين السماء والأرض؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، وبين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة وكثف كل سماء خمسمائة سنة، وفوق السماء السابعة بحرٌ من أعلاه وأسفله كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك ثمانية أوعال^(٢) بين أظلافهن ورؤسهن مثل ما بين سماء إلى سماء وفوق ظهورهن العرش وبين أعلاه وأسفله كما بين السماء والأرض ثم الله تعالى فوق ذلك.

وروى إسحق بن راهويه والبتزار بسند صحيح عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين السماء والأرض خمسمائة عام وغلظ كل سماء خمسمائة عام

(١) سقط في أ.

(٢) ثمانية أوعال: أي ملائكة على صورة الأوعال. انظر الثَّهَابَةَ لابن الأثير ٢٠٧/٥.

كذلك إلى السماء السابعة، والأرضون مثل ذلك. وما بين السماء السابعة إلى العرش مثل جميع ذلك^(١).

وروى ابن جرير وابن المنير عن ابن مسعود وناس من الصحابة رضي الله عنهم قالوا: إن الله عز وجل كان عزَّه على الماء لم يخلق شيئاً غير ما خلق، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء فسَمَّا عليه فسَمَّاه سَمَاءً، ثم أَيَّس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فَتَّقَهَا فجعلها سَبْعَ أَرْضِينَ في يومين: الأحد والاثنين، فخلق الأرض على الحوت، وهو الذي ذكره الله تعالى في قوله ﴿وَإِنَّا لَنَسْفَعُهَا بِالسَّعِيرِ﴾، والحوت في الماء والماء على ظهر صفاة والصفاء على ظهر مَلَكٍ والمَلَكُ على صخرة والصخرة على الريح، وهي الصخرة التي ذكر لقمان ليست في السماء ولا في الأرض، فَتَحَرَّكَ الحوت فاضطرب فتزلزلت الأرض فأرسي عليها الجبال فَفَرَّتْ وخلق الجبال فيها وأقوات أهلها وشجرها وما ينبغي لها في يومين: الثلاثاء والأربعاء، ثم استوى إلى السماء وهي دُخَانٌ، والدُّخَانُ من تَنَفُّسِ الماء حين تَنَفَّسَ فجعلها سماء واحدة ثم فَتَّقَهَا فجعلها سبع سموات في يومين: الخميس والجمعة وإنما سُمِّيَ الجمعة لأنه جمع فيه خَلَقَ السموات والأرض وأَوْحَى في كل سماء أمرها أي خَلَقَ خَلْقَهَا من الملائكة والخَلْقُ الذي فيهما من البحار والجبال والبرد وما لا يُقَلَمُ، ثم زَيَّنَ السماء الدنيا بالكواكب، فجعلها زينة وحِفظاً من الشياطين.

وروى ابن أبي حاتم عن جبير بن مُطْعِمٍ رضي الله عنه قال: «إن الله تعالى على عَرْشِهِ وَعَرْشُهُ على سمواته، وسمواته على أرضه هكذا»، وقال بأصبعه: «مثل القُبَّة» وروى ابن حاتم عن القاسم بن أبي بَزَّة - بالزاي المعجمة - قال: «ليس السماء مُرَبَّعة ولكنها مَقْبُوَّة يراها الناس خضراء» وروى ابن راهويه والطبراني في الأوسط، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس قال: «السماء الدنيا مَوْجٌ مكفوف والسماء الثانية زُمُرْدَةٌ بيضاء والثالثة حديد والرابعة نُحاس والخامسة فِضَّةٌ والسادسة ذهب والسابعة ياقوتة حمراء»، زاد ابن أبي حاتم: «وما فوق ذلك صحاري من نور، ولا يعلم ما فوق ذلك إلا الله تعالى ومَلَكٌ هو مُوَكَّلٌ بالحُجُبِ يقال له ميطاطروس». وروى أبو الشيخ وابن أبي حاتم عن كعب قال: «السماء أشدُّ بياضاً من اللبن واخضرت من خُضْرَةِ جبل قاف».

شرح الغريب

«الموج» - بميم فواو فجيم - ما ارتفع من فوران الماء. «المكفوف» - بميم

(١) ذكره السيوطي في الدر ٤٣/١ وعراه لاسحاق بن راهويه في مسنده والبرار وأبي الشيخ في العظمة والآن مردويه والبيهقي.

فكاف بفاءين بينهما واو - المحبوس.

التبيه الحادي والثلاثون: استفتاح جبريل باب السماء يُحتمل أن يكون بقرع أو صوت. قال الحافظ: «والأشبه الأول لأنه صوت معروف». قلت: في حديث ثابت البثاني عن أنس رضي الله عنه: «فقرع الباب». قال ابن دحية: وفي استفتاح جبريل لأبواب السماء دليل على أنه صادف أبوابها مُغلقة، وإنما لم تُهَيَأ للنبي ﷺ بالفتح قبل مجيئه، وإن كان أبلغ في الإكرام، لأنه لو رآها مُفتحة لظن أنها لا تزال كذلك، ففعل ذلك ليَعْلَم أن ذلك فعل من أجله، وأن الله تعالى أراد أن يُطْلِعَهُ على كونه معروفاً عند أهل السموات، وقول أمين الوحي لما قيل له: من هذا؟ (جبريل): سُمي نفسه لئلا يَلْتَبِسَ بغيره ولا يحتاج إلى موقف لِلْمُرَاجَعَةِ في المرة، فإنه معهود عندهم نزوله وصعوده ولذلك قَدِمَ اسمه لأنه الرسول بإحضار النبي ﷺ.

واستنبط ابن دحية وتبعه ابن المنير من قول المَلَك: «مرحباً» إلى آخره، جواز رد السلام بغير لفظه. وتَعَقَّباً بأن قول المَلَك: مرحباً، ليس رد السلام، فإنه كان قبل أن يُفْتَحَ الباب، والسياق يُرْشِدُ إليه. وقد نَبِهَ على ذلك ابن أبي جَمْرَةَ. ووقع في رواية أن جبريل قال له عند كل نبي: «سَلِّمْ عليه»، فرد عليه السلام.

التبيه الثاني والثلاثون: ينبغي للمُشْتَأَذِنِ إذا قيل له هذا أن يُسَمِّيَ نَفْسَهُ فيقول: محمد الشامي مثلاً، ولا يقتصر على قوله: محمد، مثلاً، لأن المُسَمِّيَ بن محمد كثير، فيشبهه عليه، ولا يقول: «أنا» فإن جبريل ههنا لم يقل: «أنا»، بل سَمِيَ نفسه، ولم يرد أن أحداً من الملائكة سُمي جبريل غير أمين الله تعالى على وَخِيهِ. وأنكر النبي ﷺ على الذي استأذن عليه فقال: «من هذا؟» فجعل يقول: «أنا» فقال النبي ﷺ: أنا أنا إنكاراً لذلك^(١). وكُرِهت هذه اللفظة لِوَجْهَيْنِ: أحدهما أن فيها إشعاراً بالعظمة. وفي الكلام السائر أول من قال: أنا إبليس فسَقِي حيث قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾، [الأعراف: ١٢]، وتَعَسَّ فرعون حيث قال ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [الزمر: ٢٤] والثاني أنها مُبْهَمَةٌ لافتقار الضمير إلى العود، فهي غير كافية في البيان، والضمير إذا عاد وتَعَيَّنَ مُضْمَرُهُ كان أعْرَفَ المعارف، والمُشْتَأَذِنِ محجوب عن المُشْتَأَذِنِ عليه غير مُتَعَيِّنٍ عنده فكأنه أحاله على جهالة.

التبيه الثالث والثلاثون: قَوْلُ الخازن: «وقد بُعِثَ إليه؟» أراد الاستفهام فحذف الهمزة للمعلم بها أي: «أَوَ قد بُعِثَ إليه؟» قال العلماء: ليس هذا الاستفهام عن البعث الذي هو الرسالة لأنه كان مشهوراً في الملكوت الأعلى، بل البعث للمعراج، وقيل: بل سألوا تعجباً من

(١) أخرجه البخاري ٣٧/١١ (٦٢٥٠).

نعمت الله تعالى بذلك أو استبشاراً به، وقد علموا أن بَشَرًا لَا يَتَرَقَّى عِذَا التَّرَقَّى إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنَّ جِبْرِيْلَ لَا يَصْعَدُ بِمَنْ لَا يُرْسَلُ إِلَيْهِ. وقول الخازن: «من معك؟» يُشِيرُ أَنَّهُمْ أَحْسَبُوا مَعَهُ بَرَفِيْقًا وَإِلَّا لَكَانَ السُّؤَالُ: «أَمَعَكَ أَحَدٌ؟» وذلك الإحساس إما بمشاهدة لِكَوْنِ السَّمَاءِ شَفَافَةً، وإما لأمر معنوي بزيادة أنوار، وَلَزِمَ مِنَ الْبَعْثِ إِلَيْهِ ﷺ الْإِذْنُ فِي إِزَالَةِ الْمَوَانِعِ وَفَتْحِ أَبْوَابِ السَّمَاءِ. ولم يتوقف الخازن على أن يُوحَى إِلَيْهِ بِالْفَتْحِ، لِأَنَّهُ لَزِمَ عِنْدَهُ مِنَ الْبَعْثِ الْإِذْنُ، وَفِي قَوْلِ الْخَازِنِ: «مَرْحَبًا بِهِ» إِلَى آخِرِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْحَاشِيَةَ إِذَا فَهِمُوا مِنْ سَيِّدِهِمْ عَزْمًا لِإِكْرَامِ وَافِدٍ أَنْ يُبَشِّرُوهُ بِذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يَأْذَنْ لَهُمْ فِيهِ، وَلَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ إِفْشَاءٌ لِلسُّرِّ، لِأَنَّ الْخَازِنَ أَعْلَمَ النَّبِيَّ ﷺ حَالِ اسْتِدْعَائِهِ أَنَّهُ اسْتِدْعَاءُ إِكْرَامٍ وَإِعْظَامٍ، فَعَجَّلَ بِالْبُشْرَى وَالْفِرَاسَةِ الصَّادِقَةَ عِنْدَ أَهْلِهَا وَفِي مَحَلِّهَا يَحْصُلُ [بِهَا] الْعِلْمُ كَمَا يَحْصُلُهُ الْوَحْيُ، وَلَمْ يَخَاطِبْهُ الْخَازِنُ بِصِيغَةِ الْخَطَابِ فَيَقُولُ: «مَرْحَبًا بِكَ» وَإِنَّمَا أَرَادَ التَّحِيَّةَ بِصِيغَةِ الْغَيْبَةِ، وَالسُّرُّ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ حَيًّا قَبْلَ أَنْ يَفْتَحَ الْبَابَ وَقَبْلَ أَنْ يَصْدُرَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ خَطَابًا، وَلِهَذَا قَالَ الْمَلِكُ لَجِبْرِيْلَ: «وَمَنْ مَعَكَ؟» فَخَاطِبُهُ بِصِيغَةِ الْخَطَابِ، لِأَنَّ جِبْرِيْلَ خَاطَبَ الْمَلِكَ، فَارْتَفَعَ حُكْمُ الْغَيْبَةِ بِالتَّخَاطُبِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَيًّا بِغَيْرِ صِيغَةِ الْخَطَابِ تَعْظِيمًا لَهُ لِأَنَّ هَاءَ الْغَيْبَةِ رُبَّمَا كَانَتْ أَفْخَمَ مِنْ كَافِ الْخَطَابِ.

التبیه الرابع والثلاثون: قول جبريل حين سُئِلَ: «مَنْ مَعَهُ» فقال: «محمد»، دليل على أن الاسم أرفع من الكنية لأنه أخبر باسمه ولم يُخبر بكنيته، وهو عليه الصلاة والسلام مشهور في العالمين العلوي والسفلي، فلو كانت الكنية أشرف من الاسم لأخبر بها.

التبیه الخامس والثلاثون: قال ابن أبي جمرة: «استفهام الملائكة»: «وقد أُزِيلَ إِلَيْهِ؟» دليل على أن أهل العالم العلوي يعرفون رسالته ومكانته لأنهم سألوا عن وقتها: هل جاء؟ لا عنها، ولذلك أجابوا بقولهم: «مرحباً ونعم المجيء جاء» وكلامهم بهذه الصيغة أدل دليل على ما ذكرناه من معرفتهم بجلالة مكانته وتحقيق رسالته لأن هذا أجل ما يكون من حسن الخطاب، والترفع على المعروف من عادة العرب. وقد قال العلماء في معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٨] إنه رأى صورة ذاته المباركة في الملكوت فإذا هو عروس المملكة.

التبیه السادس والثلاثون: وقع في رواية أنس ومن رواية أبي ذر رضي الله عنهما: «قلت لجبريل: من هذا؟ قال: أبوك آدم». وظاهره أنه سأل عنه بعد أن قال له آدم: «مرحباً». ورواية مالك بن صفصعة بعكس ذلك، وهي المُفْتَمَدَّة، فَتَحْتَمَلُ هَذِهِ عَلَيْهَا، وَلَيْسَ فِي رِوَايَةِ أَبِي ذَرٍّ تَرْتِيبٌ. وفي قول آدم: «مرحباً بالابن الصالح»، إشارة إلى افتخاره بأبوته للنبي ﷺ.

وظاهر قوله في رواية آدم: «تُعْرَضُ عَلَيْهِ أَرْوَاحُ ذُرِّيَّتِهِ» إِلَى آخِرِهِ أَنَّ أَرْوَاحَ بَنِي آدَمَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فِي السَّمَاءِ. قَالَ الْقَاضِي: «وَهُوَ مُشْكِلٌ، فَقَدْ جَاءَ أَنَّ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ مُنْعَمَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَأَنَّ أَرْوَاحَ الْكُفَّارِ فِي سِجِّينَ، فَكَيْفَ تَكُونُ مَجْتَمِعَةً فِي السَّمَاءِ؟ وَأَجَابَ بِأَنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنَّهَا تُعْرَضُ أَوْقَاتًا فَصَادَفَ وَقْتُ عَرَضِهَا مَرُورَ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ كَوْنَهُمْ فِي النَّارِ فِي أَوْقَاتٍ دُونَ أَوْقَاتٍ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿النَّارُ، يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، [غافر: ٣] وَاعْتَرِضَ بِأَنَّ أَرْوَاحَ الْكُفَّارِ لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ كَمَا هُوَ نَصُّ الْقُرْآنِ»، وَالْجَوَابُ مَا أَبَدَاهُ الْقَاضِي اِحْتِمَالًا أَنَّ الْجَنَّةَ كَانَتْ فِي جِهَةِ يَمِينِ آدَمَ وَالنَّارَ كَانَتْ فِي جِهَةِ شِمَالِهِ وَكَانَ يُكْشَفُ لَهُ عَنْهُمَا.

وَقَالَ الْحَافِظُ: «وَيُحْتَمَلُ أَنَّ النَّسَمَ الْمَرْيُوتَةَ هِيَ الَّتِي لَمْ تَدْخُلِ الْأَجْسَادَ بَعْدَ وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ قَبْلَ الْأَجْسَادِ وَمُسْتَقَرُّهَا عَنْ يَمِينِ آدَمَ وَشِمَالِهِ، وَقَدْ أُعْلِمَ بِمَا سَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ فَلِذَلِكَ كَانَ يَسْتَبْشِرُ إِذَا نَظَرَ إِلَى مَنْ عَلَى يَمِينِهِ وَيَحْزَنُ إِذَا نَظَرَ إِلَى مَنْ عَلَى يَسَارِهِ، بِخِلَافِ الَّتِي فِي الْأَجْسَادِ فَلَيْسَتْ مُرَادَةً قَطْعًا وَبِخِلَافِ الَّتِي نُقِلَتْ مِنَ الْأَجْسَادِ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ فَلَيْسَتْ مُرَادَةً أَيْضًا فِيمَا يَظْهَرُ، وَبِهَذَا يَنْدَفِعُ الْإِيرَادُ، وَيَعْرِفُ أَنَّ قَوْلَهُ: «نَسَمُ بَنِيهِ» عَامٌ مَخْصُوصٌ أَوْ أُرِيدَ بِهِ الْخِصُوصُ». انْتَهَى.

وَقَالَ فِي الْفَتْحِ فِي بَابِ الْمِعْرَاجِ: «وِظَهَرَ لِي الْآنَ اِحْتِمَالٌ آخَرَ وَهُوَ أَنَّ يَكُونُ الْمُرَادُ مِنَ «خَرَجَتْ مِنَ الْأَجْسَادِ لَا أَنَّهَا مُسْتَقَرَّةٌ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ رُؤْيَا آدَمَ لَهَا وَهُوَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا أَنْ تُفْتَحَ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا أَنْ تَلْجَحَّهَا، وَيُؤَيِّدُ هَذَا مَا رَوَاهُ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ تُعْرَضُ عَلَيْهِ أَرْوَاحُ ذُرِّيَّتِهِ الْمُؤْمِنِينَ فَيَقُولُ: رُوحٌ طَيِّبَةٌ وَنَفْسٌ طَيِّبَةٌ اجْعَلُوهَا فِي عَلِيِّينَ، ثُمَّ تُعْرَضُ عَلَيْهِ أَرْوَاحُ ذُرِّيَّتِهِ الْفُجَّارِ فَيَقُولُ: رُوحٌ خَبِيثَةٌ وَنَفْسٌ خَبِيثَةٌ اجْعَلُوهَا فِي سِجِّينَ. وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: فَإِذَا عَنِ يَمِينِهِ بَابٌ يَخْرُجُ مِنْهُ رِيحٌ طَيِّبَةٌ وَعَنْ شِمَالِهِ بَابٌ يَخْرُجُ مِنْهُ رِيحٌ خَبِيثَةٌ، فَهَذَا لَوْ صَحَّ لَكَانَ الْمَصِيرُ إِلَيْهِ أَوْلَى مِنْ جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ وَلَكِنْ سَنَدُهُ ضَعِيفٌ وَظَاهِرُهَا عَدَمُ اللَّزُومِ الْمُتَقَدِّمِ» انْتَهَى.

وَقَالَ السَّهْلِيُّ: «فَإِنْ قِيلَ كَيْفَ رَأَى عَنْ يَمِينِهِ أَصْحَابَ الْيَمِينِ؟ وَلَمْ يَكُنْ إِذَا ذَاكَ مِنْهُمْ إِلَّا نَفَرٌ قَلِيلٌ، وَلَعَلَّهُ لَمْ يَكُنْ مَاتَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَظَاهِرُ الْحَدِيثِ يَقْتَضِي أَنَّهُمْ كَانُوا جَمَاعَةً، وَالْجَوَابُ أَنْ يُقَالَ: إِنْ كَانَ الْإِسْرَاءُ رُؤْيَا بَقَلْبِهِ فَتَأْوِيلُهَا أَنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ وَإِنْ كَانَتْ رُؤْيَا عَيْنٍ فَمَعْنَاهَا أَنَّ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ رَأَاهَا هُنَاكَ لِأَنَّ اللَّهَ يَتَوَفَّى الْخَلْقَ فِي مَنَامِهِمْ كَمَا قَالَ فِي التَّنْزِيلِ ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢] فَصَعِدَ بِالْأَرْوَاحِ إِلَى هُنَاكَ ثُمَّ أُعِيدَتْ إِلَى أَجْسَادِهَا».

وَقَالَ ابْنُ دِيحِيَّةَ: «فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ تَكُونُ نَسَمُ السُّعْدَاءِ كُلِّهِمْ فِي السَّمَاءِ، وَقَدْ كَانَ حِينَ الْإِسْرَاءِ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي الْأَرْضِ وَهُمْ مِنَ السُّعْدَاءِ؟ فَالْجَوَابُ: أَنَّ آدَمَ

إنما رآهم في مواضعهم ومقارنهم في الأرض، ولكنه يراهم من الجانب الأيمن فالتقيد للنظر لا للمنظور.

وفي قول جبريل للنبي ﷺ: «هذا أبوك آدم فسلم عليه» ما يقتضي أن القادم يبدأ بالسلام على المقيم.

التبیه السابع والثلاثون: وقع في رواية شريك: «فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان - أي يجريان - النيل والفرات، ويجمع منصرفهما - أي أصلهما. وظاهر هذا يخالف حديث مالك بن صفصعة فإن فيه بعد ذكر سدرة المنتهى: «فإذا أضلها أربعة»، فذكر منها النيل والفرات، ويجمع بينهما بأن أصل منبعضهما من تحت سدرة المنتهى ومقرهما في السماء الدنيا ومنها ينزلان إلى الأرض.

التبیه الثامن والثلاثون: وقع في رواية شريك أيضاً: «ثم مضى النبي ﷺ في السماء الدنيا فإذا هو بنهر آخر عليه قصور من لؤلؤ وزبرجد، فضرب يده فيه فإذا طينه مسك أذفر فقال: يا جبريل ما هذا؟ قال: هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك، وهذا مما استشكل في رواية شريك، فإن الكوثر في الجنة وإن الجنة في السماء السابعة. وقد روى الإمام أحمد عن طريق حميد الطويل عن أنس، رفته: «دخلت الجنة فإذا بنهر حافته خيام اللؤلؤ، فضربت بيدي في مجرى مائه فإذا هو مسك أذفر». فقال جبريل: «هذا الكوثر الذي أعطاك الله تعالى». وأصل هذا الحديث عند البخاري بنحوه، وأخرجه في التفسير عن قتادة عن أنس رضي الله عنه، ولكن ليس فيه ذكر الجنة. ورواه أبو داود من طريق سليمان التيمي عن قتادة ولفظه: «لما عُرج بنبي الله ﷺ عرض له في الجنة نهر»، قال الحافظ: ويمكن أن يكون في هذا الموضوع شيء تقديره: ثم مضى به في السماء الدنيا إلى السماء [السابعة] فإذا هو بنهر، قال تلميذه الحافظ قطب الدين الخيضر في الخصائص: «وهذا بعيد إذ بينه وبين السماء السابعة خمس سماوات أخرى وكل منها له صفة خلاف صفة الأخرى ولها أبواب وخدام غير الأخرى، فإطلاق المسير إليها وذكرها بعد السادسة مما يعده أيضاً، ولكن يقال من غير استبعاد: إن أصل النهر - الذي هو الكوثر - في الجنة، وجعل الله تعالى منه فرعاً في السماء الدنيا عجل لنبيه ﷺ رؤيته استبشاراً لأنها أول المراتب العلوية، ويؤيد هذا قول جبريل: «خبأ لك ربك». انتهى.

التبیه التاسع والثلاثون: في قول آدم: «مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح»، ثناء جميل جليل للنبي ﷺ، ووصفه بالصلاح مكرراً مع النبوة، أي صالح مع النبيين جميعاً، وفيه تنويه بفضيلة الصلاح وعلو درجته، ولهذا وُصف النبي ﷺ. قال بعضهم: وصلاح الأنبياء صلاح خاص لا يتناول عموم الصالحين. واحتج على ذلك بأنه قد تمنى كثير من الأنبياء أن يلحق بالصالحين، ولا يتمنى الأعلى أن يلحق بالأدنى، ولا خلاف في أن النبوة أعلى من

صلاح الصالحين من الأمم. وبهذا تحقق أن الصلاح المضاف إلى الأنبياء غير الصلاح المضاف إلى الأمم، فصلاح الأنبياء صلاح كامل لأنه يزول بهم كل فساد، فلهم كل صلاح ومن دونهم الأمثل فالأمثل، فكل واحد يستحق اسم الصلاح على قدر ما زال به أو منه من الفساد، واقتصر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم على وصفه ﷺ بالصلاح وتواردوا على ذلك لأن الصلاح يشمل خصال الخير، ولذلك كررها كل منهم عند وصفه.

والصالح هو الذي يقوم بما يلزمه من حقوق الله تعالى وحقوق العباد، فمن ثم كانت كلمة جامعة مانعة شاملة لسائر الخصال المحمودة، ولم يقل له أحد: مرحباً بالنبي الصادق ولا بالنبي الأمين لما ذكرنا من أن الصلاح شامل لسائر أنواع الخير.

التبيه الأربعون: إنما رأى أكلة الربا مُتَفِيخَةً بطونهم لأن العقوبة مشاكلة للذنب، فأكل الربا يربو بطنه كما أراد أن يَزُبُوَ ماله بأكل ما حُرِّمَ عليه فَمُحِقَّتْ البركة من ماله وجُعِلت تَفْحاً في بطنه حتى يقوم ﴿كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾. وإنما جُعِلوا بطريق آل فِرْعَوْنَ يَمْرُونَ عليهم غُدُوًّا وَعَشِيًّا، لأن آل فرعون هم أشدُّ الناس عذاباً فضلاً عن غيرهم من الكُفَّار، وهم لا يستطيعون القيام. ومعنى كَوْنِهِمْ في طريق جهنم بحيث يُمَرُّ بالكفار عليهم أن الله سبحانه وتعالى قد أَوْقَفَ أمرهم بين أن ينتهوا فيكون خيراً لهم وبين أن يعودوا وَيُصِرُّوا فَيُدْخِلُهُم النار، وهذه صفة من هو في طريق النار، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ، وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥] وفي بعض الأحاديث أنه رأى بطونهم كالبيوت يعني أكلة الربا، وفيها حَيَاتٌ تُرَى من خارج البطون.

التبيه الحادي والأربعون: فإن قيل: هذه الأحوال التي ذكرها عن أكلة الربا، إن كانت عبارة عن حالهم في الآخرة، فال فرعون قد أُدْخِلُوا أشدَّ العذاب وإنما يُعْرَضُونَ على النار غُدُوًّا وَعَشِيًّا في البرزخ، وإن كانت الحال التي رآهم عليها فأَيُّ بطون لهم وقد صاروا عِظَاماً وَرُفَاتاً وَمُزَّقُوا كُلَّ مُمزَّقٍ؟ فالجواب أنه إنما رآهم في البرزخ، وهذه الحال هي حال أرواحهم بعد الموت. وفيها تصحيح لمن قال: الأرواح أجساد لطيفة قابلة للنعيم والعذاب، فخلق الله تعالى في تلك الأرواح من الآلام ما يَجِدُهُ من انتفخ بطنه حتى وُطِئَ بالأقدام ولا يستطيع معه قياماً. وليس في هذا دليل على أنهم أشدَّ عذاباً من آل فرعون، ولكن فيه دليل على أنه يطوهم آل فرعون وغيرهم من الكفار الذين لم يأكلوا الربا، ما داموا في البرزخ إلى أن يقوموا يوم القيامة كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، ثم ينادي منادي الله تعالى ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]. وكذلك ما رأى من النساء المُعَلِّقَات

بُشِدِيهِنَّ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ رَأَى أَرْوَاحَهُنَّ وَقَدْ خُلِقَ مِنَ الْآلَامِ مَا يَجِدُهُ مِنْ هَذِهِ حَالَهُ، وَيُحْتَمَلُ أَيْضاً أَنْ يَكُونَ مَثَلَتْ لَهُ حَالَهُنَّ فِي الْآخِرَةِ.

التبیه الثاني والأربعون: ذكّره لإدریس فی السماء الرابعة مع قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ [مریم: ٥٧]، مع أنه قد رأى موسى وإبراهيم صلوات الله وسلامه عليهما في مكان أعلى من مكان إدریس، فذلك - والله تعالى أعلم - لِمَا ذُكِرَ عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ أَنَّ إِدْرِيسَ خُصَّ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ بِأَنَّهُ رُفِعَ قَبْلَ وَفَاتِهِ إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، رَفَعَهُ مَلَكٌ كَانَ صَدِيقاً لَهُ وَهُوَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِالشَّمْسِ. وَكَانَ إِدْرِيسُ سَأَلَهُ أَنْ يُرِيَهُ الْجَنَّةَ فَأُذِنَ لَهُ اللهُ فِي ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ رَأَى هُنَالِكَ مَلَكاً الْمَوْتِ فَعَجِبَ وَقَالَ: أَمِرْتُ أَنْ أَقْبِضَ رُوحَ إِدْرِيسَ السَّاعَةَ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ فَقَبِضَهُ هُنَالِكَ، فَرَفَعَهُ حَيّاً إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ الْعَالِيِّ الَّذِي خُصَّ بِهِ دُونَ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ، قَالَ السَّهَيْلِيُّ.

وتقدم الكلام في النسب النبوي على قوله: «مرحباً بالأخ الصالح».

التبیه الثالث والأربعون: قال العلماء: «لم يكن بكاء موسى حسداً، معاذ الله، فإن الحسد في ذلك العالم منزوع عن آحاد المؤمنين، فكيف بمن اصطفاهم الله تعالى، بل كان أسفاً على ما فاته من الأجر الذي يترتب عليه رفع الدرجة بسبب ما وقع من أمته من كثرة المخالفة المُقْتَضِيَةِ لَتَنْقِيبِ أَجْرِهِمْ وَالْمُسْتَلْزِمَةَ لَتَنْقِيبِ أَجْرِهِ، لِأَنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ أَجْرَ مَنْ تَبِعَهُ، وَلِهَذَا كَانَ مَنْ أَتْبَعَهُ فِي الْعَدَدِ دُونَ مَنْ أَتْبَعَ نَبِيّاً ﷺ مَعَ طَوْلِ مَدَّتِهِمْ بِالنِّسْبَةِ لِمُدَّةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي جَمْرَةَ: «قَدْ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى فِي قُلُوبِ أَنْبِيَائِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الرَّحْمَةُ وَالرَّأْفَةُ لِأُمَّتِهِمْ، وَقَدْ بَكَى النَّبِيُّ ﷺ، فَسُئِلَ عَنْ بَكَائِهِ فَقَالَ: «هَذِهِ رَحْمَةٌ وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مَنْ عَابَدَهُ الرَّحْمَاءُ»^(١). وَالْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ أَخَذُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى أَوْفَرَ نَصِيبٍ، فَكَانَتْ الرَّحْمَةُ فِي قُلُوبِهِمْ لِعِبَادَةِ اللهِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ. فَلَأَجْلِ مَا كَانَ لِمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ الرَّحْمَةِ وَاللِّطْفِ بِكَيْ إِذْ ذَاكَ رَحْمَةٌ مِنْهُ لِأُمَّتِهِ لِأَنَّ هَذَا وَقْتُ إِفْضَالِ وَجُودِ وَكْرَمِ. فَزَجَا لَعَلَّهُ يَكُونُ وَقْتُ الْقَبُولِ وَالْإِفْضَالِ فَيَرْحَمُ اللهُ تَعَالَى أُمَّتَهُ بِبِرْكَةِ هَذِهِ السَّاعَةِ. فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَكُونُ هَذَا وَأُمَّتُهُ لَا تَخْلُو مِنْ قَسَمِينَ: قَسَمَ مَاتَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَقَسَمَ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ فَالَّذِي مَاتَ عَلَى الْإِيمَانِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ وَالَّذِي مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَبَداً، فَبِكَاءِهِمْ لِأَجْلِ مَا ذَكَرْتُمْ لَا يَسُوعُ إِذْ أَنْ الْحَكْمَ فِيهِ قَدْ مَرَّ وَتَقَدَّرَ. قِيلَ فِي الْجَوَابِ: وَكَذَلِكَ قَدَّرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْرَهُ عَلَى قَسَمِينَ، كَمَا شَاءَتْ حِكْمَتُهُ، فَقَدَّرَ قَدْرًا وَقَدَّرَ أَنْ يَنْقُذَ عَلَى كُلِّ الْأَحْوَالِ وَقَدَّرَ قَدْرًا وَلَا يَنْقُذُ، وَيَكُونُ وَقُوعُهُ بِسَبَبِ دَعَاءٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ».

(١) أخرجه البخاري ١٠٠/٢ وسلم في كتاب الجنائز (١١).

ومثاله دعاء النبي ﷺ بالدعوات الثلاث لأُمَّته وهي: أَلَا يَظْهَرُ عَلَيْهِمُ عَدُوٌّ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَأَلَا يُهْلِكُهُمُ السَّنِينُ، فَأُعْطِيَهُمَا وَدَعَا بَأَلَا يَجْعَلُ بِأَسْهَمٍ بَيْنَهُمْ، فَاسْتَجِيبَ فِي الْاِثْنَيْنِ وَلَمْ يُسْتَجِبْ لَهُ فِي الثَّالِثَةِ، وَقِيلَ لَهُ: هَذَا أَمْرٌ قَدَّرْتَهُ أَيَّ أَنْفَذْتَهُ^(١)، فَكَانَتِ الْاِثْنَتَانِ مِنَ الْقَدَرِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللهُ تَعَالَى وَقَدَّرَ إِنْفَاذَهُ عَلَى كُلِّ الْأَحْوَالِ لَا يُرَدُّهُ رَادٌّ. وَسَيَأْتِي لِهَذَا مَزِيدٌ إِضْطِحَاحٌ.

«فَلَأَجَلَ مَا رُكِبَ فِي مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ اللَّطْفِ وَالرَّحْمَةِ بِالْأُمَّةِ طَمِيعٌ لَعَلَّ أَنْ يَكُونَ مَا اتَّفَقَ لِأُمَّتِهِ مِنَ الْقَدَرِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللهُ تَعَالَى وَقَدَّرَ ارْتِفَاعَهُ بِسَبَبِ الدَّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ. وَهَذَا وَقْتُ يُرْجَى فِيهِ التَّعَطُّفُ وَالْإِحْسَانُ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ وَقْتُ أُشْرِي فِيهِ بِالْحَبِيبِ لِيَخْلَعَ عَلَيْهِ خَلْعَ الْقُرْبِ وَالْفَضْلِ الْعَمِيمِ، فَطَمِيعُ الْكَلِيمِ لَعَلَّ أَنْ يُلْحِقَ لِأُمَّتِهِ نَصِيباً».

وبوجه آخر وهو البشارة للنبي ﷺ وإدخال السرور عليه يشهد لذلك بكاؤه حين ولى النبي ﷺ وقَبِلَ أَنْ يَبْعَدَ عَنْهُ لَكِي يَسْمَعَهُ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ الْبِكَاءُ خَاصاً بِمُوسَى لَمْ يَكُنْ لِيَبْكِي حَتَّى يَبْعَدَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ فَلَا يَسْمَعُهُ لِأَنَّ الْبِكَاءَ وَالنَّبِيَّ ﷺ يَسْمَعُ، فِيهِ شَيْءٌ مِنَ التَّهْوِينِ عَلَيْهِ. فَلَمَّا أَنْ كَانَ الْمَرَادُ بِذَلِكَ مَا يَصْدُرُ عَنِ الْبِشَارَةِ لَهُ ﷺ بِسَبَبِ الْبِكَاءِ بِكِي وَالنَّبِيَّ ﷺ يَسْمَعُهُ، وَالْبِشَارَةُ الَّتِي يَتَضَمَّنُهَا الْبِكَاءُ هِيَ قَوْلُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِلَّذِي هُوَ أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ اتِّبَاعاً: «إِنَّ الَّذِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ أَكْثَرُ مَنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي».

«وَقَدْ وَقَعَ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْعِنَايَةِ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ فِي أَمْرِ الصَّلَاةِ مَا لَمْ يَقَعْ لِغَيْرِهِ وَوَقَعَتِ الْإِشَارَةُ لِذَلِكَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، مَوْفُوعاً: «كَانَ مُوسَى أَشَدَّهُمْ عَلَيَّ حِينَ مَرَزْتُ بِهِ وَخَيَّرَهُمْ حِينَ رَجَعْتُ إِلَيْهِ». وَفِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ: فَأَقْبَلْتُ رَاجِعاً فَمَرَزْتُ بِمُوسَى وَنِعْمَ الصَّاحِبُ كَانَ لَكُمْ».

التبیه الرابع والأربعون: قول موسى عليه الصلاة والسلام: «لأن غلاماً..» ليس على سبيل النقص بل على سبيل التنويه بقدره الله وعظيم كرمه، إذ أعطى نبينا ﷺ في ذلك السن ما لم يُعْطِه أَحَدٌ قَبْلَهُ مِنْهُ هُوَ أَسَنُّ مِنْهُ.

وقال الخطابي: العَرَبُ تَسْمِي الرَّجُلِ الْمُسْتَجْمِعِ السَّنَّ: غُلَاماً مَا دَامَتْ فِيهِ بَقِيَّةٌ مِنَ الْقُوَّةِ [فِي الْكُهُولَةِ] وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَنْزَلَةَ: الْعَرَبُ إِذَا يُطْلَقُونَ عَلَى الْمَرْءِ غُلَاماً إِذَا كَانَ سَيِّدًا فِيهِمْ. فَلَأَجَلَ مَا فِي هَذَا اللَّفْظِ مِنَ الْاِخْتِصَاصِ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَفْظَانِ الْأَفْضَلِيَّةِ ذَكَرَهُ مُوسَى دُونَ غَيْرِهِ تَعْظِيماً لِلنَّبِيِّ ﷺ. قَالَ الْحَافِظُ: وَيَظْهَرُ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَشَارَ إِلَى مَا أَنْعَمَ اللهُ

(١) أخرجه مسلم ٢٢١٦/٤ (٢٠٠ - ٢٨٩٠).

به على نبينا عليه السلام من استمرار القوة في الكهولة إلى أن دخل في سن الشيخوخة ولم يدخل على بدنه هَرَمٌ ولا عَرَا قُوَّتُهُ نَقَصٌ، حتى أن الناس لما رأوه مُزْدِفًا أبا بكر عند قدومه المدينة أطلقوا عليه اسم الشاب وعلى أبي بكر اسم الشيخ مع كونه عليه السلام في العُمُرِ أَسَنَ من أبي بكر.

التبیه الخامس والأربعون: قول موسى: «رب لم أظن أن ترفع عليّ أحداً - بفتح المُثَنَاءِ الفوقية و«أحداً» بالنُّضْبِ، ورواته في الصحيح بضم المُثَنَاءِ التحتية و«أحدٌ» بالرفع. قال ابن بطال: «فهم موسى عليه الصلاة والسلام من اختصاصه بكلام الله تعالى في الدنيا دون غيره من البشر لقوله تعالى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] أن المراد بالناس هنا البشر كلهم، وأنه استحق بذلك ألا يُرْفَعَ عليه أحدٌ، فلما فضل الله تعالى مجمداً عليه الصلاة والسلام من المقام المحمود وغيره ارتفع على موسى وغيره بذلك.

التبیه السادس والأربعون: قال ابن أبي جَمْرَةَ: الظاهر أن القائل لموسى: «ما أبكاك؟» هو الباري تبارك وتعالى، يدل على ذلك قوله في الجواب: «رَبِّ [هذا غلامٌ بعثته من بعدي، يَدْخُلُ من أمتة الجنة أكثر مما يَدْخُلُ من أمتي]».

التبیه السابع والأربعون: أكثر الروايات على أن موسى عليه الصلاة والسلام في السماء السابعة بتفضيل الله تعالى، وهذا مطابق لقوله تعالى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلامِي﴾ وهذا يدل على أن شريكاً ضَبَطَ كَوْنُ موسى في السابعة، وحديث أبي ذَرٍّ يوافقُه فإن فيه [فيما رواه ابن شهاب الزهري عن أنس بن مالك قال: «فذكر أنه وجد في السموات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم صلوات الله عليهم] ولم يثبت منازلهم، غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا وإبراهيم في السماء السادسة. فإن قلنا بالتعدد فلا إشكال ومع عَدَمِهِ فقد يُجْمَعُ بأن موسى كان حالة العروج في السماء السادسة وإبراهيم في السماء السابعة على ظاهر حديث مالك بن صَفْصَعَةَ وعند الهبوط كان موسى في السابعة، لأنه لم يُذَكَّرْ في القصة أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كَلَّمَهُ في شيء مما يتعلق بما فُرِضَ على أمتة من العبادة كما كَلَّمَهُ موسى عليه السلام والسماء السابعة هي أول شيء انتهى إليه حالة الهبوط، فناسب أن يكون موسى بها لأنه هو الذي خاطبه في ذلك كما ثبت في جميع الروايات ويُحْتَمَلُ أن يكون لقي موسى في السادسة فأُضْعِدَ معه إلى السماء السابعة تفضيلاً له على غيره من أجل كلام الله تعالى وظهرت فائدة ذلك في كلامه مع نبينا فيما يتعلق بأمر أمتة في الصلاة.

التبیه الثامن والأربعون: وقع في رواية شريك عن أنس رضي الله عنه أن كل سماء فيها أنبياء قد سَمَّاهم «فَوَعَيْتُ منهم إدريس في السماء الثانية وهارون في السماء الرابعة وآخر

في الخامسة لم أحفظ اسمه، وإبراهيم في السادسة وموسى في السابعة. وفي رواية أنس عن أبي ذر رضي الله عنهما قال: «فذكر أنه وجد في السموات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم»، ولم يثبت منازلهم، غير أنه وجد آدم في السماء الدنيا وإبراهيم في السماء السادسة. انتهى. وهذا موافق لرواية شريك في إبراهيم، وهما مخالفان لرواية قتادة عن أنس عن مالك بن صغصعة، والأكثر وافقوه، وسياقه يدل على رجحان روايته، فإنه ضبط اسم كل نبي والسماء التي هو فيها، ووافقه ثابت البناني عن أنس، كما هو عند مسلم فقال في روايته: «ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية وفيها فإذا بيحيى وعيسى وهما ابنا خالة»، وذكر في الثالثة يوسف وفي الرابعة إدريس وفي الخامسة هارون وفي السادسة موسى وفي السابعة إبراهيم، وفي سياق الزهري في روايته ن أنس عن أبي ذر أنه لم يثبت أسماءهم، وسياق شريك فيه أنه لم يضبط منازلهم.

ولا شك أن رواية من ضبط أولى، ولا سيما مع اتفاق قتادة وثابت وقد وافقهما يزيد بن أبي مالك عن أنس إلا أنه خالف في إدريس وهارون، فقال: هارون في الرابعة وإدريس في الخامسة، ووافقهم أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، في رواية إلا أنه قال: «رأى يوسف في الثانية وعيسى ويحيى في الثالثة». قلت: والأول أثبت، وأما إبراهيم فالأرجح من الروايات أنه في السماء السابعة لقوله فيها: إنه رآه مُسْنِداً ظهره إلى البيت المعمور، وهو في السابعة بلا خلاف.

وأما ما جاء عن علي رضي الله عنه أن البيت المعمور في السماء السادسة عند شجرة طوبى فإن ثبت لحمل على البيت الذي في السادسة بجانب شجرة طوبى لأنه جاء عنه أن في كل سماء بيتاً يُخَازِي الكعبة وكل منها معمور بالملائكة، وكذا القوم، فيما جاء عن الربيع بن أنس وغيره أن البيت المعمور في السماء.

التبیه التاسع والأربعون: اختلفت طرق المتكلمين على ترتيب الإبراء في ذكر من ذكر من الأنبياء وترتيبهم في السموات، فمن العلماء من لم يتر الكلام على سر ذلك أصلاً، ومنهم من تكلم فيه، ثم اختلف هؤلاء، فمنهم من قال: اختص مرة ذكر من الأنبياء بلقاء رسول الله ﷺ على عرفة الناس إذا تلقوا الغائب، مُجْتَمِعِينَ لِقَائِهِ، فلا بُدَّ غالباً أن يشيق بعضهم بعضاً، ويصادف بعضهم اللقاء ولا يصادفه بعضهم وإلى هذا جتح ابن بطال وهذا زيقة السهيلي فأصاب. وذهب غير ابن بطال إلى أن ذلك تنبيه على الحالات الخاصة بهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وتمثيل لما سيقع للنبي ﷺ مما اتفق لهم مما قصه الله تعالى عنهم في كتابه. والنبي ﷺ كان يحب الفأل الحسن ويستدل على حُسن

العاقبة وبالضد من ذلك. والفأل في اليقظة نظير الرؤيا في المنام. وأهل التعبير يقولون من رأى نبياً من الأنبياء بعينه في المنام فإن رؤياه تُؤذِن بما يشبه من حال ذلك النبي من شدة أو رخاء أو غير ذلك من الأمور التي أُخبر بها عن الأنبياء في القرآن والحديث.

قال ابن أبي جَمْرَةَ: «الحكمة في كون آدم في السماء الدنيا لأنه أول الأنبياء وأول الآباء فهو أصل فكان الأول في الأولى، ولأجل تأنيس النبوة بالأبوة» وقال السهيلي رحمه الله: «فأدم وقع التنبيه بما وقع له من الخروج من الجنة إلى الأرض بما سيقع للنبي ﷺ من الهجرة إلى المدينة، والجامع بينهما ما حصل لكل منهما من المشقة وكراهة فراق ما لقيه في الوطن، ثم كان لكل منهما أن يرجع إلى وطنه الذي خرج منه».

وقال ابن دِخِيَةَ: «إن في ذلك تنبيهاً على أنه يقوم مقامه في مبدأ الهجرة لأن مقام آدم التهيئة والنشأة وعمارته الدنيا بأولاده، وكذا كان مقام المصطفى أول سنة من الهجرة مقام تنشئة الإسلام وتربية أهله واتخاذ الأنصار لعمارته الأرض كلها بهذا الدين الذي أظهره الله على الدين كله، وزوى الأرض لنبيه حتى أراه مشارقها ومغاربها، فقال ﷺ: «وَلَيَبْلُغَنَّ مَلِكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا». واتفق ذلك في زمن هشام بن عبيد الملك حتى جيء إليه خراج الأرض شرقاً وغرباً، وكان إذا نشأت سحابة يقول: «أَمْطِرِي حَيْثُ شِئْتَ فَسَيَصِلُ إِلَيَّ خِرَاجُكَ».

ثم رأى في السماء الثانية عيسى ويحيى وهما المُتَمَتِّحَانِ باليهود. أما عيسى فكذبته اليهود وأذنته وَهَمُّوا بِقَتْلِهِ فَرَفَعَهُ اللهُ تَعَالَى، وأما يحيى فقتلوه، ورسول الله ﷺ بعد انتقاله إلى المدينة صار إلى حالة ثانية من الامتحان. وكانت مِخْنَتُهُ فِيهَا بِالْيَهُودِ [آذوه] وظاهروا عليه وَهَمُّوا بِالْقَاءِ الصَّخْرَةِ عَلَيْهِ لِيَقْتُلُوهُ فَتَجَّاهَ اللهُ تَعَالَى كَمَا نَجَّى عِيسَى مِنْهُمْ ثُمَّ سَمَّوْهُ فِي الشَّاةِ، فلم تزل تلك الأكلة تُعَادُهُ حَتَّى قَطَعْتَ أَبْهَرَهُ [كما قال عند الموت].

وقال ابن أبي جَمْرَةَ: لأنهما أقرب الأنبياء عهداً بسيدنا رسول الله ﷺ.

وقال ابن دِخِيَةَ: كانت حالة عيسى ومقامه معالجه بني إسرائيل والصبر على معاداة اليهود وجيلهم ومكرهم، وطلب عيسى الانتصار عليهم بقوله: «مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ؟ أَيُّ مَعَ اللهِ؟» [قَالَ الْخَوَارِثِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ] [يوسف: ٩٢] فهذه كانت حالة نبينا ﷺ في السنة الثانية من الهجرة، ففيها طلب الأنصار للخروج إلى بدر العظمى فأجابوا ونصروا، فلقاؤه لعيسى في السماء الثانية تنبيه على أنه سيلقى مثل حاله ومقامه في السنة الثانية من الهجرة.

وأما لقاؤه ليوسف عليه السلام في السماء الثالثة فإنه يُؤذِن بحالة ثالثة تشبه حال يوسف بما جرى له مع إخوته الذين أخرجوه من بين أظهرهم ثم ظفروا بهم فصَفَّحَ عَنْهُمْ وَقَالَ: «لَا تَشْرِيبْ عَلَيْنِكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» [يوسف: ٩٢] وكذلك نبينا عليه

الصلاة والسلام أخرجه قومه ثم ظفر بهم في غزوة الفتح فعفا عنهم وقال: «أقول كما قال أخي يوسف: (لا تريب عليكم)».

قال ابن أبي جمرة: لأن أمة محمد ﷺ يدخلون الجنة على صورته، زاد ابن أقرص وإشارة إلى جعله على خزائن الأرض. وقال ابن دحية: مناسبة لقائه ليوسف في السماء الثالثة أن السنة الثالثة من سني الهجرة اتفقت فيها غزوة أحد وكانت على المسلمين لم يُصابوا بنازلة قبلها ولا بعدها مثلها، فإنها كانت وقعة أسفٍ وحُزن.

وأهل التعبير يقولون: مَنْ رَأَى أَحَدًا اسْمَهُ يَوْسُفَ آذَنَ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ الْاِشْتِقَاقِ وَمِنْ حَيْثُ قِصَّةِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَسْفِ يَتَأَلَّهُ. قال ابن دحية: فإن كان يوسف النبي فالعاقبة حميدة والآخرة خير من الأولى.

ومما اتفق في غزوة أحد من المناسبة شيوع قتل المصطفى فناسب ما حصل للمسلمين من الأسف على فقد نبيهم ما حصل ليعقوب من الأسف على يوسف لاعتقاده أنه فقد إلى أن وجد ريبه بعد تطاول الأمد. ومن المناسبة أيضاً بين القصتين أن يوسف كيد وألقي في غيابة الجُبِّ حتى أنقذه الله تعالى على يد من شاء. قال ابن إسحاق: وكُتبت الحجارة على جبهة رسول الله ﷺ من قريش حتى سقط لجنبه في حُفْرَةٍ كان أبو عامر الفاسق قد حَفَرَهَا مَكِيدَةً للمسلمين، فأخذ عليّ كرم الله وجهه بيد رسول الله ﷺ واحتضنه طلحة حتى قام.

قال السهيلي: «ثم لقاؤه لإدريس عليه السلام في السماء الرابعة وهو المكان الذي سَمَّاهُ اللهُ ﴿مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مریم: ٥٧] وإدريس أول من آتاه الله الخط بالقلم فكان ذلك مؤذناً بحال رابعة وهي علو شأنه عليه السلام حتى خافه الملك وكتب إليهم يدعوهم إلى طاعته حتى قال أبو سفيان وهو عند ملك الروم حين جاءه كتاب النبي ﷺ ورأى ما رأى من خوف هِرَقْل: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة حتى أصبح يخافه ملك بني الأصفر، [وكتب عنه بالقلم إلى جميع ملوك الأرض فمنهم من اتبعه على دينه كالنجاشي وملك عمان، ومنهم من هادنه وأهدى إليه وأتحفه كهرقل والمقوقس، ومنهم من تعصى عليه فأظهره الله عليه، فهذا مقام عليّ وخط بالقلم كنحو ما أوتى إدريس عليه السلام].

«ولقاؤه في السماء الخامسة لهارون المُحَبَّب في قومه يُؤذِن بِحُبِّ قَرِيْشٍ وَجَمِيعِ الْعَرَبِ لَهُ بَعْدَ بُغْضِهِمْ فِيهِ». وقال ابن أبي جمرة: إنما كان هارون في الخامسة لقربه من أخيه موسى، وكان موسى أرفع منه بفضل كلام الله تعالى. وقال ابن دحية ما نال هارون من بني إسرائيل من الأذى ثم الانتصار عليهم والإيقاع بهم وقصر التوبة فيهم على القتل دون غيره من العقوبات المُنْحَطَّة عنه، وذلك أن هارون عندما تركه موسى في بني إسرائيل وذهب لموعد

المناجاة تفرقوا على هارون وتحزبوا عليه وداروا حول قتله ونقضوا العهد وأخلفوا الموعد واستضعفوا جانبته كما حكى الله تعالى ذلك عنهم وكانت الجنابة العظمى التي صدرت منهم عبادة العجل فلم يقبل الله تعالى منهم التوبة إلا بالقتل فقتل في ساعة واحدة سبعون ألفاً كان نظير ذلك في حقه ﷺ ما لقيه في السنة الخامسة من الهجرة من يهود قريظة والنضير وقينقاع، فإنهم نقضوا العهد وحزبوا الأحزاب وجمعوها وحشدوا وحشروا وأظهروا عداوة النبي ﷺ وأرادوا قتله. وذهب إليهم قبل الواقعة بزمن يسير يستعينهم في دية قتيلين فأظهروا إكرامه وأجلسوه تحت جدار ثم تواعدوا أن يلتقوا عليه رحي، فنزل جبريل فأخبره بمكرهم الذي هموا به. فمن حينئذ عزم على حربهم وقتلهم، وفعل الله تعالى ذلك، وقتل قريظة بتحكيمة سعد بن معاذ، فقتلوا شر قتلة وحق المكر الشيء بأهله. ونظير استضعاف اليهود لهارون استضعافهم المسلمين في غزوة الخندق كما سيأتي بسط ذلك.

ولقاؤه في السماء السادسة لموسى يؤذن بحالة تشبه حالة موسى حين أمر بغزو الشام، فظهر على الجبابرة الذين كانوا فيها وأدخل بني إسرائيل البلد الذي خرجوا منه بعد إهلاك عدوهم، وكذلك غزا رسول الله ﷺ تبوك من أرض الشام وظهر على صاحب دومة حتى صالحه على الجزية بعد أن أتى به أسيراً، وافتتح مكة ودخل أصحابه البلد الذي خرجوا منه.

وقال ابن دحية: «يؤذن لقاؤه في السادسة بمعالجة قومه فإن موسى ابتلي بمعالجة بني إسرائيل والصبر على أذاهم، وما عالجه المصطفى في السنة السادسة لم يعالج قبله ولا بعده مثله، ففي هذه السنة افتتح خيبر وقدك وجميع حصون اليهود وكتب الله عليهم الجلاء وضربهم بسوط البلاء وعالج النبي ﷺ في هذه السنة كما عالج موسى من قومه، أراد أن يقيم الشريعة في الأرض المقدسة وحمل قومه على ذلك فتقاعدوا عنه وقالوا: إن فيها قوماً جبارين وإننا لن ندخلها أبداً حتى يخرجوا منها. وفي الآخر سجدوا بالقنوط فقالوا: إننا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها، فعضب الله عليهم وحال بينهم وبينها، وأوقعهم في التيه. وكذلك أراد النبي ﷺ في السنة السادسة أن يدخل بمن معه مكة يقيم بها شريعة الله وسنة إبراهيم، فصدوه فلم يدخلها في هذا العام، فكان لقاؤه لموسى تنبيهاً على التأسي به وجميل الأثر في السنة القابلة.

ثم لقاؤه في السماء السابعة لإبراهيم عليه السلام لحكمتين: إحداهما أنه رآه عند البيت المعمور مُشنداً ظهره إليه. والبيت المعمور حيال الكعبة وإليه تحج الملائكة، كما أن إبراهيم هو الذي بنى الكعبة وأذن في الناس بالحج إليها والحكمة الثانية أن آخر أحوال النبي ﷺ حجه إلى البيت الحرام وحج معه في ذلك العام نحو من سبعين ألفاً [من المسلمين]. ورؤية إبراهيم عند أهل التأويل تؤذن بالحج لأنه الداعي إليه والرافع لقواعد [الكعبة المحجوجة].

قال ابن أبي جزمة: «وإنما كان إبراهيم في السماء السابعة لأنه الأب الأخير، فناسب أن يتجدد للنبي ﷺ بلقائه أنس لتوجهه بعده إلى عالم آخر، وأيضاً فمنزلة الخليل تقتضي أرفع المنازل، ومنزلة الحبيب أرفع من منزلته فلذلك ارتفع النبي ﷺ عن منزلة إبراهيم إلى قاب قوسين أو أدنى» (١).

وقال ابن دحية: «مناسبة لقائه إبراهيم عليه السلام في السماء السابعة أن النبي ﷺ اعتمر عُمرَةَ القضاء في السنة السابعة من الهجرة، ودخل مكة وأصحابه مُلَبَّين مُغْتَمِرِينَ مُخْبِياً لِسُنَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَمُقِيمِياً لِرِسْمِهِ الَّذِي كَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ أَمَاتَتْ ذِكْرَهُ وَبَدَّلَتْ أَمْرَهُ. وفي بعض الطرق أنه رأى إبراهيم مُسْتَنْدِياً ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، وَذَلِكَ - وَاللَّهِ أَعْلَمُ - إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ فِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ وَهِيَ أَوَّلُ دَخْلَةِ دَخْلٍ فِيهَا مَكَّةَ بَعْدَ الْهَجْرَةِ. وَالْكَعْبَةُ فِي الْأَرْضِ قِبَالَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ. وَفِي قَوْلِهِ ﷺ فِي وَصْفِ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ: «فَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ/ أَلْفًا لَا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ إِذَا دَخَلَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَدْخُلْهُ بَعْدَ الْهَجْرَةِ إِلَّا عَامَ الْفَتْحِ وَلَمْ يَعَاوِدْهُ فِي حِجَّةِ الْوُدَاعِ.

التبیه الخمسون: فَإِنْ قِيلَ كَيْفَ أُمُّ الْأَنْبِيَاءِ فِي بَيْتِ الْمَقْدَسِ وَسَلَّمْ عَلَيْهِمْ وَعَرَفَهُمْ ثُمَّ سَأَلَ عَنْهُمْ ثُمَّ يَرَاهُمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي السَّمَوَاتِ وَيَسْأَلُ عَنْهُمْ جِبْرِيلُ؟ فَإِنَّهُ لَوْ رَأَاهُمْ وَعَرَفَهُمْ لَمَا احتاج إلى سؤال جبريل عنهم. والجواب أنه لما اجتمع بهم بيت المقدس وأمهم على الهيئة البشرية تحقق وجودهم في الأرض، ثم لما وصل إلى الملكوت العلوي لم يجدهم على تلك الحالة التي شاهدتهم عليها، وإنما هم على صفات روحانية يُشَكِّلُ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ أَشْكَالاً لِاتِّقَاعِ بِالْمَلَكُوتِ الْعُلُوي تَأْنِيْساً لَهُمْ بِأَصْلِهِمُ الْبَشَرِي وَتَكْرِيْماً لَهُمْ وَتَعْظِيْماً لِلْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ حَيْثُ شَاهَدَهُمْ تِلْكَ السَّاعَةَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ رَأَاهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ فِي السَّمَاءِ، فَلِذَلِكَ سَأَلَ عَنْهُمْ اسْتِثْبَاتاً لَا تَعْجَباً، فَإِنَّهُ عَالِمٌ أَنَّ اللهُ تَعَالَى الَّذِي أَصْعَدَهُ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ فِي لِحْظَةٍ قَادِرٌ عَلَى نَقْلِهِمْ إِلَى السَّمَوَاتِ فِي أَسْرَعِ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

التبیه الحادي والخمسون: اسْتَشْكِلَ رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتِ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ فِي السَّمَوَاتِ مَعَ أَنَّ أَجْسَادَهُمْ مُسْتَقَرَّةٌ فِي قُبُورِهِمْ فِي الْأَرْضِ. وَأُجِيبَ بِأَنَّ أَرْوَاحَهُمْ تَشْكَلَتْ بِصُورِ أَجْسَادِهِمْ، أَوْ أُخْضِرَتْ أَجْسَادَهُمْ لِمَلَاقَاةِ النَّبِيِّ ﷺ تِلْكَ اللَّيْلَةَ تَشْرِيفاً وَتَكْرِيْماً وَيُؤَيِّدُهُ حَدِيثُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ هَاشِمٍ عِنْدَ الْبَيْهَقِيِّ وَغَيْرِهِ: «وَبُعِثَ لَهُ آدَمُ فَمِنْ دُونِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ».

وقال ابن أبي جمرة: «رؤيته لهؤلاء الأنبياء تحتمل وجوهاً: الأول: أن يكون عليه السلام عاين كل واحد منهم في قبره في الأرض على الصورة التي أخبر بها عن الموضع الذي عاينه فيه فيكون الله عز وجل قد أعطاه من القوة في البصر والبصيرة ما أدرك به ذلك. ويشهد لهذا الوجه قوله ﷺ: «رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ فِي عُرْضِ الْحَائِطِ». وَهُوَ مُخْتَمَلٌ لَوْجْهَيْنِ أَحَدَهُمَا: أَنْ

يكون ﷺ رأهما من ذلك الموضع كما يقال رأيت الهلال من منزلي من الطاق والمراد من موضع الطاق، الوجه الثاني: أن يكون مثل له صورتها في عرض الحائط، والقدرة سالحة لكليهما. الثاني: أن يكون ﷺ عاين أرواحهم هناك في صورهم. الثالث: أن يكون الله عز وجل لما أراد الإسراء بنينا رفعهم من قبورهم لتلك المواضع إكراماً لنبية عليه السلام وتعظيماً له حتى يحصل له من قبلمهم ما أشرنا إليه من الأُنس والبشارة وغير ذلك مما لم نُشير إليه ولا نعلمه نحن، وإظهاراً له عليه الصلاة والسلام القدرة التي لا يغلبها شيء ولا تعجز عن شيء وكل هذه الأوجه مُختَملة ولا ترجيح لأحدها على الآخر لأن القدرة سالحة لكلها.

وقال ابن القيم في كتاب الروح «الأرواح قسمان: أرواح مُعَذِّبة وأرواح مُنْعَمة، فالمُعَذِّبة في شغل بما هي فيه من العذاب عن التزاور والتلاقي. والأرواح المُنْعَمة المرسله غير المحبوسة تتلاقى وتتزاور وتتذاكر ما كان منها في الدنيا وما يكون من أهل الدنيا، فتكون كل روح معها رفيقها الذي هو على مثل عملها. وروح نبينا ﷺ في الرفيق الأعلى. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّاهِدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69] وهذه المَعِيَّة ثابتة في الدنيا وفي دار البرزخ وفي دار الجزاء والمرء مع من أحب.

ثم ذكر حديث أبي هريرة: «لما أُسْرِيَ برسول الله ﷺ لقي إبراهيم وموسى وعيسى فتذاكروا أمر الساعة». الحديث. قال: فهذا نص في تذاكر الأرواح العلم، وقد أخبر الله تعالى عن الشهداء أنهم أحياء عند ربهم يرزقون وأنهم يستبشرون بنعمة من الله وفضل هذا يدل على تلاقهم من ثلاثة أوجه: أحدها أنهم أحياء عند الله وإذا كانوا أحياء عند الله فهم يتلاقون. الثاني: أنهم إنما يستبشرون بإخوانهم لقدومهم عليهم ولقائهم لهم. الثالث: أن لفظ يستبشرون يُفيد في اللغة أنهم يُبشَّر بعضهم بعضاً مثل يتباشرون وقد تواترت المراتي بذلك فذكر عدة منامات. ثم قال: وقد جاءت سنة صريحة بتلاقي الأرواح وتعارفها. قال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن عبد الله بن بزيع أنبأنا الفضيل بن سليمان الثميري حدثنا يحيى بن عبد الرحمن بن أبي أنيسة عن جده قال: لما مات بشر بن البراء بن معرور - بمهمات - وجدت أم بشر عليه جداً شديداً، فقالت: يا رسول الله إنه لا يزال الهالك يهلك من بني سلمة، فهل يتعارف الموتى فأرسل إلى بشر بالسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم والذي نفسي بيده يا أم بشر، إنهم ليتعارفون كما يتعارف الطير في رؤوس الشجر».

وذكر الحديث وآثاراً تؤيد ذلك، ثم قال: «والروح ذات قائمة بنفسها تصعد وتنزل وتتصل وتنفصل وتخرج وتذهب وتجيء، وتتحرك وتسكن، وعلى هذا أكثر من مائة دليل قد ذكرناها في كتابنا: معرفة الروح والنفس، وبيننا بطلان ما خالف هذا القول من وجوه كثيرة، وأن من قال

غَيْرَهُ لَمْ يَعْرِفْ نَفْسَهُ وَقَدْ وَصَفَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِالِدُخُولِ وَالخُرُوجِ، وَالقَبْضِ وَالتَّوْفِي وَالرَّجُوعِ، وَصَعُودَهَا السَّمَاءَ وَفَتْحَ أَبْوَابِهَا وَغَلَقِهَا عَنْهَا، وَقَدْ ذُكِرَتْ آيَاتُ وَأَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ تَشْهَدُ بِمَا قَالَهُ.

ثُمَّ قَالَ: «وَأَمَّا إِخْبَارُهُ ﷺ عَنْ رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ بِهِ، فَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ أَهْلِ الْحَدِيثِ أَنَّ الَّذِي رَأَاهُ أَشْبَاهَهُمْ وَأَرْوَاحَهُمْ. قَالَ: فَإِنَّهُمْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. وَقَدْ رَأَى الْمُصْطَفَى إِبْرَاهِيمَ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَرَأَى مُوسَى قَائِمًا فِي قَبْرِهِ يَصَلِّي، وَقَدْ نَعَتِ الْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامَهُ عَلَيْهِمْ لَمَّا رَأَاهُمْ بِنَعْتِ الْأَشْبَاحِ».

وَنَازَعَهُمْ آخَرُونَ وَقَالُوا: هَذِهِ الرَّوَايَةُ إِنَّمَا هِيَ لِأَرْوَاحِهِمْ دُونَ أَجْسَادِهِمْ، وَالْأَجْسَادُ فِي الْأَرْضِ قِطْعًا وَإِنَّمَا تُبْعَثُ يَوْمَ تَبْعَثُ الْأَجْسَادُ، وَلَا تُبْعَثُ قَبْلَ ذَلِكَ، إِذْ لَوْ بُعِثَتْ قَبْلَ ذَلِكَ لَكَانَتْ قَدْ انشَقَّتْ عَنْهُمْ الْأَرْضُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَكَانَتْ تَذُوقُ السُّوْتِ عِنْدَ نَفْخَةِ الصُّورِ، وَهَذِهِ مَوْتَةٌ ثَالِثَةٌ وَهَذَا بَاطِلٌ قِطْعًا، وَلَوْ كَانَتْ قَدْ بُعِثَتْ الْأَجْسَادُ مِنَ الْقُبُورِ لَمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهَا، بَلْ كَانَتْ فِي الْجَنَّةِ وَقَدْ صَخَّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَوْلُهُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَّمَ الْجَنَّةَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى يَدْخُلَهَا هُوَ، فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ يَسْتَفْتِحُ بَابَ الْجَنَّةِ، وَأَوَّلُ مَنْ تَنَشَّقُ عَنْهُ الْأَرْضُ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَلَمْ تَنَشَقْ عَنْ أَحَدٍ قَبْلَهُ، وَمَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ جَسَدَهُ ﷺ فِي الْأَرْضِ طَرِي.

وَقَدْ سَأَلَهُ أَصْحَابُهُ: كَيْفَ تُعْرِضُ عَلَيْكَ صَلَاتِنَا وَقَدْ بَلَيْتَ؟ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ»^(١) وَلَوْ لَمْ يَكُنْ جَسَدُهُ فِي ضَرْبِهِ طَرِيًّا لَمَا أَجَابَ بِهَذَا الْجَوَابِ. وَقَدْ صَخَّ عَنْهُ ﷺ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَكَّلَ بِقَبْرِهِ مَلَائِكَةً يُتَلَفُونَهُ عَنْ أُمَّتِهِ السَّلَامِ، وَصَخَّ عَنْهُ ﷺ لَمَّا خَرَجَ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ قَالَ: «هَكَذَا تُبْعَثُ».

هَذَا مَعَ الْقِطْعِ بِأَنَّ رُوحَهُ الْكَرِيمَةَ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ مَعَ أَرْوَاحِ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامِهِ عَلَيْهِمْ. وَقَدْ صَخَّ أَنَّهُ رَأَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِمًا يَصَلِّي فِي قَبْرِهِ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَرَأَاهُ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ أَوْ السَّابِعَةِ، فَالرُّوحُ كَانَتْ هُنَاكَ وَلَهَا اتِّصَالٌ بِالْبَدَنِ فِي الْقَبْرِ وَإِشْرَاقٌ عَلَيْهِ وَتَعَلُّقٌ بِهِ بِحَيْثُ تَصَلِّي فِي قَبْرِهِ وَتَرْتَدُّ سَلَامٌ مِنْ سَلَمٍ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى.

وَلَا تَنَافِي بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ فَإِنَّ شَأْنَ الْأَرْوَاحِ غَيْرُ شَأْنِ الْأَبْدَانِ، فَأَنْتَ تَجِدُ الرُّوحَيْنِ الْمُتَلَائِمَتَيْنِ الْمُتَنَاسِبَتَيْنِ فِي غَايَةِ التَّجَاوُرِ وَالقُرْبِ وَإِنْ كَانَ بَيْنَ بَدَنَيْهِمَا غَايَةَ البُعْدِ، وَتَجِدُ الرُّوحَيْنِ الْمُتَنَافِرَتَيْنِ الْمُتَبَاغِضَتَيْنِ فِي غَايَةِ البُعْدِ وَإِنْ كَانَ جَسَدَاهُمَا مُتَجَاوِرَيْنِ مُتَلَاصِقَيْنِ، وَلَيْسَ نَزُولُ الرُّوحِ وَصَعُودُهُ، وَقُرْبُهَا وَبُعْدُهَا مِنْ جِنْسٍ مَا لِلْبَدَنِ فَهِيَ تَصْعَدُ إِلَى فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ مَا بَيْنَ قَبْضِهَا وَوَضْعِ الْمِيتِ فِي قَبْرِهِ، وَهُوَ زَمَنٌ يَسِيرٌ لَا يَصْعَدُ

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ الْجُمُعَةِ بَابِ (١) وَابْنُ مَاجَهَ (١٠٨٥) وَأَحْمَدُ فِي الْمَسْنَدِ ٨/٤ وَابْنُ أَبِي عَاصِمٍ فِي الْمَسْنَدِ

٢٤٩/٣ وَالْحَاكِمُ فِي الْمَسْنَدِ ٥٦٠/٤ وَالطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ وَابْنُ حَبَانَ (٥٥).

البدن وينزل في مثله، وكذلك صعودها وعودها إلى البدن في النوم واليقظة. وقد مثلها بعضهم بالشمس في السماء وشعاعها في الأرض.

قال شيخنا - يعني أبا العباس الحرّاني: وليس هذا مثلاً مطابقاً فإن نفس الشمس لا تنزل من السماء والشعاع الذي على الأرض لا هو الشمس ولا صفتها بل عرض حصل بسبب الشمس والجزم المقابل لها، والروح نفسها تصعد وتنزل وتَسَطُّ الكلام على ذلك ولهذا مزيد بيان في باب حياة النبي ﷺ في قبره.

التبیه الثاني والخمسون: في الكلام على البيت المعمور: قال أبو عبيدة: معنى المعمور الكثير الغاشية ويسمى الضراح^(١). بضم الضاد المعجمة - ويقال المهمله. قال الزمخشري في ربيع الأبرار وهو غلط ضراح، وبالضراح تُسميه الملائكة، وسمي به لأنه ضرح عن الأرض أي بُعد قال مجاهد: «البيت المعمور وهو الضريح» يعني بالمعجمة وهو في اللغة: البعيد، وأكثر الروايات على أنه في السماء السابعة.

وروى ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «البيت المعمور في السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه حتى تقوم الساعة»^(٢). ورواه الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً أيضاً. وروى إسحاق بن راهويه عن علي رضي الله عنه أنه سئل عن البيت المعمور، قال: «بيت الله في السماء السابعة بحيال البيت، وحُرْمَتُهُ كحُرْمَةِ هذا في الأرض، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه».

وفي حديث أبي هريرة عند ابن مَرْدَوِيهِ وَالْعُقَيْلِيّ وابن أبي حاتم عن النبي ﷺ أنه قال: «في السماء السابعة بيت يقال له البيت المعمور وفي السماء الرابعة نهر يقال له الحيوان، يدخله جبريل كل يوم فينغمس فيه انغماسة ثم يخرج فينتفض انتفاضة فيخرج عنه سبعون ألف قطرة، يخلق الله من كل قطرة ملكاً يُؤْمَرُونَ أَنْ يَأْتُوا الْبَيْتَ الْمَعْمُورَ فَيُصَلُّونَ فِيهِ فَيَفْعَلُونَ ثُمَّ يَخْرُجُونَ فَلَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ أَبَدًا، وَيُؤَلَّى عَلَيْهِ أَحَدُهُمْ ثُمَّ يُؤْمَرُ أَنْ يَقِفَ بِهِمْ فِي السَّمَاءِ مَوْقِفًا يُسَبِّحُونَ اللَّهَ فِيهِ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ»^(٣). وإسناده ضعيف. والصحيح أنه ليس بموضوع كما

(١) الضراح بيت في السماء حيال الكعبة ويروي: الضريح وهو البيت المعمور، من المضارحة، وهي المقابلة والمضارعة. انظر النهاية لابن الأثير ٨١/٣.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٤١٧/١٤ وأحمد في المسند ١٥٣/٣ والحاكم في المستدرک ٤٦٨/٢ وذكره السيوطي في الدر ١١٧/٦ والمتقي الهندي في الكنز (٣٤٧٩٤).

(٣) أخرجه ابن كثير في التفسير ٤٠٤/٧ وقال: هنا حديث غريب جداً، تفرد به روح بن جناح هذا، وقد أنكر هنا الحديث عليه جماعة من الحفاظ منهم: الجوزجاني والعقيلي، والحاكم أبو عبد الله النيسابوري وغيرهم: وقال الحاكم: لا أصل له من حديث أبي هريرة ولا سعد ولا الزهري.

بَيِّنْتُهُ فِي: «الفوائد المجموعة في بيان الأحاديث الموضوعية».

وروى أبو الشيخ من طريق الليث قال: حدثني خالد بن سعيد قال: «بلغني أن إسرائيل مؤذّن أهل السماء يَسْمَعُ تَأْذِينَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، إِلَّا الْجِنَّ وَالْإِنْسَ، ثُمَّ يَتَقَدَّمُ عَظِيمَ الْمَلَائِكَةِ فَيَصْلِي بِهِمْ»، قال: «وبلغنا أن ميكائيل يؤم الملائكة بالبيت المعمور» واشتدّل بهذه الأحاديث على أن الملائكة أكثر المخلوقات، لأنه لا يعرف من جميع العوالم مَنْ يَتَجَدَّدُ مِنْ جِنْسِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا غَيْرَ مَا ثَبَتَ فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ.

التبيه الثالث والخمسون: قوله: «رُفِعَ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ»، معناه أنه أُرِيَ له. وقد يحتمل أن يكون المراد الرفع والرؤية معاً، لأنه قد يكون بينه وبين البيت عوالم حتى لا يقدر على إدراكه، فُرِفِعَ إِلَيْهِ وَأَمِدَّ فِي بَصَرِهِ وَبَصِيرَتِهِ حَتَّى رَأَاهُ، ويحتمل أن تكون تلك العوالم التي كانت بينه وبين البيت المعمور أُزِيلَتْ حَتَّى أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ. وقد يحتمل أن يكون العالم بقي على حاله والبيت على حاله، وَأَمِدَّ فِي بَصَرِهِ وَبَصِيرَتِهِ حَتَّى أَدْرَكَهُ وَعَايَنَهُ، والقدرة صالحة للكُلِّ، يشهد لذلك قوله ﷺ: «رُفِعَ إِلَيَّ بَيْتُ الْمَقْدِسِ عَلَى مَا سَيَأْتِي فِيهِ»، والتأويل فيه كالتأويل في البيت المعمور.

وأكثر الروايات: «رُفِعَتْ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى»، بضم الراء وسكون العين وضم التاء من «رفعت»، وَبَعْدَهُ حَرْفُ الْجَزْرِ. ول بعضهم «وَرُفِعَتْ» بفتح العين وسكون التاء، أي «السدرة لي» باللام أي من أجلي، وَيُجْمَعُ بَيْنَ الرَّوَايَتَيْنِ بِأَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ رُفِعَ إِلَيْهَا أَيْ ازْتَقِيَ بِهَا فَظَهَرَتْ لَهُ وَالرُّفْعُ إِلَى الشَّيْءِ يُطْلَقُ عَلَى التَّقْرِيبِ مِنْهُ.

التبيه الرابع والخمسون: وَجِهَ مُنَاسَبَةَ الْمَعْرَاجِ الثَّامِنِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى لِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ السَّنَةُ الثَّامِنَةُ مِنَ الْهَجْرَةِ. إن السنة الثامنة اشتملت على فتح مكة، ومكة أم القرى وإليها المنتهى ومنها المبتدأ، على ما ورد أن الأرض كلها دُجِيَتْ^(١) من مكة، فلذلك سُمِّيَتْ أُمُّ الْقُرَى، أَوْ هِيَ أُمُّ الْقُرَى لِأَنَّ أَهْلَ الْقُرَى يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا حَجَّاً وَعِتْمَاراً وَجَوَاراً وَكَسْباً وَاتِّجَاراً قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧] أي تقوم بأبدانهم وأديانهم. وقال تعالى ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج ٢٨] قيل هي الأجر والتجارات في الموسم. فبين سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَأُمُّ الْقُرَى مِنَ الْمُنَاسَبَةِ مَا لَا يَخْفَى، إِذْ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى يَنْتَهِي إِلَيْهَا عِلْمُ الْخَلَائِقِ، وَمَكَّةُ يَنْتَهِي إِلَيْهَا أَهْلُ الْآفَاقِ شَرْقاً وَغَرْباً وَفِيهَا يَكُونُ الْاجْتِمَاعُ. فَكَانَ بَلُوغُهُ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى تَنْبِيهاً عَلَى بَلُوغِهِ إِلَى فَتْحِ مَكَّةِ أُمِّ الْقُرَى فِي الْعَامِ

(١) الدَّحْرُ: الْبَسْطُ، وَالْمَذْحُوتَاتُ: الْأَرْضُونَ. يُقَالُ: دَحَا يَذْحُو وَيَذْحِي: أَي تَسَطَّ وَوَسَّعَ. انْظُرِ النَّهْجَةَ لِابْنِ الْأَثِيرِ ١٠٦/٢.

الثامن، وقد غشى السدرة الجراد والفراش والغربان الذي هو جُنْدٌ من جُنْدِ الله كما غشى مكة في الفتح جُنْدُ الله وجزبه وغشيتها أيضاً أجناسٌ من الخلق واللوان من الأسود والأحمر. وجاء اللفظان معاً في الحديث، كما غشى سدرة المنتهى ألوان لا يعلمها إلا الله تعالى: فلما غشيت الألوان السُدْرَةَ حَسُنْتَ إِلَى أَنْ لَا يُحْسِنَ أَحَدٌ أَنْ يَنْتَعَهَا لِفَرْطِ الْحُسْنِ. كما أن ألوان الخلق لما غشيت مكة يوم الفتح حَسُنْتَ حَيْثُ بِالْإِيمَانِ وَبَاهِلِ الْقُرْآنِ حَتَّى لَا يُحْسِنَ أَحَدٌ أَنْ يَصِفَ حَالَهَا حَيْثُ مِنْ عِظَمِ الشَّانِ.

ثم كان ظهور الأنهار الأربعة حيثُ دليلة على أن تلك الأمة ستبلغها ويُحَقِّقُهُ أيضاً قوله ﷺ: «زُوِيَتْ لِي الْأَرْضُ مِشَارِقُهَا وَمَغَارِبُهَا وَسِيلُهَا مَلِكٌ أُمِّي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»^(١).

التبيه الخامس والخمسون: وقع في حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند مسلم أن السدرة في السماء السادسة وظاهر حديث أنس رضي الله عنه أنها في السابعة، قال القرطبي: «وهذا تعارض لا شك فيه». وحديث أنس قول الأكثرين وهو الذي يقتضيه وصفها بكونها التي ينتهي إليها علم كل نبي مُرْسَلٍ وكل ملك مُقَرَّبٍ، «ويترجح حديث أنس بأنه مرفوع وحديث ابن مسعود بأنه موقوف». قال الحافظ: «كذا قال ولم يُعْرَجْ عَلَى الْجَمْعِ بَلْ جَزِمَ بِالْتَعَارُضِ وَلَا يَعَارِضُ قَوْلُهُ إِنَّهَا فِي السَّادِسَةِ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ بَقِيَّةُ الْأَخْبَارِ أَنَّهُ وَصَلَ إِلَيْهَا بَعْدَ أَنْ دَخَلَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ لِأَنَّهُ يُحْتَمَلُ عَلَى أَنْ أَصْلُهَا فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ وَأَغْصَانُهَا وَفُرُوعُهَا فِي السَّابِعَةِ وَلَيْسَ فِي السَّادِسَةِ مِنْهَا إِلَّا أَصْلُ سَاقِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ».

التبيه السادس والخمسون: قال ابن أبي جَمْرَةَ: «وَالْأَظْهَرُ أَنَّ شَجَرَةَ الْمُنْتَهَى مَفْرُوشَةٌ بِأَرْضٍ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: «وَنَهْرَانِ بَاطِنَانِ» وَلَا يُطْلَقُ هَذَا اللَّفْظُ وَمَا أَشْبَهَهُ إِلَّا عَلَى مَا يُفْهَمُ، وَالْبَاطِنُ لَا يَدُ أَنْ يَكُونَ سَرِيَانَهُ تَحْتَ شَيْءٍ، وَحَيْثُ يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ الْبَاطِنِ».

التبيه السابع والخمسون: قال القاضي رحمه الله: دَلَّ الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ أَصْلَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى فِي الْأَرْضِ لِكَوْنِهِ قَالَ: «إِنَّ النَّيْلَ وَالْفِرَاتَ يَخْرُجَانِ مِنْ أَصْلِهَا»، وَهَذَا بِالْمَشَاهِدَةِ يَخْرُجَانِ مِنَ الْأَرْضِ، فَيَلْزِمُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ أَصْلُ السَّدْرَةِ فِي الْأَرْضِ. وَتَعَقُّبُهُ النَّوَوِيُّ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِكُونِهِمَا يَخْرُجَانِ مِنْ أَصْلِهَا غَيْرَ خُرُوجِهِمَا بِالنَّبْعِ مِنَ الْأَرْضِ، وَالْحَاصِلُ أَنَّ أَصْلَهُمَا مِنَ الْجَنَّةِ وَهَذَا يَخْرُجَانِ أَوَّلًا مِنْ أَصْلِ السَّدْرَةِ إِلَى أَنْ يَسْتَقِرَّا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يَنْبَعَانِ.

التبيه الثامن والخمسون: قال ابن أبي جَمْرَةَ رحمه الله: قَوْلُهُ ﷺ: «فِي أَصْلِهَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ: نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ»، هَذَا اللَّفْظُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٥٢) وذكره العراقي في تخرجه على الإجماع ٣٨٧/٢.

يكون من باب تسمية الشيء بما قاربه، فإن كان على الحقيقة فتكون هذه الأنهار تنبع من أصل الشجرة نفسها فتكون الشجرة طعمها نبق وأصلها ينبع منه الماء، والقدرة لا تعجز عن هذا. وإن كان من باب تسمية الشيء بما قاربه فتكون الأنهار تنبع قريباً من أصل الشجرة.

التبيه التاسع والخمسون: في قوله: «أما الباطنان فنهران في الجنة»، دليل على أن الباطن أجل من الظاهر، لأنه لما كان الباطنان أصلاً جُعلا في دار البقاء، ولما كان الظاهران أقل أُخْرِجَا إلى دار الفناء، ومن ثم كان الاعتماد على ما في الباطن، كما قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم».

التبيه الستون: في حديث أبي سعيد: «فإذا فيها - أي السماء السابعة - عين تجري يقال لها السلسبيل فينشق منها نهران أحدهما نهر الكوثر والآخر يقال له نهر الرحمة. ويمكن أن يُفسر بهما النهران الباطنان المذكوران في الحديث، وكذا زوي عن مقاتل، قال: «الباطنان السلسبيل والكوثر».

التبيه الحادي والستون: قال النووي في هذا الحديث: إن أصل النيل والفرات من الجنة وأنهما يخرجان من أصل سدرة المنتهى ثم يسيران حيث شاء الله تعالى ثم ينزلان إلى الأرض ثم يسيران فيها ثم يخرجان منها. وهذا لا يمنعه العقل وقد شهد به ظاهر الخبر فليُتَمَدَّ.

التبيه الثاني والستون: استدل بهذا الحديث على فضيلة ماء النيل والفرات لكون منبعهما من الجنة. وروى مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «سيحان وجيحان والنيل والفرات من أنهار الجنة»^(١). قال العلماء: والمراد به أن في الأرض أربعة أنهار أصلها من الجنة وحينئذ لم يثبت لسيحان وجيحان أنهما ينبعان من أصل سدرة المنتهى، فيمتاز النيل والفرات عليهما بذلك، وأما الباطنان المذكوران في الحديث فهما غير سيحان وجيحان. قال القرطبي: «لعل تزك ذكرهما في حديث الإسراء لكونهما ليسا أصلاً برأسهما وإنما يحتمل أن يتفرعا من النيل والفرات».

التبيه الثالث والستون: قيل: إنما أُطلق على هذه الأنهار أنها من الجنة تشبيهاً لها بأنهار الجنة لما فيها من شدة العذوبة والحُسن والبركة. قال القرطبي: والأولى أنها من أنهار الجنة. وقال غيره: صورة انصبابها كانصباب المطر متفرقاً ثم يجتمع في مواقعها في الأرض إلى أن ينساق كل منها إلى مستقره ومجراه. ويحتمل أن يكون انصبابها في نواحي الأرض

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنة (٢٦) وأحمد في المسند ٢٨٩/٢ والبغوي في التفسير ١٧٧/٦.

النائية المتصلة بمبادئ هذه الأنهار فإنه لم يقف أحد على مبادئها حتى الآن.

وروى أبو الشيخ في العظمة وأبو المخلص - بوزن اسم الفاعل - بتسند من طريق أبي صالح عبد الله بن صالح قال: حدثني الليث بن سعد قال: بلغني أنه كان رجل من بني العيص يقال له حائد بن شالوم بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام، خرج هارباً من ملك من ملوكهم حتى دخل أرض مصر، فأقام بها، فلما رأى أعاجيب نيلها، جعل لله عليه ألا يفارق ساحلها حتى يبلغ منتهاه ومن حيث يخرج أو يموت.

فسار عليه، قبل ثلاثين سنة في الناس، وثلاثين سنة في غير الناس، وقبل خمس عشرة كذا وخمس عشرة كذا حتى انتهى إلى بحر أخضر، فنظر إلى النيل ينشق مُقبلاً، وإذا رجل قائم يصلي تحت شجرة تفاح، فلما رآه استأنس به وسلم عليه، فقال له: من أنت؟ قال: أنا حائد بن شالوم بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام فمن أنت؟ قال: أنا عمران بن فلان بن العيص، فما الذي جاء بك يا حائد؟

قال: جئت من أجل هذا النيل وهل بلغك في الكتب أن أحداً من بني آدم يبلغه ولا أظنه غيرك قال كيف الطريق إليه؟ قال: سِرُّ كما أنت على هذا البحر فإنك ستأتي دابة ترى آخرها ولا ترى أولها فلا يهولئك آخرها، وهي معادية للشمس إذا طلعت أهوت إليها لتلتقمها وإذا غربت أهوت إليها كذلك، فأركبها تذهب بك إلى جانب البحر، فيسر عليها فإنها ستبلغ أرضاً من حديد، فإن جرتها وقعت في أرض من ذهب فيها ينتهي إليها علم النيل. فسار حتى انتهى إلى أرض من الذهب فسار فيها حتى انتهى إلى سور من ذهب، وشرفة من ذهب وقبة من ذهب لها أربعة أبواب، فنظر إلى ما ينحدر من فوق ذلك السور حتى يستقر في القبة ثم ينصرف في الأبواب الأربعة، فأما الثلاثة فتفيض في الأرض وأما واحد فيسير على وجه الأرض وهو النيل.

فشرب منه واستراح وهوى إلى السور ليصعد فأتاه ملك فقال له: «يا حائد قف فإنه قد انتهى إليك علم هذا النيل، وهذه الجنة، وإنما ينزل من الجنة.

التبیه الرابع والستون: قال ابن أبي جمرة في قول جبريل عليه السلام: «أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات»، دليل على أن النيل والفرات ليسا من الجنة لأن النبي ﷺ أخبر أن جبريل أخبره أن هذه الأنهار منبعها من سدرة المنتهى، فيسير الباطنان إلى الجنة، والنيل والفرات ينزلان إلى الدنيا، وسدرة المنتهى ليست في الجنة حتى يقال إنهما يخرجان منها بعد نبعهما من الجنة. وهذا مُعارض لما رواه مسلم عن أبي هريرة من أن رسول الله ﷺ قال: «سيحان وجيحان والنيل والفرات كل من أنهار الجنة». والجمع بينهما

والله تعالى أعلم - أن النيل والفرات منبعهما من سدرة المنتهى، وإذا نزلا يسلكان أولاً طريقاً إلى الجنة فيدخلانها ثم بعد ذلك ينزلان إلى الأرض.

التبيه الخامس والستون: قال ابن أبي جمرة: وردت الأخبار أن من شرب من ماء الجنة لا يموت ولا يقنى وأنه ليس له فضلة تخرج على ما يُفهد في دار الدنيا خروجه وإنما خروجه رشح يشك على البدن، فجعل فيه هذه الخاصية العظيمة، ثم لما شاءت الحكمة نزوله إلى هذه الدار نُزعت منه تلك الخصوصية، وبقي جوهره بحاله، وكل الخواص مثله في هذا المعنى، إن شاء الله عز وجل أبقى له الخاصية وإن شاء سلبها مع بقاء جوهره وليس لذوات الخواص تأثير بل الخاصية خلقه والجوهر خلقه وإنما القدرة هي المؤثرة في كلها.

التبيه السادس والستون: قول ابن كثير: «المراد - والله أعلم - أن هذه الأنهار تشبه أنهار الجنة في صفاتها وعدوبتها وجريانها من جنس تلك في هذه الصفات كما قال في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «العجوة من الجنة»^(١) أي تشبه تمر الجنة لا أنها مجتناة من الجنة فإن الجس يشهد بخلافه. فيتعين أن يكون المراد غيره، وكذلك أصل منابع هذه الأنهار مشاهدة من الأرض، انتهى. وهو متعقب بأنه لا يلزم من كونها كذلك ألا تكون من الجنة، لما قدّمنا من كيفية النزول. وقد جزم النووي وغيره أنها من الجنة، ولا يُشكل ذلك لأن في ماء الجنة خواص ليست في هذه الأنهار لما سبق في كلام ابن أبي جمرة.

التبيه السابع والستون: وقع في رواية شريك أن رسول الله ﷺ رأى في السماء الدنيا نهرين يعطردان فقال له جبريل: «هما النيل والفرات عُصْرُهُمَا». وفي رواية غيره: «رأهما في السماء السابعة». قال ابن دحية: والجمع بينهما أنه رأى هذين النهرين عند سدرة المنتهى مع نهرَي الجنة، ورأهما في السماء الدنيا دون نهرَي الجنة وأراد بالعُصْر عنصر انتشارهما.

التبيه الثامن والستون: روى أبو نعيم والضياء عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لعلكم تظنون أن أنهار الجنة أخذوداً في الأرض، لا والله إنها لسائحة على وجه الأرض»^(٢) الأخدود شق في الأرض مستطيل.

التبيه التاسع والستون: روى الحارث بن أبي أسامة في مُسنّده والبيهقي في الشُّعب

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٦٦) وابن ماجه (٣٥٤٣) وأحمد في المسند ٣٠١/٢ والدارمي ٣٣٨/٢ وعبد الرزاق في المصنف (٢٠١٧٠) والخطيب في التاريخ ٤٤٥/١٤.

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٣٨/١ وعزاه لابن مردويه وأبي نعيم والضياء المقدمي كلاهما في صفة الجنة.

عن كعب الأحبار قال: «إن نهر العسل نهر النيل ونهر اللبن نهر دجلة ونهر الخمر نهر الفرات ونهر الماء نهر سيحان».

التبیه السبعون: قوله في السُدرة: «يغشاها جرادٌ من ذهب». قال البيضاوي: «ذُكر الجراد والفراش وقع على سبيل التمثيل لأن من شأن الشجر أن يسقط عليه الجراد ويثبته، وجعلها من ذهب لصفاء لونها وإضاءتها في نفسها». وقال الحافظ: «ويجوز جعلها من الذهب حقيقة، ويخلق الله فيها الطيران، والقدرة صالحة لذلك». انتهى.

التبیه الحادي والسبعون: قوله «فَقَرَّ لِي مَا تَقَدَّمُ مِنْ ذَنْبِي وَمَا تَأَخَّرَ»، قال شيخ الإسلام تقي الدين السبكي رحمه الله: «المراد تشريف النبي ﷺ بهذا الأمر، أي لو كان له ذنوب لغفرت ولم يكن له ذنب البتة». وحكى الشيخ رحمه الله في كتابه المُحَرَّر، في الكلام على هذه الآية اثني عشر قولاً، ونقل عن السبكي فساد خمسة منها وبين الشيخ فساد الباقي، ثم قال: «أما الأقوال المقبولة ففي الشفا للقاضي قيل إن النبي ﷺ لَمَّا أَمَرَ أَنْ يَقُولَ: ﴿وَمَا أَذْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩] سُرَّ بِذَلِكَ الْكُفَّارُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] وأخبر بمآل المؤمنين في الآية الأخرى بعدها، فَمَقْصِدُ الْآيَةِ أَنَّكَ مَغْفُورٌ لَكَ غَيْرُ مُؤَاخَذٍ بِذَنْبٍ وَهَذَا الْأَثَرُ رَوَاهُ ابْنُ الْمُنْذِرِ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بِدُونِ قَوْلِهِ وَأَخْبَرَ بِمآلِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى آخِرِهِ، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالحَاكِمُ نَحْوَهُ.

قال القاضي: قال بعضهم: المغفرة هنا تنزيه من العيوب، وقال بعض المحققين: المغفرة هنا كناية عن العِصْمَةِ أَي فُعِصِمْتُ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنْ عُفْرِي وَفِيمَا تَأَخَّرَ مِنْهُ، وَهَذَا الْقَوْلُ فِي غَايَةِ الْحُسْنِ. وَقَدْ عَدَّ الْبَلْغَاءُ مِنْ أَسَالِيبِ الْبَلَاغَةِ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ يُكْنَى عَنِ التَّخْفِيفَاتِ بِلَفْظِ التَّغْفِيرَةِ وَالْعَفْوِ وَالتَّوْبَةِ، كَقَوْلِهِ عِنْدَ نَسْخِ قِيَامِ اللَّيْلِ: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل: ٢٠] وَعِنْدَ نَسْخِ تَقْدِيمِ الصَّدَقَةِ بَيْنَ يَدَيْ الشُّجْوَى ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المجادلة: ١٣] وَعِنْدَ نَسْخِ تَحْرِيمِ الْجَمَاعِ لَيْلَةَ الصِّيَامِ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

ثم نُقِلَ عَنِ السَّبْكِ أَنَّهُ قَالَ: «وَقَدْ تَأَمَّلْتُ هَذِهِ الْآيَةَ بِذَهْنِي مَعَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا فَوَجَدْتُهَا لَا تَحْتَمِلُ إِلَّا وَجْهًا وَاحِدًا وَهُوَ تَشْرِيفُ النَّبِيِّ ﷺ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ ذَنْبٌ، وَلَكِنَّهُ أُرِيدُ أَنْ تُشْتَوَّعَ فِي الْآيَةِ جَمِيعُ أَنْوَاعِ النِّعَمِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ. وَجَمِيعُ النِّعَمِ الْآخَرِيَّةِ شَيْعَانٌ: سَلْبِيَّةٌ وَهِيَ عُفْرَانُ الذُّنُوبِ، وَثَبُوتِيَّةٌ وَهِيَ لَا تَنْتَاهِي وَقد أشار إليها بقوله: ﴿وَيُنِمْ بِعَمَّتِهِ عَلَيْكَ﴾ [البقرة: ١٨٧] وَجَمِيعُ النِّعَمِ الدُّنْيَوِيَّةِ شَيْعَانٌ: دِينِيَّةٌ أَشَارَ إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ:

﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢] ودنيوية وإن كان المقصود بها الدين وهي قوله تعالى: ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا﴾ [الفتح: ٣] وقدم الأخروية على الدنيوية تقدماً للأهم. فانظم بذلك تعظيم قدر النبي ﷺ بإتمام أنواع نعم الله تعالى المتفرقة في غيره.

وبعد أن وقفت على هذا المعنى رأيت ابن عطية قد وقع عليه فقال: «وإنما المعنى تشریف النبي ﷺ بهذا الحكم، ولم تكن ذنوباً البتة»، وقد وُفق فيما قاله.

التبیه الثاني والسبعون: قوله: «ثم أخذ على الكوثر حتى دخل الجنة». قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام في تفسيره: «هذا الحديث دليل على أن السدرة ليست في الجنة». وجزم به ابن أبي جمرة. وقال ابن دحية: «ثم هنا ليست للترتيب كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البلد: ١٧] إنما هي مثل الواو للجمع والاشتراك فهي بذلك خارجة عن أصلها، قال صاحب فتح الصفا: «وهي بخلاف الظاهر».

التبیه الثالث والسبعون: قال بعض العلماء في توجيه كون درهم القرض بشمانية عشر: إن درهم القرض بدرهمين من دراهم الصدقة كما ورد، ودرهم الصدقة بعشرة، ودرهم القرض يرجع للمقرض بدله، وهو بدرهمين من جملة مبلغ أصله عشرون يتأخر للمقرض منه ثمانية عشر.

وسمعت شيخنا الإمام العلامة نور الدين المحلي يذكر ذلك [في] الأصول. ثم رأيت في «نوادير الأصول» للحكيم الترمذي ما نصه: «معنى الحديث أن المتصدق يحسب له الدرهم الواحد بعشرة، فدرهم صدقته وتسعة زائدة فصارت له عشرة، والقرض ضوعف له فيه بدرهم والتسعة مضاعفة فهذه ثمانية عشر، ودرهم القرض لم يحسب لأنه يرجع إليه، فيبقى التضعيف وهو ثمانية عشر، وفي الصدقة لم يرجع إليه فصارت له عشرة».

التبیه الرابع والسبعون: قال ابن دحية: «في عرض الجنة عليه كرامة عظيمة لأنه كان يعرض الجنة على أمته ليشتروها كما قال عن ربه تبارك وتعالى: ﴿إِنِ اللّٰهُ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَغَدَاً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللّٰهِ فَاسْتَبَشِرُوا بِنِعْمِ اللّٰهِ الَّذِي بَاتِعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

فأراد الله تعالى أن يُعَين نبيه ﷺ ما يعرضه على أمته ليكون وصفه لها عن مشاهدة ولأنه كان يدعو الناس إلى الجنة وهي الدار التي هيأها الله تعالى لضيافة عباده المؤمنين وبعثه ﷺ داعياً إليها فأراد الله تعالى أن يُريه الدار وكثرة ما أعد فيها من النعيم والكرامة لئلا يهين بالدعوة وليعلم أنها تسع الخلائق كلهم ولا تمتلئ حتى ينشئ الله لها خلقاً، كما ثبت في الحديث. ويُحتمل أنه إنما أراه إياها ليعلم خيصة الدنيا في جنب ما رآه فيكون في الدنيا

أزهد وعلى الشدائد أصبر. فقد قيل: حبذا محنة تؤدي بصاحبها إلى الرخاء وبؤس نعمة تؤدي بصاحبها إلى البلاء. ويحتمل أن الله تعالى أراد ألا يكون لأحد كرامة إلا ولمحمد مثلها، ولما كان لإدريس كرامة دخول الجنة قبل يوم القيامة أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون [ذلك] أيضاً لصفته ونجته محمد ﷺ.

التبیه الخامس والسبعون: قال ابن دحية: «إنما عرضت عليه النار ليكون آمناً يوم القيامة، فإذا قال سائر الأنبياء: نفسي نفسي فتبينا يقول: «أمتي أمتي، وذلك حين تُشجر جهنم، ولذلك أمن الله محمداً ﷺ، فقال عز من قائل: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ﴾ [التحریم: ٨] والحكمة في ذلك أن يفرع إلى شفاعته، ولو لم يؤمنه لكان مشغولاً بنفسه كغيره من الأنبياء، لأنهم لم يروا قبل يوم القيامة شيئاً منها، فإذا رأوها جزعوا وكفّت ألسنتهم عن الخطبة والشفاعة من هؤلها وشغلتهم أنفسهم عن أهمهم، وهو ﷺ قد رآها قبل ذلك فلا يفرع منها مثل ما فرعوا فيقدر على الخطبة وهو المقام المحمود، لأن الكفار لما كانوا يكذبونه ويستهزئون به ويؤذونه أشد الأذى أراه الله سبحانه وتعالى النار التي أعدها للمُستخفين به تطيباً لقلبه وتسكيناً لفرؤاده وللإشارة إلى أن من طيب قلبه بإهانة أعدائه والانتقام منهم فأولى أن يُطيبه في أولياته بالشفاعة والإكرام، وليعلم مئة الله عليه حين أنقذهم منها ببركته وشفاعته.

التبیه السادس والسبعون: لم يَر مالكا في صورته التي يراه عليها المُعذَّبون في الآخرة، ولو رآه على تلك الصورة لما استطاع أن ينظر إليه.

التبیه السابع والسبعون: قال الطيبي: «إنما بدأ مالك رسول الله ﷺ، بالسلام ليزيل ما استشعر من الخوف منه بخلاف سلامه على الأنبياء ابتداءً».

التبیه الثامن والسبعون: ذكر ﷺ أنه لم يلقه ملك من الملائكة إلا ضاحكاً مستبشراً إلا مالكا خازن النار، وذلك أنه لم يضحك لأحد قبله، ولا هو ضاحك لأحد بعده. قال الله تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ﴾ [التحریم: ٦] وهم مُوَكَّلون بغضب الله تعالى، فالانضاب لا يزايلهم أبداً.

وفي هذا الحديث معارضة لما رواه الإمام أحمد وأبو الشيخ عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لجبريل: «مالي لم أر ميكائيل ضاحكاً قط؟» قال: «ما ضحك منذ خلقت النار»^(١). وهذا الحديث يعارضه ما رواه الدارقطني وغيره أن رسول الله ﷺ تبسّم في الصلاة، فسئل عن ذلك فقال: «رأيت ميكائيل راجعاً في طلب القوم وعلى جناحيه العُبار، فضحك إليّ، فتبسّمتُ إليه» قال السهيلي: «وإذا صحَّ الحديثان فوجه الجمع بينهما أن يكون لم

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢٢٤/٣ وابن كثير في البداية والنهاية ٤٦/١.

يضحك منذ خُلقت النار إلا هذه المرة التي ضحك فيها لرسول الله ﷺ، فيكون الحديث عاماً يُراد به الخصوص أو يكون الحديث الأول حَدَّثَ به رسول الله ﷺ قبل هذا الحديث الآخر، ثم حَدَّثَ بَعْدَ بما حَدَّثَ به من ضحكك إليه.

التبیه التاسع والسبعون: المناسبة بين المعراج التاسع - وهو المستوى الذي سُمِعَ فيه صريف الأقلام - والعام التاسع من سني الهجرة. قال ابن دحية: «كان في العام التاسع غزوة تبوك وفيها خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى الشام في العدد الذي لم يَتَمَّ قَبْلَهُ مثله، كان العدد ثلاثين ألفاً، وكانت الشُّقَّةُ بعيدة، ولهذا لم يُورَّ فيها، بل أَعْلَمَ النَّاسَ بِوَجْهِهِمْ ليكون تَأْهُبُهُمْ بحسب ذلك، ومع هذا الاجتهاد في الاستعداد لم يَلْقَ ﷺ حَزْباً ولا افتتح بلداً، لأنَّ أَجَلَ فتح الشام لم يكن حَلًّا بعد، ثابَّتَسَخَ العزمُ بالقَدَرِ وبجفاف القلم ورجع ﷺ إلى المدينة وعلى المسلمين الوقار والسكينة من غير اضطراب عند انصراف العزيمة.

التبیه الثمانون: صريف الأقلام، بالصاد المهملة وكسر الراء وبالفاء. قال القاضي والنووي رحمهما الله تعالى: هو صوت حركتها وجريانها على ما تكتبه الملائكة من أفضية الله تعالى ووحيه وما ينسخونه من اللوح المحفوظ أو ما شاء الله من ذلك أن يُكْتَبَ ويُزْفَعَ لما أَرَادَهُ من أمره وتدبيره. وفيه حجة لأهل الشُّنَّةِ في الإيمان بصحَّةِ كتابة الوحي والمقادير في كتب الله تعالى من اللوح المحفوظ بالأقلام التي هو يعلم كيفيتها على ما جاءت به الآيات في كتابه والأحاديث الصحيحة، وأن ما جاء من ذلك على ظاهره، لكن كيفية ذلك وصورته وجنسه لا يعلمه إلا الله تعالى، وَمَنْ أَطْلَعَهُ على شيءٍ منه من ملائكته ورُسُلِهِ. وما يَتَأَوَّلُ هذا وَيُجِيلُهُ إلا ضعيف النظر والإيمان، إذ جاءت به الشريعة، ودليل العقول لا يُجِيلُهُ، والله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، حِكْمَةٌ من الله وإظهاراً لما يشاء من غَيْبِهِ لمن يشاء من ملائكته وسائر خَلْقِهِ وإلا فهو غَيْبِيٌّ عن الكتب والاستدكار.

التبیه الحادي والثمانون: قال ابن دحية: «قد عَلِمَ أن الأقلام إنما تكتب الأقدار، والقَدَرُ المكتوب قديم، وإنما الكتابة حادثة. وظاهر الأخبار أن اللوح المحفوظ فُرِغَ من كتابته وجفَّ القلم بما فيه قبل خَلْقِ السموات والأرض، وإنما هذه الكتابة المحدودة في صُحُفِ الملائكة كالفروع المُتَسَخَّخَةِ من الأصل، وفيها المحو والإثبات على ما ورد في الأثر. وأصلُ اللوح المحفوظ الذي انْتَسَخَ منه اللوح هو علم الغيب القديم في أزل القَدَمِ وهو الذي لا مَحْوَ فيه ولا إثبات حيث لا لَوْحَ ولا قَلَمَ.

والحكمة البالغة - والله أعلم - في سماعه لصريف الأقلام حصول الطمأنينة بجفاف القلم بما في القَدَرِ حتى يمكن التفويض للقَدَرِ لا للسبب، وحتى يُتَقَاطَى السببُ تَعَبُداً لا

تَعَوِّذًا، وبذلك يَتِمُّ التَّوَكُّلُ وَيَشْكُنُ الاضطراب عند اختلاف الأسباب. وقال القرطبي: «وَأَصْلُ الْأَقْلَامِ الموصوفة هنا، هي الْمُعَبَّرُ عنها بِالْقَلَمِ الْمُقْسَمِ به في قوله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١] ويكون القلم هذا للجنس».

التبیه الثاني والثمانون: المناسبة بين المعراج العاشر وهو الرفرف حين لقي الله تعالى وحضر بحضرة القدس وقام مقام الأنس وزُفِعَ الحجاب وشُيِعَ الخطاب، وكان قاب قوسين أو أدنى لا بالصورة بل بالمعنى، أن العام العاشر اجتمع فيه اللقاءان: أحدهما: لقاء البيت وحج الكعبة ووقوف عرفة وإكمال الدين وإتمام النعمة على المسلمين، واللقاء الثاني: بقارب البيت وكانت فيه الوفاة واللقاء والانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء والعروج بالروح الكريمة إلى المقعد الصّديق وإلى الموعد الحق وإلى الوسيلة وهي المنزلة الرفيعة التي لا تنبغي إلا لعبد واحد اختاره الله تعالى وهو محمد ﷺ كما ورد في صحيح الخبر أنه سُئِلَ عن الوسيلة فقال: «درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله فأرجو أن أكون إياه»^(١) ورجاؤه مُحَقَّقٌ ﷺ، وخاطره مُوَفَّقٌ.

التبیه الثالث والثمانون: قال ابن دحية: خُصَّ رسول الله ﷺ بالرؤية والمكالمة لأنه صاحب الشفاعة يوم القيامة، فتوسط قبلها لئلا يقع له جِشْمَةُ البديهة كما يقع لغيره من الأنبياء فأراد الله سبحانه وتعالى أن يزيل عنه الانقباض قبل ذلك ليتمكن من المقام المحمود وأهله قبل المشهد الأعلى للمشاهدة والكلام.

التبیه الرابع والثمانون: قوله تعالى: ﴿وَأَعْطَيْتِكَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ عَرْشِي﴾، إلى آخر الحديث. قال الثوربشيتي: ليس يعني بقوله: «أَعْطَيْتُ» أنها أنزلت عليه بل المعنى أنه استجيب له فيما لُقِّنَ من الآيتين: ﴿عُفِّرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] إلى قوله تعالى: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولمن يقوم بحقهما من السائلين».

وقال الطيبي: «وفي كلامه إشعار بأن الإعطاء بعد الإنزال لأن المراد منه الاستجابة وهي مسبوقة بالطلب والسورة والمعراج كان بمكة، ويمكن أن يقال هذا من قبيل ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَخْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤] وإنما أُوثِرَ الإعطاء لما عُجِرَ عنه بكنز تحت العرش».

وروى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَعْطَيْتُ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ لَمْ يُقَطِّعَنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي».

(١) أخرجه مسلم ٢٨٨/١ (١١-٣٨٤).

التبیه الخامس والثمانون: الحكمة في تخصيص فرض الصلاة بليلة الإسراء أنه ﷺ لما أُخْرِجَ به رأى تلك الليلة تُعْبَدُ الملائكة، وأن منهم القائم فلا يقعد، والراكع فلا يسجد، والساجد فلا يقعد، فجمع الله تعالى له ولأُمَّته تلك العبادات كلها في ركعة واحدة يُصَلِّيها العبد بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص.

التبیه السادس والثمانون: وفي اختصاص فرضها بليلة الإسراء إشارة إلى عظم شأنها ولذلك اختص فرضها بكونه بغير واسطة بل بمراجعات عدة. قال السهيلي: «وأما فرض الصلاة عليه هنالك، ففيه التبیه على فضلها حيث لم تُفرض إلا في الحضرة القدسية المُطَهَّرة، ولذلك كانت الطهارة من شأنها ومن شرائط أدائها والتبیه على أنها من مناجاة الرب، وأن الرب تبارك وتعالى مُقْبِلٌ بوجهه على المُصَلِّي يناجيه يقول: حَمَدَنِي عَبْدِي أَتَى عَلَيَّ عَبْدِي إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، وهذا مُشَاكِلٌ لِقَرْضِهَا عَلَيْهِ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ حَيْثُ سَمِعَ كَلَامَ الرَّبِّ وَنَاجَاهُ، وَلَمْ يُخْرَجْ بِهِ حَتَّى طَهَّرَ ظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ كَمَا يَتَطَهَّرُ الْمُصَلِّي لِلصَّلَاةِ وَأُخْرِجَ عَنِ الدُّنْيَا بِجَسَمِهِ كَمَا يُخْرَجُ الْمُصَلِّي عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ وَيُحْرَمُ عَلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا مَنَاجَاةَ رَبِّهِ، وَتَوَجُّهَهُ إِلَى قِبْلَتِهِ فِي ذَلِكَ الْحِينِ وَهِيَ بَيْتُ الْمُقَدَّسِ، وَرُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ كَمَا يَرْفَعُ الْمُصَلِّي يَدَيْهِ إِلَى جِهَةِ السَّمَاءِ إِشَارَةً إِلَى الْقِبْلَةِ الْعُلْيَا وَهِيَ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ وَإِلَى جِهَةِ عَرْشِ مَنْ يَنَاجِيهِ وَيُصَلِّي لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى».

التبیه السابع والثمانون: قوله: «قد وضعت عنك خمسا»، كذا في رواية ثابت عن أنس. وفي رواية مالك بن صعصعة: «عشرا»، وفي رواية شريك: «وضع شطرها». قال النووي: «المراد بخط الشطر أنه حُطَّ فِي مَرَّاتٍ بِمَرَاجِعَاتٍ فَلَا يَخَالِفُ رَوَايَةَ ثَابِتٍ». قال الحافظ: «وكذا العشر فكأنه وضع العشر في دفعتين والشطر في خمس دفعات، والمراد بالشطر هنا البعض». قال: «وقد حققت رواية ثابت أن التخفيف كان خمسا، وهي زيادة معتمدة يتعين حمل باقي الروايات عليها». قلت: ويؤيد رواية ثابت ما رواه ابن خزيمة في صحيحه والبيهقي وابن مردويه من حديث مالك بن صعصعة: «فحط عني خمسا»، وفيه: «فما زلت بين موسى وبين ربي يحط عني خمسا خمسا». قال ابن دحية: «ذُكِرَ الشطر أعم من كونه وقع دفعة واحدة».

التبیه الثامن والثمانون: قال أبو طالب الجُمَيجِي فِي كِتَابِ «التَّحِيَّاتِ»: «لَكِنْ قَوْمٌ تَحِيَّةٌ، فَتَحِيَّةُ الْعَرَبِ السَّلَامُ وَتَحِيَّةُ الْأَكَاسِرَةِ السُّجُودُ قُدَّامَ الْمَلِكِ وَتَقْبِيلُ الْأَرْضِ وَتَحِيَّةُ الْفُزْسِ طَرْحُ الْيَدِ عَلَى الْأَرْضِ قُدَّامَ الْمَلِكِ، وَتَحِيَّةُ الْحَبِشَةِ عَقْدُ الْيَدَيْنِ عَلَى الصَّدْرِ بَيْنَ يَدَيْ الْمَلِكِ بِسُكُونٍ، وَتَحِيَّةُ الرُّومِ كَشْفُ غِطَاءِ الرَّأْسِ مِنْ بَعْدِ تَنْكِيْسِ رَأْسِهِ. وَتَحِيَّةُ النُّوبَةِ إِيمَاءُ الرَّجْلِ بِالِدَعَاءِ

بالأصابع وتحية البجاء وضع يد الداخل على كتف الملك، فإن بلغ الخدمة رفعها ووضعها مراراً. وهذه التحيات غالبها مجموعة في الصلاة التي هي خدمة ملك الملوك سبحانه وتعالى، ولهذا ناسب أن يقال في آخرها: «التحيات لله» إشارة إلى أنه تعالى يستحق جميع التحيات.

التبیه التاسع والثمانون: وقع في رواية أنس عن أبي ذر رضي الله عنهما: «فرض الله على أمتي خمسين صلاة» وفي رواية ثابت عن أنس: «فرض الله علي خمسين صلاة كل يوم وليلة». ونحوه في رواية مالك بن صعصعة، فيؤتمل أن يقال في كل من رواية أبي ذر والرواية الأخرى اختصار. ويؤيد قوله في الرواية الأخرى: «إني فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة» إلى آخره. ويقال ذكر الفرض عليه يستلزم ذكر الفرض على الأمة وبالعكس، إلا ما استثنى من خصائصه.

التبیه التسعون: قال ابن أبي جمرة: «الحكمة في كون إبراهيم عليه السلام لم يكلم المصطفى في طلب التخفيف أن مقام الخلة إنما هو الرضى والتسليم، والكلام في هذا الشأن يناهض ذلك المقام. وموسى هو الكلیم، والكلیم أُعطي الإدلال والانبساط». وقال القرطبي: «الحكمة في تخصيص موسى عليه الصلاة والسلام بمراجعة النبي ﷺ في أمر الصلاة، لعلها لكون أمة موسى كُلفت من الصلوات ما لم يُكلف به غيرها من الأمم فتقلت عليهم فأشفق موسى على أمة محمد - عليهما الصلاة والسلام - من مثل ذلك ويشير إلى ذلك قول موسى: «إني قد جرّبت الناس قبلك».

وقال غيره: لعلها من جهة أنه ليس في الأنبياء من له أتباع أكثر من موسى، ولا من له كتاب أكبر ولا أجمع للأحكام من كتابه، فكان من هذه الجهة مضاهياً للنبي ﷺ، فناسب أن يتمنى أن يكون له مثل ما أنعم به عليه من غير أن يريد زواله عنه، وناسب أن يُطلّعه على ما وقع له وينصحه فيما يتعلق به. ويُؤتمل أن موسى عليه السلام لما غلب عليه في الابتداء الأسف على نقص حظ أمة بالنسبة لأمة محمد ﷺ حتى تمنى ما تمنى أن يكون منهم، استدرك ذلك ببذل النصيحة لهم والشفقة عليهم ليزيل ما عساه أن يتوهم عليه مما وقع منه في الابتداء، والعلم عند الله تعالى.

قال القرطبي: «وأما قول من قال إنه أول من لقيه بعد الهبوط فليس بصحيح، لأن حديث مالك بن صعصعة أنه رآه في السادسة وإبراهيم في السابعة، وهو أقوى إسناداً من حديث شريك الذي فيه أنه رأى موسى في السابعة». قال الحافظ: «إذا جمعنا بينهما بأنه لقيه في الصعود في السادسة، وصعد موسى معه إلى السابعة فلقبه فيها بعد الهبوط ارتفع الإشكال وبطل الرد».

قال السهيلي: «وأما اعتناء موسى عليه السلام بهذه الأمة وإلحاحه على نبيها أن يشفع

لها ويسأل التخفيف عنها فلقوله - والله أعلم - حين قضي إليه الأمر بجانب القربى ورأى صفات أمة محمد عليه السلام في الألواح وجعل يقول: إني أجد في الألواح أمة صفتهم كذا: اللهم اجعلهم أمتي. فيقال له: تلك أمة محمد. قال: اللهم اجعلني من أمة محمد، وهو حديث مشهور في التفاسير. فكان إشفاقه عليهم واعتناؤه بأمرهم يفتني بالقوم من هو منهم لقوله: اللهم اجعلني منهم.

التبيه الحادي والتسعون: في قول موسى: «قد عالجت الناس قبلك» إلى آخره دليل على أن علم التجربة زائدة على العلوم، ولا يُقدَّر على تحصيله بكثرة العلوم ولا يُكتسب إلا بها، أعني التجربة، لأن النبي ﷺ أعلم الناس وأفضلهم سِيِّمًا وهو حديث عهد بالكلام مع ربه تبارك وتعالى وورد إلى موضع لم يطأه ملك مُقَرَّب ولا نبي مُرْسَل، ثم مع هذا الفضل العظيم قال له موسى عليه السلام: «أنا أعلم بالناس منك»، وذكر له العلة التي لأجلها كان أعلم منه بقوله: «عالجت بني إسرائيل أشد المعالجة». فأخبره أنه أعلم منه في هذا العلم الخاص الذي لا يُوجد ولا يُدرك إلا بالمباشرة وهي التجربة.

التبيه الثاني والتسعون: وفيه دليل على جواز الحكم بما أجرى الله تعالى بحكمته من ارتباط العوائد لأن موسى عليه السلام حكَّم على هذه الأمة بأنها لا تُطيق، وذلك سبب ما أخبر به وهو علاج بني إسرائيل، ومن تقدم أقوى وأجلد من يأتي بعد، كما أخبر تعالى بقوله: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩] فرأى موسى أن ما لم يحمله القوي فمن باب أولى ألا يحمله الضعيف فهو بعد مُحَكَّم بأثر الحكمة في ارتباط العادة، مع أن القُدرة صالحة لأن يحمل الضعيف ما لا يحمل القوي. وقد وَرَدَ أن الصلاة التي كُلف بها بنو إسرائيل ركعتان بالغداة وركعتان بالعشي ومع هذا لم يقوموا بذلك.

التبيه الثالث والتسعون: وفي سؤال موسى طلب التخفيف عن هذه الأمة دليل على أن بكاءه أولاً حين صعود النبي ﷺ لم يكن إلا للوجه الذي أبدَّته لا لغيره، لأنه لو كان لغير ذلك لبكى حين رجوع النبي ﷺ أو سَكَت، ولكنه قام في الخدمة والنصيحة للنبي ﷺ، فلما أن كان بكاءه أولاً للوجه الذي ذكرناه ولم يصادف ما أشرنا إليه وإنما كانت هذه النِّفحة من النِّفحات الخاصة بالنبي ﷺ، تعرَّض أيضاً لهذه الأمة بطلب التخفيف، فصادف اعتراض هذه النِّفحة في موضعها لأنها خاصة بهذه الأمة. وتكلم هو ﷺ في حَقِّها فأشعِف فيما أراد وحقَّق الله عز وجل دعاءه إذ ذاك وَرَدَ الخمسين إلى خمس، وزاد بالإفضال فجعل الحسنة عَشْرًا في الثواب عليها، فأزال الله تعالى عن الأمة فَرَضَ تلك الصلوات وأبقى لهم ثوابها تفضلاً منه وإحساناً.

التبيه الرابع والتسعون: قال ابن أبي جَمْرَةَ: «في الحديث دليل للصوفية حيث

يقولون: «حسنات الأبرار سيئات المقربين»، لأن إبراهيم عليه السلام لم يتكلم في هذا الشأن بسبب أن مقامه أعلى من الكلام، فلو تكلم لكان ذلك في حقه سيئة بالنسبة إلى مقامه الخاص، وموسى عليه السلام كان كلامه مما يتقرب به إلى مقامه الخاص، كل منهم له مقام خاص لا يتعداه.

التبیه الخامس والتسعون: قال ابن دحية: «في هذه المراجعة التي وقعت بين موسى والنبي عليهما السلام فوائد منها: تكرار الشفاعة في القصة الواحدة إلى أن يتم مقصود الشافع، ومنها أن الأمر إذا انتهى إلى حد الإلحاح كان الأولى الترك، ومنها تعظيم الأمر الذي لا يُقدَّر عليه، ومنها الرجوع إلى المُشير الناصح، ومنها أن الشافع لا يتوقف على طلب المشفوع له في ذلك، ومنها أن الشافع يُقيم عُذر المشفوع له عند المشفوع عنده في ذلك، ومنها أنه لا يمتنع من الشفاعة وإن كان داخلاً فيها».

التبیه السادس والتسعون: إنما امتنع النبي ﷺ من طلب التخفيف في المرة العاشرة لما أمره موسى بذلك لأمرين:

أحدهما: أن الأمر إذا انتهى إلى حد الإلحاح كان الأولى الترك.

ثانيهما: أن يكون النبي ﷺ تفرس أن هذا العدد لا يُخطئ عنه فاستحى أن يسأل في مظنة الرد، ووجه التفرس أن الله تعالى أدرج التخفيف خمساً وخمساً من خمس إلى خمس. فالقياس أنه إن خُفَّ بخذف الخمسة الأخيرة ارتفعت الصلاة بجملتها، وقد عَلِمَ أنه لا بُدَّ من وظيفة، فلماذا ترك السؤال، وكشف الغيب أن العلم القديم تعلق ببقاء هذه الخمس، ولهذا بَقِيَتْ، فصَدَقَت الفراسة، وأصابَت الفكرة، ولهذا جاء في بعض الطُرق أن النبي ﷺ لما امتنع من المراجعة في العاشرة نادى مُنادٍ: «أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي».

التبیه السابع والتسعون: قال ابن دحية: «ذُلت مراجعته ﷺ في طلب التخفيف تلك المرات كلها، لأنه عَلِمَ أن الأمر في كل مرة لم يكن على سبيل الإلزام بخلاف المرة الأخيرة، ففيها ما يُشعر بذلك لقوله تعالى: ﴿مَا يَدُلُّ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩].»

التبیه الثامن والتسعون: قال ابن أبي جَمْرَةَ: «في امتناع النبي ﷺ في المرة العاشرة من طلب التخفيف دليل على أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد إسعاد عبده جعل اختياره في مرضاة ربه، لأن النبي ﷺ جعل اختياره وإيثاره لِمَا أراد الحق تبارك وتعالى إنفاذه وإمضائه، وهو فرض الصلوات الخمس، وذلك تكريم له ﷺ وترفيه، لأنه لو رجع لطلب التخفيف فلم يُخَفَّف كما خُفَّف أولاً لكان اختياره مخالفاً للمقدور. فلما أن اختار وأُشِيف في اختياره كان دليلاً على ما استدللنا عليه وهو علو منزلته ﷺ، فإنه ما دام يطلب التخفيف أُشِيف في مناه، ففي كل حال من طلب ومن عدم طلب كان اختياره موافقاً للمقدور».

وفيه دليل للصوفية حيث يقولون: «إن الحال حامل (لا محمول)»، لأن النبي ﷺ لما أن ورد عليه حال الإشفاق على أمته بادر إلى طلب التخفيف عنهم ولم ينظر لغير ذات، ثم لما وَرَدَ عليه حال الحياء من الله تعالى لم يلتفت لأُمته إذ ذاك ولا طلب شيئاً.

التبیه التاسع والتسعون: في هذا الحديث دليل على أن قَدَرَ اللهُ تعالى على قِسْمَيْنِ، كما قدمنا. فالقَدَرُ الذي قَدَّرَهُ وَقَدَّرَ أَلَا يَنْفِذُ بِسَبَبٍ وَاسْطَظَّةٍ أَوْ دُعَاءٍ هُوَ قَرَضُهُ هُنَا لِلْخَمْسِينَ صَلَاةً لِأَنَّهُ تَعَالَى لِمَا أَنْ أَمَرَ بِالْخَمْسِينَ أَوَّلًا وَسَبَقَتْ إِرَادَتُهُ أَلَا يَنْفِذُ ذَلِكَ جَعَلَ بِحِكْمَتِهِ مُوسَى هُنَاكَ سَبَبًا لِرَفْعِ ذَلِكَ. وَالْقَدَرُ الَّذِي قَدَّرَ إِنْفَاذَهُ وَلَا يَزِيدُهُ رَادَةً هُوَ قَرَضُهُ لِلْخَمْسِ صَلَوَاتٍ لِأَنَّهُ تَعَالَى لِمَا أَنْ أَمَرَ بِهَا وَسَبَقَتْ إِرَادَتُهُ بِإِمضَائِهَا لَمْ يَنْفَعِ كَلَامُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذْ ذَاكَ لِأَنَّهُ مِنَ الْقَدَرِ الْمُحْتَمِ.

التبیه الموفى مائة: قال ابن دحية: «فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدِي﴾ [ق: ٢٩]؟ فإن كان المراد لا يُبَدِّلُ الْخَبَرَ فكيف يطلق الحديث، لأن السياق في الأحكام فلماذا نَسَخَ الْخَمْسِينَ إِلَى خَمْسٍ وَتَبَدَّلَ النَّسْخَ لَا يَبْقَى، فإن كان المراد لا يُبَدِّلُ الْحُكْمَ فَقَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ النَّسْخَ فِي الْإِحْكَامِ جَائِزٌ وَقَدْ وَقَعَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ إِلَى خَمْسٍ. فالجواب أنه تعالى إذا أخبر عن الحكم أنه مؤبد استحال التبديل والنسخ حينئذ لأجل العلم، وقد أخبر الله تعالى أنه الفريضة أي أبدها فلا يُبَدَّلُ الْخَبَرَ وَلَا يُتَوَقَّعُ النَّسْخُ بَعْدَ ذَلِكَ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ».

ويكون المراد أنه تعالى وعد هذه الأمة على السنة الملائكة أو في صحفها أن لهم أجر خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فلما نَسَخَهَا إِلَى خَمْسٍ حَصَلَ لِلْعَدَدِ نَقْصٌ، وَإِنْ الْأَجْرُ الْمُرَادُ لَمْ يَنْقُصْ لِأَنَّ الْحَسَنَةَ بَعَشْرَ أَمْثَالِهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُنَّ خَمْسٌ وَهُنَّ خَمْسُونَ﴾ أَي هُنَّ خَمْسٌ عِدْدًا وَخَمْسُونَ اعْتِدَادًا، ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ فِي الصِّيَامِ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَأَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ فَكَأَنَّمَا صَامَ الدَّهْرَ»^(١)، بِتَأْوِيلِ أَنَّ الْحَسَنَةَ بَعَشْرَ أَمْثَالِهَا، فَسَنَةٌ وَثَلَاثُونَ فِي عَشْرَةِ بِلْثَمَائَةِ وَسِتِّينَ عِدَدِ أَيَّامِ السَّنَةِ.

واعْتَبِرْتَ الصَّلَاةَ بِمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ كُلِّ صَلَاةٍ مِنْ وَضوءٍ وَنَحْوِهِ، فَوُجِدَ لَهَا مَا يَأْتِي عَلَى سَاعَتَيْنِ وَبَعْضُ السَّاعَةِ غَالِبًا، فَعَلِمَ بِذَلِكَ أَنَّ الْخَمْسِينَ لَوْ اسْتَقَرَّتْ عَلَى أُمَّةٍ لَأَسْتَوْعِبَتْ الْيَوْمَ وَاللَّيْلَةَ لِمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ كُلِّ صَلَاةٍ مِنْ طَهَارَةٍ وَغَيْرِهَا، وَكَانَتْ الطَّهَارَةُ وَاجِبَةً التَّجْدِيدِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ، ثُمَّ نُسِخَ الْوَجُوبُ إِلَى النَّدْبِ، فَكَانَ الْمُصَلِّيُّ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ لِهَذِهِ الْخَمْسِ اسْتَوْعَبَ الدَّهْرَ صَلَاةً وَكَأَنَّهُ أَيْضًا اسْتَوْعَبَ الدَّهْرَ صِيَامًا.

(١) أخرجه مسلم ٨٢٢/٢ (٢٠٤-١١٦٤).

والظاهر أن نقص الخمسين إلى خمس ليس من تبديل القول لأنه تبديل تكليف، وأما بعد الإخبار بالخمس والخمسين فتبديل أخبار.

التبويه الحادي والمائة: قال أبو الخطاب وتبعه ابن المنير: «جواز النسخ قبل التمكن من الفعل قبل دخول الوقت مذهب أهل السنة خلافاً للمعتزلة، وجرى كل فريق على قاعدته وعقيدته. فعند أهل السنة التكليف على خلاف الاستطاعة جائز، بل واقع إذ الأفعال كلها مخلوقة لله تعالى، والعبد مطالب بما لا يقدر على إيجاده ولا يتمكن من التأثير في إحرازه، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفافات: ٩٦] بتقدير أن «ما» هنا مصدرية، والمعتزلة تجعل «ما» هنا موصولة وجرّوا على عقيدتهم في اعتقادهم أن العبد يخلق فعل نفسه ويوجد طاعة ربه باستطاعته واختياره، ولا يسقط التكليف عندهم على خلاف الاستطاعة فلا يتصور النسخ قبل التمكن من الفعل كما تتصور قاعدته. واستدل أهل السنة على جواز النسخ قبل التمكن بأنه وقع. وأي دليل على الجواز أتم من الوقوع؟

ومثلوا ذلك بقصة الذبيح فإن الله تعالى أمر إبراهيم بذبح ولده، ثم خفف ذلك ونسخه إلى الفداء قبل أن يمضي زمن يسع الذبح ولا يمكن فيه الفعل. ومن هنا ضاقت على المعتزلة المضايق حتى غالطوا في الحقائق، واختلفوا في الأجوبة، فمنهم من قال لم يأمره بالذبح لأن ذلك كان في المنام لا في اليقظة، ولا عقل أضل من عقل من زعم أنه استظهر على نبي في واقعة هو صاحبها وقضى فيها ومنه ظهرت، وعنه أثيرت، فإن الذبيح قال فيما حكاها الله تعالى وصوّبه ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصفافات: ١٠٢]، ونحن نقول إن راوي الحديث أعرف بتأويله وتفسيره، وأقعد بتبيينه وتنزيله.

وحتى لو تعارض تأويلان قدّمنا تأويل صاحب الواقعة لأنه أفهم لها. فكيف لا يُقدّم تأويل الذبيح النبي الذكي المُسَدَّد المُصَوَّب من رب العالمين على تأويل المُبتَدِع الضال الحائر المشكين؟ ومنهم من قال: أمر ولكن بالمُقَدّمات: الشدّ والثّل والصروع وتناول «المُدّية». وهذا من الطراز الأول لتهافت القول، فإن إبراهيم قال: ﴿إِنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصفافات: ١٠٢] ولم يقل أصرعك، وأيضاً ليست المقدمات «بلا»، ولا سيما في حق إبراهيم عليه السلام الذي علم أن الحال لا ينتهي بغير الاضطجاع خاصة بما لا يتعلّق حينئذ للفداء، فهذا أحمق عن الشنّ وجنوح إلى العناد والغبن.

ومنهم من قال: «أمر بالذبح وفعل، ولكن انقلبت السكين أو لم تقطع، أو انقلبت العنق حديداً، وهذا من التخطّط المردود، وحاصله الثقل بالتقدير وهو الكذب بعينه، ومنهم من قال: «ذبح والتحم»، وهذه مُعَايَرَةُ النقول ومكابرة العقول. وذلك أن الأمر لو كان على هذه المثابة

لم يقع الاقتصار في الآية على حكاية ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصفافات: ١٠٣] ولكان ذِكْرُ الذُّبْحِ أَوْقَعُ فِي الْإِبْتِلَاءِ وَلَسَقَطَتْ فَائِدَةُ الْفِدَاءِ. فَبَطُلَ مَا قَالُوهُ، وَتَعَيَّنَ الْقَوْلُ بِجَوَازِ النَّسْخِ قَبْلَ التَّمَكُّنِ بِدَلِيلِ وَقُوعِهِ فِي قِصَّةِ الذُّبْحِ، فَلَا يُمْكِنُهُمْ تَرْدِيدُ مِثْلِهَا فِي قِصَّةِ الْإِسْرَاءِ إِذْ لَا خَفَاءَ بِأَنَّهُ ﷺ أَمَرَ فِي حَقِّ الْأُمَّةِ بِخَمْسِينَ صَلَاةً ثُمَّ نُسِخَ مَا نُسِخَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ وَقْتُ الصَّلَاةِ فَضَلًّا عَنْ أَنْ يَمْضِيَ زَمَانٌ يَسْفَعُهَا.

قال شيخنا السهيلي: وأما فرض الصلوات خمسين ثم حُطَّ مِنْهَا عَشْرًا بَعْدَ عَشْرِ إِلَى خَمْسِ صَلَوَاتٍ وَقَدْ رُوِيَ أَيْضًا أَنَّهَا حُطَّتْ خَمْسًا بَعْدَ خَمْسٍ. وَقَدْ يُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَ الرَّوَايَتَيْنِ لِدُخُولِ الْخَمْسِ فِي الْعَشْرِ، فَقَدْ تُكَلِّمُ فِي هَذَا النِّقْصِ مِنَ الْفَرِيضَةِ أَهْوُ نَسْخِ أَمْ لَا؟ عَلَى قَوْلَيْنِ. فَقَالَ قَوْمٌ: هُوَ مِنْ بَابِ نَسْخِ الْعِبَادَةِ قَبْلَ الْعَمَلِ بِهَا، وَأَنْكَرَ أَبُو جَعْفَرِ النَّحَّاسُ هَذَا الْقَوْلَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: البناء على أصله ومذهبه في أن العبادة لا يجوز نسخها قبل العمل لها لأن ذلك عنده من البداء، والبداء محال على الله سبحانه.

الثاني: أن العبادة إن جاز نسخها قبل العمل بها عند من يرى ذلك فليس يجوز عند أحد نسخها قبل هبوطها إلى الأرض وهبوطها إلى المخاطبين... إنما هي شفاة شفقها رسول الله ﷺ لأُمَّةٍ وَمَرَاجِعَةٌ رَاجِعُهَا رَبُّهُ لِيخْفَفَ عَنْ أُمَّتِهِ وَلَا يُسْمَى مِثْلَ هَذَا نَسْخًا.

أما مذهب أبي جعفر النحاس في أن العبادة لا تُنسخ قبل العمل بها وأن ذلك بداء فليس بصحيح لأن حقيقة البداء أن يبدو للآمر رأي يتبين له الصواب فيه بعد أن لم يكن تبينه، وهذا مُحَالٌ فِي حَقِّ مَنْ يَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ بِعِلْمٍ قَدِيمٍ. وَلَيْسَ النَّسْخُ مِنْ هَذَا فِي شَيْءٍ، إِنَّمَا النَّسْخُ تَبْدِيلُ حُكْمٍ بِحُكْمٍ، وَالْكَلِّ سَابِقٍ فِي عِلْمِهِ وَمَقْتَضَى حِكْمَتِهِ، كَنَسْخِ الْمَرَضِ بِالصِّحَّةِ وَالصِّحَّةِ بِالْمَرَضِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَأَيْضًا بَأَنَّ الْعَبْدَ الْمَأْمُورَ بِجِبِّ عَلَيْهِ عِنْدَ تَوَجُّهِ الْأَمْرِ إِلَيْهِ ثَلَاثَ عِبَادَاتٍ: الْفِعْلُ الَّذِي أَمَرَ بِهِ، وَالْعَزْمُ عَلَى الْإِمْتِثَالِ عِنْدَ سَمَاعِ الْأَمْرِ، وَاعْتِقَادُ الْوَجُوبِ إِنْ كَانَ وَاجِبًا، فَإِنْ نُسِخَ الْحُكْمُ قَبْلَ الْفِعْلِ فَقَدْ حَصَلَتْ فَائِدَتَانِ: الْعَزْمُ، وَاعْتِقَادُ الْوَجُوبِ، وَعَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ مِنْهُ عِلْمًا مُشَاهِدَةً. فَصَحَّ امْتِحَانُهُ لَهُ وَابْتِحَارُهُ إِيَّاهُ، وَأَوْقَعُ الْجَزَاءُ عَلَى حَسَبِ مَا عُلِمَ مِنْ نِيَّتِهِ وَالَّذِي لَا يَجُوزُ إِلَّا هُوَ نَسْخُ الْأَمْرِ قَبْلَ نَزْوِلِهِ وَقَبْلَ عِلْمِ الْمُخَاطَبِ بِهِ. وَالَّذِي ذَكَرَ النَّحَّاسُ مِنْ نَسْخِ الْعِبَادَةِ بَعْدَ الْعَمَلِ بِهَا لَيْسَ هُوَ حَقِيقَةُ النَّسْخِ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ الْمَأْمُورَ بِهَا قَدْ مَضَتْ وَإِنَّمَا جَاءَ الْخِطَابُ بِالنَّهْيِ عَنْ مِثْلِهَا لَا عَنْهَا. وَقَوْلُنَا فِي الْخَمْسِ وَالْأَرْبَعِينَ صَلَاةً الْمَوْضُوعَةَ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأُمَّتِهِ. أَحَدٌ وَجْهَيْنِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ نَسْخٌ مَا وَجِبَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَدَائِهَا، وَرَفَعَ عَنْهُ اسْتِمْرَارُ الْعَزْمِ وَاعْتِقَادُ الْوَجُوبِ. وَهَذَا قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ نُسِخَ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَنُسِخَ عَنْهُ مَا وَجِبَ

عليه من التبليغ، فقد كان في كل مرة عازماً على تبليغ ما أُبَيَّرَ به [ورقزل أبي جعفر إنما كان شافعاً ومُراجِعاً يَنْفِي النُّسْخَ فَإِنَّ النُّسْخَ قَدْ يَكُونُ عَنْ سَبَبٍ مَعْلُومٍ فَشَفَاعَتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأُمَّتِهِ كَانَتْ سَبَباً لِلنُّسْخِ لَا مُبْطِلَةً لِحَقِيقَتِهِ، وَلَكِنَّ الْمَنْسُوخَ مَا ذَكَرْنَا مِنْ حُكْمِ التَّبْلِيغِ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ قَبْلَ النُّسْخِ وَحُكْمِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ فِي خَاصَّتِهِ وَأَمَّا أُمَّتُهُ فَلَمْ يُنْسَخْ عَنْهُمْ حُكْمُ [إِذْ] لَا يُتَصَوَّرُ نَسْخَ الْحُكْمِ قَبْلَ وَصُولِهِ إِلَى الْمَأْمُورِ بِهِ. وَهَذَا كُلُّهُ أَحَدُ الْوَجْهَيْنِ فِي الْحَدِيثِ.

والوجه الثاني: أن يكون هذا خبراً لا تعبداً وإذا كان خبراً لم يدخله النسخ، ومعنى الخبر أنه عليه السلام، أَخْبَرَهُ رَبُّهُ أَنْ عَلَى أُمَّتِهِ خَمْسِينَ صَلَاةً وَمَعْنَاهُ: أَنَّهَا خَمْسُونَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَكَذَلِكَ قَالَ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ: هِيَ خَمْسٌ، وَهِيَ خَمْسُونَ وَالْحَسَنَةُ بَعِشْرَ أَمْثَالِهَا، فَتَأْوَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَنَّهَا خَمْسُونَ بِالْفَضْلِ، فَلَمْ يَزَلْ يَرَاغِعُ رَبَّهُ حَتَّى بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهَا خَمْسُونَ فِي الثَّوَابِ لَا بِالْعَمَلِ.

التبیه الثاني والمائة: قد عُلمَ مما سبق جواز نَسْخِ الْفِعْلِ قَبْلَ التَّمَكُّنِ مِنْ فِعْلِهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ صَحِيحٌ فِي حَقِّهِ ﷺ، وَغَيْرِ صَحِيحٍ بِالنِّسْبَةِ لِأُمَّتِهِ لِاسْتِحَالَةِ النُّسْخِ قَبْلَ الْبَلَاغِ إِذْ شَرَطَ التَّكْلِيفَ تَمَكُّنَ الْمُكَلَّفِ مِنَ الْعِلْمِ بِهِ، أَيَّ إِذَا لَمْ يَكُنِ الْعِلْمُ بِهِ شَرْطاً فَإِنَّ نَسْخَ التَّكْلِيفِ قَبْلَ الْبَلَاغِ يَنَاقِضُ ذَلِكَ.

وقال ابن دحية: «يصح النسخ في حق الأمة أيضاً بأن الإسلام يوجب على كل مسلم الدخول في فروع وفي شرائع الدين بتفصيلها، وكل من آمن بالنبي ﷺ في حياته دخل في الإسلام. على أن هنالك تكاليف منها ما نُزِّلَ وَبَيَّنَّ بِكُلِّ وَجْهٍ، وَمِنْهَا مَا نُزِّلَ مُجْمَلًا مِنْ وَجْهِ وَمُبَيَّنًا مِنْ وَجْهِ، وَمِنْهَا مَا لَمْ يُنْزَلْ بَعْدَ وَسَيُنْزَلُ، وَالْإِيمَانُ وَالْإِلْتِمَامُ شَامِلٌ لِلْجَمِيعِ. فَكَمَا يَجُوزُ نَسْخُ التَّكْلِيفِ بَعْدَ أَنْ يُبْلَغَ بِخُصُوصِيَّةٍ يَجُوزُ أَيْضًا قَبْلَهُ. وَأَكْثَرُ الْقَوَاعِدِ أَنْ مَا وَجِبَ مُجْمَلًا ثُمَّ بَيَّنَّ فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ كَالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، لَمْ يَقْتَرِنَ بِأَوَّلِ وَجُوبِهَا ذِكْرُ أَعْدَادِهَا وَلَا إِعْدَادِهَا وَلَا أَوْقَاتِهَا وَلَا هَيْئَاتِهَا وَلَا شَرَائِطِهَا، بَلْ لِلتَّكْلِيفِ بِهَا مَسْتَقَرٌّ مَعَ هَذِهِ الْإِجْمَالَاتِ، لِأَنَّ الْمُكَلَّفَ بِالْإِلْتِمَامِ الْأَوَّلِ قَدْ دَخَلَ عَلَى التَّزَامِهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَمَنْ سَأَلَهُ عَنِ الْإِسْلَامِ هُوَ «أَنْ تَشْهَدَ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَتَقِيمَ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ وَتُؤَدِيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ شَهْرَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ»^(١). فَجَزَّ التَّكْلِيفَ عَلَيْهِ بِهَذِهِ الْقَوَاعِدِ مُجْمَلَةً غَيْرَ مُبَيَّنَّةً.

التبیه الثالث والمائة: قال ابن دحية: «إِذَا سَمِعْتَ الْعُلَمَاءَ يَتَكَلَّمُونَ عَلَى النُّسْخِ قَبْلَ

(١) أخرجه البخاري ١١٤/١ (٥٠) ومسلم ٤٠/١ (٧٠-١٠).

الفعل فاعلم أنهم أرادوا قبل مُضِيِّ زَمَنِ يَسْعُ الفِعلِ الأول. هذا هو المُخْتَلَف فيه، وإلا فكل نَسْخ مُتَّفَق عليه لا يُتَصَوَّر إلا قبل الفعل لأن ما فُعل مَضَى وانقطع التكليف به والنسخ فيه. قال: وإذا سَمِعْتَهُمْ يقولون نَسْخ التكليف قبل البلاغ متعذر لأن شرط التكليف البلاغ فاعلم أنهم يريدون تنجيز التكليف. هذا هو المشروط بالبلاغ. وأما أصل التكليف عندنا فلا يتوقف على ذلك فإن مذهبنا أن الأمر قديم مُحَقَّق قبل وجود المأمور فضلاً عن بلاغه والله تعالى المُؤَفَّق.

التبیه الرابع والمائة: قال بعض أهل الإشارات: «لما تمكنت المحبة من قلب موسى عليه السلام أضاءت له أنوار نور الطور ليقتبس، فاحتبس فلما نودي في النادي اشتاق إلى المُنادي فكان يطوف في بني إسرائيل فيقول: من يحملني حتى أُبَلِّغ رسالة ربي، ومراده أن تطول المناجاة مع الحبيب، فلما مرَّ عليه النبي ﷺ ليلة المعراج رَدَّدَهُ في أمر الصلاة ليشهد برؤية حبيب الحبيب. وقال آخر: لما سأل موسى عليه السلام الرؤية ولم تحصل له البُغْيَةُ، بقي الشوق يُقْلِقُهُ والأمل يُغْلِلُهُ، فلما تحقق أن سيدنا محمداً ﷺ مُنِح الرؤية وفتح له باب المَرِيَّة أكثر السؤال ليشهد برؤية من قد رأى، كما قيل:

وَأَسْتَشِيقُ الْأَزْوَاحَ مِنْ نَخِيهِ أَرْضِكُمْ لَعَلِّي أَرَاكُمْ أَوْ أَرَى مَنْ يَرَاكُمْ
وَأَنْشُدُ مَنْ لَأَقِينْتُ عَنْكُمْ عَسَاكُمْ تَجُودُونَ لِي بِالْعَطْفِ مِنْكُمْ عَسَاكُمْ
فَأَنْتُمْ حَيَاتِي إِنْ حَيِيْتُ وَإِنْ أُمْتُ فَيَا حَبِيبًا إِنْ مِتُّ عَبْدَ هَوَاكُمْ

وقال آخر:

وَأِنَّمَا السُّرُوفُ فِي مُوسَى يُرَدِّدُهُ، لِيَجْتَلِي حُسْنَ لَيْلَى حِينَ يَشْهَدُهُ
يَبْدُو سَنَاهَا عَلَى وَجْهِ الرُّسُولِ فَيَا لَلَّهِ دَرُّ رُسُولٍ حِينَ أُشْهَدُهُ

وقال آخر: لما جلس الحبيب في مقام القرب، دارت عليه كؤوس الحب، ثم عاد وهلال ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١] بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وبشر ﴿فَأَوْحَى إِلَيَّ عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: ١٠] مِلءُ قلبه وأذنيه. فلما اجتاز بموسى عليه السلام قال لسان حاله لنبينا ﷺ:

يَا وَارِدًا مِنْ أَهْبِلِ الْحَيِّ يُخْبِرُنِي عَنْ جِيزَتِي شَنِفِ الْأَسْمَاعِ بِالْخَبْرِ
نَأَشِدُّكَ اللَّهَ يَا زَاوِي حَدِيثِهِمْ حَدَّثَ فَقَدْ نَابَ سَمْعِي التَّوَمَ عَنْ بَصْرِي
فَأَجَابَ لِسَانُ حَالِ نَبِينَا ﷺ:

وَلَقَدْ خَلَوْتُ مَعَ الْحَبِيبِ وَبَيَّنَّا سِرَّ أَرْقٍ مِنَ الشَّيْبِ إِذَا سَرَى
وَأَبَاحَ طَرْفِي نَظْرَةَ أَمَلْتُهَا فَغَدَوْتُ مَعْرُوفًا وَكُنْتُ مُنْكَرًا

التبیه الخامس والمائة: قوله فلما جاوزت نادى مناد: «أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي»، من أقوى ما يُشْتَدَلُّ به على أن الله تبارك وتعالى كَلَّمَ نبيه ﷺ ليلة الإسراء بغير واسطة.

التبیه السادس والمائة: ظاهر سياق حديث شريك أن موسى هو الذي قال للنبي ﷺ: «فاهبط باسم الله»، لأنه ذكر عقب قوله ﷺ: «قد والله استحييتُ من ربي مما أختلف إليه»، قال: «فاهبط»، وليس كذلك بل الذي قال له «اهبط باسم الله» جبريل، وبذلك جَزَمَ الدَّوْدِيُّ .

التبیه السابع والمائة: قال السهيلي: «فإن قيل: «كيف استباح النبي ﷺ شُرْبَ الماء الذي في القَدَح وهو ملكٌ لغيره، وأملاك الكفار لم تكن أبيحت يومئذٍ ولا دماؤهم؟» فالجواب أن العرب في الجاهلية كان في عُزْف العادة عندهم إباحتهم اللَّبَن لابن السبيل فضلاً عن الماء وكانوا يعهدون بذلك إلى رُغَاتِهِمْ ويشترطونه عليهم عند عَقْدِ إيجارَتِهِمْ أَلَّا يَمْنَعُوا [الرُّسُلَ وَهُوَ] اللَّبَنُ مِنْ أَحَدٍ مَرَّةً بِهِمْ، فكيف بالماء؟ وللحُكْمِ بِالْعُرْفِ فِي الشَّرِيعَةِ أَصُولٌ تُشْهَدُ لَهُ وَقَدْ تَرَجَمَ الْبُخَارِيُّ عَلَيْهِ فِي كِتَابِ الْبَيْعِ وَخَرَجَ حَدِيثُ هِنْدِ بِنْتِ عُثْبَةَ وَفِيهِ: «خَذِي مَا يَكْفِيكَ وَوَلَدِكَ بِالْمَعْرُوفِ».

قُلْتُ: وذكر أئمتنا رحمهم الله تعالى في الخصائص أنه ﷺ أُبِيحَ لَهُ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ مِنْ مَالِكِهِمَا الْمَحْتَاجَ إِلَيْهِمَا إِذَا احْتَاجَ ﷺ إِلَيْهِمَا فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَى صَاحِبِهِمَا الْبَدْلَ لَهُ ﷺ. قال تعالى: ﴿التَّبِيُّ أَوْسَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

التبیه الثامن والمائة: يأتي الكلام على حبس الشمس في المعجزات.

التبیه التاسع والمائة: قوله ﷺ: «فجئء بالمسجد وأنا أنظر إليه» إلى آخره كذا في رواية ابن عباس رضي الله عنهما عند الإمام أحمد والنسائي بسند صحيح، وفي رواية عبد الله بن الفضل عن أبي سلمة عند مسلم قال: «فسألوني عن أشياء لم أثبتها فكُفِرْتُ كَرَباً لَمْ أَكْرَبْ مِثْلَهُ قَطُّ، فَرَفَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِي أَنْظُرَ إِلَيْهِ مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ». وفي رواية جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «فَجَلَى اللهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَطَفِقْتُ أَخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ». ومعنى «جَلَى اللهُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ» كَشَفَ الْحُجُبَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ حَتَّى رَأَيْتُهُ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ أَنَّهُ حُجِّلَ إِلَى أَنْ وَضِعَ بِحَيْثُ يَرَاهُ، ثُمَّ أُعِيدَ، وَيُؤَيَّدُ رِوَايَةَ ابْنِ عَبَّاسٍ السَّابِقَةَ، وَهَذَا أَهْلُغُ فِي الْمَعْجَزَاتِ وَلَا اسْتِحَالَةَ فِي ذَلِكَ. وَقَدْ أَخْضِرَ عَرْشُ بَلْقَيْسٍ فِي أَقْلٍ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ. وَوَقَعَ فِي حَدِيثِ أُمِّ هَانِيٍّ عِنْدَ ابْنِ سَعْدٍ: «فَحُجِّلَ إِلَيَّ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَطَفِقْتُ أَخْبِرُهُمْ عَنْ

آياته». فإن ثبت احتليل أن يكون المراد أنه مثل قريباً كما قيل في حديث: «أريت الجنة والنار» ويؤيد قوله: «حتى جيء بمثاله».

التبيه العاشر والمائة: مجموع ما خالفت فيه رواية شريك غيره: من المشهور اثنا عشر شيئاً: الأول: كون المعراج قبل البعثة وقدّمنا جوابه. الثاني: كونه مناماً وتقدم الكلام على ذلك. الثالث: أمكنة الأنبياء في السموات وقد اتضح أنه لم يضبط منازلهم لكن وافقه الزهري في بعض ما ذكر. الرابع: مخالفته في محل سِدْرَةِ المنتهى وأنها فوق السماء السابعة، مما لا يعلمه إلا الله تعالى، والمشهور أنها في السابعة أو السادسة كما تقدم. الخامس: مخالفته في التّهْرئين وهما النيل والفُرّات وأن عنصرهما في السماء الدنيا، والمشهور في غير روايته أنهما في السماء السابعة وأنهما تحت سِدْرَةِ المنتهى وتقدم جوابه السادس: شقُّ الصُّدر عند الإسراء وقد وافقه روايةٌ غيره كما تقدّم بسط ذلك في أبواب صفاته. السابع: ذكر نهر الكوثر في السماء الدنيا، والمشهور في الحديث أنه في الجنة، وتقدم الكلام على ذلك. الثامن: نسبة الدُّنُو والتَّدْلِي إلى الله تعالى، والمشهور أنه جبريل. قال الخطّابي: «ليس في هذا الكتاب - يعني صحيح البخاري - أشنع ظاهراً ولا أمتنع مذاقاً من هذا - يعني قوله: «ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى» - فإنه يقتضي تحديد المسافة بين أحد المذكورين وبين الآخر وتمييز مكان كل واحد منهما، هذا مع ما في التَّدْلِي من التشبيه، والتمثيل له بالشيء الذي تعلّق من فوق إلى أسفل. قال: فمن لم يبلغه من هذا الحديث إلا هذا القدر مقطوعاً عن غيره، ولم يعتبره بأول القصة ولا بآخرها اشتبه عليه وجهه ومعناه، وكان قَصَّاراه إما ردّ الحديث من أصله وإما الوقوع في التشبيه، وهما خطأ مرغوب عنهما.

«وأما من اعتبر أول الحديث بآخره فإنه يزول عنه الإشكال فإنه مُصْرَحٌ فيهما بأنه كان رؤيا لقوله في أوله: «وهو نائم» وفي آخره: «استيقظ». وفي بعض الرؤيا مثل يُضْرَب لِيُتَقَاوَلَ على الوجه الذي يجب أن يُضْرَف إليه معنى التعبير في مثله، وبعض الرؤيا لا يحتاج إلى ذلك بل يأتي كالمشاهدة».

قال الحافظ: «وهو كما قال ولا التفات إلى من تعقب كلامه بقوله: إن في الحديث الصحيح أن رؤيا الأنبياء وَخِي فلا يحتاج إلى تعبير، لأنه كلام من لم يُعْمِن النظر في هذا المحل، فإن بعض مرثي الأنبياء يقبل التعبير، فمن ذلك قول بعض الصحابة له ﷺ في رؤيا القميص: «فما أولته يا رسول الله؟» قال: «الدين». وفي رؤيا اللبّن قال: «العلم». لكن جزم الخطّابي بأن ذلك كان مناماً، وهذا مُتَعَقَّب بما قدّمناه من ترجيح كونه في اليقظة بالأدلة التي أشرنا إليها.

ثم قال الخطابي مشيراً إلى رفع الحديث من أصله «إن القصة بطولها إنما هي حكاية يحكيها أنس من تلقاء نفسه لم يغرّها إلى النبي ﷺ ولا نقلها عنه ولا أضافها إلى قوله، فحاصل الأمر في النقل أنها من جهة الراوي أنس، وأما شريك فإنه كثير التفرّد بمناكير الألفاظ التي لا يتابعه عليها سائر الرواة». قال الحافظ: «وما نفاه من أن أنساً لم يُسند هذه القصة إلى النبي ﷺ لا تأثير له، فأدنى أمره فيها أن تكون مُرسَل صحابي، فإما أن يكون تلقاها عن النبي ﷺ أو عن صحابي تلقاها عنه. ومثل ما اشتملت عليه لا يُقال بالرأي فيكون لها حكم الرفع. ولو كان لما ذكره تأثير لم يُحتمل حديث أحد روى مثل ذلك على الرفع أصلاً وهو خلاف عمل المُحدّثين قاطبةً فالتعليل بذلك مردود.

ثم قال الخطابي: «إن الذي وقع في هذه الرواية من نسبة التّدليّ للجبار عزّ وجل مخالفة لعامة السلف والعلماء وأهل التفسير ومن تقدم منهم ومن تأخّر. والذي قيل فيه ثلاثة أقوال: أحدها: دنا جبريل من محمد فتدلى أي تقرب منه، وقيل هو على التقديم والتأخير أي تدلى فدنا لأن التّدليّ سبب الدنو. الثاني: تدلى جبريل بعد الانصباب والاندفاع حتى رآه مُتدلياً كما رآه مرتفعاً، وذلك من آيات الله حيث أقدره على أن يتدلى في الهواء من غير اعتماد على شيء وتمسك بشيء. الثالث: دنا جبريل فتدلى محمد ساجداً لربه شكراً على ما أعطاه من الرزق. وقد روي هذا الحديث عن أنس رضي الله عنه من غير طريق شريك فلم يذكر هذه الألفاظ الشنيعة، وذلك مما يُقوي الظن أنها صادرة من شريك».

قال الحافظ: «قد أخرج البيهقي من طريق الأموي في مغازيه عن محمد بن عمر بن أبي سلمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣]، قال: «دنا منه ربه»، وهذا سنَدٌ حسن وهو شاهد قوي لرواية شريك. ثم قال الخطابي: «وفي هذا الحديث لفظة أخرى تفرّد بها شريك أيضاً لم يذكرها غيره، وهي قوله: «فَقَلَّأَ بِهِ» يعني جبريل إلى الجبار تعالى، فقال وهو مكانه: «رَبِّ خَفَّفَ عَنَّا». قال الخطابي: «والمكان لا ينسب إلى الله تعالى، إنما هو مكان النبي ﷺ في مقامه الأول الذي قام فيه قبل هبوطه». قال الحافظ: «وهذا الأخير مُتَعَيِّنٌ وليس في السياق تصريح بإضافة المكان إلى الله تعالى، وأما ما جزم به من مخالفته للسلف والخلف فقد ذكرنا من واقعه». وقد نقل القرطبي عن ابن عباس أنه قال: «دنا الله»، قال القرطبي: «والمعنى دنا أمره وحكمه، وأصل التّدليّ النزول إلى الشيء حتى يقرب منه». قال: «وقيل التّدليّ تدلى الررفرف لمحمد حتى جلس عليه، ثم دنا محمد من ربه». وقد أزال العلماء إشكاله فقال القاضي: «إضافة الدنو والقرب هنا من الله تعالى أو إلى الله تعالى ليس بدنو مكان وقرب مدى ينتهي إليه وإنما دنو

النبي ﷺ من ربه وقُرْبُهُ منه إبانة لعظيم منزلته وتشريف رتبته اعتناءً بشأنه وإظهاراً لما لم يؤته أحداً غيره وإشراق أنوار معرفته ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته، كما قال جعفر بن محمد: الدُّنُوُّ من الله تعالى لا حَدَّ له يَنْتَهِي إليه مَطْمَحُ فَهْمٍ أو مَطْرَحُ وَهْمٍ، ومن العباد بالحدود الغائية المنتهية إلى غاية».

وقال أيضاً: «انقطعت الكيفية عن الدُّنُوِّ، ألا ترى كيف حُجِبَ جبريل عن دنوه ودنا محمد إلى ما أودع قلبه من المعرفة والإيمان فتدلى بسكون قلبه إلى ما أدناه إليه وأزال من قلبه الشك والارتياب أي الذي عَزَا خَاطِرُهُ: هل يغشى حضرة هذا القُرْبِ وينال مواهبه من إنافية وإكرام وشرف وإنعام فأنجح الله أمنيته لا الشك في ذلك، إذ كان أثبت الناس معرفة وإيماناً وأشكَنهم جَنَاناً وأمْلَكهم طمأنينةً وسكوناً، وإنما الدُّنُوُّ والقُرْبُ من الله تعالى أو إليه كناية عن جزيل فوائده إليه وجميل عوائده عليه وتَأْنِيْسٌ لاستيحاشه بانقطاع الأصوات عنه، وبَسْطٌ بالمكالمة وإكرامٍ بِشَرَائِفٍ مُنِيْفَةٍ، يُتَأَوَّلُ في دُنُوِّه تعالى منه ما يُتَأَوَّلُ به في قوله ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلُّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ»^(١)، على أحد الوجوه من أن نزوله تعالى إنما هو نزول إفضال وإجمال وقبول توبة وإحسان بمعرفة وإشفاق».

وقال الواسطي: «مَنْ تَوَهَّم أَنَّهُ بِنَفْسِهِ دَنَا فَقَدْ جَعَلَ ثَمَّ مَسَافَةً وَلَا مَسَافَةَ لِاسْتِحَالَتِهَا بَلْ كَلِمَا دَنَا بِنَفْسِهِ مِنَ الْحَقِّ تَدَلَّى بُعْدًا، يعني كلما قَرَّبَ منه نزل بساحة البُغْدِ كناية عن نُفْيِهِمَا جَمِيعاً أو عن إدراك حقيقته إذ لا يدركها أحد، ولا دُنُوٌّ لِلْحَقِّ وَلَا بُعْدٌ، لاستحالتهمَا. وأما قوله تعالى: «فإني قريب» فتمثيل لكمال علمه وإجابةً لتعالیه عن القُرْبِ مكاناً. وَيُتَأَوَّلُ في الدُّنُوِّ مَا يُتَأَوَّلُ في قوله ﷺ في حديث رواه البخاري حكايةً عن رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا»، وهو تمثيل يُقَرَّبُ المعنى للأفهام، أي من تَقَرَّبَ إلى طاعتي جازيته بأضعاف ما تَقَرَّبَ به إليّ. «ومَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتَهُ هَرْوَلَةً»، أي سَبَقْتُهُ بجزائه، فهو أقرب بالإجابة والقبول، وإتيان إحسان، وتعجيل المأمول، ثواباً مُضَاعَفًا على حَسَبِ مَا تَقَرَّبَ بِهِ، وقد سبق به طريق المشاكلة فسَمَّاهُ تَقَرُّبًا».

التاسع: تصريحه بأن امتناعه ﷺ من الرجوع إلى سؤال رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في طلب التخفيف كان عند الخامسة، ومقتضى رواية ثابت أنه كان بعد السابعة. العاشر: قوله: «فَعَلَا بِهِ الْجَبَّارُ»، وهو مكانه تقدم ما فيه. الحادي عشر: رجوعه بعد الحَمْسِ، والمشهور في الأحاديث أن موسى أمره بالرجوع بعد أن انتهى التخفيف إلى خمس فلم يرجع. الثاني عشر: زيادة ذكر «الثور» بالتاء المُثَنَّىة في الطُّسْتِ، فإنه قال: «أَبِي بَطَّسْتُ مِنْ ذَهَبٍ فِيهِ ثَوْرٌ مِنْ

(١) أخرجه البخاري ٢٩/٣ (١١٤٥) ومسلم ٥٢١/١ (٧٥٨-١٦٨).

ذَهَب»، فَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ طُشَّتْ صَغِيرٌ دَاخِلٌ طُشَّتْ كَبِيرٌ لِفَلَا يَتَّبِدُّ مِنْهُ شَيْءٌ فَيَكُونُ فِي الْكَبِيرِ. وَفِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَرَوَايَةِ شَرِيكَ أَنَّهُمْ عَسَنُوهُ بِمَاءٍ زَمَزَمَ فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا فِيهِ مَاءٌ زَمَزَمٌ وَالْآخَرُ هُوَ الْمَحْشُوُّ بِالْإِيمَانِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ التُّورُ ظَرْفُ الْمَاءِ وَالْإِيمَانِ وَالطُّشْتُ لَمَّا يُصَبُّ فِيهِ عِنْدَ الْغُسْلِ صَيَانَةٌ لَهُ عَنِ التَّبَدُّدِ فِي الْأَرْضِ وَجَرِيًّا لَهُ عَلَى الْعَادَةِ فِي الطُّشْتِ وَمَا يَوْضَعُ فِيهِ الْمَاءُ.

التبیه الحادي عشر والمائة: في بيان غريب ما تقدم:

«بينما»: الأصل «بَيْنَ» فَأُشْبِعَتِ الْفَتْحَةُ فَصَارَتْ أَلِفًا وَزِيدَتِ الْمِيمُ فَيَقَالُ: «بَيْنَا» و«بينما». قَالَ فِي النِّهَايَةِ: وَهِيَ ظَرْفًا زَمَانٌ بِمَعْنَى الْمُفَاجَأَةِ، وَقَالَ فِي الْمَطَالَعِ: «بَيْنَا أَنَا» و«بينما أَنَا» مِنَ الْبَيْنِ الَّذِي هُوَ الْوَضْعُ أَيُّ أَنَا مُتَّصِلٌ بِفِعْلِ كَذَا.

«الحِجْر»، بِكَسْرِ الْحَاءِ وَسُكُونِ الْجِيمِ وَهُوَ هُنَا حَطِيمٌ مَكَّةَ وَهُوَ الْمُدَارُ عَلَيْهِ بِالْبِنَاءِ مِنْ جِهَةِ الْمِيزَابِ وَسُمِّيَ حِجْرًا لِأَنَّهُ حُجِرَ عَنْهُ بِحِيطَانِهِ وَحَطِيمًا لِأَنَّهُ حُطِمَ جِدَارُهُ عَنْ مَسَاوِةِ الْكَعْبَةِ وَعَلَيْهِ ظَاهِرٌ قَوْلُهُ: «بَيْنَا أَنَا فِي الْحَطِيمِ»، وَرَبَّمَا قَالَ: «فِي الْحِجْرِ»، وَالشُّكُّ مِنْ قِتَادَةٍ. وَقَالَ الطَّبِيبِيُّ: «لَعَلَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَكَى لَهُمْ قِصَّةَ الْمِعْرَاجِ فَقَبَّرَ بِالْحَطِيمِ تَارَةً وَبِالْحِجْرِ أُخْرَى». وَقِيلَ: الْحَطِيمُ غَيْرُ الْحِجْرِ، وَهُوَ مَا بَيْنَ الْمَقَامِ إِلَى الْبَابِ، وَقِيلَ: مَا بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ وَزَمَزَمَ وَالْحِجْرَ، وَالرَّوَايَةُ شُكٌّ أَنَّهُ سَمِعَ فِي الْحَطِيمِ، أَوْ فِي الْحِجْرِ.

«أَوْسَطُهُمْ» خَيْرُهُمْ. «الثُّغْرَةُ»^(١) بَضْمُ الْمَثَلَةِ وَسُكُونُ الْمَعْجَمَةِ الْمَوْضِعُ الْمُنْخَفِضُ بَيْنَ الثَّرْقُوتَيْنِ، إِلَى أَسْفَلِ بَطْنِهِ أَيُّ شِغْرَتِهِ بِكَسْرِ الشَّيْنِ الْمَعْجَمَةِ أَيُّ شَعْرِ الْعَانَةِ. وَفِي رَوَايَةٍ: «فَشَقُّ جَبْرِيْلَ مَا بَيْنَ نَحْرِهِ إِلَى لَبِّهِ وَهِيَ بَفَتْحِ اللَّامِ وَتَشْدِيدِ الْمَوْحِدَةِ مَوْضِعِ الْقَلَادَةِ مِنَ الصَّدْرِ، وَفِي رَوَايَةٍ «إِلَى ثُنْتَيْهِ» بَضْمُ الْمَثَلَةِ وَتَشْدِيدُ النَّوْنِ أَيُّ مَا بَيْنَ شُرَّتِهِ إِلَى عَانَتِهِ. وَفِي رَوَايَةٍ: «مَنْ قَصَّتَهُ بِفَتْحِ الْقَافِ وَتَشْدِيدِ الصَّادِ الْمَهْمَلَةِ أَيُّ رَأْسِ صَدْرِهِ، وَفِي رَوَايَةٍ: «فُرْجِ صَدْرِي» وَمَعْنَى الرُّوَايَاتِ وَاحِدٌ.

«الطُّشْتُ»^(٢) بَفَتْحِ الطَّاءِ وَسُكُونِ السَّيْنِ الْمَهْمَلَةِ، وَإِعْجَابُهَا لَيْسَ بِلُحْنٍ، بَلْ لُغَةٌ صَرَحَ بِهَا صَاحِبُ الْقَامُوسِ فِيهِ وَفِي كِتَابِ: تَخْيِيرِ الْمُوشَّيْنِ فِيمَا يُقَالُ بِالسَّيْنِ وَالشَّيْنِ، وَبِمِثْنَاةٍ وَقَدْ تُحْدَفُ وَهُوَ الْأَكْثَرُ وَإِتْيَانُهَا لُغَةٌ طَيِّبَةٌ، وَأَخْطَأَ مَنْ أَنْكَرَهَا، وَتُدْعَمُ السَّيْنُ فِي التَّاءِ بَعْدَ قَلْبِهَا فَيَقَالُ طَسٌّ وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ وَجَمْعُهَا طِسَّاسٌ وَطِسُّوسٌ وَطِسُّوتٌ.

(١) انظر الوسيط ٩٧/١.

(٢) الطُّسَّاسُ: جَمْعُ طَسٍّ، وَهُوَ الطُّسْتُ، وَالتَّاءُ فِيهِ بَدَلٌ مِنَ السَّيْنِ، فَجَمِيعٌ عَلَى أَصْلِهِ، وَيُجْمَعُ عَلَى طِسُّوسٍ أَيْضًا. انظر الثَّهَابَةَ لِابْنِ الْأَثَرِ ١٢٤/٣، وَالْمَعْجَمَ الْوَسِيطَ ٣٦٥١/٣.

«اختلف إليه»: تَرَدَّد.

«ممتلىء» بالتذكير على معنى الإناء، وفي رواية: «مملوءة»، بالتأنيث أي الطشت، وفي رواية «مخشواً» بالنصب وأُغْرِبَ بأنه حال من الضمير في الجار والمجرور، وفي رواية «مخشوء»، وفي رواية شريك: بطشت من ذهب بمشاة فوقية ويأتي لهذا مزيد بيان.

«إيماناً» منصوب على التمييز «وحكمة» معطوف عليه.

قال ابن أبي جَمْرَةَ: وفي هذا الحديث أن الحكمة ليس بعد الإيمان أجلّ منها، ولذلك قرئت به، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] وقد اختلف في تفسير الحكمة فقليل إنها العلم المُشْتَمِل على معرفة الله تعالى مع نفاذ البصيرة وتهذيب النفس وتحقيق الحق للعمل به والكف عن ضده، والحكيم من حاز ذلك، قال النووي: «هذا ما صفا لنا من أقوال كثيرة»، انتهى. وقد تُطْلَق الحكمة على القرآن وهو مُشْتَمِل على ذلك كله، وعلى النبوة كذلك، وقد تُطْلَق على العلم فقط ونحو ذلك.

قال الحافظ: «وأصح ما قيل فيها إنها وضع الشيء في محله، أو الفهم في كتاب الله، وعلى التفسير الثاني قد توجد الحكمة دون الإيمان وقد لا توجد، وعلى الأول قد يتلازمان لأن الإيمان يدل على الحكمة..»

«ذائبة أبيض» إنما قال أبيض ولم يقل بيضاء لأنه أعاده على المعنى أي مركوب أو بُراق.

«مُشْرِجاً مُلْجِماً» حالان من البُرَاق.

«الحافر»^(١) أحد حوافر الدَّائِبَةِ سُمِّيَ بذلك لِحَفْرِهِ الْأَرْضَ لَشِدَّةِ وَطْئِهِ عَلَيْهَا.

«الظُّرْفُ» بسكون الراء وبالفاء النظر.

«مُضْطَرِبِ الْأُذُنَيْنِ» أي طويلهما والطاء بَدَلٌ مِنَ التَّاءِ.

«يَخْفِزُ»^(٢) بهما رَجَلَيْهِ بِمِثْلَةِ تَحْتِيَةِ مَفْتُوحَةٍ فَحَاءٍ مَهْمَلَةٍ سَاكِنَةٍ فَهَاءٍ مَكْسُورَةٍ قَالَ فِي

النهاية: الحفز الحث والإعجال.

«عُرْفُ»^(٣) الفرس، بضم العين المهملة وبالفاء الشعر الثابت في مُخَدَّبِ رَقَبَتِهِ.

«الْأُظْلَافُ» جمع ظلف بكسر الظاء المعجمة المُشَالَّةُ وهو من الشاء والبقر كالظفر

للإنسان.

(١) انظر لسان العرب ٩٢٥/٢.

(٢) انظر اللسان ٩٢٦/٢.

(٣) انظر المعجم الوسيط ٥٩٥/٢.

«صُرَّتْ بِأُذُنَيْهَا» أي جمعت بينهما وأصل الصُّرُّ الجمع والشُدُّ تخالفة في النهاية وفي الصحاح: الصُّرَّةُ الشُّدَّةُ من كُرْبٍ وغيره.

«ازْفَضُّ» جرى وسال.

«عَرَقًا» منصوب على التمييز من الفاعل ولذا وَرَدَ مُخَفَّفًا والمعنى قَتَبَرًا من الاستصعاب وعَرَقَ من خجل العتاب فوثب.

«الزُّمَامُ» بالكسر المِقْوَدُ.

«طَبِيبَةٌ»^(١) من أسماء المدينة الشريفة.

«يَهْوِي بِهِ» يُشْرِعُ السَّيْرَ.

«مَدَّيْنِ» بفتح الميم وسكون الدال المهملة وفتح المُنْثَاةِ التَّحْتِيَةِ بلد بالشام تلقاء عَزَّةِ.

«طور سيناء»: الطور جبل بيت المقدس وسيناء بكسر السين اسم للبقعة.

«بيت لحم» بلام مفتوحة فحاء [مهملة] ساكنة قرية من قُرَى الشَّامِ تلقاء بيت المقدس.

«العِفْرِيَّتِ» من العِجْرِ العارم الخبيث ويستعمل في الإنسان استعارة الشيطان له.

«الشُّغْلَةُ» من النار بالضم وهي شبه الجِدْوَةِ، والجِدْوَةُ مُثَلَّثَةُ الجِيمِ الجَمْرَةُ.

«خَرَّ لِفِيهِ» أي على فمه.

«الكلمات الثَّامَاتُ» أي الكاملة فلا يدخلها نقص ولا عيب، وقيل النافعة الشافية.

«لَا يُجَاوِزُهُنَّ» أي لَا يَتَعَدَّاهُنَّ.

«الْبَرَّ» بفتح الباء التَّيْمِيَّ.

«الْفَاجِرُ» المائل عن الحق.

«ذَرَأَهُ خَلَقَ».

«طَوَارِقُ اللَّيْلِ»^(٢) حوادثه التي تأتي ليلاً.

«المَاشِطَةُ» اسم فاعل من مَشَطَ الشُّغْرَ يَمْشِطُهُ وَيَمْشِطُهُ بضم المعجمة وكسرها مَشَطًا

سَرَّحَهُ، والتشغيل مبالغة.

«المُشَطُّ» بضم الميم وإسكان الشين ومع ضَمِّهَا أَيْضًا، وبكسر الميم مع إسكان الشين،

ويقال يَمْشِطُ بِمِيمِينِ الْأُولَى مَكْسُورَةً.

(١) اللسان ٢٧٣٤/٤.

(٢) المعجم الوسيط ٥٥٦/٢.

«تَعَسَّ» بفتح العين وتكسر، تَعَسَّ بِسُكُونِ الْعَيْنِ وَفَتْحِهَا لَمْ يَسْتَقِيلْ مِنْ عَثْرَتِهِ وَأَتَعَسَّهُ اللَّهُ فَتَعَسَّ وَيُقَالُ تَعَسَّ أُكْبُ عَلَى وَجْهِهِ.
«راودوا»^(١) المرأة أي راجعوها.

«فَأَمْرٌ بِبَقْرَةٍ مِنْ نَحَاسٍ» بباءين مُوَحَّدَتَيْنِ قَفَافٍ، قَالَ الْحَافِظُ أَبُو مُوسَى الْمَدِينِيُّ: الَّذِي يَقَعُ لِي فِي مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَرِيدُ شَيْئاً مَصُوغاً عَلَى صُورَةِ الْبَقْرَةِ، وَلَكِنَّهُ رُبَّمَا كَانَتْ قِدْرًا كَبِيرَةً وَاسِعَةً فَسَمَّاهَا بَقْرَةً مَأْخُودًا مِنَ التَّبَقُّرِ التَّوَسُّعِ أَوْ كَانَ شَيْئاً يَسَعُ بَقْرَةً تَامَّةً بِتَوَابِلِهَا فَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ.

«وَلَا تَقَاعَسِي»^(٢) أَي لَا تَتَأَخَّرِي وَتَتَوَقَّفِي عَنِ الْفَائِثِ فِي النَّارِ، يُقَالُ تَقَاعَسَ عَنِ الْأَمْرِ إِذَا تَأَخَّرَ وَلَمْ يَتَقَدَّمْ فِيهِ.

«تُرْضَخُ»^(٣) رُوَّوسُهُمْ تُشْدَخُ كَذَا فِي الْغَرِيبِ. وَقَالَ فِي الْمَصْبَاحِ: تُكْسَرُ.
«لَا يَقْرَهُ لَا يَسْكُنُ».

«يَسْرَحُونَ» يُقَالُ سَرَحْتُ الْإِبِلَ بِهِ سَرَحًا وَسَرُوحًا أَيْضًا رَعَتْ.

«الضَّرِيعُ»^(٤): الشوك اليابس أو نبات أحمر مُثْنِي الرِّيحِ يرمي به البحر.

«الزُّقُومُ» ثَمَرُ شَجَرٍ كَرِيهِ الطَّعْمِ قِيلَ لَا يُعْرَفُ فِي شَجَرِ الدُّنْيَا وَإِنَّمَا هِيَ فِي النَّارِ يَكْرَهُ أَهْلُ النَّارِ أَكْلَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ زُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٤، ٦٥] «رَضَفَ جَهَنَّمَ» بفتح الراء وسكون الضاد المعجمة بعدها فاء، هي الحجارة المُخَمَّاةُ وَاحِدُهَا رَضْفَةٌ^(٥).

«النَّيِّءُ» بِالْهَمْزِ وَزَانَ جِئِلْ كُلُّ شَيْءٍ شَأْنُهُ أَنْ يُعَالَجَ بِشَيْءٍ أَوْ طَبَخَ لَمْ يَنْضَجْ يُقَالُ لَخْمٌ نَيْءٌ وَالْإِدْغَامُ وَالْإِبْدَالُ عَامِّي.

«الْجُحْرُ» بِضَمِّ الْجِيمِ وَسُكُونِ الْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ وَهُوَ النَّقْبُ الْمُسْتَدِيرُ.

«الثُّورُ» بِالْمَثَلَةِ مَعْرُوفٌ..

«الْعُرْفُ» بِالضَّمِّ جَمْعُ عُرْفَةٍ وَهِيَ الْعُلْبَةُ.

(١) زَاوَدَهُ عَلَى الْأَمْرِ: طَلَبَ مِنْهُ يَفْلَهُ. انظر المعجم الوسيط ٣٨٢/١.

(٢) اللسان ٣٦٩٢/٥.

(٣) الرُّضَخُ: الشَّدَخُ. وَالرُّضَخُ أَيْضًا: الدَّقُّ وَالكَسْرُ. انظر النهاية لابن الأثير ٢٢٩/٢.

(٤) المفردات في غريب القرآن ٢٩٥.

(٥) رَضْفَةٌ: كَوَاةٌ بِالرُّضْفَةِ، الرُّضْفَةُ: الْحَجَرُ الْمُخْتَصِي بِالنَّارِ أَوْ الشَّمْسِ. انظر المعجم الوسيط ٣٥١/١.

«الإستَبْرَق» ثخين الديباج.

«السُنْدُس» رقيق الديباج.

«العبقري» قيل هو الديباج وقيل البُشْطُ المَوْشِيَّة وقيل الطنائف الشَّخَان والأصل في العبقري فيما قيل إن عَبَقَر قرية يسكنها الجِنَّ فيما يَزْعُمون فكلما يَزُونَ شيئاً فائقاً غريباً مما يَصْغُب عمله وَيَدِقُّ أو شيئاً عظيماً في نفسه نسبوه إليها.

«اللؤلؤ»^(١) بهزتين وَيَحْدِفُهُمَا وبإثبات الأولى دون الثانية.

«المَرْجَان»: قال الأزهري وغيره هو صغار اللؤلؤ وقال الطرطوشي هو عروق حُمْر تطلع من البحر كأصابع الكَفِّ، قال: وهكذا شاهدناه بمغارب الأرض كثيراً.

«الأكواب»: جمع كوب: إناء لا عُرْوَةٌ له ولا خُرْطُوم.

«الصُّحُف»: جمع صُحْفَةٌ إناء كالقصة.

«الشعير» النار، وَسَعَرْتُهَا وأسعرتها أوقدتها.

«الدُّجَال»: أصل الدُّجَلُ الخَلْط يقال رَجُلٌ دَجِلٌ^(٢) إذا لبس ومَوَّه والدُّجَالُ فَعَالٌ من أبنية المبالغة أي يُكْثِرُ من الكذب والتلبس وهو الذي يظهر في آخر الزمان.

«فَيْلَمَانِيَّاهُ»^(٣): قال في النهاية الفَيْلَمُ العظيم الجُتَّة والفَيْلَمُ الأمر العظيم والياء زائدة والفَيْلَمَانِي منسوب إليه بزيادة الألف والنون للمبالغة.

«أقمر» أي شديد البياض.

«هيجان»: شديد البياض.

«دُرِّي»: مُضِيء.

«عبد العزى بن قطن»: بفتح القاف والمهملة وهو ابن عمرو بن جُنْدَب/ بن سعيد بن عابد بن مالك بن المُضْطَلِّق. هلك في الجاهلية، ووقع عند ابن مَرْدَوِيَه: قَطْنُ بن عبد العزى وهو وَهْمٌ من بعض رواته.

«العَمُود» بفتح العين المهملة وضَمِّ الميم معروف وجمعه عُمُدٌ بضمَّتَيْنِ وأَعْمِدَةٌ بكسر الميم وفتح الدال.

(١) اللؤلؤ: الدر، وهو يتكون في الأصداف من زواجب أو جوامد صلبة لماعة مستديرة في بعض الحيوانات المائية الدنيا من الرخويات. واحده: لؤلؤة. انظر المعجم الوسيط ٨١٧/٢.

(٢) لسان العرب ١٣٣٠/٢.

(٣) انظر اللسان ٣٤٦٧/٥.

«حاصرة» اسم فاعل من حَسَرَ.

«يا أول حاشره» تقدم الكلام عليهما في الأسماء النبوية.

«الكثيب»^(١): التُّلُّ من الرمل.

«طُوَال»: يقال رجلٌ طويلٌ فإن زاد قيل طُوَال بالضمِّ مُخَفَّفًا، فإن زاد قيل طُوَال مُشَدَّدًا.

«شَفَرٌ سَبَطٌ»^(٢) بفتححتين وككثيف ويُسَكِّن، ثم قد يُكْسَر، مُشْتَرِيبِل، وِجْشَمٌ سَبِطٌ

ككثيف ويُسَكِّن حَسْرٌ القَدُّ والاستواء.

«آدم»: بِالْمَدِّ أَسْمَر.

«أزد» بفتح الهمزة وسكون الزاي وبالبدال المهملة.

«شُوعَةٌ» بفتح الشين المعجمة وضَمِّ النون وسكون الواو وبعدها همزة ثم تاء تأنيث حَيٍّ

من اليَمَن يُنْسَبُونَ إِلَى شُوعَةٍ وهو عبد الله بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد،

يُنْسَبُونَ إِلَى شُوعَةٍ وهو عبد الله بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد، ولقب

شُوعَةٌ لَشَنَّانٍ كان بينه وبين أهله والنسبة إليه شنوئي بالهمز بعد الواو وشَنَائِي^(٣) بالهمز بغير واو.

وقال ابن قتيبة: «أزد شُوعَةٌ»: من قولك: رَجُلٌ فِيهِ شُوعَةٌ أَي تَقَرُّزٌ. والتَقَرُّزُ بَقَافٍ وَزَايِينَ التَّبَاعِدِ

من الأَدْناسِ. قال الداودي: «رجال الأزد معروفون بالطول». وفي رواية: كانوا من رجال

الزُّطِ^(٤) وهم معروفون بالطول والأذمة. «يُعَاتِبُ رَبَّهُ» وفي رواية سَمِعْتُ صَوْتًا وَتَذْمِيرًا فَقُلْتُ

من هذا؟ قال: هذا موسى. قلت: أَعَلَى رَبِّهِ؟ قال: نعم قد عَرَفَ جِدَّتَهُ. قال الخليل رحمه الله

تعالى: حقيقة العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة المَوْجِدَةِ، والتذمر بذال معجمة مثله.

«الجِدَّة» بكسر الحاء المهملة.

«الشُّرُح» بسين فراء فحاء مهملات وزن كُتُب جمع سَرُوحَة وهي الشجرة العظيمة.

«جُلُهَا» بضم الجيم معظمها.

«مِثْلُ الزَّرَابِيِّ» بزاي فراء كما رأيتُه بخط جماعة منهم الذهبي في تاريخ الإسلام

والهيثمي في مجمع الزوائد والشيخ في تفسيره جَمْعُ زَرْبِيَّةٍ بِثَلَاثِ الزَّايِ وَهِيَ الطَّنْفَسَةُ بِكسْرِ

الطَّاءِ وَالْفَاءِ وَبِضْمِهِمَا وَبِكسْرِ الطَّاءِ وَفَتْحِ الْفَاءِ وَهِيَ البِساطُ الَّذِي لَهُ خَنْطَلٌ رَقِيقٌ، وَرَأَيْتُ بِخَطِّ

(١) انظر المعجم الوسيط ٧٧٧/٢.

(٢) انظر اللسان ١٩٢٢/٣.

(٣) اللسان ٢٣٣٥/٤.

(٤) انظر لسان العرب ١٨٣٠/٣.

بعض المحدثين الروابي براء فواو وأظنه تصحيفاً وإن كان قريب المعنى.

«الحُمَّة» بحاء مضمومة الفحمة.

«الشُّخْتة» بضم السين المهملة وسكون الخاء المعجمة أي الحارّة.

«بالْحَلْقَة» بإسكان اللام ويجوز فَتْحُهَا وبالفتح جمعها حَلَقٌ وحَلَقَاتٌ وبالإسكان حَلَقٌ

وحَلَقٌ بفتح الحاء وكسرهما.

«يربط به الأنبياء»: قال النووي: كذا في الأصول «به» بضمير المُذَكَّر أعاده على معنى

الحَلْقَة وهو الشيء. قال صاحب التحرير: المراد حَلْقَة باب مسجد بيت المقدس.

«الخليل والأمة والقانت» سبق بيانها في أسمائه الشريفة «المحارِب»^(١)، قال في أنوار

التنزيل هي فصور حصينة ومساكن شريفة سُمِّيت بذلك لأنه يُذَبُّ عنها ويُحَارَب عليها.

«التماثيل» الصور ولم تكن مُحَرَّمَة في زمنه.

«الجِفَان» جمع جَفْنَة بفتح الجيم وسكون الفاء وهي القصعة الكبيرة، قال ابن الجوزي

في زاد المسير: قال المُفَسِّرُون كانوا يصنعون القِصَاع الكبيرة كحياض الإبل يجتمع على

الواحدة منها ألف رجل.

«الجوابي» جمع جابية وهي الحوض الكبير يُجْبَى فيه الماء أي يجتمع.

«الأَكْمَة» الذي يولد أعمى.

«كافّة للناس»: تَقَدَّم في الأسماء الشريفة.

«قدور راسيات»: أي ثوابت قال في زاد المسير: وكانت القدور كالجبال لا تتحرك من

أماكنها يأكل من القِذْر ألف رجل.

«الفُرْقَان» من أسماء القرآن وسُمِّيَ به لأنه فُرِّقَ به بين الحق والباطل.

«التَّيْبَان»: بكسر أوله البيان الشافي.

«وَسَطَاء»: خياراً عذلاً: «الأُولُون» في دخول الجنة «والآخرون» في الوجود.

«الوِزْر»: يأتي الكلام عليه في أبواب عصمته.

«ورفع لي ذِكْرِي»: يأتي ذِكْرُه في الخصائص.

«جعلني فاتحاً»: أي لأبواب الإيمان والهداية إلى صراط مستقيم ولبیان أسباب التوفيق

وما استعلق من العلم أو هو من الفتح بمعنى الحُكْم فجعله حاكماً في خَلْقِه فانفتح ما اتغلق

(١) انظر المفردات في غريب القرآن ١١٢.

بين الخصمين بأحيائه الحق وإيضاحه وإماتته الباطل وإدحاضه.

«خاتماً للنبيين»: أي آخرهم بفتحاً.

«وَجَبَّهَا» سقوطها.

«النَّجْد» ما ارتفع من الأرض.

«يَنْسِلُونَ» يُشْرِعُونَ.

«تُجْزَمُ الْأَرْضُ»^(١). من ريحهم بالجيم تُثَنَّنُ من جِيْفِهِمْ.

«الْحَامِلُ الْمُتَمِّمُ» أي التي دنا ولأدھا.

«الْفِطْرَةَ»: بالكسر الهُدَى والاستقامة.

«المِعْرَاجُ» لُغَةُ السَّلْمِ وجمعه معارج ومعارج. قال الأَخْفَشُ إن شئت جعلت الواحد مَعْرَجٌ ومِعْرَجٌ بفتح الميم وكسرھا، فعلى هذا يكون الجمع لِمَعْرَجٍ بفتح الميم مَعَارِيجُ بياء ومِعْرَجٌ بكسرھا مَعَارِجٌ بغير ياء، والمعارج المصاعد، ويُقال عَرَجٌ في السلم بفتح الراء يَعْرُجُ بضمُّها عروجاً إذا ارتقى وعَرَجٌ أيضاً بفتح الراء إذا غمز من شيء أصابه في رجله فَنَخَمَ^(٢) وَمَشَى مِشْيَةَ الْأَعْرَاجِ إذا لم يكن خِلْقَةً أصليّة، فإذا كان خِلْقَةً يُقال عَرِجٌ بكسر الراء يَعْرُجُ بفتحها.

«طَمَحَ»^(٣) بَصَرُهُ إِلَى الشَّيْءِ ارتفع وكل طامح مرتفع.

«المِرْقَاة»^(٤) موضع الرُّقْبِيِّ ويجوز فيها فتح الميم على أنه موضع الارتفاع ويجوز الكسر تشبيهاً باسم الآلة كالمِطْهَرَةِ وأنكر أبو عبيد الكسر.

«مُنْضُدٌ بِاللُّؤْلُؤِ»: أي جُعِلَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ.

«مَرْحَبًا» بالتنوين: كلمة تقال عند المَسْرَةِ بالقادم ومعناها صادفت رُحْباً أي سَعَةً ويُكنى بذلك عن الانشراح فوضع المَرْحَبُ موضع الترحيب.

«وَأَهْلَاءَ» أي أَتَيْتْ أَهْلًا فَاسْتَأْنَسَ وَلَا تَسْتَوْجِشْ.

«حَيَّاهُ اللَّهُ» أي أَبْقَاهُ، من الحياة وقيل سَلَّمَ عَلَيْهِ من التحية والسلام وقول الملائكة: «مَنْ أَخ»، المراد بهذه الأخوة أَخُوَّةُ الْإِيمَانِ الْمَشَارِكِ بِهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

(١) انظر اللسان ٦١٩/١.

(٢) النخع: العرج ورجل في رجل نخع أي عرج. انظر ترتيب القاموس ١١٠/٢.

(٣) انظر لسان العرب ٢٧٠٤/٣.

(٤) اللسان ١٧١١/٣.

«الخليفة»: تقدم في أسمائه الشريفة..

«نعم المجيء جاء»: المخصوص بالمدح محذوف وفيه تقديم وتأخير، والأصل: فلننعم
المجيء مجيئه.

«خَلَصًا وَصَلًا».

«عَلِيَّين»: اسم لأعلى الجنة.

«سِجِّين»^(١): موضع فيه كتاب الفجار.

«الأشودَّة»^(٢) جمع سَوَادٍ ويجمع على أسَاوِد. قال النووي: قال أهل اللغة: السواد
الشخص وقيل السواد الجماعة. وقال في التقريب: السواد نقيض البياض وكل شخص من متاع
أو حيوان والجمع أشودَّة ثم أساود.

«نَسَم»^(٣) نبيه، يُنُون فسین مهملة مفتوحتين جمع نَسَمَة بالتحريك وهي الروح.

«قَبَل يمينه» بكسر القاف وفتح المُؤخِّدة أي جهة يمينه.

«هنيهة»^(٤) تصغير هَنَة يعني شيئاً يسيراً والهاء بدل من الياء والأصل هُنَيْة.

«الأخوَّة»^(٥) جمع خُوَان بكسر المعجمة وضمُّها الذي يؤكل عليه. وقال الخليل: هو
المائدة.

«أزَوْح» تَغَيَّرت رائحته.

«المائدة» الخوان إذا كان عليه طعام.

«جِيف»^(٦) بكسر الجيم وفتح الياء جمع جِيفة وهي المَيْتَة من الدوابِّ والماشية
سُمِّيت بذلك لِتَغْيِير ما في جَوْفها.

«السابلة»: أبناء السبيل المختلفة.

«يَضِجُون» بالجيم يصيحون من الفزع.

«المَسَّ» الجنون.

(١) المفردات ٢٢٥.

(٢) انظر المعجم الوسيط ٤٦١/١.

(٣) انظر المعجم الوسيط ٩١٩/٢.

(٤) انظر المعجم الوسيط ٩٩٨/٢.

(٥) المصباح المنير ١٨٥.

(٦) المعجم الوسيط ١٥٠/١.

«المشافر» بالمعجمة جمع مشفر بكسر الميم وسكون المعجمة وفتح الفاء وهي من البعير كالجحفة من الفرس وهي من ذي الحافر كالشفة للإنسان.

«ثديهن» بضم المثناة وكسر المهملة جمع ثدي يُذكر ويُؤنث فيقال هو الثدي وهي الثدي ويُجمع أيضاً على أثد وزن أكل وربما جمع على ثداء مثل سنهم وسهام.

«الهمازون» الذين يغتابون الناس من غير مواجهة.

«اللمازون»^(١) العيابون.

«بابني الخالة»: قال ابن السكيت: «يقال أبناء خالة ولا يقال أبناء عمّة، ويقال أبناء عمّ ولا يقال أبناء خال». قال الحافظ: «وسبب ذلك أن ابني الخالة أمّ كل منهما خالة الآخر، بخلاف ابني العمّة.

«عيسى»: اسم أعجمي غير منصرف، للعلمية والعجمة، وقيل مشتق من العيس وهو البياض، والأغيس الجميل الأبيض وجمعه عيسى فقيل له عيسى لبياض لونه. وقيل من العوس وهو السياسة وأصله عوساً فقلبت الواو ياءً لكسر ما قبلها، وقيل له عيسى لأنه ساس نفسه بالطاعة، وقلبه بالمحبة. وأُمَّته بالدعوة إلى ربّ العزة.

«مريم»: اسم أعجمي فيه ثلاث عِلل: العلمية والتأنيث المعنوي والعجمة، وقيل معناه بالبراني: خادمة الله، وقيل أمة الله، وقيل المُحررة.

«يحيى»: مشتق من الحياة وأطلق عليه هذا الاسم لأنه وُلد في حال شيخوخة والديه، وغالباً لا يطول عُمر من كان كذلك، فوهبه الله تعالى هذا الاسم طمأنةً لقلبيهما أن يحيى كثيراً، وأنه وَلدَ يحيى بالمحبة، حيّ الجسم بالطاعة حيّ اللسان بالذكر حيّ السرّ بالمعرفة معصوماً من الزلة.

«زكريا»: اسم أعجمي يُقصر ويُمدّ ويُقرأ بهما في السبعة، ويقال له زكريا بتخفيف الياء وتشديددها. وزكريا كان عالماً بالتوراة والإنجيل وكان إمام علماء بيت المقدس ومُقدّمهم وكان من تلاميذه أربعة آلاف عالم قارئ للتوراة: «الثفر» مُحركاً جماعة الرجال من ثلاثة إلى عشرة أو إلى سبعة. «وإذا هو بعيسى جعد»^(٢): قال النووي: قال العلماء: «المراد بالجعد هنا جمودة الجسم وهو اجتماعه واكتنازه وليس المراد جمودة الشفر».

«مربع» هو الرجل الذي بين الرجلين في القامة ليس بالطويل البائن ولا بالقصير الحقيق.

(١) المفردات في غريب القرآن ٤٥٤.

(٢) اللسان ٦٣٢/١.

«سَبَطَ الرَّأْسَ» بفتح الباء وكسرها ويجوز إسكان الباء مع فتح السين ومع كسرها على التخفيف أي مُشْتَرِيبِل الشُّفْر وليس فيه تكسير.

«الديماس»^(١) بكسر الدال المهملة وتُفْتَح ويُسكَن المثناة التحتية، فَسَّرَهُ الرَّائِي وَهُوَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ بِالْحَمَامِ، وَالْمَعْرُوفُ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ أَنَّ الدِيمَاسَ هُنَا هُوَ الشَّرْبُ، وَالْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ وَضْفُهُ بِصَفَاءِ اللَّوْنِ وَنَضَارَةِ الْجِسْمِ وَكَثْرَةَ مَاءِ الْوَجْهِ حَتَّى كَأَنَّهُ كَانَ فِي مَوْضِعِ كَيْنَ فَخَرَجَ مِنْهُ وَهُوَ عَزَقَان. قَالَ السَّهَيْلِيُّ: وَفِي هَذِهِ الصِّفَةِ مِنْ صِفَاتِ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِشَارَةٌ إِلَى الرَّيِّ وَالخِضْبِ فِي أَيَّامِهِ إِذَا أُهْبِطَ إِلَى الْأَرْضِ.

«عروة بن مسعود» أحد السادة الصحابة رضي الله عنهم.

«يوسف»: اسم أعجمي وتُثَلَّثَ سِينُهُ وَهُوَ غَيْرُ مَنْصَرَفٍ لِلْعِلْمِيَّةِ وَالْعُجْمَةِ.

«إِذْ هُوَ قَدْ أُعْطِيَ» بَدَلَ مِنَ الْأَوَّلِ بَدَلَ اشْتِمَالِ «الشُّطْرِ»: قَالَ بَعْضُ شُرَاحِ الْمَصَابِيحِ: الْمُرَادُ بِهِ هُنَا النِّصْفُ، وَقِيلَ: الْبَعْضُ لِأَنَّ الشُّطْرَ كَمَا يَرَادُ بِهِ نِصْفُ الشَّيْءِ قَدْ يَرَادُ بِهِ بَعْضُهُ مُطْلَقًا. قَالَ الطَّبِيبِيُّ: وَقَدْ يُرَادُ بِهِ الْجِهَةُ أَيْضًا نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤] أَيْ جِهَتُهُ «مِنَ الْحُسْنِ» أَيْ مَسْحَةٌ مِنْهُ كَمَا يُقَالُ عَلَى وَجْهِهِ مَسْحَةٌ مُلْكٌ وَمَسْحَةٌ جَمَالٌ أَيْ أَثَرٌ ظَاهِرٌ وَلَا يُقَالُ ذَلِكَ إِلَّا فِي الْمَدْحِ.

«هارون»: اسم أعجمي لِلْعَلَمِيَّةِ وَالْعَجْمَةِ وَقِيلَ مُقْرَبٌ.

«أَزُونٌ» وَالْأَزْنُ النَّشَاطُ سُمِّيَ بِهِ لِنَشَاطِهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ قِيلَ هَارُونٌ كَمَا قَالُوا فِي إِيَّاكَ هَيْبَاكَ.

«الرَّهْطُ» بِسُكُونِ الْهَاءِ وَفَتْحِهَا مَا دُونَ الْعَشْرَةِ مِنَ الرِّجَالِ لَيْسَ فِيهِمْ امْرَأَةٌ أَوْ مِنْهَا إِلَى الْأَرْبَعِينَ.

«القوم»: جماعة الرجل عند الأكثرين.

«الأفق»: بضم التين وجمعها آفاق بالمد أي النواحي.

«موسى» اسم مُعْرَبٌ أَصْلُهُ «مَوْ» وَهُوَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ الْمَاءُ، «وَالسَّاءُ» وَهُوَ الشَّجَرُ، سُمِّيَ بِهِ لِأَنَّهُ وُجِدَ فِي الْمَاءِ وَالشَّجَرِ الَّذِي كَانَ حَوْلَ قَصْرِ فِرْعَوْنَ.

«آدم أسمر طوال»: تَقَدَّمَ.

«جَاوِزَةٌ»: عَدَاهُ وَفَارَقَهُ.

(١) لسان العرب ١٤٢١/٢.

«يَزْعَم»: يقول:

«إسرائيل» يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، ومعناه عبد الله وقيل صفوة الله وقيل يبره الله لأنه أسرى به لما هاجر، وفيه لغات أشهرها بياءتين بعد الهمزة ثم لام، وقرئ إسرائيل بلا همز.

«الشَّمَط»^(١): بياض شعر الرأس يخالطه سواده والرجل أَشَمَط وقَوْمٌ شَمَطَانٌ مثل أسود وسودان وقد شَمِط بالكسر شَمَطاً والمرأة شَمِطَاء.

«مُسْنِدٌ ظَهْرُهُ»: مرفوع على أنه خَبِرَ مبتدأ محذوف أي هو مُسْنِدٌ ظَهْرُهُ، وفي رواية: مُسْنِداً ظَهْرُهُ بالنُّضْبِ على الحال. فائدة: نقل في النور أن السلطان الملك برقوق سأل عن البيت المعمور من أي شيء هو؟ قال بعض الحاضرين بأنه من عقيق، ونقله عن بعض التفاسير. «الغِرَاس» بكسر الغين المعجمة وبالسين المهملة يقال غَرَسْتُ الشجرة غَرْساً من باب ضَرَبَ، والشجر مفروس ويطلق عليه أيضاً غَرْسٌ وغِرَاسٌ بالكسر فاعل بمعنى مفعول مثل كتاب وبساط.

«القراطيس» جمع قِرْطَاسٍ ما يُكْتَبُ فيه، وكسر القاف فيه أشهر من ضَمِّها، والقِرْطَاسُ وزان جعفر فيه لغة.

«وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ» أي لم يَخْلِطُوهُ بِشِرْكَ.

«ثِيَابٌ رُئْدٌ»^(٢) أي لون الرماد.

«أَخْرَجُوا عَلَيْهِمُ» بضم الراء وفتحها، فالرفع على تقدير: ذلك أَخْرَجُوا عَلَيْهِمُ، والنُّضْبُ على الظرف، قال القاضي: والرفع أجود.

«الْجِلْسُ» - بحاء مهملة مكسورة وفتح فلام ساكنة فسین مهملة. كساء يلي ظهر البعير القَتَبُ، والمراد أنه لَتَصَاغِرُهُ واختفائه عن هَيْبَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَشْبَهَ الْجِلْسَ الْمُخْتَفِي تَحْتَ الْقَتَبِ، ولهذا في بعض الروايات قال «لا طيء» وهو بهمزة في آخره. ويُقال لَطِىءَ بِالْأَرْضِ لَطْوَةً لَصِيقَ بِهَا، وهو شدة معرفته بها، ولهذا قال ﷺ: «فَعَرَفْتُ فَضْلَ عِلْمِهِ بِاللَّهِ عَلَيَّ». قال بعضهم: وإنما قال ذلك ﷺ تواضعاً إذ لا يخلاف أنه أفضلُ خَلْقِ اللَّهِ، وإنما الخلاف في غيره من الملائكة. قلت: أو قال ذلك قبل أن يصل إلى ما وصل إليه.

«أَمِينِ الْمَاءِ»^(٣) بفتح السين وكسرها يَأْسِينُ مُثَلَّثَةٌ [أَسْنًا وَأَسْنًا] وَأَسُونًا تَغْيِيرٌ فَلَمْ يُشْرَبْ فَهُوَ

أَسْن.

(١) لسان العرب ٢٣٢٧/٣.

(٢) لسان العرب ١٧٢٧/٣.

(٣) المفردات في غريب القرآن ١٨.

«النَّبَق»: بفتح النون وكسر الباء وتُسَكَّن ثمره السُّدْرَة.

«قِلَالٌ هَجْرٌ»: قال الخطابي بكسر القاف جمع قُلَّة بالضم وهي الجِرار الواحدة تسع قِرْبَتَيْن أو أكثر وهَجْر بفتح الهاء والعجم من قُرَى المدينة ولا تنصرف للتأنيث والعلمية، ويجوز الصِّرف، يريد أن ثمر السُّدْرَة في الكِبَر مثل القِلَال، وكانت معروفة عند المُخَاطِبِينَ، ولذلك وقع التمثيل بها. تنبيه: سُئِل: هل ثمر سِدْرَة المنتهى كالثمار المأكولة في أنه يزول وَيَعْقُبُهُ غيره؟ وهل الزائل يؤكل أو يسقط؟.

«وَإِذَا وَرَقَهَا مِثْلَ آذَانِ الْفِيلَةِ»: بكسر الفاء وفتح المثناة التحتية بعدها لام، وحكى الزركشي والبرماوي^(١) فتح الفاء وقال الدماميني: إنه سهو، والفيلة جمع فيل، وفي رواية: مثل آذان الفيول وهي جمع فيل أيضاً، ولا منافاة بين ذلك وبين قوله: «تَكَادُ الْوَرَقَةُ تُغَطِّي هَذِهِ الْأُمَّةَ»، لأن المراد التشبيه في الشكل خاصة لا في الكِبَر ولا في الأَخْسَن.

«أَنْهَارٌ»: جمع نَهْرٍ بسكون الهاء وفتحها.

«غَشِيَهَا أَلْوَانٌ»: علاها ولأَبْسَهَا، «فلما غشيتها من الله ما غشيتها» هو كقوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم: ١٦] في إرادة الإبهام للتفخيم والتهويل، وإن كان معلوماً كما في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨] في حق فِرْعَوْنَ. وقوله: فَرَّاشٌ بيان له.

«الزُّبْرُجْدُ»^(٢) بزاي مفتوحة وبالذال المهملة جوهر معروف ويقال هو الزمرد^(٣).

«يَلُودُ بِهَا»: يطوف بها.

«الْفَرَّاشُ» بالفتح جمع فَرَّاشَةٌ: الطير الذي يُلْقِي نفسه في ضوء السُّراج.

(١) محمد بن عبد الدائم بن موسى، الشيخ الإمام، العالم المفسن، شمس الدين أبو عبد الله العسقلاني الأصل البرماوي، المصري. مولده في ذي القعدة سنة ثلاث وستين وسبعمائة، وأخذ عن الشيخ سراج الدين البلقيني، والشيخ سراج الدين بن الملتن، والشيخ زين الدين العراقي، والشيخ عز الدين بن جماعة، ومجد الدين البرماوي، والقاضي بدر الدين ابن أبي البقاء. وكان في صغره في خدمته، وسمع الكثير وفضل وتميز في الفقه والنحو، والحديث والأصول وكانت معرفته بهذه العلوم الثلاثة أكثر من معرفته بالفقه. وكتب شرحاً على البخاري لم يبينه، وجمع شرحاً على العمدة سماه جمع العمدة لفهم العمدة، وأقرده أسماء رجال العمدة. وله الألفية في الأصول وشرحها، أخذ أكثره من البحر للزركشي، وله منظومة أخرى في الفرائض وغير ذلك، ومات في جمادى الآخرة سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة. الطبقات لابن قاضي شهبة ١٠١/٤، ١٠٢، ١٠٣، وانباء الفهر ١٦١/٨، والأعلام ٦٠/٧، وشنرات الذهب ٢٠١/٧.

(٢) انظر المعجم الوسيط ٣٨٨/١.

(٣) الزُّبْرُودُ: حجر أخضر اللون، شديد الخضرة. شفاف، وأشدُّه خضرة أجوده وأضفاه جوهرأ، واحده زُبْرُودَة. انظر المعجم الوسيط ٤٠١/١.

«خُلِّي على سبيلك»: بالبناء للمفعول، وهو صفة لقوله: أي أحد من أمتك تُرك على طريقك.

«الفرات»: بضم الفاء وبالناء المبسوطة وضملاً ووقفناً. ومن قال بالهاء فقد أخطأ.

«الغُضْر»: بضم العين والصاد المهملتين بينهما نون ساكنة، وهو الأصل.

«السلسيل» اسم عين في الجنة.

«الكوثر»: يأتي الكلام عليه في الخصائص وفي أبواب حشره عليه السلام.

«يَطْرِد»: يَجْرِي.

«عجاجاً^(١)»: كثير الماء كأنه يعج من كثرة وصوت ثقفه.

«الخيام» جمع خيم كَفْرُخ وفراخ وسَهْم وسِهَام وهو مثل الخَيْمَة، وهو بيت تبيته العرب من عيدان الشجر. قال ابن الأعرابي: لا تكون الخَيْمَة عند العرب من ثياب بل من أربعة أعواد ثم يُشَقَّف بالثَّمَام بضم الثاء [المثلثة] وهو نبتٌ ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص، والجمع خَيْمَات وَخَيْم وزان بِيضَات وَقَطَع.

«الرَضْرَاض^(٢)»: بفتح الراء وسكون الضاد المعجمة، وبأخرى مثلها: الحَصَى الصغار.

«الرُّمُودُ» بزاي فميم قرأ مُشَدَّدَةٌ مضمومات فذال معجمة، هو الزبرجد.

«حَبّاً لك»: بفتح الحاء المعجمة والمَوْحِدَة مهموزاً أي أخره لك ربك.

«ابن حارثة»: يأتي الكلام عليه في الموالي.

«جَنَابِد اللؤلؤ^(٣)»: بجيم فنون مفتوحتين فألف فباء مَوْحِدَة فذال مفجمة وهي القباب

واللؤلؤ تقدم.

«القيعان»: جمع قاع وهو المكان المستوي من الأرض، ويُجَمَع أيضاً على أقوع

وأقواع.

«الوَجْس^(٤)»: بفتح الواو وسكون الجيم بعدها سين مهملة: الصوت الخفي.

«الدَّلاء»: بكسر الدال جمع دَلْو.

«للإبل المُقَبَّة» أي التي بأقابها^(٥).

(١) انظر اللسان ٢٨١٣/٤.

(٢) اللسان ١٦٥٩/٣.

(٣) انظر لسان العرب ٦٩٥/١.

(٤) انظر المعجم الوسيط ١٠١٤/٢.

(٥) القتب: الزحل الصخر على قدر سنام البحر. والجمع أقاب. انظر المعجم الوسيط ٧٢٠/٢.

«مَشْكٌ أَذْفَرُ»: يقال ذَفِرَ الشَّيْءُ بِالْكَسْرِ ذَفْرًا بِالتَّحْرِيكِ اشْتَدَّتْ رَائِحَتُهُ طَيِّبَةً كَانَتْ أَوْ كَرِيهَةً.

«عَاقِرُ النَّاقَةِ»: اسْمُهُ قَدَارٌ بِضَمِّ الْقَافِ وَالتَّخْفِيفِ، ابْنُ سَالِفٍ بِالسِّينِ الْمَهْمَلَةِ وَالْفَاءِ.

«غَشِيهَا أَنْوَارُ الْخَلَائِقِ»: إِضَافَةٌ تَشْرِيفٍ كَمَا يُقَالُ بَيْتُ اللَّهِ.

«الغِرْبَانُ» جمعُ غُرَابٍ.

«ظَهَرَ» ارتفع.

«سُبُوحٌ»^(١) قُدُوسٌ^(٢)، بِضَمِّ أَوْلِهِمَا أَيْ نُزَّهُ عَنْ سُوءٍ وَعَيْبٍ.

«لِمُسْتَوَى»: بفتح الواو وبالتنوين: مَوْضِعٌ مُشْرِفٌ [يُسْتَوَى عَلَيْهِ] أَيْ يَصْعَدُ وَقِيلَ الْمَكَانُ الْمُسْتَوَى، [وَفِي بَعْضِ الْأَصُولِ]: «بِمُسْتَوَى» بِمُوحَاذَةِ بَدَلِ اللَّامِ وَعَلَيْهِمَا فَالْبَاءُ ظَرْفِيَّةٌ. وَعَلَى رِوَايَةِ اللَّامِ: قَالَ التُّورِبَشْتِيُّ: اللَّامُ لِلْعِلَّةِ أَوْ ارْتَفَعَتْ لِاسْتِعْلَاءِ مُسْتَوَى أَوْ لِرُؤْيَتِهِ أَوْ لِمَطَالَعَتِهِ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مُتَعَلِّقًا بِالْمُضَدَّرِ أَيْ ظَهَرَتْ ظُهُورُ الْمُسْتَوَى، وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى «إِلَى».

قال تعالى: «أَوْحَى لَهَا»، أي إليها، والمعنى: إني أقيمُ مقاماً بَلَغْتُ فِيهِ مِنْ رِفْعَةِ الْمَحَلِّ إِلَى حَيْثُ أُطْلِعْتُ عَلَى الْكَوَائِنِ فَظَهَرَ لِي مَا يُزَادُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَتَدْبِيرِهِ فِي خَلْقِهِ، وَهَذَا هُوَ الْمُتَهَيُّ الَّذِي لَا تَقْدَمُ فِيهِ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ.

وقال الطيبي: «لام» الغرض و«إلى» الغائية يلتقيان في المعنى، قال في الكشاف في قوله تعالى: «كُلُّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى» [لقمان: ٢٩]: «فإن قلت: يجري لأجل مُسَمًّى، وَيَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، أَمْ مِنْ تَعَاقُبِ الْحَرْفَيْنِ؟ قُلْتُ: كَلَّا وَلَا يَسْلُكُ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ إِلَّا بَلِيدُ الطَّبَعِ ضَبَّقَ الْعَطْنَ»^(٣)، وَلَكِنْ الْمَعْنَى أَعْنِي الْإِنْتِهَاءَ وَالِاخْتِصَاصَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَلَاثِمَ لِصِحَّةِ الْغَرَضِ، لِأَنَّ قَوْلَكَ: يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى مَعْنَاهُ يَنْتَلِغُهُ وَيَنْتَهِي إِلَيْهِ، وَقَوْلُكَ: يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى، تُرِيدُ: يَجْرِي لِإِدْرَاكِ أَجَلٍ مُسَمًّى.

فالحاصل أن «اللام» و«إلى»، وإن كان معناهما أعني الإدراك والانتهاؤ ملاًثماً لصحة الغرض فليستا متعاقبتين، فمعنى: ظَهَرَتْ إِلَى مُسْتَوَى بَلَغَتْهُ وَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ، وَمَعْنَى «الْمُسْتَوَى» هُوَ أَدْرَكَتُ مُسْتَوَى.

(١) لسان العرب ٣/١٩١٤.

(٢) اللسان ٥/٣٥٥٠.

(٣) يقال: فلان وابغ القطن: واسع الصبر والمهلة عند الشدائد، سخي كثير المال. وضده: ضيق القطن. انظر المعجم الوسيط ٢/٦١٥.

«صريف الأقدام» بفتح الصاد المهملة وكسر الراء وبالفاء وهو صوت حركتها وجريانها على المكتوب فيه من أقضية الله تعالى ووحيه وما ينسخونه من اللوح المحفوظ وما شاء الله تعالى الذي يعلم بكيفيتها.

«العزش»: السرير الذي للملك كما قال الله تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣]، وثبت في الشرح أنه له قوائم تحمله الملائكة، وهو فوق الجنة والجنة فوق السموات، وفي الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، وهو كالقبة على العالم وهو سقف المخلوقات، وقد بسطت الكلام عليه في «الجواهر النفائس في تحبير كتاب العرائس».

«لسانه رطب من ذكر الله»: أي نم يجف.

«قلبه معلق بالمساجد» كأنه رطب بها أو حجتاً من العلاقة وهي المحبة.

«لم يشتسب لوالديه» أي لم يعرضهما للشب وهو الشتم ولا جرهما إليه بأن يسب أبا غيره فيسب [هذا] أباه مجازة له. وقد جاء مفسراً في الحديث الآخر: «أن من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه». قيل: وكيف يسب والديه؟ قال: «يسب أبا الرجل فيسب أباه وأمه». «لبئسك»: هو من التلبية وهي إجابة المتأدي أي إجابتي لك يا رب وهو مأخوذ من لب بالمكان وألب إذا أقام به، وألب على كذا إذا لم يفارقه، ولم يستعمل إلا على لفظ التلبية في معنى التكرير أي إجابة بعد إجابة، وهو منصوب على المصدر بعامل لا يظهر كأنك قلت: ألب إلباباً بعد إلباب.

«يحفظون الكتاب المجيد»: يتلونه حفظاً.

«أناجيلهم»: الأناجيل جمع إنجيل وهو اسم كتاب الله تعالى المنزل على عيسى عليه الصلاة والسلام.

«سبعاً من المثاني»: هي كل سورة دون الطوال ودون المائتين.

«الرغب» الفرع وميأتي الكلام على ذلك في الخصائص.

«فواتح الكلم» وفي رواية مفاتيحه ومفاتيحه وهما جمع مفتاح ومفتاح وهما في الأصل كل ما يتوصل به إلى استخراج المغلقات التي يتعذر الوصول إليها، فأخبر أنه أوتي مفاتيح الكلم، وهو ما يسر الله له من البلاغة والفصاحة والوصول إلى غوامض المعاني وبدائع الحكم ومحاسن العبارات التي أغلقت على غيره وتعدرت.

«خواتمه» به فضل الخطاب.

«جوامعه»: أي من الكلمات القليلة الألفاظ، الكثيرة المعاني.

«الْيَخِيْطُ»: بكسر الميم وسكون المُخَيِّمَةِ وفتح التحتية وبالطاء المهملة ما خيط به الثوب.

«الكَلِّكَ الْقَائِدُ»: بقاف فألف فهزرة فдал مهملة: المُقَدِّم.

«الْقُرُوقُ»^(١): بالقيين المعجمة: جمع أقر، وهو هنا الأبيض الوجه من نور الضوء.

«المُخَجَّلِينَ»^(٢): البيض الوجوه والرُّجُلَيْنِ من نور الضوء.

«المُفْجِحَاتُ»: بضم الميم وإسكان القاف وكسر الحاء المهملة: الذنوب العظام الكبار التي تهلك أصحابها وتقودهم إلى النار، والتَّقْحُمُ الوقوع في المهالك. قال النووي: والمراد بغفرانها ألا يُخْلَدَ في النار بخلاف المشركين، وليس المراد، ألا يُعَذَّبَ أيضاً فقد عُليم من نصوص الشَّرْعِ وإجتماع أهل السنة إثبات عذاب العصاة من المُوحِّدين.

«فَسَلَةُ»: أصله فاسألَه لأنه أمرٌ من السؤال، فتَقِلَّت حركة الهزرة إلى السين فحذفت واشتُقِّي عن همزة الوصل فحذفت.

«خَبِرْتُ»^(٣) النَّاسَ وَبَلَّوْتُ بني إسرائيل: بمعنى جربتهم ومارستهم وعالجتهم من المعالجة مثل المزاولة، ولقيت الشدة فيما رأيت منهم من نبد الطاعة.

«أَنْ نَعَمْ»: بفتح الهزرة في «أَنْ» والتخفيف وهي المُفَسَّرَة، فهي من معناه مثل «أَي»، وهي بالتخفيف: «فلم يزل يرجع بين موسى وبين رَبِّهِ»: أي بينه وبين مناجاة ربه.

«وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ»: أي أراد فَعَلَهَا مُصَمِّمًا بقلبه.

«كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ»: أي كُتِبَتْ له الحسنة التي هَمَّ بها ولم يعملها كتابةً واحدة لأن الهَمَّ بسببها أو بسبب الخير خَيْرٌ، فوضع حَسَنَةٌ موضع المصدر، وكذا إن عملها كُتِبَتْ له عَشْرًا وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا فَأَنْ عملها كُتِبَتْ سيئة واحدة.

«أَلَيْكَ»: تقدم.

«وَسَعَدَنِكَ»: أي إسعاداً لك بعد إسعاد أو مساعدة بعد مساعدة، والأصل في الإسعاد والمساعدة مُقَابِلَةُ الْعَبْدِ أَمْرَ رَبِّهِ وَرِضَاهُ.

«وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا»: أي إذا لم يُصَمِّمْ على الفعل كما هو مذكور في محله.

(١) انظر لسان العرب ٣٢٢٤/٥ والمعجم الوسيط ٦٤٨/٢.

(٢) لسان العرب ٧٨٨/٢، ٧٨٩.

(٣) المعجم الوسيط ٦١٤/١.

«ولكن أَرْضَى وَأَسْلَمَ»: قال الطيبي: فإن قلت: وقوع هذا بين كَلَامَيْنِ متغايرين مَعْنَى فما وجهه هاهنا؟ قلت: تقدير الكلام: حتى اسْتَخَيَّيْتُ فلا أَرْجِع، فَإِنِّي إِذَا رَجَعْتُ كُنْتُ غَيْرَ رَاضٍ وَلَا مُسْلِمًا، ولكني أَرْضَى.

«بِرَهَجٍ»: بفتح الهاء وهو الغبار وفي قوله: «ثم ركب مُنْصَرِفًا»، دليل على أنه حالة العُرُوج لم يكن راكباً.

«العِير»: بكسر العين المهملة - الإبل بأحمالها..

«الغِرَازَتَانِ»^(١): تشبيه غرارة وهي الجوّالِقُ بجيم مضمومة فواو فألِفِ فلام فقاف: الخُرج.

«فَطَع»^(٢): بفاء فطاء معجمة مشالة أي اسْتَدُّ عليه وهَابَهُ.

«بَيْنَ ظَهْرَانَيْتِنَا»: بفتح النون أي: بيننا.

«المُطْعِمُ بنُ عَدِيٍّ»: بضم الميم وسكون الطاء وكسر العين مُخَفِّفًا، هلك كافرًا.

«مُضْعِدًا شَهْرًا»: بميم مضمومة فصاد ساكنة فَعَيْنُ مكسورة فدال مهملات.

«مُنْحَدِرًا شَهْرًا»: بميم مضمومة فنون ساكنة فحاء فدال مكسورة مهملتين فراء

«جَبْهَتَهُ»: بفتح الجيم والمُوَحَّدَةُ والهاء والفوقية أي استقبلته بالمكروه، وأصله من إصابة الجَبْهَةِ يُقال جبهته إذا أَصَبَتْ جبهته.

«كَرَبٌ كَرْبًا»: وفي رواية: فَكُرِبْتُ كُرْبَةً - بضم الكاف وسكون الراء - ما كُرِبْتُ مثله

قط والضمير في مثله يعود على معنى الكُرْبَةُ وهو الكَرْبُ أو الغَمُّ أو الهمُّ أو الشيء.

«الرُّوْحَاءُ»^(٣): براء مفتوحة فواو ساكنة فحاء مهملة فألِفِ ممدودة: بَلَدٌ من عمل الفُرْعِ^(٤)

على نحو أربعين ميلاً من المدينة ويقال على ستة وثلاثين ميلاً، ويقال على ثلاثين ميلاً.

«التنعيم»^(٥): من الحِلِّ بينه وبين سَرِفِ على فرسخين من مكة نحو المدينة.

(١) لسان العرب ٣٢٣٦/٥.

(٢) المعجم الوسيط ٦٩٥/٢.

(٣) الرُّوْحَاءُ من الفُرْعِ، على نحو أربعين ميلاً من المدينة. وفي كتاب مسلم بن الحجاج: على ستة وثلاثين ميلاً. وفي كتاب ابن أبي شيبة: على ثلاثين ميلاً وهو الموضع الذي نزل به تبع حين رجع من قتال أهل المدينة يريد مكة، فأقام بها وأراح فسأها الروحاء.

(٤) الفُرْعُ بالضم، ثم السكون، وآخره عين مهملة. وقيل: بضمين: قرية من نواحي الرنفة، عن يسار الشقيا، بينها وبين المدينة ثمانية برد، على طريق مكة. وقيل: أربع ليال: قرية.

(٥) التنعيم: موضع بمكة خارج الحرم، هو أدنى الحِلِّ إليها، على طريق المدينة، منه يحرم المكيون بالعمرة، به مساجد مبنية بين سرف ومكة. قال: على فرسخين من مكة. وقيل: أربعة. قلت: لا خلاف بين الناس أنه على ثلاثة أميال من مكة.

«يَقْدُمُهَا»: بضم الدال في المضارع وفتحها في الماضي، يقال: قَدَمَ يَقْدُمُ قُدْمًا، بضم القاف في المصدر، أي تَقَدَّمَ. قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [هود: ٦].

«جَمَلٌ أَوْرَقٌ»^(١): أي في لونه بياض إلى سواد، قاله الأضمعي. وقال أبو زيد: يَضْرِبُ لَوْنُهُ إِلَى الْخُضْرَةِ.

«أَهْرَيْتُ»^(٢): انكبت.

«فِي غُدُوقة»: بضم الغين المعجمة: ما بين صلاة الصبح وطلوع الشمس.

«الرَّوْحَةُ»^(٣): اسم للوقت من الزوال إلى الليل.

هذا ما يَسُرُّ الله تَعَالَى من الكلام على بعض فوائد القصة وشرح مشكلها، وقد جَمَعْتُ جزءاً في بيان تخريج أحاديثها سَمَّيْتُهُ: «الإفراج في تخريج أحاديث قصة المعراج»، فمن تَوَقَّفَ في ورود لفظ فليراجع ذلك الجزء يظفر بمعرفة مَنْ رواه من الأئمة، والله سبحانه وتعالى الْمُتَوَقِّعُ لِلصَّوَابِ.

(١) اللسان ٤٨١٦/٦، ٤٨١٧.

(٢) انظر لسان العرب ٤٦٥٤/٦.

(٣) انظر المعجم الوسيط ٣٨٠/١، ٣٨١.

الباب العاشر

في صلاة جبريل بالنبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء وكيف فرضت الصلاة

روى الإمامان الشافعي وأحمد، وأبو داود والترمذي وحسنه، والطحاوي^(١) والبيهقي عن ابن عباس، والإمام أحمد والنسائي والدارقطني والحاكم وصححه وأقره الذهبي عن جابر بن عبد الله، والدارقطني والحاكم والإسماعيلي في معجمه، وابن السكن في صحيحه عن أنس، والدارقطني بإسناد جيد عن ابن عمر، والنسائي والحاكم وصححه وأقره الذهبي عن أبي هريرة وإسحاق بن راهويه عن أبي مسعود الأنصاري، وعبد الرزاق وإسحاق عن أبي سعيد الخدري، وإسحق عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه عن جده عمرو بن حزم رضي الله تعالى عنهم. قال الحافظ في المطالب: إسناده حسن، إلا أن محمد بن عمرو بن حزم لم يسمع من النبي ﷺ ليصغر سنه، فإن كان الضمير في جده يعود على أبي بكر توقف على سماع أبي بكر من عمر أن رسول الله ﷺ قال: «أُمْنِي جبريل عند البيت». ولفظ الشافعي والطحاوي والبيهقي: «عند باب البيت». «مَرَّتَيْنِ فَصَلَّى بِي الظُّهْر حِينَ زَالَتِ الشَّمْسُ، وَكَانَتْ قَدَرُ الشَّرَاكِ، وَصَلَّى بِي العَصْر حِينَ صَارَ ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَهُ، وَصَلَّى بِي المَغْرِب حِينَ أَفْطَرَ الصَّائِمَ، وَصَلَّى بِي العِشَاء حِينَ غَابَ الشَّفَقُ، وَصَلَّى بِي الفَجْر حِينَ حَرَّمَ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ عَلَى الصَّائِمِ، فَلَمَّا كَانَ الغَدُ صَلَّى بِي الظُّهْر حِينَ كَانَ ظِلُّهُ مِثْلَهُ». وفي لفظ: «كوقت العصر بالأمس». «وَصَلَّى بِي العَصْر حِينَ كَانَ ظِلُّهُ مِثْلِيهِ، وَصَلَّى بِي المَغْرِب حِينَ أَفْطَرَ الصَّائِمَ، وَصَلَّى بِي العِشَاء إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ الأوَّلِ، وَصَلَّى بِي الفَجْر فَأَشْفَرَهُ، ثُمَّ التَفَتَ فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ هَذَا وَقْتُ الرِّبَايَا مِنَ قَبْلِكَ، وَالْوَقْتُ مَا بَيْنَ هَذَيْنِ^(٢)».

هذا ما وقفت عليه في صلاة جبريل بالنبي ﷺ بالصلوات الخمس، وأما عدد ركعاتها حين فرضت فمن الناس من ذهب إلى أنها فرضت أول ما فرضت ركعتين ركعتين، ثم زيد في صلاة الحضرة فأكملت أربعاً إلا المغرب وأقلت صلاة الشفَر ركعتين. وروى ذلك عن عائشة رضي الله عنها الشعبي وميمون بن مهران ومحمد بن إسحاق. ومنهم من ذهب إلى أنها

(١) منهم أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي: وإليه انتهت رئاسة أصحاب أبي حنيفة بمصر. أخذ العلم عن أبي جعفر بن أبي عمران وعن أبي خازم وغيرهما. وكان شافعيًا يقرأ على أبي إبراهيم المزني فقال له يوماً: والله لا جاء منك شيء، فغضب أبو جعفر من ذلك وانتقل إلى أبي جعفر بن أبي عمران، فلما صنف مختصره قال: رحم الله أبا إبراهيم لو كان حياً لكفر عن يمينه وصنف «اختلاف العلماء» و«الشروط» و«أحكام القرآن» و«معاني الآثار». ولد سنة ثمان وثلاثين ومائتين ومات سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة. طبقات الفقهاء للشيرازي ١٤٢.

(٢) أخرجه الشافعي في الأم ٧١/١ وأحمد في المسند ٣٣٣/١ وأبو داود ٢٧٤/١ (٣٩٣) والترمذي ٢٧٨/١ (١٤٩) وابن خزيمة في صحيحه ١٦٨/١ (٣٢٥) والدارقطني ٢٥٨/١ (٩-٦).

فُرضت أول ما فُرضت أربعاً إلا المغرب ففُرضت ثلاثاً والصبح ركعتين، وبه قال الحسن ونافع بن جبير بن مُطعم وابن جرير.

ومنهم من ذهب إلى أنها فُرضت في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين، يُزوى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكر أدلة هذه الأقوال والكلام عليها مذکور في المُطوّلات. وروى الشيخان وابن إسحاق عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «افترضت الصلاة على رسول الله ﷺ أول ما افترضت ركعتين ركعتين كل صلاة ثم إن الله أتمها في الحضر أربعاً وأقرها في السفر على فرضها الأول ركعتين».

تنبيهات

الأول: ذكر بعضهم أن المعروف في رواية المواقيت عند البيت - وروى عند باب البيت - وقد علمت أنها رواية الشافعي والطحاوي والبيهقي.

الثاني: المشهور في الأحاديث السابقة الابتداء بالظهر. روى ابن أبي خيثمة في تاريخه عن أحمد بن محمد، حدثنا إبراهيم بن سعد عن أبي إسحاق عن عُثبة بن مسلم عن نافع بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما فُرضت الصلاة على رسول الله ﷺ أتاه جبريل فصلّى به الصبح حين طلع الفجر»، وذكر الحديث. وكذا وقع في رواية الدارقطني وابن جبان في الضعفاء من طريق محبوب بن جهم، وهو ضعيف، وفي رواية أبي هريرة عند النسائي: قال رسول الله ﷺ: «هذا جبريل جاءكم يُعلمكم دينكم»، فصلّى الصبح حين طلع الفجر.

الثالث: قال أبو عُمر: لم أجد قوله «هذا وقتك ووقت الأنبياء قبلك»، إلا في هذا الحديث، يعني رواية ابن عباس، قلت: قال القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله: ظاهرة يُوهم أن هذه الصلوات في هذه الأوقات مشروعة لمن قبله من الأنبياء، وليس كذلك، إنما معناه: هذا وقتك المشروع لك، يعني الوقت الموسع المحدود بطرفين: الأول والآخر، ووقت الأنبياء قبلك، يعني مثله وقت الأنبياء قبلك أي صلاتهم كانت واسعة الوقت وذات طرفين مثل هذا. وإلا فلم تكن هذه الصلوات على هذا الميقات إلا لهذه الأمة خاصة وإن كان غيرهم قد يشاركهم في بعضها.

وقد روى أبو داود في حديث العشاء: «أعتموا بهذه الصلاة فإنكم قد فضّلتم بها على سائر الأمم ولم تُصلّها أمة قبلكم وكذا قال أبو الفتح: «يريد بها التوسعة عليهم في أن للوقت أولاً وآخرًا إلا أن الأوقات هي أوقاتهم بعينها».

الرابع: استشكل بعضهم لفظ «عند البيت» بأنه ﷺ كان يستقبل بيت المقدس قبل الهجرة. قلت: ولا إشكال في ذلك لاحتمال أنه ﷺ جعل البيت بينه وبين بيت المقدس، وكذلك رواية: «عند الباب» لا إشكال فيها، إذ لا يلزم في كون الصلاة عند الباب أن تكون الصلاة إليه.

الخامس: قال ابن المنير: «لما أمر الله سبحانه وتعالى جبريل أن يُعَلِّمَ النبي ﷺ الصلاة، كانت هذه فرضاً عليه لأنه أمير بذلك، فكانت صلاة النبي ﷺ صلاة مُفْتَرَضٍ خلف مُفْتَرَضٍ».

السادس: قال الحربي: «أول ما فرضت الصلاة عليه: ركعتين أول النهار وركعتين آخره بسنَّده عن عائشة رضي الله عنها قالت: «فَرَضَ رسول الله ﷺ الصلاة ركعتين ركعتين ثم زاد فيها في الحضر». قال أبو عُمر: «ليس في حديث عائشة دليل على صحة ما ذهب إليه الحربي، ولا يوجد هذا في أثر صحيح، بل فيه دليل على أن الصلاة التي فُرِضت ركعتين ركعتين هي الصلوات الخمس لأن الإشارة بالألف واللام في «الصلاة» إشارة إلى المعهود». قال الحافظ: «الذي يظهر وبه تُجْمَع الأدلة أن الصلاة فُرِضت ليلة الإسراء ركعتين ركعتين إلا المغرب، ثم زيدت عَقِبَ الهجرة إلا الصبح كما روى ابن خزيمة وابن جبان والبيهقي من طريق الشعبي عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: «فُرِضت صلاة السفر والحضر ركعتين ركعتين، فلما قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة واطمأن، زيد في صلاة الحضر ركعتان وثُرِكت صلاة الفجر لطول القراءة وصلاة المغرب لأنها وثر». انتهى.

ثم بعد أن استقر فرض الرباعية خُفِّفَ منها في السفر عند نزول الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٠١] قال ويؤيد ذلك ما ذكره ابن الأثير في شرح مُسْتَدَدِ الشافعي: إن قَصْر الصلاة كان في ربيع الأول من السنة الثانية، وهو مأخوذ مما ذكره غيره أن نزول آية الخوف كان فيها. وقيل قَصْر الصلاة كان في ربيع الأول من السنة الأولى ذكره الدولابي وأورده السهيلي بلفظ بعد الهجرة بعام أو بنحوه، وقيل بعد الهجرة بأربعين يوماً. فعلى هذا فالمراد بقول عائشة: فأقرت صلاة السفر باعتبار ما آل إليه الأمر من التخفيف لأنها استمرت منذ فرضت فلا يلزم من ذلك أن القصر عزيمة.

السابع: قال السهيلي: هل هذه الزيادة في الصلاة نسخ أم لا؟ فيقال: أما زيادة ركعتين أو ركعة إلى ما قبلها من الركوع حتى تكون صلاة واحدة فتنسخ، لأن النسخ رفع الحكم، وقد

ارتفع حكم الإجزاء^(١) من الركعتين وصار من سَلَّمَ فيها عامداً مُفْسِداً لها، وإن أراد أن يُتِمَّ صلاته بعد ما سَلَّمَ عامداً لم يُجْزِهِ إِلَّا أَنْ يَسْتَأْنِفَ الصَّلَاةَ مِنْ أَوَّلِهَا، فَقَدْ ارْتَفَعَ حُكْمُ الْإِجْزَاءِ بِالنَّشْخِ، وَأَمَّا الزِّيَادَةُ فِي عِدَدِ الصَّلَوَاتِ حَتَّى الثُّلُثِ خَمْساً بَعْدَ مَا كَانَتْ اثْنَتَيْنِ فَسُمِّيَتْ نَشْخاً عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ، قَالَ الزِّيَادَةُ عِنْدَهُ نَشْخٌ، وَجَمْهُورُ الْمُتَكَلِّمِينَ عَلَيَّ أَنَّهُ لَيْسَ بِنَشْخٍ، وَلَا حُجْجَاجِ الْفَرِيقَيْنِ مَوْضِعٌ غَيْرُ هَذَا.

الثامن: في بيان غريب ما سَبَقَ:

«زوال الشمس»: عبارة عن ميلها من جانب الشمال إلى جانب اليمين إذا اسْتَقْبَلَتْ الْقِبْلَةَ.

«الشُّرَاكُ»^(٢): أحد سيور النُّعْلِ التي على وجهها وقدره هنا ليس على معنى التحديد.

(١) يقال: أجزأني الشيء: أي كفاني، وتُرْوَى بالياء. انظر النهاية لابن الأثير ١/٢٦٦.

(٢) انظر لسان العرب ٤/٢٢٥٠.

جماع أبواب بدء إسلام الأنصار

الباب الأول

في نسبهم

قال السهيلي رحمه الله تعالى: «الأنصار جمع ناصر على غير قياس في جمع فاعل، ولكن على تقدير حذف الألف من ناصر لأنها زائدة، فالاسم على تقدير حذفها ثلاثي، والثلاثي يُجمع على أفعال، وقد قالوا في نحوه صاحب وأصحاب وشاهد وأشهاد». وفي الصحاح النصير الناصر، والجمع أنصار مثل شريف وأشراف، وجمع الناصر نصر مثل صاحب وصخب. انتهى.

ولم يكن «الأنصار» اسماً لهم في الجاهلية بل سَمَّاهم الله تعالى به في كتابه كما سيأتي في الباب بعده.

والأنصار جزبان: الأول: بنو الأوس، قال السهيلي: وهو لغة العظيمة أو العوض. زاد في الزهر: وأوس زجر للغنم والبقر، ودخول الألف واللام فيه على حد دخولها في التميم جمع تميمي، وهو من باب رومي وروم، ومثل هذا إذا كان علماً لا تدخله الألف واللام.

والثاني: بنو الخزرج، قال السهيلي: وهو في اللغة الريح الباردة، وقال بعضهم: هي الجنوب خاصة، وقال بعضهم في الزهر: الريح الشديدة. والأوس والخزرج ابنا حارثة - بحاء مهمله وثاء مثله - ابن ثعلبة العنقاء - بعين مهمله مفتوحة فنون ساكنة فقفاف فهزمة ممدودة، لُقِّبَ به لطول عنقه - ابن عمرو مُزَيَّقِيَاء - بميم مضمومة فزاي مفتوحة فمُثَنَّاء تحتية ساكنة، فقفاف مكسورة فمُثَنَّاء تحتية فهزمة ممدودة، لُقِّبَ عمرو بذلك لأنه كان من ملوك اليمن، وكان يلبس كل يوم حُلَّتَيْنِ فَيُحَزِّقُهُمَا بِالْعَشِيِّ وَيُكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِيهِمَا، وَيَأْنَفُ أَنْ يَلْبَسَهُمَا أَحَدٌ غَيْرَهُ، قَالَ فِي النُّورِ وَالرُّوْحِ يُحَزِّقُ كُلَّ يَوْمٍ حُلَّةً بِالْإِفْرَادِ - ابن عامر ماء السماء - لأن قومه كانوا إذا قَحَطُوا بَتُّ فِيهِمْ مَالَهُ، فَكَانَ يَقُومُ لَهُمْ مَقَامُ مَاءِ السَّمَاءِ - ابن حارثة - بحاء مهمله ومثَلَّثَةٌ، وَيُلَقَّبُ بِالغَطْرِيفِ - بعين معجمة مكسورة فطاء مهمله ساكنة فراء مكسورة وفي آخره فاء، وهو في اللغة الشَّيْدُ وَفَرْخُ الْبَازِي - ابن امرئ القيس - وَيُلَقَّبُ: الْبَطْرِيقُ بِيَاءٍ مُوَحَّدَةٍ فَطَاءٍ مَهْمَلَةٍ سَاكِنَةٍ وَفِي آخِرِهِ قَافٌ - وهو القائد من قواد الروم وهو مُقَرَّبٌ، وَالْجَمْعُ بِطَارِقَةٌ، وَهُوَ فِي اللُّغَةِ الشَّمِينُ مِنَ الطَّيْرِ وَغَيْرِهِ، وَأَيْضاً الْمُخْتَالُ فِي مَشِيهِ - ابن ثعلبة - وَيُلَقَّبُ بِالْبَهْلُولِ بِيَاءٍ مُوَحَّدَةٍ مَضْمُومَةٍ

وهاء ساكنة وهو في اللغة الشَّيْد - ابن مازن - وَيُنْقَبُ: زاد الشَّفَر - ابن الأزد - اسم الأزد «دِرَا»
 بدال مكسورة فراء مهملتين فألف ممدودة - ابن القَوْتُ - بغين معجمة مفتوحة فواو ساكنة فمثلثة
 - ابن مالك بن زيد بن كهلان - بكاف مفتوحة فهاء ساكنة وآخره نون - ابن سَبَا - يَمْدٌ وَيُقَصِّرُ،
 وَيُضْرَفُ وَلَا يُضْرَفُ واسمه عامر وقيل عَبْدُ شَمْسٍ - ابن يَشْجُبٍ - بِمُثَنَّاةٍ تَحْتِيَّةٍ مَفْتُوحَةٍ فَشِينِ
 معجمة ساكنة فجيم مضمومة فَمُوْحِدَةٌ، وِرَانٌ يَنْضُرُ، وَلَا يَنْصُرُ لِلْعَلْمِيَّةِ - ابن يَغْرُوبٍ - بعين
 مهملة وِرَانٌ يَشْجُبُ - ابن قَحْطَانَ - بقاف مفتوحة فحاء ساكنة مُهْمَلَتَيْنِ فَنون، والنسبة إليهما
 قحطاني على القياس، ولقبه يَحْطُنُ - بِمُثَنَّاةٍ تَحْتِيَّةٍ فَقَافٍ فَطَاءٌ مَهْمَلَةٌ وِرَانٌ يَغْرُوبٌ وَسُمِّيَ
 بقحطان لأنه كان أول من قَحَطَ أَمْوَالَ النَّاسِ مِنْ مَلُوكِ الْعَرَبِ واسمه مهزم، ويقال إن قحطان
 كان أول من تكلم بالعربية وهو والد العرب المتعربة وأما إسماعيل فهو والد العرب المستعربة،
 وقيل قحطان أول من قيل له: أَيْبَتِ اللَّغْنُ، وَعِمٌّ صَبَاحًا، وَذَهَبَ الزَّبِيرُ بْنُ بَكَّارٍ إِلَى أَنَّ قَحْطَانَ
 مِنْ ذُرِّيَةِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنَّهُ قَحْطَانُ بْنُ الْهَمَيْشَعِ وَتَقَدَّمَ ضَبْطُهُ فِي النَّسَبِ النَّبَوِيِّ: ابن
 إسماعيل وهو ظاهر قول أبي هريرة رضي الله عنه المتقدم في قصة هاجر حيث قال وهو
 يخاطب الأنصار: «تلك أمكم يا بني ماء السماء». قال الحافظ: «وهذا هو الراجح في نقدي». وبتسط الكلام على ذلك.

الباب الثاني

في فضلهم وحبهم والوصية بهم والتجاوز عن مسيئتهم والنهي عن بغضهم

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٧٤] وقال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] وقال تَقَدَّسَ اسْمُهُ: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وعن غيلان بن جرير قال: «قلت لأنس: أَرَأَيْتَ اسم الأنصار كنتم تُسَمُّونَ به أم سَمَّاكم الله؟ قال: بل سَمَّانا الله عَزَّوَجَلَّ»، رواه البخاري والنسائي. وعن ابن عباس رضي الله عنهما، يرفعه: «إن الله أَمَدَّنِي بِأَشَدِّ النَّاسِ أَلْسِنًا وَأَذْرَعًا، بَابِنِّي قَبِيلَةَ: الأوس والخزرج»، رواه الطبراني في الكبير. وعن أبي واقد الليثي قال: كنت جالسا عند رسول الله ﷺ فَأَتَاهُ آتٍ فَالْتَقَمَ أُذُنَهُ فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ وَسَارَ الدَّمُ فِي أُسَارِيرِهِ، ثم قال: «هذا رسول عامر بن الطفيل يَتَهَدَّدُنِي فَكفانيه الله بالبيتين من وُلْدِ إِسْمَاعِيلِ بَابِنِّي قَبِيلَةَ»، يعني الأنصار، رواه الطبراني في الكبير والأوسط.

وعن أنس رضي الله عنه قال: رأى رسول الله ﷺ النِّسَاءَ وَالصَّبِيَّانَ مُقْبِلِينَ قَالَ: حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ: مِنْ عُرْسِ فِقَامِ النَّبِيِّ ﷺ مُثَلًّا، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ»، قالها ثلاث مرات. رواه البخاري^(١). وعنه أيضا قال: جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ ومعهما صَبِيٌّ لَهَا فَكَلَّمَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ»، مرَّتَيْنِ، رواه الشيخان والنسائي^(٢). وعن البراء بن عازب رضي الله عنه يرفعه قال: قال النبي ﷺ: «الأنصار لا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنِينَ وَلَا يَبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقِينَ فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّهُ وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ»^(٣)، رواه الستة خلا أبو داود. وعن أنس رضي الله عنه يرفعه: «آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ»^(٤). رواه الشيخان والنسائي. وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مَرَّ بِبَعْضِ سَكِّكَ الْمَدِينَةِ فَإِذَا بِجَوَارٍ يَضْرِبْنَ بِدُقُفَيْنِ وَيَتَغَنَّيْنَ وَيَقْلُنَّ: نحن جوار من بنى النجار يا حَبَّذَا مُحَمَّدٍ مِنْ جَارٍ، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ تَعْلَمُ أَنِّي لِأَجِبُكُمْ»، حديث صحيح رواه ابن ماجه، وعن سعد بن عُبَادَةَ يرفعه: «إِنَّ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْأَنْصَارِ بِمِخْنَةٍ: حُبُّهُمْ

(١) أخرجه البخاري ١١١/٥ (٣٧٨٥).

(٢) أخرجه البخاري ٤٠/٥ (دار الفكر) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة (١٧٥).

(٣) أخرجه البخاري ١١٣/٧ (٣٧٨٣) ومسلم ٨٥/١ (١٢٩-٧٥).

(٤) أخرجه البخاري ١١٣/٧ ومسلم ٨٥/١ (١٢٨-٧٤).

في فضلهم وحبهم والوصية بهم والتجاوز عن مسيئتهم والنهي عن بغضهم

إيمان وُبُغْضُهُمْ نِفَاقٌ^(١)، رواه الإمام أحمد. وعن أبي سعيد الخُدْرِي يرفعه: «حُبُّ الْأَنْصَارِ إِيمَانٌ وَبُغْضُهُمْ نِفَاقٌ»^(٢)، رواه الإمام أحمد. وعنه، «لَا يَتَبَغَضُ الْأَنْصَارَ رَجُلٌ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»^(٣)، رواه الإمام أحمد.

وعنه أيضاً يرفعه: «مَنْ أَحَبَّنِي أَحَبَّ الْأَنْصَارَ، وَمَنْ أَبْغَضَنِي فَقَدْ أَبْغَضَ الْأَنْصَارَ، لَا يُجِبُّهُمْ مَنَافِقٌ وَلَا يَبْغِضُهُمْ مُؤْمِنٌ، مَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّهُ وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ، النَّاسُ دِثَارٌ وَالْأَنْصَارُ شِعَارٌ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْباً وَسَلَكَ الْأَنْصَارُ شِعْباً لَسَلَكَتْ شِعْبَ الْأَنْصَارِ» رواه الإمام أحمد^(٤).

وعن جدة رباح بن عبد الرحمن بن حُوَيْطِب يرفعه: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا وَضُوءَ لَهُ وَلَا وَضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِي وَلَا يُؤْمِنُ بِي مَنْ لَا يَحِبُّ الْأَنْصَارَ»، رواه الترمذي وابن ماجه دون ذكر الأنصار فيه، وقال الترمذي عن البخاري إنه قال: «هَذَا أَحْسَنُ حَدِيثٍ فِي هَذَا الْبَابِ». وعن علي بن سَبْرَةَ عن أبيه عن جَدِّهِ يرفعه: «أَيُّهَا النَّاسُ لَا صَلَاةَ إِلَّا بَوْضُوءٍ وَلَا وَضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِي وَلَمْ يُؤْمِنْ بِي مَنْ لَمْ يَعْرِفْ حَقَّ الْأَنْصَارِ»، رواه البغوي في معجمه والطبراني في الأوسط.

وعن الحارث بن زياد يرفعه: «مَنْ أَحَبَّ الْأَنْصَارَ أَحَبَّهُ اللَّهُ وَمَنْ أَبْغَضَ الْأَنْصَارَ أَبْغَضَهُ اللَّهُ» رواه الإمام أحمد^(٥). وعنه أيضاً يرفعه: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَحِبُّ رَجُلَ الْأَنْصَارِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ يَحِبُّهُ، وَلَا يَبْغِضُ رَجُلَ الْأَنْصَارِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ يَبْغِضُهُ»، رواه الإمام أحمد والطبراني وسنده صحيح^(٦). وعن أنس رضي الله عنه قال: افتخر الحَيَّانُ مِنَ الْأَنْصَارِ: الْأَوْسُ وَالخَزْرَجُ، فَقَالَتْ الْأَوْسُ: «مِثْنَا غَسِيلَ الْمَلَائِكَةِ حَنْظَلَةَ بْنِ أَبِي عَامِرِ الرَّاهِبِ، وَمِثْنَا مَنْ اهْتَزَّ لَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، وَمَنَا مِنْ حَمَتِهِ الدَّبْرُ، عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ»^(٧) بن أبي

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢٨٥/٥ والطبراني في الكبير ٢٤/٦ وذكره الهيثمي في المجمع ٢٨/١٠ والمتقي الهندي في الكنز (٣٣٧٤٣).

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٧٠/٣ وابن عدي في الكامل ٧٣٠/٢.

(٣) أخرجه مسلم ٨٦/١ (٧٧. ١٣٠) والترمذي (٢٩. ٦) وأحمد في المسند ٣٠٩/١. ٤١٩/٢ والطبراني في الكبير ١٧/١٢.

(٤) ذكره الهيثمي في المجمع ٣٢/١٠ وعزاه للبخاري لساندين وفيهما كلاهما عطية وحديثه يكتب على ضعفه، وثقة رجاله رجال الصحيح.

(٥) أخرجه ابن ماجه (١٦٣) وأحمد في المسند ٥٠١/٢ والطبراني في الكبير ٢٩٩/٣ وابن أبي شعبة في المصنف ١٥٨/١٢.

(٦) ذكره الهيثمي في المجمع ٤١/١٠ وعزاه لأحمد والطبراني بأسانيد ورجال بعضها رجال الصحيح غير محمد بن عمرو وهو حسن الحديث.

(٧) عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح قيس بن عصمة بن النعمان بن مالك بن أمية بن ضبيعة بن بدر بن مالك بن عمرو بن عوف الأنصاري جد عاصم بن عمرو بن الخطاب لأمه من السابقين الأولين من الأنصار.. الإصابة ٣/٤.

الأقلح، ومنا من أُجيزت شهادته بشهادة رَجُلَيْنِ، خزيمة بن ثابت. فقال الخزرجيون: منا أربعة نفر جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ لم يجمعه غيرهم: زيد بن ثابت، وأبو زيد، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، حديث رواه أبو يعلَى والبزار، والطبراني في الكبير، وفي الصحيح منه الذين جمعوا القرآن.

وعن معاوية بن أبي سفيان وأبي هريرة يرفعانه: «من أحب الأنصار أحبه الله ومن أبغض الأنصار أبغضه الله»^(١)، رواه أبو يعلى، وهو حديث حسن صحيح رواه البزار عن أبي هريرة والطبراني عن معاوية، وله طريق آخر عند الطبراني عن معاوية يرفعه: «من أحب الأنصار فَيُحِبِّي أَحِبَّهُمْ وَمَنْ أَبْغَضَ الْأَنْصَارَ فَيَبْغِضِي أَبْغَضَهُمْ»^(٢)، حديث صحيح. وعن أنس رضي الله عنه قال: قالت الأنصار يوم فتح مكة وأعطى قريشاً: «والله إن هذا لهُو العجب إن سيوفنا تَقَطَّرُ من دماء قريش وغنائمنا تُرَدُّ عليهم». فبلغ ذلك النبي ﷺ فدعا الأنصار، قال: فقال: «ما الذي بلغني عنكم؟» وكانوا لا يكذبون، فقالوا: «هو الذي بلغك». قال: «أَوَ لَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَزُجَعَ النَّاسُ بِالْغَنَائِمِ إِلَى بَيْوتِهِمْ وَتَرْجَعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَيْوتِكُمْ، لَوْ سَلَكْتَ الْأَنْصَارَ وَاوْدِيًا أَوْ شِغْبًا لَسَلَكْتَ وَاوْدِي الْأَنْصَارِ أَوْ شِغْبَهُمْ»^(٣). رواه الشيخان والنسائي، وهو عند البخاري أيضاً من حديث أبي هريرة، وفي آخره: «وَلَوْ لَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ أَمْرًا مِنَ الْأَنْصَارِ». وعند النسائي بعد الشُّغْبِ: «اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ»^(٤)، فبكى الأنصار حتى انخضلت لحاهم، وقالوا: «رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قِسْمًا وَحِطًّا»، حديث صحيح رواه الإمام أحمد. وعن أبي هريرة يرفعه: «لَوْ لَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ أَمْرًا أَنْصَارِيًّا»^(٥)، رواه الترمذي وحسنه. وعن أبي قتادة يرفعه: «أَلَا إِنَّ النَّاسَ دِثَارٌ وَالْأَنْصَارَ شَعَارٌ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَسَلَكَ الْأَنْصَارَ شِغْبًا لَا تُبْعَتِ شِغْبِ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ لَا الْهَجْرَةَ لَكُنْتُ أَمْرًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَمَنْ وُلِيَ مِنْ أَمْرِ الْأَنْصَارِ شَيْئًا فَلْيُخَيِّنْ إِلَى مُخَيِّنِهِمْ وَلْيَتَجَاوَزْ عَنْ مُسِيئَتِهِمْ، مَنْ أَفْرَعَهُمْ فَقَدْ أَفْرَعَ هَذَا الَّذِي بَيْنَ هَذَيْنِ»^(٦)، وأشار إلى نفسه، حديث صحيح رواه الإمام أحمد والطبراني، وزاد في آخره: يعني قلبه. وعن

(١) أخرجه أبو يعلى في المسند ٣٥٦/١٣ (١٤٠-٧٣٦٧) وذكره الهيثمي في المجمع ٤٢/١٠ وعزاه لأبي يعلى وقال:

إسناده جيد. ورواه البزار وفيه محمد بن عمرو وهو حسن الحديث وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٣٤١/١٩ وذكره الهيثمي ٤٢/١٠ وعزاه للطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح غير أحمد بن حاتم وهو ثقة.

(٣) أخرجه البخاري ٣٨/٥ (دار الفکر) ومسلم في كتاب الزكاة (١٣٤).

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٧٧/٣ والبيهقي في الدلائل ١٧٨/٥ وابن سعد في الطبقات ١١١/١/٢.

(٥) أخرجه البخاري ٢٣٨/١٣ (٧٢٤٤) ومسلم في كتاب الزكاة (١٣٩).

(٦) ذكره الهيثمي في المجمع ٣٥/١٠ وعزاه للطبراني في الأوسط عن شيخه مقدم بن داود وهو ضعيف.

وقال ابن دقيق العيد: إنه وثق، وبقية رجاله ثقات.

السائب بن يزيد أن رسول الله ﷺ قَسَمَ الفِئَاءَ الذي أفاء الله تعالى بِخَنَيْنٍ من غنائم هوازن، فأحسن، فذكر الحديث وفيه: ثم قال: «يا معشر الأنصار ألم يَمُنَّ اللهُ عليكم بالإيمان وخصَّكم بالكرامة وسمَّاكم بأحسن الأسماء: أنصار الله وأنصار رسوله؟ ولولا الهجرة لكنت امرأة أنصاريًا ولو سلك الناس واديًا وسلكتم واديًا لسلكت واديكم، أو لا تَرْضُونَ أن يذهب الناس بالشاء والنعم وتذهبون برسول الله ﷺ؟ قالوا: قد رضينا. قال: «أجيبوني فيما قلت». قالت الأنصار: يا رسول الله وجدتنا في ظلمة فأخرجنا الله بك، ووجدتنا على شفا حفرة من النار فأيدنا الله بك، ووجدتنا ضللاً فهدانا الله بك، فرضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً فاصنع يا رسول الله ما شئت فأوسع الحل. فقال النبي ﷺ: «لو أجبتُموني بغير هذا القول لقلت صدقتُم، لو قلتُم: ألم تأتانا طريداً فأويناك، ومكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وقبيلنا مازدُ الناس عليك؟ لو قلتُم هذا لصدقتُم». فقالت الأنصار: «بل الله ذو الفضل علينا وعلى غيرنا». ثم بكوا فكثر بكاءؤهم وبكى رسول الله ﷺ معهم. رواه الطبراني في الكبير^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ وعليه ملحفة متقطفاً بما على منكبيته وعليه عصابة دسما حتى جلس على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد أيها الناس فإن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام. فمن ولي منك امرأة يضرب فيه أحداً أو ينفعه فليقبل من مُحْسِنِهِم ويتجاوز عن مُسِيئِهِم». رواه البخاري^(٢). وعن أنس رضي الله عنه يرفعه: «الأنصار كرشى وعييتي والناس سيكثرون ويقبلون فاقبلوا من مُحْسِنِهِم وتجاوزوا عن مُسِيئِهِم»، رواه البخاري^(٣).

وعن أنس أيضاً، قال: مرَّ أبو بكر والعباس رضي الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون فقال: ما يبكيكم؟ قالوا؛ ذكرنا مجلس النبي ﷺ منا، فدخل على النبي ﷺ فأخبره بذلك. قال: فخرج النبي ﷺ وقد عَصَبَ على رأسه حاشية بُرْدٍ، قال فصعد المنبر ولم يصعده بعد ذلك اليوم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشى وعييتي وقد قَضَوْا الذي عليهم وبقي الذي لهم فاقبلوا من مُحْسِنِهِم وتجاوزوا عن مُسِيئِهِم^(٤)»، رواه الشيخان والنسائي والترمذي.

وعن أسيد بن حضير يرفعه: «الأنصار كرشى وعييتي وإن الناس يكثرون وهم يقلون،

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١٨٠/٧ وذكره السيوطي في الدر ٢٧٠/٣ وعزاه للطبراني.

(٢) أخرجه البخاري ٦٢٨/٦ (٣٦٢٨).

(٣) أخرجه البخاري ١٥١/٧ (٣٨٠١).

(٤) أخرجه البخاري ١٢٠/٧ (٣٧٩٩).

فأقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئتهم^(١)، حديث صحيح رواه الطبراني في الكبير. وعن عبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنهما، يرفعه: «أقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئتهم»، يعني الأنصار، رواه البزار والطبراني وهو حديث حسن. وعن أبي سعيد يرفعه: «ألا إن عيبتني التي أوى إليها أهل بيتي وأن كَرَشِي الأنصار فاعفوا عن مسيئتهم وأقبلوا من محسنهم^(٢)»، حديث صحيح حسن رواه الترمذي. وعن كعب بن مالك عن رجل من الصحابة قال: «خطبنا رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه واستغفر للشهداء الذين قتلوا بأحد ثم قال: «إنكم يا معشر المهاجرين تزيدون وإن الأنصار لا يزيدون، وإن الأنصار عيبتني التي أوي إليها، أكرموا كريمهم وتجاوزوا عن مسيئتهم، وإنهم قد قَضُوا الذي عليهم وبقي الذي لهم»، رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن زيد بن عاصم في ذكر قسم غنائم هوازن في المؤلفة قلوبهم، وفي آخره: «إنكم ستلقون بعدي أثرة فاضبروا حتى تلقوني على الحوض^(٣)»، رواه الشيخان. وعن أبي طلحة يرفعه: «أقرئ قومك السلام فإنهم ما علمت أعفة صُبره»، حديث حسن صحيح، رواه الترمذي والبزار.

وعن عائشة رضي الله عنها ترفعه: «ما يضر امرأة نزلت بين بيتين من الأنصار أو نزلت بين أبويها»، رواه الإمام أحمد، والبزار. وعن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه: «أسلمت الملائكة طوعاً، وأسلمت الأنصار طوعاً وأسلمت عبد القيس طوعاً» حديث حسن رواه الطبراني في الأوسط^(٤).

وعن أنس رضي الله عنه يرفعه: «ألا إن لكل نبي تركة وضئعة، وإن تركتي وضئعتي الأنصار فاحفظوني فيهم^(٥)»، رواه الطبراني في الأوسط. وعنه يرفعه: «الأنصار أجبائي، وفي الدين إخواني وعلى الأعداء أعواني^(٦)»، غريب رواه الديلمي في مسند الفردوس.

تنبيه في غريب ما سبق

«السُّنَاءُ» جمع لسان.

«قَيْلَةٌ» بفتح القاف وسكون المشاة التحتية، أم الأوس والخزرج.

-
- (١) ذكره الهيثمي في المجمع ٤٠/١٠ وعزاه للطبراني وقال: ورجاله رجال الصحيح.
 (٢) أخرجه الترمذي (٣٩٠٤) وابن أبي شيبة في المصنف ١٥٩/١٢ وذكره السيوطي في الدر ٢٧٠/٣.
 (٣) أخرجه البخاري ١٤٦/٧ (٣٧٩٢).
 (٤) ذكره الهيثمي في المجمع ٣١/١٠ وعزاه للطبراني في الأوسط عن شيخه علي بن سعيد بن بشير وفيه لين، وبقية رجاله ثقات.
 (٥) ذكره الهيثمي في المجمع ٣٥/١٠ وعزاه للطبراني في الأوسط وقال: إسناده جيد.
 (٦) أخرجه ابن الجوزي في العلل ٢٨٤/١ وابن حجر في اللسان ٨٥٨/٢ والذهبي في اللسان (١٨١٠) وذكره المتقي الهندي في الكنز (٣٣٧٤٦).

«التَّعَمُّ أذُنُهُ» أي سَأَرَهُ بشيء.

«الأسارير»: خطوط الجبهة واحدها سِرٌّ أو سِرَّرٌ والجمع أسرار، وأسارير جمع الجمع، وفي تكملة الصغاني عن بعض أهل اللغة هي الخَدَّان والوجنتان ومحاسن الوجه.

«إِزَائِي» بالزاي أي حذائي أي بالقرب مني.

«السُّكَّكُ»^(١) جمع سِكَّة بالكسر الزقاق.

«الدُّنَّار»^(٢) بالكسر والمثلثة ما يتدثر به الإنسان، وهو ما يلقيه عليه من كساء وغيره فوق الشعار.

«الشُّقَار»: ما وَلِيَ الجَسَد، سُمِّي بذلك لأنه يلي الشُّعْر، المعنى أنهم الخاصة والبطانة.

«الشُّغْب»: بالكسر الطريق في الجَبَل.

«الدُّبْر»: بفتح الدال المهملة وسكون الموحدة يقال لجماعة النحل والزنابير أيضاً قيل وهو المراد هنا.

«الأَقْلَح»: بالقاف والمهمله.

«قِسْمًا»: بكسر القاف أي نصيباً.

«طَرِيدًا»: أي مُخْرَجًا من بلده.

«المِلْحَفَةُ»: بكسر الميم الملاءة التي يُلْتَحَفُ بها.

«مُتَعَطِّفًا بِهَا»: أي ثانياً طَرَفِي الملحفة على كتفيه.

«دَسْمَاء»: أي سوداء.

«الكَرِش»: كَكْتِفٌ وَيُخَفَّفُ، والمراد هنا ما يحفظ فيه نفيس المتاع.

«الْقَيْئَةُ»^(٣) من الرجل موضع سِرِّهِ وأمانته.

«أَثَرَةٌ»: بفتح الهمزة والمثلثة الاسم من أثر يؤثر إيثاراً إذا أعطى أراد أن يستأثر عليكم

فيفضل غيركم في نصيبه من الشيء.

«أَعْفَةُ» جمع عفيف وهو من يَكْفُ عما لا يحل ولا يَجْمَلُ.

«صَبِيرٌ»^(٤): بضم أوله وثانيه جمع صَبِيرٌ وهو هنا مُقَدَّمُ القوم.

«التَّرْكَةُ»: الشيء المتروك أي الذي تركه الميت لوارثه.

«الضُّبَيْقَةُ»: بالفتح العقار.

(١) انظر لسان العرب ٢٠٥١/٣.

(٢) انظر لسان العرب ١٣٢٧/٢.

(٣) انظر اللسان ٣١٨٤/٤.

(٤) انظر لسان العرب ٢٣٩٣/٤.

الباب الثالث

في بدء إسلامهم رضي الله عنهم

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ على ذلك من أمره كلما اجتمع له ناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله تعالى وإلى الإسلام ويغرض عليهم نفسه وما جاءهم به من الله تعالى من الهدى والرحمة، ولا يسمع بقادم يقدّم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدّى له ودعاه إلى الله تعالى وعرض عليه ما عنده. وروى ابن إسحاق بسند جيد عن محمود بن لبيد قال: لما قدم أبو الحَيَّسَر أنس بن رافع [مكة] - فيما ذكره ابن إسحاق، وبشر فيما ذكره الزبير بن بكار - في فتية من قومه بني عبد الأشهل يلتمسون الجلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم فجلس إليهم فقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له؟ فقالوا له: وما ذلك؟ قال: «أنا رسول الله بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يُشركوا به شيئاً وأنزل عليّ الكتاب»، ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن مُعَاذ، وكان غلاماً حدثاً: «أني قوم هذا والله خير مما جئتم له». فأخذ أبو الحَيَّسَر أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء فضرب بها وجه إياس بن مُعَاذ، وقال: دغنا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا. فصمت إياس وقام رسول الله ﷺ عنهم وانصرفوا إلى المدينة. وكانت وقعة بُعَاث بين الأوس والخزرج ثم لم يلبث إياس بن مُعَاذ أن هلك.

قال محمود بن لبيد: فأخبرني من حضره من قومي عند موته أنهم لم يزالوا يسمعونه يُهلل الله تعالى ويكبره ويُسبِّحه حتى مات، فما كانوا يشكون أن قد مات مسلماً، لقد كان استشر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع.

وروى أبو رزعة الرازي في دلائل النبوة له بسند حسن، والحاكم وصححه عن معاذ بن رفاع بن رافع^(١) عن أبيه عن جده أنه خرج هو وابن خالته معاذ بن عفراء^(٢) حتى قدما مكة^(٣)،

(١) معاذ بن رفاع الأنصاري الزرقني.. ذكره الواقدي وقال: شهد غزوة بني قريظة مع النبي ﷺ على فرس، قلت: وفي التابعين معاذ بن رفاع آخر يروي عن أبيه وجابر وخولة روى عنه عبد الله بن محمد بن عقيل. الإصابة ١٠٨/٦.

(٢) معاذ بن الحرث بن رفاع بن الحرث بن سواد بن مالك بن غنم بن مالك النجاري الأنصاري الخزرجي المعروف بابن عفراء وقيل: بحذف الحرث الثاني في نسبه وعفراء أمه عرف بها.. شهد العقبة الأولى مع الستة الذين هم أول من لقي النبي ﷺ من الأوس والخزرج وشهد بدرًا وشرك في قتل أبي جهل وعاش بعد ذلك وقيل: بل جرح بدر فمات من جراحته. الإصابة ١٠٧/٦، ١٠٨.

(٣) مكة بيت الله الحرام: بلدة فيها الكعبة القبلة التي يتوجه المسلمون إليها في صلاتهم من سائر الآفاق، سُميت مكة لأنها تمك أعناق الجابرة، أي تُذهب نخوتهم وتذلهم. وقيل: لتمكك الناس بها، وهو ازدحامهم. وتسمى مكة أيضاً - بالبهاء - لتمكك الناس بها، وهو ازدحامهم. وقيل: مكة اسم المدينة، وبكة اسم للبيت. مرصد الاطلاع ١٣٠٣/٣.

فلما هبطا من الثنية^(١)، رأى رجلاً تحت شجرة. قال: وهذا قبل خروج الستة من الأنصار، فلما رأيناه قلنا نأتى هذا الرجل لنستودعه راحلتنا حتى نطوف بالبيت، فجيئنا فسلمنا عليه تسليم أهل الجاهلية، فرد علينا تسليم أهل الإسلام، وقد سمعتُ بالنبي، فأنكرنا فقلنا: من أنت؟ قال: «انزلوا» فنزلنا فقلنا: أين هذا الرجل الذي يدعي ما يدعي ويقول ما يقول؟ قال: «أنا هو». قلنا: أغرض علينا الإسلام، فغرض، وقال: من خلق السموات والأرض والجبال؟ قلنا: خلقهن الله عز وجل. قال: «فمن خلقكم؟» قلنا: الله عز وجل. قال: «فمن عمل هذه الأصنام التي تعبدون؟» قلنا: نحن. قال: «الخالق أحق بالعبادة أو المخلوق؟» قلنا: الخالق. قال: «فأنتم أحق أن تعبدوا ربكم وأنتم عملتُموهنَّ والله أحق أن تعبدوه من شيء عملتُموه وأنا أدعوكم إلى عبادة الله عز وجل وشهادة ألا إله إلا الله وأني رسول الله، وصلة الرجم وتترك العدوان وإن غضب الناس». فقالا: لو كان هذا الذي تدعو إليه باطلاً لَمَا كان من معالي الأمور ومحاسن الأخلاق، فأمسك راحلتنا حتى نأتى البيت. فجلس عنده مُعَاذُ بْنُ عَفْرَاءَ.

قال رافع: فجيئتُ البيت فطُفْتُ وأخرجتُ سبعة أقداح وجعلتُ له بينها قَدْحاً، فاستقبلتُ البيت وقلت: اللهم إن كان ما يدعو إليه محمد حقاً فأخرج قَدْحَهُ سبع مرات، فضربت بها سبع مرات، فصيحْتُ: «أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله». فاجتمع الناس عليّ وقالوا: مجنون رجلٌ صَبَأً، فقلت: بل رجل مؤمن، ثم جيئتُ إلى رسول الله ﷺ بأعلى مكة، فلما رأني مُعَاذُ بْنُ عَفْرَاءَ قال: لقد جيئتُ بوجه ما ذهبتُ به يا رافع، لقد جيئتُ وآمنت. وعلمنا رسولُ الله ﷺ سورة يوسف، وسورة العلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾. ثم خرجنا راجعين إلى المدينة.

بيان غريب ما سبق

﴿الجلف﴾ - بكسر الحاء وسكون اللام: المُعَاقَدَةُ والمُعَاهَدَةُ على التعاضد والاتفاق. (أبو الحَيْسَر): بفتح الحاء المهملة وسكون المثناة التحتية بعدها سين مهملة ثم راء، ذكره ابن مَنْدَه في الصَّحَابَةِ، وذكره الحافظ في الإصَابَةِ في الأَسْمَاءِ وفي الكُتُبِ في القسم الرابع فيمن ذُكِرَ في الصَّحَابَةِ غَلَطاً.

﴿إياس بن مُعَاذَ﴾: ذكره ابن السَّكَنِ وابن جِبَّان في الصَّحَابَةِ، وذكره البخاري في تاريخه الأوسط فيمن مات على عهد النبي ﷺ من المهاجرين الأولين والأنصار.

(١) ثنية أم قردان الثنية في الأصل كلُّ عقبٍ في جبل مسلوكة. ويُردان بالكسر جمع قرد، وهي بمكة عند بئر الأسود بن سفيان المخزومي.

(٢) المعجم الوسيط ١/١٩٢.

«الثَّيْبَةُ»^(١): كل عَقَبَة مسلوكة.

«الأقْداح»: جمع قَدَح - بكسر القاف - وهو عود السهم إذا قُوم وإلى أن يُرَاش فإذا رُكِب فيه التُّضَل وریش فهو سهم، والمراد هنا السهم الذي يستقسمون به.

(١) انظر لسان العرب ٥١٦/١.

الباب الرابع

في ذكر يوم بُعَاث

قالت عائشة رضي الله عنها: «كان يوم بُعَاث يوماً قَدَّمه الله لرسوله ﷺ، فقَدِم رسول الله ﷺ وقد افترق مَلَأُوهم وقُتِلت سَرَوَاتُهُم وجرَّحوا، فقَدَّمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام». رواه البخاري (١).

بيان غريبه

«بُعَاث»: بضم المُوحَّدة، وحقى القَزاز في الجامع فَتَحَّها وبتخفيف العين المهملة وآخره المثناة - قال الجمهور - وقال ابن دُرَيْد: وذكر عن الخليل إعجابها ولم يُسَمَّع من غيره وإنما هو بالعين المهملة. وذكر الأزهرى أن الذي صَحَّفَهُ اللَّيْث عن الخليل. وذكر القاضي أن الأصيلي (٢) أحد رواة الصحيح رواه بالوَجْهَيْنِ أي بالعين المعجمة والعين المهملة، وأن وجهاً واحداً هو الذي وقع في رواية أبي ذَرٍّ بالعين المعجمة. ويُقال إن أبا عُبَيْدَةَ ذكره بالمعجمة أيضاً. وبُعَاث: مكان ويقال حِضْن، وقيل مزرعة عند بني قُرَيْظَةَ على ميلين من المدينة كانت به وَفَّعة بين الأوس والخزرج قُتِل فيه كثير منهم، وكان رئيس الأوس فيه.

حُضَيْر. بضم الحاء المهملة وفتح الضاد المعجمة وسكون التحتية بعدها راء - والد أسيد بن حُضَيْر، وكان يقال له: حُضَيْر الكتائب، وبه قُتِل، وكان رئيس الخزرج يومئذ عمرو بن النعمان البياضي فقُتِل بها أيضاً. وكان النصر فيها أولاً للخزرج ثم هُزِم حُضَيْر فرجعوا وانتصرت الأوس وجرَّح حُضَيْر يومئذ فمات منهزماً، وذلك قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل بأربعين سنة وقيل بأكثر. قال الحافظ: «الأول أصح». وذكر أبو الفرج الأموي أن سبب ذلك كان من قاعدتهم أن الأصيل لا يُقْتَل بالحليف، فقتل رجل من الأوس حليفاً للخزرج، فأرادوا أن يُقيدوه، فامتنعوا، ف وقعت بينهما الحرب لأجل ذلك، فقُتِل فيها من أكابرهم من كان لا يُؤْمَن أن يتكبر، ويأنف أن يدخل في الإسلام حتى لا يكون تحت حكم غيره، وقد كان بقي منهم من هذا النحو عبد الله بن أبي بن سلول كما سيأتي بيان ذلك.

(١) أخرجه البخاري ١٣١/٥ (٣٨٤٦).

(٢) عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن جعفر، أبو محمد، الأموي المعروف بالأصيلي: عالم بالحديث والفقهاء من أهل أصيلة (في المغرب) أصله من كورة «شدرنة» ولد فيها ورحل به أبوه إلى «أصيلا» من بلاد العدو فنشأ فيها. ويقال: ولد في أصيلا. رحل في طلب العلم، فطاف في الأندلس والمشرق. ودخل بغداد سنة ٣٥١هـ وعاد إلى الأندلس في آخر أيام المستنصر، فمات بقرطبة. له كتاب «الدلائل على أمهات المسائل» في اختلاف مالك والشافعي وأبي حنيفة. الأعلام ٦٣/٤.

«سَرَوَاتِهِمْ»^(١): بفتح المهملة والراء المخففة والواو، أي خيارهم، والسَرَوَات جمع السَرَاة - بفتح المهملة وتخفيف الراء - والسَرَاة جمع السَرِي، وهو الشريف.

«جَرِحُوا» للأكثر بضم الجيم والراء المكسورة مُثَقَلًا وَمُخَفَّفًا فحاء مهملة، وعند الأصيلي بجيمين جَرِحُوا أي اضطرب قولهم، من قول العَرَب جَرِحَ الخاتم إذا جال في الإصبع، وعند ابن أبي صَفْرَةَ بحاء مهملة مفتوحة من الخَرَج: أي ضيق الصدر، وعند المستملي وعبدوس والقابسي: «وخرجوا» بفتح الخاء المعجمة والراء من الخروج، وَصَوَّب ابن الأثير الأول وقال صاحب التقريب إنه المشهور، وصبوب غيره الثالث.

(١) لسان العرب ٢/٣. ٢٠٠٢.

الباب الخامس

في بيعة العقبة الأولى

وكانت في رجب. وقال الزهري وابن عُقبة وابن إسحق: «فلما أراد الله سبحانه وتعالى إظهار دينه وإعزاز رسوله وإنجاز مواعده له، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقي فيه نفر من الأنصار، فَعَرَضَ نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم. فبينما هو عند العقبة لقي رَهْطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً. فقال لهم: «من أنتم؟» قالوا: نفر من الخزرج. قال: «أمن موالي يهود؟» قالوا: نعم. قال: «أفلا تجلسون أكلئكم؟» قالوا: بلى، من أنت؟ فانتسب لهم وأخبرهم خَبْرَهُ. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعَرَضَ عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. وكان مما صنع الله لهم به من الإسلام أن يهود، كانوا معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا [هم] أهل شِرْكَ وأصحاب أوثان، وكانوا قد عَزُّوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبياً مبعوث الآن قد أظلم زمانه، تَبِعْه فنقتلكم قتل عادٍ وإرم.

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك نفر ودعاهم إلى الله أيقنوا به واطمأنت قلوبهم إلى ما سمعوا منه وعرفوا ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب من صفته، فقال بعضهم لبعض: يا قوم تَعَلَّمُوا والله إنه للنبي الذي تُوعِدكم به يهود فلا تَسْبِقُنْكُمْ إليه [فأجابوه إلى ما دعاهم إليه] بأن صدَّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام. ثم قالوا: قد علمت الذي بيننا من الاختلاف وسفك الدماء، ونحن جِراضٌ على ما أرسلك الله به، مجتهدون لك بالنصيحة، وإنا لنشير عليك برأينا، فامكث على رِسلك باسم الله حتى نرجع إلى قومنا، فنذكر لهم شأنك، وندعوهم إلى الله ورسوله، فلعل الله يصلح ذات بينهم ويجمع لهم أمرهم، فإننا اليوم متباغضون متباعدون، ولكننا نواعذك الموسم من العام المقبل. فرضي بذلك رسول الله ﷺ، وانصرفوا راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا.

وهم فيما ذكر ابن إسحق في رواية ستة نفر من الخزرج:

١ - من بني النَجَّار: أبو أمّامة أسعد بن زُرارة - بضم الزاي - ابن عُدس بن عُبيد بن ثعلبة ابن غنم بن مالك بن النجار.

٢ - عوف بن الحارث ابن رفاعة - بكسر الراء وبالفاء - ابن الحارث بن سواد بن مالك بن غنم بن مالك بن النجار وهو ابن عَفراء.

٣ - ومن بني زُرَيْق - بتقديم الزاي على الراء - ابن عامر بن زُرَيْق بن عبد حارثة بن

مالك بن غَضْب بن جُشَم بن الخزرج: رافع بن مالك بن العَجَلان. قال ابن الكلبي: وهو أول من أسنم من الأنصار.

٤ - ومن بني سَلِمْة - بلام مكسورة - [ابن سعد بن علي بن أسد]: قُطَيْبة - بضم القاف وسكون الطاء المهملة وبالموحدة - ابن عامر بن حديد بن عمرو بن سواد بن غنم بن كعب ابن سَلِمْة بن سعد بن علي بن أسد بن سارِدة بن تزيّد بن جُشَم بن الخزرج بن حارثة.

٥ - ومن بني حَرَام بن كعب بن غنم بن كعب بن سَلِمْة: عُقْبَة - بضم العين المهملة وسكون القاف - ابن عامر بن نَاجِي - بنون فآلف فباء موحدة فمثناة تحتية - ابن زيد بن حرام بن كعب بن غنم بن سَلِمْة.

٦ - ومن بني عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سَلِمْة: جابر بن عبد الله بن رثاب بن النعمان بن سنان بن عبيد...

وفي رواية جرير بن أبي حازم عن ابن إسحاق بدل عُقْبَة بن عامر، مُعَاذ بن عفراء، وعند موسى بن عقبة عن الزهري عن عروة أنهم ثمانية. وهم: مُعَاذ بن عفراء، وَذَكْوَان - بفتح الذال المعجمة وسكون الكاف - ابن عبْد قيس بن خَلْدَة بن مُخَلِد بن عامر بن زُرَيْق، وَعُبَادَة - بضم العين المهملة فباء موحدة - ابن الصامت بن قيس بن الأصرم بن فِهْر بن ثعلبة بن غنم بن عوف بن الخزرج بن حارثة، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة بن خَزْمَة بن أَصْرَم بن عمرو بن عَمَّارة من بني عُصَيْبَة ثم من يَلِيّ حليف لهم. وأبو الهيثم بن التَّيْهَان^(١) بن جُشَم بن الحارث، وَعُوَيْم - بضم العين المهملة وفتح الواو وسكون المثناة التحتية - ابن ساعدة من بني عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس بن حارثة.

بيان ما سبق

«العقبة الأولى»: قال المحب الطبري: «الظاهر أنها العقبة التي تُضاف إليها الجمرة إذ ليس أظهر منها وعن يسار الطريق لقاصد منى من مكة شِغْبَ قريب منها، فيه مسجد مشهور عند أهل مكة أنه مسجد البيعة، وهو على نَشْرٍ من الأرض، ويجوز أن يكون المراد من العقبة ذلك النَشْر، وعلى الأول يكون قد نُسِب إليها لِقُرْبِهِ منها» قال في النور: «وجزم غيره بأن البيعة التي وقعت عندها البيعة هي العقبة التي تُضاف إليها الجمرة».

(١) أبو الهيثم بن التيهان بن مالك بن عتيك بن عمرو بن عبد الأعلم بن عامر بن زعور الأنصاري الأوسي. انظر الإصابة

«موالي يهود»: أي حلفاؤهم، وهم سُموا حلفاء لأنهم تحالفوا على التناصر والتعاقد.
 «الرّهط»: بسكون الهاء وتُفتح دون العشرة من الرجال ليس فيهم امرأة أو منها إلى
 أربعين.

«يهود»: لا ينصرف للعلمية والتأنيث.
 «أَظَلُّ زَمَانَهُ»: بفتح الظاء المعجمة وتشديد اللام أي قَرُبَ وَدَنَا.
 «قَتَلَ عَادٍ وَإِرْمَ»: أي نستأصلكم.
 «تَعَلَّمُوا»: بفتح اللام المُشَدَّدة ومعناه اعلّموا.

الباب السادس

في بيعة العقبة الثانية

قال ابن إسحاق: فلما كان العام المُقبل وَآفَى المَوَيسِم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء وذلك قبل أن يُفرض عليهم الحرب، وهم: أشعَد بن زُرارة، وَذَكْوَان بن عبد قيس الزرقي، وَعُبَادَة بن الصامت، والعباس بن عُبادَة بن نُضَلَة - بالنون والضاد المعجمة - وَقُطَيْبَة بن عامر بن حديدَة، وَعُقْبَة بن عامر بن نابي، وعوف بن الحارث - بالفاء - ابن رفاعَة، وَعُوَيْم بن ساعدة، ومالك بن التيهان - بمثناة تحتية مُحْفَفة عند أهل الحجاز وعند غيرهم بتشديدها - وَمُعَوِّذ - بميم مضمومة فعين مهملة مفتوحة فواو مكسورة مُشَدَّدة فذال معجمة - ابن الحارث، أخو عوف السابق، ويزيد بن ثعلبة أبو عبد الرحمن البلوي حليف لهم. فبايع هؤلاء على بيعة النساء رسول الله ﷺ.

وروى الشيخان والبيهقي، واللفظ له عن عُبادَة بن الصامت رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ بيعة النساء وذلك قبل أن تُفرض علينا الحرب، على ألا نُشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزنّي ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي بيهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف. قال: «فمن وَفَى ذلك منكم فأجزه على الله». وفي لفظ: «فله الجنة»، «ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة وطهور، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر». فبايعناه على ذلك.

قال ابن إسحاق: «فلما انصرف القوم بعث رسول الله ﷺ معهم مُصعب بن عُمَيْر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قُصَي». وذكر ابن إسحاق في رواية أن رسول الله ﷺ بعث مُصعباً حين كتبوا إليه يبعثه إليهم، وهو الذي ذكره [موسى] بن عُقْبَة إلا أنه جعل المرأة الثانية هي الأولى. قال البيهقي: «وسياق ابن إسحاق أتم». قال ابن إسحاق: «وأمره رسول الله ﷺ أن يُقرئهم القرآن ويُعلّمهم الإسلام ويُفقههم في الدين، فكان يسمى في المدينة المُقرئ والقارئ، وكان منزله على أسعد بن زُرارة [بن عُدَس أبي أمانة]، وذلك أن الأوس كره بعضهم أن يؤمهم بعض. وقوله «على بيعة النساء» يعني على وفق ما نزلت عليه بيعة النساء بعد ذلك عام الحديبية، وكان هذا مما نزل على وفق ما بايع عليه أصحابه ليلة العقبة، وليس هذا بمعجيب فإن القرآن نزل بموافقات عمر بن الخطاب. «تنبيه»: ذكروا هنا أن أسعد بن زُرارة أول من جُمع بالصحابة قبل أن يهاجر النبي ﷺ وسيأتي الكلام على ذلك في الخصائص إن شاء الله تعالى.

الباب السابع

في إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير رضي الله تعالى عنهما

روى ابن أبي الدنيا والخرائطي والبيهقي عن عبد المجيد بن أبي عيسى عن أبيه عن جده، وابن عساكر عن البخاري في تاريخه الأوسط عن شيخه أبي محمد الكوفي قال: سَمِعْتُ قُرَيْشَ قَائِلًا يَقُولُ فِي اللَّيْلِ عَلَى أَبِي قُبَيْسٍ:

فِي أَنْ يُسَلِّمَ السَّعْدَانَ يُضْبِحُ مُحَمَّدًا بِمَكَّةَ لَا يَخْشَى خِلَافَ الْمُخَالِفِ

فلما أصبحوا قال أبو سفيان - وفي لفظ قريش - مَنْ السَّعْدَانُ؟ «أَسْعَدُ بْنُ بَكْرٍ أَمْ سَعْدُ بْنُ هُدَيْمٍ؟» فلما كانت الليلة الثانية سمعوا قائلًا يقول:

فَيَا سَعْدَ سَعْدَ الْأَوْسِ كُنْ أَنْتَ نَاصِرًا وَيَا سَعْدَ سَعْدَ الْخَزْرَجِيِّنَ الْغَطَارِفِ
أَجِيبَا إِلَى دَاعِيِ الْهُدَى وَتَمَنِّيَا عَلَى اللَّهِ فِي الْفِرْدَوْسِ زُلْفَةَ عَارِفِ
فِي أَنْ ثَوَابَ اللَّهِ لِلطَّالِبِ الْهُدَى جَنَّانٌ مِنَ الْفِرْدَوْسِ ذَاتُ زَخَارِفِ

فقلت قريش: هذا سعد بن معاذ وسعد بن عبادة:

قال ابن إسحاق: وحدثني عبيد الله بن المغيرة بن معيقيب، وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن أسعد بن زُرارة خرج بمُضْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ، يريد به دار بني عبد الأسهل ودار بني ظفر، وكان سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل ابن خالة أسعد بن زُرارة، فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر فجلسا فيه، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد بن معاذ، وأسيد بن حضير يومئذ سيّدا قومهما من بني عبد الأسهل، وكلاهما مُشْرِكٌ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ، فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليُسْفَهَا ضَعْفَاءَنَا، فازجرهما وانتهما عن أن يأتيا دارنا، فإنه لولا أن أسعد بن زُرارة مِنِّي حيث قد عَلِمْتَ كَفَيْتُكَ ذَلِكَ، فهو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدماً. قال: فأخذ أسيد بن حضير حَرْبَتَهُ، ثم أقبل إليهما. فلما رآه أسعد بن زُرارة قال لمُضْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ: هذا سيّد قومك فاصدق الله فيه. قال مصعب: إن يجلس أكلّمه. قال: فوقف عليهما مُتَشَتِّمًا، قال: ما جاء بكما إلينا تُسْفَهَانِ ضَعْفَاءَنَا؟ اغتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة فقال له مُضْعَبُ: أو تجلس فتسمع، فإن رَضِيتَ أَمْرًا قَبْلَهُ وَإِنْ كَرِهْتَهُ كُفِّ عَنْكَ مَا تَكْرَهُ؟ فقال: أنصفت. ثم رَكَزَ حَرْبَتَهُ وَجَلَسَ إِلَيْهِمَا، فَكَلَّمَهُ مِصْعَبُ بِالْإِسْلَامِ وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ. فقالا فيما يُذَكَّرُ عنهما: وَاللَّهِ لَعَرَفْنَا فِي وَجْهِهِ الْإِسْلَامَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ فِي إِشْرَاقِهِ وَتَسْهُلِهِ، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالوا له: تَغْتَسِلُ فَتَطَهَّرُ وَتُطَهَّرُ ثَوْبَيْكَ، ثم تشهد شهادة النحر ثم تُصَلِّي. فقام فاغتسل

وطَهَّرَ ثَوْبَيْهِ وَتَشَهَّدَ بِشَهَادَةِ الْحَقِّ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ لِهَمَا: إِنَّ وِرَائِي رَجُلَانِ إِنْ اتَّبَعَكُمَا لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ، وَسَأُرْسِلُهُ إِلَيْكُمَا الْآنَ: سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، ثُمَّ أَخَذَ حَزْبَتَهُ وَانصَرَفَ إِلَى سَعْدِ وَقَوْمِهِ، وَهُمْ جُلُوسٌ فِي نَادِيهِمْ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ مُقْبِلًا قَالَ: أَخْلِفْ بِاللَّهِ لَقَدْ جَاءَ كُمْ أَسِيدٌ بَغِيرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ مِنْ عِنْدِكُمْ.

فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كَلَّمْتُ الرَّجُلَيْنِ فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ بِهِمَا بَأْسًا وَقَدْ نَهَيْتُهُمَا فَقَالَا: نَفَعَلْ مَا أَحْبَبْتَ، وَقَدْ خُدِّثْتُ أَنْ بَنِي حَارِثَةَ قَدْ خَرَجُوا إِلَى أَسْعَدِ بْنِ زُرَّارَةَ لِيَقْتُلُوهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ عَرَفُوا أَنَّهُ ابْنُ خَالَتِكَ لِيُخْفِرُوكَ. قَالَ: فَقَامَ سَعْدٌ مُغْضَبًا مُبَادِرًا تَخَوُّفًا لِلَّذِي ذُكِرَ لَهُ مِنْ أَمْرِ بَنِي حَارِثَةَ. فَأَخَذَ الْحَزْبَةَ مِنْ يَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَرَاكَ أَغْنَيْتَ شَيْئًا. ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْهِمَا، فَلَمَّا رَأَاهُمَا مُطْمَئِنِّينِ عَرَفَ سَعْدُ أَنَّ أَسِيدًا إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْمَعَ مِنْهُمَا. فَوَقَفَ عَلَيْهِمَا مُتَشَتِّمًا، ثُمَّ قَالَ لِأَسْعَدِ بْنِ زُرَّارَةَ: يَا أَبَا أُمَامَةَ أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ الْقَرَابَةِ مَا رُمْتُ هَذَا مِنِّي، أَتَغْشَانَا فِي دَارِنَا بِمَا نَكْرَهُ؟ وَقَدْ قَالَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ لِمُضْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ: أَيُّ مُضْعَبٍ: جَاءَكَ وَاللَّهِ سَيِّدٌ مِنْ وِرَاءِهِ مِنْ قَوْمِهِ إِنْ يَتَّبِعُكَ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْكَ مِنْهُمْ اثْنَانِ. قَالَ: فَقَالَ لَهُ مُضْعَبٌ: أَوْ تَقْعُدُ فَتَسْمَعُ؟ فَإِنْ رَضِيَتْ أَمْرًا وَرَغِبْتَ فِيهِ قَبِلْتَهُ، وَإِنْ كَرِهْتَهُ عَزَلْنَا عَنْكَ مَا تَكْرَهُ. قَالَ سَعْدٌ: أَنْصَفْتُ. ثُمَّ رَكَزَ الْحَزْبَةَ وَجَلَسَ، فَعَرَّضَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ.

قالا: فَعَرَفْنَا وَاللَّهِ فِي وَجْهِهِ الْإِسْلَامَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ لِإِشْرَاقِهِ وَتَسَهُّلِهِ، ثُمَّ قَالَ لِهَمَا: كَيْفَ تَصْنَعُونَ إِذَا أَنْتُمْ أَسْلَمْتُمْ وَدَخَلْتُمْ فِي هَذَا الدِّينِ؟ قَالَا: تَغْتَسِلُ فَتَطَهَّرُ وَتُطَهَّرُ ثَوْبَيْكَ، ثُمَّ تَشْهَدُ شَهَادَةَ الْحَقِّ، ثُمَّ تُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ. ثُمَّ أَخَذَ حَزْبَتَهُ فَأَقْبَلَ عَامِدًا إِلَى نَادِي قَوْمِهِ وَمَعَهُ أَسِيدُ بْنُ حُضَيْرٍ، فَلَمَّا رَأَاهُ قَوْمُهُ مُقْبِلًا قَالُوا: نَحْلِفُ بِاللَّهِ لَقَدْ رَجَعَ إِلَيْكُمْ سَعْدٌ بَغِيرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ مِنْ عِنْدِكُمْ.

فلما وقف عليهم قال: يَا بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ كَيْفَ تَعْلَمُونَ أَمْرِي فِيكُمْ؟ قَالُوا: سَيِّدُنَا وَأَفْضَلُنَا رَأْيًا وَأَيْمُنًا نَقِيبَةً. قَالَ: فَإِنْ كَلَامَ رَجَالِكُمْ وَنِسَائِكُمْ عَلَيَّ حَرَامٌ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا أَمْسَى فِي دَارِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ إِلَّا مُسْلِمًا أَوْ مُسْلِمَةً، حَاشَا الْأَصْيِرِمَ وَهُوَ عَمْرُو بْنُ ثَابِتٍ بِنِ وَقَشٍ فَإِنَّهُ تَأَخَّرَ إِسْلَامَهُ إِلَى يَوْمِ أُخِدَ فَأَسْلَمَ وَاسْتَشْهَدَ وَلَمْ يَسْجُدْ لِلَّهِ سَجْدَةً، وَأَخْبَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَرَجَعَ سَعْدٌ وَمُضْعَبٌ إِلَى مَنْزِلِ أَسْعَدِ بْنِ زُرَّارَةَ، فَأَقَامَا عِنْدَهُ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى لَمْ تَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رَجَالٌ وَنِسَاءٌ مُسْلِمُونَ وَمُسْلِمَاتٌ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ دَارِ بَنِي أُمِيَّةَ بْنِ زَيْدٍ وَخَطْمَةَ وَوَائِلَ وَوَأَقْفَ، وَتِلْكَ أَوْسُ اللَّهِ وَهُمْ مِنَ الْأَوْسِ بْنِ حَارِثَةَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ فِيهِمْ أَبُو

قيس بن الأسلت واسمه صَيْفِي. وكان شاعراً لهم قائداً يسمعون منه ويطيعونه فوقف بهم عن الإسلام، فلم يزل على ذلك حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ومضى بدر وأحد والخندق.

قال سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي^(١): كان أبو قيس هذا قد ترهب في الجاهلية وليس المسوح وفارق الأوثان واغتسل من الجنابة، وتطهر من الحائض من النساء، وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها ودخل بيتاً له فاتخذة مسجداً لا يدخل عليه فيه حائض ولا جنب، وقال: أعبد إله إبراهيم حين فارق الأوثان وكبرها حتى قدم رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه وهو شيخ كبير، وكان قولاً بالحق معظماً لله في الجاهلية وله في ذلك أشعار حسنة.

بيان غريب ما سبق

«الحائض»: البستان.

«لا أبالك»: هذا أكثر ما يُستعمل في المدح أي؛ لا كافي لك غير نفسك، وقد يُذكر في معرض الذم كما يقال: لا أم لك، وقد يُذكر في معرض التعجب ودفعاً للعين كقولهم: لله ذك، وقد تكون بمعنى «جد في أمرك وشمزه»، لأن من له أب اتكل عليه في بعض شأنه، وقد تُحذف اللام فيقال: «لا أباك».

«داريتنا»: هو تشية دار، والدار هي القبيلة والعشيرة المُجتمعة في المَحَلَّة فتسمى المَحَلَّة داراً.

«النادي»: مُتحدّث القوم.

«ليخفروك»^(٢): بضم أوله وكسر الفاء رُباعياً أي لينقضوا عهدك، يقال: أخفرت الرجل إذا نقضت عهده وذيّمته. «القطاريف»^(٣): جمع غطريف بكسر الغين المعجمة: السيد.

«متشتماً»: من الشتم وهو السب.

(١) سعيد بن يحيى بن سعيد بن أبان بن سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص، أبو عثمان الأموي. سمع أباه، وعمه عبد الله بن سعيد، وعبد الله بن المبارك، وعيسى بن يونس، وأبا القاسم بن أبي الزناد، وأبا بكر بن عياش، وعبد الرحيم بن سليمان، ومروان بن معاوية، وشجاع بن الوليد مات في سنة تسع وأربعين ومائتين. انظر تاريخ بغداد ٩/٩٠.

(٢) انظر لسان العرب ١٢٠٩/٢.

(٣) انظر لسان العرب ٣٢٧٠/٥.

الباب الثامن

في بيعة العقبة الثالثة

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «إن رسول الله ﷺ لَيْتَ عَشْرَ سَنِينَ يَتَّبِعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ مَجَنَّةً وَعُكَاظَ وَفِي الْمَوَاسِمِ بِيْنِي يَقُولُ: «مَنْ يُؤْوِينِي؟ وَمَنْ يَنْصُرُنِي؟ حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَاتِ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ»، فَلَا يَجِدُ أَبَدًا أَحَدًا يُؤْوِيهِ وَلَا يَنْصُرُهُ، حَتَّى أَنَّ الرَّجُلَ لِيَرْحَلَ مِنْ مُضَرَ أَوْ الْيَمَنِ، فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ وَذَوُو رَجِيمِهِ فَيَقُولُونَ: اخْذِرْ فَتَى قَرِيشَ لَا يَفْتِيكَ بِمَضِي بَيْنَ رِخَالِهِمْ، وَهُمْ يَشِيرُونَ إِلَيْهِ بِأَصَابِعِهِمْ، حَتَّى بَعَثْنَا اللَّهُ إِلَيْهِ مَنْ يَشْرِبُ فَيَأْتِيهِ الرَّجُلُ مَنَا فَيُؤْمِنُ بِهِ وَيُفَرِّقُهُ الْقُرْآنَ فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ فَيُسَلِّمُونَ بِإِسْلَامِهِ حَتَّى لَمْ تَبْقَ دَارٌ مِنْ دَوْرٍ يَشْرَبُ إِلَّا وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ. ثُمَّ بَعَثْنَا اللَّهُ تَعَالَى فَاتَمَرْنَا وَاجْتَمَعْنَا فَقُلْنَا: مَتَى نَذَرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَطُوفُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ؟ فَرَحَلْ إِلَيْهِ مَنَا سَبْعُونَ رَجُلًا حَتَّى قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ، فَوَاعَدَنَا شَيْبَةَ الْعُقْبَةَ، فَاجْتَمَعْنَا فِيهِ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ حَتَّى تَوَافَيْتَنَا عِنْدَهُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَامَ نَبَايَعُكَ؟ قَالَ: «تَبَايَعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَعَلَى النَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعَلَى أَنْ تَقُولُوا فِي اللَّهِ، لَا تَأْخُذْكُمْ لَوْمَةٌ لَائِمٌ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ يَشْرَبُ، تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ وَلَكُمْ الْجَنَّةُ».

«فَقَمْنَا نَبَايَعَهُ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ، وَهُوَ أَصْفَرُ السَّبْعِينَ رَجُلًا إِلَّا أَنَا فَقَالَ: رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَشْرَبِ. فَإِنَّا لَمْ نَضْرِبْ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْمُطَيِّبِ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَأَفَّةً وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ وَأَنَّ تَعَضُّكُمْ السِّيُوفُ، فَإِنَّمَا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَضْرِبُونَ عَلَى عَضِّ السِّيُوفِ إِذَا مَسَّتْكُمْ وَعَلَى قَتْلِ خِيَارِكُمْ وَعَلَى مُفَارَقَةِ الْعَرَبِ كَأَفَّةً، فَخَذُوهُ، وَأَجْرَكُمُ عَلَى اللَّهِ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْفَةً، فَذَرُّوهُ فَهُوَ أَعْدَرُ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ».

فَقُلْنَا: ابْشُطْ يَدَكَ يَا أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ، فَوَاللَّهِ لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ وَلَا نَسْتَقِيلُهَا. فَقَمْنَا إِلَيْهِ نَبَايَعَهُ رَجُلًا رَجُلًا، يَأْخُذُ عَلَيْنَا شَرْطَهُ وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ»، رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَابِيهَقِي.

وَرَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ عَنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «خَرَجْنَا فِي حُجَّاجِ قَوْمِنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ صَلَّيْنَا وَقَفَّيْنَا، وَمَعَنَا الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ سَيِّدُنَا وَكَبِيرُنَا - زَادَ الْحَاكِمُ - وَكُنَّا خَمْسَمِائَةَ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بظَاهِرِ الْبَيْدَاءِ قَالَ: يَا هَوْلَاءُ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَأْيًا، وَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَتَوَافَقُونَنِي عَلَيْهِ أَمْ لَا. فَقُلْنَا: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: قَدْ رَأَيْتُ أَلَا أَدْعُ هَذِهِ الْبَيْئَةَ مِنِّي بظَهْرٍ - يَعْنِي الْكَعْبَةَ - وَأَنْ أُصَلِّيَ إِلَيْهَا. قَالَ: فَقُلْنَا: وَاللَّهِ مَا بَلَّغْنَا أَنْ نَبِيْنَا ﷺ يَصَلِّيَ إِلَّا إِلَى الشَّامِ، وَمَا نَرِيدُ أَنْ نَخَالِفَهُ، فَقَالَ: إِنِّي لَمُصَلٌّ إِلَيْهَا. فَقُلْنَا لَهُ: لَكُنَّا لَا نَسْعَلُ. قَالَ فَكُنَّا إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ صَلَّيْنَا

إلى الشام وصلى هو إلى الكعبة حتى قدمنا مكة وقد كُنَّا عَيْنًا عليه ما صنع وأبى إلا الإقامة على ذلك فلما قدمنا مكة قال لي: يا ابن أخي، انطلق بنا إلى رسول الله - ﷺ - حتى أسأله عما صنعت. في سفري هذا، فإنه والله لقد وقع في نفسي منه شيء لِمَا رأيتُ من خلافكم إياي فيه. قال: فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ، وكنا لا نعرفه لم نَرَهُ قبل ذلك فلتقينا رجلاً من أهل مكة فسألناه عن رسول الله ﷺ فقال: هل تعرفانه؟ فقلنا: لا. قال: فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمُّه؟ قلنا: نعم. وقد كنا نعرف العباس كان لا يزال يقدِّم علينا تاجراً. قال: فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس. قال: فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله ﷺ جالس معه. فسلمنا ثم جلسنا إليه، فقال رسول الله ﷺ للعباس: «هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟» قال: نعم، هذا البراء بن معرور سيِّد قومه، وهذا كعب بن مالك. قال: فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ: «الشاعر؟» قال: نعم. فقال البراء بن معرور: يا نبيَّ الله، إني خرجت في سفري هذا وقد هداني الله تعالى للإسلام فرأيتُ ألا أجعل هذه البنيَّة مِنِّي بظَهْر فَصَلَّيْتُ إليها، وقد خالفني أصحابي في ذلك، حتى وقع في نفسي من ذلك شيء، فماذا ترى يا رسول الله؟ قال: «قد كُنْتُ على قِبْلَةٍ لو صَبَرْتُ عليها». قال: فرجع البراء إلى قِبْلَةِ رسول الله ﷺ، وصلى معنا إلى الشام. قال: وأهله يزعمون أنه صلى إلى الكعبة حتى مات، وليس ذلك كما قالوا، نحن أعلم به منهم.

قال ابن هشام: وقال عَوْن بن أيوب الأنصاري:

وَمِنَّا الْمُصَلِّي أَوَّلَ النَّاسِ مُقْبِلًا عَلَى كَعْبَةِ الرَّحْمَنِ بَيْنَ الْمَشَاعِرِ (١)

يعني البراء بن معرور (٢). قال كعب: ثم خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق - زاد ابن سعد - ليلة النفر الأول [إذا هدأت الرجل] أن يوافوه في الشَّعْب الأيمن إذا انحدروا من مِنَى بأسفل العقبة حيث المسجد الحرام اليوم، وأمرهم ألا يُنَبِّهُوا نائمًا ولا ينتظروا غائبًا. [قال]: فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ - لها ومعنا عبد الله بن عمرو بن حزام أبو جابر، سيِّد من ساداتنا وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا، وكنا نكشُم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا فكلمناه وقلنا له: يا أبا جابر إنك سيِّد من ساداتنا وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عمَّا أنت فيه أن تكون خطيباً للنار غدًا، ثم

(١) البيت في الروض الأنف ١٨٤/٢.

(٢) البراء بن معرور بن صخر بن سابق بن سنان بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلحة بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن يزيد بن جشم بن المخزرج الأنصاري المخزرجي السلمي.. أبو بشر قال موسى بن عقبة عن الزهري: كان من النفر الذين يابحوا البهجة الأولى بالعقبة وهو أول من يابح في قول ابن إسحاق وأول من استقبل القبلة وأول من أوصى بثلاث ماله وهو أحد النقباء. الإصابة ١٤٩/١.

دعوته إلى الإسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة. قال: فأسلم وشهد معنا العقبة [وكان نقيباً].

[قال]: فبينما تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مُستخفين حتى اجتمعنا في الشَّعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة^(١) بنت كعب، أم عمارة، إحدى نساء بني مازن بن النُّجَّار، وأسماء بنت عمرو^(٢) بن عديّ [بن نابي، إحدى نساء بني سليمة وهي أم منيع]. فاجتمعنا في الشَّعب ننتظر رسول الله ﷺ. وذكر ابن سعد وأبو معشر أن رسول الله ﷺ سبقهم وانتظرهم - حتى جاءنا معه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له.

فلما جلس كان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال: «يا معشر الخزرج، - قال: وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها - إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أتى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه وما نعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مُسليموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده. وروى الإمام أحمد عن الشَّعْبِيِّ عن أبي مسعود البدري^(٣) رضي الله عنه قال: انطلق رسول الله ﷺ ومعهم العباس إلى السبعين من الأنصار عند العقبة تحت الشجرة فقال: «ليتكلم متكلمكم ولا يُطل الخُطبة فإن عليكم من المشركين غنياً، وإن يغلموا بكم يفضحوكم». فقلنا «قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله وخذ لنفسك ولربك ما أحببت».

قال: فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام، ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم». قال: فأخذ البراء بن معرور

(١) نسيبة بفتح النون أيضاً بنت كعب بن عمرو بن عوف بن عمرو بن مبدول بن عمرو بن غنم بن مازن بن النجار الأنصارية أم عمارة مشهورة بكينيتها واسمها معاً. الإصابة ١٩٨/٨.

(٢) أسماء بنت عمرو بن عدي بن ياسر بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصارية السلمية أم معاذ بن جبل وكينيتها أم منيع.. ذكر ابن إسحاق بسند صحيح عن كعب بن مالك أنها كانت مع من شهد العقبة مع السبعين هي نسيبة بنت كعب وقال في التجريد وقيل: هي أسماء بنت عدي بن عمرو. الإصابة ٨/٨.

(٣) عقبة بن عمرو بن ثعلبة بن أسيرة - بفتح الهزة وكسر المهملة - ابن عطية بن جندارة بجيم - ابن عوف بن الخزرج الأنصاري البدري أبو مسعود. عنه فيمن شهد بدرأ البخاري تبعاً لابن شهاب والحكم بن عتيبة وابن إسحاق. وقال سعيد بن إبراهيم: لم يشهدا. له مائة وحدثان، اتفقا على تسعة، وانفرد (خ) بحدث، و (م) بسبعة. وعنه ابن بشر وأبو وائل وقيس بن أبي حازم. قال الهيثم: مات سنة أربعين. وقيل: بعد سنة ثلاثين بسنة أو ستين.

بيده، ثم قال: «نعم فوالله الذي بعثك بالحق لَنُثْنَعَنَّكَ مما نمنع منه أُرْزَنَا، فَبَايَعْنَا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقة ورثناها كإبراً عن كابر». قال: فاعترض القول، والبراء يكلم رسول الله ﷺ، أبو الهيثم بن التيهان، فقال: «يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال جبالاً وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عَسَيْتَ إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرت الله أن ترجع إلى قومك وتَدْعُنَا؟» قال: فَتَبَسُّم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدَّمُ الدَّمُ والهدم الهدم» أي ذمتي ذمتكم وحُرْمَتِي حُرْمَتِكُمْ - «أنا منكم وأنتم مِنِّي أحارب من حاربتهم وأسالم من سالمتم». قال كعب: وقد قال رسول الله ﷺ: «أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنِي عَشْرَ نَقِيباً لِيَكُونُوا عَلَيَّ قَوْمَهُمْ بِمَا فِيهِمْ». فَأَخْرَجُوا مِنْهُمْ اثْنِي عَشْرَ نَقِيباً تِسْعَةً مِنَ الْخَزْرَجِ وَثَلَاثَةً مِنَ الْأَوْسِ:

فمن الخزرج: أبو أمامة أسعد بن زُرَّارة نقيب بني النُّجَّار. ورافع بن مالك بن العجلان نقيب بني زُرَيْق، وسعد بن الربيع، بفتح الراء، وعبد الله بن رواحة نقيب بني الحارث بن الخزرج وسعد بن عُبَّادة والمنذر بن عمرو. نقيب بني ساعدة والبراء بن معرور - بالعين المهملة وعبد الله بن عمرو بن حرام وعبادة بن الصامت. ومن الأوس: أُسَيْدُ بن حُضَيْر - بالحاء المهملة والضاد المعجمة - نقيب بني عبد الأشهل ورفاعة بن عبد المنذر وسعد بن خَيْثَمَة نقيباً بني عمرو بن عوف.

قال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال للنُّبَّاء: «أنتم على قومكم بما فيهم كقلاء ككفالة الحوارين لعيسى بن مريم وأنا كفيلٌ على قومي» - يعني المسلمين. قالوا: نعم. قال ابن هشام: وأهل العلم يَعُدُّون فيهم أبا الهيثم بن التيهان ولا يعدون رفاعة.

وروى البيهقي عن الإمام مالك رضي الله عنه قال: حدثني شيخ من الأنصار أن جبريل عليه السلام كان يشير إلى رسول الله ﷺ إلى من يجعله نقيباً ليلة العقبة. قال مالك: وكنت أعجب كيف جاء هذا؟ رجلاً من قبيلة ورجل من أخرى، حتى حَدَّثْتُ بهذا الحديث: أن جبريل هو الذي ولأهم وأنه أشار إلى النبي ﷺ. وروى أبو نعيم عن ابن عُمر قال: «لما أخذ رسول الله ﷺ النُّبَّاء قال: لا يَجِدُ امرؤ في نفسه شيئاً إنما أُخِذَ من أشار إليه جبريل» وروى أنه نَقِبَ عَلَى النُّبَّاء أسعد بن زُرَّارة فلما توفي أسعد والمسجد بيني اجتمع بنو النجار إلى رسول الله ﷺ وسألوه أن يجعل منهم شخصاً نقيباً عليهم، فقال لهم: «أَنْتُمْ أَخْوَالِي وَأَنَا نَقِيْبُكُمْ»^(١) وكبره رسول الله ﷺ أن يَخُصَّ بِهَا بَعْضَهُمْ دُونَ بَعْضٍ قال السهيلي: «وإنما

(١) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية ٢٢٩/٣.

جعلهم النبي ﷺ اثني عشر نقيباً اقتداءً بقول الله تعالى في قوم موسى ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢].

وقال كعب بن مالك يذكرهم فيما رواه ابن هشام عن أبي زيد [الأنصاري]:
 فَأُبْلِغُ أَبِيًّا أَنَّهُ قَالَ^(١) رَأَيْتُهُ
 أَبِي اللَّهِ مَا مَنَّتْكَ نَفْسُكَ إِنَّهُ
 وَأُبْلِغُ أَبَا سُفْيَانَ أَنْ قَدْ بَدَأَ لَنَا
 فَلَا تُرْوَعِينَ فِي حَشْدِ أَمْرِ تُرِيدُهُ
 وَدُونِكَ فَاعْلَمْنَا أَنَّ نَقْضَ عَهْدِنَا
 أَبَاهُ الْبِرَاءِ وَابْنُ عَمْرٍو كِلَاهُمَا
 وَسَعْدُ أَبَاهُ السَّاعِدِيُّ وَمُنْدِرٌ
 وَمَا ابْنُ رَبِيعٍ إِنْ تَنَاوَلْتَ عَهْدَهُ
 وَأَيْضًا فَلَا يُعْطِيكَهُ ابْنُ رِوَاخَةَ
 وَفَاءَ بِهِ وَالْقَوْقَلِيُّ ابْنُ صَامِتٍ
 أَبُو هَيْثَمٍ أَيْضًا وَفِي بِيْمَثَلِهَا
 وَمَا ابْنُ حُضَيْرٍ إِنْ أَرَدْتَ بِمَطْمَعٍ
 وَسَعْدُ أَخُو عَمْرٍو بِنِ عَوْفٍ فَإِنَّهُ
 أَوْلَاكَ نُجُومٌ لَا يُغِيْبُكَ مِنْهُمْ
 وَحَانَ غَدَاةَ الشُّعْبِ وَالْحَيْنُ وَاقِعٌ
 بِمِرْصَادِ أَمْرِ النَّاسِ رَأْيٍ وَسَامِعٌ
 بِأَحْمَدَ نُورٍ مِنْ هُدَى اللَّهِ سَاطِعٌ
 وَالْبُتُّ وَجَمْعُ كُلِّ مَا أَنْتَ جَامِعٌ
 أَبَاهُ عَلَيْنِكَ الرَّهْطُ حِينَ تَبَايَعُوا
 وَأَسْعَدُ يَأْبَاهُ عَلَيْنِكَ وَرَافِعٌ
 لِأَنْفِكَ إِنْ حَاوَلْتَ ذَلِكَ جَادِعٌ^(٢)
 بِمُسْلِمِهِ لَا يَطْمَعُنْ ثُمَّ طَامِعٌ
 وَإِخْفَارُهُ مِنْ دُونِهِ السُّمُّ نَاقِعٌ
 بِمَنْدُوْحَةٍ عَمَّا تُحَاوَلُ يَبَافِعُ
 وَفَاءَ بِمَا أُعْطِيَ مِنَ الْعَهْدِ خَائِعٌ
 فَهَلْ أَنْتَ عَنْ أُخْمُوقَةَ الْغَيِّ نَارِعٌ
 ضَرُوحٌ لِمَا حَاوَلْتَ مِلْأَمْرِ مَانِعٌ
 عَلَيْنِكَ بِتَخْسٍ فِي دُجَى اللَّيْلِ طَالِعٌ

فذكر كعب فيهم أبا الهيثم بن التيهان ولم يذكر رفاعه. قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عُمَر بن قتادة أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عُبادة بن نَضْلَةَ الأنصاري أخو بني سالم بن عَوْف: «يا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ، هَلْ تَذُرُونَ عَلَامَ تَبَايَعُونَ هَذَا الرَّجُلَ؟» قالوا: نعم. قال: «إِنَّكُمْ تَبَايَعُونَهُ عَلَى حَزْبِ الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ مِنَ النَّاسِ فَإِنْ كُنْتُمْ تَرِيدُونَ أَنْكُمْ إِذَا نَهَكْتُمْ أَمْوَالَكُمْ مُصِيبَةً وَأَشْرَافَكُمْ قَتْلَ أَسْلَمْتُمُوهُ فَمَنْ الْآنَ فَهُوَ وَاللَّهِ إِنْ فَعَلْتُمْ خِزْيُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَإِنْ كُنْتُمْ تَرِيدُونَ أَنْكُمْ وَأَقُونَ لَهُ بِمَا عَاهَدْتُمُوهُ عَلَى نَهْكَةِ الْأَمْوَالِ وَقَتْلِ الْأَشْرَافِ فَخَذُوهُ فَهُوَ وَاللَّهِ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ». قالوا: «فإِذَا نَأَخَذَهُ عَلَى مُصِيبَةِ الْأَمْوَالِ وَقَتْلِ الْأَشْرَافِ، فَمَا لَنَا بِذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟» قال: «الْجَنَّةُ». قالوا: ابْسُطْ يَدَكَ. فَبَسَطَ يَدَهُ، فَبَايَعُوهُ. فَأَمَّا عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ فَقَالَ: «وَاللَّهِ مَا قَالَ ذَلِكَ الْعَبَّاسُ إِلَّا لِيَشُدَّ الْعَقْدَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ»

(١) قال رأيه: فيلاً، وفيولاً: أخطأ وضعف. انظر المعجم الوسيط ٧١٥/٢.

(٢) انظر الروض الأنف ١٩٠/٢، ١٩١.

في أعناقهم». وأما عبد الله بن أبي بكر فقال: «ما قال ذلك العباس إلا ليؤخر القوم تلك الليلة رجاء أن يحضرها عبد الله بن أبي بن سلول فيكون أقوى لأمر القوم»، فالله أعلم أي ذلك كان، قال ابن إسحاق: «وبنو الثُّجَار يزعمون أن أبا أمامة أشعد بن زُرارة كان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ وبنو عبد الأشهل يقولون: «بل أبو الهيثم بن التيهان».

وفي حديث كعب بن مالك قال: «كان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ، البراء بن معرور، ثم بايع بقعد القوم، فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرَّخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سميته قط: يا أهل الجباجب: هل لكم في مذمِّم والصُّبَاء معه قد اجتمعوا على حربكم؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «هذا أرب العقبة، هذا ابن أزيب، استمع أي عدو الله، أما والله لأفرغن لك». ثم قال رسول الله ﷺ: ارفضوا إلى رحالكم». فقال له العباس بن عبادة ابن نضلة: «والله الذي بعثك بالحق إن شئت لتميلن على أهل منى غداً بأسيا فنا» فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم». فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها [حتى أصبحنا]. وذكر سليمان بن طرخان التيمي في كتاب السير له أن إبليس لعنه الله، لما أسلم من الأنصار صاح بينه وبين الحجاج: «إن كان لكم بمحمد حاجة فأتوه بمكان كذا وكذا فقد خالفه الذين يسكنون يثرب». قال: «ونزل جبريل فلم يُنصِره من القوم أحد، واجتمع الملائم من قريش عند صرخة إبليس، فعظم الأمر بين المشركين والأنصار حتى كاد أن يكون بينهم قتال: ثم إن أبا جهل كره القتال في تلك الأيام فقال: يا معشر الأوس والخزرج أنتم إخواننا وقد أتيتم أمراً عظيماً، تريدون أن تغلبونا على صاحبنا، فقال له حارثة بن النعمان: نعم وأنفق راغم، والله لو نعلم أنه من أمر رسول الله ﷺ أن نُخرجك أيضاً لأخرجناك. فقال أبو جهل: نعرض عليكم أن نلحق بكم من أصحاب محمد من شاء بعد ثلاثة أشهر، ونعطيك ميثاقاً ترضون به أنتم ومحمد لا نحبس بعد ذلك. فقالت الأنصار: نعم إذا رضي رسول الله ﷺ، فذكر الحديث.

وقال كعب في حديثه: فقالوا: «يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا لتخرجوه من بين أظهرنا وتبايعوه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم». قال: فانبعث من هناك من مُشركي قومنا يخلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه. وقد صدقوا لم يعلموه. قال: وبعضنا ينظر إلى بعض. قال: ثم قام القوم وفيهم الحرث بن هشام بن المغيرة المخزومي - وأسلم بعد ذلك - وعليه نعلان جديدان. قال: فقلت له كلعة كأي أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوا: يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيّد من ساداتنا مثل تغلبي هذا الفتى من قريش؟ قال: فسَمِعها

الحرث فخلعهما من رجليه، ثم رمى بهما إلي، فقال: والله لتنتعلنهما. قال: يقول أبو جابر: [مئة] أخفظت والله الفتى فأردذ عليه نعليه. قال: قلت: لا والله لا أردهما، فأل والله صالح، لئن صدق الفأل لأشلبته. قال ابن إسحاق: «وحدثني عبد الله بن أبي بكر: أنهم أتوا عبد الله بن أبي بن سلول فقالوا له مثل ما ذكر كعب من القول، فقال لهم: والله إن هذا لأمرٌ جسيم ما كان قومي ليبتفؤوا عليّ بمثل هذا وما علمته. قال: فانصرفوا عنه. قال: ونفر الناس من مني، فتتطس القوم الخبر، فوجدوه قد كان. وخرجوا في طلب القوم، فأدركوا سعد بن عبادة بأذاجر، والمنذر بن عمرو، وكلاهما كان نقيياً. فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه ينسح رخله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويخذبونه بجمته وكان ذا جمعة وشعر كثير. قال سعد: فوالله إني لفي أيديهم إذ طلع عليّ نفرٌ من قريش فيهم رجلٌ وضية أبيض شمشاع خلو من الرجال.

قال: قلت في نفسي: إن يك عند أحد من القوم خير فعند هذا. قال: فلما دنا مني رفع يده فلطمني لكمة شديدة. قال ابن هشام: هو سهيل بن عمرو، قلت: وأسلم بعد ذلك - قال: فقلت في نفسي: لا والله ما عندهم بعد هذا خير. قال: فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني إذا أوى إلى رجل ممن كان معهم. قال ابن هشام: هو أبو البختر بن هشام، قلت: ومات كافراً. فقال: ويحك: أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد؟ قال: قلت: بلى والله ولقد كنت أجير لجبير بن مطعم بن عدي تجارة، وأمنعهم ممن أراد ظلّمهم بيلادي، وللحرث بن حزب بن أمية. قال: ويحك، فاهتف باسم الرجلين، واذكر ما بينك وبينهما. قال: ففعلت، وخرج ذلك الرجل إليهما فوجدهما في المسجد عند الكعبة فقال لهما: إن رجلاً من الخرج الآن يضرب بالأبطح ليتهف بكما ويذكر أن بينه وبينكما جواراً. قال: سعد بن عبادة. قال: صدق والله إن كان ليجير لنا تجارنا ويمنعهم أن يظلموا بيلده. قال: فجاء فخلصنا سعداً من أيديهم، فانطلق.

قال ابن إسحاق: وكان أول شجر قيل في الهجرة بيتين قالهما ضرار بن الخطاب بن مزداس أخو بني محارب بن فهر - قلت: وأسلم بعد ذلك.

تَدَارَكْتُ سَعْدًا عَنوَةً فَأَخَذْتُهُ وَكَانَ شِفَاءً لَوْ تَدَارَكْتُ مُنْذِرَا
وَلَوْ نِلْتُهُ طُلْتُ هُنَاكَ جِرَاحَهُ وَكَانَ حَرِيًّا أَنْ يُهَانَ وَيُهْدَرَا^(١)

قال ابن هشام: ويروى: «وكان حقيقاً أن يُهان ويُهدر»، قال ابن إسحاق: فأجابه

حسان بن ثابت فيهما فقال:

(١) انظر ديوان حسان ١١٦.

فلست إلى عمرو ولا المرء مُنذِر
 أتفخر بالكثبان لما لبسته
 فلولا أبو وهب لمرث قصائد
 فلأتك كالوشنان يخلم أنه
 ولأتك كالشاة التي كان حثفها
 ولأتك كالغاري فأقبل نحره
 فإننا ومن يهدي القصائد نحونا
 كمن يهدي القاصد نحونا

إِذَا مَا مَطَايَا الْقَوْمِ أَصْبَحْنَ ضُمْرًا
 وَقَدْ يَلْبَسُ الْأَنْبَاطُ رِيطًا مُقْصَرًا
 عَلَى شَرَفِ الْبَرْقَاءِ يَهْوِينَ حُسْرًا
 بِقَرْيَةِ كِشْرَى أَوْ بِقَرْيَةِ قَيْصَرًا
 عَنِ الثُّكُلِ لَوْ كَانَ الْقَوَادُ تَفْكَرًا
 بِحَفْرِ ذِرَاعَيْهَا فَلَمْ تَرْضَ مَحْفَرًا
 وَلَمْ يَخْشَهُ مَهْمًا مِنَ النَّبْلِ مُضْمَرًا
 كَمُسْتَبْضِعٍ تَعْرَأُ إِلَى أَهْلِ خَيْبَرًا^(١)

تنبيهات

الأول: لم يأمر النبي ﷺ البراء بن معرور بإعادة الصلاة التي صلاها إلى الكعبة حيث كان الفرض عليهم إلى بيت المقدس لأن البراء أسلم لما شاهد النبي ﷺ، فلم يأمره بإعادة تلك الصلاة من أجل ذلك كذا قيل، والذي يقتضيه سياق القصة أن البراء كان مسلماً قبل هجرته إلى النبي ﷺ، ويحتمل أن تكون صلاة البراء إلى الكعبة أتباعاً لما علم به من علماء اليهود أن هذا النبي المبعوث في عصرهم هو على دين إبراهيم ودينهم وقبائلته الكعبة مشتتضجياً لأصل الحكم في ذلك، ورَّجحه على ما وجد فيه من التردد وضده في ثبوتة والاختلاف في صحته، وهو وجه من وجوه الترجيح. وقال السهلي: إنما لم يأمره ﷺ بإعادة ما قد صلى لأنه كان متأولاً.

الثاني: في بيان غريب ما سبق:

«مَجْنَةٌ»: بميم فجيم مفتوحتين، وكسر بعضهم الميم، سُوَيْقُ بِأَسْفَلِ مَكَّةَ عَلَى بَرِيدِ مِنْهَا.

«عُكَاطٌ» بالضم: سوق بقرب مكة وراء قَرْنِ الْمَنَازِلِ.

«مُضْرٌ» بضم الميم وفتح الضاد المعجمة.

«يُؤْوِينِي»: يَضُمُّنِي إِلَيْهِ وَيُحَوِّطُنِي.

«فَقَهْنًا» بكسر القاف: فهمنا.

«وَأَعَدَّنَا» رسولَ الله ﷺ، يجوز بسكون الدال، فيكون رسول الله ﷺ منصوباً على

أنه مفعول، ويجوز فتح الدال، فرسول مرفوع فاعل.

«اتممرنا»: شاور بعضنا بعضاً في ذلك وعزم عليه.

(١) القصيدة في ديوان حسان ١١٧.

«نَذْرٌ»: نَشْرُكٌ.

«الشُّغْبُ»: بكسر الشين المعجمة: انفراج بين جَبَلَيْنِ.

«القَطَاةُ»: (١) بالقصر وفتح القاف: نوع من الحمام [واحدتها قَطَاةٌ].

«توافينا»: من توافى القَوْمُ: تَتَأَمَّوْا.

«النشاط»: طَيْبُ النفسِ.

«الكسل»: كالتعب: الفتور، فَيَتَخَلَّفُ العبد عن أسباب الخير والفلاح، وإن كان لعدم

قدرته فهو العجز، وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل.

«نضرب أكباد الإبل»: أي نركب ونسير.

«اللؤم»: عَذْلُ الإنسان بنسبته إلى ما فيه لؤم.

«المُطَيِّ»: جمع مَطِيَّةٍ فَعِيْلَةٌ بمعنى مفعولة: البعير سمي بذلك لأنه يُزَكَّبُ مَطَاةً أي

ظَهْرَهُ.

«مَسْتَشْكُمٌ»: أي أصابتكم.

«تعضكم السيوف»: أي تجرحكم.

«فَدْرُوهُ»: فاتركوه.

«أَمِطْهُ» (٢) نَحَّ وَأَبْعِدْ.

«البيداء»: المغازة.

«أَدْعُ»: أَتْرِكْ.

«الْبَيْئَةُ»: بفتح الموحدة وكسر النون وتشديد المشناة التحتية المفتوحة ثم تاء تأنيث،

وهي الكعبة.

«الرَّحَالُ»: بالحاء المهملة: جمع رَحْلٍ وهو في الأصل مأوى الشخص في الحَضْرِ ثم

أُطْلِقَ على أمتعة المسافر لأنها هناك مأواه.

«مَنْعَةٌ» (٣) بفتح النون باختلاف المعنى وتقدم بيان ذلك.

«الانحياز إليكم»: الاختلاط بكم.

«أَزْرَنَاءُ» [جمع إزار] قال أبو ذر: يعني نساءنا والمرأة قد يكنى عنها بالإزار.

(١) انظر المصباح المنير ٥١٠.

(٢) انظر اللسان ٤٣٠٨/٦، ٤٣٠٩.

(٣) انظر اللسان ٤٢٧٦/٦.

«الْحَلْقَةُ» بسكون [اللام]: السلاح.

«كَابِرًا عَن كَابِرٍ»: أي كبيراً عن كبير في العز والشرف.

«جِبَالًا»: بكسر الحاء المهملة وبالموحدة جمع حَبْل وهو العهد والميثاق.

«عَسَيْتُ»: بكسر السين وفتحها لغتان.

«الدم الدم الهدم الهدم»: قال في النهاية: يُزَوَى الْهَدْمُ بِسُكُونِ الدَّالِ وَفَتْحِهَا فَالْهَدْمُ بِالتَّحْرِيكِ الْقَبْرِ يَغْنِي: أَنِّي أَقْبَرُ حَيْثُ تُقْبَرُونَ، وَقِيلَ: هُوَ الْمَنْزِلُ أَي مَنَزِلُكُمْ مَنَزِلِي، كحديثه الآخر: الْمَخِيَا مَخِيَاكُمْ وَالْمَمَات مَمَاتِكُمْ أَي لَا أَفَارِقُكُمْ، وَالْهَدْمُ بِالسُّكُونِ وَبِالْفَتْحِ أَيْضًا هُوَ إِهْدَارُ دَمِ الْقَتِيلِ، يَتَال: دِمَاؤُهُمْ بَيْنَهُمْ هَدْمٌ أَي مُهْدَرَةٌ وَالْمَعْنَى أَنَّ مَنْ طَلَبَ دَمَكُمْ فَقَدْ طَلَبَ دَمِي وَأَنَّ مَنْ أَهْدَرَ دَمَكُمْ فَقَدْ أَهْدَرَ دَمِي، لِاسْتِحْكَامِ الْأَلْفَةِ بَيْنَنَا، وَهُوَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ لِلْعَرَبِ يَقُولُونَهُ عِنْدَ الْمَعَاهِدَةِ وَالتُّصْرَةِ وَفِي تَهْذِيبِ الْأَزْهَرِيِّ أَنَّ ابْنَ الْأَعْرَابِيِّ رَوَاهُ بِالْفَتْحِ: دَمِي دَمُكَ وَهَدَمِي هَدَمُكَ.

«النقيب»: (١) قال في التقريب: يُقَالُ: نَقَّبَ الرَّجُلَ وَنَقَّبَ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ اسْتِخْرَاجَ الْأَسْرَارِ وَالنَّقِيبُ الْأَمِينُ وَالكَفِيلُ وَالعَرِيفُ أَوْ هُوَ فَوْقَ العَرِيفِ، وَشَاهِدُ الْقَوْمِ نَقَّبَ عَلَيْهِمْ كَقَتَلَ نِقَابَةً بِالكُسْرِ فَعَلَ ذَلِكَ. وَنَقَّبَ بِالصُّمِّ نِقَابَةً بِالفَتْحِ إِذَا لَمْ يَكُنْ فَصَارَ نَقِيبًا، وَنَقَبَاءُ الْأَنْصَارِ الَّذِينَ تَقَدَّمُوا لِأَخْذِ الْبَيْعَةِ لِنَصْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ سَمَوْا بِذَلِكَ لَضَمَانِهِمْ إِسْلَامَ قَوْمِهِمْ.

شرح أبيات كعب بن مالك [الأنصاري]

«قَالَ رَأَيْهِ» بفاء ولام: أي بطل.

«فَلَا تُرْعَيْنِ»، بضم المثناة الفوقية وسكون الراء وكسر العين المهملة وفتح المشناة التحتية ونون التوكيد: أي لا تُبْقِيَيْنِ. يقال: ما أَرعى عليه أي ما أَبقى عليه.

«أَلْبٌ» وَجَمْعٌ بِمَعْنَى «جَادِعٌ» (٢) بِالْجِيمِ أَي قَاطِعٌ.

«إِخْفَارُهُ» بِالْحَاءِ الْمَعْجَمَةِ: نَقْضُ عَهْدِهِ.

«نَاقِعٌ» بِالقَافِ: ثَابِتٌ.

«الْقَوَقَلِيُّ» بِالقَافِ مَفْتُوحَةٍ فَوَاوٍ سَاكِنَةٍ فَقَافٍ مَفْتُوحَةٍ وَلامٍ. [نسبة لأبي بطن] من الخزرج: قَوَقَلٌ، وَهُوَ غَنَمٌ بِنِ عَوْفِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَوْفِ بْنِ الْخَزْرَجِ، كَذَا لابن الكلبي، وَقَالَ ابْنُ

(١) انظر المصباح المنير ٦٢٠.

(٢) انظر المعجم الوسيط ١١٠/١.

إسحاق: قيل لهم القوافل لأنهم كانوا إذا أجازوا أحداً أعطوه سهماً وقالوا له: قَوِّلْ به حيث شئت، أي يَزْ به حيث أَرَدْتَ.

«بَمَنْدُوحَةٍ»^(١) أي بِمُتَّسِعٍ.

«يَافِع» بالمشناة التحتية والفاء المكسورة: أي موضع مرتفع فاليَفَاع ما ارتفع من الأرض ومن رواه باقِع بالباء الموحدة والقاف فمعناه بعيد وهو مأخوذ من بَقَعَ الأرض.

«خَانِع»^(٢) بالخاء المعجمة والنون: أي مُقِرٌّ مُتَدَلِّلٌ.

«الأخْمُوقَةُ» أفعولة من الخُمُق وحقيقته وضع الشيء في غير موضعه مع العلم بقبحه.

«نَازِع» بالزاي والين المهملة: أي ذاهب.

«ضَرُوح»^(٣) بفتح الضاد المعجمة وضَمِّ الراء وبالحاء المهملة أي مانِعٌ ودافِعٌ عن نفسه من قولهم: ضَرَحَتِ الدَّابَّةُ بِرِجْلِهَا ضَرَبَتْ بِهَا.

«أَوْلَاكَ» بترك الهمزة أي أولئك.

«يُعْبَلُكَ» بضم المشناة التحتية وكسر الغين المعجمة وتشديد الباء الموحدة من أَعْبَى القَوْمَ إذا جاءهم يوماً وتركهم يوماً.

«دُجَى الليل» بضم الدال المهملة: أي ظلمة الليل.

شرح ما جاء في بيعة العقبة

«كُفْلَاءً» جمع كفيل: وهو الضمير.

«عَلَامٌ»: ما استفهامية اتصلت بعلى.

«الأحمر»: العَجَم «والأسود»: العَرَب.

«نُهَيْكَتْ» بضم النون وكسر الهاء وفتح الكاف فتاء تأنيث: نَقَصَتْ.

«أَنفَذَ صَوْتَهُ» بالذال المعجمة: أبعد.

«الجبَّاجِب» بجيمين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة وبعد كل جيم موحدة، قال في القاموس: جبال بمكة أو أسواقها أو منحَر مِنى كان يُلقَى به الكروش.

«المُذْمَم» بذيال معجمة: المذموم جداً، وأرادت قريش عكس اسم النبي ﷺ فكانوا

(١) انظر لسان العرب ٤٣٨١/٦.

(٢) اللسان ١٢٧٩/٣.

(٣) انظر اللسان ٢٥٧٢/٤.

يقولون عَوْضٌ سَحْمٌ: مُذَمَّمٌ بوزنه وعكس منناه، زَكَذَبُوا بِلِ مُحَمَّدٍ مِنْ كَثْرَةِ خِصَالِهِ الْمَحْمُودَةِ وَكَذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ اسْمٌ صَادِقٌ عَلَى مُسَمَّاهُ.

«الصُّبَاءُ»^(١) بضم الصاد المهملة والياء المُشَدَّدَةَ جمع صابىء: وهو الخارج من دين إلى دين.

«إِزْبٌ» بهمزة مكسورة فزاي ساكنة فباء مُوَحَّدَةٌ. وفيما ذكر ابن هشام بفتح الهمزة وسكون الزاي وفتح الياء [أزيب].

«أَزْفَضُوا»^(٢): تَفَرَّقُوا.

«أَخْفَظْتُ» الفتى بالحاء المهلة والفاء والظاء المعجمة: أَي أَعْضَبْتُهُ وَالْحَفِظَةُ الْقَضْبُ. «أَمْرٌ جَسِيمٌ»: عَظِيمٌ.

«لِيَتَفَوَّتُوا عَلَيَّ»، من الفَوْتُ، يُقَالُ: تَفَوَّتَ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ فِي كَذَا وَافْتَاتَ عَلَيْهِ إِذَا انْفَرَدَ بِرَأْيِهِ دُونَهُ فِي التَّصَرُّفِ وَلَمَّا ضَمَّنَ مَعْنَى التَّغْلِبِ عُدِّي بَعْلِي.

«تَنْطُسٌ» بمثناة فوقية فنون فطاء فسین مهملتين، قال ابن هشام: المُبَالِغَةُ فِي التَّفْتِيشِ.

«أَذَاخِرٌ» بذال وخاء مكسورة معجمتين: اسم موضع.

«يَنْشَعُ رَحْلُهُ»^(٣): بنون مكسورة فسین فعین مهملتين: السير المضفور من الأديم على هيئة أَعِنَّةِ الْبِغَالِ..

«الْجُمَّةُ»: بِالضَّمِّ: الشُّغْرُ إِلَى شَحْمَةِ الْأُذُنِ.

«وَضِيٌّ»: جَمِيلٌ.

«لَكَمَةٌ»: ضَرْبُهُ بِجَمْعِ كَفِّهِ.

«أَوْى»: أَي أَشْفَقَ وَرَجِمَ.

«شَغَشَاعٌ»^(٤): طَوِيلٌ.

«جُورًا»: بِضَمِّ الْجِيمِ وَكسرها: الْعَهْدُ وَالْأَمَانُ.

«تَجَارًا»: بِكسرها التاء يُخَفَّفُ وَيُشَدِّدُ: جَمْعُ تَاجِرٍ.

«فَاهْتِفٌ»: صِيحٌ وَادْعٌ.

(١) انظر اللسان ٢٣٨٥/٤.

(٢) يَرْفُضُ: تَفَرَّقَ وَتَبَدَّدَ وَزَالَ وَسَالَ وَتَرَشَّ وَارْفَضَ بِمَعْنَى تَرَفَضَ. الوسيط ٣٦٠/١.

(٣) النَّسْعُ: سِرٌّ يَضْفَرُ عَلَى هَيْئَةِ أَعِنَّةِ النَّعَالِ تَشَدُّ بِهِ الرِّجَالُ: وَالْجَمْعُ أَنْسَاعٌ وَنَسُوعٌ وَنَسَعٌ وَالْقِطْعَةُ فِيهِ نَسْمَةٌ قَالَ عَبْدُ يَغُوثَ:

أقول وقد شدوا لساني بنسمة

اللسان ٤٤١٠/٦.

(٤) انظر لسان العرب ٢٢٧٩/٣.

شرح أبيات ضرار بن الخطاب وحشان بن ثابت

«عَنَوَةٌ»^(١): بفتح العين: أي قهراً.

«طُلَّتْ» بضم الطاء المهملة وتشديد اللام المفتوحة ثم تاء التانيث: أي أُهْدِرَتْ.

«حَرِيَاءٌ»: بفتح الحاء المهملة وكسر الراء وتشديد المثناة التحتية: أي حقيقاً وجديراً.

«ضُمَّرَاءٌ»: بضم الضاد المعجمة: جمع ضامر.

«شَرَفٌ»: المكان العالي يُشرف على ما حوله.

«تَدَارَكْتُ وَأَخَذْتُ»: كلاهما بتاء الخطاب.

«الْبِرِّقَاءُ»^(٢): كل موضع فيه حجارة مختلفة الألوان.

«الْكُتَّانُ»: بفتح الكاف.

«الْأَبَاطُ»: قوم من العجم.

«الرَّيْطُ»^(٣): الملاحف البيض واحدها رَيْطَةٌ.

«مُقَصَّرًا»: بميم مضمومة فقف مفتوحة فصاد مهملة مُشَدَّدَةٌ: أي قُصِّرَتْ بِالْمِقْصَرَةِ

كَمِكْنَسَةٍ خَشْبَةِ الْقَصَّارِ.

«حُسْرًا»: مُغْيِيَةٌ.

«الْوَشْتَانُ»^(٤): النَّائِمُ.

«التُّكَلَّى»: المرأة الفاقدة ولدها.

«حَتْفَهَا»: هلاكها.

«مَخْفَرٌ» بفتح الفاء: مصدر «وَمَخْفِرٌ» بكسر الفاء: مكان.

الثالث: في معرفة أسماء الذين بايعوا لَيْلَةَ العقبة الثالثة:

وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين. قال في العيون: هذا هو العدد المعروف، وإن زاد

في التفصيل فليس ذلك بزيادة في الجملة وإنما هو لِمَحَلِّ الخِلاَفِ فيمن شهد. فبعض الرواة

يثبتونه وبعضهم يثبت غيره بدله. قلت: ورثب ابن إسحاق أسماءهم على القبائل والبطون ورثبهم

على حروف المعجم ليسهل الكشف عنهم. واعلم أن كل اسم يأتي فيهم بلفظ: «عبد

(١) انظر المصباح المنير ٤٣٤.

(٢) البرقاء: أرض غليظة فيها حجارة ورمل وطين مختلطة وجمعها (براقى) الوسيط ٥١/١.

(٣) الرَيْطَةُ: الملاعة إذا كانت قطعة واحدة ولم تكن لفقين وقيل: الرَيْطَةُ كل ملاعة غير ذات لفقين كلها نسيج واحد وقيل: هو كل ثوب لين رقيق، والجمع رَيْطٌ ورَيْطٌ. اللسان ١٧٩٢/٣.

(٤) الوسن الناس قال ابن القطاع: والاستيقاظ. ورجل وسنان وامرأة وسنى. المصباح المنير ص ٦٦٠.

الأشهل، فإنه بشين معجمة، أو بلفظ «بَهْتَه» فإنه بضم الباء الموحدة وسكون الهاء وبالشاء المثناة، أو بلفظ «يزيد» فإنه بالمشناة التحتية إلا «تزيد بن جشم» فإنه بالمشناة الفوقية والزاي بعدها تحتية. أو بلفظ «جشم» فإنه بجيم مضمومة فشين معجمة مفتوحة، وهو غير منصرف للعلمية والعدل من جاشم، أو بلفظ «حارثة» فإنه بالحاء المهملة والمثناة، أو بلفظ «حزام» فإنه بالحاء والراء المهملتين، أو بلفظ «خنساء» فإنه بحاء معجمة فنون فسین فألف تأنيث. أو بلفظ «زريق» فإنه بزاي مضمومة فراء مفتوحة فمثناة تحتية ساكنة فقف. أو بلفظ «زعوراء» فإنه بزاي مفتوحة فعين مهملة مضمومة فواو ساكنة فراء فهزرة ممدودة، أو بلفظ «ساردة» بكسر الراء فإنه بمهملات، أو بلفظ «سرح» بسكون الراء فإنه بمهملات، أو بلفظ «سليمة» بكسر اللام، أو بلفظ «السلم» فإنه بفتححتين. أو بلفظ «سنان» فإنه بسين مكسورة ونونين بينهما ألف أو بلفظ «سواد» فإنه بفتح السين المهملة وتخفيف الواو وآخره دال مهملة. أو بلفظ «غنم» فإنه بغين معجمة فنون ساكنة أو بلفظ «لوزان» فإنه بفتح اللام والذال المعجمة. أو بلفظ «مبذول» فإنه بالموحدة والمعجمة بلفظ اسم المفعول. أو بلفظ «نابي» فإنه بالنون والباء الموحدة. أو بلفظ «التجار» أو «التجاري» فإنه بالنون والجيم.

باب الهمزة: أبي - بضم الهمزة وفتح الموحدة وتشديد التحتية - ابن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار، وهو تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن عمرو بن حبيب - بفتح المهملة وكسر الموحدة - ابن حارثة بن غضب بفتح الغين وسكون الضاد المعجمتين. أسعد بن زرارة - بضم الزاي - ابن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار الخزرجي التجاري أبو أمانة. أسيد - بضم أوله وسكون التحتية - ابن حضير - بحاء مهملة مضمومة فضاء معجمة مفتوحة فراء - ابن سيمك - بكسر السين المهملة وآخره كاف - ابن عتيك - ككريم - ابن رافع بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل بن جشم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس الأشهلي يُكنى أبا يحيى وقيل كنيته أبو عتيك. أوس بن ثابت - بالمثلثة - ابن المنذر بن حزام بن عمرو بن زيد مائة - بفتح الميم - ابن عدي بن مالك بن النجار بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج أخو حسان بن ثابت رضي الله عنه. أوس بن زيد بن أصرم، ذكره ابن عتبة فيهم.

الباء الموحدة: البزاء - بفتح الموحدة فالراء ممدوداً مخففاً - ابن مفرور - بميم مفتوحة فعين مهملة ساكنة فراء مضمومة فواو فراء أخرى - ابن صخر - بصاد مهملة مفتوحة فحاء معجمة - ابن خنساء بن سنان بن عبيد بن غنم بن كعب بن سليمة بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن يزيد بن جشم بن الخزرج، وهو أول من بايع ليلتذ في قول ابن

إسحاق، وأول من أوصى بثلاث ماله. يشر بن البراء بن معرور. بشير - بفتح أوله وكسر المعجمة بعدها مثناة - ابن سعد بن ثعلبة بن جلاس - بضم الجيم مخففاً وضبطه الدارقطني بفتح الخاء المعجمة وتشديد اللام - ابن زيد بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج. بُهَيْز - بضم أوله وفتح الهاء وسكون التحتية، قال في النور: وآخره زاي، وضبطه الحافظ في الإصابة بالراء: وقيل: أوله نون بدل الموحدة - ابن الهيثم بن عامر، وقيل ابن نابي بن مجدعة - بفتح الميم وسكون الجيم، وبالعين المهملة - ابن حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس الأوسي الحارثي.

الثاء المثلثة: ثابت بن الجذع - واسم الجذع ثعلبة، والجذع بكسر الجيم وبالذال المعجمة كذا قال في النور، وفي نسخة صحيحة من العيون بضم الجيم وفتح الذال وفي نسخة صحيحة من سيرة ابن هشام بفتحها - ابن زيد بن الحارث بن حرام بن كعب بن سلمة بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن يزيد بن جشم بن الخزرج الخزرجي السلمي. ثعلبة بن عبيد بن عدي: قال الذهبي في التجريد: «ذكره ابن الجوزي في التلخيص». قال الحافظ: «أخشى أن يكون وقع في اسم أبيه تصحيف وهو ثعلبة بن عنمة - بعين مهملة ونون فميم مفتوحات - ابن عدي بن نابي بن عمرو بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة السلمي الخزرجي».

الجيم: جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب ابن سلمة بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن يزيد بن جشم بن الخزرج الخزرجي السلمي. جبّار - بجيم مفتوحة فباء موحدة مشددة فراء - ابن صخر بن أمية بن خنساء - ويقال خنيس - ابن سنان بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة الخزرجي ثم السلمي أبو عبد الله.

الحاء المهملة: الحارث بن قيس بن خلدة - بفتح الخاء المعجمة واللام ويقال خالد - ابن مخلد - بضم الميم فحاء معجمة فلام مشددة مفتوحتين - ابن عامر بن زريق [بن عامر بن زريق] بن عبد حارثة بن مالك بن غضب - بفتح مفتوحة فضاء ساكنة معجمتين - ابن جشم ابن الخزرج الخزرجي ثم الزرقني، أبو خالد.

الخاء المعجمة: خارجة بن زيد بن أبي زهير بن مالك بن امرئ القيس بن مالك الأغر ابن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث الخزرجي. خالد بن زيد بن كليب - بضم الكاف - ابن ثعلبة بن عبد عوف بن غنم بن مالك بن النجار [واسمه] تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج [الأكبر] أبو أيوب الخزرجي النجاري. خالد بن عمرو بن عدي بن نابي بن عمرو بن سواد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة [الخزرجي] السلمي. خالد بن قيس بن مالك بن

العجلان بن مالك بن عامر بن بياضة [ابن عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن
غضب بن جشم بن الخزرج الأكبر الخزرجي البياضي. خديج بن سلامة - وقيل بن سالم بن
أوس بن عمرو بن القراقر - بقافين وراءين مُهْمَلَتَيْنِ - ابن الضحيان البلوي نسباً الأنصاري جلفاً،
حليف لبني حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سَلِمة من الأنصار. خلاد - بفتح أوله
وتشديد اللام وآخره دال مهملة - ابن سُؤيد بن ثعلبة بن عمرو بن حارثة بن امرئ القيس بن
مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج الأكبر الأنصاري
الخزرجي الحارثي [من بلحارث بن الخزرج].

الذال المعجمة: ذكوان بن عبد قيس بن خلدة - أخو الحارث السابق - ابن مُخَلد بن
عامر بن زريق أبو السبع - بسين مهملة فباء موحدة، كان خرج إلى رسول الله ﷺ بمكة فهو
مهاجري أنصاري.

الراء: رافع بن مالك بن العجلان بن عمرو بن عامر بن زريق بن عامر بن عبد
حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج الخزرجي الزرقى. رفاعه - بكسر الراء
وتخفيف الفاء وفتح العين المهملة - ابن رافع بن مالك بن العجلان الخزرجي الزرقى.
رفاعة بن عبد المنذر بن زئبر - بزاي مفتوحة فنون ساكنة فمَوْحِدَةٌ مفتوحة - ابن زيد بن أمية بن
مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس أبو لبابة الأوسى. رفاعه بن عمرو بن
زيد - وقيل ابن نوفل وقيل ابن عمرو وقيل ابن قيس - ابن ثعلبة بن جشم بن مالك بن
سالم بن غنم بن عوف بن الخزرج الخزرجي أبو الوليد.

الزاي: زياد بن لبيد - بفتح اللام وكسر الموحدة وسكون التحتية وآخره دال مهملة - ابن
ثعلبة بن سينان بن عامر بن عدي بن أمية بن بياضة - بالمعجمة - ابن عامر بن زريق بن عبد
حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج الخزرجي البياضي. زيد بن سهل بن
الأسود بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار الخزرجي
التجاري أبو طلحة [وهو مشهور بكنيته وهو زوج أم سليم بنت ملحان أم أنس بن مالك.

السين المهملة: سعد بن خيشمة - بخاء مفتوحة فمشناة تحتية فمثلة فميم فهاء تأنيث
- ابن الحارث بن مالك بن كعب بن النخاط - بنون فحاء وطاء مهملتين بينهما ألف - ابن
كعب بن حارثة بن غنم بن السلم - بسين مهملة مشددة فلام ساكنة - ابن امرئ القيس بن
مالك بن الأوس الأوسى أبو خيشمة. سعد بن الربيع - بفتح الراء - ابن عمرو بن أبي زهير بن
مالك بن امرئ القيس بن مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج. سعد بن زيد بن
مالك بن عبد بن كعب بن عبد الأشهل الأوسى الأشهلي. سعد بن عبادة - بعين مهملة

مضمومة فباء موحدة مُخَفِّفة - ابن دُلَيْم - بدال مهملة مضمومة فلام مفتوحة فمشناة تحتية ساكنة - ابن حارثة بن أبي خزيمة - بحاء مهملة مفتوحة فزاي مكسورة فمشناة تحتية، قال في الإملاء: هذا هو الصواب وكذا قيده الدارقطني وبيروى بحاء مضمومة وزاي مفتوحة - ابن ثعلبة بن طريف - بالطاء المهملة المفتوحة وبالفاء - ابن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج، يُكْتَنَى أبا ثابت [وقيل] أبا قيس، سيد الخزرج. سَلَمَة - بفتح أوله وثانيه - ابن سلامة بن وقش - بفتح الواو وإسكان القاف وتُفْتَح - ابن زُغْبَة - بزاي مضمومة فغين معجمة ساكنة، فمُوَحَّدَة مفتوحة فتاء تأنيث - ابن زَعُوراء بن عبد الأشهل بن جُشَم بن الحارث بن الخزرج بن مالك بن الأوس الأوسى الأشهلي. سليم بن عمرو - أو عامر - ابن حديدة - بفتح الحاء المهملة - ابن عمرو بن غنم بن سواد بن غنم بن كعب بن سَلِمة، السَلَمِي. سِنَان بن صيفي بن صَخْر بن خنساء بن سِنَان بن عُبَيْد بن عَدِي بن غنم بن كعب بن سَلِمة الخزرجي السلمي. سهل بن غتبيك - ككريم - ابن النعمان بن عمرو بن غتبيك بن عمرو بن مبدول - بالذال المعجمة اسم مفعول - وهو عامر بن مالك بن النجار الخزرجي.

الشين المعجمة: شمر بن سعد بن ثعلبة، كذا في التلخيص ولم أره في غيره.

الصاد المهملة: صيفي بن سواد بن عَبَاد بن عمرو بن غنم بن سواد بن غنم بن كعب بن سَلِمة السلمي.

الضاد المعجمة: الضُّحَاك بن زيد بن الطفيل، كذا في التلخيص ولم أره في غيره. الضُّحَاك بن حارثة بن زيد بن ثعلبة بن عُبَيْد بن عَدِي بن غنم بن كعب بن سَلِمة الخزرجي ثم السَلَمِي.

الطاء المهملة: الطفيل بن مالك بن خنساء بن سِنَان بن عُبَيْد بن عَدِي بن غنم بن كعب السلمي.

الظاء المعجمة: ظَهَيْر - بالتصغير - ابن رافع بن عَدِي بن زيد بن جُشَم بن حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو - وهو النبيث - ابن مالك بن الأوس الأوسي.

العين المهملة: عامر بن نابي - بالنون وبالموحدة - ابن زيد بن حرام. عُبَادَة - بضم أوله وتخفيف المُوَحَّدَة - ابن الصاميت - بكسر الميم - ابن قيس بن أضرَم بن فِهْر بن ثعلبة بن غنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج الخزرجي أبو الوليد. عَبَاد - بفتح أوله وتشديد الموحدة - ابن قيس - بالمشناة التحتية - ابن عامر بن خالد بن مُخَلَّد - كمحمد - ابن عامر بن زُرَيْق الزرقفي. العباس بن عُبَادَة بن نضلة - بنون مفتوحة فضاد معجمة ساكنة - ابن مالك بن العجلان الخزرجي. عبد الله بن أنيس - بضم أوله مُصَفَّرًا - ابن أسعد بن حرام بن حُبَيْب بن

مالك بن غنم بن كعب بن ناشز - بالنون والشين المعجمة والزاي - ابن يزبوع - بمثناة مفتوحة فراء ساكنة فمُوَحَّدَة مضمومة فعين مهملة - ابن البرك - بموحدة مضمومة فراء ساكنة فكاف - ابن وَبَرَة - بفتح الواو فالموحدة والراء، وعند ابن عُمر: تيم بن نَفَاة - بنون مضمومة ففاء ومثلثة - ابن إياس بن يربوع، دَخَلَ البرك في جهينة حليفاً لهم. عبد الله بن جُبَيْر - بضم الجيم وفتح الموحدة - ابن النعمان بن أمية بن امرئ القيس - وهو البرك - بضم الموحدة وفتح الراء وبالكاف - ابن ثعلبة بن عمرو [بن عوف بن مالك بن الأوس الأوسي] ثم من بني ثعلبة بن عمرو. عبد الله بن الربيع بن قيس بن عمرو بن عَبَاد بن الأَبَجَر - بفتح الهمزة فموحدة ساكنة فجيم مفتوحة فراء، والأَبَجَر هو خُدْرَة - بضم الخاء المعجمة وإسكان الدال المهملة - ابن عوف بن الحارث بن الخزرج الخزرجي. عبد الله بن رَوَاحَة - بالفتح ومهملة مُخَفَّفَاً - ابن ثعلبة بن امرئ القيس بن عمرو بن امرئ القيس الأكبر بن مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج الخزرجي. عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه بن زيد من بني جُشَم بن الحارث بن الخزرج، الخزرجي الحارثي وَيُكْنَى أبا محمد وهو الذي أري الأذان في النوم. عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن يزيد بن جُشَم بن الخزرج الخزرجي السلمي، يكنى أبا جابر والد جابر بن عبد الله. عَبَس - بفتح أوله وسكون الباء وبالسين المهملة - ابن عامر بن عدي بن نابي بن عمرو بن سواد بن تميم بن كعب بن سَلِيمَة السلمي. عُبيد - بضم أوله بغير إضافة - ابن التَّيْهَان، أخو أبي الهيثم. عُقْبَة - بضم أوله - ابن عمرو بن ثعلبة بن أُسَيْرَة - بضم الهمزة وفتح المهملة - ابن عُسَيْرَة، واختلفوا في تقييد عسييرة فمنهم من يفتح العين ويكسر السين المهملتين ومنهم من يضم العين ويفتح السين - ابن عطية بن خُدَارَة - بالخاء المعجمة المضمومة، وبعضهم يقول بجيم مضمومة ومكسورة - ابن عوف بن الحارث بن الخزرج أبو مسعود البدري. عُقْبَة بن وَهَب بن كَلْدَة - بفتح الكاف واللام والدال المهملة - ابن الجَعْد - بفتح الجيم وسكون العين وبالذال المهملتين - ابن هلال بن الحارث بن عمرو بن عدي بن جُشَم بن عوف - بالفاء - ابن بُهْثَة بن عبد الله بن غَطَفَان - بفتح الغين المعجمة والطاء المهملة والفاء - ابن قيس بن عَيْلان الغطفاني، حليف لبني سالم بن غنم بن عَوْف بن الخزرج. قال ابن إسحاق: «كان أول من أسلم من الأنصار ولحق برسول الله ﷺ بمكة فلم يزل معه حتى هاجر فكان يقال له مهاجري أنصاري».

عُمَارَة - بضم أوله والتخفيف - ابن حَزْم بن زيد بن لُوْدَان بن عمرو بن عَبْد بن عوف بن غنم بن مالك بن النُّجَار، الخزرجي النُّجَارِي. عمرو بن الجَمُوح - بفتح الجيم وضم الميم وبالحاء المهملة - ابن زيد بن حرام بن كعب بن غنم بن سَلِيمَة السلمي من بني جُشَم بن الخزرج.

عَمْرُو بن الحارث بن كِنْدَةَ بن عَمْرُو بن ثعلبة من القواقل شهد العقبة الثانية قاله ابن إسحاق. عَمْرُو بن عَنَمَة - بمهمله فتون فميم مفتوحات - ابن عدي بن نابي بن عمرو بن سواد بن عَنَم بن كعب بن سَلِمة السلمى. عَمْرُو بن غَزِيَّة - بغين معجمة مفتوحة فزاي مكسورة فمشناة تحتية مُشَدِّدَة - ابن عمرو بن ثعلبة بن خنساء بن مبدول بن عَمْرُو بن عَنَم بن مازن - بالزاي - ابن النُّجَّار الخزرجي ثم المازني، يقال إنه شهد العقبة، وقال ابن هشام: عَمْرُو بن غزيرة بن عَمْرُو بن ثعلبة وهو عطية بن خنساء. عُمَيْر - وقيل عَمْرُو - ابن الحارث بن ثعلبة بن الحارث بن حرام بن كعب ابن عَنَم بن كعب بن سَلِمة بن سعد الخزرجي كذا نسبه ابن إسحاق وزاد موسى بن عُقْبَة بَيْن الحارث وثعلبة: لَيْدَة - بكسر اللام وإسكان الموحدة وبالمهمله. عُمَيْر بن عامر بن نابي بن يزيد بن حرام الخزرجي، قال ابن الكلبي: شهد المشاهد كلها، وأقره الرشاطي والمحافظة، وقال الحافظ الدمياطي: لم أر من ذكره في الصحابة غيره. عوف بن الحارث بن رفاعه - بكسر الراء - ابن الحارث بن سواد [بن مالك بن عَنَم بن مالك بن النُّجَّار الخزرجي] النُّجَّاري يُعْرَف بأمه عَفْرَاء، ويقال بحذف الحارث الثاني. عُوَيْم - بضم أوله وفتح الواو وسكون التحتية بعدها ميم وليس بعدها راء - ابن ساعدة بن عَائِش - بمشناة تحتية فشين معجمة - ابن قيس بن النعمان بن زيد بن أمية بن مالك بن عوف بن عَمْرُو بن عوف بن مالك بن الأوس الأوسى.

الفاء: فَرْوَة - بفتح الفاء وسكون الراء - ابن عَمْرُو بن وَدْفَة - بفتح الواو وإسكان الدال، قال ابن إسحاق: وهي معجمة وقال ابن هشام: مهمله وَرَجَجَه السهيلي وفسرة بالروضة - ابن عُجَيْد بن عامر بن بياضة البياضي.

القاف: قَتَادَة بن النعمان بن زيد بن عامر بن سواد بن ظَفَر بن الخزرج [بن عمرو بن مالك بن الأوس] الأوسى ثم الظَفَرى، ذكروه فيهم إلا ابن إسحاق. قُطْبَة - بضم أوله وسكون الطاء المهمله - ابن عامر بن حديد بن عمرو بن سواد بن عَنَم بن كعب بن سَلِمة الخزرجي السَلْمى يُكْنَى أبا زيد. قيس بن أبي صعصعة - واسم أبي صعصعة عَمْرُو - ابن زيد بن عوف بن مبدول بن عَمْرُو بن عَنَم بن مازن بن النُّجَّار الخزرجي المازني.

الكاف: كَعْب بن عَمْرُو بن عَبَّاد - بفتح العين المهمله وتشديد الباء الموحدة - ابن عَمْرُو بن سواد بن عَنَم [بن كعب بن سَلِمة بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن يزيد بن جُشَم بن الخزرج] الخزرجي السَلْمى أبو اليَسْر - بفتح المشناة التحتية والمهمله. كعب بن مالك بن أبي كعب عَمْرُو بن القَيْن - بفتح القاف وسكون المشناة التحتية - ابن كعب بن سواد بن عَنَم بن كعب بن سَلِمة بن سعد بن عَلِيّ - بضم العين المهمله وفتح اللام - ابن أسد بن ساردة أبو عبد الله الخزرجي السَلْمى - بفتحَيْن ويقال أبو بشير، ويقال أبو عبد الرحمن.

الميم: مالك بن النُّبَّهان - بمشناة فوقية مفتوحة فمشناة تحتية مكسورة مُشَدَّدة ويجوز تخفيفها فألف فنون - ابن مالك بن عُبَيْد بن عَمْرُو بن عبد الأَعْلَم بن عامر بن زعوراء بن جُشَم بن الحارث بن الخزرج بن عَمْرُو وهو النَّبِيت - بفتح النون وكسر الباء الموحدة فمشناة تحتية ساكنة فمشناة فوقية - ابن مالك بن الأوس، أبو الهَيْثَم الأوسِي. مالك بن الدُّخْشَم - بدال مهملة مضمومة فحاء ساكنة فشين مضمومة معجمتين فميم ويقال بالنون بدل الميم ويقال كذلك بالتصغير. - ابن مالك بن عَثَم بن عوف بن عَمْرُو بن عوف، وقيل في نسبه غير هذا. قال أبو عمر: لا يصح منه التَّفَاق فقد ظهر من حسن إسلامه ما يمنع من اتهامه بذلك. مالك بن رفاعة بن عَمْرُو بن زيد، ذكره الأموي، كذا في العيون ولم أره في التلقيح لابن الجوزي ولا في العُجَّالة للبرهان النووي ولا في الإصابة للحافظ. مسعود بن يزيد بن شُبَيْع بن خنساء - ويقال سنان - ابن عُبَيْد بن عَدِي بن كعب بن عَثَم بن كعب بن سَلِمْة السَّلْمِيّ .. مُعَاذ - بضم أوله وبالذال المعجمة - ابن جَبَل - بفتح الجيم والموحدة - ابن عَمْرُو بن أوس بن عايد - بالمشناة التحتية والذال المعجمة - ابن عَدِي بن كعب بن عَمْرُو بن أَدِي - بضم الهمزة وفتح الدال المهملة وتشديد المشناة التحتية - ابن سعد بن عُثَيّ - بضم العين المهملة وفتح اللام - ابن أَسَد بن ساردة بن يزيد بن جُشَم بن الخزرج، أبو عبد الرحمن الخزرجي الجُشَمِي، الإمام المُقَدَّم في علم الحلال والحرام رضي الله تعالى عنه. مُعَاذ بن الحارث بن رفاعة بن الحارث بن سواد بن مالك بن عَثَم بن مالك بن النُّبَّهان الخزرجي، يُعْرَفُ بِأُمِّهِ عَفْرَاء. معاذ بن عَمْرُو بن الجَمُوح - بجيم مفتوحة فميم فواو - ابن زيد بن حرام بن كعب بن عَثَم بن كعب بن سَلِمْة الخزرجي السَّلْمِيّ. مَعْقِل - بميم مفتوحة فعين ساكنة مهملة فقف مكسورة فلام - ابن المُنْذِر بن سَرَح - بسين فراء فحاء مهملات - ابن حُنَّاس بن سِنَان بن عبيد بن عَدِي بن عَثَم السَّلْمِيّ، معن بن عَدِي بن الجَدّ - بفتح الجيم وتشديد الدال المهملة - ابن العَجْجَلان بن ضُبَيْعَة - بضم الضاد وفتح الموحدة وسكون التحتية وبالعين - ابن حارثة بن ضُبَيْعَة بن حَرَام بن جُفَل - بضم الجيم وسكون العين المهملة - ابن عَمْرُو بن جُشَم بن رَدَم بن ذُبْيَان بن هَمِيم - بضم الهاء مُصَغَّرًا - ابن ذُهَل - بضم الدال المعجمة - ابن هَنِي بن بِلِيّ البلوي، حليف بني عَمْرُو بن عوف. مُعَوَّذ - بالذال المعجمة بلفظ اسم الفاعل - ابن الحارث بن رفاعة، ويُعْرَفُ بِأُمِّهِ عَفْرَاء. المُنْذِر بن عَمْرُو بن حُنَيْس بن حارثة بن لُوذَانَ بن عبدود بن زيد بن ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج الخزرجي الساعدي.

النون: النعمان بن عَمْرُو بن رفاعة بن الحارث بن سواد بن مالك بن عَثَم بن مالك بن النُّبَّهان. نهير بن بهير - بالموحدة، وهو نهير بن الهيثم - من بني نابي بن مجدعة بن حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عَمْرُو بن مالك بن الأوس الأوسي.

الهاء: هانيء - بهمزة آخره - ابن نيار - بكسر النون وتخفيف المشناة التحتية وآخره راء - ابن عمرو بن عبّيد بن كلاب بن دهمان - بدال مهملة مضمومة فهاء ساكنة - بن غنم بن ذبيان - بدال معجمة مكسورة ويجوز ضمها فموحدة ساكنة فمشناة تحتيّة وآخره نون - ابن هميم - بهاء مضمومة فميم مفتوحة فمشناة تحتيّة فميم أخرى - ابن كاهل - بكسر الهمزة - ابن ذهل - بضم الذال المعجمة وسكون الهمزة - ابن هنيء - بفتح الهمزة وكسر النون وتشديد التحتية - ابن بليء - بالموحدة واللام وزان عليء - ابن عمرو بن الحاف - بالحاء المهملة والفاء ومنهم من يكسر همزته ويقطعها ومنهم من يجعل الألف واللام فيه للتعريف منزلة اسم الفاعل من حفيء يخفي - ابن قضاة - بضم القاف وبالضاد المعجمة حليف لبني حارثة من الأنصار.

المشناة التحتية: يزيد بن ثعلبة بن خزّمة - بفتح المعجمتين قاله الدارقطني، وقال ابن إسحاق وابن الكلبي بسكون الزاي - ابن أضرم بن عمرو بن عمارة - بفتح أوله والتشديد - ابن مالك البلوي أبو عبد الرحمن حليف بني سالم بن عوف بن الخزرج - يزيد بن خذام - بخاء مكسورة وذال معجمتين، ويقال حرام بالحاء والراء المهملتين - ابن شبيع - بموحدة مُصْفَرًا - ابن خنساء بن سنان بن عبّيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سَلِمة الخزرجي السلمي - يزيد بن عامر بن حديدة - بالحاء المهملة - ابن غنم بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة أبو المُنْذِر الخزرجي السلمي - يزيد بن المنذر بن سرح - بمهملات - ابن حُنَّاس بن سنان بن عبّيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة الخزرجي السلمي.

الكُنَى: أبو سنان بن صيفي بن صخر بن خنساء بن سنان بن عبّيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سَلِمة.

النساء: أسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة، أم منيع السلمية. نسبة بفتح النون وكسر السين المهملة - بنت كعب بن عمرو بن عوف بن عمرو بن مبدول بن عمرو بن غنم بن مازن، أم عمارة.

الباب التاسع

في إسلام عمرو بن الجُمُوح

بفتح الجيم وبالحاء المهملة رضي الله تعالى عنه

قال ابن إسحاق وغيره: لما قدم النفر الذين بايعوا رسول الله ﷺ، أظهروا الإسلام بالمدينة، وفي قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشرك، منهم عمرو بن الجُمُوح [بن زيد بن حَرَام بن كَعْب بن غَنَم بن كعب بن سَلِمة السَلَمِي من بني جُشَم بن الخزرج]، وكان ابنه مُعَاذ بن عمرو شهد العقبة وبايع رسول الله ﷺ بها. وكان عمرو [بن الجُمُوح] سَيِّداً من سادات بني سَلِمة [وشريفاً من أشرفهم]، وكان قد اتخذ في داره صنماً من خشب يُعَظَّمه يقال له: مناة [كما كانت الأشراف يصنعون تتخذ إليها تُعَظَّمه وتُظهِره].

فلما أسلم فتیان بني سَلِمة: مُعَاذ بن جَبَل ومُعَاذ بن عمرو في فتیان منهم ممن أسلم وشهد العقبة، وكانوا يُذَلِّجون بالليل على صنم عمرو ذلك فيحملونه ويطرحونه في بعض حُفَر بني سَلِمة وفيها عذير الناس، مُنكساً على رأسه، فإذا أصبح عمرو قال: وَيَحْكُم! من عَدَا على آلهتنا هذه الليلة؟ قال: ثم يَغْدُو يلتمسه حتى إذا وجده غَسَله وطَهَّره وطَيَّبه، ثم قال: أما والله لو أعلم من فعل بك هذا لأخزيتنه. فإذا أمسى ونام عَدُوا عليه ففعلوا به مثل ذلك، [فَيَغْدُوا فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى فَيَغْسِله وَيُطَهِّره وَيُطَيِّبه ثم يَغْدُون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك] فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوماً فغَسَله وطَهَّره وطَيَّبه، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال له: إني والله ما أعلم من يصنع بك ما أرى، فإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك. فلما أمسى ونام عمرو عَدُوا عليه فأخذوا السيف من عنقه ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرئوه به بحبل ثم ألقوه في بئر من آبار بني سَلِمة فيها عذير من عذير الناس. وعَدَا عمرو بن الجُمُوح يلتمسه فلم يجده في مكانه، فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر مُنكساً مقروناً بكلب ميت. فلما رآه أبصر شأنه، وكلمه من أسلم من قومه، فأسلم رحمه الله وحسن إسلامه. فقال حين أسلم وعرف من الله ما عرف [وهو يذكر صنمه ذلك وما أبصر من أمره ويشكر الله تعالى الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة]:

وَاللَّهِ لَوْ كُنْتَ إِلَهًا لَمْ تَكُنْ أَنْتَ وَكَلْبٌ وَشَطٌّ بِشِرِّ فِي قَرْنٍ
أَفْ لِمَلَقَاكَ إِلَهًا مُشَدَّنٌ الْآنَ فَتُشْنَاكَ عَنِ سَوْءِ السَّعِينِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ ذِي الْجِنَّةِ الْوَاهِبِ الرُّزَاقِ دِيَانِ الدِّينِ
هُوَ الَّذِي أَنْقَذَنِي مِنْ قَبْلِ أَنْ أَكُونَ فِي ظُلْمَةٍ قَبْرِ مُرْتَهَنٍ
بِأَخْمَدَ الْمَهْدِيِّ النَّبِيِّ الْمُؤْتَمَنِ^(١)

(١) انظر الروض الأنف ٢/٢٠٥.

تنبهان

الأول: في الزهر قول عمرو: «لو كُنْتُ إِلَهَا لَمْ تَكُنْ» فيه عيب يسمى: سِنَاد الإِشْبَاع وهو تغيير حركة الدخيل فالضمة مع الكسرة غير معيب والفتحة مع واحد منهما معيب والمذكور في الرجز معيب بغير شك لأنه جمع بين الفتح والضم في قوله: فِي قَرْنٍ.

الثاني: في بيان غريب ما سبق:

«مناة»^(١) وَزَنَّهُ فَعَلَةٌ مِنْ مَنَيْتُ الدَّمِ وَغَيْرُهُ إِذَا صَبَّيْتَهُ لِأَنَّ الدَّمَاءَ كَانَتْ تُمْنَى عِنْدَهُ أَي تُصَبُّ تَقَرُّبًا إِلَيْهِ.

«العذيرة» بفتح العين المهملة وكسر الدال المعجمة: جمع عذرة الخروء.

«القرن»^(٢) بفتحتين: الحبل.

«مُسْتَدَنٌ» بفتح المثناة الفوقية والدال المهملة معناه: ذليل مُسْتَعْبَد ذكره في الإملاء قال في الروض: هو من السُدانة وهي خدمة البيت وتعظيمه.

«الغبن»^(٣) بفتح الغين المعجمة والباء الموحدة يُقَالُ: غَبِنَ رَأْيُهُ كَمَا يُقَالُ سَفِهَ نَفْسَهُ، فَتَصْبِرُوا لِأَنَّ الْمَعْنَى خَسِرَ نَفْسَهُ وَأَوْبَقَهَا وَأَفْسَدَ رَأْيَهُ وَنَحْوَ هَذَا.

«الدِّينُ». بكسر الدال المهملة: جَمْعُ دِينَةٍ وَهِيَ الْعَادَةُ وَيُقَالُ لَهَا دِينٌ أَيْضًا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِالذِّينِ الْأَدِيَانَ أَي هُوَ دِيَّانُ أَهْلِ الْأَدِيَانَ، وَلَكِنْ جَمَعَهَا عَلَى الدِّينِ لِأَنَّهَا مِلَّةٌ وَيُنْحَلُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَآبُ وَإِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ.

(١) اللسان ٤٢٨٥/٦.

(٢) انظر المصباح المنير ٥٠١.

(٣) انظر المعجم الوسيط ٦٤٤/٢.

جماع أبواب الهجرة إلى المدينة الشريفة

الباب الأول

في إذن النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين في الهجرة إلى المدينة

روى ابن سعد عن أبي أمية بن سهل بن حنيف وعن عروة عن عائشة رضي الله عنهما قال: لما صدر السبعون من عند رسول الله ﷺ طابت نفسه وقد جعل الله له منعة وقوماً أهل حرب [وعدة] ونجدة، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلمون من الخروج فضيقوا على أصحابه وتعبتوا بهم، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى، فشكا ذلك أصحاب رسول الله ﷺ واستأذنوه في الهجرة، فقال: «قد أريت دار هجرتكم، أريت سبخة ذات نخل بين لابتين» - وهما الخرتان - «ولو كانت السراة أرض نخل وسبخ لقلت هي هي». ثم مكث أياماً ثم خرج إلى أصحابه مسروراً فقال: «قد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب، فمن أراد الخروج فليخرج إليها». فجعل القوم يتجهزون ويترافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك. فكان أول من قدم المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ أبو سلمة بن عبد الأسد - بسين ودال مهملتين^(١) - قال ابن إسحاق: «هاجر إلى المدينة قبل بيعة العقبة بسنة. وحبيست عنه امرأته أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة بمكة نحو سنة ثم أذن لها بنو المغيرة الذين حبسوها في اللحاق بزوجها فانطلقت وحدها مهاجرة حتى إذا كانت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة [بن أبي طلحة] أخا بني عبد الدار وكان يومئذ مشركاً وأسلم بعد ذلك، فشيعها حتى إذا أوفى على قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال لها: هذا زوجك في هذه القرية. ثم انصرف راجعاً إلى مكة، فكانت تقول: ما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ثم استأخر عني حتى إذا نزلت عنه استأخر بييري فحط عنه ثم قيده في الشجرة، ثم أتى إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بييري فقدمه فزخله، ثم استأخر عني وقال: ازكبي. فإذا ركبت واشتويت على بييري أتى فأخذ بخطامه فقادني، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة».

(١) أخرجه البخاري ١٢٨/٣ وابن سعد في الطبقات ١٥٢/١/١ وابن خزيمة في صحيحه (٢٦٥) والبيهقي في

وقيل: أول المهاجرين مُضْعَب بن عُمَيْر. روى البخاري في صحيحه، والحاكم في الإكليل عن البراء بن عازب قال: «أول من قدم علينا المدينة من المهاجرين مصعب بن عُمَيْر». وروى ابن إسحاق وابن سعد: «ثم كان أول من قَدِمَهَا من المهاجرين بعد أبي سلمة: عامر بن ربيعة [حليف بني عدي بن كعب]، معه امرأته ليلى بنت أبي حنمة^(١). بالحاء المهملة المفتوحة وسكون الثاء المثناة. قالوا: «وهي أول ظعينة قدمت المدينة».

قال ابن إسحاق: «ثم عبد الله بن جحش احتَمَلَ بأهله وبأخيه أبي أحمد عبْد بن جحش - بإضافة عبْد إلى ابن جحش - وكان أبو أحمد رجلاً ضريراً البَصْر، وكان يطوف مكة أعلاها وأسفلها بغير قائد، وكان شاعراً، وكانت عنده الفارعة ابنة أبي سُفْيَان بن حرب، وهاجر جميع بني جحش بنسائهم فقَدَا أبو سُفْيَان على دارهم فتمَلَّكها، قال بعضهم: إنه باعها من عمرو بن علقمة أخي بني عامر بن لؤي، فذكر ذلك عبد الله بن جحش لرسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «ألا ترضى يا عبد الله أن يُعْطِيكَ اللهُ بها داراً في الجنة خيراً منها؟» قال: بلى. قال: «فذلك لك». ولما افتتح رسول الله ﷺ مكة كَلَّمَهُ أبو أحمد في دارهم، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ. فقال الناس لأبي أحمد: يا أبا أحمد إن رسول الله يكره أن ترجعوا في شيء أصيب منكم في الله. فأمسك الكلام عن رسول الله ﷺ. قال ابن إسحاق: وكان بنو عَنَم بن دُودَانَ أهل إسلام، قد أُوْعِبُوا إلى المدينة مع رسول الله ﷺ هِجْرَةَ رِجَالُهُمْ ونسائهم: [عبد الله بن جحش وأخوه أبو أحمد بن جحش، وعكاشة بن مِخْصَن وشجاع وعُقْبَةُ ابنا وَهْب وأربد بن حُمَيْر].

وروى ابن السمان في «المواقفة» عن علي رضي الله عنه قال: ما عَلِمْتُ أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عُمَر بن الخطاب، فإنه لما هَمَّ بالهجرة تَقَلَّدَ سَيْفَهُ وَتَنَكَّبَ قَوْسَهُ وانتضى في يده أسهماً واختَصَرَ عَنزَتَهُ، ومضى قِبَلَ الكعبة، والمَلَأ من قريش بيفنائها فطاف بالبيت سَبْعاً [متمكناً]، ثم أتى المقام فصلى ركعتين، ثم وَقَفَ على الحَلَقِ واحدةً واحدةً وقال لهم: شَاهَبَتِ الوجوه، لا يُرْغِمُ اللهُ إلا هذه المعاطس، من أراد أن يُشْكَلَ أُمُّهُ أو يُؤْتِمَ وَلَدَهُ أو يُزِمَلَ زوجته فَلْيَلْقِنِي وراء هذا الوادي. قال علي رضي الله عنه: فلم يتبعه أحدٌ إلا قوم من المُشْتَضِعِينَ عُلْمَهُمْ ما أرشدهم إليه ثم مضى لوجهه. وروى ابن إسحاق: حدثني نافع مولى عبد الله بن عمر عن عبد الله بن عمر عن أبيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:

(١) ليلى بنت أبي حنمة بن حذيفة بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عبيد بن عويج بن كعب بن لؤي القرشية العدوية أخت سليمان وكانت زوج عامر بن ربيعة الضري فولدت له عبيد الله... وقال ابن سعد: أسلمت قديماً وباهت كانت من المهاجرات الأول هاجرت الهجرتين إلى الحبشة ثم إلى المدينة يقال: إنها أول ظعينة دخلت المدينة في الهجرة ويقال أم سلمة. انظر الإصابة ١٨٠/٨.

اتَّعَدْتُ لِمَا أَرَدْنَا الْهَجْرَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ أَنَا وَعِيشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ وَهَشَامَ بْنَ الْعَاصِ [بْنِ وَائِلٍ] السُّهْمِيِّ التَّنَاضُبِ مِنْ أَضَاةِ بَنِي غِفَارٍ فَوْقَ سَرِفٍ، وَقَلْنَا: أَيُّنَا لَمْ يُضْبِحْ عِنْدَهَا فَقَدْ حُبِسَ فَلَيَبْنُضُ صَاحِبَاهُ. قَالَ: فَأَصْبَحْتُ أَنَا وَعِيشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ عِنْدَ التَّنَاضُبِ وَفَطِنَ لِهَشَامَ قَوْمَهُ فَحَبَسُوهُ عَنِ الْهَجْرَةِ وَفَتِنَ فَاغْتَنَ. ثُمَّ إِنَّ أَبَا جَهْلَ وَالْحَارِثَ بْنَ هَشَامٍ - وَأَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ - خَرَجَا حَتَّى قَدِمَا الْمَدِينَةَ، وَرَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ، فَقَالَا لِعِيشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ وَكَانَ ابْنُ عَمَّتِهِمَا وَأَخَاهُمَا لِأُمِّهِمَا: إِنَّ أُمَّكَ قَدْ نَذَرَتْ أَلَّا يَمَسَّ رَأْسَهَا مُشْطٌ حَتَّى تَرَكَ وَلَا تَسْتَظِلَّ مِنْ شَمْسٍ حَتَّى تَرَكَ، فَزَقَّ لَهَا. فَقُلْتُ لَهُ: يَا عِيشَ إِنَّهُ وَاللَّهِ إِنْ يَرِيدُكَ الْقَوْمُ إِلَّا لِيَفْتَنُوكَ عَنِ دِينِكَ فَاحْذَرُهُمْ، فَوَاللَّهِ لَوْ قَدْ آذَى أُمَّكَ الْقَمَلُ لَامْتَشَطْتُ، وَلَوْ قَدْ اشْتَدَّ عَلَيْهَا حَرُّ مَكَّةَ لَامْتَشَطْتُ. فَقَالَ: أَبْرَ قَسَمَ أُمِّي وَلِي هُنَالِكَ مَالٌ فَآخِذْهُ. فَقُلْتُ: وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنِّي لِمَنْ أَكْثَرَ قَرِيشاً مَالاً فَلكَ نَصْفَ مَالِي وَلَا تَذْهَبْ مَعَهُمَا. فَأَبَى عَلَيَّ إِلَّا أَنْ يَخْرُجَ مَعَهُمَا. فَلَمَّا أَبَى إِلَّا ذَلِكَ قُلْتُ: أَمَا إِذْ قَدْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ فَخُذْ نَاقَتِي هَذِهِ فَإِنَّهَا نَاقَةٌ نَجِيبةٌ ذَلُولٌ فَالزَّمْ ظَهْرَهَا، فَإِنْ رَابَكَ مِنَ الْقَوْمِ رَبِيبٌ فَانْجُ عَلَيْهَا، فَخَرَجَ عَلَيْهَا مَعَهُمَا، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِيَعُضِ الطَّرِيقِ قَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: وَاللَّهِ يَا أَخِي لَقَدْ اسْتَغْلَطْتُ بَعِيرِي هَذَا، أَقْلًا تُعْقِبُنِي عَلَى نَاقَتِكَ هَذِهِ؟ قَالَ: بَلَى.

قال: فأنَاخ وأناخا ليتحول عليها، فلما استَوَوْا بِالْأَرْضِ عَدُوا عَلَيْهِ فَأَوْثَقَاهُ رِبَاطاً وَفَتَنَاهُ فَاغْتَنَ وَدَخَلَ بِهِ مَكَّةَ نَهَاراً مُوْتَقِئاً، ثُمَّ قَالَ: يَا أَهْلَ مَكَّةَ هَكَذَا فافعلوا بسفهاثكم كما فعلنا بسفهيها هذا. قال عمر: فكنا نقول: ما الله تعالى بقابلٍ يُمْنُ افتن صَرْفاً وَلَا عَدْلًا وَلَا تَوْبَةً، قَوْمٌ عَرَفُوا اللَّهَ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى الْكُفْرِ لِبَلَاءٍ أَصَابَهُمْ. قَالَ: وَكَانُوا يَقُولُونَ ذَلِكَ لِأَنْفُسِهِمْ. فَلَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ وَفِي قَوْلِنَا وَقَوْلِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣، ٥٤، ٥٥].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فكتبتها بيدي في صحيفة وبعثت بها إلى هشام بن العاصي. قال: فقال هشام: فلما أتني جعلت أقرأها بذي طوى أصعد بها فيه وأصوب ولا أفهمها حتى قلت: اللهم فهمنيها قال: فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما أنزلت فينا وفيما كنا نقول في أنفسنا. قال: فرجعت إلى بعيري فجلست عليه فلحقت برسول الله ﷺ. هذا ما ذكره ابن إسحاق في شأن هشام.

قال ابن هشام: فحدثني من أثق به أن رسول الله ﷺ قال وهو بالمدينة: «مَنْ لِي بِعِيشَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَهَشَامِ بْنِ الْعَاصِيِّ؟» فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة: «أنا لك يا رسول الله بهما.»

فخرج إلى مكة فقدمها مُسْتَخْفِيًا، فلقي امرأةً تحمل طعاماً فقال لها: أين تريدان يا أمة الله؟ قالت: أريد هذين المحبوسين. تعنيهما، فتبعها حتى عَرَفَ مَوْضِعَهُمَا، وكانا محبوسين في بيت لا سقف له، فلما أَمْسَى تَسَوَّرَ عليهما ثم أخذ مَرْوَةَ فوضعها تحت قَيْدَيْهِمَا ثم ضربهما بسيفه فقطعهما، فكان يقال لسيفه: ذُو الْمَرْوَةِ، لذلك ثم حملهما على بعيره وساق بهما ففُتِرَ قَدَمَيْتَ إِصْبَعِهِ فَقَالَ:

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيَّتِ؟ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيَّتِ

ثم قَدِمَ بهما على رسول الله ﷺ، ثم تتابع المهاجرون أرسالاً فنزل طَلْحَةُ بن عُبَيْدِ اللَّهِ وَصُهَيْب بن سِنَانِ عَلَى خُبَيْب. بضم الخاء المعجمة وفتح الواحدة - ابن إساف - بكسر الهمزة - بالشُّعْ ويقال: بل نزل طلحة بن عبيد الله على أسعد بن زُرَّارَةَ.

وروى ابن سعد عن سعيد بن المُسَيَّبِ أَنَّ صُهَيْبًا حِينَ أَرَادَ الْهَجْرَةَ قَالَ لَهُ كُفَّارُ قَرِيشٍ: أَتَيْتَنَا صُغْلُوكًا حَقِيرًا فَكَثُرَ مَالُكَ عِنْدَنَا وَبَلَغْتَ الَّذِي بَلَغْتَ ثُمَّ تَرِيدُ أَنْ تَخْرُجَ بِمَالِكَ وَنَفْسِكَ وَاللَّهِ لَا يَكُونُ ذَلِكَ. فَقَالَ لَهُمْ صُهَيْبٌ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلْتُ لَكُمْ مَالِي أَتَّخِلُونَنِي سَبِيلِي؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنِّي جَعَلْتُ لَكُمْ مَالِي. قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «رَبِّحْ صُهَيْبُ رِبْحَ صُهَيْبٍ»^(١).

قال ابن سعد: لما قَدِمَ أصحاب رسول الله ﷺ أرسالاً فنزلوا في الأنصار في دورهم وَأَوْوَهُمْ وَنَصَرُوهُمْ وَأَسْوَهُمْ، وكان سالم مولى أبي حذيفة يؤم المهاجرين بقباء قبل أن يقدّم النبي ﷺ. قال ابن إسحاق وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يُؤذَنَ له في الهجرة، ولم يَتَخَلَّفْ معه بمكة أحدٌ من المهاجرين إلا من حُبِسَ أو فُتِنَ، إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قحافة رضي الله عنهما. وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فيقول له: «لَا تَعْجَلْ لَعَلَّ اللَّهَ يَجْعَلُ لَكَ صَاحِبًا». فيطمع أبو بكر أن يكونه.

قال ابن سعد: وكان نَقَرٌ من الأنصار بايعوا رسول الله ﷺ في العقبة الآخرة، ثم رجعوا إلى المدينة، فلما قَدِمَ أول من هاجر إلى قُباة خرجوا إلى رسول الله ﷺ بمكة، حتى قَدِمُوا مع أصحابه في الهجرة، فهم مهاجرون أنصاريون وهم: ذُكْوَان بن عبد قيس [بن خَلْدَةَ الزُّرَقِيَّةِ]، وَعُقْبَةُ بن وَهَب بن كَلْدَةَ وَالْعَبَّاس [ابن عُبَادَةَ] بن نَضْلَةَ وزياد بن لبيد [بن ثعلبة الخزرجي البياضي].

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٦٢/١/٣ وذكره ابن حجر في المطالب (٤٠٦٣).

تنبيهات

الأول: ذكر ابن إسحاق وابن سعد أن أول من هاجر من أصحاب النبي ﷺ أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد. وروى ابن أبي شيبة والبخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال: أول من قدم علينا المدينة من المهاجرين مُضْعَب بن عُمَيْر. قال الحافظ: «فيجمع بينهما بحمل الأُولِيَّة في أحدها على صفة خاصة. فقد جَزَم ابن عُقْبَةَ بأن أول من قدم من المهاجرين مطلقاً أبو سلمة بن عبد الأسد، وكان رجوع من الحبشة إلى مكة، فأوذي بمكة، فبلغه ما وقع للثاني عشر من الأنصار في العقبة الأولى، فتوجه إلى المدينة في أثناء السنة، فيجتمع بين ذلك وبين ما وقع في حديث البراء بأن أبا سلمة خرج لا يقصد الإقامة بالمدينة بل فراراً من المشركين، بخلاف مُضْعَب بن عُمَيْر فكان على نية الإقامة بالمدينة».

الثاني: جزم أبو عُمر بأن ليلي بنت أبي حنمة بن غانم أول ظعينة دخلت المدينة من المهاجرات، وقال موسى بن عُقْبَةَ: بل أم سلمة فالله أعلم.

الثالث: ذكر ابن إسحاق في مهاجرات بني [عُثْم بن] دُوْدَانَ بن أسد: بنات جحش وذكر فيهن أم حبيبة - بالهاء - وقال السهيلي: أم حبيب - بغير هاء - وقال أبو عُمر: هو قول الأكثر، قال الحافظ: كذا قال. قُلْتُ لأن قصتها في الاستحاضة رواها الزهري عن عُرْوَةَ عن عائشة رضي الله عنها. وقال عمرو بن الحارث، ومحمد بن إسحاق وابن أبي ذئب كلهم عن الزهري: أم حبيبة بالهاء وقال مَعْمَر عنه: أم حبيب بغير هاء، وقال يحيى بن أبي كثير عن أم سلمة عن أم حبيبة بالهاء. وقال ابن عيينة عن الزهري: أم حبيبة أو حبيب على الشك. فظهر من هذا أن أكثر الرواة قالوا: أم حبيبة بالهاء خلافاً لما قاله أبو عُمر. قال في العيون: «وأما ابن عساكر فعنده أم حبيبة واسمها حَمْنَةُ فهما أي بنات جحش ثنتان على هذا». انتهى. قُلْتُ: كان مستند الحافظ ابن عساكر في ذلك ما رواه أبو داود والترمذي عن عمران بن طلحة عن عبيد الله عن أمه حَمْنَةُ بنت جحش قالت: كُنْتُ أُسْتَحَاضُ فذكر الحديث. فلما رأى الحافظ ابن عساكر حديث الاستحاضة تارة يُرْوَى عن حَمْنَةَ بنت جحش وتارة يُرْوَى عن أم حبيبة ظن أن اسم أم حبيبة حَمْنَةُ، وليس كذلك فإن حَمْنَةَ غير أم حبيبة وكل منهما استحيض. وقد ذكر ابن إسحاق وابن سعد وغيرهما بنات جحش وسَمُوهُنَّ وذكروا أزواجهن، ولهذا مزيد بيان في كتابي: «عين الإصابة في معرفة الصحابة»، أعان الله على إكماله.

الرابع: ذكر ابن إسحاق من نساء بني جحش: جُدَامَةَ بنت جندل. قال السهيلي: «وأختبها جُدَامَةَ بنت وَهْب وأما جُدَامَةَ بنت جندل فلا تُعْرَف في آل جحش الأسديين ولا في غيرهم ولعله وهم وقع في الكتاب وأنها بنت وَهْب بن مَخْصَنَ بنت أخي عُكَّاشَةَ بن مَخْصَنَ».

قال في الزهر: وهذا غير لأن محمد بن جرير ذكر جُدَامَةَ في المهاجرات، قال: والمُحَدِّثُونَ قالوا فيها: جُدَامَةُ بنت وَهْب، والمختار أنها بنت جُنْدَلِ الأَسَدِيَّةِ أُخْتِ عُنْكَاشَةَ بنِ مِخْصَنِ المشهور، وتكون أخته من أمه.

وفي كتاب الصحابة لابن جِبَّان: جُدَامَةُ بنت جُنْدَلِ من بني غَنَمِ من المهاجرات، وجُدَامَةُ بنت وَهْبِ من بني هلال. وفي الطبقات لابن سعد: جُدَامَةُ بنت جندل الأَسَدِيَّةِ أسلمت قديماً وبايعت وهاجرت إلى المدينة. ويزيد ذلك وضوحاً ما ذكره أبو الحسن الخزرجي في كتاب تقريب المدارك في الكلام على مُوْطَأَ مالِك: أن جُدَامَةَ بنت وَهْبِ أسلمت عام الفتح، ودال جُدَامَةَ رُوي إعجامها وإهمالها وصحح.

الخامس: في بيان غريب ما سبق:

«اللُّحَاقُ»^(١): بفتح اللام مصدر لِحَقَهُ وَلِحِقَ بِهِ.

«أَرْسَالاً»^(٢): بفتح الهمزة أي: أفواجاً وفِرْقاً.

«التنعيم»: على لفظ المصدر محل بين مكة وسرف على مرحلتين من مكة.

«مَنَعَةٌ»: بفتح الحين أي في قوم يمنعونه ويحمونه جمع مانع ككاتب وكَتَبَةٌ وتقدم مبسوطاً

غير مرة.

«السَّبِيحَةُ»: بكسر الموحدة وتُسَكَّنُ: الأرض المالحة.

«بين لابتين»: تشية لابة بالموحدة وهي الحرة وتأتي.

«الخِرَّتَانِ»: تشية خرة وهي أرض ذات أحجار سود نخرة كأنها أُخْرِقَتْ بالنار.

«السَّرَاةُ»: بفتح السين المهملة: أعظم جبال بلاد العرب

«الظعينة»: بفتح الظاء المعجمة المُشَالَةُ: المرأة وأصله الهودج الذي تكون فيه المرأة.

«عَدَا»: بالعين المهملة: من العُدوان.

«فَأَبْطَأَ»: بهمزة مفتوحة في أوله وأخرى في آخره.

«أَصِيبُ مِنْكُمْ»: بالبناء للمفعول.

«أَوْعَبُوا»: قال ابن السكيت: أَوْعَبَ بنو فلان جلاء: لم يبق بدارهم منهم أحد.

«تَنَكَّبَ قَوْمَهُ»: ألقاها على منكبِهِ.

(١) انظر المعجم الوسيط ٨١٩/٢.

(٢) انظر اللسان ١٦٤٣/٣.

«انْتَضَى^(١) فِي يَدِهِ أَشْهُمًا»: أَي سَلَّهَا مِنْ كِنَانَتِهِ وَتَرَكَهَا مُعَدَّةً فِي يَدِهِ وَكَذَلِكَ انْتَضَى سَيْفَهُ وَنَضَاهُ سَلَّهُ.

«اخْتَصَرَ الْعَنْزَةَ»^(٢) الْعَنْزَةُ بِالتَّحْرِيكِ: أَطْوَلَ مِنَ الْعَصَا وَأَقْصَرَ مِنَ الرُّمْحِ وَفِيهِ زُجٌّ كَزُجِّ الرُّمْحِ، وَاخْتَصَرَهَا: حَمَلَهَا مَضْمُومَةً إِلَى خَاصِرَتِهِ.

«الْمَعَاطِسُ»^(٣) جَمْعُ مَعَطَسٍ بَزَنَةٌ مَجْلِسٌ وَهُوَ الْأَنْفُ.

«وَارْغَامَهَا»: إِلْصَاقُهَا بِالرَّغَامِ وَهُوَ التَّرَابُ كَثِيٌّ بِذَلِكَ عَنِ الْإِهَانَةِ وَالذُّلِّ.

«التَّنَاضِبُ»: بِمِثْنَاءِ فَوْقِيَّةٍ مَفْتُوحَةٍ فَنُونٌ فَالْفُضَادُ مَعْجَمَةٌ مَضْمُومَةٌ: هُوَ اسْمُ مَوْضِعٍ وَيُزَوَّى بِكَسْرِ الضَّادِ جَمْعُ تَنْضُبٍ وَهُوَ شَجَرٌ وَاحِدَتُهُ تَنْضِبَةٌ.

«الْأَضَاةُ»: بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَالضَّادِ الْمَعْجَمَةُ بِوزنِ حَصَاةٍ وَمِنَاةٍ الْغَدِيرُ يَجْتَمِعُ مِنْ مَاءِ الْمَطَرِ يُمَدُّ وَيُقْصَرُ.

«غِفَارٍ» بِكَسْرِ الْغَيْنِ الْمَعْجَمَةُ وَبِالْفَاءِ وَبِالرَّاءِ.

«سَرِفٍ» بِفَتْحِ السَّيْنِ وَبِالرَّاءِ الْمَهْمَلَتَيْنِ وَبِالْفَاءِ: مَوْضِعٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ.

«تَسَوَّرَ الْحَائِطُ»: تَسَلَّقَهُ.

«الْمَرْوَةَ»^(٤): الْحَجَرُ الصَّلْبُ.

«فَعَثَرَ» بِفَتْحِ الْمِثْلَةِ صَدَمَ رِجْلَهُ شَيْءً.

«ذُو طَوِيٍّ»^(٥) بِثَلَاثَةِ الطَّاءِ: بِمَكَّةَ قَالَ النَّوَوِيُّ: يُضْرَفُ وَلَا يَضْرَفُ.

(١) انظر المعجم الوسيط ٩٢٩/٢.

(٢) انظر اللسان ٣١٢٨/٤.

(٣) المعطس: بزنة المجلس والمعطس بفتح الطاء. الأنف لأن المعطس منه يخرج، قال الأزهري: المعطس بكسر الطاء لا غير وهذا يدل على أن اللفظة الجيدة معطس بالكسر. اللسان ٢٩٩٥/٤.

(٤) انظر اللسان ٤١٨٨/٦.

(٥) انظر اللسان ٢٧٣٠/٤.

الباب الثاني

في سبب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه الكريمة وكفاية

الله تعالى رسوله مكر المشركين حين أرادوا ما أرادوا

روى ابن إسحاق وعبد الرزاق والإمام أحمد وابن جرير وابن المنذر والطبراني عن ابن عباس، وعبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة، والبيهقي عن ابن إسحاق أن قريشاً لما رأت أن رسول الله ﷺ قد كانت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، وزأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، وعرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا جواراً ومنعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة - وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها - يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر النبي ﷺ حين خافوه. فاجتمعوا لذلك واتعدوا، وكان ذلك اليوم يُسمى يوم الزخمة فاعترضهم إبليس لعنه الله في هيئة شيخ جليل عليه بت له، فوقف على باب الدار، فلما رآوه واقفاً على بابها قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له فحضر معكم لسمع ما تقولون وعسى ألا تغدوا منه رأياً ولا نضحاً. قالوا: أجل فادخل، فدخل معهم، وقد اجتمع فيها أشرف قريش: من بني عبد شمس: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب - وأسلم بعد ذلك - [ومن بني نوفل بن عبد مناف]: طعيمة بن عدي، وجبير بن مطعم - وأسلم بعد ذلك - [والحرث بن عامر بن نوفل. ومن بني عبد الدار بن قصي]: النضر بن الحرث بن كلدانة [ومن بني أسد بن عبد العزى]: أبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود - وأسلم بعد ذلك - وحكيم بن حزام - وأسلم بعد ذلك، [ومن بني مخزوم]: أبو جهل بن هشام، [ومن بني سهم]: ثبته ومثبه ابنا الحجاج، ومن بني جُمح: أمية بن خلف، ومن كان معهم، وغيرهم ممن لا يُعد من قريش.

فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، وإنما والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا فأجمعوا فيه رأياً. قال: فتشاوروا ثم قال قائل منهم - نقل السهيلي عن ابن سلام أنه أبو البختري بن هشام - احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً، ثم تَرَبَّصُوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله: زهيراً والنابعة ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يُصيبه ما أصابهم. فقال الشيخ النجدي - لعنه الله -: لا والله ما هذا لكم برأي، والله لو حبستموه كما تقولون لَيَخْرُجَنَّ أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلا وشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي فانظروا في غيره.

فتشاوروا ثم قال قائل منهم - ذكر السهيلي أنه أبو الأسود ربيعة بن عمرو أحد^(١) بني

(١) نبي أ: آخر.

عامر بن لؤي - نُخْرِجُهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرْنَا فَتَنْفِيهِ مِنْ بِلَادِنَا، فَإِذَا خَرَجَ عَنَا فَوَاللَّهِ مَا تُبَالِي أَيْنَ ذَهَبَ وَلَا حَيْثُ وَقَعَ، إِذَا غَابَ عَنَا وَفَرَّغْنَا مِنْهُ فَأَصْلَحْنَا أَمْرَنَا وَأَلْفَتْنَا [كَمَا كَانَتْ] فَقَالَ الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ: لَا وَاللَّهِ، مَا هَذَا لَكُمْ بِرَأْيِي، أَلَمْ تَرَوْا حُسْنَ حَدِيثِهِ وَحِلَاوَةَ مَنْطِقِهِ وَغَلْبَةَ قُلُوبِ الرِّجَالِ بِمَا يَأْتِي بِهِ؟ وَاللَّهِ لَوْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ مَا أَمِئْتُمْ أَنْ يَحُلَّ عَلَى حَيٍّ مِنَ الْعَرَبِ فَيَغْلِبَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ وَحَدِيثِهِ حَتَّى يَتَابِعُوهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَسِيرُ بِهِمْ إِلَيْكُمْ حَتَّى يَطَّأَكُم بِهِمْ فِي بِلَادِكُمْ، فَيَأْخُذُ أَمْرَكُمْ مِنْ أَيْدِيكُمْ، ثُمَّ يَفْعَلُ بِكُمْ مَا أَرَادَ، ذَبُّوا فِيهِ رَأْيًا غَيْرَ هَذَا. فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ: وَاللَّهِ إِنْ لِي فِيهِ لِرَأْيًا مَا أَرَاكُمْ وَقَعْتُمْ عَلَيْهِ بَعْدَ.

قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جلدًا نسيباً وسيطاً، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه بأجمعهم فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إن فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم. فقال الشيخ النجدي أخزاه الله: القول ما قال الرجل، هذا الرأي لا أرى غيره.

وذكر ابن الكلبي أن إبليس لما حمد رأي أبي جهل لعنه الله قال:

الرَّأْيُ رَأْيَانٍ: رَأْيٌ لَيْسَ بِعَرَفِهِ هَادٍ وَرَأْيٌ كَنَصْلِ السَّيْفِ مَعْرُوفٌ
يَكُونُ أَوْلَاهُ عِزٌّ وَمَكْرَمَةٌ يَوْمًا وَأَخْرَهُ جِدٌّ وَتَشْرِيفٌ

وتفرق القوم على ذلك وهم مُجْمِعُونَ لَهُ. فَأَتَى جَبْرِيلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: لَا تَبْتَثْ هَذِهِ اللَّيْلَةَ عَلَى فِرَاشِكَ الَّذِي كُنْتَ تَبْتَثُ عَلَيْهِ، وَأَخْبِرْهُ بِمَكْرِ الْقَوْمِ وَإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ بِالْخُرُوجِ. فَلَمَّا كَانَتِ الْعَتَمَةُ مِنَ اللَّيْلِ اجْتَمَعُوا عَلَى بَابِهِ يَرْضُدُونَهُ مَتَى يَنَامُ فَيَشُونَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَكَانَهُمْ قَالَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: «نَمْ عَلَى فِرَاشِي وَتَسَخَّ بِبُرْدِي هَذَا الْخَضْرَمِيِّ الْأَخْضَرَ فَتَمَّ فِيهِ فَإِنَّهُ لَنْ يَخْلُصَ إِلَيْكَ شَيْءٌ تَكْرَهُهُ مِنْهُمْ»، وَكَانَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَنَامُ فِي بَرْدِهِ إِذَا نَامَ.

فلما اجتمعوا قال أبو جهل بن هشام: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن وإن أنتم لم تفعلوا كان فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم نار تحرقون فيها. فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب في يده ثم قال: «نعم أنا أقول ذلك وأنت أخذهم». وأخذ الله عز وجل على أبصارهم عنه فلا يزوته فجعل يذري ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات: ﴿يَس وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١-٩]. فلم يبق منهم رجل إلا وقد وضع رسول الله ﷺ على رأسه تراباً، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب.

فأتاهم آتٍ يُمنُّ لم يكن معهم فقال: «ما تنتظرون ههنا؟» قالوا: «محمدًا». قال: «خبيكم الله، قد والله خرج عليكم محمد ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً وانطلق لحاجته، أفما تَرَوْنَ ما بكم؟» قال: «فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب»، ثم جعلوا يتطلعون فيَرَوْنَ عَلِيًّا على الفراش مُتَسَجِّجاً ببرد رسول الله ﷺ، فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائماً عليه بُرْدُهُ. فلم يزالوا كذلك حتى أصبحوا. فقام عَلِيُّ رضي الله عنه من الفراش. فقالوا: «والله لقد صدقنا الذي كان حَدَّثَنَا». وذهب رسول الله ﷺ إلى غار ثور.

وروى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «سرى عَلِيُّ نفسه وليس ثوب النبي ﷺ ثم نام مكانه». وكان المشركون يرجون رسول الله ﷺ فجعلوا يرمون علياً ويَرَوْنَهُ النبي ﷺ، وجعل عَلِيُّ يتوضأ فإذا هو عَلِيُّ، فقالوا: إنك للئيم، إنك لتتضوّر^(١) وكان صاحبك لا يتضوّر وقد استكرناه منك.

وروى الحاكم عن علي بن الحسين رضي الله عنهما قال: إن أول من سرى نفسه ابتغاء رضوان الله عَلِيُّ، وقال في ذلك شِعْراً:

وَقَيْتُ بِنَفْسِي خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الْحَصَى وَمَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَبِالْحَجْرِ
رَسُولَ إِلَيْهِ خَافَ أَنْ يَمْكُرُوا بِهِ فَتَجَاهُ ذُو الطُّوْلِ الْإِلَهَ مِنَ الْمَكْرِ
وَبَاتَ رَسُولُ اللَّهِ فِي الْقَارِ آمِنًا مُوقِئٌ وَفِي حِفْظِ الْإِلَهِ وَفِي مَشْرِ
وَيْتٍ أَرَاعِيهِمْ وَمَا يَتَّهِمُونِي وَقَدْ وَطَّنْتُ نَفْسِي عَلَى الْقَتْلِ وَالْأَشْرِ

قال ابن إسحاق: وكان مما أنزل الله عز وجل من القرآن في ذلك اليوم وما كانوا أجمعوا له: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبَشِّرَكَ بِالْوَثَاقِ وَالْحَبْسِ وَالْإِثْخَانِ بِالْجَزْحِ (أَوْ يَقْتُلُوكَ) بَسِيفِهِمْ (أَوْ يُخْرِجُوكَ) - من مكة - (وَيَمْكُرُونَ) - يحتالون في أمرك - (وَيَمْكُرُ اللَّهُ) - يجازيهم جزاء مكرهم فسُمِّيَ الجزاء مَكْرًا لأنه في مقابلته، والمعنى أنهم احتالوا في إبطال أمر محمد ﷺ والله تعالى منعه منهم وأظهره وقواه ونصره فضاع فعلهم وظهر فعل الله عز وجل - ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] - لأن مكره حق، وإتيان هذا مما يحسن للمزاوجة ولا يجوز إطلاقه ابتداءً لما فيه من إيهام الذم، وهذه السورة مدنية، وهذه الواقعة كانت بمكة قبل أن يهاجروا إلى المدينة. وقد ذكر الله تعالى النبيه محمدًا ﷺ نِعْمَتَهُ عليه.

قال ابن إسحاق: وأنزل الله تعالى في ذلك ﴿فَدَكَّرْ﴾ - أي دُم على تذكير المشركين ولا ترجع عنهم لقولهم لك كاهن مجنون ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ﴾ - جزماً - ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ معطوف عليه - ﴿أَمْ﴾ - بل - ﴿يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتْرَبُّصُ بِهِ رَبِّبِ السَّمُونِ﴾ - أي حوادث

(١) قال ابن الأثير: أي تتلوى وتضع وتقلب ظهراً ليلن. انظر النهاية ١٠٥/٣.

الدُّفْرَ فِيهِلِكَ كَغَيْرِهِ مِنَ الشُّعْرَاءِ - ﴿قُلْ﴾ - لَهُمْ ﴿تَرْبُصُوا﴾ - هَلَاكِي - ﴿فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٢٩، ٣١] - لَهْلَاكُمْ، فَعُدُّوْا بِالسَّيْفِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَالتَّرْبِصُ الْإِنْتِظَارُ.

تنبيهات

الأول: روى ابن جرير وابن المنذر عن عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ، وابن جرير من طريق آخر عن المطلب بن أبي وداعة قال: لما ائتمروا بالنبي ﷺ لِيُثْبِتُوهُ أَوْ يَقْتُلُوهُ أَوْ يُخْرِجُوهُ قَالَ عَمَهُ أَبُو طَالِبٍ: هَلْ تَدْرِي مَا ائْتَمَرُوا بِكَ؟ قَالَ: يَرِيدُونَ أَنْ يَسْجِنُونِي أَوْ يَقْتُلُونِي أَوْ يُخْرِجُونِي. قَالَ: مَنْ حَدَّثَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: رَبِّي. قَالَ: نَعَمْ الرَّبُّ رَبُّكَ إِلَى آخِرِهِ. قَالَ فِي الْبِدَايَةِ: ذَكَرَ أَبِي طَالِبٍ فِيهِ غَرِيبٌ بَلْ مُنْكَرٌ لِأَنَّ الْقِصَّةَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ وَذَلِكَ بَعْدَ مَوْتِ أَبِي طَالِبٍ بِثَلَاثِ سِنِينَ.

الثاني: قال السهيلي: إنما قال لهم إبليس إنه من أهل نجد لأنهم قالوا: لا يَدْخُلَنَّ مَعَكُمْ فِي الْمَشَاوِرَةِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ لِأَنَّ هَوَاهِمَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلِذَلِكَ تَمَثَّلَ لَهُمْ فِي صُورَةِ شَيْخِ نَجْدِي وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي بَنِيَانِ قَرِيْشِ الْكَعْبَةِ أَنَّهُ تَمَثَّلَ فِي صُورَةِ شَيْخِ نَجْدِي حِينَ حَكَّمُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي أَمْرِ الرُّكْنِ مَنْ يَرْفَعُهُ، فَصَاحَ الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ: يَا مَعْشَرَ قَرِيْشٍ، أَقْدَرَضِيْتُمْ أَنْ يَلِيَهُ هَذَا الْغُلَامُ دُونَ أَشْرَافِكُمْ وَذَوِي أَسْنَانِكُمْ، فَإِنْ صَحَّ هَذَا الْخَبْرُ فَلَمَعْنِي آخِرُ تَمَثَّلَ نَجْدِيًّا وَذَلِكَ أَنْ نَجَدًا يَطْلُعُ مِنْهَا قَرْنُ الشَّيْطَانِ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ قِيلَ لَهُ: وَفِي نَجْدِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: هُنَالِكَ الزَّلَازِلُ وَالْفَيْتَنُ وَمِنْهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ.

الثالث: المانع لهم من التَّقَمُّحِ تِلْكَ اللَّيْلَةُ عَلَى عَلِيٍّ وَهُمْ يَظُنُّونَهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا قِيَامًا حَتَّى أَصْبَحُوا أَنْ بَعْضُ أَهْلِ السَّيْرِ ذَكَرُوا السَّبَبَ الْمَانِعَ مِنْ ذَلِكَ مَعَ قِصْرِ الْجِدَارِ وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا جَاؤُوا لِقَتْلِهِ، فَذَكَرَ فِي الْخَبَرِ أَنَّهُمْ هَمُّوا بِالْوَلُوجِ عَلَيْهِ فَصَاحَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الدَّارِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: وَاللَّهِ إِنَّهَا لِلشُّبَّةِ فِي الْقَرْبِ أَنْ يُتَّخَذَتْ عَنَّا أَنَا تَسْوَرْنَا الْحَيْطَانَ عَلَى بَنَاتِ الْعَمِّ وَهَتَكْنَا سِيْرَ حُرْمَتِنَا [فهذا هو الذي أقامهم بالباب حتى أصبحوا ينتظرون خروجه ثم طمست أبصارهم عنه حين خرج] وقال بعضهم: والحكمة في كون الموضوع على رأسهم تراباً دون غيره الإشارة لهم بأنهم الأرذلون الأصغرون الذين أُرْغِمُوا وَأَلْصِقُوا بِالرَّغَامِ وَهُوَ التَّرَابُ، وَأَنَّهُ سِيلَصَقَهُمْ بِالتَّرَابِ بَعْدَ هَذَا.

الرابع: روى ابن منذه وغيره عن مارية خادمة النبي ﷺ أَنَّهَا طَاطَأَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى صَعِدَ حَائِطًا لَيْلَةَ قَرْمٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَمَا سَبَقَ فِي الْقِصَّةِ مِنْ أَنَّهُ طَلَعَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْبَابِ أَقْوَى سَنَدًا مِنْهُ، وَحَدِيثُ مَارِيَةَ فِيهِ مَجَاهِيلٌ.

الخامس: في قراءته ﷺ الآيات من سورة يس من الفقه التذكرة بقراءة الخائفين لها اقتداءً به ﷺ، وورد في بعض الآثار: ما قرأها خائف إلا آمين.

السادس: في بيان غريب ما سبق:

(منفعة): سبق بيانها.

«شيخ جليل»: يقال جَلَّ الرجل وجَلَّت المرأة إذا أَسْنَا.
«عليه بَتَّ»: البَتَّ بفتح الموحدة وتشديد المثناة الفوقية: الكساء الغليظ المُرَبِّع وقيل
الطيلسان من خَزَّ.

«أَجَلَّ»: بفتح الهمزة والجيم وإسكان اللام مُخَفَّفَةٌ بمعنى نَعِمَ.
«أَجِمَعُوا فِيهِ رَأْيَا»: بفتح الهمزة وكسر الميم: يقال أَجَمَعَت الأَمْرَ وَعَلَى الأَمْرِ إِذَا عَزَمَتْ عَلَيْهِ.
«أَوْشَكُوا»^(١): بفتح الهمزة والشين المعجمة: أي أَسْرَعُوا.
«أَظْهَرْنَا»: بِبَيِّنَاتٍ.

«أَلْفَتْنَا» بضم الهمزة.
«أَنْ يَحُلَّ»: بفتح أوله وَضَمَّ الحاء المهملة أي يَنْزِلُ.
«جَلِيدًا»: بفتح الجيم وكسر اللام: أي قَوِيًّا.
«وَسِطًا»: بفتح الواو وكسر السين والطاء المهملتين: أي حَسِيْبًا فِي قَوْمِهِ.
«صَارِمًا»: قَاطِعًا.

«نَعِيدُ» بكسر الميم في المستقبل وفتحها في الماضي.
«العَقْلُ» كعَقْل الإنسان: الدِّيَّةُ.
«عَتَمَةُ اللَّيْلِ»: بفتح العين والمثناة الفوقية وقت صلاة العِشَاءِ، وقيل ثلث الليل الأول من
الليل بعد غيبوبة الشَّفَقِ، وَعَتَمَةُ اللَّيْلِ ظلامه.

«الْحَضْرَمِيُّ»: منسوب إلى حَضْرَمَوْتِ.
«تَابَعْتُمُوهُ»: بمثناة فوقية وموحدة من المُتَابَعَةِ.
«بُعِثْتُمْ» بالبناء للمفعول.
«الجِنَانُ» جمع جَنَّةٍ: البُشْتَانُ.
«الأَزْدُنَّ»: بهمزة مضمومة فراء ساكنة فدا ل مهمله فنون مُشَدَّدَةٌ: الكورة المعروفة من
أرض الشام بقرب بيت المقدس.

«حَفْنَةٌ»^(٢): بفتح الحاء المهملة وسكون الفاء هي ملء الكف والشيء المحصول حَفْنَةٌ
بالضم ويجوز الفتح، والمَرَّةُ بالفتح ليس غير.
«صَدَقْنَا»: بفتح الدال المُخَفَّفَةُ: أي حَدَّثْنَا حَدِيثَ صِدْقٍ.

(١) وشك بضم الشين يوشك وشكاً ووشاكاً ووشكناً أسرع وأوشك هو بمعنى وشك ويستعمل فعل مقاربة ويكون بمعنى:
يقرب ويدنو أيضاً. الوسيط ١٠٣٥/٢.

(٢) الحفن بفتح الحاء: أجزأوا الشيء براحة كفك والأصابع مضمومة وفي حديث الشفاعة: إنما نجد حفنة من حففات
الله. اللسان ٩٣٤/٢.

الباب الثالث

في قدر إقامة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة بعد البعثة ورؤياه الأرض التي يهاجر إليها

روى البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: مكث رسول الله ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة، والرواية عن ابن عباس في ذلك مختلفة، وسيأتي تحريرها في الوفاة النبوية إن شاء الله تعالى وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ فَذَهَبَ وَهَلِي إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ أَوْ هَجَرَ فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ يَثْرِبُ»، رواه الشيخان^(١) وعن صهيب رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَرَيْتُ دَارَ هَجْرَتِكُمْ سَبَخَتْ بَيْنَ ظَهْرَانِي حَرَّتَيْنِ فِيمَا أَنْ تَكُونَ هَجْرًا أَوْ يَثْرِبُ»، رواه الترمذي والحاكم والطبراني^(٢).

وروى الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن عبد الله بن عدي بن الحمراء^(٣) رضي الله عنه، والإمام أحمد والنسائي عن أبي هريرة، قال الحافظ: وذكره وهم وإنما هو عبد الله بن عدي، والحاكم وابن جميع عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ وَقَفَ عَلَى الْحَزْوَرَةِ فَقَالَ: «وَاللَّهِ إِنَّكَ لَحَيْرٌ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضٍ إِلَيَّ وَلَوْلَا أَنْ أَهْلَكَ أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا خَرَجْتَ مِنْكَ»^(٤).

تنبيهات

الأول: قال ابن التين: أرى النبي ﷺ أولاً دار هجرته بصفة تجمع المدينة وغيرها، ثم أرى الصفة المختصة بالمدينة فتعَيَّنَتْ.

الثاني: حديث أبي هريرة مرفوعاً: «اللهم إنك أخرجتني من أحب البقاع إلي فأشكيتني في أحب البقاع إليك»^(٥)، رواه الحاكم، وقال الذهبي: إنه موضوع، وقال ابن عبد البر: لا

(١) أخرجه البخاري ٢٤٧/٤ ومسلم في كتاب الرؤيا (٢٠) وابن ماجه (٣٩٢١).

(٢) أخرجه الحاكم ٤٠٠/٣ والطبراني في الكبير ٣٧/٨ والبيهقي في الدلائل ٥٢٢/٢.

(٣) عبد الله بن عدي بن الحمراء القرشي الزهري ويقال إنه عقي حالف بني زهرة. قال البخاري: له ضجة يكنى أبا عمر وأبا عمرو وكان ينزل قديماً وهو من مسلمة الفتح روى عن النبي ﷺ في مكة روى عنه أبو سلمة ومحمد بن جبير بن مطعم وقال البغوي: سكن المدينة. الإصابة ١٠٥/٤.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٩٢٥) وابن ماجه (٣١٠٨) والحاكم ٧/٣ وأحمد في المسند ٣٠٥/٤ والدارمي ٢٣٩/٢ وابن عبد البر في التمهيد ٢٨٨/٢.

(٥) ذكره المجلوني في كشف الخفا ٢١٣/١ وعزاه للحاكم في المستدرک وابن سعد في شرف المصطفى عن أبي هريرة مرفوعاً، قال: قال الحاكم: ومسنده مدنيون في بيت أبي سعيد المقبري انتهى، وفي سننه عبد الله بن أبي سعيد المقبري ضعيف جداً، قال ابن عبد البر: لا يختلف أهل العلم في نكارة ووضع، وقال ابن حزم: هو حديث لا يسند، وإنما هو مرسل من جهة محمد بن الحسن بن زبالة وهو هالك.

يختلف أهل العلم أنه مُنكر موضوع.

الثالث: في بيان غريب ما سبق:

«وَهَلِي»: بفتح أوله وثانيه: أي ظني، يقال: وَهَلَ يَهْلُ وَهَلًا بالسكون إذا ظنَّ شيئاً فتبين الأمر خلافه.

«الْيَمَامَةُ»: مدينة على يومين من الطائف وأربعة من مكة.

«هَجْرًا»: بفتح أوله وثانيه وهي هنا مدينة باليمن، وهي قاعدة البحرين وهي من مساكن عبد القيس، وقد سبقوا غيرهم من النُقْرى إلى الإسلام، يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ، قال الجوهري: مُذَكَّرُ مصروف.

«أَرْضُ سَبِيخَةٍ»: بفتح السين المهملة وكسر الموحدة وتُسَكَّنُ وتُفْتَحُ، أي مالحة.

«ظَهْرَانِي خَرْتَيْنِ»: أي بينهما والخَرْتَانِ: ثنية خرة وهي أرض ذات حجارة سود.

«الْحَزْوَرَّةُ»: بحاء مفتوحة فزاي ساكنة فواو فراء، سوق كانت بمكة أُذْخِلَتْ في

المسجد.

الباب الرابع

في هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه الكريمة وما وقع في ذلك من الآيات

قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [الإسراء ٨٠]. روى الإمام أحمد والترمذي والحاكم والضياء وصححه عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ بمكة فأمر بالهجرة من مكة وأنزل عليه ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء ٨٠] الهجرة إلى المدينة ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾: كتاب الله عز وجل، وفرائضه وحدوده. وروى الحاكم وصححه عن قتادة في الآية قال: ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ يعني المدينة ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ يعني مكة. وروى الزبير بن بكار عن زيد بن أسلم في الآية قال: جعل الله تعالى مُدْخَلَ صِدْقٍ المدينة ومُخْرَجَ صِدْقٍ مكة، وسلطاناً نصيراً الأنصار.

قال ابن سعد: «إن رسول الله ﷺ لما خرج من بيته أتى بيت أبي بكر بمكة فكان فيه إلى الليل، ثم خرج هو وأبو بكر فمضيا إلى غار ثور فدخلا». وروى موسى بن عقبة وابن إسحاق والإمام أحمد والبخاري وابن جبان عن عائشة رضي الله عنها، وابن إسحاق والطبراني عن أختها أسماء رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه استأذن رسول الله ﷺ في الخروج قتل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «على رِسْلِكَ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي». فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي وأمي أنت؟ قال: «نعم». فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ لِيَصْحَبَهُ وَعَلَفَ راحلتين كانتا عنده وَرَقَ الشُّمْرِ^(١)، وهو الخَبْطُ^(٢) أربعة أشهر.

[قال ابن شهاب: أخبرني عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها قالت: «لم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طَرْفِي النَّهَارِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً». قالت: «فبينما نحن يوماً جلوساً في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة^(٣) قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ مُتَقَنَّعاً فِي سَاعَةِ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا». فقال أبو بكر: «فدأء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر». قالت: «فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له فدخل، فتأخر له أبو بكر عن سريره فجلس رسول الله ﷺ». فقال أبو بكر: «يا رسول الله ما جاء بك إلا أمرٌ حدث». فقال رسول الله ﷺ

(١) الشُّمْرُ: هو ضرب من شجر الطلح الواحدة شجرة، انتظر النهاية لابن الأثير ٣٩٩/٢.

(٢) الخَبْطُ، ضرب الشجر بالمصا ليشائر ورقها، واسم الورق الساقط خَبْطٌ بالتحريك، فعل بمعنى مفعول، وهو من علف الإبل. انتظر النهاية لابن الأثير ٧/٢.

(٣) نحر الظهيرة: هو حين تبلغ الشمس منتهاها من الارتفاع، كأنها وصلت إلى النحر، وهو أعلى الصدر. انتظر النهاية لابن الأثير ٢٧/٥.

لأبي بكر: «أخرج من عندك». فقال أبو بكر: لا عينَ عليك إنما هما ابنتاي، وفي لفظ: أهلك. قال: «إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة». فقال أبو بكر: «الصخبة يا رسول الله». قال: «نعم». قالت عائشة: «فوالله ما أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ».

قال أبو بكر: «يا رسول الله خذ إحدى راحلتي هاتين». فقال رسول الله ﷺ: «بالثمن، لا أركب بعيراً ليس هو لي». قال: فهو لك. قال: «لا ولكن بالثمن الذي ابتعتها به». قال: «أخذتها بكذا وكذا». قال: «أخذتها بذلك». قال: هي لك. وعند البخاري في غزوة الرجيع أنها الجذعاء، وأفاد الواقدي أن الثمن ثمانمائة. واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدليل وهو من بني عبد بن عدي هادياً خريئاً. والخريئ الماهر بالهداية. قد غمس حلفاً في آل العاص بن وائل السهمي وهو على دين كفار قريش. وأسلم بعد ذلك. فأمناه فدفعنا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحتيهما صبح ثلاث.

قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز وصنعنا لهما شفرة في جراب. وأفاد الواقدي أنه كان في الشفرة شاة مطبوخة. قالت عائشة: فسقت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها. وفي لفظ قطعت نطاقها قطعتين فأوكت بقطعة منه الجراب وشدت فم القزبة بالباقي فسميت ذات النطاق وفي لفظ النطاقين. وعند البلاذري أن رسول الله ﷺ قال: «إن لها نطاقين في الجنة»^(١) فسميت ذات النطاقين.

قال ابن إسحاق: وأعلم رسول الله ﷺ علياً بخروجه وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته». قالت عائشة: «ولحق رسول الله ﷺ بغار في جبل ثور». وفي حديث عُمَر عند البيهقي أنهما خرجا ليلاً. وذكر ابن إسحاق والواقدي أنهما خرجا من خوخة في ظهر بيت أبي بكر. وروى أبو نعيم عن عائشة بنت قدامة أن النبي ﷺ قال: «لقد خرجت من الخوخة متنكراً فكان أول من لقيني أبو جهل فأعنى الله عز وجل بصره عني وعن أبي بكر حتى مضيتا». قالت أسماء: «وخرج أبو بكر بماله خمسة آلاف درهم». قال البلاذري: «وكان مال أبي بكر يوم أسلم أربعين ألف درهم، فخرج إلى المدينة للهجرة وماله خمسة آلاف أو أربعة، فبعث ابنته عبد الله فحملها إلى الغار». قالت: «فدخل علينا جدي أبو قحافة وقد ذهب بصره فقال: «والله إنني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه». قالت: «قلت: كلاً يا أبت إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً». قالت: «فأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة في البيت، كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده

(١) أخرجه البخاري ١٥٠/٦ (٢٩٧٩).

فقلت: يا أبت ضَعِ بَدَكَ عَلَى هَذَا الْمَالِ. قَالَتْ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ. فَقَالَ: لَا بَأْسَ إِنْ كَانَ تَرِكَ لَكُمْ هَذَا فَقَدْ أَحْسَنْتَ، وَفِي هَذَا بَلَاغٌ لَكُمْ. وَلَا وَاللَّهِ مَا تَرِكَ لَنَا شَيْئاً وَلَكِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُسْكِنَ الشَّيْخَ بِذَلِكَ».

وفي حديث عند البيهقي أن أبا بكر رضي الله عنه لما خرج هو ورسول الله ﷺ إلى الغار، جعل أبو بكر يمشي مَرَّةً أمام النبي ﷺ، ومَرَّةً خَلْفَهُ ومَرَّةً عَنْ يَمِينِهِ ومَرَّةً عَنْ شِمَالِهِ، فَسَأَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ أَذْكَرُ الرِّصْدَ فَأَكُونُ أَمَامَكَ وَأَذْكَرُ الطَّلَبَ فَأَكُونُ خَلْفَكَ، ومَرَّةً عَنْ يَمِينِكَ ومَرَّةً عَنْ يَسَارِكَ لِأَمْنٍ عَلَيْكَ، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَى فَمِ الْغَارِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا تَدْخُلُهُ حَتَّى أَدْخُلَهُ قَبْلَكَ، فَإِنْ كَانَ فِيهِ شَيْءٌ نَزَلَ بِي قَبْلَكَ». فَدَخَلَهُ فَجَعَلَ يَنْتَمِسُ بِيَدِهِ، فَجَعَلَ كُلَّمَا دَخَلَ جُحْرًا قَامَ إِلَى ثَوْبِهِ فَشَقَّهُ ثُمَّ أَلْقَمَهُ الْجُحْرَ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ بِثَوْبِهِ أَجْمَعٍ: فَبَقِيَ جُحْرٌ فَوَضَعَ عَقِبِيهِ عَلَيْهِ، ثُمَّ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَعَلَتْ الْحَيَّاتُ يَلْسَعْنَ أبا بكر رضي الله عنه وجعلت دموعه تنحدر.

وروى ابن أبي شيبة وابن المنذر عن أبي بكر أنهما لما انتهيا إلى الغار إذا جُحْرٌ فَأَلْقَمَهُ أَبُو بَكْرٍ رِجْلِيهِ. قَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كَانَ لَدَغَةٌ أَوْ لَسَعَةٌ كَانَتْ بِي». وَرَوَى ابْنُ مَرْزُوقٍ عَنْ جُنْدَبِ بْنِ سُفْيَانَ قَالَ: «لَمَّا انْطَلَقَ أَبُو بَكْرٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْغَارِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا تَدْخُلِ الْغَارَ حَتَّى أُسْتَبْرِئَهُ. فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ الْغَارَ فَأَصَابَ يَدَهُ شَيْءٌ فَجَعَلَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ إصْبَعِهِ وَيَقُولُ

هَلْ أَنْتِ أَلَا إِضْبَعٌ دَمِيئَةٍ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيْتِ

وفي حديث أنس عند أبي نعيم أن رسول الله ﷺ لما أصبح قال لأبي بكر «أَيْنَ ثَوْبُكَ؟» فَأَخْبَرَهُ بِالَّذِي صَنَعَ فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ أبا بكر معي في دَرَجَتِي فِي الْجَنَّةِ». فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: «قَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى لَكَ»^(١). وَرَوَى ابْنُ سَعْدٍ وَأَبُو نُعَيْمٍ وَابْنُ بِيهْقِي وَابْنُ عَسَاكِرٍ عَنْ أَبِي مُضْعَبِ الْمَكِّيِّ قَالَ: «أَدْرَكْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، وَزَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ، وَالْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ يَتَحَدَّثُونَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَيْلَةَ الْغَارِ أَمَرَ شَجْرَةً. وَفِي رِوَايَةٍ عِنْدَ قَاسِمِ بْنِ ثَابِتٍ: أَنْبَتَ اللَّهُ شَجْرَةَ الرَّاءِ، فَنَبَتَتْ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسْتَرَتْهُ، وَبَعَثَ اللَّهُ الْعَنْكَبُوتَ فَتَسَجَّتْ مَا بَيْنَهُمَا فَسْتَرَتْ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَمَرَ اللَّهُ حَمَامَتَيْنِ وَحَشِيَّتَيْنِ فَوَقَفَتَا فِي فَمِ الْغَارِ، وَأَقْبَلَ فَتَيَانَ قَرِيشٍ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ بِعَصِيَّتِهِمْ وَهَرَاوِيهِمْ وَسَيُوفِهِمْ، حَتَّى إِذَا كَانُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أَرْبَعِينَ ذِرَاعاً، جَعَلَ بَعْضُهُمْ يَنْظُرُ فِي الْغَارِ فَلَمْ يَرَ إِلَّا حَمَامَتَيْنِ وَحَشِيَّتَيْنِ بِفَمِ الْغَارِ، فَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالُوا لَهُ: مَا لَكَ؟ قَالَ: رَأَيْتُ حَمَامَتَيْنِ وَحَشِيَّتَيْنِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٣٣/١ وذكره السيوطي في الجامع الكبير (٩٣٣٨).

أحد، فسمع النبي ﷺ ما قال، فعرف أن الله قد درأ عنه بهما فبارك عليهما النبي ﷺ وفرض جزاءهن وانحدرتا في الحزم فأفرخ ذلك الزوج كل شيء في الحزم. وروى الإمام أحمد بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن المشركين قصوا أثر رسول الله ﷺ، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا الجبل فمروا بالغار فرأوا على باب نسيج العنكبوت، فمكث فيه ثلاثة أيام.

وروى الحافظ أبو بكر أحمد بن سعيد^(١) القاضي شيخ النسائي في مسند الصديق عن الحسن البصري قال: «جاءت قريش يطلبون النبي ﷺ، وكانوا إذا رأوا على باب الغار نسيج العنكبوت قالوا: لم يدخله أحد. وكان النبي ﷺ قائماً يصلي وأبو بكر يرتقب. فقال أبو بكر: يا رسول الله هؤلاء قومك يطلبونك، أما والله ما على نفسي أبكي ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره. فقال له النبي ﷺ: «لا تخف إن الله معنا» وروى الإمام أحمد والشيخان عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: «قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لأبصرنا تحت قدميه» فقال: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»^(٢). وروى أبو نعيم في الجلية عن عطاء بن ميسرة قال: «نسجت العنكبوت مرتين مرة على داود حين كان طالوت يطلبه ومرة على النبي ﷺ في الغار».

وذكر البلاذري في تاريخه وأبو سعيد في الشرف أن المشركين استأجروا رجلاً يقال له علقمة بن كرز بن هلال الخزاعي - وأسلم عام الفتح - فقفا لهم الأثر حتى انتهى إلى غار ثور^(٣) وهو بأسفل مكة فقال: ههنا انقطع أثره ولا أدري أخذ يمينا أم شمالاً أم صعد الجبل. فلما انتهوا إلى فم الغار قال أمية بن خلف: ما أرتبكم في الغار؟ إن عليه لعنكبوتاً كان قبل ميلاد محمد. ثم جاء فبال.

وروى البيهقي عن عروة أن المشركين لما فقدوا رسول الله ﷺ ركبوا في كل وجه يطلبونه وبعثوا إلى أهل المياه يأمرونهم به ويجعلون لهم الجغل العظيم وأتوا على ثور الجبل الذي فيه الغار الذي فيه النبي ﷺ حتى طلوعوا فوقه، وسمع رسول الله ﷺ وأبو بكر أصواتهم، فأشفق أبو بكر وبكى وأقبل عليه الهَم والحزن والخوف، فعند ذلك يقول رسول الله ﷺ «لَا تَحْزَنُ إِنْ اللَّهُ مَعَنَا» [التوبة - ٤٠] ودعا رسول الله ﷺ فنزلت السكينة من الله

(١) أحمد بن سعد بن الحكم بن محمد بن سالم الجمحي أبو جعفر بن أبي مريم المصري الحافظ عن أبيه وأبي اليمان وحبيب كاتب مالك وسأل ابن معين عن الرجال. وعنه وقال: لا بأس به. قال ابن يونس: توفي يوم عرفة سنة ثلاث وخمسين ومائتين. الخلاصة ١٤/١.

(٢) أخرجه البخاري ٤/٥ ومسلم في فضائل الصحابة (١) وأحمد في المسند ٤/١.

(٣) انظر. مرصد الاطلاع ٣٠٢/١.

تعالى. وروى ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾، قال: على أبي بكر لأن النبي ﷺ لم تنزل السكينة معه^(١) [التوبة - ٤٠].

وروى أبو نعيم عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أن أبا بكر رأى رجلاً مواجهاً الغار فقال: «يا رسول الله إنه يرانا». وقال: كلا إن الملائكة تستره الآن بأجنحتها. فلم ينشب أن فقد يبول مستقبلاً، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر لو كان يراك ما فعل هذا».

ويرحم الله الشرف البوصيري حيث قال:

وَبِحَاقِ قَوْمٍ جَفَوْا نَبِيًّا بِأَرْضِ
وَقَلْبُهُ ضَبَابُهَا وَالظُّبَاءُ
وَمَسَلُوهُ وَحَنُّ جَذَعٍ إِلَيْهِ
وَقَلْبُهُ وَرَدُّهُ الْغُرَبَاءُ
أَخْرَجُوهُ مِنْهَا وَأَوَاهُ غَارٌ
وَحَمْسُهُ حَمَامَةٌ وَرَقَاءُ
وَكَفَّتُهُ بِنَسِجِهَا عَنكَبُوتٌ
مَا كَفَّتُهُ الْحَمَامَةُ الْحَصْدَاءُ

وحيث قال:

أَقْسَمْتُ بِالْقَمَرِ الْمُتَشَقُّ أَنْ لَهُ
مِنْ قَلْبِهِ نِسْبَةٌ مَبْرُورَةٌ الْقَسَمِ
وَمَا حَوَى الْغَارُ مِنْ خَيْرٍ وَمِنْ كَرِيمٍ
وَكُلُّ طَرْفٍ مِنَ الْكُفَّارِ عَنْهُ عَمٍ
فَالصُّدُقُ فِي الْغَارِ وَالصُّدُيقُ لَمْ يَرِدَا
وَهُمْ يَقُولُونَ مَا بِالْغَارِ مِنْ أَرِمٍ
ظَنُّوا الْحَمَامَ وَظَنُّوا الْعَنكَبُوتَ عَلَى
خَيْرِ الْبَرِّيَّةِ لَمْ تَنْسِجْ وَلَمْ تَحْمِ
وَقَايَةُ اللَّهِ أَغْنَتْ عَنْ مُضَاعَفَةِ
مِنَ الدُّرُوعِ وَعَنْ عَالٍ مِنَ الْأَطْمِ

لطيفة: سئل بعضهم عن الحكمة في اختفائه ﷺ في غار ثور دون غيره فأجيب بأنه كان يحب الغال الحسن، وقد قيل إن الأرض مستقرة على قرن الثور فناسب استقراره ﷺ في غار ثور تفاقولاً بالطمأنينة والاستقرار فيما يقصده هو ورفيقه.

وروى ابن عدي وابن عساكر عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لحسان: «هل قلت في أبي بكر شيئاً؟ قال: نعم. قال: «قل وأنا أسمع»، فقال:

وَالثَّانِي اثْنَيْنِ فِي الْغَارِ الْمُئِنِّفِ وَقَدْ
طَافَ الْعَدُوُّ بِهِ إِذْ صَعَدَ الْجَبَلَ
وَكَانَ حَبُّ رَسُولِ اللَّهِ قَدْ عَلِمُوا
مِنَ الْبَرِّيَّةِ لَمْ يَغْدِلْ بِهِ رَجُلًا

فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قال: «صدقت يا حسان هو كما

قلت^(٢).

(١) ذكره المتقي الهندي في الكنز (٤٦٢٨١).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک ٧٧/٣ وابن سعد في الطبقات ١٢٣/١/٣ والطبراني ١٥٦/٨.

قالت عائشة رضي الله عنها: «فكَمْنَا في الغار ثلاث ليال وكان عبد الله بن أبي بكر يبيت عندهما، وهو غلام ثَقِفٌ^(١) لَقِن، فيُذَلِّج من عندهما بِسَخَر فيصبح مع قريش [بمكة كبائت]، فلا يَسْمَعُ بِأَمْرِ يُكَادَان به إلا وعاه حتى يأتِيهما بِخَبْر ذلك حين يختلط الظلام. وعند ابن إسحاق أن أسماء بنت أبي بكر كانت تأتيهما إذا أمست بما يُضِلُّهُمَا من الطعام. وكان عامر بن فهيرة يَزْعَى غَنَمًا لأبي بكر في رُغَيَّان أهل مكة فإذا أَمْسَى يُرِيحُهُمَا عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فَيَبِيَّتَان في رِشَل وهو لَبَنٌ مِنْحَتُهُمَا وَرَضِيْفُهُمَا^(٢) [حتى يَثْقُق بها عامر بن فهيرة بِغَلَس]، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث.

فلما مضت الثلاث وسَكَنَ عنهما الناس أتاها صاحبهما الذي استأجراه فَرَكِبَا وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل الدليلي. وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة مولاه ليخدمهما في الطريق - وعند البخاري في غزوة الرُّجِيع كان عامر بن فهيرة غلاماً لعبد الله بن الطُّفَيْل بن سَخْبَرَةَ أخو عائشة لأُمها. وأخذ بهما الدليل طريق الساحل أسفل من عُسْفَانَ^(٣) ثم أجاز بهما حتى عادا من الطريق على أَمَج.

وروى أبو نُعَيْمٍ من طريق إبراهيم بن سعد عن محمد بن إسحاق قال: «بلغني أن رسول الله ﷺ لما خَرَجَ مُهَاجِرًا قال: «الحمد لله الذي خلقني ولم أَكْ شَيْئًا، اللهم أعِنِّي على هَوْلِ الدنيا وبوائق الدهر ومصائب الليالي والأيام، اللهم اضحِبْني في سَفَرِي واخْلُفْني في أهلي وبارِكْ لي فيما رَزَقْتَنِي، ولك فَذَلَّلْني، وعلى صالح خَلْقِي فَقَوِّمْنِي، وإِلَى رَبِّي فَحَبِّبْنِي، وإِلَى الناس فلا تَكِلْنِي، أنت رَبُّ المُسْتَضْعَفِينَ وأنت رَبِّي، أَعُوذُ بِوَجْهِكَ الكَرِيمِ الذي أَشْرَقَتْ له السموات والأرض فكشفت به الظُّلُمَاتِ وَصَلَحَ عليه أَمْرُ الأولين والآخرين، أن يَجِلُّ بي غَضَبُكَ أو يَنْزِلَ عَلَيَّ سُخْطُكَ، أَعُوذُ بِكَ من زوال نِعْمَتِكَ وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ وَتَحَوُّلِ عَاقِبَتِكَ وَجَمِيعِ سُخْطِكَ، لَكَ العُتْبَى خَيْر ما استطعت، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بِكَ»^(٤).

وروى الإمام أحمد والشيخان ويعقوب بن سفيان عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن أباه قال لأبي بكر رضي الله عنه: كيف صَنَعْتُمَا ليلة سَرَيْتَ مع رسول الله ﷺ؟ قال: خرجنا

(١) ثقف: أي ذو فطنة وذكاء. ورجل ثقف، وثقف، وثقف والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه. انظر النهاية ٢١٦/١.

(٢) الرضيف: اللبن المرصوف، وهو الذي طرح فيه الحجارة المحمأة ليذهب وحمه. انظر النهاية ٢٣١/٢.

(٣) عسفان بضم أوله، وسكون ثانيه، ثم فاء، وآخره نون. قيل: منهلة من مناهل الطريق. بين الجحفة ومكة. وقيل: عسفان بين المسجدين، وهي من مكة على مرحلتين. وقيل: هو قرية جامعة على ستة وثلاثين ميلاً من مكة، وهي حدٌ تهامة. وبين عسفان إلى ملل موضع يقال له الساحل. مرصد الاطلاع ٩٤٠/٢.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٩٢٣٤) وذكره المتقي الهندي في الكتر (١٧٦١٥) وابن كثير في البداية والنهاية ١٧٨/٣.

فَأَذَلَجْنَا فَأَخْيَيْنَا يَوْمَنَا وَلَيْلَتَنَا حَتَّى أَظْهَرْنَا وَقَامَ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ فَضْرِبَتْ بَيْصَرِي هَلْ أَرَى ظِلًّا نَأْوِي إِلَيْهِ فَإِذَا أَنَا بِصَخْرَةٍ فَأَهْوَيْتُ إِلَيْهَا فَإِذَا بَقِيَّةُ ظِلِّهَا فَسَوَّيْتُهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفَرَشْتُ لَهُ فَرْوَةً ثُمَّ قُلْتُ: اضْطَجِعْ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَنَا أَنْفُضُ لَكَ مَا حَوْلَكَ، ثُمَّ خَرَجْتُ هَلْ أَرَى أَحَدًا مِنَ الطَّلَبِ فَإِذَا بِرَاعٍ مُقْبِلٍ بَغْنَمِهِ يَرِيدُ مِنَ الصَّخْرَةِ مَا أَرَدْنَا: فَلَقِيْتُهُ فَقُلْتُ لَهُ: لِمَنْ أَنْتَ يَا غَلَامُ؟ فَقَالَ: لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَسَمَّاهُ فَعَرَفْتَهُ فَقُلْتُ: هَلْ فِي غَنَمِكَ مِنْ لَبَنٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: هَلْ أَنْتَ خَالِبٌ لِي؟ قَالَ: نَعَمْ. فَأَمَرْتَهُ فَاعْتَقَلَ شَاةً مِنْهَا. فَقُلْتُ: انْفُضِ الضَّرْعَ مِنَ التَّرَابِ وَالْقَدَى، فَحَلَبْ لِي فِي قَعْبٍ مَعَهُ كُثْبَةٌ مِنْ لَبَنٍ وَمَعَهُ إِدَاوَةٌ أُرْتَوَى فِيهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ يَشْرَبُ مِنْهَا وَيَتَوَضَّأُ، عَلَى فَمِهَا خِرْزَقَةٌ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، وَكَرِهْتُ أَنْ أَوْقِظَهُ مِنْ نَوْمِهِ، فَوَقَفْتُ حَتَّى اسْتَيْقَظَ، فَصَبَّيْتُ عَلَى اللَّبَنِ مِنَ الْمَاءِ حَتَّى بَرَدَ أَسْفَلُهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اشْرَبْ مِنْ هَذَا اللَّبَنِ. فَشَرِبَ حَتَّى رَضِيَتْ. ثُمَّ قَالَ: «أَلَمْ يَأْنِ الرَّحِيلُ؟» قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: فَارْتَحَلْنَا بَعْدَ مَا زَالَتِ الشَّمْسُ (١).

قِصَّةُ أُمِّ مَعْبُدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

رَوَى الطَّبْرَانِيُّ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَأَبُو نُعَيْمٍ وَأَبُو بَكْرِ الشَّافِعِيُّ عَنْ حُبَيْشِ بْنِ خَالِدِ الْأَشْعَرِ الْخُزَاعِيِّ الْقُدَيْدِيِّ (٢)، أُخِي أُمُّ مَعْبُدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَأَبُو بَكْرِ الشَّافِعِيُّ عَنْ أَبِي سَلِيْطٍ - بَفَتْحِ السِّينِ الْمَهْمَلَةِ وَكَسْرِ اللَّامِ فَمُثْنَاةٌ تَحْتِيَّةٌ فَطَاءَ مَهْمَلَةٌ - وَاسْمُهُ أُسَيْرَةٌ - بِضَمِّ أَوَّلِهِ وَفَتْحِ ثَانِيهِ وَسُكُونِ الْمُثْنَاةِ التَّحْتِيَّةِ - ابْنِ عَمْرٍو الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَابْنِ سَعْدٍ وَابْنِ أَبِي مَعْبُدٍ، وَابْنِ السُّكَنِ عَنْ أُمِّ مَعْبُدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَابْنِ بَرَّازٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ مَهَاجِرًا إِلَى الْمَدِينَةِ هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ، وَمَوْلَى أَبِي بَكْرٍ عَامِرُ بْنُ قَهْزِرَةَ وَدَلِيلُهُمُ اللَّيْثِيُّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْأَرَيْقَطِ، مَرُّوا عَلَى خَيْمَةِ أُمِّ مَعْبُدٍ الْخُزَاعِيَّةِ، وَهِيَ لَا تَعْرِفُهُ، وَكَانَتْ بَرَزَةً جِلْدَةً تَحْتَبِي بِفَنَاءِ الْقُبَّةِ ثُمَّ تَشَقَّى وَتُطْعِمُ فَسَأَلُوهَا لَحْمًا وَتَمْرًا لِيَشْتَرُوهُ مِنْهَا، فَلَمْ يُصِيبُوا عِنْدَهَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَإِذَا الْقَوْمُ مُزْمِلُونَ مُسْتَيْثُونَ. فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَوْ كَانَ عِنْدَنَا شَيْءٌ مَا أَعُوذْنَاكُمْ. فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى شَاةٍ فِي كِسْرِ الْخَيْمَةِ - وَفِي لَفْظٍ فِي كِفَاءِ الْبَيْتِ - فَقَالَ: «مَا هَذِهِ الشَّاةُ يَا أُمَّ مَعْبُدٍ؟» قَالَتْ: شَاةٌ خَلَقَهَا الْجَهْدُ عَنِ الْعَنَمِ. قَالَ: «هَلْ بِهَا مِنْ لَبَنٍ؟» قَالَتْ: هِيَ أَجْهَدُ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «وَأَتَأْذِنُ لِي أَنْ أَخْلُبَهَا؟» قَالَتْ: يَا أَبَتِي أَنْتَ وَأُمِّي نَعَمْ إِنْ رَأَيْتَ بِهَا حَلْبًا فَاخْلُبْهَا فَوَاللَّهِ مَا ضَرَبَهَا فَحَلَّ قَطْ

(١) أخرجه البخاري ٢٤٥/٤ ومسلم في كتاب الزهد (٧٥).

(٢) حبش بن خالد بن منقذ بن ربيعة بن أصرم بن حبش بن حزام بن حبشية بن كعب بن عمرو: وقيل: حبش بن خالد بن حليف بن منقذ بن ربيعة. وقيل: حبش بن خالد بن ربيعة لا يذكرون منقذاً، الخزاعي الكعبي، أبو صخر، وأبوه خالد يقال له: الأشعر. وقال ابن الكلبي: حبش هو الأشعر، وزاد في نسبه، فقال: حبش بن خالد بن حليف بن منقذ بن أصرم، ووافق ابن ماكولا إلا أنه جعل الأشعر خالداً. وقال إبراهيم بن سعد، عن ابن إسحاق: خنيس، بالخاء المعجمة والنون، والأول أصح، يكنى أبا صخر، وهو أخو أم معبد، وصاحب حديثها. أسد الغابة ٤٥١/١.

فشأنك بها. فدعا بها رسول الله ﷺ فَمَسَحَ بيده ضَرْعَهَا وَظَهَرَهَا وَسَمَّى اللهُ عز وجل ودعا لها في شاتها فتفاجئت عليه ودرت واجترت، ودعا بإناء يُرْبِضُ الرَّهْطَ^(١) فحلب فيه نجاً حتى علاه البهاء. وفي لفظ الثمال. ثم سقاها حتى رويت ثم سقى أصحابه حتى رَوَوْا، ثم شرب ﷺ آخرهم، وقال: «ساقى القوم آخرهم شرباً»^(٢). ثم حلب فيه ثانية بعد بدء حتى ملأ الإناء ثم غادره عندها. فبايعها وارتحلوا عنها.

وروى ابن سعد وأبو نعيم عن أم معبد قالت: «بقيت الشاة التي لمس رسول الله ﷺ ضرعها عندنا حتى كان زمان الرمادة وهي سنة ثمانى عشرة من الهجرة زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وكنا نحلبها صَبُوحاً وَعَبُوقاً، وما في الأرض قليل ولا كثيره. وقال هشام بن حُبَيْش: «أنا رأيتُ الشاة وإنما لتأدم أم معبد وجميع صرمتيها»، أي أهل ذلك الماء. فقل ما لبثت أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أغنراً جبالاً^(٣) عجاجاً يتساوكن هزالاً مخهن قليل.

فلما رأى اللبن عجب فقال: من أين لك هذا اللبن يا أم معبد والشاة عازب ولا حلوب في البيت؟ قالت: «لا والله إلا أنه مر بنا رجل مُبَارَكٌ من حاله كذا وكذا». قال: «صيفيه لي يا أم معبد». قالت: «رأيتُ رجلاً ظاهراً الوضأة أبلج الوجه حسن الخلق، لم تعبته ثجلة ولم تُزِر به صغلة، وبسبب قسيم، في عينيه دَعَجٌ وفي أشفاره وَطْفٌ وفي صوته صَحْلٌ. أو قالت سهل. وفي عنقه سَطْعٌ، وفي لحيته كثانة، أزج أقرن، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما وعلاؤه البهاء، أجمل الناس وأبهاء من بعيد وأحسنه وأحلاه من قريب، مخلو المنطق فضل لا نزر ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظم يتحدزن، ربة لا تشنؤه من طول، ولا تقنحه عين من قصر، عُضْنٌ بين عُضْنَيْنِ، فهو أنضر الثلاثة منظرًا وأحسنهم قدرًا، له رُفقاء يحفون به، إذا قال استمعوا لقوله وإذا أمر تبادروا إلى أمره، مخفود^(٤) محشود لا عابس ولا مُفئد». فقال أبو معبد: «هذا والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره بمكة ما ذكر ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً».

قالت أسماء رضي الله عنها: «لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر أتانا نقر من قريش

(١) يربض الرهط: أي يرويههم وينقلهم حتى يناموا ويمتدوا على الأرض. من يربض في المكان يربض إذا لصق به وأقام ملازمًا له. انظر النهاية ١٨٤/٢.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٧٢٥) والترمذي (١٨٩٤) وابن ماجه (٣٤٣٤) وأحمد في المسند ٣٥٤/٤ والدارمي ١٢٢/٢ والبيهقي في السنن ٢٨/٧.

(٣) قال ابن الأثير: أي غير حوامل، حالت تحول حمالاً وهي شاه حمال، وإبل حمال. والواحدة حائل، وجمعها حول أيضاً بالضم. انظر النهاية ٤٦٣/١.

(٤) المخفود: الذي يخدمه أصحابه ويعظمونه ويسرعون في طاعته. انظر النهاية ٤٠٦/١.

فيهم أبو جهل بن هشام فخرجت إليهم فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ فقلت «والله لا أدري أين أبي». فرفع أبو جهل يده، وكان فاحشاً خبيثاً، فلطم خدي لطمَةً خرج منها قرطي، ثم انصرفوا، فمكثنا ثلاثة أيام ما ندري أين توجه رسول الله ﷺ حتى أتى رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب وتبعه الناس يسمعون صوته وما يروونه حتى خرج من أعلا مكة وهو يقول:

جَزَى اللّهُ رَبَّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ رَفِيقَيْنِ قَالَا خَيْمَتِي أُمُّ مَعْبِدِ
هُمَا نَزَلَا بِالْبِرِّ وَازْتَحَلَا بِهِ فَأَفْلَحَ مَنْ أَمَسَى رَفِيقَ مُحَمَّدِ
فَيَالْقُصِي مَا زَوَى اللّهُ عَنْكُمْ بِهِ مِنْ فَعَالٍ لَا تُجَارَى وَشُودِدِ
لِيَهْنِ بَنِي كَعْبٍ مَقَامَ فَتَاتِيهِمْ وَمَقَعَدَهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرَصِدِ
سَلُوا أختَكُم عَنْ شَاتِيهَا وَإِنَائِيهَا فَإِنَّكُمْ إِنْ تَسَأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَدِ
دَعَاهَا بِشَاةِ حَائِلٍ فَتَحَلَبَتْ لَهُ بِصَرِيحِ ضَرَّةِ الشَّاةِ مُزِيدِ
فَغَادَرَهَا رَهْنًا لَدَيْهَا لِحَالِبِ يُرَدُّهَا فِي مَضَدٍ ثُمَّ مَوْرِدِ^(١)

فلما سمع ذلك حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه قال يجاوب الهاتف:

لَقَدْ خَابَ قَوْمٌ غَابَ عَنْهُمْ نَبِيُّهُمْ وَقُدْسٌ مَنْ يَشْرِي إِلَيْهِ وَيَغْتَدِي
تَرْحَلُ عَنْ قَوْمٍ فَضَلَّتْ عُقُولُهُمْ وَحَلَّ عَلَى قَوْمٍ بِثُورٍ مُجَدِّدِ
هَدَاهُمْ بِهِ بَعْدَ الضَّلَالَةِ رَبُّهُمْ وَأَرْشَدَهُمْ مَنْ يَتَّبِعِ الْحَقَّ يُرْشِدِ
وَهَلْ يَسْتَوِي ضَلَالٌ قَوْمٌ تَسْفَهُوا عَمَى وَهُدَاةٌ يَهْتَدُونَ بِمُهْتَدِ
لَقَدْ نَزَلَتْ مِنْهُ عَلَى أَهْلِ يَثْرِبِ رِكَابٌ هُدَى حَلَّتْ عَلَيْهِمْ بِأَسْعَدِ
نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ وَيَتْلُو كِتَابَ اللّهِ فِي كُلِّ مَسْجِدِ
وَإِنْ قَالَ فِي يَوْمٍ مَقَالَةً غَائِبِ فَتَضِدُّ بِهَا فِي الْيَوْمِ أَوْ فِي ضُحَى الْغَدِ
لِيَهْنِ أَبَا بَكْرٍ سَعَادَةً جَدُّهُ بِصُخْبَتِهِ مَنْ يُشْعِدِ اللّهُ يُشْعِدِ^(٢)

وروى البيهقي بسنيد حسنه والحافظ ابن كثير عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال:

«خرجت مع رسول الله ﷺ من مكة، فانتبهنا إلى حَيٍّ من أحياء العرب فنظر رسول الله ﷺ إلى بيتٍ مُتَّجِياً فقصد إليه، فلما نزلنا لم يكن فيه إلا امرأة فقالت: يا عَبْدِي اللهُ إنما أنا امرأة وليس معي أحد فعليكما بعظيم الحَيِّ إن أردتم القِرَى. قال: فلم تُجِبْها، وذلك عند المساء، فجاء ابنٌ لها بأعْزُرٍ له يسوقها. فقالت له: يا بني انطلق بهذه العنزة والشفرة إلى هذين الرجلين

(١) الأبيات في الروض الأنف ٢٣٤/٢ وديوان حسان ص ٥٩.

(٢) القصيدة في الروض الأنف ٢٣٥/٢ وانظر ديوان حسان ص ٥٩، ٦٠.

فقل لهما: تقول لكم أمي: اذبحا هذه وأطعمانا. فلما جاء قال له النبي ﷺ: «انطلق بالشفرة وجثني بالقدح». قال: إنها عازب وليس لها لبن. قال: «انطلق». فانطلق فجاء بقدح فمسح النبي ﷺ ضرعها ثم حلب مِلء القدح ثم قال: انطلق به إلى أمك. فشربت ثم رويت ثم جاء به. فقال: انطلق بهذه وجثني بأخرى ففعل بها كذلك. ثم سقى أبا بكر، ثم جاء بأخرى ففعل بها كذلك ثم شرب النبي ﷺ.

«فلبنا ليلتين ثم انطلقنا، وكانت تسميه المبارك، وكثرت غنمها حتى جلبت حلباً إلى المدينة فمر أبو بكر رضي الله عنه فرآه ابنها فعرفه، فقال: يا أمه إن هذا الرجل الذي كان مع المبارك، فقامت إليه فقالت: يا عبد الله من الرجل الذي كان معك؟ قال: وما تدرين؟ قالت: لا. قال: هو نبي الله ﷺ. قالت: فأذخني عليه. قال: فأدخلها فأطعمها وأعطاها. وفي رواية: فأهدت إليه شيئاً من أقط ومتاع الأعراب، فكساها وأعطاها، قال: ولا أعلمه إلا قال: «أسلمت»^(١).

قال البيهقي في الدلائل: «وهذه القصة وإن كانت تنقص عما روينا في قصة أم معبد وتزيد في بعضها، فهي قريبة منها ويشبه أن تكونا واحدة، وقد ذكر ابن إسحاق في قصة أم معبد شيئاً يدل على أنها وهذه القصة واحدة. ثم روى البيهقي من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال: «نزل رسول الله ﷺ بخيمة أم معبد وهي التي تمرّد بها الجن بأعلا مكة. واسم أم معبد عاتكة بنت خالد بن خليف بن منقذ بن ربيعة بن أصرم [الخزاعية]، فأراد القرى فقالت: والله ما عندنا طعام ولا لنا منحة ولا لنا شاة إلا حائل، فدعا رسول الله ﷺ ببعض غنمها فمسح ضرعها بيده فدعا الله تعالى فحلب في العس حتى رعى، وقال: «اشربي يا أم معبد». قالت: اشرب أنت به أحق. فردّه عليها فشربت. ثم دعا بحائل أخرى ففعل بها مثل ذلك، فسقى دليله ثم دعا بحائل ففعل بها مثل ذلك فسقى عامر بن فهيرة، ثم استراح.

وطلبت قريش رسول الله ﷺ حتى بلغوا أم معبد فسألوها عنه فقالوا: «أزأيت محمداً من جليته كذا وكذا؟ فوصفوه لها، فقالت: «ما أدري ما تقولون فقد ضافني حالب الحائل؟» قالت قريش: «فذلك الذي أردنا». قاله البيهقي: فيحتمل أولاً أنه رأى التي في كشر الخيمة، كما روينا في حديث أم معبد، ثم رجع ابنها بأعثر كما روينا ثم لما أتى زوجها وصفته له، والله أعلم.

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل ٢٢٢/٢ وذكره المتقي الهندي في الكنز (٤٦٢٨٧) وابن كثير في البداية والنهاية ١٩١/٣.

قصة سراقه رضي الله عنه

روى الإمام أحمد ويعقوب بن سفيان والشيخان عن سراقه بن مالك رضي الله عنه، والإمام أحمد والشيخان ويعقوب عن أبي بكر رضي الله عنه قال سراقه بن جعشم: جاءنا رُسل كُفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر ديةً كُلُّ واحدٍ مِنْهُمَا مائة ناقة من الإبل لمن قَتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مُذَلِجٍ أقبل رجل منهم حتى قام علينا [ونحن جلوس] فقال: يا سراقه إني قد رأيت أنفاً أسوداً بالساحل - وفي لفظ: رَكْبَةٌ ثلاثة - أراها محمداً وأصحابه. قال سراقه: فعرفتُ أنهم هم، فأومأت إليه بعيني أن اسكُتْ، فسكُتْ، ثم قلت له: إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيتَ فلاناً وفلاناً انطلقوا يتغنون ضالةً لهم. ثم لبثتُ في المجلس ثم قُمْتُ فدخلتُ بيتي فأمرتُ جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة فتخبسها عليّ، وأخذتُ رُمحِي فخرجتُ به من ظهر البيت فحططتُ بزُججه الأرض وخففتُ عاليه حتى أتيتُ فرسي فركبتُها، فرفعتها تُقربُ بي حتى رأيتُ أسودتَهما، فلما دنوتُ منهم عثرتُ بي فرسي فخرزتُ عنها فقمتُ فأهويتُ بيدي إلى كِنائتي فاستخرجتُ منها الأزام فاستقسمتُ بها أضْرَهُمْ، أم لا أضْرَهُمْ، فخرج الذي أكره: أني لا أضْرَهُمْ، وكنت أرجو أن أُردهُ فأخذ المائة ناقة، فركبتُ فرسي وعصيتُ الأزام فرفعتها تُقربُ بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يُكثير الالتفات ساحت يدا فرسي في الأرض حتى بلغت الركبتين فخرزتُ عنها، ثم زجرتها فتهضت فلم تكذ تُخرج يديها فلما استوت قائمة إذا لآثر يديها عُثان ساطع في السماء مثل الدخان فاستقسمتُ بالأزام فخرج الذي أكره - ألا أضْرَهُمْ - قال: فعرفتُ حين رأيتُ ذلك أنه قد مُنع مني وأنه ظاهر، فناديتهم بالأمان وقلت: أنظروني فوالله لا أذيتكم ولا يأتيتكم مني شيء تكرهونه. قال: فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «قل له وما تبغي منا؟» فقلت: إن قومك قد جعلوا فيكما الدية وأخبرتُهما أخبار ما يريد الناس بهم وعرضتُ عليهم الزاد والمتاع فلم يَزْزاني شيئاً ولم يسألاني إلا أن قال: «أخفِ عناه فسأله أن يكتب لي كتاب موادة آمن به، قال: «اكتب له يا أبا بكر» - وفي رواية: فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أديم، ثم مضى رسول الله ﷺ.

[ثم رجعت] فسكُتُ فلم أذكر شيئاً مما كان حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله ﷺ وفرغ من حنين والطائف خرجتُ لألقاه ومعِيَ الكتاب الذي كتب لي [فلقيته بالجفرانة]. قال: «بينما أنا عامدٌ له دخلت بين ظهري كتيبة من كتائب الأنصار، فطفقوا يقرعونني بالرماح ويقولون: إليك إليك حتى إذا دنوت من رسول الله ﷺ وهو على ناقته،

والله لكأنني أنظر إلى ساقه في غزوه^(١) كأنها جُمارة^(٢). قال: فرفعتُ يدي بالكتاب. ثم قلت: يا رسول الله هذا كتابك لي وأنا سُراقَة بن مالك قال: فقال رسول الله ﷺ: «يَوْمَ وفاءٍ وبرٍّ أذُنُهُ»، فدنوت منه فأسلمت، ثم تذكرت شيئاً أسأل رسول الله ﷺ عنه فما أذكره، إلا أنني قلت: يا رسول الله الضَّالَّة من الإبل تَغشَى حياضِي وقد مَلَأْتُهَا لِإِبِلِي هل لي من أجر [في أن أسقيها]؟ قال: «نعم في كل ذات كَبِدٍ حَرَى أَجر» قال: ثم رجعت إلى قومي فسُقْتُ إلى رسول الله ﷺ صدقتي^(٣).

وقال أبو بكر رضي الله عنه: «وتَبِعْنَا سُراقَة بن مالك ونحن في جَلْدٍ من الأرض فقلت: يا رسول الله هذا الطلب قد لَحِقْنَا. قال: «لا تحزن إن الله معنا». فلما دَنَا مِنَّا وكان بيننا وبينه قَدْرُ رُمحٍ أو رُمحَيْنِ أو ثَلَاثَةِ قلت: هذا الطلب قد لَحِقْنَا وبكيت. [قال ﷺ: «ما يبكيك»؟] قلت: «أما والله ما على نفسي أبكي ولكني أبكي عليك». فدعا عليه رسول الله ﷺ فقال: «اللهم اكفناه بما شئت». قال: فسأحتُ به فَرَسُهُ في الأرض إلى بطنها فوثب عنها، ثم قال: يا محمد قد عَلِمْتُ أن هذا عَمَلُكَ فَادْعُ الله أن يُنَجِّبَنِي مما أنا فيه، فَوَالله لأَعْمِينَ على مَنْ ورائي من الطلب وهذه كنانتي فَخُذْ منها سهماً فإنك سَتَمُرُّ على إبلي وغنمي بمكان كذا وكذا فَخُذْ منها حاجتَكَ، فقال رسول الله ﷺ: «لا حاجة لنا في إبلك وغنمك»، ودعا له رسول الله ﷺ. فانطلق راجعاً إلى أصحابه لا يَلْقَى أحداً إلا قال: قد كُفَيْتُمْ ما ههنا، ولا يَلْقَى أحداً إلا رَدَّهُ، وَوَفَى لنا.

وعند ابن سعد أن سُراقَة لما رجع قال لقريش: قد عرفتم بصري بالطريق وقد استبرأت لكم فلم أر شيئاً، فرجعوا. وقال ابن سعد والبلاذري: عارضهم سُراقَة بِقَدِيدٍ يوم الثلاثاء. وروى ابن عساکر عن ابن إسحاق قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه - فيما يذكرون والله أعلم في دخوله الغار مع رسول الله ﷺ، وفي مسيرهم وفي طلب سُراقَة إياهم:

قَالَ النَّبِيُّ وَلَمْ يَجْزَعْ يُوقِرُنِي وَنَحْنُ فِي شِدَّةٍ مِنْ ظُلْمَةِ الْغَارِ
لَا تَخْشَ شَيْعاً فَإِنَّ اللَّهَ ثَالِثُنَا وَقَدْ تَوَكَّلَ لِي مِنْهُ بِإِظْهَارِ
وَإِنَّمَا كَيْدُ مَنْ تُخْشَى بَوَادِرُهُ كَيْدُ الشَّيَاطِينِ كَادَتْهُ لَكُفَارِ
وَاللَّهُ مُهْلِكُهُمْ طَرَأَ بِمَا كَسَبُوا وَجَاعِلُ الْمُنتَهِي مِنْهَا إِلَى النَّارِ

(١) الغرز: ركاب كور الجمل إذا كان من جلد أو خشب وقيل: هو الكور مطلقاً، مثل الركاب للسرّج. انظر النهاية ٣/٣٥٩.

(٢) الجمارة: قلب النخلة وشحمتها، شبه ساقه بياضها. انظر النهاية ١/٢٩٤ (جم).
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ٧/١٥٨ وذكره ابن كثير في البداية والنهاية ٣/١٨٥.

وَأَنْتَ مُرْتَجِلٌ عَنْهُمْ وَتَارِكُهُمْ
وَهَاجِرٌ رَضَمَهُمْ حَتَّى يَكُونَ لَنَا
حَتَّى إِذَا اللَّيْلُ وَارْتَنَا جَوَانِبُهُ
سَارَ الْأَرْيَقُطُ يَهْدِينَا وَأَيْنُقَهُ (١)
يَغْسِفْنَ غُرُضَ الثَّنَائِيَا بَعْدَ أَطْوَلِهَا
حَتَّى إِذَا قُلْتَ قَدْ أَنْجَدَنَ عَارِضَهَا
يُزِيدِي بِهِ مُشْرِفَ الْأَقْطَارِ مُعْتَزِمٌ
فَقَالَ: كُفُّوا فَقُلْنَا: إِنَّ كَرْتَنَا
أَنْ يَخِيفَ الْأَرْضَ بِالْأَخْوَى وَفَارِسَهُ
فَهَيْلَ لِمَا رَأَى أَرْسَاعَ مُهْرَتِهِ
فَقَالَ: هَلْ لَكُمْ أَنْ تُطَلِّقُوا فَرَسِي
وَأَصْرِفَ الْحَيَّ عَنْكُمْ أَنْ لَقِيْتُهُمْ
فَادْعُ الَّذِي هُوَ عَنْكُمْ كَفُّ عَوْرَتَنَا
فَقَالَ قَوْلًا رَسُولُ اللَّهِ مُبْتَهَلًا
فَنَجَّهِ سَالِمًا مِنْ شَرِّ دَعْوَتِنَا
فَأَظْهَرَ اللَّهُ إِذْ يَدْعُو حَوَافِرَهُ

إِمَّا غُدُّوًا وَإِمَّا مُدْلِجٌ سَارِي
قَوْمٌ عَلَيْهِمْ ذُوو عِزٍّ وَأَنْصَارِ
وَسُدُّ مِنْ دُونَ مَنْ تَخَشَى بِأَسْتَارِ
يَنْعَبِنَ بِالْقَوْمِ نَعْبًا تَحْتَ أَكْوَارِ
وَكُلُّ سَهْبٍ رِقَاقِ الثَّرِبِ مَوَارِ (٢)
مِنْ مُدْلِجِ فَارِسٍ فِي مَنْصِبِ وَارِي
كَالسَيْدِ ذِي اللَّبْدَةِ الْمُسْتَأْسِدِ الضَّارِي
مِنْ دُونِهَا لَكَ نَصْرُ الْخَالِقِ الْبَارِي
فَانظُرْ إِلَى أَرْبَعٍ فِي الْأَرْضِ غَوَارِ
قَدْ سِخَنَ فِي الْأَرْضِ لَمْ تُحْفَرِ بِمُخْفَارِ
وَتَأْخُذُوا مَوْثِقًا فِي نُصْحِ أَسْرَارِ
وَأَنْ أَعْوَرَ مِنْهُمْ عَيْنَ غَوَارِ
يُطَلِّقُ جَوَادِي وَأَنْتُمْ خَيْرُ أَسْرَارِ
يَا رَبِّ إِنْ كَانَ مِنْهُ غَيْرُ إِخْفَارِ
وَمُهْرَةٌ مُطْلَقًا مِنْ كَلِمِ آثَارِ
وَفَازَ فَارِسُهُ مِنْ هَوْلِ أَخْطَارِ (٣)

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عُرْوَةَ وَالْحَاكِمُ عَنْهُ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَقِيَ الزَّبِيرَ فِي رَكْبٍ
مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا تِجَارًا قَافِلِينَ مِنَ الشَّامِ فَكَتَسَا الزَّبِيرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ثِيَابًا بَيْضًا. وَرَوَى
الْبَيْهَقِيُّ عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا دَنَا مِنَ الْمَدِينَةِ هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ وَقَدِمَ طَلْحَةُ بْنُ
عُبَيْدِ اللَّهِ مِنَ الشَّامِ خَرَجَ عَامِدًا إِلَى مَكَّةَ لَمَّا ذُكِرَ لَهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ، خَرَجَ إِذَا مُتَلَقِيًا
لَهُمَا وَإِمَّا عَامِدًا عُمْرَةَ بِمَكَّةَ وَمَعَهُ ثِيَابٌ أَهْدَاهَا لِأَبِي بَكْرٍ مِنْ ثِيَابِ الشَّامِ، فَلَمَّا لَقِيَهِ أَعْطَاهُ
الثِّيَابَ، فَلَبِسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا وَأَبُو بَكْرٍ.

وَرَوَى أَبُو نُعَيْمٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ... الْأَوْسِيِّ الْأَسْلَمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «لَمَّا هَاجَرَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ مَرُّوا بِبَابِلَ لَنَا بِالْجُحْفَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِمَنْ هَذِهِ الْإِبِلُ؟»

(١) الأنيق: جمع قلة لناقة، وأصله أنوق، فقلب وأبدل واوه ياء. وقيل: هو على حذف العين وزيادة الياء عوضاً عنها، فوزنه على الأول: أعقل لأنه قدم العين، وعلى الثاني: أبقل؛ لأنه حذف العين. انظر النهاية ١٢٩/٥.

(٢) يقال: مار التراب إذا تار.. ورياح مؤازة: شيرة للقراب. انظر المعجم الوسيط ٨٩٨/٢.

(٣) انظر الروض الأنف ٢٣٤/٢.

فقالوا: لِرَجُلٍ مِنْ أَسْلَمٍ فَالتفت رسول الله ﷺ إلى أبي بكر فقال: «سلمنا إن شاء الله». فأتاه أبي وحمله على فحلٍ من إبله وبعث معه غلامه مسعود». وروى أبو يعلى والطبراني والحاكم والبيهقي وأبو نعيم عن قيس بن النعمان قال: «لما انطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر مُسْتَخْفَيْنِ مَرُّوا بِعَبْدٍ يَزْعَى غَنَمًا فَاستسقىاه اللبن فقال: ما عندي شاةٌ تُحَلَبُ، غير أن ههنا عناقًا حَمَلَتْ أَوَّلَ الشَّاءِ وقد أَخْدَجَتْ وما بقي لها من لبنٍ فقال: «اذْعُ بها»، فدعا بها، فاعتقلها النبي ﷺ ومَسَحَ ضَرْعَهَا حتى أنزلت. ودعا أبو بكر بِمِجَنٍّ، فَحَلَبَ وسقى أبا بكر، ثم حَلَبَ فسقى الراعي، ثم حَلَبَ فشرب، فقال الراعي: من أنت؟ فوالله ما رأيتُ مثلك قط. قال: «أوتراك تكثم علي حتى أخبرك؟ قال: نعم. قال: «إني محمد رسول الله». قال: أنت الذي تزعم قريش أنك صابيء؟ قال: «إنهم ليقولون ذلك». قال: فأشهد أنك نبي الله وأشهد أن ما جئت به حق، وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبي».

وروى البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر مدخله المدينة: «أله عني الناس فإنه لا ينبغي لنبى أن يكذب». فكان أبو بكر إذا سُئِلَ: من أنت؟ قال: باغ، وإذا قيل: من الذي معك؟ قال: هادٍ يهديني». وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: «أقبل النبي ﷺ وهو مُزِدَّفٌ أبا بكر، وأبو بكر شيخ، والنبي ﷺ شابٌ لا يُعْرَفُ، فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: من هذا بين يديك؟ فيقول: هذا الذي يهديني السبيل فيحسب الحاسب إنما يعني الطريق وإنما يعني سبيل الخير».

وروى الزبير بن بكار في الموفقيات، وأبو نعيم عن طريق شهر بن حوشب عن ابن عباس عن سعد بن عبادَةَ قال: «لما بايعنا رسول الله ﷺ بيعة العقبة، خرجت إلى حضرموت لبعض الحاجة فقضيت حاجتي ثم رجعت حتى إذا كنت ببعض الأرض نمت ففزعت من الليل فإذا بصائح يقول:

أبا عمرو تأوَّبني الشهودُ وراح النومُ وانقطع الهجودُ

ثم صاح آخر: «يا خزعب، ذهب بك اللعيب، إن أعجب العجب بين مكة ويثرب». قال: وما ذاك يا شاهد؟ قال: «نبي السلام، بُعث بخير الكلام، إلى جميع الأنام، فأخرج من البلد الحرام، إلى نخيل وأطام» ثم طلع الفجر فذهبت أتفكر فإذا عظاية^(١) وثعبان ميتان، فما علمت أن النبي ﷺ هاجر إلا بهذا الحديث».

ولما شارف رسول الله ﷺ المدينة لقيه أبو عبد الله بُرَيْدَةَ بن الحُصَيْبِ الأسلمي في

(١) العظاية السام الأبرص. انظر النهاية ٢٦٠/٣.

سبعين من قومه من بني سَهْم، فقال نبي الله ﷺ: «من أنت؟» قال: بُرَيْدَةَ، فقال لأبي بكر: «برد أمرنا وصلح». ثم قال: «مِمْ؟» قال: من أسلم. فقال لأبي بكر: «سَلِمْنَا». ثم قال: «مِنْ بَنِي مَنْ؟» قال: من بني سَهْم. قال: «خَرَجَ سَهْمُكَ [يا أبا بكر]». فقال بُرَيْدَةَ للنبي ﷺ: من أنت؟ قال: «أنا محمد بن عبد الله رسول الله». فقال بُرَيْدَةَ: أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. فأسلم بُرَيْدَةَ وأسلم من كان معه جميعاً. قال بُرَيْدَةَ: الحمد لله الذي أسلم بنو سَهْم طائعين غير مُكْرَهِينَ، فلما أصبح قال بُرَيْدَةَ للنبي ﷺ: «يا رسول الله لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء». فَحَلَّ عِمَامَتَهُ ثُمَّ شَدَّهَا فِي رُفْحٍ ثُمَّ مَشَى بَيْنَ يَدَيْهِ حَتَّى دَخَلُوا الْمَدِينَةَ^(١).

تنبيهات

الأول: قال الحافظ: كان بين ابتداء هجرة الصحابة وبين العقبة الأولى والثانية وبين هجرته ﷺ شهران وبعض شهر على التحرير.

الثاني: قول عائشة رضي الله عنها: «ما كنت أرى أحداً يبكي من الفرح حتى رأيتُ أبا بكر يبكي من الفرح». قال في الروض: «قالت ذلك لصِغَرِ سِنِّهَا وَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ عَلِمَتْ بِذَلِكَ» وقد تطرقت الشعراء لهذا المعنى فأخذته استحساناً له فقال الطائي يصف السحاب:

دُهُمٌ إِذَا وَكَفَّتْ فِي رَوْضَةٍ طَفِيفَتْ عَيْوُنُ أَزْهَارِهَا تَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ
وذكر لأبي الطيب وزاد على هذا المعنى:

فَلَا تُنْكِرُنَّ لَهَا صُرْعَةً فَمِنْ فَرَحِ النَّفْسِ مَا يَفْئُلُ

وقال بعض المُخَدَّثِينَ:

وَرَدَ الْكِتَابُ مِنَ الْحَبِيبِ بِأَنَّهُ سَيَزُورُنِي فَاشْتَفَبَرْتُ أَجْفَانِي
غَلَبَ الشُّرُورُ عَلَيَّ حَتَّى أَنَّهُ مِنْ فَرْطِ مَا قَدْ سَرَّنِي أَبْكَانِي
يَا عَيْنُ صَارَ الدَّمْعُ عِنْدَكَ عَادَةً تَبْكِينَ فِي فَرَحٍ وَفِي أَحْزَانِ

قال في الزهر: «وفيه من عدم التُّنْبُتِ ما ترى، أهجوز أن يُخْتَجَّ على عائشة يَقُولُ مُخَدِّثٌ؟ إِنَّمَا كَانَ يُخْتَجُّ عَلَيْهَا لَوْ كَانَتْ الْعَرَبُ قَالَتْ، أَمَا إِذَا لَمْ تَقْلُهُ الْعَرَبُ فَلَا حُجَّةَ عَلَيْهَا وَاللَّهِ أَعْلَمُ. قُلْتُ: السَّهْلِيُّ لَمْ يَخْتَجَّ بِذَلِكَ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَإِنَّمَا ذَكَرَهُ اسْتِطْرَاداً لِلْفَائِدَةِ.»

الثالث: نُقِلَ فِي الرَّوْضِ عَنْ بَعْضِ شَبَوَاحِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ أَنَّهُ سَعَلَ عَنْ امْتِنَاعِهِ مِنْ أَخْذِ الرَّاحِلَةِ مَعَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَنْفَقَ عَلَيْهِ مَالَهُ، فَقَالَ: أَحَبُّ أَلَّا تَكُونَ هَجْرَتُهُ إِلَّا مِنْ مَالِ نَفْسِهِ.

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل ٢٢١/٢.

الرابع: كانت هجرته ﷺ في شهر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة من النبوة وذلك يوم الاثنين. روى الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال: «وُلِدَ نَبِيُّكُمْ ﷺ يوم الاثنين وخرج من مكة يوم الاثنين ودخل المدينة يوم الاثنين وتوفي يوم الاثنين». قال الحاكم: «تواترت الأخبار أن خروجه كان يوم الاثنين ودخوله المدينة كان يوم الاثنين، إلا أن محمد بن موسى الخوارزمي قال: إنه خرج من مكة يوم الخميس». قال الحافظ «يُجْمَعُ بينهما بأن خروجه من مكة كان يوم الخميس وخروجه من الغار كان ليلة الاثنين لأنه أقام فيه ثلاث ليالٍ: هي ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد وخرج في أثناء ليلة الاثنين».

الخامس: ذكر بعض أهل السِّيَر أن أبا بكر لما رأى المشركين وهو في الغار، ذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «لو جاؤونا من ههنا خرجنا من ههنا». فنظر أبو بكر إلى الغار وقد انفرج من الجانب الآخر، وإذا البحر قد اتصل به وسَفِينَةٌ مشدودة إلى جانبه». قال الحافظ ابن كثير: وهذا ليس بمُنْكَرٍ من حيث القُدْرَةُ العظيمة ولكن لم ير ذلك بإسناد قوي ولا ضعيف، ولسنا نثبت شيئاً من تَلْقَاءِ أنفسنا ولكن ما صَحَّحَ أو حَسَّنَ قلنا به والله أعلم.

السادس: السُّرُّ في اتخاذ رافضة العجم اللُّبْدِ الْمُقْصَصَةِ على رؤوسهم التعظيم للحَيَاتِ لِلذَّغِيهِنَّ أبا بكر ليلة الغار.

السابع: روى الإمام أحمد والحاكم أن النبي ﷺ قال: لقد لَبِثْتُ مع صاحبي - يعني أبا بكر - ليلة الغار بضعة عشر يوماً ما لنا طعام إلا البرير» قال الحاكم «معناه: مكثنا مُخْتَفِينَ من المشركين في الغار وفي الطريق بضعة عشر يوماً».

قال الحافظ: «لم يقع في رواية أحمد ذِكْرُ الغار، وهي زيادة في الخبر من بعض رواته، ولا يَصِحُّ حملُه على حالة الهجرة لِمَا في الصحيح من أن عامر بن فُهَيْرَةَ كان يَرُوحُ عليهما في الغار باللبن، ولِمَا وقع لهما في الطريق من لقاء الراعي ومن النزول بخيمة أم معبد وغير ذلك، ويظهر أنها قصة أخرى».

الثامن: قال السهيلي: «انْتَبَهَ أيها العبد المأمور بِتَدْبِيرِ كتاب الله تعالى لقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة ٤٠] الآية، كيف كان معهما بالمعنى وباللفظ؟ أما المعنى: فكان معهما بالنصر والإرفاد، والهداية والإرشاد. وأما اللفظ: فإن اسم الله تبارك وتعالى كان يُذَكَّرُ إذا ذُكِرَ رَسُولُهُ وإذا دُعِيَ فقيل يا رسول الله أو فَعَلَ رسولُ الله. ثم كان لصاحبه كذلك، يُقَالُ: يا خليفة رسول الله، وفَعَلَ خليفة رسول الله، فكان يُذَكَّرُ معهما بالرسالة والخلافة ثم ارتفع ذلك فلم يكن لأحد من الخلفاء ولا يكون».

التاسع: قال المُهَلَّب بن أبي صُفْرَةَ^(١) رحمه الله: «أَنَا شَرِبْتُ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ لَبِنِ الْغَنَمِ لِأَنَّهُ حَيْثُ كَانَ فِي زَمَنِ الْمُكَارَمَةِ وَلَا يَعَارِضُهُ: «لَا يَحْلُبُنُّ أَحَدٌ شَاةً إِلَّا يَأْذَنُهُ»^(٢) لِأَنَّ ذَلِكَ وَقَعَ فِي زَمَنِ التُّشَاخِ، أَوْ الثَّانِي مَحْمُولٌ عَلَى التُّسُورِ، وَالْأَوَّلُ لَمْ يَقَعْ فِيهِ ذَلِكَ، بَلْ قَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ سُؤَالَ الرَّاعِي: هَلْ أَنْتَ حَالِبٌ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، كَأَنَّهُ سَأَلَهُ: هَلْ إِذْنٌ صَاحِبِ الْغَنَمِ فِي حَلْبِهَا لِمَنْ يَرِدُ عَلَيْهِ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، أَوْ جَزَى عَلَى الْعَادَةِ الْمَأْلُوفَةِ لِلْعَرَبِ فِي إِبَاحَةِ ذَلِكَ وَالْإِذْنِ فِي الْحَلْبِ لِلْمَارِّ وَابْنِ السَّبِيلِ، فَكَانَ كُلُّ رَاعٍ مَأْذُونًا لَهُ فِي ذَلِكَ».

وقال الداودي: «إِنَّمَا شَرِبَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ ابْنُ سَبِيلٍ، وَلَهُ شُرْبُ ذَلِكَ إِذَا احتَاجَ وَلَا سِوَا النَّبِيِّ ﷺ، وَأَبْعَدَ مَنْ قَالَ: «إِنَّمَا اسْتَجَازَهُ لِأَنَّهُ مَالٌ حَرْبِي لِأَنَّ الْقِتَالَ لَمْ يَكُنْ فُرِضَ بَعْدَ وَلَا أُبِيحَتْ الْغَنَائِمُ» وَقَالَ الْحَافِظُ: «قَوْلُ أَبِي بَكْرٍ: أَفِي غَنَمِكَ لَبِنٌ؟ الظَّاهِرُ أَنَّ رِوَايَةَ بَهَذَا الِاسْتِفْهَامِ: أَمَعَكَ إِذْنٌ فِي الْحَلْبِ لِمَنْ يَمُرُّ بِكَ عَلَى سَبِيلِ الضِّيَافَةِ؟ وَيَحْتَمِلُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمَّا عَرَفَ مَالَكَ الْغَنَمِ عَرَفَ رِضَاءَهُ بِذَلِكَ لِمِصْدَاقَتِهِ لَهُ أَوْ إِذْنِهِ الْعَامِّ بِذَلِكَ».

العاشر: ذكر أبو نُعَيْمٍ هُنَا قِصَّةَ إِسْلَامِ ابْنِ مَسْعُودٍ، لَمَّا وَقَعَ فِي بَعْضِ طَرَفِهِ، قَالَ: «كَنتُ غَلَامًا يَافِعًا أَرعى غَنَمًا لِعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ بِمَكَّةَ فَأتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ، وَقَدْ قرَأَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَا: «يَا غَلَامُ هَلْ مَعَكَ مِنْ لَبِنٍ؟» فَذَكَرَ الْحَدِيثَ، وَيَأْتِي بِتَمَامِهِ فِي الْمَعْجِزَاتِ. قَالَ فِي الْبِدَايَةِ وَالْفَتْحِ: «قَوْلُهُ فِي هَذَا السِّيَاقِ: «وَقَدْ قرَأَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»، لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ وَقْتُ الْهِجْرَةِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ قَبْلَ الْهِجْرَةِ، لِأَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ كَانَ مِمَّنْ أَسْلَمَ قَدِيمًا وَهَاجَرَ إِلَى الْحَبَشَةِ كَمَا تَقَدَّمَ ذَلِكَ، وَقِصَّتُهُ ثَابِتَةٌ فِي الصَّحَاحِ.

الحادي عشر: ذكر في «العيون» قِصَّةَ سُرَاقَةَ قَبْلَ قِصَّةِ أُمِّ مَعْبُدٍ وَالتَّزَمَ فِي أَوَّلِهَا أَنَّهُ يُزْتَبُّ الْوَقَائِعُ. وَذَكَرَ فِي «الإِشَارَةِ» قِصَّتَهَا قَبْلَ قِصَّةِ سُرَاقَةَ، وَتَبَيَّنَتْ فِي ذَلِكَ وَهُوَ الصَّحِيحُ الَّذِي صَرَّحَ بِهِ جَمَاعَةٌ.

الثاني عشر: ذكر رَزِينُ أَنَّ قَرِيشًا أَقَامَتْ أَيَّامًا لَا يَدْرُونَ أَيْنَ أَخَذَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَسَمِعُوا صَوْتًا عَلَى أَبِي قُبَيْسٍ وَهُوَ يَقُولُ:

(١) المُهَلَّبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ ظَالِمٌ بِنُ سُرَاقِ الْأَزْدِيِّ الْعَتَكِيِّ، أَبُو سَعِيدٍ أَمِيرُ بَطَاشِ، جَوَادٌ، قَالَ فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ: هَذَا سَيِّدُ أَهْلِ الْعِرَاقِ، وَقَدَّمَ الْمَدِينَةَ مَعَ أَبِيهِ فِي أَيَّامِ عُمَرَ. وَوَلَّى إِمَارَةَ الْبَصْرَةِ لِمَصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ. وَقَفَّتْ عَيْنُهُ بِسَمَرْقَنْدٍ وَانْتَدَبَ لِقِتَالِ الْأَزَارِقَةِ، وَكَانُوا قَدْ غَلَبُوا عَلَى الْبِلَادِ، وَشَرَطَ لَهُ أَنْ كُلَّ بَلَدٍ يَجْلِبُهُمْ عَنْهُ يَكُونُ لَهُ التَّصَرُّفُ فِي خِرَاجِهِ تِلْكَ السَّنَةَ فَأَقَامَ بِحَارِبِهِمْ تِسْعَةَ عَشَرَ عَامًا لَقِيَ فِيهَا مِنْهُمْ الْأَهْوَالَ. وَأَخِيرًا تَمَّ لَهُ الظَّفَرُ بِهِمْ، قَتَلَ كَثِيرِينَ وَشَرَّدَ بَقِيَّتَهُمْ فِي الْبِلَادِ. ثُمَّ وُلِيَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ وِلَايَةَ خِرَاسَانَ، قَدَّمَهَا سَنَةَ ٧٩ هـ وَمَاتَ فِيهَا سَنَةَ ٨٣ هـ. كَانَ شِعَارَهُ فِي الْحَرْبِ: «حَمَّ لَا يَنْصُرُونَ» وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَ الرِّكْبَ مِنَ الْحَدِيدِ، وَكَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ تَعْمَلُ مِنَ الْخَشَبِ. الْأَعْلَامُ ٣١٥/٧.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ ١٦٥/٣ وَمُسْلِمٌ فِي كِتَابِ اللَّقْطَةِ (١٣).

فَإِنْ يُسَلِّمِ السُّعْدَانِ يُضْبِحُ مُحَمَّدٌ بِمَكَّةَ لَا يَخْشَى خِلَافَ الْمُخَالِفِ

كما سمعوا أيضاً البيتين السابقين في إسلام سعد بن معاذ وسعد بن عباد:

فَيَا سَعْدَ سَعْدِ الْأَوْسِ كُنْ أَنْتَ نَاصِراً وَيَا سَعْدَ سَعْدِ الْخُزَجِيِّنَ الْفَطَارِفِ

أَجِيبَا إِلَيَّ دَاعِيَ الْهُدَى وَتَمَنِّيَا عَلَى اللَّهِ فِي الْفِرْدَوْسِ مُنِيَّةَ عَارِفِ

قال السيد: والأقرب ما تقدم من إنشاد هذه الأبيات قبل ذلك لأن السعديين كانا قد

أسلما قبل ذلك.

الثالث عشر: في بيان غريب ما سبق:

﴿قَبِلَ الْمَدِينَةَ﴾، بكسر القاف زفتح المرحدة: أي جهتها.

﴿عَلَى رِشْلِكَ﴾^(١) بكسر أوله: أي على مهلك والرشل السير الرقيق.

﴿بِأَبِي أَنْتَ﴾: أنت مُبْتَدَأٌ وَخَبْرُهُ: بِأَبِي أَي: مُفِيداً بِأَبِي، وَيُخْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ أَنْتَ تَأْكِيداً

للفاعل يرجو وبأبي قسم.

﴿حَبَسَ نَفْسَهُ﴾: مَنَعَهَا مِنَ الْهَجْرَةِ.

﴿السُّمْرُ﴾: بسين مهملة مفتوحة وضَم الميم: وهو الحَبْطُ بفتح المعجمة والموحدة

وبالطاء المهملة، هذا المُدْرَجُ فِي تَفْسِيرِ الزَّهْرِيِّ. وَيُقَالُ: السُّمْرَةُ اسْمُ شَجَرَةٍ أُمُّ غِيلَانَ، وَقِيلَ

رَقُّ الطَّلْحِ، وَالْحَبْطُ مَا يُخْبَطُ بِالْعَصَا فَيَسْقَطُ مِنْ وَرَقِ الشَّجَرِ.

﴿نَحْرَ الظَّهِيرَةِ﴾: أَي أَوَّلُ الزَّوَالِ وَهُوَ أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنْ حَرَارَةِ النَّهَارِ، وَالغَالِبُ فِي الْحَرِّ

الْقِيلُولَةُ.

﴿مُتَّقِنَعًا﴾^(٢): أَي مُتَطَهِّراً وَسَيَّئِي الْكَلَامِ عَلَى ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَبْوَابِ

لِبَاسِهِ ﷺ.

﴿فِدَى﴾: بِكسر الفاء والقصر وفي رواية فِدَاءٌ بِالْمَدِّ.

(١) والرشل الرشلة: الرفق والثودة قال صخر: وبس من أصحابه أن بلحقوا به وأحذق به أعداؤه. وأيقن بالقتل فقال:

لو أن حولي من قريم رجلاً لمنعموني نجدة أو رسلاً

اللسان ١٦٤٣/٣.

(٢) القناع والمقنعة: ما تتفنع به المرأة من ثوب تغطي رأسها ومحاسنها وقال الليث: المقنعة ما تقنع به المرأة رأسها. وفي الحديث: أتاه رجل مقنع بالحديد هو المنطلي بالسلاح وقيل: هو الذي على رأسه بيضة وهي الخوذة لأن الرأس موضع القناع. انظر اللسان ٣٧٥٥/٥.

«الصحابة»: بالنُّضْب أي أريد أو أسألك المصاحبة ويجوز الرفع على أنه خَبِر مبتدأ محذوف.

«أَمِنَاهُ»: بكسر الميم.

«أَحَثُّ»: بحاء مهملة فمثلة افعل تفضيل من الحَثُّ وهو الإسراع وفي رواية: أَحَبُّ بالموحدة والأول أَصَحُّ.

«الجَهَّاز»^(١): بفتح الجيم أفصح من كسرهما، وهو ما يحتاج إليه المسافر.

«ذات النُّطَاق»: وفي رواية: ذات النُّطَاقين - بكسر النون - وهو ما يُشَدُّ به الوسط، وقيل هو ثوب تلبسه المرأة، ثم تشد وسطها بحبل، ثم ترسل الأعلى على الأسفل. والمحفوظ في هذا الحديث أن أسماء شَقَّتْ نِطَاقَهَا نِصْفَيْنِ فَشَدَّتْ بِأَحَدِهِمَا الزَّادَ واقتصر على الآخر، ثم قيل لها: ذات النطاق وذات النطاقين، فالتثنية والإفراد بهذين الاعتبارين. وعند ابن سعد أنها شَقَّتْ نِطَاقَهَا فَأَوْكَتْ بِقِطْعَةٍ مِنْهُ الْجِرَابَ وَشَدَّتْ فَمِ الْقِرْبَةِ بِالْبَاقِي فَسَمِيَتْ ذَاتِ النُّطَاقِينَ.

«الْحَوَخِخَةُ»^(٢): بخاءين معجمتين مفتوحتين بينهما واو ساكنة: باب صغير.

«ثور»: بالمثلثة.

«الرَّصَدُ»: بفتححتين جمع راصد كخادم وخدم.

«استبرأه»: يقال: استبرأت الشيء طلبتُ آخره لقطع الشبهة عني.

«أَلَقَمَهُ الْجُحْرَ»: الجحر بجيم فحاء مهملة: أي أدخله فيه.

«العَقِيبُ»^(٣): بعين مهملة مفتوحة قفاف مكسورة فموحدة: مُؤَخَّرُ الرَّجْلِ.

«لَدَغُهُ»: بالبدال المهملة والغين المعجمة: عَضُّهُ.

«الرَّاءة»: وهي شجرة معروفة قال أبو حنيفة الدينوري: هي من أغلاث الشجر - بفتح الهمزة وسكون العين المهملة وتُجَجَم - وتكون مثل قامة الإنسان ولها خيطان وزهر أبيض تُحْشَى به المخاد فيكون كالرَّيش. لخفته ولينه لأنه كالقطن. قال في النور: وغالب ظني أن هذه الشجرة التي وصف أبو حنيفة أنها العشر كذا رأيتها بأرض بركة الحاج خارج القاهرة وهي تنفتق عن مثل قطن يشبه الريش في الخِيفَةِ ورأيت من يجعله في اللحف في القاهرة.

(١) بفتح وبكسر قال الليث: وسمعت أهل الحجاز يخطون الجهاز بالكسر. قال الأزهرى: والقراء كلهم على فتح الجيم

في قوله تعالى ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ﴾ قال: وجهاز بالكسر لغة رديئة. انظر اللسان ٧١٢/١.

(٢) انظر المعجم الوسيط ٢٦٠/١.

(٣) انظر المصباح المنير ٤١٩.

- «فتيان»: جمع كثرة لفتى وهو الشاب الحدّث.
- «الهُرَاوَى»: بفتح الهاء: جمع هِرَاوَة بكسرها.
- «ذراً»^(١): بمعجمة فمهملة فهمزة: أي دفع.
- «أثر»: مُخَرَّكَة والأثر بقية الشيء أو الخَبْر، وخَرَج في أثره بعده.
- «الأرب»: بالفتح: الحاجة.
- «يَنْشَب»: يَلْبَث.
- «حَوّ»: بالحاء المهملة والواو: جمع.
- «الغار»: نَقَب في الجَبَل.
- «الطُرْف»: بفتح الطاء [المهملة] وسكون الراء.
- «فالصُّدُق»: أي ذو الصُّدُق وهو النبي ﷺ.
- «لم يَرِما»: بفتح أوّله وكسر ثانيه: أي لم يَبْرِحَا.
- «من أَرَم»: أي أَحَد.
- «ظَنُّوا»: حَسِبُوا.
- «الحَمَام»: اسم جنس جمعى وَاحِدُهُ حَمَامَة يقع على الذَّكَرِ والأُنثَى.
- «البرِّيَّة»: بتخفيف الراء: الخَلْق.
- «النَّشَج»: بالجيم الحياكة.
- «الحَوْم»^(٢): الطُّوْف.
- «الوقاية»: بكسر الواو: الحِجْفُظ.
- «أَغْنَتْ»: أَجْزَأَتْ.
- «الدروع المُضَاعَفَة»: المنسوجة حلقتين حلقتين تُلبَس للحِجْفُظ من العَدُو.
- «الأطم»: بضمّتين: الحصون.
- «المنيف»: العَالِي.

(١) انظر المعجم الوسيط ٣٠٩/١، ٣١٠.

(٢) من حام حول الشيء وعليه حوماً وحوماناً: أي دار وفي الحديث «من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه» المعجم الوسيط ٢١٠/١.

«حَبٌّ»^(١) رسول الله ﷺ: أي مَحْبُوبُهُ.

نَوَاجِذُهُ»^(٢): بفتح النون وكسر الجيم وضمّ الدال المعجمة: جمع نَاجِذٌ وهو السِّنُّ من الأضراس ويأتي الكلام على ذلك في باب ضَجِيكِهِ وَتَبَشِيمِهِ.

«كَمْنَا»: بفتح الكاف والميم ويجوز كَشْرُهَا أي اختفيا فيه.

«ثَقِفَ»: بئاء مُثَلَّثَةٌ مفتوحة ففاه مكسورة ويجوز إسكانها وضمُّها ففاه: أي فَطِنَ يُدْرِك حاجته بسرعة.

«لَقِفَ»^(٣): بفتح اللام وكسر القاف ويجوز سكونها: أي سريع الفهم.

«يُدْلِجُ» بتشديد الدال المهملة بعدها جيم: أي يخرج بِسَخَرٍ.

«يُكَادَانِ»: وفي رواية يُكْتَادَانِ: أي يُطَلَّبُ لهما فيء المَكْرُوه وهو الكَيْد.

«مِنْخَةٌ»: بكسر الميم وسكون النون فحاء مهملة.

«رِشْلٌ» بكسر الراء بعدها مهملة ساكنة: اللَّبَنُ.

«الرَّضِيفُ»: براء فضاء معجمة ففاء وزن رغيف: اللَّبَنُ المرضوف الذي رُضِفَتْ فيه الحجارة المُخَمَّاة بالشمس أو النار لينعقد وتزول رَخَاوُثُهُ، وهو بالرفع ويجوز الجَرْ.

«يَنْعِقُ»: بكسر العين المهملة أي يصيح بِغَنَمِهِ، والنَّعْقُ هو صوت الراعي إذا زَجَرَ الغنم، وفي رواية: يَنْعِقُ بهما بالثنية أي يُسْمِعُهُمَا صَوْتَهُ إذا زَجَرَ غَنَمَهُ.

«الدُّيْلُ»: بكسر الدال المهملة وسكون التحتية.

«العِخْرِيَّتُ»: بكسر الخاء المعجمة وتشديد الراء فمثناة تحتية ساكنة فمثناة فوقية، وهو الماهر بهداية الطريق.

«العُتْبِيُّ»: بضم العين المهملة الرُّضَا.

«بَوَائِقُ الدَّهْرِ»^(٤): غَوَائِلُهُ وشروره واحداً بائقة وهي الداھية.

(١) الحب: هو الحبيب مثل حزن وحزين. قال ابن بري رحمه الله: الحبيب يجيء تارة بمعنى المحب كقول المخبل:

أنهجر ليلى بالفراق حبيبها وما كان نفساً بالفراق تطيب

أي محبها، ويجيء تارة بمعنى المحبوب كقول ابن الرهينة:

وان الكئيب الفرد من جانب الحمى إلى وان لم أزه لحبيب

اللسان ٧٤٣ / ٢ .

(٢) وقيل: الناجذ: آخر الأضراس وهو ضرس الحلم لأنه ينبت بعد البلوغ وكمال الفعل وقيل: الأضراس كلها (نواجذ) قال في البارع: وتكون النواجذ: للإنسان والحافر وهي من ذوات الخف الأنياب. المصباح المنير ص ٥٩٣.

(٣) لقف الشيء لقفاً ولقفاناً: تناوله بسرعة، وأخذه بضمه فابتلعه. واللقف: يقال: رجل ثقف لقف سريع الأخذ لما يرمى إليه باليد وسريع الفهم لما يرمى إليه من كلام باللسان. الوسيط ٨٣٥ / ٢.

(٤) المفرد بائقة: أي داھية، ويقال: داھية يؤوق أي شديدة، قال الكسائي: باقتهم الباقية تبوقهم بوقاً أصابتهم. اللسان ٣٨٨ / ١.

«قَائِمُ الظُّهْرِ»^(١): أي نصف النهار، سُمِّيَ قائماً لأن الظل لا يظهر حينئذ فكأنه واقف.

«رُفِعَتْ لَنَا صَخْرَةٌ»: أي ظهرت.

«الْفَرْوَةُ» معروفة ويقال فيها فَرَوَ بحذف الهاء وهو الأشهر في اللغة ولا يتجه أن يكون المرادُ بها الفَرْوَةُ من الحشيش لقوله: كانت معي.

«وَأَنَا أَنْفَضُ لَكَ مَا حَوَّلَكَ» أَنْفَضُ بفتح الهمزة وسكون النون وضمّ الفاء بعدها ضاد معجمة، أي أَتَمَّسَّهُ وَأَتَعَرَّفُ ما فيه مِثْنُ تَخَافُهُ - قاله في التقريب وفي النهاية - أي أحرسك وأطوف هل أرى طلباً.

«لِرَجُلٍ مِنَ الْمَدِينَةِ أَوْ مَكَّةَ»: شك في ذلك أحمد بن يزيد، ورواه مسلم من طريق الحسن بن محمد بن أعين عن زهير فقال فيه: «لرجل من أهل المدينة»، ولم يَشْكُ. ووقع في رواية ابن جُرَيْج: «فَسُمِّيَ رجلاً من أهل مكة»، ولم يَشْكُ. قال الحافظ: «والمراد بالمدينة مكة، ولم يُرِدْ المدينة النبوية لأنها حينئذ لم تكن تسمى المدينة، وإنما كان يُقال لها يَثْرِبَ. وأيضاً لم تَجْرِ العادة للرعاة أن يُنْعِدُوا في الرعي هذه المسافة البعيدة. ووقع في رواية إسرائيل فقال: «لِرَجُلٍ مِنْ قَرِيْشٍ سَمَّاهُ فَعَرَفْتُهُ»، وهذا يؤيد ما قررته لأن قريشاً لم يكونوا يسكنون المدينة النبوية».

«أَفِي غَنَمِكَ لَبَنٌ؟» بفتح اللام والموحدة، وحكى القاضي أن في رواية لَبْنٌ، بضم اللام وتشديد الموحدة جمع «لَابِنٍ»^(٢) أي ذات لَبْنٍ.

«الْعَنَاقُ»^(٣): بفتح العين المهملة: الأُنثَى من المعز: «فَأَخَذْتُ قَدْحاً فَحَلَبْتُ»: وفي رواية: «أَمَرْتُ الرَّاعِيَّ فَحَلَبَ»، وَيُجْمَعُ بأنه يجوز في قوله «فَحَلَبْتُ»: مراده أَمَرْتُ بِالْحَلْبِ.

«كُثْبَةٌ»^(٤): بضم الكاف وسكون المثناة وفتح الموحدة: أي قَدْرٌ قَدَحٌ، وقيل: حَلْبَةٌ خفيفة..

«بَرَدٌ أَسْفَلُهُ»: بفتح الراء على المشهور وقال الجوهري بضمها.

(١) الوسيط ٥٧٨/٢.

(٢) يقال: شاة لبون ولبنة وملبنة وملبن: صارت ذات لبن وإذا كانت ذات لبن في كل أحايينها فهي لبون وولدها في تلك الحال ابن لبون واللبن جمع اللبون لسان العرب ٣٩٩٠/٥.

(٣) الأنثى من أولاد المعيز والغنم من حين الولادة إلى تمام حول جمعها أعنق وعنق وعنوق. الوسيط ٦٣٢/٢.

(٤) كل قليل مجتمع من طعام أو لبن أو غير ذلك جمعها كتب. الوسيط ٧٧٧/٢.

شرح قصة أم معبد رضي الله عنها

«الخرزية»: بضم الخاء المعجمة فزاي فعين مهملة.

«بَرْزَة»: يقال امرأة بَرْزَة إذا كانت كهلة لا تُحْتَجِب احتجاب الشواب وهي مع ذلك عفيفة عاقلة تجلس للناس وتُحَدِّثُهُمْ، من البروز وهو الظهور.

«جَلْدَة»: إما قوية وإما غائبة.

«الفناء» سعة أمام البيت، وقيل: ما امتد من جوانبه.

«تَسْقِي»: تُنَاقِلُهُم السَّقِي ليشربوا منه.

«مُزْمِلُون»: بضم الميم وسكون الراء، نَفَذَ زَأْهُم وَأَصْلُهُ مِنَ الرَّمْلِ كَأَنَّهُمْ لَصِقُوا بِالرَّمْلِ كَمَا قِيلَ لِلْفَقِيرِ التَّرِبَ بَفَتْحِ التَّاءِ وَكَسْرِ الرَّاءِ.

«مُسْتِنْتُونَ»: بكسر النون والمثناة الفوقية، أي أُجْدَبُوا أَي أَصَابَتْهُمُ سَنَةٌ وَهِيَ الْقَحْطُ يُقَالُ:

أَسْنَتَ فَهُوَ مُسْتِنْتٌ إِذَا أُجْدِبَ.

«أَعْوَزْنَاكُمْ»: أَخَوْجْنَاكُمْ.

«كَسَرَ الْخَيْمَةَ»^(١): بفتح الكاف وكسرها وسكون المهملة، أي جانبها، ولكل بيت

كِسْرَانٌ عَنِ يَمِينٍ وَشِمَالٍ.

«كَيْفَاءَ الْبَيْتِ»: قال في القاموس: الْكَيْفَاءُ كِتَابٌ سُتْرَةٌ مِنْ أَعْلَى الْبَيْتِ إِلَى أَسْفَلِهِ مِنْ

مُؤَخَّرِهِ أَوْ الشُّقَّةِ فِي مُؤَخَّرِ الْخِيَاءِ أَوْ كِسَاءٍ يُلْقَى عَلَى الْخِيَاءِ حَتَّى يَبْلُغَ الْأَرْضَ وَقَدْ أَكْفَأْتُ الْبَيْتَ.

«الْجُهْدُ»: بِالْفَتْحِ وَيُضَمُّ: الطَّاقَةُ، وَقِيلَ: بِالْفَتْحِ الْمَشَقَّةُ وَبِالضَّمِّ الطَّاقَةُ وَالْمُرَادُ هُنَا الْهَزَالُ.

«ضَرَبَهَا قَحْلًا»: أَلْقَاهَا..

«شَأْنُكَ»: مَنْصُوبٌ، أَي أَضْلِحْ شَأْنُكَ، أَوْ نَحْوَ هَذَا، فَهُوَ مَفْعُولٌ بِفِعْلِ مُقَدَّرٍ.

«فَفَاجَأَتْ»: بِالْمَدِّ وَتَشْدِيدِ الْجِيمِ: فَتَحَتْ مَا بَيْنَ رِجْلَيْهَا لِلْحَلْبِ.

«يُرْبِضُ»: بضم المثناة التحتية فراء ساكنة فَمَوْحَدَةٌ مَكْسُورَةٌ فَضَادٌ مَعْجَمَةٌ. قَالَ فِي

النَّهْيَةِ: أَي يُرْوِيهِمْ وَيُثْقِلُهُمْ حَتَّى يَنَامُوا وَيَمْتَدُوا عَلَى الْأَرْضِ، مِنْ رَبَضٍ فِي الْمَكَانِ يُرْبِضُ إِذَا

لَصِقَ بِهِ وَأَقَامَ مَلَاذِمًا لَهُ، يُقَالُ: أَرَبَضَتْ الشَّمْسُ إِذَا اشْتَدَّ حَرُّهَا حَتَّى تَرِبَضَ الْوَحْشُ فِي

كِنَاسِهَا، أَي تَجْعَلُهَا تُرْبِضُ فِيهِ وَيُرْوَى بِمِثْنَاءِ تَحْتِيَّةٍ بَعْدَ الرَّاءِ: يُرْبِضُ^(٢) الرَّهْطُ أَي يُرْوِيهِمْ مِنْ

(١) الكسر بفتح الكاف وكسرها: الشقة السفلى من الخباء، والكسر أسفل الشقة التي تلي الأرض من الخباء، وكسر أكل كل شيء ناحيته حتى يقال لناحيتي الصحراء كسرها لسان العرب ٣٨٧٣/٥.

(٢) من أراض الوادي واستراض أي امتنع فيه الماء، وكذلك أراض الحوض. ومنه قولهم: شربوا حتى لراضوا أي رروا فنعوا بالري اللسان ١٧٧٥/٣.

أَرَاضَ الْحَوْضِ إِذَا صَبَّ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ مَا يُؤَارِي أَرْضَهُ. وَالرَّؤُوسُ نَحْوُ مِنْ نَصْفِ قِرْبَةٍ.
«الرَّهْطَ»: بسكون الهاء وفتحها: ما دون العشرة من الرجال ليس فيهم امرأة أو منها إلى
الأربعين.

«تَجَاءَ»: أي لبناً سائلاً كثيراً.

«عَلَاةُ الْبِهَاءِ»: أي علا الإناء بهاء اللين وهو بريق رَعْوَتِهِ، وفي رواية: الثَّمَالُ بضم المثلثة
الرَّغْوَةَ.

«الْقَلْلُ»: بفتح العين المهملة ولا مِثْنِ الأُولَى مفتوحة: الشَّرْبُ الثاني.

«النَّهْلُ»^(١) بفتح النون والهاء وتُسَكَّنُ وباللام: الشَّرْبُ الأول.

«غَادِرَةٌ»: بالغين المعجمة: تَرَكَهُ.

«الصَّبُوحُ»: بفتح المهملة وبالموحدة: ما يُشْرَبُ بالغداة فما دون القائلة.

«وَالغَبُوقُ»: بفتح الغين المعجمة: الشرب بالعشي.

«الجِيَالُ»^(٢): جَمْعُ حَائِلٍ وَهِيَ الَّتِي لَمْ تَحْمِلْ.

«عِجَافًا»: بكسر العين المهملة: جمع عَجْفَاءٍ وَهِيَ الْمَهْزُولَةُ مِنَ الْعَنَمِ وَغَيْرِهَا.

«الشَّاءُ» جمع شاة.

«عَازِبٌ»^(٣): بعين مهملة فزاي فموحدة: أي بعيدة المَرَعَى لَا تَأْوِي إِلَى الْمَنْزِلِ فِي

الليل.

«لَا حَلُوبَ فِي الْبَيْتِ»: أي لَا شَاةَ تُحَلَبُ.

«الْوَضَاءَةُ»: بفتح الواو وبالضاد المعجمة والهمزة: الحُشْنُ وَالبَهْجَةُ.

«أَبْلَجُ الْوَجْهِ»: بالموحدة وبجيم: أي مُشْرِفُهُ مُسْفِرُهُ، وَمِنْهُ تَبْلَجُ الصَّبْحِ وَأَبْلَجُ. فَأَمَّا

الْأَبْلَجُ فَهُوَ الَّذِي قَدْ وَضَعَ مَا بَيْنَ حَاجِبِيهِ فَلَمْ يَقْتَرِنَا، وَالاسْمُ الْبَلَجُ بِفَتْحِ اللَّامِ، وَلَمْ تُرْذُ هَذَا أُمَّ
مَعْبَدَ لِأَنَّهَا قَدْ وَصَفَتْهُ فِي حَدِيثِهَا بِالْقَرْنِ.

«الْأَشْفَارُ»: جمع شُفْرٍ بضم الشين المعجمة وقد تُفْتَحُ: وَهُوَ طَرَفُ جَفْنِ الْعَيْنِ الَّذِي

يَنْبُتُ عَلَيْهِ الشُّفْرُ، وَالْمُرَادُ هُنَا الشُّفْرُ النَّابِتُ.

(١) الوسيط ٩٥٩/٢.

(٢) من حالت الناقة تحيل حياً: لم تحمل والواو في ذلك أعرق قال الشاعر:
من سزاة الهجان ضلبيها العظ عر وزغني الجنى وطول الخيال

اللسان ١٠٧٣/٢.

(٣) العازب: البعيد المطلب وأنشد

وعازب نوز في خلأيه

اللسان ٢٩٢٣/٤.

«الْوَطْف»^(١): بفتح الواو والطاء المهملة وبالفاء: الطول، فمعنى الكلام أن في شعر أجفانه طولاً، قال في الإملاء: يُزَوِّي العَطْف والعَطْف بالعين المعجمة والعين المهملة، فمعناه بالمعجمة مثل معنى الوطف، وأما بالمهملة فلا معنى لها، وقد فُشِرَ بعضهم فقال: هو أن تطول أشفار العين حتى تنعطف.

«الدَّعَج»: بفتح الدال والعين المهملتين وبالجميم والدَّعَجَة بِإِسْكَانِ العَيْن: السواد في العين يريد - والله أعلم - أن سواد عينه شديد السواد.

«الصُّخْل»^(٢): بفتح الصاد والحاء المهملتين وباللام: وهو كالبُحَّة وألا يكون حاد الصوت، يقال منه صَحِل الرَّجُلُ بالكسر يَصْحَلُ بالفتح صَحْلًا بفتحَيْن إذا صار أَبَحَ فهو صَحِلٌ وَأَصْحَلٌ.

«وَلَا يَشْنُوهُ»: بالشين المعجمة والنون وقبل هاء الضمير همزة مضمومة: أي لا يبغضه لِقُرْطِ طوله - وَيُزَوِّي لَا يُتَشْنَى من طول، أبدل الهمزة ياءً، يقال شَنَنَتْهُ أَشْنُوهُ شَنًا وَشَنَانًا.

«وَلَا تَقْتَحِمُهُ عَيْنٌ من قِصْر»: أي لا تتجاوزها إلى غيره احتقاراً له، وكل شيءٍ أَزْدَرَيْتَهُ فَقَدْ اقْتَحَمْتَهُ.

«لَمْ تَعِبَهُ نُجْلَةٌ»^(٣): النُّجْلَةُ: بضم الناء المثناة ثم جيم ساكنة ثم لام مفتوحة: هي عِظْمُ البطن وسعته، وَيُزَوِّي بالحاء المهملة والنون أي نحولٌ ودِقَّةٌ.

«لَمْ تُزِرْ بِهِ»: أي لم تُقْصِرْ.

«صَغْلَةٌ»: بفتح الصاد وإسكان العين المهملتين، والصَّغْلَةُ^(٤) صِغْرُ الرَّأْسِ وهي أيضاً الدَّقَّةُ والنحول في البدن. وفي رواية: لم تُزِرْ صُغْلَةٌ بالقاف أي دِقَّةٌ ونحولٌ وقيل: أرادت أنه لم يكن مُنْتَفِخَ الخَاصِرَةِ جِدًّا ولا نَاحِلًا جِدًّا، وَيُزَوِّي بالسین على الإبدال من الصاد. قال أبو ذرَّ الحُشَيْبِيُّ: الصُّغْلَةُ جِلْدَةُ الخَاصِرَةِ تريد أنه ناعم الجسم ضامر الخَاصِرَةِ وهو من الأوصاف الحسنة.

«الهاتف»: الصائح.

«أَبُو قُبَيْسٍ»: بضم القاف وفتح الموحدة فمشناة تحتية ساكنة: جَبَلٌ بِمَكَّةَ معروفٌ سُمِّيَ

(١) كثرة شعر الحاجبين والعيون والأشعار مع اشتراطها وطول، وقد يكون ذلك في الأذن، رَجُلٌ أَوْطَفَ بَيْنَ الوَطْفِ وَاشْرَاءِ وَطَفَاءٍ إِذَا كَانَ كَثِيرِي شَعْرٍ أَهْدَابِ العَيْنِ. لسان العرب ٤٨٦٨/٦.

(٢) انظر اللسان ٢٤٠٥/٤.

(٣) من نُجِلَ نُجْلًا عَظِمَ بَطْنُهُ وَاسْتَرَخَى فَهُوَ أُنْجِلٌ وَهِيَ نُجْلَاءُ جَمْعُهَا نُجْلٌ. انظر المعجم الوسيط ٩٤/١.

(٤) الصعل والأصل: الدقيق الرأس، والعنق، والأُنَى صَعْلَةٌ وَصَمْلَاءُ. انظر اللسان ٢٤٥١/٤.

باسم رجل من مذحج حَدَادَ لَأنه أول مَنْ بَنَى فِيه. وكان أبو قُبَيْسِ الجبل هذا يسمي الأمين لأن الركن أي الحجر الأسود كان مستودعاً فيه.

«قَالَ»: من القيلولة وهي نصف النهار.

«الهُذِي»: بفتح الهاء وإسكان الدال المهملة: والهُذِي الطريق، ولا يصح ضمها للوزن، ويعني بالطريق الطريق الموصلة إلى الجنة.

«قُصِي»: بضم القاف وفتح الصاد المهملة وتشديد التحتية: تقدم الكلام عليه في النسب.

«مَا زَوَى»^(١): بفتح الزاي والواو: أي جَمَعَ وَقَبَضَ.

«مَنْ فَعَالَ»: الظاهر أنه بفتح الفاء وتخفيف العين وهو الكَرَم، ويجوز أن يكون بكسر الفاء جمعاً.

«لَا يُجَازِي»: بالراء وفي رواية: يُجَازِي بالزاي.

«السُّودَدَ»: بضم السين وإسكان الواو، يقال سَادَ قَوْمَهُ سِيَادَةً وَسُودَدًا وهو مصدر.

«الصَّرِيحَ»: بالصاد والحاء المهملتين: وهو اللَّبَنُ الخالص الذي لم يُعْمَدَق.

«الضَّرَّة»^(٢): بفتح الضاد المعجمة وتشديد الراء والمثناة الفوقية: أصل الضَّرْع.

«مُزْبِدَ»: بضم الميم وإسكان الزاي فموحدة مكسورة فدال مهملة: أي علاه الزَّبِيد.

«غَادِرَهَا»: بالغين المعجمة والدال المهملة: تركها..

«فِي مَضْدَرٍ ثُمَّ مَوْرِدَ»: أي يحلبها مرة ثم أخرى.

شرح شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه

«قُدْسَ»: بضم القاف وكسر الدال المهملة المشددة وبالسین المهملة مبني للمفعول

أي طَهَّرَ.

«يَرْشُدَ»: بضم الشين المعجمة وفتحها كَنَصَرَ يَنْصُرُ وَفَرِحَ يَفْرَحُ، والمصدر رُشْدًا وَرَشْدًا وَرَشَادًا: أي يهتدي.

«بِأَسْعُدَ»: بضم العين، جمع سَعْدٍ جمع قَلَّةٍ.

(١) زوا: قبضه قال الأعشى:

يزيد بغض الطرف عندي كأنما زوى بين عينيه على المحاجم

اللسان ١٨٩٤/٣.

(٢) انظر المعجم الوسيط ٥٣٨/١.

«سَعَادَةٌ»: بالرفع: فاعل يَهْتَأُ، وأبو بكر مفعوله.

«جَدُّه»^(١): بفتح الجيم وهو حظه.

«مَنْ يُسْعِدِ اللهُ يُسْعِدِ»: يجوز أن يكون مبنياً للفاعل ولللمفعول أيضاً.

«عُظْمُ الْحَيِّ»: بضم أوله وسكون ثانيه أي أكثره.

«الْقِرَى»: بكسر القاف.

«مُتَنَحِّيًا»: مُتَفَرِّدًا.

«الشُّفْرَةُ»: بفتح الشين المعجمة وسكون الفاء وفتح الراء: المُدْيَةُ وهي السُّكَيْنُ العريض والجمع شِفَارٌ مثل كَلْبَةٍ وكَلَابٍ وشَفْرَاتٌ مثل سَجْدَةٍ وسَجْدَاتٍ.

«الْجَلْبُ»^(٢): بفتح الجيم واللام: ما يُجَلَّبُ من بلدٍ إلى بلد.

«الْأَقِطُ»: ككَتِفٍ وَيُسَكِّنُ مُثَلَّثُ الهمزة: شيءٌ يُتَّخَذُ من اللبن المَخِيضِ، قال ابن الأعرابي: من ألبان الغنم خاصةً.

شرح قصة سراقه بن مالك رضي الله عنه

«مُدْلِجٌ»: بضم الميم.

«أَسْوَدَةٌ»: جمع سَوَادٍ وهو الشخص.

«رَكْبَةٌ»: بفتح الراء والكاف: أقلُّ من الرُّكْبِ وهو عشرة فما فوقها وهم أصحاب الإبل، والأزْكُوبُ أكثر من الرُّكْبِ والرُّكْبَانُ الجماعة منهم.

«أَرَاهَا»: بضم الهمزة: أي أظنُّها.

«الْأَكْمَةُ»: بفتح الهمزة والكاف والميم: الرأبِية.

«فَخَطَطْتُ بِهِ» بالخاء المعجمة وفي رواية: بالخاء المهملة أي أمسكت بأعلاه وجعلتُ أسفله في [الأرض].

«الرُّجُحُ»^(٣): بضم الزاي بعدها جيم: الحديدية التي في أسفل الرُّمَحِ.

«خَفَضْتُ عَلَيْهِ»: أي أمسكه بيده وجرُّ رُمَحِهِ لئلا يظهر بريقه لمن بُعد منه، لأنه كره أن يُتَّبِعَهُ منهم أحدٌ فيشركه في الجعالة.

(١) الجد: البخت والحظوة، والحظ والرزق. اللسان ٥٦٠/١.

(٢) من جلب الشيء جلباً أي اجتمع، وجلب الشيء ساقه من موضع إلى آخر فهو جالب وجلاب وفي المثل: رب أمنية جلبت منية. الوسيط ١٢٨/١.

(٣) زججت الرمح زججا من باب قتل جعلت له زجاً وزججت الرجل زجاً طعنته بالزج. المصباح المنير ص ٢٥١.

«دَفَعْتُهَا»: بتخفيف الفاء يقال: دَفَعَ الفَرَسَ في السَّيْرِ إذا بالغ ودَفَعَهُ يَتَعَدَّى ولا يَتَعَدَّى.
«تُقَرَّبُ بي»: التقريب السَّيْرِ دون العَدْوِ وفوق العادة وقيل أن ترفع الفرسُ يَدِيهَا معاً وتضعهما معاً.

«أَهْوَيْتُ» بيدي: بَسَطْتُهَا لِلأَخْذِ.

«الِكِنَانة»: بكسر الكاف: الخريطة المستطيلة التي يجعل فيها السهام.

«الأزلام»: واحدها زلم بفتحيتين وبفتحة فَضْمَةٌ وهو القِدْحُ واجدُ القِدَاحِ بكسر القاف وهو عيدان السهام قبل أن تُرَاشَ ويركب فيها النُصَالُ، فإذا فُعلَ ذلك فهي سِهَامٌ. وكان أهل الجاهلية يَشْتَقِسُونَ بها مكتوبٌ عليها الأمر والنهي أي: إِفْعَلْ: لا تَفْعَلْ، فما خَرَجَ منها عَمِلُوا به. والاستقسام بها هو الضَرْبُ بها لإخراج ما قَسَمَ الله لهم من أمر وغيره بِرِشْمِهِمْ. قال الحافظ أبو العباس تقي الدين الحرَّاني: «إن القُرْعَةَ التي مع الطرقية التي فيها ا ب ج د من الأزلام، ونقل ذلك عن أبي جعفر النَّحَّاسِ.

«سَاخَتْ»^(١): بسين مهملة فألف فحاء معجمة: أي غاصت.

«ارتطمت به»: أي سَاخَتْ قَوَائِمُهَا في الأرض.

«عُثَانَ»: بضم العين المهملة والطاء المثناة المخففة: شبه الدُّخَانَ.

«أن سيظهر»: مرفوع، و «أن» قبله مُخَفَّفَةٌ من الثقيلة وتقديره: سيظهر.

«فلم يَزْزَأْنِي»: براء فزاي: لم يُنْقِصَانِي مما معي شيئاً.

«أَخْفِ عَنَّا»^(٢): بفتح الهمزة.

«قُدَيْدٌ»: بضم القاف وفتح الدال المهملة ثم مثناة تحتية ساكنة فداًل مهملة أخرى،

موضع بين مكة والمدينة.

«بِمِجْنِ»^(٣): بكسر الميم وفتح الجيم وتشديد النون: الثُّوسُ سُمِّيَ بِمِجْنًا لأنه يوارى

حامله أي يستره.

(١) انظر المصباح الحنبر ٢٩٤.

(٢) أخف عتاً: أي اسر الخبير ليقر سالك عتاً. انظر النهاية ٥٧/٢.

(٣) انظر المعجم الوسيط ١٣٧/١، ١٤١.

الباب الخامس

في تلقي أهل المدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزوله بقباء وتأسيس مسجد قباء

روى البخاري عن عائشة، وابن سعد عن عبد الرحمن بن عوف بن ساعدة عن جماعة من الصحابة أن المسلمين بالمدينة لما سمعوا بـمُخْرَجِ رسول الله ﷺ من مكة وتَوَكَّفُوا قُدُومَهُ كانوا يخرجون إذا صَلُّوا الصُّبْحَ إلى ظاهِرِ الحَرَّةِ ينتظرونه حتى تغلبهم الشمس على الظلال، ويؤذيتهم حرُّ الظهيرة. فإذا لم يجدوا ظلاً دخلوا، وذلك في أيام حارَّة حتى كان اليوم الذي قَدِمَ فيه رسول الله ﷺ حين دخلوا البيوت فأَوْفَى رجل من اليهود على أُطْمٍ من أطامهم لأمر ينظر إليه، فَبَصُرَ برسول الله ﷺ وأصحابه مُبَيَّضِينَ، يلوح بهم الشَّرَابُ، فلم يَمْلِكِ اليهودي نَفْسَهُ فصرخ بأعلى صوته: «يا بني قَيْلَةَ»، وفي لفظ: يا مَعْشَرَ العرب، «هذا جدُّكم»، وفي لفظ: هذا صاحبكم الذي تنتظرون، «قد جاء». فثار المسلمون إلى السلاح، فَتَلَقَّوْا رسولَ الله ﷺ بظَهْرِ الحَرَّةِ وذلك يوم الاثنين لشهر ربيع الأول، فخرجوا إلى رسول الله ﷺ وهو في ظِلِّ نَخْلَةٍ ومعه أبو بكر في مثل سِنِّهِ. وقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامِتاً، فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنَ الأنصارِ مَنْ لَمْ يَرِ رسولَ الله ﷺ يُحَيِّي أبا بكر حتى أصابت الشمس رسولَ الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظَلَّلَ عليه بردائه فعرف الناس رسولَ الله عند ذلك.

وفي رواية: «فلما رَأَوْا أبا بكر ينحاز له عن الظِّلِّ عرفوا رسولَ الله ﷺ فَعَدَلُ بِهِمْ رسولُ الله ﷺ ذات اليمين حتى نزل بهم عُلوَّ المدينة بقباء في بني عمرو بن عوف على كلثوم بن الهذم بكسر الهاء وسكون الدال المهملة، قيل: «وكان يومئذ مشركاً، وبه جَزَمَ محمد بن الحسن بن زبالة»، وقيل: «إنما نَزَلَ على سَعْدِ بنِ خَيْثَمَةَ». قال رَزِين: «والأولُ أَصَحُّ» وقال الحاكم إنه الأَوْجَحُ، [قال]: «وقد قاله ابنُ شهاب وهو أعزف بذلك من غيره» وقال الدمياطي: «إنه أثبت». وقال بعضهم «إن رسولَ الله ﷺ نزل على كلثوم بن الهذم وكان يخرج للناس من منزله فيجلس للناس في بيت سعد بن خَيْثَمَةَ لأنه كان عَزَباً لا أهل له هناك وكان مَبْتَزِلُ العُرَابِ من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين فمن هنالك يقال: نزل على سعد بن خَيْثَمَةَ. ونزل أبو بكر على حُبَيْبِ بنِ إِسَافٍ^(١) أحد بني الحارث بالشُّنْحِ - بسين مهملة مضمومة فنون ساكنة فحاء مهملة. ويُقال: على خارجة بن زيد بن أبي زهير أخي بني الحارث بن الخزرج».

(١) حبيب بن إساف، وقيل: إساف، ابن عتبة بن عمرو بن خديج بن عامر بن جشم بن الحارث بن الخزرج بن ثعلبة، الأنصاري الخزرجي، شهد بدرًا وأحدًا والخندق، وكان نازلاً بالمدينة وتأخر إسلامه حتى سار النبي ﷺ إلى بدر فلاحق النبي ﷺ في الطريق فأسلم أسد الغابة ١١٨/٢.

وروى الزبير بن بكار عن عبد الله بن حارثة قال: «نزل رسول الله ﷺ على كلثوم بن الهمدم، فصاح كلثوم بغلام له فقال: يا بُحَيْح. فقال رسول الله ﷺ: «أَنْجَحْتِ يَا أَبَا بَكْرٍ وَأَقَامَ عَلِيٌّ بِنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِمَكَّةَ بَعْدَ مَخْرَجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَيَّاماً. قَالَ بَعْضُهُمْ: ثَلَاثَةٌ. حَتَّى أَذَى لِلنَّاسِ وَدَائِعُهُمُ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخَلَفَهُ لِيَرُدَّهَا، ثُمَّ خَرَجَ فَلَحِقَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِقُبَاءَ فَنَزَلَ عَلَيَّ كُلثوم بن الهمدم.

وقال علي في ما رواه ابن إسحاق ورزين: «كنتُ نزلتُ بقباء وكانت امرأة مسلمة لا زوج لها، فرأيت إنساناً يأتيها من جوف الليل فيضرب عليها بابها، فتخرج إليه فيعطيه شيئاً معه فتأخذه فاشترتُ شأنه، فقلت لها: يا أمة الله، من هذا الرجل الذي يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه فيعطيك شيئاً لا أدري ما هو، وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك؟ قالت: هذا سهل بن حنيف، قد عرف أنني امرأة لا أحد لي، فإذا أمسى عدا علي أوثان قومه فكسرها ثم جاءني بها. فقال: اختطبي بها، فكان علي يأتُر ذلك من أمر سهل بن حنيف حين هلك عنده بالعراق.

وكان لكلثوم بن الهمدم مزبد، والمزبد الموضع الذي يُنسط فيه الثمر ليحفظ، فأخذه منه رسول الله ﷺ فأسسه وبناه مسجداً. وفي الصحيح عن عروة: «فليت في بني عمرو بن عوف وأسس المسجد الذي أسس على التقوى». وفي رواية عبد الرزاق عنه قال: «الذين بنى فيهم المسجد الذي أسس على التقوى هم بنو عمرو بن عوف وكذا عند ابن عائد ولفظه: «وَمَكَتْ فِي بَنِي عَمْرٍو بِنِ عَوْفٍ ثَلَاثَ لَيَالٍ وَأَتَّخَذَ مَكَانَهُ مَسْجِداً فَكَانَ يَصَلِّي فِيهِ ثُمَّ بَنَاهُ بَنُو عَمْرٍو بِنِ عَوْفٍ فَهُوَ الَّذِي أُسِّسَ عَلَيَّ التَّقْوَى».

وروى يونس بن بكير في زيادات المغازي عن المسعودي عن الحكم بن عتيبة - بضم العين المهملة وفتح الفوقية وسكون التحتية وبالموحدة - قال: لما قدم النبي ﷺ فنزل بقباء قال عمار بن ياسر: «ما لرسول الله ﷺ بُدَّ من أن يجعل له مكاناً يشتغل به إذا استيقظ ويصلي فيه». فجمع حجارة فبنى مسجداً قباء فهو أول من بنى مسجداً. روى الحافظ والسيد - يعني لعامة المسلمين أو للنبي ﷺ بالمدينة، وهو في التحقيق أول مسجد صلى فيه بأصحابه جماعة ظاهراً، وإن كان قد بُني غيره من المساجد، فقد روى ابن أبي شيبة عن جابر رضي الله عنه قال: لقد لبنا بالمدينة قبل أن يقدم علينا النبي ﷺ سنتين نعلم المساجد ونقيم الصلاة، ولذا قيل: كان المتقدمون في الهجرة من أصحاب رسول الله ﷺ والأنصار بقباء قد بنوا مسجداً يصلون فيه، يعني هذا المسجد، فلما هاجر رسول الله ﷺ، وورد قباء صلى بهم فيه إلى بيت المقدس، ولم يُحدث فيه شيئاً أي في أول الأمر لأن ابن شبة - بالشين المعجمة

والمؤخدة المُشدّدة المفتوحَتَيْن - روى ذلك، ثم روى أن النبي ﷺ بنى مسجد قُباء، وقَدَّمَ القِبْلَةَ إلى موضعها اليوم وقال: «جبريل يؤمُّ بي البيت»^(١).

وروى الطبراني عن جابر بن سَمُرَةَ رضي الله عنه قال: لما سأل أهل قُباء النَّبِيَّ ﷺ أن يبنى لهم مسجداً قال رسول الله ﷺ: لِيَتَّقُمْ بعضُكم فيركب الناقة، فقام أبو بكر رضي الله عنه فَرَكَبَهَا فحزَّ كُفَّهَا فلم تنبعث فرجع فقعد فقام عُمر رضي الله عنه فركبها فلم تنبعث فرجع فقعد فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لِيَتَّقُمْ بعضُكم فيركب الناقة»، فقام عَلِيُّ رضي الله عنه، فلما وَضَعَ رِجْلَهُ فِي عَزْزِ الرُّكَّابِ وَثَبَتْ بِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَزِخْ زَمَامَهَا وَابْتُوا عَلَى مَدَارِهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ». وروى الطبراني: بِسَنَدٍ رَجَالُهُ ثِقَاتٌ عَنِ الشُّمُوسِ - بفتح الشين المعجمة - بنت النعمان رضي الله عنها قالت: «نظرتُ إلى رسول الله ﷺ حين قَدِمَ وَنَزَلَ وَأَسَّسَ هَذَا الْمَسْجِدَ: مَسْجِدَ قُبَاءَ، فَرَأَيْتُهُ يَأْخُذُ الْحَجَرَ أَوْ الصُّخْرَةَ حَتَّى يَهْصِرَهُ الْحَجَرُ، وَأَنْظَرَ إِلَى بِياضِ التُّرَابِ عَلَى بَطْنِهِ أَوْ سُرَّتِهِ فَيَأْتِي الرَّجُلَ مِنْ أَصْحَابِهِ وَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي اعْطِنِي أَكْفِكَ، فَيَقُولُ: «لَا تُخَذُ مِثْلَهُ»، حَتَّى أَسَّسَهُ، وَيَقُولُ: «إِنْ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ يَوْمَ الْكَعْبَةِ» قَالَتْ: فَكَانَ يُقَالُ: إِنَّهُ أَقْوَمُ مَسْجِدٍ قِبْلَةً.

قال السيد: «قد صحَّ أنه ﷺ كان يستقبل بيت المقدس حتى تُسَيِّخَ ذلك وجاء نقباؤهم في صلاة الصبح فأخبرهم وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة، فيُحْتَمَلُ أن جبريل عليه السلام كان يؤمُّ [به] البيت لِئَسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى جِهَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لِتَقَابُلِ الْجِهَتَيْنِ وَيُعَلِّمَهُ بِمَا يُؤُولُ إِلَيْهِ الْأَمْرُ مِنْ اسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ. أَوْ أَنَّهُ ﷺ كَانَ مُخَيَّرًا فِي ابْتِدَاءِ الْهَجْرَةِ فِي التَّوَجُّهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَوْ إِلَى الْكَعْبَةِ، كَمَا قَالَ الرَّبِيعُ، فَأَمَّ بِهِ جَبْرِيلُ الْبَيْتَ لِذَلِكَ، وَاخْتِيَارُهُ الصَّلَاةَ لِبَيْتِ الْمَقْدِسِ أَوْلَى لِاسْتِمَالَةِ الْيَهُودِ أَوْ أَنَّ اسْتِقْبَالَ الْكَعْبَةِ كَانَ مُشْرُوعًا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ثُمَّ تُسَيِّخُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ ثُمَّ تُسَيِّخُ بِالْكَعْبَةِ كَمَا قَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ وَغَيْرُهُ مِنْ أَنَّ الْقِبْلَةَ تُسَيِّخُ مَرَّتَيْنِ، أَوْ أَنَّ ذَلِكَ تَأْسِيسٌ آخَرَ غَيْرَ التَّأْسِيسِ الْأَوَّلِ. وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا مَا قَدَّمَاهُ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ شَيْبَةَ».

وروى ابن شَيْبَةَ أَيضاً أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رِوَاحَةَ كَانَ يَقُولُ وَهُوَ يَنْوِنُ فِي مَسْجِدِ قُبَاءَ: «أَقْلَعُ مَنْ يَغْمُرُ الْمَسَاجِدَ»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمَسَاجِدَ»، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَائِماً وَقَاعِداً»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَقَاعِداً» فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «وَلَا يَبِيتُ اللَّيْلَ عَنْهُ رَاقِداً»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَاقِداً».

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٥/٢/١.

تنبيهات

الأول: اختلف في قدر إقامته في بني عمرو بن عوف، ففي الصحيح عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير أنه ﷺ لبث فيهم بضع عشرة ليلة. وفيه عن أنس أنه أقام فيهم أربع عشرة ليلة، وقدمه في الإشارة، وقيل: خمس ليال قاله ابن إسحاق. وقال ابن جبان: أقام بها الثلاثاء والأربعاء والخميس، يعني وخرج يوم الجمعة فلم يعتد بيوم الخروج. وقال ابن عباس وابن عتبة: ثلاث ليل، فكأنهما لم يعتدا بيومي الخروج ولا الدخول. وعن قوم من بني عمرو بن عوف أنه أقام فيهم اثنين وعشرين يوماً.

الثاني: المعتقد أنه ﷺ دخل قباء يوم الاثنين كما في الصحيح، قال ابن عتبة: لهلال ربيع الأول أي أول يوم منه، وفي رواية جرير بن حازم عن ابن إسحاق قدمها لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول، وفي رواية إبراهيم بن سعد عن ابن إسحاق: قدمها لائنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، وعند أبي سعيد في شرف المصطفى من طريق أبي بكر بن حزم قال: قدم المدينة لثلاث عشرة من ربيع الأول، وهذا يُجمع بينه وبين الذي قبله بالحمل على الاختلاف في رؤية الهلال.

الثالث: قال الحافظ: الأكثر أنه قدم نهاراً، ووقع في رواية مسلم ليلاً ويُجمع بأن القوم كان آخر الليل فدخل نهاراً.

الرابع: في بيان غريب ما سبق:

«تَوَكَّفُوا»: انتظروا.

«الظهيرة»: بفتح الظاء المعجمة وكسر الهاء بعدها مثناة تحتية: وهي نصف النهار.

«أوفى»: طلع إلى مكانٍ عالٍ.

«الأطم»^(١): بضم أوله وثانيه وهو الحِضْن، ويقال: بناء من حجارة كالأقصر.

«مُبَيِّضِينَ»: أي عليهم الثياب البيض التي كساهم إياها الزبير أو طلحة.

«يزول بهم»: أي يرفعهم ويُظهرهم.

«الشراب»: الذي يكون نصف النهار لا طمًا بالأرض كأنه ماء.

«قَيْلَةٌ»: بفتح القاف وسكون التحتية: الجدة الكبرى للأنصار.

(١) الأطم: حصن بني حجارة، وقيل: هو كل بيت مربع مسطح والجمع القليل أطام قال الأعشى:

فإذا أتت أطام جؤ وأهله أبيضت فألقت زحلها بفنائكا

والكثير أطوم: وهي حصون لأهل المدينة. اللسان ٩٣/١.

«جُدُّكُمْ»: بفتح الجيم: أي حَظُّكُمْ وصاحب دولتكم الذي تَتَوَقَّعُونَهُ.

«عَلْفِقُ»: بكسر الفاء وفتحها: أي جَعَلَ.

«انحاز»، بالحاء المهملة والزاي: مال.

«جَوْفُ اللَّيْلِ»: وَسَطُهُ.

«اشْتَرَبْتُ شَأْنَهُ»: أي شَكَّكْتُ فِيهِ.

«يَأْتِرُ ذَلِكَ»: أي يُحَدِّثُ بِهِ.

«يَهْصِرُهُ»^(١): مُيْبِلُهُ.

«يَوْمٌ»: بفتح المشناة التحتية بعدها همزة مضمومة: أي يقصد.

«الْعَرَزُ»: بغير معجمة مفتوحة فراء ساكنة فزاي: أي ركاب الإبل.

(١) اللسان ٤٦٧٠/٦.

الباب السادس

في قدومه صلى الله عليه وسلم باطن المدينة وما آلت إليه
وفرح أهل المدينة برسول الله صلى الله عليه وسلم

روى الإمام أحمد والشيخان عن أبي بكر، وسعيد بن منصور عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم والبيهقي عن موسى بن عُقبة، وابن إسحاق عن عويم بن ساعدة، ويحيى بن الحسن عن عمارة بن خزيمة أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يدخل المدينة أرسل إلى بني النجار، وكانوا أخواله لأن أم عبد المطلب منهم كما تقدم في باب النسب. فجاؤوا متقلدين السيوف، فقالوا لرسول الله ﷺ ولأصحابه: «ازكبوا آمنين مُطَاعِينَ». وكان اليوم يوم الجمعة فلما ارتفع النهار دعا رسول الله ﷺ براحلته وحشيد المسلمون وليسوا السلاح، وركب رسول الله ﷺ ناقته القُصواء والناس معه عن يمينه وعن شماله وخلفه منهم المشي والراكب فاجتمعت بنو عمرو بن عَوْف فقالوا: يا رسول الله أخرجت ملائلاً لنا أم تريد داراً خيراً من دارنا؟ قال: «إني أُمِرْتُ بقرية تأكل القرى فخلوها - أي ناقته - فإنها مأمورة»، فخرج رسول الله ﷺ من قُبَاء يريد المدينة فتلَقاه الناس فخرجوا في الطرق وعلى الأباعر وصار الخدم والصبيان يقولون: «الله أكبر، جاءنا رسول الله جاء محمد» قال أنس فيما رواه البيهقي: «إني لأسعى مع الغلمان إذ قالوا: محمد جاء فننطلق فلا نرى شيئاً، حتى أقبل وصاحبه أبو بكر فكمننا في بعض جذر المدينة وبعثنا رجلاً من أهل البادية ليؤذن بهما الأنصار فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار، حتى انتهوا إليهما فقالت الأنصار: انطلقا آمنين مُطَاعِينَ. فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهم، فخرج أهل المدينة حتى أن العواتق لفوق البيوت يتراءينه يقلن: أيهم هو؟ أيهم هو؟ فما رأينا منظرًا شبيهاً به يومئذ.

روى الإمام أحمد وأبو داود عن أنس رضي الله عنه أنه قال: «لما قدم رسول الله ﷺ وسلم المدينة لعبت الحبشة بحرابها فرحاً بقدومه». وروى البيهقي ورزين عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جعل النساء والصبيان والولائد يقلن:

طَلَعَ الْبَسْدُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنِيَاتِ الْوَدَاعِ

وَجَبَّ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا لِه دَاعٍ^(١)

زاد رزين:

أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ فِينَا جِئْتَ بِالْأَمْرِ الْمُطَاعِ

(١) انظر البداية والنهاية ١٩٧/٣.

وروى البخاري عن البراء رضي الله عنه أنه قال: «ما رأيتُ أهلَ المدينة فرِحوا بشيء فرَحَهُم برسول الله ﷺ». وروى ابن ماجه عن أنس رضي الله عنه أنه قال: «لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كلُّ شيء». وروى ابن أبي خيثمة رضي الله عنه قال: «شهدتُ يوم دخل رسول الله ﷺ المدينة فلم أر يوماً أحسنَ منه ولا أضوأ».

فلم يَمُرَّ رسول الله ﷺ بدار من دور الأنصار إلا قالوا: «هَلُمَّ يا رسول الله إلى العِزِّ والَمَنَّةِ والثروة». فيقول لهم خيراً ويدعوا أو يقول: «إنها مأمورة خَلُّوا سبيلها»، فَمَرَّ بيني سالم فقام إليه عِثبان - بكسر العين المهملة - ابن مالك، وتوفَّل بن عبد الله بن مالك بن العَجَلان، وهو آخِذٌ بِرِمامِ راحلته، فقال: «يا رسول الله انزِلْ فينا فإن فينا العَدَدَ والعشيرة والحَلَقَةَ، ونحن أصحاب الفضاء والحداثق والدَّرَكِ، يا رسول الله قد كان الرجل من العرب يدخل هذه البَحْرَةَ خائفاً فيلجأ إلينا فنقول له: «قَوِّلْ حيث شئت». فجعل رسول الله ﷺ يَتَبَسَّمُ ويقول: «خَلُّوا سبيلها فإنها مأمورة»^(١)، فقام إليه عُبادَةُ بن الصامت، وعباس بن عُبادَةَ بن نَضْلَةَ بن مالك بن العَجَلان، فجعلوا يقولون: «يا رسول الله انزِلْ فينا»، فيقول النبي ﷺ: «بَارَكَ اللهُ عليكم إنها مأمورة».

فلما أتى مسجد بني سالم وهو المسجد الذي في الوادي: وادي رانونا، أدركته الجمعة هناك فَصَلَّاهَا فيه وكانت أول جُمُعَةٍ صَلَّاهَا في المدينة، وقيل إنه كان يُصَلِّي الجُمُعَةَ بمسجد قُبَاء، وعند ابن سعد أنه صلى معه الجمعة مائة نفس، ثم أخذ رسول الله ﷺ عن يمين الطريق [حتى جاء بنو الحُبَلَى]، فأراد أن ينزل على عبد الله بن أبي [بن سلول]، وهو يومئذ سيِّد الخزرج في أنفسها فقال: اذْهَبْ إلى الذين دعوك فانزِل عليهم. فقال سعد بن عُبادَةَ: «لا تجِدْ يا رسول الله في نفسك من قوله، فقد قَدِمْتَ علينا والخزرج تريد أن تُمَلِّكَ عليها، فلما رَدَّ اللهُ ذلك بالحق الذي أعطاك شَرِيقَ بذلك ولكن هذه داري، ذكره موسى بن عُقْبَةَ ورَزِين. قال السيد: «الذي في الصحيح ذَكَرُ سعد بن عُبادَةَ لذلك في قصة عيادته ﷺ له من مَرَضٍ بعد سُكْنَاهُ بالمدينة». قُلْتُ: وَيُحْتَمَلُ أن سَعْدًا قال ذلك مَرَّتَيْنِ، والله أعلم.

فَمَرَّ رسولُ الله ﷺ ببني ساعدة فقال له سعد بن عُبادَةَ، والمُنْذِر بن عَمْرُو، وأبو دُجَانَةَ: «هَلُمَّ يا رسول الله إلى العِزِّ والثروة والقوة والجَلَدِ»، وسَعْدٌ يقول: «يا رسول الله ليس من قومي رَجُلٌ أَكْثَرَ عَدِيْقًا ولا فَمٍ بِمِني مع الثروة والجَلَدِ والعدد فيقول رسول الله ﷺ: «يا أبا ثابت خَلِّ سبيلها فإنها مأمورة». فمضى واعترضه سَعْدُ بن الرَبِيع، وعبد الله بن زَوَاحَةَ، وبشير بن سعد، فقالوا: «يا رسول الله لا تُجَاوِزْنَا فإننا أهلُ عَدَدٍ وثروة وحَلَقَةَ»، قال: «بارك الله

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/١٦٠.

فيكم، خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ»، واعترضه زياد بن لبيد، وفروة بن عمرو، من بني بياضة، فقالوا: «يا رسول الله هَلُمَّ إِلَى الْمَوَاسِيَةِ وَالْعِزِّ وَالثَّرْوَةِ وَالْعَدَدِ وَالْقُوَّةِ، نَحْنُ أَهْلُ الدَّرِكِ يَا رَسُولَ اللَّهِ»، فقال رسول الله: «خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ». وفي حديث البراء فقال: «إني أنزل على أخوال عبد المطلب أكرمهم بذلك». ثم مرَّ بيني وبين عدي بن النُّجَّار وهم أخواله فقام أبو سَلِيْطٍ وصِرْمَةُ بن أبي أَنَسٍ في قومهما فقالا: «يا رسول الله نَحْنُ أَخْوَالُكَ هَلُمَّ إِلَى الْعَدَدِ وَالْمَنْعَةِ وَالْقُوَّةِ مَعَ الْقَرَابَةِ، لَا تُجَاوِزْنَا إِلَى غَيْرِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِنَا أَوْلَى بِكَ مِنَّا لِقَرَابَتِنَا بِكَ». فقال رسول الله ﷺ: «خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ».

فسار حتى إذا أتت دار بني عدي بن النُّجَّار قامت إليه وجوههم، ثم مضى حتى انتهى إلى باب المسجد، فَبَرَكَتْ راحلته على باب مسجده ﷺ وذكر الأَقْشَهْرِيُّ في روضته عن ابن نافع صاحب مالك في أثناء كلام نقله عن مالك أن «ناقته ﷺ لما أتت موضع مسجده بركت وهو عليها وأخذه الذي كان يأخذه عند الوُحْيِ». ثم وثبت فسارت غير بعيد، ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يشيها به، ثم التفت خلفها فرجعت إلى مَبْرَكِهَا أول مرة، فبركت فيه ثم تلحلت وأززمت، ووضعت جرائنها. وجعل جبار بن صخر ينخسها رجاء أن تقوم فتنزل في دار بني سَلَمَةَ فلم تفعل. فنزل رسول الله ﷺ عنها وقال: «هنا المنزل إن شاء الله» ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [المؤمنون ٢٩] وجاء أبو أيوب فكلّموه في النزول عليهم فقال رسول الله ﷺ: «أَيُّ بَيْوتِ أَهْلِنَا أَقْرَبُ؟» فقال أبو أيوب: «أنا يا نبي الله، هذه داري وهذا بابي وقد حَطَطْنَا رَحْلَكَ فِيهَا. قال: «فَانْطَلِقْ فَهَيْئًا لَنَا مَقِيلًا»^(١)، فذهب فهَيَّأَ لهما مَقِيلًا. وروى الطبراني عن عبد الله بن الزبير أنه كان هناك عَرِيشٌ يَرُشُونَهُ وَيَعْمُرُونَهُ وَيَبْتَدُونَ فِيهِ حَتَّى نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ راحلته فَأَوَى إِلَى الظِّلِّ فَنَزَلَ فِيهِ فَأَتَاهُ أَبُو أَيُوبَ الْأَنْصَارِيُّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْزِلِي أَقْرَبَ الْمَنَازِلِ إِلَيْهِ فَاَنْقُلْ رَحْلَكَ. قال: «نعم»، فذهب بِرَحْلِهِ إِلَى الْمَنْزِلِ، فَأَتَاهُ آخِرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْزِلْ عَلَيَّ، فقال رسول الله ﷺ: «الْمَرْءُ مَعَ رَحْلِهِ حَيْثُ كَانَ»، فَصَصَّتْ مَثَلًا فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَنْزِلِ أَبِي أَيُوبَ وَقَرَأَ قِرَاءَهُ وَأَطْمَأَنَّتْ دَارُهُ وَنَزَلَ مَعَهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ^(٢).

وذكر ابن سعد أن أسعد بن زُرَّارَةَ أَخَذَ بِزِمَامِ الثَّاقَةِ فَكَانَتْ عِنْدَهُ. وَعِنْدَ عَائِدِ وَسَعِيدِ بْنِ مَنْصُورٍ أَنَّ نَاقَتَهُ اسْتَنَاحَتْ بِهِ أَوَّلًا فَجَاءَهُ نَاسٌ فَقَالُوا: الْمَنْزِلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «دَعُوها»، فَانْبَعَثَتْ حَتَّى اسْتَنَاحَتْ عِنْدَ مَوْضِعِ الْمَنْبَرِ مِنَ الْمَسْجِدِ ثُمَّ تَلَحَّحَتْ فَنَزَلَ عَنْهَا فَأَتَاهُ أَبُو أَيُوبَ

(١) أخرجه البخاري ٨٠/٥ والبيهقي في الدلائل ٢٤٩/٢ وأبو نعيم في الدلائل (١١٤).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١٦٠/١/١.

فقال: منزلي أقرب المنازل فائذن لي أن أنقل رَحْلَكَ. قال: «نعم»، فنقل رَحْلَهُ وَأَنَاخَ الناقَةَ في منزله.

وروى الحاكم وأبو سعيد النيسابوري أن رسول الله ﷺ لما نزل على أبي أيوب خرج جوار من بني النَّجَّارِ يَضْرِبِينَ بالدُفوفِ وَيَقْلَنَ:

نَحْنُ جَوَارٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ يَا حَبِذَا مُحَمَّدًا مِنْ جَارٍ^(١)

فقال رسول الله ﷺ: «أَتُحِبِّتَنِي؟» قُلْنَ: نعم يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «وَأَنَا وَاللَّهِ أُحِبُّكُمْ»، قالها ثلاثاً. وذكر ابن إسحاق في المُبْتَدَأِ وابن هِشَامِ في التَّيْجَانِ أَنَّ بَيْتَ أَبِي أَيُوبِ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقْدِمَةُ الْمَدِينَةِ بِنَاهِ تَبْعِ الْأَوَّلِ وَاسْمُهُ تَبَانٌ - بضم المُثَنَاءِ الفوقية وتخفيف المُوَحَّدَةِ - أسعد، وكان معه أربعمئة حَبْرٍ، فتعاقدوا على ألا يخرجوا منها. فسألهم تَبَعٌ عن سِرِّ ذَلِكَ، فقالوا: إنا نجد في كُتُبِنَا أَنَّ نَبِيَّاً اسْمُهُ مُحَمَّدٌ هَذِهِ دَارُ هِجْرَتِهِ، فَنَحْنُ نُقِيمُ لَعَلْنَا نَلْقَاهُ. فَأَرَادَ تَبَعٌ الْإِقَامَةَ مَعَهُمْ، ثُمَّ بَنَى لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَوْلَادِكَ دَاراً وَاشْتَرَى لَهُ جَارِيَةً وَزَوَّجَهَا مِنْهُ وَأَعْطَاهُ مَالاً جَزِيلاً وَكُتِبَ كِتَاباً فِيهِ إِسْلَامُهُ وَمِنْهُ:

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدَ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ بِأَرِي النَّسَمِ
فَلَوْ مُدَّ عُمُرِي إِلَى عُمُرِهِ لَكُنْتُ وَزِيْرًا لَهُ وَابْنًا عَمِّ
[وَجَاهَدْتُ بِالسَّيْفِ أَغْدَاءَهُ وَفَرَجْتُ عَنْ صَدْرِهِ كُلَّ هَمِّ]

وَخَتَمَهُ بِالذَّهَبِ وَدَفَعَهُ إِلَى كَبِيرِهِمْ وَسَأَلَهُ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ إِنْ أَدْرَكَهُ وَإِلَّا فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْ وَلَدِهِ أَوْ وَلَدِ وَلَدِهِ، وَبَنَى لِلنَّبِيِّ ﷺ دَاراً يَنْزِلُهَا إِذَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ، فَتَدَاوَلَ الدَّارَ الْمَلَائِكُ إِلَى أَنْ صَارَتْ لِأَبِي أَيُوبِ، وَهُوَ مِنْ وَلَدِ ذَلِكَ الْعَالِمِ، وَأَهْلُ الْمَدِينَةِ الَّذِينَ نَصَرُوهُ كُلَّهُمْ مِنْ أَوْلَادِ أَوْلَادِكَ الْعُلَمَاءِ. وَيُقَالُ إِنَّ الْكِتَابَ الَّذِي فِيهِ الشَّعْرُ كَانَ عَبْدُ أَبِي أَيُوبِ حَتَّى دَفَعَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ غَرِيبٌ. فَمَا نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَّا فِي بَيْتِهِ.

وروى الترمذي وصححه، ويحيى بن الحسن العلوي عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: «لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ فَجِئْتُ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ عَلِمْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، فَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ يَتَكَلَّمُ بِهِ أَنْ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»^(٢). وروى ابن إسحاق ومسلم عن أبي أيوب رضي الله عنه قال: «لَمَّا نَزَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِي نَزَلَ فِي السُّفْلِ وَأَنَا وَأُمُّ أَبِي أَيُوبِ فِي الْعُلُوِّ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ

(١) انظر البداية والنهاية ٣/٢٠٠.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤٥١/٥ والدارمي ٣٤٠/١ والترمذي ٦٥٢/٤ (٢٤٨٥) وابن ماجه ٤٢٣/١ (١٣٣٤).

وأُمِّي، إِنِّي لَأَكْرَهُ وَأَعْظِمُ أَنْ أَكُونَ فَوْقَكَ وَتَكُونَ تَحْتِي، فَاظْهَرِ أَنَّتِ فَكُنْ فِي الْعُلُوِّ، وَتَنْزِلِ نَحْنُ فَنَكُونَ فِي السُّفْلِ، فَقَالَ: «إِنَّ أَرْفَقَ بِنَا وَبِمَنْ يَغْشَانَا أَنْ نَكُونَ فِي سِفْلِ الْبَيْتِ». قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سُفْلِهِ وَكُنَّا فَوْقَهُ فِي الْمَسْكَنِ، فَلَقَدْ انْكَسَرَ حُبٌّ لَنَا فِيهِ مَاءٌ، فَقُمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ بِقَطِيفَةٍ لَنَا مَا لَنَا لِيَحَافَ غَيْرَهَا تُنْشَفُ بِهَا الْمَاءُ [تَخَوُّفًا أَنْ يَقْطُرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُ شَيْءٌ فَيُؤْذِيهِ]. وَذُكِرَ أَنَّ أَبَا أَيُّوبَ لَمْ يَزَلْ يَتَضَرَّعُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى تَحَوَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْعُلُوِّ وَأَبُو أَيُّوبَ فِي السُّفْلِ.

قال أبو أيوب: وكُنَّا نَصْنَعُ لَهُ الْعِشَاءَ ثُمَّ نَبْعَثُ بِهِ إِلَيْهِ، فَإِذَا رَدُّ عَلَيْنَا فَضْلُهُ تَيَمَّمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ مَوْضِعَ يَدِهِ فَأَكَلْنَا مِنْهُ نَبْتِغِي بِذَلِكَ الْبَرَكَةَ، حَتَّى بَعَثْنَا إِلَيْهِ لَيْلَةً بَعْشَاءَهُ وَقَدْ جَعَلْنَا لَهُ فِيهِ بَصَلًا أَوْ ثُومًا، فَرَدَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَمْ أَرَ لِيَدِيهِ فِيهِ أَثْرًا. قَالَ: فَجِئْتُهُ فَرِعًا فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي رَدَدْتَ عِشَاءَكَ، وَلَمْ أَرَ فِيهِ مَوْضِعَ يَدِكَ وَكُنْتُ إِذَا رَدَدْتَهُ عَلَيْنَا تَيَمَّمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ مَوْضِعَ يَدِكَ نَبْتِغِي بِذَلِكَ الْبَرَكَةَ. قَالَ: «إِنِّي وَجَدْتُ فِيهِ رِيحَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ وَأَنَا رَجُلٌ أَنْاجِي، فَأَمَّا أَنْتُمْ فَكَلُّوهُ». قَالَ: فَأَكَلْنَاهُ وَلَمْ نَضِعْ لَهُ تِلْكَ الشَّجَرَةَ بَعْدَ.

وفي كتاب أخبار المدينة ليحيى بن الحسن، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «لَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِي أَيُّوبَ لَمْ يَدْخُلْ مَنْزِلَ رَسُولِ اللَّهِ هَدِيَةً وَأَوَّلَ هَدِيَةٍ دَخَلْتُ بِهَا عَلَيْهِ قِصْعَةً مَثْرُودَةً خُبْرَ بُرٍّ وَسَمْنًا وَلَبَنًا، فَأَضَعَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ أُرْسَلْتَ بِهَذِهِ الْقِصْعَةِ أُمِّي»، فَقَالَ: «بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا»، وَدَعَا أَصْحَابَهُ فَأَكَلُوا فَلَمْ أَرِمْ الْبَابَ حَتَّى جَاءَتْهُ قِصْعَةٌ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، عَلَى رَأْسِ غُلَامٍ مَغْطَاةٍ فَأَقْفَ عَلَى بَابِ أَبِي أَيُّوبَ فَأَكْشَفَ غِطَاءَهَا لِأَنْظُرَ فَرَأَيْتُ ثُرِيدًا عَلَيْهِ عُزْرَاقٌ^(١)، فَدَخَلَ بِهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قَالَ زَيْدٌ: «فَلَقَدْ كُنَّا فِي بَنِي مَالِكِ بْنِ النُّجَّارِ مَا مِنْ لَيْلَةٍ إِلَّا عَلَى بَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الثَّلَاثَةِ وَالْأَرْبَعَةِ يَحْمِلُونَ الطَّعَامَ وَيَتَنَاوَبُونَ بَيْنَهُمْ حَتَّى تَحَوَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَيْتِ أَبِي أَيُّوبَ وَكَانَ مُقَامُهُ فِيهِ سَبْعَةَ أَشْهُرٍ وَمَا كَانَتْ تَخْطِئُهُ جَفْنَةُ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ وَجَفْنَةُ سَعْدِ بْنِ زُرَّارَةَ كُلَّ لَيْلَةٍ». وَفِيهِ أَنَّهُ قِيلَ لَأُمِّ أَيُّوبَ: «أَيُّ الطَّعَامِ كَانَ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّكُمْ عَرَفْتُمْ ذَلِكَ لِمُقَامِهِ عِنْدَكُمْ؟» فَقَالَتْ: مَا رَأَيْتُهُ أَمْرًا بِطَعَامٍ فَصُنِيعَ لَهُ بَعِينَهُ، وَلَا رَأْيَانَهُ أُتِيَ بِطَعَامٍ فَقَابَهُ. وَقَدْ أَخْبَرَنِي أَبُو أَيُّوبَ أَنَّهُ تَعَشَّى عِنْدَهُ لَيْلَةً مِنْ قِصْعَةٍ أُرْسِلَ بِهَا سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ طَفَيْشَلًا. قَالَ أَبُو أَيُّوبَ: فَرَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَنْهَلُ تِلْكَ الْقَيْدِرَ مَا لَمْ أَرَهُ يَنْهَلُ غَيْرَهَا، فَكُنَّا نَعْمَلُهَا لَهُ، وَكُنَّا نَعْمَلُ لَهُ الْهَرِيرِيسَ وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ. وَكَانَ يَحْضُرُ عِشَاءَهُ خَمْسَةَ إِلَى سِتَّةِ عَشَرَ كَمَا يَكُونُ الطَّعَامُ فِي الْكَثْرَةِ وَالْقِلَّةِ».

(١) العزوق: بالسكون: القظم إذا أخذ عنه مُعْظَمُ اللَّحْمِ، وَجَمْعُهُ: عُزْرَاقٌ، وَهُوَ جَمْعُ نَادِرٍ، يُقَالُ: عُزْرَقْتُ الْعِظْمَ، وَاعْتَرَقْتَهُ، وَتَمَرَقْتَهُ إِذَا أَخَذْتَ غَنَّهُ اللَّحْمَ بِأَشْتَانِكَ. انظر النهاية ٢٢٠/٣.

قال ابن إسحاق: «وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وأبا رافع إني مكة وأعطاهما بغيرين وخمسمائة درهم فقديما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه وسودة بنت زمعة زوجته وحمل زيد بن حارثة امرأته أم أيمن مع ابنتها أسامة بن زيد، وخرج عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر فيهم عائشة وأختها أسماء زوج الزبير وأم رومان [أم عائشة] فلما قدموا المدينة أنزلوا في بيت حارثة بن النعمان. وذكر رزين أن أبا بكر أرسل عبد الله بن أريقط مع زيد ليأتيه بأهله.

قال ابن إسحاق: «وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ فلم يثق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس. ولما اطمأنت برسول الله ﷺ داره، وأظهر الله بها دينه، وسره بما جمع إليه من المهاجرين والأنصار من أهل ولايته، قال أبو قيس صرمة بن أبي أنس، أخو بني عدي بن النجار، يذكر ما أكرمهم الله به من الإسلام وما خصهم به من نزول رسول الله ﷺ عليهم:

ثوى في قرينش بضع عشرة حجة
ويغرض في أهل المواسم نفسه
فلما أتانا أظهر الله دينه
وألقي صديقا واطمأنت به النوى
يقص لنا ما قال نوح لقومه
فأصبح لا يخشى من الناس واجدا
بذلنا له الأموال من أجل مالنا
ونعلم أن الله لا شيء غيره
نعادي الذي عادى من الناس كلهم
أقول إذا أذعوك في كلبيعة
أقول إذا جاوزت أرضا مخوفة
قطا معرضا إن الحثوف كثيرة
فوالله ما يدري الفتى كيف يثقي
ولا تحفل النخل المقيمة ربها
يذكر لوزيلقى صديقا مواتيا
فلم ير من يؤوي ولم ير داعيا
فأصبح مسرورا بطيبة راضيا
وكان لنا عوناً من الله باديها
وما قال موسى إذ أجاب المناديا
قريبا ولا يخشى من الناس نائيا
وأنفسنا عند الوعى والتأسيها
ونعلم أن الله أفضل هاديها
جميعا وإن كان الحبيب المصافيا
تباركت قد أكثرت لاشيك داعيا
حنانك لا تظهر علي الأعاديها
وإنك لا تبقني لنفسيك باقيا
إذا هو لم يجعل له الله واقيا
إذا أصبحت ريثا وأصبح ثاويا^(١)

تنبيه: في بيان غريب ما سبق

«حشد» المسلمون بالبدال المهملة: اجتمعوا.

(١) انظر البداية والنهاية ٢٠٤/٣.

«مُتَقَلِّدِينَ» السيف: جعلوا سيورها في أعناقهم إلى جنبهم الأيسر، عادة القرب الآن لا كيفغل الأتراك وغيرهم بجعلها في أوساطهم.
«مَلَأَ»: سَامَةً.

«الدَّار»: هنا القبيلة وكل قبيلة اجتمعت في مَحَلَّة سُمِّيَتْ تلك المَحَلَّة داراً، وسُمِّي ساكنوها بها مجازاً، أي أهل الدار.

«تَأْكُلُ الْقُرَى»: يأتي بيانه في بيان أسماء المدينة.

«كَمِينًا»^(١): بفتح الكاف وكسر الميم بعدها نون مُشَدَّدة، أي اسْتَرَوْنَا.

«زُهَاءً»: بضم الزاي وبالمد: أي قَدْر.

«العَوَاتِق»: جمع عاتق وهي الشابة أول ما تُذْرِك، وقيل: هي التي لم تَبِنْ من والدتها ولم تُزَوِّج وقد أذْرَكَتْ وشَبَّتْ.

«الولائد»: جمع وليدة وهي الأنثى، والوليد الطفل جَمْعُهُ وُلْدَان.

«الثَّيَّات»: جمع ثَيِّبَةٌ وَثَيِّبَةُ الْوَدَاع بفتح الواو. قال المجد اللغوي: «هي ثنية مشرفة على المدينة يطؤها من يريد مكة، وقيل: من يريد الشام واخْتَلَفَ في تسميتها بذلك فقبل لأنها موضع وداع المسافرين من المدينة إلى مكة، وقيل لأن النبي ﷺ ودَّع بعض من خَلَفَهُ بالمدينة في آخر خَزَجَاتِهِ، وقيل: في بعض سراياه المبعوثه عنه، وقيل: الْوَدَاع اسم واد بمكة، والصحيح أنه اسم جاهلي قديم سُمِّيَ به لتوديع المسافرين، هكذا قال أهل السِّير والتاريخ وأصحاب المسالك إنها من جهة مكة، وأهل المدينة [اليوم] يظنونها من جهة الشام، وكأنهم اعتمدوا قول ابن قَيِّم الجوزية في هَدْيِهِ، [فإنه قال]: «من جهة الشام ثَيَّاتُ الْوَدَاع ولا يطؤها القادم من مكة البتة». ووجه الجمع أن كلتا الثَيَّاتَيْنِ تُسَمَّى بثنية الوداع». انتهى كلام المجد.

قُلْتُ: وقال ياقوت^(٢) في الْمُشْتَرِك: «ثنية الوداع مشهورة قُرب المدينة وسُمِّيَتْ بذلك لأن الناس كانوا يودعون المسافرين إلى مكة عندها». فاقضى كلامه أنه يطؤها قاصد مكة، وتَبَعَهُ على ذلك في التقريب وسبقهما إليه القاضي، وأَيَّدَ السَّيِّدُ كلام صاحب الهدي فقال: الروايات متظاهرة على أن هذه الثَيِّبَةُ هي المعروفة بذلك، اليوم: شامِيَّ المدينة بين مسجد الزاية الذي على ذُبَاب ومَشْهَدِ النَّفْسِ الزُّكِّيَّةِ، يَمُرُّ فِيهَا الْحَارَّ بَيْنَ صَدَّيْنِ مَرْتَفِعَيْنِ قُرب سَلْعِ،

(١) كُفِّنَ كُفُونًا: اخفى، وكمن له يكمن كمنوناً وكمن: استخفى اللسان ٣٩٣٣/٥.

(٢) ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، أبو عبد الله، شهاب الدين: مؤرخ ثقة، من أئمة الجغرافيين، ومن العلماء باللغة والأدب. أصله من الروم. أسر من بلاده صغيراً. من كتبه «معجم البلدان» و «إرشاد الأريب» ويعرف بمعجم الأدباء. توفي سنة ٦٢٦ هـ. الأعلام ١٣١/٨.

ومن تأمل كلام ابن شبة في المنازل وغيرها لم يَرْتَبْ في ذلك، ويوضحه ما رواه ابن إسحاق في غزوة الغابة قلت: وسيأتي سياقه فيها.

ثم قال السَّيِّد: «وَكَوْنُهَا شَامِيَّ الْمَدِينَةِ لَا يَمْنَعُ كَوْنَ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ أُنْشِدَتْ عِنْدَ الْهَجْرَةِ لِأَنَّهُ ﷺ رَكِبَ نَاقَتَهُ وَأَرْخَى لَهَا زِمَامَهَا وَقَالَ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ»، وَمَرَّ بِدُورِ الْأَنْصَارِ كَمَا سَبَقَ حَتَّى مَرَّ بِنَبِيِّ سَاعِدَةَ، وَدَارَهُمْ شَامِيَّ الْمَدِينَةِ قُرْبَ ثَنِيَّةِ الْوَدَاعِ، فَلَمْ يَدْخُلْ بَاطِنَ الْمَدِينَةِ إِلَّا مِنْ تِلْكَ النَّاحِيَةِ حَتَّى أَتَى مَنْزِلَهُ بِهَا. وَقَدْ عَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فِي رَجُوعِهِ مِنْ بَدْرِ إِلَى ثَنِيَّةِ الْوَدَاعِ، كَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ عُقْبَةَ: [أَنَّهُ ﷺ سَلَكَ حِينَ خَرَجَ إِلَى بَدْرِ حَتَّى ثُقُبَ بَنِي دِينَارٍ، وَرَجَعَ حِينَ رَجَعَ مِنْ ثَنِيَّةِ الْوَدَاعِ] قُلْتُ: فَتَحَصَّلَ مِنْ كَلَامِهِ أَنَّ ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ لَيْسَتْ مِنْ جِهَةِ مَكَّةَ وَإِنَّمَا هِيَ شَامِيَّ الْمَدِينَةِ، خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جِهَتِهَا فِي دَخُولِهِ بَاطِنَ الْمَدِينَةِ، وَلَا حُجَّةَ لِمَنْ قَالَ إِنَّهَا مِنْ جِهَةِ مَكَّةَ إِلَّا مَا سَبَقَ مِنْ قَوْلِ الْوَلَاءِ: «طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعِ»، وَقَدْ عَلِمْتُ مَا فِيهِ.

وروى البخاري عن السائب بن يزيد قال: «أذُكُرُ أَنِّي خَرَجْتُ مَعَ الصَّبِيَّانِ نَتَلَّقِي النَّبِيَّ ﷺ إِلَى ثَنِيَّةِ الْوَدَاعِ مَقْدَمَهُ مِنْ تَبُوكَ». قَالَ الْحَافِظُ فِي فَتْحِ الْبَارِي: «أَنْكَرَ الدَّوْدِيُّ هَذَا، وَتَبَعَهُ ابْنُ الْقَيْمِ وَقَالَ: ثَنِيَّةُ الْوَدَاعِ مِنْ جِهَةِ مَكَّةَ لَا مِنْ جِهَةِ تَبُوكَ بَلْ هِيَ فِي مَقَابِلِهَا كَالْمَشْرِقِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ ثَنِيَّةٌ أُخْرَى فِي تِلْكَ الْجِهَةِ». قَالَ ابْنُ حَجْرٍ: «وَلَا يَمْنَعُ كَوْنُهَا مِنْ جِهَةِ مَكَّةَ أَنْ يَكُونَ الْخُرُوجُ إِلَى الشَّامِ مِنْ جِهَتِهَا. وَهَذَا أَوْضَحُ كَمَا فِي دَخُولِ مَكَّةَ مِنْ ثَنِيَّةِ وَالْخُرُوجِ مِنْهَا مِنْ أُخْرَى، وَيَنْتَهِيْنَ كُلَّهُنَّ إِلَى طَرِيقٍ وَاحِدَةٍ». قُلْتُ: وَقَدْ رَاجَعْتُ الْهَدْيَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فَرَأَيْتُهُ ذَكَرَ أَنَّ ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ شَامِيَّ الْمَدِينَةِ كَمَا نَقَلَهُ عَنْهُ صَاحِبُ الْقَامُوسِ وَالسَّيِّدُ لَا كَمَا نَقَلَهُ عَنْهُ الْحَافِظُ وَلَمْ يَذْكَرْ فِي الْهَدْيِ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْهَجْرَةِ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ.

«أَضْوَاءُ»: أَنْوَرُ.

«الْمَنْعَةُ»: بَفَتْحِ النَّوْنِ يُقَالُ: «فُلَانٌ فِي مَنْعَةٍ أَيْ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ يَرِيدِهِ.

«الثَّرْوَةُ»: بَفَتْحِ الشَّاءِ الْمَثَلَةُ: كَثْرَةُ الْمَالِ.

«الْبَحْيِرَةُ»: بِأُتْيِ الْكَلَامِ عَلَيْهَا فِي بَابِ أَسْمَاءِ الْمَدِينَةِ.

«قَوْلٌ»: بِقَافٍ مَفْتُوحَةٍ فَوَاوٍ سَاكِنَةٍ قَفَافٍ مَكْسُورَةٍ: أَيْ سِرٌّ حَيْثُ شَعَتْ فَإِنَّكَ آمِنٌ.

«رَانُونَاءُ»: [وَهُوَ وَادٍ فِي الْمَدِينَةِ صَلَّى فِيهِ النَّبِيُّ الْجُمُعَةَ].

«عَلَى قِثْرَةٍ مِنَ الرُّشْلِ»: أَيْ عَلَى انْقِطَاعِ بَعْثِهِمْ وَدُرُوسِ أَعْلَامِ دِينِهِمْ.

«ولو بِشَقِّ ثَمْرَةٍ»: بكسر الشين المعجمة: أي نصف ثَمْرَةٍ، يريد: لا يستقلون^(١) من الصَّدَقَةِ شيئاً.

«مُزَاجِمٌ»: بضم الميم فزاي وكسر الحاء المهملة: أُطِمَ كان بين ظهرائي بني الحُبَلَى.
«بنو الحُبَلَى»: الحُبَلَى لقب سالم بن عَثَم بن عَوْف لُقَّبَ به لِعِظَمِ بطنه ومن وَلَدِه بنو الحُبَلَى بَطْنٌ من الأنصار.
«مُخْتَبِياً»: أي جمع ظَهْرَه وساقيه بثُوبٍ أو غَيْرِه، وقد يَخْتَبِي بيده والاسم الحِجْبَةُ بالكسر.

«شَرِقٌ لذلك»: بشين معجمة مفتوحة فراء فقاف، أي ضاق صَدْرُه كمن غَصَّ.
«تَجَلَّجَت» بجيمين: تَحَرَّكَت.
«الأَقْشَهْرِي»: هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أمين الأَقْشَهْرِي عمل كتاباً سماه الروضة فيه أسماء من دُفِنَ بالبقيع.
«أَزْرَمَتْ»: براء فزاي: صَوَّتَتْ.

«الجِرَان»^(٢): بكسر الجيم: مُقَدِّمٌ عُتُقُ البعير من مذبحه إلى مَنَحْرِه، فإذا بَرَكَ البعير ومدَّ عُتْقَه على الأرض قيل ألقى جِرَانَه بالأرض.
«انجفل الناس»: أسرعوا.

«الحُبَّ»: بضم الحاء المهملة: الخابية ويقال لها الزير.
«تَيَمَّنَتْ»: قصدت.

«القطيفة»: دِنَارٌ له خَمَلٌ. طَفَيْشَلٌ: بفتح الطاء المهملة وفتح الفاء وسكون المثناة التحتية وفتح الشين المعجمة وباللام: نوع من المَرَقِ.
تَوَى: أقام.

«البضغ»: بالكسر ويُفْتَح: من الثلاث إلى التسع.

(١) قال ابن الأثير: تَقَلَّلَ الشيء، واشتَقَلَهُ، وتَقَالَهُ: إذا رآه قليلاً. انظر النهاية ١٠٣/٤.
(٢) الجران: باطن العنق، وقيل: مقدم العنق من مذبح البعير إلى منحره وقيل: الجران هي جلدة تضطرب على باطن العنق من ثغرة النحر إلى مُتَهَي العنق في الرأس قال الشاعر:

فَقَدُّ سَرَاتِهَا والجِرَانُ منها فخرت للسيد بن ولجيران

اللسان ٦٠٨/١.

«الْحِجَّةُ»^(١): بالكسر هنا: السنة.

«مُؤَاتِيًا»: موافقاً.

«أَلْقَى»: وَجَدَ.

«التَّوَى»: بلفظ تَوَى الثَّمَر: البُغْد.

«بَادِيًا»: ظاهراً.

«نَائِيًا»: بعيداً.

«من جُلِّ مَالِنَا»: مُعْظِمِهِ.

«التَّوَعَى»: بفتح الواو والغين المعجمة: الحرب.

«التَّأَسَّى»: التعاون.

«الْبَيْعَةُ»: المَسْجِد.

«حَنَائِيكَ»^(٢): أي تَحَنُّناً بعد تَحَنُّنٍ والتَّحَنُّنُ الرَّأْفَةُ وَالرَّحْمَةُ.

«فَطَأَ مُغْرَضًا»: بضم الميم وسكون العين المهملة وكسر الراء والضاد المعجمة: أي مُتَّسِعًا.

«الْحَتُوفُ»: جَمْعُ حَتْفٍ وَهُوَ الْمَوْتُ، وَالْحَتُوفُ هُنَا أَسْبَابُ الْمَوْتِ وَأَنْوَاعُهُ.

«وَلَا تَحْفِلْ»: بحاء مهملة ففاء: أي لَا تُتَابِلِي، يُقَالُ حَفَلْتُ بِكَذَا: بِالْبَيْتِ بِهِ.

«التَّخْلُ»: بالخاء المعجمة: اسم جنس جمعي واحده نَخْلَةٌ.

«المَعِيْمَةُ»^(٣) بضم الميم وكسر العين المهملة: أي العاطشة من العَيْمَةِ بِفَتْحِ الْعَيْنِ

المهملة وهو الْعَطَشُ، وَأَكْثَرُ مَا يُقَالُ فِي اللَّبَنِ.

«رَبَّهَا»: صاحبها.

«رِيًّا»: أي مرتوية من الماء.

«تَاوِيًا»^(٤): بالمثلثة وآخره مُثَنَّةٌ تَحْتِيَّةٌ، وَيُزَوَّى «تَاوِيًا» بِالْمِثْنَةِ الْفَوْقِيَّةِ مِنَ التَّوَى وَهُوَ

الهِلَاكُ.

(١) والجمع حجج مثل سورة وسور ص ١٢١.

(٢) انظر اللسان ١٠٣٠/٢.

(٣) انظر اللسان ٣١٩٥/٤.

(٤) تَوَى تَوَاءً، وَكُرِيًّا: أَقَامَ وَاسْتَقَرَّ. انظر المعجم الوسيط ١٠٣/١.

جماع أبواب بعض فضائل المدينة الشريفة

الباب الأول

في بدء شأنها

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «مكة بلد عظمه الله، وعظم حرمته، خلق مكة وحفها بالملائكة قبل أن يخلق شيئاً من الأرض بألف عام، ووصلها بالمدينة، ووصل المدينة ببيت المقدس، ثم خلق الأرض كلها بعد ألف عام خلقاً واحداً». وعن علي رضي الله عنه: قال: «كانت الأرض ماءً فبعث الله ريحاً فمسحت الأرض مسحاً فظهرت على الأرض زبدة فقسمها أربع قطع، خلق من قطعة مكة والثانية المدينة والثالثة بيت المقدس والرابعة الكوفة». رواهما الحافظ أبو بكر بن أحمد بن محمد الواسطي الخطيب في كتابه فضائل بيت المقدس يستند لا بأس به خلافاً لقول السيد إنهما واهيان، فإني لم أجد في سندهما من تكلم فيه سوى ابن لهيعة وهو صدوق اختلط بأخرة والترمذي يحمس له.

وروى الطبراني عن ذي مخبر، وهو بكسر الميم وسكون الخاء المعجمة وفتح الموحدة وقيل بدلها ميم، وهو ابن أخي النجاشي رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: إن الله عز وجل أطلع إلى أهل المدينة وهي بطحاء قبل أن تعمر، ليس فيها مدرة ولا وبرة، فقال: «يا أهل يثرب إني مُشترط عليكم ثلاثاً، وسائق إليكم من كل الثمرات: لا تعصي ولا تعلي ولا تكبري، فإن فعلت شيئاً من ذلك تركزك كالجزور لا يمنع من أكله»^(١). وقيل: أول من عمر بها الدور والآطام، وزرع وغرس، العماليق بنو عملاق بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وأخذوا ما بين البحرين وعمان والحجاز إلى الشام ومصر، ومنهم الجبابرة والفراعنة.

وقال أبو المنذر الشريقي بن القطامي: سمعت حديث تأسيس المدينة من سليمان بن عبد الله بن حنظلة الغسيل، وسمعت أيضاً بعض ذلك من رجل من قريش عن أبي عبيدة بن عبد الله بن عمار بن ياسر، فجمعت حديثهما لكثرة اتفاهه وقلة اختلافه، قال: «بلغنا أنه لما حج موسى صلوات الله عليه حجج معه أناس من بني إسرائيل، فلما كان في انصرافهم أتوا على

(١) ذكر الهنسي في المجمع ٣/٣٠٢ وعزاه للطبراني في الكبير وقال: وفيه سعيد بن سنان والشامي وهو ضعيف وذكره المتقي الهندي في الكنز (١/٣٤٩).

المدينة فرأوا موضعها صفة بلد نبي يجدون وصفه في التوراة بأنه خاتم النبيين، فاشتورت طائفة منهم على أن يتخلفوا به، فنزلوا في موضع سوق بني قيثاق، ثم تألفت إليهم أناس من العرب فرجعوا إلى دينهم، فكانوا أول من سكن موضع المدينة. ويذكر أن قوماً من العمالقة سكنوه قبلهم.

وروى أبو نعيم وابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بلغني أن بني إسرائيل لما أصابهم ما أصابهم من ظهور بختنصر عليهم وفزقتهم وذلتهم تفرقوا، وكانوا يجدون محمداً ﷺ منغوناً في كتابهم، وأنه يظهر في بعض هذه القرى العربية في قرية ذات نخل، ولما خرجوا من أرض الشام كانوا يعبرون كل قرية من تلك القرى العربية بين الشام واليمن يجدون نعتاً نعت يثرب فينزل بها طائفة منهم يرجون أن يلقوا محمداً فيتبعونه حتى نزل طائفة من بني هارون ممن حمل التوراة إلى يثرب، فمات أولئك الآباء وهم يؤمنون بمحمد ﷺ ويحثون أبناءهم على اتباعه، فأدركه من أدركه من أبنائهم، فكفروا به وهم يعرفونه لحسداهم الأنصار حيث سبقوهم إليه.

وروى الزبير بن بكار عن عثمان بن عبد الرحمن التيمي وغيره من أهل المدينة قالوا: «كان بالمدينة في سالف الزمان قوم يقال لهم: صغل وفالج، فغزاهم داود النبي عليه الصلاة والسلام وأخذ منهم مائة ألف عذراء، قالوا: وسلط الله عليهم الدود في أعناقهم فهلكوا. ولم تزل اليهود ظاهرين على المدينة حتى كان سيل العرم. قال المفسرون: كانت أرض سبأ المعنوية بقوله تعالى: ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٌ﴾ [سبأ ١٥] أخصب بلاد الله لم تكن سبخة وقيل: لم يكن فيها بعوض ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب. ولا حية، ويمر الغريب بواديهم وفي ثيابه القمل فيموت، وتخرج المرأة وعلى رأسها مكثها فتعمل بمغزلها وتسير بين ذلك الشجر فيمتلىء مما يتساقط من الثمر، وكان طول بلادهم أكثر من شهرين للراكب المجدد وكذلك عرضها، وأهلها في غاية الكثرة مع اجتماع الكلمة والقوة. وكانوا كما قص الله تعالى من خبرهم بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً﴾ [سبأ ١٨] أي يرى بعضها من بعض لتقاربها فكانوا آمنين في بلادهم، تخرج المرأة لا تتزود شيئاً تبتي في قرية وتقبل في أخرى حتى تأتي الشام. فبطروا النعمة ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩]، أي بمفاوز بينهم وبين الشام يركبون فيها الرؤاجل، فعجل الله لهم الإجابة كما قال تعالى ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ ١٩].

«وكانوا يقتلون على ماء واديهم فأمرت بلقيس بواديهم فسدت بالعرم وهو المستناة بلغة حمير، فسدت ما بين الجبلين بالصخر والقار، وجعلت له أبواباً ثلاثة بعضها فوق بعض، وبنت من

دونه بركة ضخمة، وجعلت فيها اثني عشر مخرجاً على عدة أنهار يفتحونها إذا احتاجوا إلى الماء، وإذا استغثوا سدوها، فإذا جاء ماء المطر اجتمع إليه ماء أودية اليمن فاحتبس السيل من وراء السد، فأمرت بالباب الأعلى ففتح فجرى ماؤه في البركة، فكانوا يستقون من الباب الأعلى ثم من الثاني ثم من الثالث فلا يتفقد الماء حتى يرجع الماء من السنة المقبلة، فكان السيل يأتيهم من مسيرة عشرة أيام حتى يستقر في واديهم فيجتمع الماء من تلك السيول والجبال في ذلك الوادي. وكان السد فرسخاً في فرسخ بناه لقمان الأكبر العادي وقيل سبأ بن يشجب، ومات قبل إكماله فأكماله ملوك حمير.

«وكان أولاد حمير بن سبأ وأولاد كهلان بن سبأ سادة اليمن في ذلك الزمان وكان كبيرهم عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء، وكانت زوجة عمرو يقال لها طريفة، من حمير وكانت كاهنة، فولدت له ثلاثة عشر ولداً: ثعلبة أبو الأوس والخزرج، وحاتثة والد خزاعة، وجفنة والد غسان - وقيل فيهم غير ذلك - وولدت له وداعة وأبا حارثة والحارث وعوفاً وكعباً ومالكاً وعمراناً هؤلاء أعقبوا كلهم والثلاثة الباقون لم يُعقبوا. وكان لعمرو مزيقياء من القصور والأموال ما لم يكن لأحد فرأى أخوه عمران وكان كاهناً أن قومه سيَمزقون وتخرّب بلادهم فذكره لعمرو. ثم أن طريفة الكاهنة سَجعت له بما يدل على ذلك فقال: وما علامته؟ قالت: إذا رأيت جُرذاً يُكثِر في السد الحفر، ويُقَلِب منه بيديه الصخر [فاعلم أن قد وَقَعَ الأمر].

«فلما غَضِبَ اللهُ تعالى عليهم وأذن في هلاكهم دخل عمرو بن عامر فرأى جُرذاً تَنقُلُ أولادها من بطن الوادي إلى أعلى الجبل فقال: ما نَقَلت هذه أولادها من ههنا إلا وقد حَضَرَ أهل هذه البلاد عذاب فخرقت ذلك القرم فَتَقَبَّتْ نَقباً، فسال الماء من ذلك النقب إلى جنبه فأمر بذلك النقب فسد، فأصبح وقد انفجر بأعظم مما كان، فأمر به أيضاً فسد، ثم انفجر بأعظم مما كان فلم يترك فُرجة بين حَجَرَيْنِ إلا أمر بربط هِرَّةٍ عندها فما زاد الأمر إلا شِدَّةً، وكان الجُرذ يُقَلِب بيديه ويرجله الصخرة ما يُقَلِبها خمسون رجلاً. فلما رأى ذلك دعا ابن أخيه فقال: إذا جَلَسْتُ العشيَّة في نادي قومي فأَتِينِي قُل: عَلَامَ تَجَلِس على مالي؟ فإنِّي سأقول لك: ليس لك عندي مال ولا ترك أبوك شيئاً وإنك كاذب. فإن كَذَّبْتُكَ فكذِّبني وازدُد عَلَيَّ مِثْلَ ما قُلْتُ لك، فإذا قَعَلت ذلك فإنِّي سأشُمتُك إذا أنت شَتَمْتَنِي وإن أنا لَطَمْتُكَ فالطمني. قال: ما كنت لأستقبلك بذلك يا عم. قال: بلى فافعل فإنني أريد بذلك صلاحك وصلاح أهل بيتك. فقال الفتى: نعم، حيث عرف رأي عمرو. فجاء، فقال ما أمره به حتى لَطَمَهُ فتناول الفتى عمه فلطمه. فقال الشيخ: «يا مَقْشَر بني فلان أَلَطَمُ فيكم؟ لا سَكَنْتُ في بَلَدٍ لطمني فيه فلان أبداً، من يتاع مني؟» فلما عرف القوم منه الجِدَّ أعطَوْه، فنظر إلى أفضلهم عَطِيَّةً فأوَجِبَ له البَيْع،

فدعا بالمال، فَنَقَدَهُ. وَتَحَمَّلَ هو وبنوه من ليلته، وفي رواية: أن الثَّمَنَ لَمَّا صار في يده قال: أي قَوْمَ إن العذاب قد أَظْلَكُكُمْ، وزوال أمرِكُم قد دَنَا فمن أراد منكم منزلاً جديداً وجَمَلاً شديداً وسفراً بعيداً فَلْيَلْحَقْ بِعُمَانَ، ومن أراد منكم الحَخْمَرَ والخَمِيرَ والديباجَ والحريرَ، والأَمْرَ والتأْمِيرَ فَلْيَلْحَقْ بِبُضْرَى وسَدِيرٍ ومن أراد منكم الرِّايِسَخَاتِ في الوَحْلِ المُطْبِعَاتِ في المَحْلِ، المُتَبِعَاتِ في الضَّحْلِ فَلْيَلْحَقْ بِبَثْرِبِ ذاتِ النَّحْلِ، فخرج أَهْلُ عُمَانَ إلى عُمَانَ، وخرجت عُمَانُ إلى بُضْرَى، وخرجت الأوس والخزرج وبنو كعب بن عمرو إلى بَثْرِبِ، فلما كانوا ببطن مَرَّ قال بنو كعب: هذا مَكَانٌ صالح لا تَبْغِي به بدلاً، فلذلك سُمُّوا خُزَاعَةَ لأنهم انخزعوا عن أصحابهم، وأَقْبَلَتِ الأوس والخزرج حتى نزلوا ببَثْرِبِ.

«ولما أراد الله ما أراد من تفريق من بَقِيَّ وخراب بلادهم أَقْبَلَتِ فَأرَّةَ حمراء إلى هِرَّةٍ من تلك الهِرَّةِ فساوَرَتْهَا حتى استأخرت عنها الهِرَّةُ، فدخلت الفأرة في الفُرْجَةَ التي كانت عندها فتغلغلت بالسَّدِّ فَحَفَرَتْ فيه حتى وَهَنَتْهُ للسَّيْلِ وهم لا يَدْرُونَ، فلما جاء السَّيْلُ وجد خَلَاءً فدخل فيه حتى قَلَعَ السَّدِّ وفاض من الماء على الأموال فاحتملها، فلم يَبْقَ منها إلا ما ذكر الله تعالى».

«ولما قَدِمَتِ الأوس والخزرج المدينة تَفَرَّقُوا في عالياتها وسافلتها ومنهم من نزل مع بني إسرائيل في قُرَاهِمِ ومنهم من نزل وحده لا مع بني إسرائيل ولا مع العرب الذين تَأَلَّفُوا إلى بني إسرائيل، وكانت الثروة في بني إسرائيل، ولهم قُرَى عَمَرُوا بها الآطام. فمكثت الأوس والخزرج ما شاء الله، ثم سألوا اليهود في أن يَغْتَدُوا بينهم جواراً وِجْلَفاً يَأْمَنُ به بَعْضُهُم من بعض، ويمتنعون به مِنْ سِوَاهِمِ، فتحالفوا وتعاهدوا واشتركوا وتعاملوا فلم يزالوا على ذلك زماناً طويلاً، وأمرت الأوس والخزرج، وصار لهم مالٌ وَعَدَدٌ، فخافت قُرَيْظَةُ والنَّضِيرُ أن يَغْلِبُوهم على دُورِهِم وأموالِهِم، فَتَنَمَّرُوا لهم حتى قطعوا الجِلْفَ الذي كان بينهم فأقامت الأوس والخزرج في منازلهم خائفين أن يُجْلِيَهُم يهود، حتى نَجَمَ منهم مالك بن العَجْلان، أخو بني سالم بن عوف بن الخزرج وسُوْدَةُ الحَيَّانِ الأوس والخزرج».

«وكان ملك اليهود الفِطْيُونِ شَرَطَ ألا تُهْدَى عروس إلى زوجها حتى تَدْخُلَ عليه، فلما سَكَنَ الأوس والخزرج المدينة أراد أن يسير فيهم بتلك السيرة. فتزوجت أخت مالك بن العَجْلان رجلاً من بني سالم، فأرسل الفِطْيُونِ رسولاً في ذلك، وكان مالك غائباً، فخرجت أخته في طلبه، فَمَرَّتْ به في قَوْمِ، فنادته، فقال: لقد جِئْتُ بِسَبِيَّةٍ، تُناديني ولا تَسْتَجِي. فقالت: إن الذي يُرَادُ بي أكبر، فأخبرته. فقال لها: أَكْفِيكِ ذلك. فقالت: وكيف؟ فقال: أتزني بيزي النساء وأدخل مَعَكَ عليه بالسيف، فأقتله. ففعل. ثم خرج حتى قَدِمَ الشام على أبي جَبِيْلَةَ،

وكان نزلها حين نزلوا هم بالمدينة فَجَيْشٌ جَيْشاً عَظِيماً وَأَقْبَلَ كَأَنَّهُ يَرِيدُ الْيَمَنَ، وَاخْتَفَى مَعَهُمْ مَالِكُ بْنُ الْعِجْلَانَ، فَجَاءَ فَتَزَلَ بِذِي حُرْضٍ، وَأَرْسَلَ إِلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ مِنَ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ فَأَتَوْا إِلَيْهِ فَوَصَلَهُمْ ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَالَ: مَنْ أَرَادَ الْحِجَابَ مِنَ الْمَلِكِ فَلْيَخْرُجْ إِلَيْهِ مَخَافَةَ أَنْ يَتَحَصَّنُوا فِي الْحِصُونِ فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِمْ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ أَشْرَافُهُمْ، فَأَمَرَ لَهُمْ بِطَعَامٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا فَقَتَلَهُمْ فَصَارَ الْأَوْسُ وَالخَزْرَجُ أَعَزَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ».

تنبيه: في بيان غريب ما سبق

«حَفَّهَا»: أَحْدَقَ بِهَا.

«الزَّبْدَةُ»^(١): بَفْتَحَتَيْنِ: الرَّغْوَةُ.

«الْبَطْحَاءُ»: الْأَرْضُ الْمَتْسَعَةُ.

«مَدْرَةٌ»: جَمَعُهَا مَدْرٌ، مِثْلُ قَصَبَةٍ وَقَصَبٍ قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: الْمَدْرُ قِطْعُ الطِّينِ.

«الْمِكْتَلُ»^(٢): بِكَسْرِ الْمِيمِ وَسُكُونِ الْكَافِ وَفَتْحِ الْمِثْنَةِ الْفَوْقِيَّةِ: الزَّيْبِيلُ.

«صَغَلٌ»: بِصَادٍ فَعَيْنٍ مَهْمَلَتَيْنِ فَلَامٌ.

«فَالِجٌ»: بِالْجِيمِ.

«الْمُسْتَأَةُ»: حَائِطٌ يَبْنَى فِي وَجْهِ الْمَاءِ وَيَسْمَى السُّدَّ.

«الْعَرِمُ»: جَمْعُ عَرِمَةٍ.

«الشُّكْرُ»: بِفَتْحِ السِّينِ الْمَهْمَلَةِ وَسُكُونِ الْكَافِ: أَيُّ السُّدِّ الَّذِي يَحْبِسُ الْمَاءَ، قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: الشُّيْلُ الَّذِي لَا يُطَاقُ وَقِيلَ الْعَرِمُ الْوَادِي وَأَصْلُهُ مِنَ الْعَرَامَةِ وَهِيَ الشُّدَّةُ وَالْقُوَّةُ.

«الصُّخْلُ»^(٣): بِالضَّادِ الْمَعْجَمَةِ وَالْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ السَّاكِنَةِ: الْقَلِيلُ مِنَ الْمَاءِ وَقِيلَ الْمَاءُ

الْقَرِيبُ:

«الْفِطْيُونُ»: [بِكَسْرِ الْفَاءِ وَإِسْكَانِ الطَّاءِ الْمَهْمَلَةِ ثُمَّ مِثْنَةً تَحْتِيَّةً مَفْتُوحَةً وَوَاوٍ سَاكِنَةً فَنونَ.

وَالْفِطْيُونُ هُوَ الَّذِي تَمَلَّكَ بِيْثْرَبَ].

(١) انظر المفردات في غريب القرآن ٢١١.

(٢) انظر اللسان ٣٨٢٢/٥.

(٣) انظر اللسان ٢٥٥٩/٤.

الباب الثاني

في أسماء المدينة مرتبة على حروف المعجم

الأول فالأول مستقصاة لأن كثرة الأسماء تدل على شرف المُسَمَّى، فما ذكره، الزركشي في الإعلام، وصاحب القاموس في غيره، والسيد في تاريخه بلغ بها خمسة وتسعين اسماً وهي:

- «أثرب»: بالفتح وإسكان المثلثة وكسر الراء فموحدة، لُغَةٌ في يَثْرِب، اسم من سكنها أولاً، سُمِّيَتْ به أرضُ المدينة كلها عند أبي عُبَيْدَةَ أو هي فقط عند ابن عباس أو ناحية منها. وعلى الثالث فإطلاقه على المدينة مع ذلك صحيح ثابت إما وَضْعاً لها أو من إطلاق اسم البعض على الكل أو المشتهر من باب عكسه، وورد النهي عن تسميتها بذلك كما سيأتي.

- «أرض الله»: لقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء ٩٧] قال جماعة: المراد المدينة، وفي هذه الإضافة من مزيد التعظيم ما لا يَخْفَى.

«أرض الهجرة»: لحديث فيه [المدينة قبة الإسلام].

- «أَكَاةُ الْبُلْدَانِ»: لتسلطها على جميع الأمصار وارتفاعها على سائر بلدان الأقطار وافتتاحها منها على أيدي أهلها فغنموها وأكلوها.

- «أَكَاةُ الْقَرْيِ»: لحديث «أَمْرَتْ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقَرْيَ»^(١).

«الإيمان»: لقوله تعالى في الأنصار. ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر ٩] قال عثمان بن عبد الرحمن وعبد الله بن جعفر: «سَمِيَ اللهُ المَدِينَةَ الدَّارَ وَالْإِيمَانَ»، رواه محمد بن الحسن المخزومي عنهما. وابنُ شُبَّة عن الثاني. وقال البيضاوي: «سَمِيَ اللهُ المَدِينَةَ بِالْإِيمَانَ لِأَنَّهَا مَظْهَرُهُ وَمَصِيرُهُ». وعن أنس بن مالك [أَنْ مَلَكَ] الْإِيمَانَ قَالَ: «أَنَا أَسْكُنُ المَدِينَةَ»، فقال [مَلَكَ] الْحَيَاءُ: «وَأَنَا مَعَكَ»، رواه الدينوري في كتابه الْمُجَالَسَةُ.

- «البارة»: بتشديد الراء.

- «البرة»: بالتشديد أيضاً لكثرة برها لأهلها خصوصاً ولجميع العالم عموماً، لأنها منبع الفيض والبركات.

- «البحرة»: بالفتح وسيكون المهملة.

- «البحيرة»: تصغير ما قبله.

(١) أخرجه البخاري (١٨٧١) ومسلم في كتاب الحج (٤٨٨) وأحمد في المسند ٢٣٧/٢ ومالك في الموطأ (٨٨٧).

- «الْبَحِيرَةُ»: بالفتح والكسر: نقل الزركشي الثلاثة في الإعلام عن منتخب كُرَاع، ونقل غَيْرُهُ الْأَوْلَيْنِ عن معجم ياقوت، والاستبحار السعة لأنها بُمُتْسَع من الأرض ولقول سعد بن عُبَادَةَ: ولقد اصطلح أهل هذه الْبَحِيرَةِ - بالتصغير - على أن يعصبوه بِالْعِصَابَةِ فلما رَدَّ اللَّهُ ذلك بالحق الذي أعطاك شَرِقَ بذلك، ويقال «الْبَحْرُ» أيضاً بغير تاء، ساكن الحاء وَأَصْلُهُ الْقَرْيَ وكل قرية بَحْرَةٌ.

- «الْبَلَاطُ»: بفتح الموحدة، نُقِلَ عن [كتاب: لَيْسَ] لابن خالويه وهو لُغَةُ الْحِجَارَةِ المَفْرُوشَةُ [التي تُفْرَشُ على الأرض، والأرض المَفْرُوشُ بها، والمستوية الملساء فكأنها] سُمِّيَتْ به لكثرة فيها أو لاشتغالها على موضع تُعْرَفُ به.

- «الْبَلَدُ»: قال تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد ١]: قيل: المدينة وقيل: مكة وَرَجَّحَهُ الْقَاضِي، لكن السورة مكية والبلد لغة صَدْرُ الْقَرْيَ. قال الواسطي فيما نقله عن القاضي: «أَيَّ يَخْلِفُ لَكَ رَبُّكَ بِهَذَا الْبَلَدِ الَّذِي شَرَّفْتَهُ بِمَكَانِكَ فِيهِ حَيًّا وَبِيرَكَتِكَ مَيْتًا»، يعني المدينة.

- «بلد رسول الله ﷺ»: روى البزار عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّيَاطِينَ قَدْ يَمَسَّتْ، أَنْ تُعَبِّدَ بِلَدِي»، هذا يعني المدينة وجزيرة العرب، «ولكن في التحريش بينهم»^(١).

- «بيت رسول الله ﷺ»: قال تعالى ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾: أي من المدينة لاختصاصها به اختصاص البيت بساكنه، أو المراد: بَيْتُهُ بِهَا.

- «تَنْدَدُ»: بمشاة فوقية فنون وإهمال الدالين، كَجَعْفَرٍ.

- «تَنْدَرُ»: براء بدل الدال الأخيرة مما قبله كما سيأتي في «يَنْدَرُ» بالتحية.

- «الجابرة»: ذكر في حديث للمدينة عشرة أسماء، سميت بها لأنها تُجْبَرُ الكسير وتُغْنِي الفقير وتُجْبَرُ على الإذعان لمطالعة بركاتها وشهود آياتها ولأنها جبرت البلاد على الإسلام.

- «جَبَارٌ» كَحَدَامٍ رواه ابن شَبَّةٍ بدل الجابرة في حديثه المذكور.

- «الجَبَّارَةُ»: نُقِلَ عن التوراة.

- «جزيرة العرب»: لقول بعضهم إنها المرادة من الحديث: «أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ

(١) ذكره الهيثمي في المجمع ٣/٢٠٢ وعزاه للبزار وقال: فيه السكن بن هارون الباهلي ولم أجد من ترجمه.

جزيرة العرب»، وفي حديث ابن عباس: «خرجت مع رسول الله ﷺ من المدينة فالتفت إليها وقال: «إن الله برأ هذه الجزيرة من الشرك»، رواه أبو يعلى والبخاري والطبراني.

- «الجُنة الحصينة»: بضم الجيم وهي الوقاية، أخذاً من قوله ﷺ في غزوة أُحد: «أنا في جُنة حصينة»^(١). يعني المدينة - [«دعوهم يدخلون نقاتلهم»].

- «الحببية»: لحبه ﷺ لها ودعائه لها.

- «الحَرَم»: بالفتح [بمعنى الحرام لتحريمها، وفي الحديث: «المدينة حَرَم»^(٢)، وفي رواية أنها: «حَرَمٌ آمِن».

- «حرم رسول الله»: لأنه الذي حَرَمَها، وفي الحديث: «من أخاف أهل حَرَمي أخافه الله»، وفي حديث آخر: حَرَم إبراهيم مكة وحَرَمي المدينة»، رواه الطبراني.

- «حَسَنَة»: بلفظ مقابل السيئة، وقال تعالى: ﴿لَنُبَوِّئَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النحل ٤١] أي مَبَاءةً حَسَنَةً وهي المدينة، وقيل: هو اسمها لاشتغالها على الحسَن الحَسَنِي والمعنوي، نقله الإمام فخر الدين الرَّازي.

- «الخَيْرَة»: بالتشديد.

- «الخَيْرَة»: بالتخفيف تقول: امرأة خَيْرَة وَخَيْرَة بمعنى كثيرة الخير، وإذا أردت التفضيل قلت: فلان خَيْرُ الناس، وفي الحديث: «والمدينة خَيْرٌ لهم لو كانوا يعلمون».

- «الدار»: لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ على ما سبق في الإيمان سميت به لأمنها والاستقرار بها وجمعها البناء والقَرْصَة.

- «دار الأبرار».

- «دار المختار»: لأنها دار المصطفى المختار والمهاجرين والأنصار، ولأنها تَنْفِي شَرَاهَا، ومن أقام بها منهم فليست في الحقيقة له بدار، وربما نُقِلَ منها بعد الإقبار.

«دار الإيمان»: روى الطبراني بسند لا بأس به عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المدينة قُبَّةُ الإسلام ودار الإيمان وأرض الهجرة ومبوء الحلال والحرام»، وروى الشيخان عن أبي هريرة، والبخاري عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن الإيمان لَيَأْرِزُ إِلَى المدينة كما تَأْرِزُ الخَيْةُ إِلَى جُحْرِهَا»، تَأْرِزُ بفتح أوله وسكون الهمزة وكسر الراء - وقد تُضَمُّ -

(١) ذكره السيوطي في الدر ٩٤/٢ وغزاه لعبد بن حنيد وابن جرير.

(٢) أخرجه البخاري ٤٩/٣ (١٨٦٧).

بعدها زاي، أي أنها كما نخرج في طلب ما تعيش به فإذا راعها شيء رجعت إلى جحرها كذلك الايمان انتشر في المدينة، فكل مؤمن، له من نفسه شائق إلى المدينة لمحبتة في النبي ﷺ.

٥ - «دار السنة».

٥ - «دار السلامة».

٥ - «دار الفتح»: ففي الصحيح قول عبد الرحمن بن عوف لعمَر رضي الله عنهما: «حتى تقدم المدينة فإنها دار الهجرة والسنة» - وفي رواية الكَشَمِيهَنِي أحد رواة البخاري - «والسلامة، وقد فُتحت منها مكة وسائر الأمصار وإليها هجرة المختار ومنها انتشرت السنة في الأقطار».

- «الدُّزَعُ الحَصِينَةُ»: لحديث أحمد برجال الصحيح: «رَأَيْتُ كَأَنِّي فِي دِرْعِ حَصِينَةٍ، فَأَوْلْتُ الدُّزَعِ الحَصِينَةَ المَدِينَةَ».

- «ذات الحُجْر»: بضم الحاء المهملة وفتح الجيم لاشتمالها عليها.

- «ذات الحِرَار»: بكسر الحاء وراءين مهملات، جمع حِرَّة بفتح الحاء وهي الحِجَارَة الشود لكثرتها بها.

٥ - «ذات النَّخْل»: لوصفها بذلك/ ولما قبله في خَبَرِ خُنَافِرٍ مَعَ رَبِّهِ، وفي سَجْعِ عِمْرَانَ بن عامر: فليلحق بيثرب ذات النَّخْل، وفي الحديث: «أَرَيْتَ دَارَ هَجْرَتِي ذَاتَ نَخْلٍ وَحَرَّةً».

- «السَّلِقَةُ»^(١): ذكره أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أمين الأَقْشَهْرِي في أسمائها المنقولة عن التوراة، وهو محتمل، والسَّلِقَةُ بفتح اللام وكسرهما إذ السَّلِقُ بالتحريك القاع الصفصف والسلاق البليغ، وربما قيل للمرأة السليطة سَلِقَةٌ بالكسر، وسلفت البَيْضُ سَلِقاً أغليته بالنار. فسميت المدينة به لاتساعها وتباعد جبالها أو لتسلطها على البلاد فتحاً أو للأوائها وشدة حرها وما كان بها من الحُمَى.

٥ - «الشَّافِيَةُ»: لحديث، «تُرَائِبُهَا شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ»، ولما صَحَّحَ فِي غِبَارِهَا. وذكر ابن مُشَدِي: الاستشفاء من الحُمَى بكتابة أسمائها وتعليقها على المحموم، وسيأتي أنها تنفي الذنوب فتشفي من دائها.

(١) السَّلِقُ: الواسع من الطري والقاع الشطمين من الأرض المستوي لا نبات فيه والجمع أسلاق وشلقان. انظر المعجم الوسيط ٤٤٧/١.

- «طَابَة»: كَشَامَة، روى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى سَمَّى المدينة طَابَة»^(١).

- «طَيْبَة»: بسكون المشناة التحتية كهَيْبَة وعَيْبَة.

- «طَيْبَة»: بتشديد المشناة التحتية.

- «طَائِب»: ككاتب، وهذه الأربعة مع اسمها المُطَيَّبَة أخوات لفظاً ومعنى، مختلفات صِيغَة ومَبْنَى. وفي الحديث: «للمدينة عَشْرَة أسماء هي المدينة وطَيْبَة وطَابَة»، وعن وَهْب بن مُنَبِّه: «إن اسمها في كتاب الله - يعني التوراة - طَيْبَة وطَابَة». ونقل عن التوراة أيضاً تسميتها بالطَيْبَة وكذلك المُطَيَّبَة. وتسميتها بهذه الأسماء إما من الطَّيِّب بتشديد المشناة وهو الطاهر لطهارتها من أدناس الشُّرْك، أو لحلول الطَّيِّب بها ﷺ، أو لكونها كالكبير تنفي خَبْثَهَا وَيُصَحِّحُ طَيْبَهَا. قال الإشبيلي: «لِتُرْبَة المدينة نَفْحَة ليس طَيْبَهَا كما عُهِد من الطَّيِّب بل هو أعجب من الأعاجيب». قال بعض أهل العلم: «وفي طَيْب تُرَابِهَا وهوائها دليلٌ شاهد على صِحْحة هذه التسمية، لأن من أقام بها يجد من تُرْبَتِهَا وحبطانها رائحة طيبة لا تكاد توجد في غيرها».

- «طَبَابَا»: ذكره ياقوت وهو بكسر المهملة يعني القطعة المستطيلة من الأرض أو بفتح المعجمة طَبَابَا من ظَبَّ، وظبظب إذا حُمَّ لما كان بها من الحُمَّى.

- «العاصِمة»: لعصمتها للمهاجرين من المشركين ولأنها الدُّرْع الحَصِينَة، أو هي بمعنى المعصومة فلا يدخلها الدُّجَال ولا الطاعون ومن أرادها بسوء أذابه الله.

- «العُدْرَاء»: بالمهملة فالمعجمة، نُقِلَ عن التوراة لصعوبتها وامتناعها على الأعداء حتى تسلمها مالِكها الحقيقي سيد الأنام ﷺ.

- «العَرَاء»: بإهمال أوله وثانيه، قال أئمة اللغة: العَرَاء الجارية العذراء كأنها سُبِّهَتْ بالناقة العراء التي لا سَنَام لها أو صَغُر سَنَامُهَا كصِغَر نهد العذراء فيجوز أن تكون تسمية المدينة بذلك لعدم ارتفاع أبنيتها في السماء.

- «العَرُوض»: بعين مهملة فراء فواو فضاء معجمة كصبور وقيل: هو اسم لها ولما حولها لانخفاض مواضع منها ومسائل أودية فيها، أو لأنها من نجد على خط مستقيم طولاً، والمدينة معترضة عنها ناحية.

- «العُرَاء»: بالغين المعجمة تأنيث الأغر ذي العُرَة والبياض في مُقَدِّم الوجه والعُرَة أيضاً خيار كل شيء وعُرَة الإنسان وَجْهُهُ والأغر الأبيض من كل شيء، والذي أخذت اللحية جميع

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحج (٤٩١) وأحمد في المسند ٩٤/٥ وابن أبي شيبة في المصنف ١٧٩/١٢.

وجهه إلا القليل، والرجل الكريم، واليوم الشديد الحرّ. والغراء نبت طيب الرائحة، والسيدة الكبيرة. فسميت المدينة بذلك لأنها سادت على القرى، وطاب ريحها في الوري، وأكرم أهلها وكثر غزوها وابتض نوزها وسطع ضياؤها.

○ - «غلبة»: مخرجة بمعنى الغلب لظهورها على البلاد، وكانت في الجاهلية تدعى «غلبة»: نزلت يهود بها على العماليق فغلبتهم عليها، ونزلت الأوس والخزرج على يهود فغلبوهم عليها، ونزل المهاجرون على الأوس والخزرج فغلبوهم عليها، ونزل الأعاجم على المهاجرين فغلبوهم عليها.

○ - «الفاضحة»: بالفاء وضاد معجمة وحاء مهملة، نُقِلَ عن كُرَاع: إِذْ لَا يُضْمِرُ بِهَا أَحَدٌ عَقِيدَةً فَاسِدَةً أَوْ يُعْطِنُ أَمْرًا إِلَّا ظَهَرَ عَلَيْهِ وَافْتَضِحَ بِهِ، وَهُوَ مَعْنَى كَوْنِهَا تَنْفِي خَبْثِهَا.

○ - «القاصمة»: بقاف وصاد مهملة. نُقِلَ عن التوراة لِقَضِيمِهَا كُلِّ جَبَّارٍ عَنَاهَا وَكَسَرَ كُلَّ مُتَمَرِّدٍ أَتَاهَا، وَمَنْ أَرَادَهَا بِسُوءٍ أَذَابَهُ اللَّهُ.

○ - «قبة الإسلام»: لحديث «المدينة قبة الإسلام».

○ - «قرية الأنصار»: وتقدم الكلام على الأنصار.

○ - «قرية رسول الله ﷺ»: لحديث الطبراني برجال ثقات: «ثم يسير - يعني الدجال - حتى يأتي المدينة ولا يؤذن له فيها فيقول: هذه قرية ذاك الرجل»، يعني النبي ﷺ.

○ - «قلب الإيمان»: أورده ابن الجوزي في حديث: «المدينة قبة الإسلام».

○ - «المؤمنة»: لتصديقها بالله تعالى حقيقةً لِحَلْقِهِ قابلية ذلك فيها كما في تسبيح الحصى، أو مجازاً لاتصاف أهلها بالإيمان وانتشاره منها واشتمالها على أوصاف المؤمن أو لإدخالها أهلها في الأمن من الأعداء والطاعون والدجال. وقد روي في حديث: «والذي نفسي بيده إن تربتها لمؤمنة»، ورؤي في آخر: «إنها لمكتوبة في التوراة مؤمنة».

○ - «المباركة»: لأن الله تعالى بارك فيها بدعائه ﷺ وحلوله بها.

○ - «مبوء الحلال والحرام»: رواه الطبراني في حديث: «المدينة قبة الإسلام»^(١)، والتبوء التمكن والاستقرار، سُمِّيَتْ بِهِ لِأَنَّهَا مَحَلٌّ تَمَكَّنَ هَذِينَ الْحُكَمَاءِ وَاسْتَقَرَّاهُمَا.

○ - «مبين الحلال والحرام»: رواه ابن الجوزي وغيره بدل الذي قبله في الحديث المتقدم لأنها محل بيانها.

(١) ذكره الهيثمي في المجمع ٣/٣٠١ وعزاه للطبراني في الأوسط وقال: فيه عيسى بن مينا قالون وحديثه حسن وبقية رجاله ثقات وذكره المتقي الهندي في الكنز (٣٤٨.٢).

- «المَجْبُورَة»: ذُكِرَ فِي الْحَدِيثِ: «لِلْمَدِينَةِ عَشْرَةَ أَسْمَاءَ»، وَنُقِلَ عَنِ الْكُتُبِ الْمَتَقَدِمَةِ، سُمِّيَتْ بِهِ لِجَبْرِهَا بِخِلَاصَةِ الْوُجُودِ حَيًّا وَمَيِّتًا لِخُتِّهِ عَلَى سَكْنَاهَا، بَعْدَ نَقْلِ جِمَاهَا وَتَكَرَّرَ دَعَاؤُهُ لَهَا.

- «المُحِبَّة»: بِضَمِّ الْمِيمِ وَبِالْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ وَتَشْدِيدِ الْمُوَحَّدَةِ، نُقِلَ عَنِ الْكُتُبِ الْمَتَقَدِمَةِ.

- «المُحِبَّة»: بِزِيَادَةِ مُوَحَّدَةٍ عَلَى مَا قَبْلَهُ.

- «المُحِبَّة»: نُقِلَ عَنِ الْكُتُبِ الْمَتَقَدِمَةِ أَيْضًا، وَهَذِهِ ثَلَاثَةٌ مَعَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَسْمَائِهَا الْحَبِيبَةِ مِنْ مَادَّةٍ وَاحِدَةٍ، وَحُبُّهُ ﷺ لَهَا وَدَعَاؤُهُ بِهِ مَعْلُومٌ، وَحُبُّهُ تَابِعٌ لِحُبِّ رَبِّهِ.

- «المَعْتَبُورَة»: مِنَ الْخَيْرِ وَهُوَ السَّرُورُ أَوْ مِنَ الْخَبْرَةِ بِمَعْنَى النِّعْمَةِ أَوْ الْمَبَالِغَةِ فِيهَا وَوُصِفَ بِجَمِيلٍ، وَالْمِخْتَارُ مِنَ الْأَرْضِ السَّرِيعَةِ النَّبَاتِ الْكَثِيرَةِ الْخَيْرَاتِ.

- «المُحَرَّمَة»: لِتَحْرِيمِهَا.

- «المَحْرُوسَة»: لِحَدِيثِ: «الْمَدِينَةُ مُشْتَبِكَةٌ بِالْمَلَائِكَةِ عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلَكٌ يَحْرُسُهَا»، رَوَاهُ الْجَنْدِيُّ.

- «المَحْفُوفَة»: لِأَنَّهَا حُقِّقَتْ بِالْبِرَكَاتِ وَمَلَائِكَةِ السَّمَوَاتِ، وَفِي خَبَرٍ: «تَأْتِي مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ مَحْفُوفَتَانِ بِالْمَلَائِكَةِ»^(١).

- «المَحْفُوفَة»: لِحِفْظِهَا مِنَ الطَّاعُونَ وَالذُّجَّالِ وَغَيْرِهِمَا، وَفِي خَبَرٍ: «الْقُرَى الْمَحْفُوفَةُ أَرْبَعٌ»، وَذَكَرَ الْمَدِينَةَ مِنْهَا.

- «المُخْتَارَة»: لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اخْتَارَهَا لِلْمُخْتَارِ مِنْ خَلْقِهِ فِي حَيَاتِهِ وَمَمَاتِهِ.

- «مُدْخَلٌ صِدْقٌ»: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [الإسراء ٨٠] فَمُدْخَلُ الْمَدِينَةِ كَمَا تَقَدَّمَ.

- «المَدِينَة»: لِتَكَرُّرِهِ فِي الْقُرْآنِ وَنُقِلَ عَنِ التَّوْرَةِ، وَالْمَدِينَةُ مِنْ مَدَنٍ بِالْمَكَانِ أَقَامَ بِهِ، أَوْ مِنْ دَانَ إِذَا أَطَاعَ، إِذْ يُطَاعُ السُّلْطَانُ بِالْمَدِينَةِ لِسُكْنَاهَا بِهَا، وَهِيَ أَبْيَاتٌ كَثِيرَةٌ تُجَاوِزُ حَدَّ الْقَرْيِ وَلَمْ تَبْلُغْ حَدَّ الْأَمْصَارِ، وَقِيلَ: يُقَالُ لِكُلِّ مِصْرٍ، وَتُطَلَّقُ عَلَى أَمَاكِنَ كَثِيرَةٍ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ عَلَمٌ لِلْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ، بِحَيْثُ إِذَا أُطْلِقَ لَا يَتَبَادَرُ الْفَهْمُ إِلَى غَيْرِهَا، وَلَا يُسْتَعْمَلُ فِيهَا إِلَّا الْمَعْرِفَةُ، أَمَّا

(١) ذَكَرَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي الْمَجْمَعِ ٣/٣١٢ بِلَفْظِ «الْمَدِينَةُ وَمَكَّةُ مَحْفُوفَتَانِ بِالْمَلَائِكَةِ وَعِزَاهُ لِأَحْمَدَ وَقَالَ: رَجَالُهُ تَقَاتَ. وَالْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ ٤/٤٨٣ وَالْبُخَارِيُّ فِي التَّارِيخِ ٦/١٨٠.

النكرة فاسم لكل مدينة، ونسبوا لكل مدينتي، وللمدينة النبوية مدينتي للفرق.

٥ - «مدينة رسول الله ﷺ»: لقوله في حديث الطبراني: «مَنْ أَخَذَتْ فِي مَدِينَتِي هَذِهِ حَدِيثًا أَوْ آوَى مُخْدِتًا فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا»^(١)، فأضافها إليه لسكناه بها، وله ولخلفائه دانت الأمم.

٦ - «المرزحومة»: نُقِلَ عَنِ التَّوْرَةِ، سُمِّيَتْ بِه لِأَنَّهَا دَارُ الْمَبْعُوثِ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَبِهَا تَنْزِيلُ الرَّحْمَاتِ.

٧ - «المرزوقة»: لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَزَقَهَا أَفْضَلَ الْخَلْقِ فَسَكَنَهَا أَوْ الْمَرْزُوقِ أَهْلِهَا، فَفِي الْحَدِيثِ: «لَا يَخْرُجُ أَحَدٌ مِنْهَا إِلَّا أَبَدَلَهَا اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ».

٨ - «مسجد الأقصى»: نقله ابن الملقن في الإشارات عن صاحب المطالع.

٩ - «المسكينة»: نُقِلَ عَنِ التَّوْرَةِ، وَذُكِرَ فِي حَدِيثٍ: «لِلْمَدِينَةِ عَشْرَةَ أَسْمَاءَ»، وَرَوَى الزبير بن بكار عن كعب الأحمري قال: «نجد في كتاب الله تعالى الذي أنزل على موسى أن الله قال للمدينة: ﴿يَا طَيْبَةُ يَا طَابَةَ يَا مَسْكِينَةَ لَا تَقْبَلِي الْكُنُوزَ أَرْفَعِ أَجَاجِيرَكَ عَلَى أَجَاجِيرِ الْقُرَى﴾، والأجاجير السطوح، والمسكنة الخضوع، والخشوع خلقه الله فيها، أو هي مسكن الخاشعين والخاضعين.

١٠ - «المسلمة»: كالمؤمنة لخلق الله تعالى فيها الانقياد والانقطاع له أو لانقياد أهلها وفتح بلدهم بالقرآن.

١١ - «مضجع رسول الله ﷺ»: كما في الحديث: «المدينة مهاجري ومضجعي في الأرض».

١٢ - «المطية»: بضم أوله وفتح ثانيه تقدم في طيبة.

١٣ - «المقدسة»: لتزهرها عن الشرك وكونها تنفي الذنوب.

١٤ - «المقر»: بالقاف كالمقر من القرار، نقله السيد من بعض كتب اللغة، وفي دعائه ﷺ لها قوله: «اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً».

١٥ - «المكتان»: قال سعد بن أبي السرح في حصار عثمان رضي الله عنه: «وأنصارنا بالمكتين قليل». وقال نصر بن حجاج بعد نفيه من المدينة:

فَأَصْبَحْتُ مَنْفِيًّا عَلَى غَيْرِ رَيْبَةٍ وَقَدْ كَانَ لِي بِالْمَكْتَيْنِ مَقَامٌ

(١) ذكره الهيثمي في المجمع ٣/٣١٠ عن أبي أمامة بن ثعلبة وقال: له في الصحيح حديث في اليمين غير هذا رواه الطبراني في الأوسط.

قال السيد: «والظاهر أن المراد المدينة لأن قصة عثمان ونصر بن حجاج كانتا بها وأطلق ذلك عليها لانتقال أهل مكة أو غالبهم إليها وانضمامهم إلى أهلها». أو أنه من قبيل التغليب والمراد مكة والمدينة.

- «المَكِينَةُ»: لِتَمَكُّنِهَا فِي الْمَكَانَةِ وَالْمَنْزَلَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

- «مهاجر رسول الله»: عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْلِهِ «المدينة مهاجري».

- «الموفية»: بِتَشْدِيدِ الْفَاءِ وَتَخْفِيفِهَا لِتَوْفِيقِهَا الْوَاقِدِينَ حِشًّا وَمَعْنَى وَأَهْلُهَا الْمَوْفُونَ بِمَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ.

- «النَّاجِيَةُ»: بِالْجِيمِ لِنَجَاتِهَا مِنَ الْعُتَاةِ وَالنَّطَاعُونَ وَالذُّجَالُ أَوْ لِإِسْرَاعِهَا فِي الْخَيْرَاتِ فَحَازَتْ أَشْرَفَ الْمَخْلُوقَاتِ وَلَا رَتْفَاعَ شَأْنِهَا.

- «نَبْلَاءٌ»: نُقِلَ مِنْ كِرَاعٍ، قَالَ السَّيِّدُ: وَأَظْنَهُ بِفَتْحِ النَّونِ وَسُكُونِ الْمَوْحِدَةِ مَاخُودٌ مِنَ النَّبْلِ بِالضَّمِّ وَالسُّكُونِ وَهُوَ الْفَضْلُ وَالنَّجَابَةُ.

- «النَّخْرُ»: بِفَتْحِ النَّونِ وَسُكُونِ الْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ، سُمِّيَتْ بِهِ إِمَّا لِشِدَّةِ خَرِّهَا كَمَا يُقَالُ نَخَرَ الظَّهْرَ وَإِمَّا لِإِطْلَاقِ النَّخْرِ عَلَى الْأَصْلِ وَهُمَا أَسَاسُ بِلَادِ الْإِسْلَامِ.

- «الْهَذْرَاءُ»: ذَكَرَهُ ابْنُ النَّجَّارِ بَدَلَ الْعَذْرَاءِ نَقْلًا عَنِ التَّوْرَةِ، رُوِيَ بِالذَّالِ الْمَعْجَمَةِ وَذَلِكَ لِشِدَّةِ خَرِّهَا، يُقَالُ: يَوْمَ هَازِرٍ شَدِيدِ الْخَرِّ، أَوْ لِكَثْرَةِ مِيَاهِهَا وَأَصْوَاتِ سَوَانِيهَا، وَيُقَالُ هَذَّرَ فِي كَلَامِهِ إِذَا أَكْثَرَ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بِالْمَهْمَلَةِ مِنْ هَذَّرَ الْحَمَامَ إِذَا صَوَّتَ، وَالْمَاءُ انْصَبَّ وَانْهَمَرَ وَالْعَشْبُ طَالَ، وَأَرْضٌ هَادِرَةٌ: كَثِيرَةُ النَّبَاتِ.

- «يَثْرِبٌ»: لُغَةٌ فِي أَثْرِبٍ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِيهِ، وَسَتَأْتِي أَحَادِيثُ النَّهْيِ عَنْ تَسْمِيَّتِهَا بِذَلِكَ.

- «يَنْدَدٌ»: بِدَالَيْنِ مَهْمَلَتَيْنِ ذَكَرَهُ كِرَاعٌ وَهُوَ إِمَّا مِنْ نَدَدٌ وَهُوَ الطَّيِّبُ الْمَعْرُوفُ أَوْ النَّدَّ الثَّلَّ الْمُزْتَفِعُ أَوْ مِنَ النَّادِ وَهُوَ الرِّزْقُ.

- «يَنْدَرٌ»: كَحَيْدَرٍ بَرَاءِ بَدْلِ الدَّالِ الثَّانِيَةِ مِمَّا قَبْلَهُ، كَذَا فِي حَدِيثٍ: «لِلْمَدِينَةِ عَشْرَةُ أَسْمَاءٍ» فِي بَعْضِ الْكُتُبِ، وَفِي بَعْضِهَا الْآخِرُ بِمِثْنَاءِ فَوْقِيَّةٍ وَدَالَيْنِ تَنْدَدٌ، وَفِي بَعْضِهَا كَذَلِكَ بِفَوْقِيَّةٍ وَدَالٍ وَرَاءَ تَنْدَرٍ، وَصَوَّبَ الْمَجْدُ اللَّغْوِيُّ «يَنْدَدٌ» فَقَطَّ بِالتَّحْنِيَةِ وَدَالَيْنِ، وَفِيهِ نَظَرٌ. وَالحَدِيثُ رَوَاهُ ابْنُ زَيْبَالَةَ إِلَّا أَنَّهُ سَرَدَهَا تِسْعَةً، وَرَوَاهُ ابْنُ شَيْبَةَ وَسَرَدَهَا ثَمَانِيَةَ فَحَذَفَ مِنْهُ الدَّارُ، ثُمَّ رُوِيَ مِنْ طَرِيقِهِ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ تَسْمِيَّتِهَا بِالدَّارِ وَالْإِيمَانِ ثُمَّ قَالَ: «[وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ ثَمَانِيَةَ أَسْمَاءٍ وَجَاءَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ اسْمَانِ] فَاللَّهُ أَعْلَمُ أَهْمًا تَمَامًا»

العشرة أم لا». ورواه ابن زبالة كذلك إلا أنه سرد تسعة فزاد اسم «الدار» وأسقط العاشر، ونقل ابن زبالة أن عبد العزيز بن محمد الدراوردي قال: بلغني أن للمدينة في التوراة أربعين اسماً، انتهى ما ذكره السيد رحمه الله مع زيادات فيه.

وروى الزبير بن بكار عن القاسم بن محمد قال: بلغني أن للمدينة أربعين اسماً. وروى أيضاً عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «للمدينة عشرة أسماء هي: المدينة وطيبة وطابة ومسكينة وجابرة ومجبورة ويثدّد ويثرب والدار». وروى أيضاً عن إبراهيم بن الحسن قال: «للمدينة في التوراة أحد عشر اسماً: المدينة وطيبة وطابة والمسكينة والجابرة والمجبورة والمرحومة والعدراء والمحجوبة والقاصمة».

الباب الثالث

في النهي عن تسميتها يثرب

روى الإمام أحمد ومالك والشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أميزت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب وهي المدينة، تنفي الناس كما ينفي الكبر خبث الحديد»^(١). وروى الإمام أحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه بسند جيد عن البراء بن عازب رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمي المدينة يثرب فليستغفر الله: هي طابة هي طابة هي طابة»^(٢). وروى ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا تدعوها يثرب فإنها طيبة»^(٣)، يعني المدينة، «ومن قال يثرب فليستغفر الله ثلاث مرات، هي طيبة هي طيبة هي طيبة». وقال الإمام عيسى بن دينار^(٤) أحد أئمة المالكية: «من سمي المدينة يثرب كُتبت عليه خطيئة، وبذلك جزم الإمام العلامة الشيخ كمال الدميري^(٥) في منظومته في كتاب الحج حيث قال:

وَمَنْ دَعَاهَا يَثْرِبًا يَسْتَغْفِرُ فَقَوْلُهُ خَطِيئَةٌ لِيُنْظَرُ

وسبب الكراهة إما لكون ذلك مأخوذاً من الثرب بالتحريك وهو الفساد، أو من الثريب وهو المؤاخذه بالذنب. وكان ﷺ يحب الاسم الحسن، ولهذا أسماها طابة وطيبة كما تقدم. وأما تسميتها في القرآن يثرب فذلك حكاية عن قول المنافقين، وأما قوله ﷺ: «فذهب وهلي إلى اليمامة أو هجر فإذا هي المدينة يثرب»، وقوله في حديث آخر: «لا أراها إلا يثرب»، فذلك قبل النهي عن تسميتها بذلك.

(١) أخرجه البخاري ٥٠/٣ (١٨٧١) ومسلم في كتاب الحج (٤٨٨) وأحمد في المسند ٢٣٧/٢.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢٨٥/٤ وذكره الهيثمي في المجمع ٣٠٣/٣ وعزاه لأحمد وأبي يعلى وقال: ورجاله ثقات وذكره السيوطي في الدر ١٨٨/٥ وعزاه لأحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه.
(٣) ذكره السيوطي في الدر ١٨٨/٥ وعزاه لابن مردويه.
(٤) عيسى بن دينار بن واقد الفافقي، أبو عبد الله: فقيه الأندلس في عصره، وأحد علمائها المشهورين. أصله من طليطلة. سكن قرطبة، وقام برحلة في طلب الحديث. وعاد، فكانت الفتيا تدور عليه بالأندلس لا يتقدمه أحد. وكان ورعاً عابداً. توفي ٢١٢ هـ الأعلام ١٠٢/٥.
(٥) محمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري، أبو البقاء، كمال الدين: باحث، أديب، من فقهاء الشافعية. من أهل دمية (بمصر) ولد ونشأ وتوفي سنة ٨٠٨ هـ بالقاهرة. وكانت له في الأزهر حلقة خاصة، وأقام مدة بمكة والمدينة. من كتبه «حياة الحيوان»، و«حاوي الحسان من حياة الحيوان» و«الدياجة» في شرح كتاب ابن ماجه، في الحديث، و«النجم الوهاج» الأعلام ١١٨/٧.

الباب الرابع

في محبته صلى الله عليه وسلم لها ودعائه لها ولأهلها ورفع الوباء عنها بدعائه صلى الله عليه وسلم

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا قَدِمَ من سفر فنظر إلى جدر المدينة، وفي لفظ: دَوَّحَاتِهَا، وفي لفظ: درجاتها طَرَحَ رداءه عن منكبيه وقال: «هذه أرواح طَيِّبَةٌ»، وأَوْضَع راحِلَتَهُ، وإن كان على دابة حَرَّكَهَا من حُبِّهِ، وفي لفظ: «تباشراً بالمدينة» وقال: «اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حَسَنًا»^(١). رواه الشيخان والمحاملي ومحمد بن الحسن المخزومي. ويروي الإمام أحمد والشيخان وابن إسحاق واللفظ له عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «لما قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة قَدِمَهَا وهي أَوْبًا أرض الله من الحُمَّى، وكان واديهَا يَجْرِي نَجْلًا - يعني ماءً آجِنًا - فأصاب أصحابه منها بلاءٌ وسَقَمٌ، وصَرَفَ اللهُ ذلك عن نبيه». قالت: «فكان أبو بكر وعامر بن فُهَيْزَةَ وبلال مؤلِّيا أبي بكر في بيت واحد، فأصابتهم الحُمَّى، فاستأذنتُ رسول الله ﷺ في عيادتهم، فأذن، فدخلتُ إليهم أَعُوذُهُمْ، وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب، وبهم ما لا يعلمه إلا اللهُ من شدة الوَعَكِ، فدَنَوْتُ من أبي بكر فقلت: يا أبتِ كيف تَجِدُكَ؟ فقال:

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبِّحٌ فِي أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَذْنِي مِنْ شِرَاكٍ نَعْلِيهِ^(٢)

قالت: فقلتُ: والله ما يَدْرِي أبي ما يقول، ثم دنوتُ من عامر بن فُهَيْزَةَ فقلت: كيف تَجِدُكَ يا عامر؟ فقال:

لَقَدْ وَجَدْتُ الْمَوْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِ إِنَّ الْجَبَانَ حَشْفُهُ مِنْ قَوْقِهِ
كُلُّ امْرِئٍ مُجَاهِدٌ بِطَرْقِهِ كَالثَّوْرِ يَخْمِي جِلْدَهُ بِرَوْقِهِ^(٣)

قالت: فقلتُ: والله ما يَدْرِي عامرٌ ما يقول. قالت: وكان بلال إذا أقلع عنه الحُمَّى اضطجع يَفْتَأُ البيت ثم يرفع عقيرته ويقول:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتُنْ لَيْلَةً بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْ خِرٌّ وَجَلِيلُ
وَهَلْ أَرَدَنْ يَوْمًا مِيَاةَ مَجْنِيَةٍ وَهَلْ يَبْدُونَ لِي شَامَةً وَطَفِيلُ^(٤)

قالت: فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، وما سَمِعْتُهُ منهم. قلتُ: إنهم لَيَهْتَدُونَ وما

(١) ذكره المتقي الهندي في الكنز (٣٨١٥٧).

(٢) انظر البداية والنهاية ٢٢١/٣.

(٣) انظر البداية والنهاية ٢٢٢/٣.

(٤) انظر البداية والنهاية ٢٢١/٣.

يَغْفِلُونَ مِنْ شِدَّةِ الْحُمَّى، فنظر إلى السماء وقال: «اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة كما حَبَّبْتَ إلينا مكة». وفي لفظ للجندي ورزين «وأشدَّ»، بالواو بدلاً من «أو» - «وصحَّحها وبارك لنا في صاعها ومُدَّها، ثم انقل وباءها إلى مهيعة»^(١) - وهي الجُحْفَة، وإنه لَيَتَّقِي شُرْبَ الماء من عينها التي يُقال لها عَيْنُ حُتْمٍ.

وروى البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه ومحمد بن الحسن المخزومي عن ابن عمير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: رأيتُ امرأةً سوداءً نائرة الرأس، خرجت من المدينة حتى نزلت مهيعة، فأولَّتها أن وباء المدينة نُقِلَ إلى مهيعة. وروى الزبير بن بكار عن عروة بن الزبير مُرْسِلاً قال: «أصبح رسول الله ﷺ يوماً، فجاء إنسان قديم من ناحية طريق مكة، فقال له: «هل لقيت أحداً؟ قال: لا يا رسول الله إلا امرأةً سوداءً عريانة نائرة الشعر. فقال رسول الله ﷺ: «تلك الحمى ولن تعود بعد اليوم أبداً». وروى أيضاً عن موسى بن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبيه قال: لما قديم رسول الله ﷺ المدينة وَعَكَ أَصْحَابُهُ، وَقَدِمَ رَجُلٌ فَتَزَوَّجَ امْرَأَةً كَانَتْ مَهَاجِرَةً، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ». ثلاثاً - «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يطلبها أو امرأة يخطبها فإنما هجرته إلى ما هاجر إليه»^(٢)، ثم رفع يديه وقال: «اللهم انقل عنا الوباء». ثلاثاً - فلما أصبح قال: أتيت الليلة بالحمى فإذا عجوز سوداء مُلَبَّبة في يدي الذي جاء بها فقال: هذه الحمى فما ترى فيها؟ فقلت: «اجعلوها بختم». وروى البيهقي عن هشام بن عروة قال: كان وباء المدينة معروفاً في الجاهلية، وكان إذا كان الوادي وبيتاً فأشرف عليه إنسان فقيل له: انهق نهيق الجمار، فإذا فعل ذلك لم يضره، قال الشاعر:

لَعَمْرِي لَيْسَ عَشْرَتُ مِنْ خَشْيَةِ الرَّذَى نَهِيَقَ الْجِمَارِ إِنِّي لَسَجُزُوعُ

قال هشام: وكان المولود إذا وُلِدَ بِالْجُحْفَةِ لم يَبْلُغِ الحُلْمَ حتى تصرعه الحمى. وقال ابن إسحاق: وذكر ابن شهاب الزهري عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ لما قديم المدينة هو وأصحابه أصابتهم حمى المدينة حتى جهدوا مَرَضاً، وَصَرَفَ اللَّهُ ذَلِكَ عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ حتى ما كانوا يُصَلُّونَ إِلَّا وَهُمْ قَعُودٌ، قال: فخرج رسول الله ﷺ وهم يُصَلُّونَ كذلك فقال لهم: «اعلموا أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم»^(٣)، فَتَجَسَّمُ الْمُسْلِمُونَ الْقِيَامَ عَلَى مَا بِهِمْ مِنَ الضَّعْفِ وَالسَّقَمِ التَّمَّاساً لِلْفَضْلِ.

(١) أخرجه البخاري ٣٠٨/٧ (٣٩٢٦).

(٢) أخرجه البخاري ٩/١ (١) ومسلم ١٥١٥/٣ (١٥٥-١٩٠٧).

(٣) أخرجه البخاري بنحوه ٦٨٠/٢ (١١١٥) وانظر البداية والنهاية ٢٢٤/٣.

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل بالمدينة ضعفتي ما جعلت بمكة من البركة»^(١)، رواه الشيخان. وعن عبد الله بن زيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حرم مكة وإني حرمت المدينة ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة». حديث متفق عليه. وعن عبد الله بن الفضل بن العباس رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «أدعوك لأهل المدينة بمثل مكة»، قال عبد الله: إنا لنتعرف ذلك، إنا ليخزيء المدة عندنا والصاع بمثلني ما يخزيء بمكة، رواه البخاري في تاريخه. وروى الزبير بن بكار عن إسماعيل بن النعمان قال: «دعا رسول الله ﷺ ليغتم كانت تزعى بالمدينة فقال: «اللهم اجعل نصف أكراشها مثل ميلها بغيرها من البلاد».

وعن علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك دعا لأهل مكة بالبركة وأنا محمد عبدك ورسولك وأنا أدعو لأهل المدينة أن تبارك لهم في صاعهم ومدهم مثلما باركت لأهل مكة واجعل مع البركة بركاتين»^(٢)، رواه الترمذي وصححه والطبراني رجال الصحيح.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاؤوا به إلى النبي ﷺ، فإذا أخذه رسول الله - زاد الطبراني: وضعه على عينيه - قال: «اللهم بارك لنا في ثمرنا وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدهنا، اللهم إن إبراهيم عبدك و خليلك ونبيك وإنه دعاك لمكة، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه». قال ثم يدعو أصغر وليد فيعطيه ذلك الثمر^(٣). رواه مسلم والترمذي والطبراني.

تنبيهات

الأول: اقتضى هذا الحديث تكرير الدعاء بتكرير ظهور الثمرة والإتيان بأولها.

الثاني: تكرير دعائه ﷺ بتحبيه المدينة، والظاهر أن الإجابة حصلت بالأول والتكرير

لطلب المزيد.

الثالث: الوباء عموم الأمراض، وهو أعم من الطاعون، ولا يعارض قدومهم المدينة

- وهي وبئة - نهيه ﷺ عن القدوم على الطاعون، لأن ذلك كان قبل النهي، أو أن النهي يختص بالطاعون ونحوه من الموت الذريع، لا المرص ولو عم.

الرابع: هذه البركة المذكورة في الحديث في أمر الدين والدنيا، لأنها الثمنا والزيادة،

(١) أخرجه البخاري ٢٩/٣ (دار الفكر) ومسلم (٩٩٤).

(٢) ذكره الهيثمي في المجمع ٣٠٨/٣ وعزه للطبراني في الأوسط وقال: ورجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه مسلم ١٠٠٠/٢ (٤٧٣-١٣٧٣) وأخرجه الترمذي ٤٧٢/٥ (٣٤٥٤).

فالبَرَكة حاصلة لها في نفس الكَيْل، بحيث يكفي المُدَّ بها مَنْ لا يكفيه بغيرها، وهذا أمر محسوس لمن سكنها.

الخامس: تحويل الوباء عن المدينة من أعظم المعجزات إذ لا يُقَدِر عليه جميع الأطباء، قال النووي: وهذا عَلَّمَ من أعلام نُبوته ﷺ، فإن الجُحْفَةَ من يومئذ وبيئة ولا يشرب أحدٌ من مائها إلا حُمَّ، وقال الخطَّابي: كان أهل الجُحْفَةَ إذ ذاك يهوداً.

السادس: في بيان غريب ما سبق:

«الجُدُر»: جمع جِدَار ككِتَاب وكُتُب، والجِدَار الحائط.

«الدُّوْحَات»^(١): بالبدال والحاء المهملتين: جمع دُوْحَة مثل تَمْرَة وتَمْرَات، والدُّوْحَة الشجرة العظيمة.

«الدَّرَجَات»: جمع دَرَجَة وهي هنا الطُّرُق.

«الأرواح»: جمع رِيح بمعنى رائحة وهي عَرَضٌ يُذْرَك بحاسة الشَّم.

«أَوْضَع رَاجِلَتَهُ»^(٢): أَوْضَع بالضاد المعجمة والعين المهملة، أي خَثَّها على السرعة.

«الْقَرَار»: بالقاف: المُسْتَقَرُّ من الأرض.

«بَطْحَانَ»: بضم المُوَحَّدة فسكون الطاء المهملة وقيل بفتح أوَّلِهِ وكسْر ثانيه: واد من أودية المدينة. رَوَى ابنُ شَبَّةَ والبَرَّاز عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً أن بَطْحَانَ على ترعة من تَرَعِ الْجَنَّةِ.

«نَجْلًا»^(٣): بفتح النون وسكون الجيم أي أن واديهما كان نَزًّا. قال: النُّجْل: الماء حين يَسِيل، وفَسَّرَه البخاري ماءً آجِنًا. قال القاضي: «وهو خَطَأٌ»، وقال الحافظ: «وليس كما قال فإن عائشة قالت ذلك في مقام التعليل لكون المدينة كانت وبيئة، ولا شك أن النُّجْل إذا فُسِّر بكونه الماء الحاصل من النَّزِّ، فهو بصدد أن يَتَغَيَّرَ، وإذا تَغَيَّرَ كان استعماله مما يُحْدِثُ الوباء في العادة».

«وَعَلَك»: الوَعَلَك بفتح الواو وسكون العين المهملة الحُمَّى.

(١) الدُّوْح: البيت الضخم الكبير من الشجر، والدوْحَة: الشجرة العظيمة المتشعبة ذات الفروع الممتدة من شجرها الوسيط ٣٠٢/١.

(٢) أَوْضَع بين القوم: أَسَد، وَأَوْضَع فِي الشَّرَاءِ سَرَع فِيهِ، وَأَوْضَع الرَّاكِبُ الدُّابَّةَ: حَمَلَهَا عَلَى السَّرْعِ السَّرِيعِ. الوسيط ١٠٣٩/٢.

(٣) النُّجْل: الماء السائل، والنُّجْل: الماء استقنع والولد والنز والجمع الكثير من الناس والمعجزة الواضحة، ويقال: استنجل الموضوع: أي كثر به النُّجْل وهو الماء يظهر من الأرض. انظر اللسان ٤٣٥٦/٦.

«كَيْفَ تَجِدُكَ»: أي تَجِدُ نَفْسَكَ أو جَسَدَكَ «مُصْبِحًا»: بميم مضمومة وصاد مهملة فمَوْحِدَةٌ، وزن مُحَمَّد، أي مصاب بالموت صباحاً، وقيل: المراد يُقال صَبَّحَكَ اللهُ بالخير، وقد يَفْجَأُ الموت في بقية النهار وهو مُقِيمٌ بأهله، ويُزَوَى بالخاء المعجمة وهو أيضاً مكان بمكة.

«شِرَاكُ النَّعْلِ»: بكسر الشين المعجمة وتخفيف الراء: السير الذي يكون في وجه النعل، والمعنى أن الموت أقرب إلى الشخص من شراك نعله برجله.
«بَطْوِقُهُ»^(١): الطَّوْقُ هنا الطاقة والعُدَّة.

«الرَّوْقُ» بالراء والقاف: القُرُون.

«عَقِيرَتُهُ»: أي صوته، قال الأصمعي: إن رَجُلًا عَقِيرَت رِجْلُهُ فرفعها على الأخرى وجعل يصيح فصار كل من رفع صَوْتَهُ يُقال رفع عَقِيرَتَهُ وإن لم يرفع رِجْلَهُ، قال ثعلب: وهذا من الأسماء التي استُعْمِلَتْ على غير أصلها.
«بَوَادٍ»: أي بوادي مكة.

«الإِذْخِرُ»^(٢): بكسر الهمزة والخاء المعجمة بينهما ذال معجمة: نَبْتُ طَيْبِ الرَّائِحَةِ.

«جَلِيلٌ»: بالجيم واللام: والشَّمَامُ بضم الشاء المثناة: نَبْتُ ضَعِيفٍ له خوص أو ما يشبهه.

«مَجَنَّةٌ»: بكسر الميم وفتحها: سوق بأسفل مكة.

«يَتَدَوَّنُ»: أي يَظْهَرُنْ.

«شَامَةٌ»: بالشين المعجمة «وَطْفِيلٌ» بطاء مهملة مفتوحة وفاء مكسورة فمثناة تحتية: جَبَلَان. قال البكري: جبلان مُشْرِفَانِ على مَجَنَّةٍ على بَرِيدٍ من مكة.

«يَهْتَدُونَ»: بالذال المعجمة: يَخْلِطُونَ ويتكلمون بما لا ينبغي.

«مَهْيَعَةٌ»^(٣): بفتح الميم وسكون الهاء وفتح المُمَثَّلَةِ التحتية والعين المهملة.

«الجُحْفَةُ»: بجيم مضمومة فحاء مهملة ساكنة ففاء مفتوحة: قرية جامعة لأن السيول اجتاحتها.

(١) يقال: هو في طوق أي في وسعي قال الليث: الطوق مصدر من الطاقة وأنشد

كل امرئ مجاهد بطوقه

والثور يحمي أنفه بروقه

اللسان ٢٧٢٥/٤.

(٢) انظر اللسان ١٤٩٠/٢.

(٣) انظر الوسيط ١٠٠٣/٢.

«ثائرة الرأس»: بالمثلثة: مُتَثِّرَةٌ شَعْرُ الرَّأْسِ.

«مُلَبَّبَةٌ»^(١): بضم الميم وفتح اللام والموحدة الأولى المشددة وتخفيف الثانية، يقال: لَبَّبْتُهُ بِالتَّشْدِيدِ إِذَا جَمَعْتَ ثِيَابَهُ عِنْدَ نَعْرِهِ ثُمَّ جَرَزْتَهُ.

«خُمٌّ»: بخاء معجمة مضمومة فميم مُشَدَّدَةٌ: غَدِيرٌ عَلَى ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ مِنَ الْجُحْفَةِ يَسْرَةُ عَنِ الطَّرِيقِ.

«جُهَدُوا»: بالضم مبني للمفعول: أَي حَصَلَ لَهُمُ الْجَهْدُ وَهُوَ بِالْفَتْحِ الْمَشَقَّةُ فَتَجَسَّمُ الْمُسْلِمُونَ الْقِيَامَ أَي تَكَلَّفُوهُ.

«التماس الفضل»: أي طلبه.

«الأكراش»^(٢): جمع كِرْشٍ بكسر الكاف يُذَكَّرُ وَيُؤنَّثُ وَهُوَ لَذِي الْخُفِّ وَالظُّلْفِ كَالْمَعْدَةِ لِلْإِنْسَانِ.

(١) انظر اللسان ٣٩٨٢/٥.

(٢) انظر المصباح النور ٥٣٠، ٥٣١.

الباب الخامس

في عصمتها من الدجال والطاعون ببركته صلى الله عليه وسلم

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «على أنقاب المدينة ملائكة يحرسونها، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال»^(١) رواه الشيخان. وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة، ليس من نقب من أنقابها إلا عليه ملائكة صافين يحرسونها فينزل السبخة، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فيخرج إليه كل كافر ومنافق»^(٢)، حديث مُتَّفَقٌ عليه. وعن أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال، لها يومئذ سبعة أبواب على كل باب ملكان»^(٣)، رواه البخاري.

وعن تميم الداري رضي الله عنه في حديثه الطويل في رؤية الدجال في اليقظة أن الدجال قال: يوشك أن يؤذن لي في الخروج فأخرج فأسير في الأرض، فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة، هما مُحَرَّمَتَانِ عَلَيَّ، كلما أردتُ أن أدخل واحدةً منهما استقبلني ملكٌ بيده السيف ضلماً، يصدني عنها، وأن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها»، قال رسول الله ﷺ وطعن بمخصرته في المنبر: «هذه طيبة، هذه طيبة»^(٤)، رواه مسلم. وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «المدينة يأتيها الدجال فيجد الملائكة يحرسونها فلا يقربها الدجال ولا الطاعون إن شاء الله تعالى»، قوله: إن شاء الله تعالى للتبرك وللجزم به في بقية الأحاديث. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: «يأتي الدجال وهو مُحَرَّمٌ عليه أن يدخل أنقاب المدينة، فينزل بعض السباخ التي تلي المدينة، فيخرج إليه يومئذ رجلٌ هو خيرُ الناس أو من خَيْرِ الناس فيقول: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه، فيقول الدجال: أرايتم إن قتلْتُ هذا ثم أحبيته هل تشكون في الأمر؟ فيقولون: لا، فيقتله ثم يحييه، فيقول: والله ما كنتُ فيك أشد بصيرة مني اليوم، فيريد الدجال أن يقتله فلا يُسَلِّطُ عليه»^(٥)، رواه البخاري.

تنبيهات

الأول: صَحَّحَ في أحاديث كثيرة أن الطاعون شهادة. قيل: وإذا كان كذلك فكيف قرن

(١) أخرجه البخاري ٥٣/٣ (١٨٨٠-٧١٣٣) ومسلم في كتاب الحج (٤٨٥).

(٢) أخرجه البخاري ٢٨/٣ ومسلم في كتاب الفتن (١٢٣).

(٣) أخرجه البخاري ٥٣/٣ (١٨٧٩).

(٤) تقدم.

(٥) أخرجه البخاري ١٠٩/١٣ (٧١٣٢).

بالدجال، وكيف مُدحت المدينة الشريفة بأنه لا يدخلها؟ والجواب أنه كونه شهادةً ورحمةً ليس المراد بوصف ذلك ذاته، وإنما المراد أن ذلك يترتب عليه وينشأ عنه، وأنه سببه، فإذا تقرر ذلك واستُخبر ما ورد في الأحاديث من أن طعن الجن^(٢) ظهر به مدح المدينة بأنه لا يدخلها إشارة إلى أن كفار الجن وشياطينهم ممنوعون من دخول المدينة الشريفة، ومن اتفق دخوله إليها منهم لا يتمكن من آحاد أهلها بالطعن حمايةً من الله تعالى لهم منهم. فإن قيل: طعن الجن لا يختص بوقوعه من كفارهم في مؤمني الإنس، بل يقع من مؤمني الجن في كفار الإنس، فإذا سلم منح الجن الكفار من المدينة لم يُمتنع من آمن منهم من دخولها فالجواب: إن دخول كفار الإنس المدينة غير مُباح، فإنه إذا لم يسكن المدينة إلا من أظهر الإسلام، جرت عليه أحكام المسلمين، وصار من لم يكن خالص الإسلام تبعاً للخالص، فحصل الأمن من دخول الجن إليهم، فلذلك لا يدخلها الطاعون أصلاً. قال الحافظ في بَدَل الطاعون في أخبار المدينة: وهذا الجواب أحسن من جواب القرطبي في المُفهم حيث قال: «المعنى لا يدخلها من الطاعون مثل الذي في غيرها كطاعون عِمَواس^(١) والجارف». وهو جواب صالح على تقدير التَّنَزُّل أن لو وقع شيء من ذلك بها. وقال غيره: سبب الرحمة لم ينحصر في الطاعون وقد قال ﷺ: «غير أن عافيتك أوسع لي»، فإن ذلك من خصائص المدينة الشريفة، ولوازم دعاء النبي ﷺ لها بالصحة. وأجاب المنبجي بأجوبة منها أنها صغيرة؛ فلو وقع بها الطاعون أفنى أهلها، ومنها أنه غرضهم عن الطاعون بالحُمى لأن الطاعون يأتي بعد مدة والحُمى تتكرر في كل مدة فتعادلاً. قال الحافظ: «ويظهر لي جواب أخص من هذه الأجوبة بعد استحضار حديث أبي عسيب أن رسول الله ﷺ قال: «أتاني جبريل بالحُمى والطاعون فأمسكت الحُمى بالمدينة وأرسلت الطاعون إلى الشام»، الحديث، وهو أن الحكمة في ذلك أنه ﷺ لما دخل المدينة كان في قلة من أصحابه عدداً ومدداً من زادٍ وغيره، وكانت المدينة وبيئتها كما سبق، فناسب الحال الدعاء بتصحيح المدينة لتصبح أجساد المقيمين بها ليَقْوُوا على جهاد الكفار، وخير النبي ﷺ في أمرين، يحصل لمن أصاب كلاً منهما عظيم الثواب، وهما الحُمى والطاعون، فاختر الحُمى بالمدينة لأن أمرها أخف من أمر الطاعون لسرعة الموت به غالباً.

فلما أُذِن له في القتال كانت قضية استمرار الحُمى ضعف الأجساد التي تحتاج إلى القوة في الجهاد، فدعا حينئذ بنقل الحمى إلى الجُحفة فأجيب دعاؤه، وصارت المدينة من أصح بلاد الله، فإذا شاء الله موت أحدٍ منهم، حصل له التي كانت من الطاعون بالقتل في

(١) عِمَواس رواء الزمخشري بكسر أوله، وكسر ثانيه. وغيره بفتح أوله وثانيه وسين مهمله آخره: كورة من فلسطين قرب بيت المقدس وكانت عَمَواس فصبتها قديماً، وهي ضئمة جليلة على ستة أميال من بيت المقدس منها كان ابتداء الطاعون المنسوب إليها في زمن عمر، قيل مات فيه خمسة وعشرون ألفاً. من مراصد الاطلاع ١٩٦٢/٢، ٩٦٣.

سبيل الله الذي هو أعلى درجة، ومن فاته ذلك منهم مات بالحُمى التي هي حظ المؤمن من النار، كُلُّ يَوْمٍ مِنْهَا يُكْفَرُ سَنَةً.

واستمر ذلك بالمدينة بَعْدَهُ ﷺ تحقياً لإجابة دُعائه ﷺ. نَعَمْ شاركتها في ذلك مكة المُشْرِفة فلم يدخلها الطاعون فيما مضى من الزمان كما يرويه ابن قتيبة في المعارف، ونقله جماعة من العلماء عنه وأقروه إلى زمان الإمام النووي رحمه الله. ذكر ذلك في كتاب الأذكار وغيره، لكن قد قيل إنه دَخَلها بعد ذلك في الطاعون العام الذي وقع في سنة تسع وسبعين وسبعمئة، صَرَّح بذلك غَيْرُ واحد من أهل ذلك الزمان.

الثاني: مَنَعَ الطاعون عن المدينة معجزة عظيمة لأن الأطباء من أولهم إلى آخرهم عجزوا أن يدفعوا الطاعون عن بلد من البلاد بل عن قرية من القرى وقد امتنع الطاعون، عن المدينة بدعائه ﷺ هذه المدة الطويلة.

الثالث: ظاهر الأحاديث أن الدُّجَال يدخل جميع البلاد، وبذلك قال الجمهور، وشَدُّ ابن حزم فقال: «المراد أن يدخله بَغْتَةً هو وجنوده. وكأنه استبعد إمكان دخول الدجال جميع البلاد لِقِصْر مُدَّتِهِ، وَغَفْلَ عَمَّا ثَبِتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ بَعْضَ أَيَّامِهِ يَكُونُ قَدْرَ السَّنَةِ.

الرابع: في بيان غريب ما سبق:

«الأنقاب»: بالقاف جمع نَقَب بفتح النون والقاف بعدها موحدة، والنقاب بالكسر جمع نَقَب بالسكون وهما بمعنى والمراد الطريق في الجبل وغيره.

«السَّبِيخة»: بفتح السين المهملة والباء الموحدة والخاء المعجمة: موضع بالمدينة بين موضع الخندق وبين جبل سَلْع.

«ترجف المدينة»: أي يحصل بها زلزلة بعد أخرى ثم ثالثة حتى يخرج منها من ليس مخلصاً في إيمانه، ويبقى بها الدين الخالص فلا يُسَلِّطُ عليها الدُّجَال، ولا يُعَارِضُ هذا ما في حديث أبي بكر: «لا يدخل المدينة رُغْبُ الدُّجَال» لأن المراد بالرُّغْب ما يحدث من الفَزَع من ذِكْرِهِ، والخوف من عِتْوِهِ، لا الرُّجْفَةُ التي تقع بالزلزلة لإخراج مَنْ لَيْسَ بِمُخْلِصٍ.

«صَلْتًا»: أي مُجْرَدًا من غَمْدِهِ.

«المِخْصَرَةُ»: بكسر الميم وسكون الخاء المعجمة وفتح الصاد المهملة، وهي العصا أو نحوها، يأخذها الرجل بيده.

«يُوشِكُ»: أي يَقْرُبُ.

الباب السادس

في الحث على الإقامة والموت بها والصبر على لأوائها ونفيها الخبث والذنوب واتخاذ الأصول بها والنهي عن هدم بنيانها

عن الصُّمَيْتَةِ - بصاد مهملة فميم مفتوحة فَمُثْنَاةٌ تحتية ساكنة فَمُثْنَاةٌ فوقية مفتوحة فهاء
تأنيث - اللُّبَيْبَةُ رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من استطاع منكم ألا يموت
إلا بالمدينة فَلْيَمُتْ بها، فإن من يموت بها يُشْفَعُ أو يُشْهَدُ له»^(١). رواه ابن جِبَّانٍ والبيهقي.

وعن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من استطاع أن يموت
بالمدينة فَلْيَمُتْ بها فإنني أشفع لمن يموت بها»^(٢). رواه الإمام أحمد والترمذي وصَحَّحَهُ ابن
جِبَّانٍ. وعن سفيان بن أبي زهير رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «يُفْتَحُ اليَمَنُ
فيخرج قَوْمٌ من المدينة بأهليهم ومن أطاعهم يَيْسُونُ، والمدينة خَيْرٌ لهم لو كانوا يعلمون،
ويُفْتَحُ العراق، فيخرج قوم بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خَيْرٌ لهم لو كانوا يعلمون»^(٣). رواه
الشيخان.

وروى الإمام أحمد والبخاري والترمذي عن جابر بن عبد الله، ومسلم عن أبي
هريرة، والطبراني رجال ثقات عن أبي أيوب وزيد بن ثابت، والطبراني رجال ثقات عن أبي
أسيد الساعدي^(٤) رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال: «سيأتي على الناس زمان يُفْتَحُ فيه
فتحات الأرض فيخرج إليها دُجَالٌ - وفي لفظ: فيخرج الناس إلى الأرياف يلتمسون الرخاء،
فيجدون رخاء، وفي لفظ: مَطْعَمًا ومَلْبَسًا ومركبًا، فيقال لهم: هلم إلينا فإنكم بأرض حجاز
جدوبة والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وفي لفظ: فيكتبون إلى أهليهم هلموا إلينا، فإنكم
بأرض حجاز جدوبة، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وفي لفظ: فيمرون على إخوان لهم
حُجَّاجًا أو عُجَّارًا، فيقولون: ما يقيمكم في لأواء العيش وشدة الجوع؟ قال رسول الله ﷺ:
فذاهب وقاعد، حتى قالها مراراً والمدينة خير لهم، لا يثبت فيها أحد فيثبت لأوائها وشدتها
حتى يموت إلا كُنْتُ له يوم القيامة شهيداً أو شفيعاً، والذي نفسي بيده لا يخرج أحد رغبة

(١) أخرجه الترمذي (٣٩١٧) وابن حبان (١٠٣١) وابن حجر في المطالب (١٢٤٧).

(٢) ذكره العراقي في تخرجه على الإحياء ٢٤٤/١ وعزاه للترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) أخرجه البخاري ١٠٧/٤ (١٨٧٥) ومسلم ١٠٠٩/٢ (٤٩٧-١٣٨٨).

(٤) مالك بن ربيعة بن التَّدَن، بفتح الموحدة والمهملة بعدها نون، أبو أسيد الساعدي، مشهور بكنيته، شهد بدرًا وغيرها، ومات سنة ثلاثين، وقيل: بعد ذلك، حتى قال المدائني: مات سنة ستون، قال: هو آخر من مات من البدرين. التعريب ٢٢٥/٢.

عنها إلا أخلف الله فيها خيراً منه، ألا إن المدينة كالكبير تُخرج الخبيث، لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرازها كما ينفي الكبر خبث الحديد^(١).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يصبر على لأواء المدينة وشِدَّتْهَا أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِي إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، رواه مسلم^(٢). وعن عُمر رضي الله عنه أنه قال: «اللهم ارزقني قتالاً في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولك»، رواه البخاري^(٣).

وعن يحيى بن سعيد مُرْسِلاً أن رسول الله ﷺ قال: «ما على الأرض بقعة أحب إليّ أن يكون قبوري بها منها»، ثلاث مرات، يعني المدينة، رواه الإمام مالك في المُوطَّأ. وعن أبي سعيد مَوْلَى المَهْرِيِّ - بالراء - أنه جاء إلى أبي سعيد الخُدْرِيِّ ليالي الحَرَّةِ فاستشاره في الجلاء عن المدينة وشكا إليه أشقارها وكثرة عياله، وأخبره ألا صَبَرَ له على جَهْدِ المدينة ولأوائها. فقال له: وَيَحْكُ لَا أَمْرُكَ بِذَلِكَ، الزم المدينة فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يصبر أحدٌ على لأوائها فيموت إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة إذا كان مسلماً»^(٤). وفي حديث أخرجه مسلم: «لا يريد أحد أهل المدينة بسوء إلا أذابه الله في النار ذوب الرصاص أو ذُوب الجِلْحِ في الماء»^(٥). وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صَبَرَ على لأوائها وشدتها كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة»^(٦). رواه مسلم. وعن أبي هريرة بنحوه، رواه الترمذي.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كان له بالمدينة أصل فليتمسك به، ومن لم يكن له بها أصل فليجعل له بها أصلاً، فليأتين على الناس زمان يكون الذي ليس له بها أصل كالخارج منها المجتاز إلى غيرها»^(٧)، وفي رواية: «فليجعل له بها أصلاً ولو قَصْرَةً»، رواه الطبراني وابن شَبَّة بسند لا بأس به. وروى ابن شَبَّة عن الزُّهْرِيِّ مُرْسِلاً: «لا تتخذوا الأموال بمكة واتخذوها بدار هجرتكم، فإن المرء مع ماله». وعن أبي هريرة رضي الله

(١) أخرجه مسلم ١٠٠٥/٢ (٤٨٧-١٣٨١).

(٢) أخرجه مسلم ١٠٠٤/٢ (٤٨١-١٣٧٧).

(٣) أخرجه البخاري ٥٧/٣ (١٨٩٠).

(٤) انظر تخريجه بأسانيد مختلفة في صحيح مسلم ١٠٠٤/٢ كتاب الحج باب الترغيب في سكن المدينة.

(٥) أخرجه مسلم ٩٩٢/٢ (٤٦٠-١٣٦٣).

(٦) تقدم انظر مسلم الموضع السابق.

(٧) ذكره الهيثمي في المجمع ٣٠٤/٣ وعزاه للطبراني في الكبير وقال: ورجاله ذكرهم ابن أبي حاتم ولم يذكر فيهم جرحاً.

عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ بِقَرِيَّةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى يَقُولُونَ يَثْرِبُ وَهِيَ الْمَدِينَةُ تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ».

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن أعرابياً بايع رسول الله ﷺ، فأصاب الأعرابي وَعَكَ فَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَقْلَنِي بِيَعْتِي. فَأَبَى. ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ: أَقْلَنِي بِيَعْتِي. فَأَبَى. فَخَرَجَ الْأَعْرَابِيُّ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا الْمَدِينَةُ كَالْكَبِيرِ تَنْفِي خَبَثَهَا وَيَنْصَعُ طَيْبُهَا»^(١) رواه الشيخان. وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِنَّهَا طَيِّبَةٌ - يَعْنِي الْمَدِينَةَ - وَإِنَّهَا تَنْفِي الْخَبَثَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خَبَثَ الْفِضَّةِ»^(٢)، رواه مسلم. والمراد هنا الإقالة من الإسلام وقيل من الهجرة [كأنه كان قد بايع على هجرة الإقامة]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى عن أطام المدينة أن تُهْدَمَ. وروى البزار بسند حسن عن عمر رضي الله عنه قال: غلا السعر بالمدينة فاشتد الجهد، فقال رسول الله ﷺ: «اصبروا وأبشروا فإنني قد بَارَكْتُ عَلَى صَاعِكُمْ وَمُدَّكُمْ، وَكَلُوا وَلَا تَتَفَرَّقُوا فَإِنَّ طَعَامَ الْوَاحِدِ يَكْفِي الْاِثْنَيْنِ وَطَعَامَ الْاِثْنَيْنِ يَكْفِي الْأَرْبَعَةَ وَطَعَامَ الْأَرْبَعَةِ يَكْفِي الْخَمْسَةَ وَالسَّتَةَ، وَإِنَّ الْبُرْكَةَ فِي الْجَمَاعَةِ، فَمَنْ صَبَرَ عَلَى لَأْوَائِهَا وَشَدَّتْهَا كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً أَوْ شَهِيداً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ خَرَجَ رَغْبَةً عَنْهَا أَبَدَلُ اللَّهُ بِهِ مِنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا فِيهَا، وَمَنْ أَرَادَهَا بِسُوءٍ أَذَابَهُ اللَّهُ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ»^(٣). وروى البخاري عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّهَا أَيُّ الْمَدِينَةِ طَيِّبَةٌ تَنْفِي الذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خَبَثَ الْفِضَّةِ»^(٤).

تنبيهات

الأول: قال القاضي رحمه الله: «سئلت قديماً عن معنى قوله ﷺ: «كنت شهيداً أو شفيعاً»، ولم يخص ساكن المدينة بالشفاعة هنا مع عموم شفاعته وأذخاره إياها لأئمة؟ وأجيب بأن «أو» ليست هنا للشك، خلافاً لمن ذهب إليه، إذ قد رواه جابر، وأبو هريرة، وأبو سعيد، وسعد بن أبي وقاص، وابن عمر، وصفية بنت أبي عبيد، وأسماء بنت عميس رضي الله عنهم بهذا اللفظ، ويعد اتفاق الكل واتفاق رواياتهم على الشك، ووقوعه بصيغة واحدة، بل الظاهر أنه ﷺ قال كذلك هكذا، فيما أن يكون هو أعلم بهذه الجملة هكذا، وإما أن تكون «أو» للتقسيم، ويكون النبي ﷺ شفيعاً لبعض أهل المدينة وشهيداً لبعضهم الآخر، إما شهيداً

(١) أخرجه البخاري ٩٨/٩ ومسلم في كتاب الحج (٤٨٩) والترمذي (٣٩٢٠) والنسائي ١٥١/٧.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الحج (٤٩٠).

(٣) ذكره الهيثمي في المجمع ٣٠٨/٣ وعزاه للبزار، وقال: ورجاله رجال الصحيح وذكره العتقي الهندي في الكنز (٣٨١٢٣).

(٤) أخرجه البخاري ٩٣/٦ (٤٥٨٩).

للطائعين وشفيعاً للعاصين، أو شهيداً لمن مات في حياته، شفيعاً لمن مات بعده، أو غير ذلك مما الله أعلم به، وهذه خصوصية زائدة على الشفاعة لكافة المذنبين، وعلى الشهادة لكافة الأمة، وقد قال ﷺ في شهداء أحد: «أنا شهيد على هؤلاء»، فيكون في تخصيصهم زيادة منزلة، وقد تكون «أو» بمعنى الواو، فيكون لأهل المدينة شهيداً وشفيعاً بالشفاعة العامة. وإن جعلنا «أو» للشك كما ذهب إليه بعضهم، فإن كانت اللفظة الصحيحة فلا إشكال، إذ هي زائدة على الشفاعة المُدخَّرة، وإن كانت الصحيحة شفيعاً فاختصاص أهل المدينة بهذا مع ما جاء في عمومها وادخاره لجميع الأمة أن هذه شفاعة أخرى غير العامة التي هي لإخراج أمتهم من النار وإخراج بعضهم منها بشفاعته ﷺ يوم القيامة، وتكون هذه الشفاعة لأهل المدينة زيادة في الدرجات أو تخفيف الحساب بما شاء الله من إكرامهم يوم القيامة بأنواع من الكرامة.

الثاني: قوله ﷺ: «تنفي الناس»، وفي لفظ «الرجال»، قال القاضي: «كان هذا يختص بزمنه لأنه لم يكن يصبر على الهجرة والمقام معه بها إلا من ثبت إيمانه». وقال النووي: «ليس هذا بظاهر لأن عند مسلم لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شِرَارَها كما ينفي الكير خَبَث الحديد، وهذا والله أعلم زمن الدُّجَال». قال الحافظ: «ويحتمل أن يكون المراد كلاً من الزمانين، وكان الأمر في حياته ﷺ السبب المذكور، ويُؤيِّده قِصَّة الأعرابي الذي استقاله فإنه ﷺ ذكر هذا الحديث مُعَلِّلاً به خروج الأعرابي وسؤاله الإقالة من البيعة، ثم يكون ذلك أيضاً آخر الزمان، عندما ينزل الدُّجَال فترجف الأرض بأهلها فلا يبقى منافق ولا كافر إلا خرج إليه».

وقال السيد^(٢): «وقد أبعد الله عنها أرباب الخَبَث الكامل وهم الكُفَّار، وأما غيرهم فقد يكون إبعاده إن مات بها بنقل الملائكة له كما أشار إليه الأَقْشَهْرِي أو المراد إبعاد أهل الخَبَث الكامل فقط وهم أهل الشقاء والكفر لا أهل السعادة والإسلام لأن القسم الأول ليس قابلاً للشفاعة ولا للمَغْفِرَة، أو المراد، فيما عدا قِصَّة الأعرابي والدُّجَال أنها تُخَلِّص النفوس من شَرِّها وظلمات ذنوبها، بما فيها من اللأواء والمشقات ومضاعفة المثوبات وتوالي الرحمات، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ الشَّيْئَاتِ﴾ [هود ١١٤]، ويُحْتَمَل أن يكون بمعنى أنه لا يخفى حال من انطوى فيها على خَبَث بل تظهر طوبته كما هو مُشَاهَدٌ بها، ولم أر إلى الآن مَنْ نَصَّ على هذا الاحتمال وهو في حظي قديماً ويؤيده ما في غزوة أُحُد في الصحيح من أنه ﷺ لما خرج إلى أحد رَجَعَ ناسٌ من أصحابه أي وهم المنافقون فقال ﷺ: «المدينة كالكبير» (الحديث)، والذي ظهر لي من مجموع الأحاديث واستقراء أحوال هذه البلدة الشريفة أنها تنفي خَبَثَها بالمعاني الأربعة».

وقوله ﷺ: «لو كانوا يعلمون» أي بفضلها من الصلاة في المسجد النبوي أو ثواب الإقامة فيها وغير ذلك. ويحتمل أن «لو» بمعنى «لَيْتَ» ولا يحتاج إلى تقدير، وعلى الوجهين ففيه تجهيل لمن فارقتها وآثر غيرها. قالوا: والمراد به الخارجون من المدينة رغبة عنها كارهين لها. وأما من خرج لحاجة أو تجارة أو جهاد أو نحو ذلك فليس بداخل في معنى الحديث.

قال الطيب: «الذي يقتضيه هذا المقام أن ينزل أولئك الذين «لا يعلمون» منزلة اللازم لتتفي عنهم المعرفة بالكلية، ولو ذهبوا مع ذلك التمني لكان أبلغ لأن التمني طلب ما لا يمكن حصوله، أي لَيْتَهُمْ كانوا من أهل العلم تغليظاً وتشديداً». قال البيضاوي: «المعنى أنه يفتح اليمن، فيعجب قوماً بلادها، وعيش أهلها، فيحملهم ذلك على المهاجرة إليها بأنفسهم وأهليهم حتى يخرجوا من المدينة، والحال أن الإقامة في المدينة خير لهم لأنها حرم النبي ﷺ وجواره ومهبط الوحي ومنزل البركات لو كانوا يعلمون ما في الإقامة بها من الفوائد الأخروية التي يستخفرونها ما يجدونه من الحظوظ الفانية العاجلة بسبب الإقامة فيها». وقواه الطيبي لتكثير قومه ووصفهم بكونهم يئسون، ثم توكيده بقوله: لو كانوا يعلمون، لأنه يشعر بأنهم ممن ركن إلى الحظوظ البهيمية والخطام الفاني، وأعرض عن الإقامة في جوار النبي ﷺ، ولذلك كرر قوماً ووصفهم في كل مرتبة بقوله يئسون بسبب اتخاذهم لتلك الهيئة القبيحة.

الثالث: في بيان غريب ما سبق:

«يئسون»^(١): بمشناة تحتية فموحدة مضمومة وتكسر، قال أبو عبيدة: معناه يسوقون دوابهم والبس سوق الإبل بقول بس بس عند الشوق وإرادة السرعة.

«الأرياف»: جمع ريف بكسر الراء، موضع الخضب - بكسر الخاء المعجمة - والسعة في المطعم.

«اللأواء»: بالفتح والمد: الشدة وضيق المعيشة.

«تنفي الخبث»: أي بإظهاره وإخراجه.

«الكبير»: بكسر الكاف وسكون التحتية وهو المعروف بين الناس أنه الرق الذي ينفخ فيه، لكن أكثر أهل اللغة على أن المراد بالكبير كانون الحداد والصائغ، وقيل: الكبير هو الرق والكانون هو الكور.

(١) انظر اللسان ٢٨١/١.

«خبث الحديد»: بضم الخاء المعجمة والموحدة فمثلة: وَسَخُّه الذي تُخْرِجُه النار، والمراد هنا: لا يُتْرَكُ فيها مَنْ في قلبه دَغْلٌ وِغْشٌ ونفاقٌ يُمَيِّزُه عن القلوب الصادقة ويُخْرِجُه منها كما يميز الخَدَّاد رديء الحديد من جَيِّده، ويُتَسَبَّبُ التَّمْيِيزُ للكبير لكونه السبب الأكيد في اشتعال النار التي يقع التمييز بها.

«تَنْصَعُ»: بمثناة فوقية فنون ساكنة فصاد فعين مهملتين: من النصوع وهو الخلوص، والمعنى أنها إذا نَفَتْ الخَبْثَ تَمَيَّزَ الطُّيْبُ، واستقر بها طيِّبُها. رواه الأكثر بالنصب على المفعولية أي تَنْصَعُ طيِّبُها وذكر بعض رواة الصحيح يَنْصَعُ طيِّبُها على الفاعلية.

«الآطام»: بالمدِّ جمع أطم بضمَّتَيْن وهي الحصون التي تُبْنَى بالحجارة، وقيل: هو كل بيت مربع مُسَطَّح.

الباب السابع

في وعيد من أحدث بها حدثاً أو آوى محدثاً

أو أرادها وأهلها بسوء أو أخافهم والوصية بهم

روى الطبراني برجال الصحيح عن أبي أُمّامة، وعن عَلِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي مَدِينَتِي هَذِهِ حَدَثًا أَوْ آوَى مُخَدِّثًا فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا». وعن السائب بن خَلَادٍ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَخَافَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ ظُلْمًا أَخَافَهُ اللهُ عِزًّا وَجَلًّا، وَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا»^(١)، رواه الإمام أحمد. وعن أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَرَادَهَا - يَعْنِي الْمَدِينَةَ - بِسُوءِ أَذَابِهِ اللهُ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ»^(٢)، رواه الإمام أحمد والشيخان.

وعن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ^(٣) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْمَدِينَةُ مَهَاجِرِي وَفِيهَا مَضْجَعِي وَمِنْهَا مَبْعَثِي، حَقِيقٌ عَلَيَّ أُمَّتِي حِفْظُ جِيرَانِي مَا اجْتَنَبُوا الْكِبَائِرَ، وَمَنْ حَفِظَهُمْ كُنْتُ لَهُ شَهِيدًا وَشَفِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يَحْفَظْهُمْ شَقِيٌّ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ»، قِيلَ لِمَعْقِلٍ: وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ؟ قَالَ: عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ^(٤)، رواه أبو عمرو بن السَّمَاكِ، وابن الجوزي في «مثير الغرام الشاكن».

وروى الجندي أن رسول الله ﷺ قال: «أَيُّمَا جَبَّارٍ أَرَادَ الْمَدِينَةَ بِسُوءِ أَذَابِهِ اللهُ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ»^(٥). وروى البزار بسند حسن عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ اكْفِهِمْ مِنْ ذَهَمِهِمْ بِيَأْسٍ - يَعْنِي الْمَدِينَةَ - وَلَا يَرِيدُهَا أَحَدٌ بِسُوءٍ إِلَّا أَذَابَهُ اللهُ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ»^(٦). وروى محمد بن الحسن المخزومي عن سعيد بن المسيّب مُرْسَلًا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ مَنْ أَرَادَنِي وَأَهْلَ بَلَدِي بِسُوءٍ فَعَجِّلْ بِهِلاكه». وروى الإمام أحمد برجال الصحيح عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَخَافَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَخَافَهُ اللهُ»^(٧)، رواه ابن حبان. وعن عبادة بن الصامت

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥٥/٤.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١٨٤/١ - ٣٣١/٢. والبخاري ١١٢/٤ (١٨٧٧) ومسلم ٩٩٣/٢ (٤٦٠ - ١٣٦٣).

(٣) معقل بن يسار الثزني أبو علي بايع تحت الشجرة. له أربعة وثلاثون حديثاً، اتفقا على حديث وانفرد (خ) بآخر، و (م) بحدِيثَيْنِ. وعنه عمران بن حصين. مات في خلافة معاوية. الخلاصة ٤٥/٣.

(٤) ذكره الهيثمي في المجمع ٣١٣/٣ وعزاه للطبراني في الكبير وقال: وفيه عبد السلام بن أبي الجيوب وهو متروك.

(٥) أخرجه الحميدي في المسند (١١٦٧).

(٦) ذكره الهيثمي في المجمع ٣١٠/٣ وعزاه للبخاري بإسناد حسن وقال: وفي الصحيح طرف من آخره.

(٧) أخرجه أحمد في المسند ٣٩٣/٣ والطبراني في الكبير ١٦٩/٧ وابن حبان (١٠٣٩) والبخاري في التاريخ ١١٧/١ وأبو نعيم في الحلية ٣٧٢/١.

رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم من ظلم أهل المدينة وأخاقهم فأخفه، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً»^(١)، رواه الطبراني بإسناد حسن.

وفي المدارك للقاضي قال محمد بن مسلمة: سمعت مالكا يقول: دخلت على المهدي فقال: أوصني، فقلت: أوصيك بتقوى الله وخذّه والعطف على أهل بلد رسول الله ﷺ وجيرانه، فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «المدينة مهاجري ومنها مبثي وبها قبري وأهلها جيرياني، وحقيق على أمتي حفظ جيرياني، فمن حفظهم في كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة، ومن لم يحفظ وصييتي في جيرياني سقاه الله من طينة الخبال».

وقال مُضْعَب: «لما قَدِمَ المهدي المدينة استقبله مالك وغيره من أشرفها على أميال، فلما بَصُرَ بمالك انحرف المهدي إليه فعانقه وسَلَّمَ عليه وسائره فالتفت إليه مالك فقال: يا أمير المؤمنين إنك تدخل الآن المدينة، فتمر بقوم عن يمينك ويسارك، وهم أولاد المهاجرين والأنصار، فسَلِّمْ عليهم، فإن ما على وجه الأرض قوم خَيْرٌ من أهل المدينة، ولا خَيْرٌ من المدينة قال: ومن أين قُلْتَ ذلك يا أبا عبد الله؟ فقال: لأنه لا يُعْرَفُ قَبْرُ نَبِيِّ اليوم على وجه الأرض غير قبر محمد ﷺ، ومن كان قبر محمد ﷺ عندهم فينبغي أن يُعْرَفَ فَضْلُهُمْ على غيرهم. ففعل المهدي ما أمره به، وفيه إشارة إلى التفضيل بمجاورة قبر رسول الله ﷺ، وقد قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»، ولم يخص جاراً دون جار.

ومن تأمل هذا الفضل لم يَرْتَبْ في تفضيل سُكْنَى المدينة على مكة، مع التسليم بمزيد المضاعفة لمكة، [إذ جهة الفضل غير منحصرة في ذلك] فلتك لها مزيد العَدَد، وهذه تُضَاعِفُ البركة والمَدَدَ لتلك جوار بيت الله، ولهذه جوار حبيب الله وأكرم الخلق على الله.

تنبيهات

الأول: قوله ﷺ: «لا يدعها أحدٌ رَغْبَةً عنها إلا أبدل الله فيها من هو خَيْرٌ منه». قال القاضي: اختلفوا فيه فقيل: هو مُخْتَصٌ بمدة حياته ﷺ، وقال آخرون: هو عامٌ أبداً، وهذا أصح. وقال المحب الطبري: إنه الأظهر لقوله ﷺ في الحديث الآخر: «سيأتي على الناس زمان يُفْتَحُ فيه فتحات الأرض فيخرج الناس إلى الأرياف يلتمسون الرخاء».. إلى آخر ما تقدّم.

الثاني: قوله ﷺ في حديث: «ولا يريد أحدٌ أهل المدينة بسوء إلا أذابه الله في النار».. إلى آخر الحديث، قال القاضي عياض: قوله: «في النار» يدفع إشكال الأحاديث التي

(١) ذكره الهيثمي في المجمع ٣/٢٠٩ وعزاه للطبراني في الأوسط والكبير وقال: ورجاله رجال الصحيح.

لم تُذكر فيها هذه الزيادة، ويبين أن هذا مُحْكَمٌ في الآخرة. وقال: قد يكون المراد به أن من أرادها في حياته ﷺ، كُفِيَ المسلمون شره واضمحَلَّ كَيْدُهُ كما يضمحل الرصاص في النار، قال: «ويحتمل أن يكون المراد مَنْ كادها اغتياًلاً وطلباً لغيرتها فلا يتم له أمر بخلاف من أتى ذلك جهاراً». قال: «وقد يكون في اللفظ تقديم وتأخير أي أذابه الله كذوب الرصاص في النار ويكون ذلك لمن أرادها في الدنيا فلا يُمهله الله ولا يُمكن له سلطاناً، بل يهلكه عن قُرب، كما انقضى شأن من حاربها أيام بني أمية مثل مسلم بن عُقْبَةَ فَأُهْلِكَ في منصرفه عنها، ثم هلك يزيد بن معاوية الذي أرسله على أثر ذلك وغيرهما ممن صنع صنيعهما.

الثالث: في بيان غريب ما سبق:

«الحَدَثُ» بالتحريك: الأمر الحادث المُتَكَرِّر الذي ليس بمعروف في السنة.

«المُخْدِثُ»: بكسر الدال اسم فاعل: أي من نَصَرَ جانياً وأواه وأجاره من خَصْمِهِ وحال بينه وبين أن يُقْتَصَّ منه، وبفتحها الأمر المُبْتَدِع نفسه، ويكون معنى الإيواء الرضا، فإنه إذا رَضِيَ به وأقرَّ فاعله من غير إنكار فقد آواه. والمراد بلعنة الملائكة والناس المبالغة في الإبعاد من رحمة الله تعالى، والمراد باللغز هنا العذاب الذي يستحقه على ذنبه في أول الأمر، وليس هو كَلْفَن الكافر.

«الصُّرُوفُ وَالْعَدْلُ»: بفتح أولهما: اختلِف في تفسيرهما فَيَعُدُّ الجمهور الصُّرُوفُ الفريضة، والعدل النافلة. وعن الأصمعي الصُّرُوفُ: التوبة، والعدل: الفدية، وقيل غير ذلك.
«انماع»^(١): ذاب وصال.

(١) انظر اللسان ٤٣٠٩/٦.

الباب الثامن

في تفضيلها على البلاد لحلوله صلى الله عليه وسلم فيها

نقل أبو الوليد الباجي والقاضي عياض وغيرهما الإجماع على تفضيل ما ضم الأعضاء الشريفة حتى على الكعبة كما قاله أبو اليمن بن عساكر في تحفته، وجزم بذلك أبو محمد عبد الله بن أبي عمير البشكري^(١). بموحدة مكسورة وقيل بفتحها وسين مهملة ساكنة فكاف مفتوحة وكسرهما فراء، . رحمه الله.

جَزَمَ الْجَمِيعُ بِأَنَّ خَيْرَ الْأَرْضِ مَا قَدْ حَاطَ ذَاتَ الْمُصْطَفَى وَحَوَاهَا
وَنَعَمَ لَقَدْ صَدَقُوا بِمَا كَانَتْهَا عَلَتْ كَالنَّفْسِ حِينَ زَكَتْ زَكَاةً مَأْوَاهَا

بل نقل القاضي تاج الدين السبكي^(٢) عن ابن عقيل^(٣) الحنبلي أنها أفضل من العرش، وجزم بذلك أبو عبد الله محمد بن رزين البحيري الشافعي أحد السادة العلماء الأولياء فقال في قصيدته في الوفاة النبوية:

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْقَبْرَ أَشْرَفُ مَوْضِعٍ مِنَ الْأَرْضِ وَالسَّبْعَ السَّمَوَاتِ طُرَّةً
وَأَشْرَفُ مِنْ عَرْشِ الْمَلِكِ وَلَيْسَ فِي مَقَالِي خِلَافٌ عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِيقَةِ

وضرح التاج الفاكهي بتفضيلها على السموات، قال: بل الظاهر المتعين تفضيل جميع الأرض على السماء لحلوله ﷺ بها، وحكاها الشيخ تاج الدين إمام الفاضلية عن الأكثرين

(١) البشكري: بكسر الباء المنقوطة بواحدة وسكون السين المهملة وفي آخرها الراء، هذه النسبة إلى بسكرة، وهي بلدة من بلاد المغرب، وقدم علينا فقيه فاضل سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة من هذه البلدة مرو عندنا وتوفي في هذه السنة وكان يذكر نسبه البشكري. الأنساب ٣٥٤/١.

(٢) عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام، العلامة قاضي القضاة تاج الدين أبو نصر بن الشيخ الإمام شيخ الإسلام تقي الدين أبي الحسن، الأنصاري، الخزرجي، السبكي. مولده بالقاهرة سنة سبع - بتقدم السين - وعشرين وسبعمائة، وقيل: سنة ثمان، وقرأ على الحافظ المزني، ولازم الذهبي وتخرج به، وطلب بنفسه، ودأب. قال الحافظ شهاب الدين بن حجي: أخبرني أن الشيخ شمس الدين بن النقيب أجازته بالإفتاء والتدريس، ولما مات ابن النقيب كان عمر القاضي تاج الدين ثمانين سنة، وأتني، ودرس وحدث وصنف، وأشغل، وناب عن أبيه بعد وفاة أخيه القاضي الحسين، ثم استقل بالقضاء بسؤال والده في شهر ربيع الأول سنة ست وخمسين، ثم عزل مدة لطيفة، ثم أعيد، ثم عزل بأخيه بهاء الدين، ومن تصانيفه «شرح مختصر ابن الحاجب» «رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب». توفي شهيداً بالطاعون في ذي الحجة سنة إحدى وسبعين وسبعمائة. انظر الطبقات لابن قاضي شهبة ١٠٥/٣، ١٠٦، والبداية والنهاية ٣١٦/١٤، والدرر الكامنة ٤٢٥/٢ والنجوم الزاهرة ١١/١٠٨، والبدر الطالع ٤١٠/١ وشذرات الذهب ٢٢١/٦، والأعلام ٣٣٥/٤.

(٣) علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الظفري، أبو الوفاء، ويعرف بابن عقيل: عالم العراق وشيخ الحنابلة ببغداد في وقته. كان قوي الحجّة، اشتهل بمذهب المعتزلة في حداته. وكان يعظم الحلاج، فأراد الحنابلة قتله، فاستجار بباب العراب عدة سنين. ثم أظهر التوبة حتى تمكن من الظهور. له تصانيف أعظمها «كتاب الفنون» قال الذهبي في تاريخه: كتاب الفنون لم يصنف في الدنيا أكبر منه. وله «الواضح في الأصول» و«الفرق» و«الفصول» في فقه الحنابلة، عشرة مجلدات، الأعلام ٣١٣/٤.

لِيَخْلُقَ الْأَنْبِيَاءَ مِنْهَا وَدَفَنَهُمْ بِهَا. وَقَالَ النَّووي: «المختار الذي عليه الجمهور أن السموات أفضل من الأرض، أي ما عدا ما ضَمَّ الأعضاء الشريفة. وأجمعوا بعد على تفضيل مكة والمدينة على سائر البلاد، واختلفوا فيهما، فذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبعض الصحابة وأكثر المدنيين، كما قال القاضي إلى تفضيل المدينة، وهو مذهب الإمام مالك، وإحدى الروايتين عن الإمام أحمد، والخلاف في غير الكعبة الشريفة فهي أفضل من بقية المدينة اتفاقاً. وإيراد حجج الفريقين مما يطول به الكتاب.

ويدل لما ذكر من أن النفس تُخْلَقُ من تربة الدفن ما رواه الحاكم وصححه عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: مرَّ النبي ﷺ بِقَبْرِ، فقال: «قَبْرٌ مَنْ هَذَا؟» فقالوا: قَبْرُ فُلانِ الْحَبَشِيِّ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فقال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ سَبَقَ مِنْ أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ إِلَى التُّرْبَةِ الَّتِي مِنْهَا خُلِقَ».

وتقدم في أول باب من هذا الكتاب أثر كعب: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خُلِقَ مِنَ الْقَبْضَةِ الَّتِي أُخِذَتْ مِنْ قَبْرِهِ الشَّرِيفِ». وروى [يزيد الجريري قال: سمعت ابن سيرين يقول: «لَوْ خَلَفْتُ لَخَلَفْتُ صَادِقًا بَارًا غَيْرَ شَاكٍ وَلَا مُشْتَنٍّ أَنْ اللَّهُ تَعَالَى مَا خَلَقَ نَبِيَّهَ ﷺ وَلَا أَبَا بَكْرٍ وَلَا عُمرَ إِلَّا مِنْ طِينَةٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ رَدَّاهُمْ إِلَى تِلْكَ الطِينَةِ».

وروى الإمام أحمد والترمذي وحسنه، والطبراني والحاكم عن مطر بن عكّامس - بضم العين المهملة وتخفيف الكاف وكسر الميم فسين مهملة - والترمذي وصححه عن أبي عزة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا قَضَى اللَّهُ لِعَبْدٍ أَنْ يَمُوتَ بِأَرْضٍ جَعَلَ لَهَا إِلَيْهَا حَاجَةً»^(١). قال الحكيم الترمذي: «إِنَّمَا صَارَ أَجَلُهُ هُنَاكَ لِأَنَّهُ خُلِقَ مِنْ تِلْكَ الْبَقْعَةِ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه ٥٥] قال: فإنما يُعَادُ الْمَرْءُ مِنْ حَيْثُ بَدَأَ مِنْهُ».

وروى ابن الجوزي في الوفا عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «لَمَّا قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ وَسَلَّمَ اخْتَلَفُوا فِي دَفْنِهِ» فقال علي رضي الله عنه: «إِنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ بَقْعَةٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنْ بَقْعَةٍ قُبِضَ فِيهَا نَفْسُ نَبِيِّهِ ﷺ». وروى أبو يعلى عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يُقْبَضُ النَّبِيُّ إِلَّا فِي أَحَبِّ الْأَمْكَانَةِ إِلَيْهِ»^(٢).

قال السيد: «وَأَحَبُّهَا إِلَيْهِ أَحَبُّهَا إِلَى رَبِّهِ لِأَنَّ حُبَّهُ تَابِعٌ لِحُبِّ رَبِّهِ. وَمَا كَانَ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ كَيْفَ لَا يَكُونُ أَفْضَلَ؟ قَالَ: وَلِهَذَا سَلَكْتَ هَذَا الْمَسْلَكَ فِي تَفْضِيلِ الْمَدِينَةِ فَقَدْ صَحَّحَ

(١) أخرجه الترمذي (٢١٤٦) وذكره العجلوني في كشف الخفا ٩٧/١ وزاد نسبه لعبد الله بن الإمام أحمد.

(٢) انظر البداية والنهاية ٢٦٦/٥.

قوله ﷺ: «اللهم حبب إلينا المدينة كحُبنا مكة أو أشد، أي «بل أشد» أو «وأشد»، كما روي به. وأجبت دعوته حتى كان يُحرك دابته إذا رآها من حُبها».

تنبية: قال سلطان العلماء الشيخ عز الدين بن عبد السلام: «معنى التفضيل بين مكة والمدينة أن ثواب العمل في إحداهما أكثر من ثواب العمل في الأخرى، فيشكل قول القاضي: «أجمعت الأمة على أن موضع القبر الشريف أفضل»، إذ لا يمكن لأحد أن يعبد الله فيه. وأجاب غيره بأن التفضيل في ذلك للمجاورة ولذا حُرِّم على المُخَدِّث مَسَّ جِلْدِ المصحف لا لكثرة الثواب وإلا فلا يكون جِلْدُ المصحف بل ولا المصحف أفضل من غيره لِتَعَذُّرِ العمل فيه. وقال شيخ الإسلام تقي الدين السبكي: قد يكون التفضيل بكثرة الثواب وقد يكون لأمرٍ آخر، وإن لم يكن عملاً، فإن القبر الشريف ينزل عليه من الرحمة والرضوان والسلاكة وله عند الله من المحبة ولساكنه ما تقصر العقول عن إدراكه وليس ذلك لمكان غيره فكيف لا يكون أفضل الأماكن؟ وليس محلّ عملٍ لنا فهذا معنى غير تضعيف الأعمال فيه، وأيضاً فباعتبار ما قيل: إن كل أحد يُدْفَنُ في الموضع الذي خلق منه، [وأيضاً فقد تكون الأعمال مُضَاعَفَةً فيها باعتبار أن النبي ﷺ حيٌّ وأن أعماله مضاعفة] أكثر من كل أحد فلا يَخْتَصُّ التضعيف بأعمالنا نحن.

قال السيد: «وهذا من التَّفَاسَةِ بمكان عليّ أني أقول» الرحمات والبركات النازلة بذلك المَحَلَّ يَغْتَمُّ فَيُضِيها الأمة وهي غير متناهية لدوام ترقياته ﷺ [وما تناله الأمة بسبب نبيها هو الغاية في الفضل ولذا كانت خير أمة بسبب كون نبيها خير الأنبياء، فكيف لا يكون القبر الشريف أفضل البقاع مع كونه] منبع فيض الخيرات، [ألا ترى أن الكعبة عليّ رأي من] منع الصلاة فيها ليست محل عملنا أفيقول عاقل بتفضيل المسجد حولها عليها لأنه محل العمل مع أن الكعبة هي السبب في إنالة تلك الخيرات؟... وسيأتي أن المعجزة المذكور في قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ [النساء ٦٤] الآية، حاصل بالمعجزة إلى قبره الشريف، وكذا زيارته ﷺ وسؤال الشفاعة منه والتوسل به إلى الله والمجاورة عنده من أفضل القربات، وعنده تُجَابُ الدعوات أيضاً، فكيف لا تكون أفضل وهو السبب في هذه الخيرات؟ وأيضاً فهو روضة من رياض الجنة بل أفضل رياضها، وفي الحديث: «لقاب قوس أحدكم [في الجنة] خير من الدنيا وما فيها».

الباب التاسع

في تحريمها

عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ قال: «إني حرمتُ المدينة ما بين لابتيها لا يُقَطَّع عِضَاهُهَا وَلَا يُقْتَل صَبِيدُهَا»^(١)، رواه مسلم. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنِّي حَرَمْتُ مَا بَيْنَ لَابَتِي الْمَدِينَةَ، وَفِي رِوَايَةٍ: مَا بَيْنَ مَأْزِمِيهَا، إِلَّا يُهْرَاقَ فِيهَا دَمٌ وَلَا يُحْمَلُ فِيهَا سِلَاحٌ وَلَا يُخْبَطُ فِيهَا شَجَرٌ إِلَّا لِعَلْفٍ»^(٢) وعن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في المدينة: «لَا يُخْتَلَى خَلَاؤها وَلَا يَنْفَرُ صَيْدُهَا وَلَا تَحْمَلُ لُقَطَتُهَا إِلَّا لِمَنْ أَشَادَهَا وَلَا يَصْلِحُ لِرَجُلٍ أَنْ يَحْمَلَ فِيهَا السِّلَاحَ لِقِتَالٍ وَلَا يَصْلِحُ أَنْ يُقَطَّعَ مِنْهَا شَجَرٌ إِلَّا أَنْ يَعلِفَ رَجُلٌ بَعِيرَهُ»^(٣) رواه الإمام أحمد وأبو داود. وعن علي رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المدينة حرام ما بين غير إلى ثور»^(٤)، رواه الخمسة. وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ طلع له أحد فقال: «هَذَا جَبَلٌ يُجِيبُنَا وَنُجِيبُهُ، اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَإِنِّي أَحْرَمُ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا»^(٥)، يعني المدينة، رواه الشيخان.

تنبيهات

الأول: قوله ﷺ: «إني حرمتُ المدينة»، حُجَّةٌ في أنها حَرَمٌ، وبه قال الجمهور، ونقله عن النبي ﷺ أكثر من عشرة من الصحابة خِلافاً لمن قال بخلاف ذلك. وذكُر دليل ورودها مما يطول به الباب.

الثاني: في بيان غريب ما سبق:

«لابتي المدينة»^(٦): تشبيه لآبة وهي الحرة: أرض ذات حجارة سود، وللمدينة لابتان شرقية وغربية وهي بينهما، ويُقال: لابة ولوبة ونوبة بالنون ثلاث لغات، وجمع اللابة في القلة لابات وفي الكثرة لابت ولوب.

(١) أخرجه مسلم ١٠٠١/٢ (٤٧٥ - ١٣٧٤) وقد تقدم.

(٢) انظر مسلم الموضع السابق.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٠٣٥) وأحمد في المسند ٢٥٣/١ وعبد الرزاق في المصنف (٩١٩٣).

(٤) أخرجه البخاري ٩٧/٤ (١٨٧٠) والترمذي (٢١٢٧) وأبو داود (٢٠٣٤) والبيهقي في السنن ١٩٦/٥.

(٥) أخرجه البخاري ٢٢٩/٥ (٤٠٨٣) ومسلم ١٠١١/٢ (٥٠٤ - ١٣٩٣).

(٦) اللابة واللوبة: الحرة: والجمع لابت ولوب، ولابات، وهو الحرار، فأما سيوبه فجعل اللوب جمع لابة، كقارة وقور وقد فسّر ابن منظور اللابة في الحديث بأنها حرتان تكفانها قال الأصمعي: هي الأرض التي قد أبتتها حجارة سود، وجمعها لابات ما بين الثلاث إلى العشر فإذا كثر فهي اللاب واللوب اللسان ٤٠٩٢/٥.

«الِعِضَاءُ»: بالقصر وكثر العين المهملة وتخفيف الضاد المعجمة: كَلَّ شَجَرٍ فِيهِ شَوْكٌ،
وَاجِدَتْهَا عِضَاءَةً وَعِضِيَّةً.

«المَأْزِمَانُ»: بهمزة بعد الميم وبكسر الزاي تشنية مأزِم: الطريق بين جبَلَيْنِ، أَي حَرَمٍ مَا
بَيْنَ جَبَلَيْنِ الْمَدِينَةِ.

«يُهْرَاقُ»: يُصَبُّ.

«يُخَبِّطُ»: يُضْرَبُ.

«العَلْفُ»: بسكون اللام مصدر عَلَفْتُ وَأَمَّا العَلْفُ بِالْفَتْحِ فَهُوَ اسْمٌ لِلْحَشِيشِ وَالتَّبَنِ
وَنَحْوَهُمَا.

«يُخْتَلَى»: يُجَزَّ وَيُقَطَّعُ.

«الْخَلَاءُ»: بالقصر: الرُّطْبُ مِنَ الْحَشِيشِ الْوَاحِدَةُ خَلَاةٌ.

«لَا يُنْفَرُ»: بِمِثْلَةِ تَحْتِيَةِ فَنُونَ فَفَاءٍ: أَي لَا يُزْجَرُ وَيُمْتَعُ مِنَ الرَّغْيِ.

«أَشَادَ»: بِشَيْنٍ مَعْجَمَةٌ وَدَالٌ مَهْمَلَةٌ: أَي أَشَاعَهَا وَالْإِشَادَةُ رَفْعُ الصَّوْتِ وَالْمُرَادُ بِهِ تَعْرِيفُ
اللُّقْطَةِ. وَإِنْشَادُهَا.

«عَيْرٌ»^(١): بِفَتْحِ الْعَيْنِ الْمَهْمَلَةِ وَسُكُونِ الْمِثْلَةِ التَّحْتِيَةِ وَبِالرَّاءِ: الْحِمَارُ، وَيُقَالُ عَيْرٌ جَبَلٌ
يَسْمَى بِاسْمِهِ، وَيَمِينُ الْأَوَّلُ بِالْوَارِدِ وَالثَّانِي بِالصَّادِرِ.

«ثَوْرٌ»: بِالْمِثْلَةِ: مُرَادُفٌ فَحْلُ الْبَقْرِ، جَبَلٌ صَغِيرٌ خَلْفَ أُحُدٍ، قَالَ الْمَطْرِي بَعْدَ أَنْ رَدَّ
عَلَى مَنْ أَنْكَرَ كَوْنَ ثَوْرٍ بِالْمَدِينَةِ وَقَالَ إِنَّهُ خَلْفَ أُحُدٍ مِنْ شِمَالِيَّةِ مُدَوَّرٍ صَغِيرٍ يَعْرِفُهُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ
خَلْفَ عَنِ سَلَفٍ. وَقَالَ الْقُطْبُ الْحَلَبِيُّ: «حَكَى لَنَا شَيْخُنَا الْإِمَامُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ
مَزْرُوعِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ خَرَجَ رَسُولًا إِلَى الْعِرَاقِ فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ كَانَ مَعَهُ دَلِيلٌ أَيُّ مَنْ عَرَبِ
الْمَدِينَةِ، فَكَانَ يَذْكُرُ لَهُ الْأَمَاكِنَ وَالْجِبَالَ». قَالَ: «فَلَمَّا وَصَلْنَا إِلَى أُحُدٍ إِذَا بِقَرْبِهِ جَبَلٌ صَغِيرٌ،
فَسَأَلْتُهُ عَنْهُ فَقَالَ: هَذَا يُسَمَّى ثَوْرًا، فَعَلِمْتُ صِحَّةَ الرَّوَايَةِ». وَقَالَ الْمُحِبُّ الطُّبْرِي: «أَخْبَرَنِي الثَّقَفَةُ
الْعَالِمُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ السَّلَامِ الْبَصْرِيُّ أَنَّ جِذَاءَ أُحُدٍ، عَنْ يَسَارِهِ، جَانِحًا إِلَى وَرَائِهِ جَبَلًا صَغِيرًا
يُقَالُ لَهُ ثَوْرٌ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ تَكَرَّرَ عَنْهُ سُؤَالُهُ لَطَوَائِفَ مِنَ الْأَعْرَابِ الْعَارِفِينَ بِتِلْكَ الْأَرْضِ وَمَا فِيهَا
مِنَ الْجِبَالِ، فَكُلُّ أَحْبَبَ أَنْ ذَلِكَ الْجَبَلُ اسْمُهُ ثَوْرٌ، وَتَوَارَدُوا عَلَى ذَلِكَ»، «فَعَلِمْنَا أَنَّ ذِكْرَ ثَوْرٍ
فِي الْحَدِيثِ صَحِيحٌ وَأَنَّ عَدَمَ عِلْمِ أَكْبَارِ الْعُلَمَاءِ بِهِ [هُوَ] لِعَدَمِ شَهْرَتِهِ وَعَدَمِ بَحْثِهِمْ عَنْهُ»، قَالَ:
«وَهَذِهِ فَائِدَةٌ جَلِيلَةٌ».

(١) انظر اللسان ٣١٨٩/٤.

الباب العاشر

في ذكر بعض خصائصها

وهي تزيد على المائة فقد امتازت بتحريمها على لسان أشرف الأنبياء بدعوته ﷺ. وكون المُتَقَرِّض لصيدها وشجرها يُسَلَّب كقتيل الكفار، وهو أبلغ في الزجر مما في مكة، وعلى القول بعدمه هو أدل على عظيم حُرْمَتِهَا حيث لم يُشْرَع له جزاء. ويجوز نقل ترابها للتداوي، واشتمالها على أشرف البقاع وهو محل القبر الشريف، ودَفْن أفضل الخلق بها وأفضل هذه الأمة وكذا أكثر الصحابة والسلف الذين هم خير القرون، وخلقهم من تربتها، وبعث أشرف هذه الأمة يوم القيامة منها على ما نقله [عياض] في المدارك عن الإمام مالك، قال: «وهو لا يقول من عند نفسه».

وكونها محفوفة بالشهداء كما قاله الإمام مالك أيضاً، وبها أفضل الشهداء الذين بذلوا أنفسهم في ذات الله بين يدي نبيهم ﷺ، فكان شهيداً عليهم، واختيار الله تعالى إياها لأفضل خلقه وأحبهم إليه، واختيار أهلها للنصرة والإيواء، وافتتاحها بالقرآن وسائر البلاد بالسيف والسنان، وافتتاح سائر بلاد الإسلام منها، وجعلها مظهر الدين، ووجوب الهجرة إليها قبل فتح مكة والسكنى بها لنصرته ﷺ ومواساته بالأنفس على ما قاله القاضي عياض أنه مُتَّفَقٌ عليه، قال: «ومن هاجر قبل الفتح فالجمهور على منعه من الإقامة [بمكة] بعد الفتح، ورخص له ثلاثة أيام بعد قضاء نسكته، والحث على سكنتي المدينة وعلى اتخاذ الأصل بها وعلى الموت بها، والوعد على ذلك بالشفاعة أو الشهادة أو هماً، واستحباب الدعاء بالموت بها، وتحريضه ﷺ على الموت بها وشفاعته أو شهادته لمن صبر على لأوائها وشِدَّتِهَا، وطلبه لزيادة البركة بها على مكة ودعاؤه بحبها وأن يجعل الله لديها قراراً ورزقاً حسناً، وطرح الرداء عن منكبيه إذا قاربها، وتسميته لها طيبة» وغيرها مما سبق. «وطيب ريحها، وللعطر بها رائحة لا توجد في غيرها» قاله ياقوت.

وطيب العيش بها وكثرة أسمائها، وكتابتها في التوراة مؤمنة وتسميتها فيها بالمحجوبة والمرحومة وإضافتها إلى الله تعالى في قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء ٩٧]، وإلى النبي بلفظ البيت في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنفال ٥] وإقسام الله تعالى في قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد ١] والبداءة بها في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقِي وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقِي﴾ [الإسراء ٨٠]، مع أن المخرج مُقَدَّم على المدخل. ودعاؤه ﷺ لها خصوصاً بالبركة، ولشمارها ومكيالها وأسواقها وأهلها.

ولقوله إنها تنفي الذنوب وتنفي خبثها، وأنه لا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها خيراً منه ومن أرادها وأهلها بسوء أذابه الله، الحديث، فَرْتَبَّ الوعيد فيها على الإرادة، كما قال

تعالى في حرم مكة. ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج ٢٥] والوعيد الشديد لمن أحدث فيها حدثاً أو آوى مُخِدِّثاً. والحدث يشمل الصغيرة فهي بها كبيرة، أي يُعْظَمُ جزاؤها لدلالاتها على جرأة مرتكبها بِحَرَمِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ وحضرته الشريفة. والوعيد الشديد لمن ظَلَمَ أَهْلَهَا أو أَخَافَهُمْ، ووعيد من لم يُكْرِمِ أَهْلَهَا وَأَن إِكْرَامَهُمْ وتعظيمهم حَقٌّ عَلَى الْأُمَّةِ، وَأَنَّهُ ﷺ شَفِيعٌ أو شَهِيدٌ لِمَنْ حَفِظَهُمْ فِيهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ أَخَافَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَقَدْ أَخَافَ مَا بَيْنَ جَنْبِي﴾.

واختصاصها بِمَلَكِ الْإِيمَانِ وَالْحَيَاءِ، وَيَكُونُ الْإِيمَانُ يَأْرِزُ إِلَيْهَا، وَاشْتِبَاكُهَا بِالْمَلَائِكَةِ وَحِرَاسَتُهُمْ لَهَا، وَإِنهَا دَارُ الْإِسْلَامِ أَبَدًا لِحَدِيثٍ: «إِنَّ الشَّيَاطِينَ قَدْ أَيَسَّتْ أَنْ تُغْبَدَ بِبَلَدِي هَذَا»^(١)، وَأَنَّهَا «آخِرُ قُرَى الْإِسْلَامِ خِرَابًا»، رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَحَسَنُهُ، وَيَأْتِي بِشَطْهُ فِي الْمَعْجَزَاتِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَعَصَمَتَهَا، مِنَ الدُّجَالِ وَخُرُوجِ الرَّجُلِ الَّذِي هُوَ خَيْرُ النَّاسِ أَوْ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ مِنْهَا لِلدُّجَالِ لِيُكَذِّبَهُ، وَنَقْلَ وَبَائِهَا وَحُمَاهَا وَالِاسْتِشْفَاءَ بِتَرَابِهَا وَبِتَمْرِهَا كَمَا سَيَأْتِي فِي الْخِصَائِصِ.

وَقَوْلُهُ فِي حَدِيثٍ لِلطَّبْرَانِيِّ: «وَحَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَأْتِيَهَا»، وَسَمَاعُهُ ﷺ لِمَنْ صَلَّى عَلَيْهِ بِهَا عِنْدَ قَبْرِهِ الشَّرِيفِ، وَوَجُوبُ شَفَاعَتِهِ لِمَنْ زَارَهُ بِهَا، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا سَيَأْتِي فِي بَابِ فَضْلِ زِيَارَتِهِ. وَكَوْنُهَا أَوَّلَ مَسْجِدٍ اتَّخَذَهُ بِهَا لِعَامَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَتَأْسِيسَ مَسْجِدِهَا عَلَى يَدِهِ ﷺ، وَعَمَلٌ فِيهِ بِنَفْسِهِ، وَمَعَهُ خَيْرُ الْأُمَّةِ، وَأَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْزَلَ فِي شَأْنِهِ ﴿لَمَسْجِدٍ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة ١٠٨] وَكَوْنُهُ آخِرَ مَسَاجِدِ الْأَنْبِيَاءِ، وَالْمَسَاجِدِ الَّتِي تُشَدُّ إِلَيْهَا الرِّجَالُ، وَكَوْنُهُ أَحَقُّ الْمَسَاجِدِ أَنْ يُزَارَ وَمَا يُذَخَّرُ لَزَائِرِهِ مِنَ الثَّوَابِ الْمُضَاعَفِ كَمَا سَيَأْتِي وَأَنَّ مَنْ صَلَّى فِيهِ أَرْبَعِينَ صَلَاةً كَتَبَ لَهُ بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ وَبَرَاءَةٌ مِنَ الْعَذَابِ، وَأَنَّهُ بَرِيءٌ مِنَ النِّفَاقِ، وَأَنَّ مَنْ خَرَجَ عَلَى طَهْرٍ لَا يَرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ فِيهِ كَانَ نَزْلَةً جِجَّةً، وَمَا ثَبِتَ مِنْ أَنَّ إِيَّانَ مَسْجِدِ قُبَاءٍ وَالصَّلَاةَ فِيهِ تَغْدِيلُ عُمْرَةٍ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا ثَبِتَ فِي فَضْلِهَا.

وَأَنَّ بَيْنَ بَيْتِهِ وَقَبْرِهِ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، مَعَ ذَهَابِ بَعْضِهِمْ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ يُعَمُّ مَسْجِدَهُ ﷺ، وَأَنَّهُ الْمَسْجِدُ الَّذِي لَا تُعْرَفُ بُقْعَةٌ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْجَنَّةِ غَيْرَهُ، وَأَنَّهُ عَلَى حَوْضِهِ ﷺ، وَمَا جَاءَ فِي أَنَّ «مَا بَيْنَ مَنْبَرِهِ الشَّرِيفِ وَالْمُصَلِّي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ»^(٢) وَسَيَأْتِي مَا يَقْتَضِي أَنَّ الْمُرَادَ مُصَلِّي الْعِيدِ وَهُوَ جَانِبٌ كَبِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْبَلَدَةِ.

وَقَوْلُهُ فِي أَحَدٍ [هَذَا جَبَلٌ] يُجِبُّنَا وَنُجِبُهُ، وَأَنَّهُ عَلَى تَرْعَةٍ مِنْ تَرْعِ الْجَنَّةِ. وَفِي وَادِي

(١) ذكره الهيثمي في المجمع ٣/٣٠٢ وعزاه للبخاري وقال: فيه السكن بن هارون الباهلي ولم أجد من ترجمه.

(٢) أخرجه مسلم ١٠١٠/٢ (٥٠٠ . ١٣٩٠).

بَطْحَانَ أَنَّهُ عَلَى تُرْعَةٍ مِنْ تُرْعِ الْجَنَّةِ. وَوَضَفُهُ لَوَادِيهَا الْعَقِيقُ بِالْوَادِي الْمُبَارَكِ، وَأَنَّهُ يُجِئُنَا وَنُجِئُهُ. وَقَوْلُهُ فِي يَمَارِحِهَا: فَإِنَّ الْعَجْوَةَ مِنَ الْجَنَّةِ. وَسَيَأْتِي فِي بَرِّ غَرْسٍ أَنَّهُ عَلَيْهِ رَأَى أَنَّهُ أَصْبَحَ عَلَى يَمْرِ مِنْ آبَارِ الْجَنَّةِ فَأَصْبَحَ عَلَيْهَا. وَرَوَى الْأَنْبِيَاءُ حَقًّا.

وَإِخْتِصَاصُ مَسْجِدِهَا بِمَزِيدِ الْأَدَبِ. وَيُكْتَبُ لِمَنْ صَلَّى بِمَسْجِدِهَا صَلَاةً بَرَاءَةً مِنَ النَّارِ وَبَرَاءَةً مِنَ الْعَذَابِ وَأَنَّهُ بَرِيءٌ مِنَ النُّفَاقِ، رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالطَّبْرَانِيُّ بِرِجَالٍ ثِقَاتٍ. وَخَفِضُ الصُّوْتِ فِي تَأْكِيدِ التَّعْلُمِ وَالتَّعْلِيمِ بِهِ: وَالْحَدِيثُ: أَنَّهُ لَا يَسْمَعُ النَّدَاءَ فِي مَسْجِدِي، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا لِحَاجَةٍ ثُمَّ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ إِلَّا مُتَأَفِّقًا^(١) وَإِخْتِصَاصُهُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ بِمَنْعِ أَكْلِ الثُّومِ مِنْ دُخُولِهِ لِإِخْتِصَاصِهِ بِمَلَائِكَةِ الْوَحْيِ وَالْوَعِيدُ الشَّدِيدُ لِمَنْ خَلَفَ يَمِينًا فَاجِرَةً عِنْدَ مِنْبَرِهَا وَمُضَاعَفَةُ سَائِرِ الْأَعْمَالِ بِهَا كَمَا صَرَّحَ بِهِ الْإِمَامُ الْغَزَالِيُّ. وَأَنَّ صَلَاةَ الْجُمُعَةِ بِهَا كَأَلْفِ جُمُعَةٍ فِيمَا سِوَاهَا إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ. وَأَنَّ صِيَامَ شَهْرِ رَمَضَانَ بِهَا كَصِيَامِ أَلْفِ شَهْرٍ فِي غَيْرِهَا، كَمَا رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ عَنِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ عَنِ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ، وَابْنِ الْجَوْزِيِّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَكَوْنُ أَهْلِهَا أَوْلَى مَنْ يَشْفَعُ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ، وَإِخْتِصَاصُهُمْ بِمَزِيدِ الشَّفَاعَةِ وَالْإِكْرَامِ. وَجَاءَ بَعَثُ الْحَيَاتِ بِهَا مِنَ الْأَمْنِينَ، وَأَنَّهُ يُبْعَثُ مِنْ بَقِيعِهَا سَبْعُونَ أَلْفًا عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَتُوكَلُّ الْمَلَائِكَةُ بِمَقْبَرَةِ بَقِيعِهَا كُلَّمَا امْتَلَأَتْ أَخَذُوا بِأَطْرَافِهَا فَكَفَفُوهَا بِالْجَنَّةِ وَبَعَثَهُ ﷺ مِنْهَا وَبَعَثَ أَهْلَهَا مِنْ قُبُورِهِمْ قَبْلَ سَائِرِ النَّاسِ وَاسْتَحْبَابُ الدُّعَاءِ بِهَا فِي الْأَمَاكِنِ الَّتِي دَعَا بِهَا ﷺ وَسَيَأْتِي بَيَانُهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَيُقَالُ إِنَّهُ يُسْتَجَابُ بِهَا عِنْدَ الْأَسْطُوَانَةِ الْمُخَلَّقَةِ، وَعِنْدَ الْمَنْبَرِ وَفِي زَاوِيَةِ دَارِ عَقِيلِ بِالْبَقِيعِ وَبِمَسْجِدِ الْفَتْحِ.

[وَإِخْتِصَاصُهَا] بِكَثْرَةِ الْمَسَاجِدِ وَالْمَشَاهِدِ بِهَا، وَاسْتِخْبَاطِ مَنْ غَابَ تَرْبَتَهَا، وَأَفْتَى الْإِمَامُ مَالِكٌ أَنَّهُ مَنْ قَالَ: تَرْبَتُهَا رَدِيئَةٌ أَنْ يُضْرَبَ ثَلَاثُونَ دِرَّةً، وَأَمْرٌ بِحَبْسِهِ وَكَانَ لَهُ قَدْرٌ، وَقَالَ: مَا أَحْوَجُهُ إِلَى ضَرْبِ عُنُقِهِ، تَرْبَةٌ دُفِنَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُزْعَمُ أَنَّهَا غَيْرُ طَيِّبَةٍ.

وَاسْتِحْبَابُ الدُّخُولِ لَهَا مِنْ طَرِيقِ وَالرَّجُوعِ مِنْ أُخْرَى، وَالِاغْتِسَالِ لِدُخُولِهَا، وَإِخْتِصَاصُ أَهْلِهَا بِأَبْعَدِ الْمَوَاقِيتِ، وَذَهَبَ بَعْضُ السَّلَفِ إِلَى تَفْضِيلِ الْبَدَاءَةِ بِهَا قَبْلَ مَكَّةَ، وَأَنَّ نَفْرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ كَانُوا يَبْدَأُونَ بِالْمَدِينَةِ إِذَا حَجُّوا وَيَقُولُونَ: نَبْدَأُ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. وَعَنْ عُلْقَمَةَ، وَالْأَسُودِ، وَعَمْرُو بْنِ مَيْمُونٍ أَنَّهُمْ بَدَأُوا بِالْمَدِينَةِ وَعَنْ الْعَبْدِيِّ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ أَنَّ الْمَشِيَّ لَزِيَارَةِ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ أَفْضَلُ مِنَ الْكَعْبَةِ. وَسَيَأْتِي أَنَّ مَنْ نَدَرَ زِيَارَةَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ لَزِمَهُ الْوَفَاءُ قَوْلًا وَاحِدًا. وَفِي وَجُوبِ الْوَفَاءِ فِي زِيَارَةِ قَبْرِ غَيْرِهِ وَجِهَانِ [قَالَ ابْنُ كَعْبٍ

(١) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب ١/١٨٩.

وأقره عليه الرافعي والنووي وغيرهما] والاكتفاء بزيارة قبر رسول الله ﷺ لمن نذر إتيان مسجد المدينة كما قال الشيخ أبو علي تفريراً على القول بلزوم إتيانه كما قاله الشافعي والبيهقي، على أنه لا بد من [ضَم] قُرْبَةٍ إِلَى الْإِتْيَانِ كما هو الْأَصَحُّ [تفريراً على اللزوم وَعَلَّه] الشيخ أبو علي بأن زيارته ﷺ من أعظم القُرْبَاتِ، وتوقف في ذلك الإمام من جهة أنها لا تتعلق بالمسجد وتعظيمه، قال: وقياسه أنه لو تَصَدَّقَ في المسجد أو صام يوماً كفاه، وفيه نظر، على أن الصحيح ما نُصَّ عليه في الْمُخْتَصَرِ من [عدم لزوم الإتيان].

وجاء في سُوقِهَا أَنَّ الْجَالِبَ إِلَيْهِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَنَّ الْمُخْتَكِرَ كَالْمُلْحِدِ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى. وَاخْتَصَّتْ بِظُهُورِ نَارِ الْحِجَازِ الْمُنْذِرَ بِهَا مِنْ أَرْضِهَا وَمِنْ انْطِقَائِهَا عِنْدَ حَرَمِهَا كَمَا سَيَأْتِي فِي الْمَعْجَزَاتِ، لَمَّا تَضَمَّنَتْ حَدِيثَ الْحَاكِمِ وَغَيْرِهِ. [وفي حديث النسائي والبخاري والحاكم واللفظ له:] «يُوشِكُ النَّاسُ أَنْ يَضْرِبُوا أَكْبَادَ الْإِبِلِ فَلَا يَجِدُونَ عَالِمًا أَعْلَمَ مِنْ عَالِمِ الْمَدِينَةِ». وَكَانَ سَفِيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ يَقُولُ: نَرَى هَذَا الْعَالِمَ مَالِكَ بْنِ أَنَسٍ. وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ. وَمَا نُقِلَ عَنْ مَالِكٍ مِنْ أَنَّ إِجْمَاعَ أَهْلِهَا يُقَدِّمُ عَلَى خَيْرِ الْوَاحِدِ، لِسُكْنَتِهِمْ مَهَيْطِ الْوَحْيِ وَمَعْرِفَتِهِمْ بِالنَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ.

وَإِخْتِصَاصُ أَهْلِهَا فِي قِيَامِ رَمَضَانَ بِسِتِّ وَثَلَاثِينَ رَكْعَةً عَلَى الْمَشْهُورِ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ. قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ: رَأَيْتُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَقُومُونَ بِتِسْعِ وَثَلَاثِينَ رَكْعَةً مِنْهَا ثَلَاثٌ لِلْوِثْرِ. وَنَقَلَ الرَّوْيَانِيُّ / وَغَيْرُهُ عَنِ الشَّافِعِيِّ أَنَّ سَبَبَهُ إِرَادَةُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَسَاوَاةَ أَهْلِ مَكَّةَ فِيمَا كَانُوا يَأْتُونَ بِهِ مِنَ الطَّوَافِ وَرَكْعَتَيْنِ بَيْنَ التَّرْوِيحَاتِ فَجَعَلُوا مَكَانَ كُلِّ أُسْبُوعٍ ^(١) تَرْوِيحَةً. قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ: «لَا يَجُوزُ لغير أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَنْ يَبَارُوا أَهْلَ مَكَّةَ وَلَا يَنَافِسُوهُمْ لِأَنَّ اللَّهَ فَضَّلَهُمْ عَلَى سَائِرِ الْعِبَادَةِ».

وشاركتها مكة في تحريم قطع الرطب من شجرها وحشيشها وصيدها واصطياده وتنفيره، وحمل السلاح للقتال بها، ولا تحل لقطعها إلا لمن أشاد بها، ونقل ترابها ونحوه منها أو إليها، ونبش الكافر إذا دُفِنَ بها. وَأَنَّ كَلَامًا مِنْ مَسْجِدِ الرَّسُولِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ يَقُومُ مَقَامَ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى لِمَنْ نَذَرَ الصَّلَاةَ أَوْ الْاِعْتِكَافَ فِيهِ، وَلَوْ نَذَرَهُمَا بِمَسْجِدِ الْمَدِينَةِ لَمْ يُجِزْهُ الْأَقْصَى وَأَجْزَاهُ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ بِنَاءً عَلَى زِيَادَةِ الْمَضَاعِفَةِ، وَإِذَا نَذَرَ الْمَشِيَّ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ يُخْتَارُ بَيْنَ الْمَشِيِّ إِلَيْهِ أَوْ إِلَى أَحَدِهِمَا، وَالَّذِي رَجَّحُوهُ مَا اقْتَضَاهُ كَلَامُ الْبَغْوِيِّ مِنْ عَدَمِ لَزُومِ الْمَشِيِّ فِي غيرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ.

وَإِذَا نَذَرَ تَطْيِيبَ مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ وَالْأَقْصَى فِيهِ تَرَدَّدَ لِإِمَامِ الْحَرَمَيْنِ، وَاقْتَضَى كَلَامُ الْغَزَالِيِّ إِخْتِصَاصَهُ بِالْمَسْجِدَيْنِ لِأَنَّ إِذَا نَظَرْنَا إِلَى التَّعْظِيمِ الْحَقْنَاهُمَا بِالْكَعْبَةِ أَوْ إِلَى امْتِيَازِ الْكَعْبَةِ

(١) التَّلْعُ: هُوَ كُلُّ تَفْتُقٍ قَوْلًا وَفِعْلًا. انظر النهاية ٧٤/٥.

بالفضل فلا. قال السيد: فينبغي الجزم في نذر تطيبب القبر الشريف على ساكنه أفضل الصلاة والسلام. ورحم الله الإمام مالك أبي عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي المالكي الأعمى حيث قال:

هنا وكم يا أهل طيبة قد خفي
فلا يتحرك ساكن نوى برؤوعها
فكم ملك رام الوصول لمثل ما
فبشراكم نلثم عناية ربكم
تروون رسول الله في كل ساعة
متى جثتم لا يغلّق الباب دونكم
فيسمع شكوكم ويكشف ضرركم
بطيبة مشواكم وأكرم مرسل
وكم نعمة لله فيها عليكم
أمثتم من الدجال فيها فحولها
كذلك من الطاعون أنتم بمأمن
فلا تنظروا إلا لوجه حبيبكم
حياة وموتاً تحت رحمة أنتم
فيا راجلاً عنها لدنيا تريد ما
أخرج عن حوز النبي وجزره
لئن سرت من فيض المكارم عنده
هو الرزق مقسوم فليس بزائد
فكم قاعد قد وسع الله رزقه
فعيش في جمى خير الأنام ومث به
إذا قمت فيما بين قبر ومنبر
لقد أشعد الرخمر. جاز محمد

فبالقرب من خير الوزي جزتم السبقا
إلى سواها وإن جار الزمان ولو شقا
وصلتكم فلم يقدر ولو ملك الخلقا
فها أنتم في بحر عنايته غرقى
ومن يره فهو السعيد به حقا
وباب ذوي الإحسان لا يقبل الغلقا
ولا يمنع الإحسان ضر ولا رقا
يلاحظكم فالدهر يخري لكم ونقا
فشكرا ونعم الله بالشكر تستبقى
ملائكة يحمون من دونها الطرقا
فوجه الثلاثي لا يزال لكم طلقا
وإن حادت الدنيا ومرت فلا فرقا
وحشرا فستر الجاه فوقكم ملقى
أطلب ما ينسى وتترك ما يبقى؟
إلى غيره تسفيه غيرك قد حقا
فأكرم من خير البرية ما تلقى
ولو سرت حتى كذت تخترق الأفقا
ومزجبل قد ضاق بين الوزي رزقا
إذا كنت في الدارين تطلب أن ترقى
بطيبة فاغرف أين خير لك الأزقى
ومن حال في تزحاله فهو الأشقى

ومن أعظم ما نُظِم في ذلك وأعجبه قصيدة الإمام الولي العارف بالله أبي محمد عبد الله بن أبي عمر البشكري. قال العلامة بدر الدين فرحون أحد أصحاب ناظمها: إن بعض الصالحين رأى النبي ﷺ في المنام، قال البدر: «وأشك هل كان الشيخ أو غيره؟ وأنشد هذه القصيدة، فلما بلغ آخرها قال رسول الله ﷺ: رَضِينَاهَا رَضِينَاهَا». وخصها الإمام أبو عبد الله التونسي رحمه الله. وقد رأيت إيراد ذلك هنا:

أَعْلَامٌ طَيِّبَةٌ لَا تَهْمُ بِسِوَاهَا فَحَبِيبُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ثَوَاهَا
وَاعْمُرُ فَوَادَكَ دَائِمًا بِهَوَاهَا دَارُ الْحَبِيبِ أَحَقُّ أَنْ تَهْوَاهَا
وَتَحِينُ مِنْ طَرَبٍ إِلَيَّ ذِكْرَاهَا
لَا تُخَلِّ خَدُّ ثَرَابِهَا مِنْ قُبْلَةٍ وَيَكُلُّ عَامٍ قُمْ إِلَيْهِ بِرِخْلَةٍ
لَا تَفْتَنَنَّ مِنَ الْمَزَارِ بِمَرَّةٍ وَعَلَى الْجُفُونِ مَتَى هَمَمْتَ بِزُورَةٍ
يَا بَنَ الْكِرَامِ عَلَيْكَ أَنْ تَغْشَاهَا
اقْطَعِ زَمَانَكَ إِنْ سَعَدْتَ بِبَلَدَةٍ حَوَتْ الرُّسُولَ فَيَلْكَ أَطْيَبُ ثُرْبَةٍ
جَاوِزُهُ تَأْمَنُ أَنْ تُصَابَ بِشِدَّةٍ فَلَأَنْتَ أَنْتَ إِذَا حَلَلْتَ بِطَيِّبَةٍ
وَوَطَلَلْتَ تَرْزَعُ فِي ظِلَالِ رُبَاهَا
هِيَ جُنَّتِي بِمَا أَخَافُ وَجُنَّتِي وَبِحَاةٍ مَنْ فِيهَا تُخَلِّصُ مُهْجَتِي
وَإِذَا نَظَرْتُ لَهَا فَذَلِكَ بُغْيَتِي مَعْنَى الْجَمَالِ مَتَى الْخَوَاطِرِ وَالْتِي
سَلَبَتْ عُقُولَ الْعَاشِقِينَ حُلَاهَا
يَلْكَ الْمَنَازِلُ لَا نَعِيمَ كَثُرِبَهَا يَلْكَ الْحَيَاةُ لَنَا الشِّفَاءُ بِشُرْبِهَا
يَا طَيِّبَ تَفْحِيهَا وَحُسْنَ مَهَبِّهَا لَا تَحْسَبِ الْمِسْكَ الذِّكْيَ كَثُرِبَهَا
هَنِيهَاتَ أَيُّنَ الْمِسْكَ مِنْ رُبَاهَا
لِمَ لَا تَطِيبُ لَنَا وَنَكْرُمُ مَنِينًا وَالْمُضْطَفَى حَيًّا حَوْتَهُ وَمِينًا
فَتَسِيئُهَا يَخْكِي الْعَبِيرَ إِذَا أَتَى طَابَتْ فَإِنْ تَبِعَ التَّطِيبَ يَا فَتَى
فَأَدِمِ عَلَى الشَّاعَاتِ لَنَّمْ تَرَاهَا
لَوْ لَمْ تَكُنْ أَزْكَى الْبِلَادِ وَأَطْهَرَا مَا اخْتَارَهَا لِرَسُولِهِ لَمَّا سَرَى
فَبَطِيبِهَا أَتَقِنُ وَخَلُّ مَنْ افْتَرَى وَابْتِشِرْ فِي الْخَبْرِ الصَّحِيحِ مُقَرَّرَا
أَنَّ الْإِلَهَ بِطَابَةِ سَمَاهَا
دَارُ الْحَبِيبِ لَنَا فَلَذُ بِرَجِيبِهَا فَالْنَّفْسُ مُوَلَّعَةٌ بِدَارِ حَبِيبِهَا
اللَّهُ شَرَفَهَا بِهِ لِتَصِيبِهَا وَاخْتَصَّهَا بِالطُّيْبِينَ لِطِيبِهَا
وَاخْتَارَهَا وَدَعَا إِلَيَّ سُكْنَاهَا
مَدَّتْ بِهَا إِحْمَى الْإِلَهِ ظِلَالُهَا مِنْ أَجْلِ مَنْ مَنَعَ النَّفْسَ ضَلَالُهَا
جُلَّ فِي الْبِلَادِ فَلَنْ تُصِيبَ مِثَالُهَا لَا كَالْمَدِينَةِ مَنَزِلٌ وَكَفَى لَهَا
شَرَفًا حُلُولُ مُحَمَّدٍ بِفِنَاهَا

مَنْ لِي بِأَنَّ أَلْقَى الْحَبِيبَ وَأَظْفَرَا وَأَشْمُ مِنْ مَشْوَاهِ مِسْكَاً أَذْفَرَا
وَأَرَى النَّبِيَّ شُغِفْتُ بِهَا مُهَجُّ الْوَرَى خُصِّتْ بِهَجْرَةٍ خَيْرٍ مَنْ وَطِئَ الشَّرَى

وَأَجْلُهُمْ قَدْرًا فَكَيْفَ تَرَاهَا؟

كَتَلْفِي بِهَا طَبَعٌ بِغَيْرِ تَكْلُفٍ صَفَتِ الْقُلُوبَ لَهَا لِأَجْلِ مَنْ اضْطَفِي
وَجَلَالُ تِلْكَ الْأَرْضِ مَا هُوَ بِالْخَفِيِّ كُلُّ الْبِلَادِ إِذَا ذَكَرْتَ كَأَخْرَفِي

فِي اسْمِ الْمَدِينَةِ لِأَخْلَا مَعْنَاهَا

هِيَ لِلْقُلُوبِ الصَّافِيَاتِ حَبِيبَةٌ وَالْأَهْلِهَا وَالنَّازِلِينَ رَحِيبَةٌ
فَأَقْتِ جَمِيعَ الْأَرْضِ فَهِيَ غَرِيبَةٌ حَامَا مُسَمَّى الْقُدْسِ فَهِيَ قَرِيبَةٌ

مِنْهَا وَمَكَّةُ إِنَّهَا إِسَاهَا

فَأَجْعَلْ مَزَارَكَ لِلثَّلَاثِ وَظَيْفَةً وَأَمْرٌ بِمَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ خَيْفَةً
فَكِلَاهُمَا تَدْعُ الْقُلُوبَ نَظِيفَةً لِأَفْرَقَ إِلَّا أَنْ تَمَّ لَطِيفَةً

مَهْمَا بَدَتْ يَجْلُو الظُّلَامَ سَنَاهَا

فَأَفْهَمَ وَأَزْجُو أَنْ تُفِيقَ وَتَفْهَمَا أَمْرَ الَّذِي هُوَ قَدْ سَمَا فَوْقَ السَّمََا
إِنَّ الْفَضِيلَةَ حَيْثُ أَصْبَحَ مِنْهُمَا جَزَمَ الْجَمِيعُ بِأَنَّ خَيْرَ الْأَرْضِ مَا

قَدْ حَاطَ ذَاتَ الْمُضْطَفَى وَحَوَاهَا

فَمِنْ الْعَجَائِبِ مُهَجَّتِي عَنْهَا سَلْتُ وَهِيَ النَّبِيَّ بِضَرْبِ أَحْمَدَ فَضَلْتُ
مِثْلَ الْعُقُودِ بِقَدْرِ جَوْهَرِهَا عَلْتُ وَنَعَمَ لَقَدْ صَدَّقُوا بِسَاكِنِهَا عَلْتُ

كَالْنَفْسِ جِئَ زَكْتُ زَكَا مَاوَاهَا

إِنِّي أَقُولُ فَلَا تَكُنْ ذَا غَيْبَةٍ قِفْ عِنْدَ حُجْرَتِهِ بِمَوْقِفِ هَيْبَةٍ
فَأَسْأَلُ فَإِنَّكَ لَنْ تَرَى ذَا خَيْبَةٍ وَبِهَذِهِ ظَهَرَتْ مَرْيَةُ طَيْبَةٍ

فَعَدَّتْ وَكُلُّ الْفَضْلِ فِي مَعْنَاهَا

مِنْهَا بَدَا لِلْخَلْقِ وَافِ سُنَّةِ فَعَلَى الْبِلَادِ لَهَا عَظِيمَةُ مِثَّةِ
وَلَهَا خَصَائِصُ فَضْلِهَا ذُو مَكْنَةِ حَتَّى لَقَدْ خُصِّتْ بِرَوْضَةِ جَنَّةِ

اللَّهُ شَرَفَهَا بِهَا وَحَبَّأَهَا

هِيَ غَيْرُ خَائِفَةٍ لِقَلْبِ مُبْصِرٍ فَاعْمِلْ مِنَ الْأَهْوَاءِ قَلْبِكَ وَانظُرِ
وَابْسُطْ هُنَاكَ الْحَدَّ مِنْكَ وَعَفِّرْ مَا بَيْنَ قَبْرِ النَّبِيِّ وَمَنْبَرِ

خَبِيَا إِلَهُ رُسُولَهُ وَسَقَاهَا

مَخْرُوسَةٌ مِنْ كُلِّ رَجَزٍ طَارِقٍ وَدُخُولِ دَجَالٍ وَطَغْيِ لَاجِقِ
فَالْمَرْءُ فِيهَا ذُو فُؤَادٍ وَائِقٍ هَذِي مَحَاسِنُهَا فَهَلْ مِنْ عَاشِقِ

كَلِيفِ شَجِيحِ بَاخِلِ بِنَوَاهَا
رَبِّي أَدْمِنِي فِي جِمَايَةِ صَوْنِهَا وَمَتَى هَمَمْتُ بِغَيْبَةٍ عَنْ عَيْنِهَا
فَاجْعَلْ تَمَاتِي قَبْلَ سَاعَةِ كَوْنِهَا إِنِّي لِأَزْهَبُ مِنْ تَوَقُّعِ بَسْنِهَا
فَيَظَلُّ قَلْبِي مُوجِعاً أَوَْاهَا

يَا خَيْرَ مَسْئُولٍ وَأَكْرَمَ مَنْ دُعِيَ لِأَتُقْصِرَ عَنْهَا رِخْلِي وَتَوَدُّعِي
فَمِنَ الْخَسَارِ فِرَاقُ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ وَلَقَلَّمَا أَبْصَرْتُ حَالَ مُوَدِّعِ
إِلَّا زَيْتٌ نَفْسِي لَهُ وَشَجَاهَا

لَا تَجْعَلُوا عَنْهَا الرَّجِيلَ صِنَاعَةً إِنِّي أَرَى ذَلِكَ الرَّجِيلَ إِضَاعَةً
وَإِذَا أَقَمْتُمْ كَانَ ذَلِكَ طَاعَةً فَلَكُمْ أَرَاكُمْ قَافِلِينَ جَمَاعَةً
فِي إِثْرِ أُخْرَى طَالِبِينَ ثَوَاهَا

فِيمَ التَّرْحُلِ فِي الْمَدِينَةِ صَوْنُكُمْ وَبِحَاهِ خَيْرِ الْخَلْقِ يَخْضَلُ عَوْنُكُمْ
فَالْخَيْرُ مَكْتُكُمْ هُنَاكَ وَكَوْنُكُمْ قَسَمًا لَقَدْ أَذَكِي فُؤَادِي بَيْتُكُمْ

جَزَعاً وَفَجْرَ ثَقَلْتِي مِثَاهَا
ضَعِيفْتُمْ وَاللَّهِ كُلُّ جَمِيلَةٍ عُودُوا فَمَا خَيْرَاتُهَا بِقَلِيلَةٍ
مَا لِي إِذَا لَمْ يَقْبَلُوا مِنْ حِيلَةٍ إِنْ كَانَ يُزْعِجُكُمْ طِلَابُ فَضِيلَةٍ

فَالْخَيْرُ أَجْمَعُهُ لَدَى مَثَوَاهَا
أَوْ كَانَ يَدْعُوكُمْ إِلَى أَنْ تَرْحَلُوا جَاءَ يُنَالُ فَجَاهُ أَحْمَدُ أَكْمَلُ
أَوْ نَالَكُمْ ظَمًا فَهَذَا الْمَنْهَلُ أَوْ خِفْتُمْ ضُرّاً بِهَا فَتَأْمَلُوا

بَرَكَاتِ بُلْغَتِهَا فَمَا أَرْكَاهَا
فَإِذَا امْرُؤٌ لَمْ يَرْوِحْ مِنْ شِدَّةِ فِيهَا وَعَاشَ بِهَا بِأَيْسَرِ بُلْغَةٍ
فَاقْتَنَعْ هُنَاكَ وَلَوْ بِأَذْنِي لُقْمَةٍ أَفْ لِمَنْ يَبْغِي الْكَثِيرَ لِشَهْوَةٍ

لِرَفَاهَةٍ لَمْ يَذِرْ مَا عَقَبَاهَا
لَا تُرْوِحَنَّ لِشَهْوَةٍ وَتَلَذُّ وَانْظُرْ إِلَى ذَلِكَ الْجَمِيِّ وَتَلَذِّدِ
وَبِمَا يُقِيمُ النَّفْسَ فَاقْتَنَعْ وَاعْتَدِ فَالْعَيْشُ مَا يَكْفِي وَلَيْسَ هُوَ الَّذِي

يُطْغِي الثُّفُوسَ وَلَا خَيْسِمَ مِثَاهَا

لِلَّهِ مَنْ لَمْ يَكْثُرْ بِمَجَاعَةٍ فِيهَا وَعَاشَ بِهَا مُلَازِمَ طَاعَةٍ
وَرَأَى الْمُقَامَ بِهَا سِينِينَ كَسَاعَةٍ يَا رَبِّ أَسْأَلُ مِنْكَ فَضْلَ قَنَاعَةٍ

بِسَيِّيرِهَا وَتَحْصُنَا بِحِمَاهَا
هِيَ نِعْمَةٌ فَأَفِضْ عَلَيَّ نَعِيمَهَا وَتَوَلَّ زَائِرَهَا وَأَرْضِ مُقِيمَهَا
وَأَنَا السُّعِيدُ إِذَا رُزِقْتُ قُدُومَهَا وَرِضَاكَ عَنِّي دَائِمًا وَلُزُومَهَا

حَتَّى تُؤَافِي مُهْجَتِي أُخْرَاهَا
سَهَّلْتَ يَا رَبِّي عَلَيَّ وَصَوْلَهَا وَحَشَشْتَ نَفْسِي أَنْ تَنَالَ دُخُولَهَا
وَالنَّفْسُ تَسْأَلُ يَا كَرِيمٍ قَبُولَهَا فَأَنَا الَّذِي أَعْطَيْتُ نَفْسِي سُؤْلَهَا
وَقَبِلْتَ دَعْوَتَهَا فَيَا بُشْرَاهَا

إِنْ كُنْتَ ذَا صِدْقٍ وَصَاحِبَ هِمَّةٍ فَآخِذِمِ حِمَاهُ فَلَيْسَ ضَائِعَ خِدْمَةٍ
وَأَقِمِ فَيَانِكَ لَا تَزَالُ بِنِعْمَةٍ بِجَوَارِ أَوْلَى الْعَالَمِينَ بِذِمَّةٍ

وَأَعَزُّ مَنْ بِالْقُرْبِ مِنْهُ يُبَاهِي
مَعَ كُلِّ رَكْبٍ أُمَّ طَيِّبَةً فَانْفِذِ وَبِجِلِّءِ كَفِّ إِنْ تَبَشَّرَ فَاغْتَدِ
وَيَكُلُّ عَامٍ فِي زِيَارَتِهِ تُحْدِ مَنْ جَاءَ بِالْآيَاتِ وَالنُّورِ الَّذِي

دَاوَى الْقُلُوبَ مِنَ الْعَمَى فَشَفَاهَا
وَلَهُ مِنَ الْإِسْرَاءِ أَشْرَفُ رُتْبَةٍ وَهُوَ الشُّفِيعُ لَنَا الْكَرِيمُ الْمُثَنِّيَّةِ
وَهُوَ الْمُكْرَمُ بِأَخْتِصَاصِ الرُّؤْيَةِ أَوْلَى الْأَنْامِ بِخُطَّةِ الشَّرَفِ الَّتِي

تُدْعَى الْوَسِيلَةَ خَيْرٌ مَنْ يُغْطَاهَا
كُلُّ الْمَكَارِمِ هُنَّ طَيِّبَةٌ بِرُودِهِ وَلَقَدْ أَضَاءَ الْكَوْنُ عِنْدَ وُجُودِهِ
وَالْبَحْرُ يَقْضُرُ عَنْ مَوَاهِبِ جُودِهِ إِنْسَانُ عَيْنِ الْكَوْنِ سِرٌّ وَجُودِهِ

يَسِيرُ إِكْسِيرُ الْحَيَاةِ طَاهَا
كَانَتْ حِمَامُ الْغَارِ بَعْضَ حِمَاتِهِ وَالذُّبُّ فِي الْبَيْدَاءِ بَعْضَ دُعَاتِهِ
مَاذَا أَعَدُّ مِنْ جَلَالَةِ دَاتِهِ حَسْبِي فَلَسْتُ أَفِي بِبَعْضِ صِفَاتِهِ

وَلَيَوَّ أَنْ لِي عَدَدَ الْحَصَى أَفْوَاهَا
حُكْمُ الشُّفَاعَةِ فِي يَدَيْهِ وَأَمْرُهَا وَغَزَالَةُ نَادَتِهِ أَذْهَبَ ضُرُوحَهَا
وَالرُّوحُ حِينَ أَتَتْهُ شَرَفَ قَدْرُهَا كَثُرَتْ مَخَاسِنُهُ فَأَعْجَزَ حَضْرُوحَهَا

فَقَدْتُ وَمَا نَلَقِي لَهَا أَشْبَاهَا

اللَّهُ أَرْسَلَهُ بِكُلِّ هِدَايَةٍ وَحَبَاهُ فِي الدَّارَيْنِ كُلِّ عِنَايَةٍ
فَلَقَدْ حَوَى فِي الْمَجِيدِ أَبْعَدَ غَايَةٍ إِنِّي اهْتَدَيْتُ مِنَ الْكِتَابِ بِآيَةٍ

فَعَلِمْتُ أَنَّ عِلْمَهُ لَيْسَ يُضَاهَى

فَشَهِدْتُ أَنَّ اللَّهَ خَصَّ مُحَمَّدًا فَقَدَا بِأَمْلَاكِ السَّمَاءِ مُؤَيَّدًا
وَعَلَى لِسَانِ الْأَنْبِيَاءِ مُمَجَّدًا وَرَأَيْتُ فَضْلَ الْعَالَمِينَ مُحَدَّدًا

وَفَضَائِلَ الْمُخْتَارِ لَا تَنْتَاهَى

أَمْدَاحُهُ تَبْقَى عَلَى مَرِّ الزَّمَنِ كَمْ آيَةٍ فِينَا لَهُ مَدْحٌ حَسَنٌ
أَعْيَتْ مَدَائِحُهُ الْجِسَانَ ذَوِي اللَّسَنِ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى تَقْصِي مَدْحٍ مَنْ

قَالَ الْإِلَهُ لَهُ وَحَسْبُكَ جَاهَا

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ فَخُصَّ وَكُرِّمًا وَبِقَوْلِي مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ لَقَدْ سَمَا
وَكَفَاهُ مَا قَدْ قَالَهُ رَبُّ السَّمَاءِ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا

فِي مَآيَقُولُ يُبَايِعُونَ اللَّهَ

شَهِدْتُ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ بِفَضْلِهِ فَلَأَجَلِ حَسْمِهِمْ أَتَوْا مِنْ قَبْلِهِ
وَلَهُ لِيَوَاءِ الْحَمْدِ خُصَّ بِحَمْلِهِ هَذَا الْفَخَارُ فَهَلْ سَمِعْتَ بِمِثْلِهِ

وَأَمَّا لِنَشْأَتِهِ الْكَرِيمَةِ وَأَمَّا

يَا أُمَّةَ الْهَادِي وَمَنْ كَمِثَالِكُمْ فَجَلَالُ أَحْمَدَ شَاهِدٌ بِكَمَالِكُمْ
هُوَ يَشْرُكُكُمْ هُوَ ذَخْرُكُمْ لِمَالِكُمْ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا فَبِذَلِكَ

تُهْدَى النُّفُوسُ لِرُشْدِهَا وَغِنَاهَا

مَا فِي عِبَادِ اللَّهِ مِثْلُ مُحَمَّدٍ فَمَقَامُهُ الْمَخْمُودُ يُعْرَفُ فِي عَدِ
وَلِحَوْضِهِ الْمَوْرُودِ أَكْرَمُ مَوْرِدٍ صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ غَيْرَ مُقِيدٍ

وَعَلَيْهِ مِنْ بَرَكَاتِهِ أَنْمَاهَا

إِنَّ الصَّلَاةَ عَلَيْهِ تُنَجِّينَا عَدَا فَإِذَا هُمُودَ كَرُوا لَدَيْكَ مُحَمَّدًا
غِظَ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ أَكْبَادَ الْعِدَا وَعَلَى الْأَكْبَابِ إِلَيْهِ سَرَجُ الْهُدَى

أَكْرَمَ بِمِثْرَتِهِ وَمَنْ وَالْأَمَّا

أَعَزَّ بِآلِ مُحَمَّدٍ فَلَدَيْهِمْ يُعْطَى الْمُنَى فَالْجُودُ بِمَلِكٍ يَدَيْهِمْ
وَالْيَهُ صَرَفُ ثَنَائِنَا وَإِلَيْهِمْ وَكَذَا السَّلَامُ عَلَيْهِ ثُمَّ عَلَيْهِمْ

وَعَلَى عِصَابَتِهِ الَّتِي زَكَّاهَا

كَانُوا إِذَا التَّمَسَّ السَّمَاحَ مَحَابَهُ وَلَقَدْ أَتَوْا عِنْدَ الْحَوَائِجِ بَابَهُ
مَلَكَوْا مِنْ الْمَجْدِ الْأَيْبِلِ لُبَابَهُ أَغْنَى الْكِرَامِ أَوْلِي النُّهَى أَضْحَابَهُ

فِيئَةُ الثَّقَى وَمَنْ اهْتَدَى بِهَذَاهَا
مَدْحِي لِأَحْمَدَ لَا حِمَى كَمَلَاذِهِ فَإِنْ ارْتَضَاهُ وَجَادَ لِي بِنَفَاذِهِ
نَلْنِغَمَ مَا أَنَا عَائِدٌ بِمُعَاذِهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَرِيمِ وَهَذِهِ
نَجَزَتْ وَظَنُّنِي أَنَّهُ يَرْضَاهَا

زاد مُحَمَّسُهَا الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدٌ، عَفَا اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ بِمَنَّهُ وَلُطْفِهِ وَكَرَمِهِ آمِينَ:
مُنِيحَتْ قَصِيدُ الْبِسْكَرِيِّ قَبُولاً وَسُئِلْتُ فِي تَخْمِيصِهَا لِتَطُولاً
فَأَرَدْتُ فِي بَابِ الثُّوَابِ دُخُولاً وَأَطَلْتُ فِي نَسِجِ الْكَلَامِ دُيُولاً
قَسِيلَ الرِّيَاضِ نَسَمْتُ فَرَازِدَ شَذَاهَا

عَفَرَ الْإِلَهَ لَهُ وَلِي وَلِمَنْ قَرَا وَأَعَدُّ فِي دَارِ التَّعْمِيمِ لَنَا الْقِرَى
وَحَبَاهُ أَجْرَ الْمُخْلِصِينَ لَنَا الْقِرَى فَعَلَى قَصِيدَتِهِ سَنَا صِدْقِي يُرَى

وَكَفَشَهُ رُؤْيَا فِي الْمَنَامِ رَأَاهَا
قَالَ الرَّسُولُ لَهُ رَضِيَتْ فَيَا لَهَا بُشْرَى بِنَيْتِهِ الْجَمِيلَةَ نَالَهَا
فِي إِنْ ارْتَضَيْتُ بِأَنْ أَنَالَ مِثَالَهَا فَهِيَ السَّعَادَةُ قَدْ مُنِيحَتْ نَوَالَهَا

وَهُنَاكَ تَظْفُرُ مُنْجِي بِمُنَاهَا
يَا رَبِّ بِالْمُخْتَارِ يَسْرُ أَمْرَنَا وَأَغْفِرُ خَطَايَانَا وَأَذْهَبُ ضُرْرَنَا
وَأَجْرِلْ عَطَايَانَا وَأَجْمِلْ سَثْرَنَا وَأَجْعَلْ بِطَيْبَةٍ فِي جَمَاهِ مَقْرَرَنَا

وَأَجِبْ سُؤَالَ نَفْسِنَا وَدُعَاهَا
يَا رَبِّ صَلِّ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَالْآلِ وَالصُّحْبِ الْكِرَامِ الْمَخْتَلِدِ
الْقَائِمِينَ الرَّاكَعِينَ السُّجِدِ بِحُجْمَةِ دِينِكَ بِاللُّسَانِ وَبِالْيَدِ

وَالْمَالِ حُبًّا لِلرُّسُولِ وَجَاهَا

تنبيه: سيأتي في المعجزات وفي الخصائص أشياء تتعلق بالمدينة الشريفة الكريمة إن

شاء الله تعالى.

جماع أبواب بعض حوادث من السنة الأولى والثانية من الهجرة

الباب الأول

في صلاته صلى الله عليه وسلم الجمعة ببني سالم بن عوف

وهي أولُ جمعةٍ صَلاها وأوَّلُ خُطبةٍ في الإسلام كما جزم به [أبو سلمة بن عبد الرحمن] في العيون [نقلاً عن] ابن إسحاق، والبيهقي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: «كان أولُ خُطبةٍ خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أنه قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «[أما بعد]: أيها الناس فقدموا لأنفسكم تَعَلَّمُوا والله [لِيُضَعَّقَنَّ] أَعْدُكُمْ ثُمَّ لِيَدَعَنَّ غَنَمَهُ لَيْسَ لَهَا رَاعٍ، ثُمَّ لِيَقُولَنَّ لَهُ رَبُّهُ، وَلَيْسَ لَهُ تَرْجُمَانٌ وَلَا حَاجِبٌ يَحْجُبُهُ دُونَهُ: أَلَمْ يَأْتِكَ رَسُولِي فَبَلَّغَكَ وَأَتَيْتَكَ مَالاً وَأَفْضَلْتُ عَلَيْكَ فَمَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ؟ فَلْيَنْظُرَنَّ يَمِيناً وَشِمَالاً فَلَا يَرَى شَيْئاً، ثُمَّ لِيَنْظُرَنَّ قُدَّامَهُ فَلَا يَرَى غَيْرَ جَهَنَّمَ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقِيَّ وَجْهَهُ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقِّ مِنْ تَعْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ، فَإِنَّ بِهَا نُجْزَى الْحَسَنَةَ عَشْرَ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ، وَالسَّلَامُ [عَلَيْكُمْ] وَعَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَرَحْمَةِ اللَّهِ وَبَرَكَاتِهِ».

ثم خَطَبَ رسول الله ﷺ مَرَّةً أُخْرَى فَقَالَ: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ أَحْمَدُهُ وَأَسْتَعِينُهُ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَخَدَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، إِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَيَّنَهُ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَدْخَلَهُ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ الْكُفْرِ، وَاخْتَارَهُ عَلَى مَا سِوَاهُ مِنْ أَحَادِيثِ النَّاسِ، إِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ وَأَبْلَغُهُ، أَجِبُوا مِنْ أَحَبِّهِ اللَّهُ، أَجِبُوا اللَّهَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكُمْ وَلَا تَمَلُّوا كَلَامَ اللَّهِ وَذِكْرَهُ، وَلَا تَقْسُ عَنْهُ قُلُوبُكُمْ، فَإِنَّهُ مِنْ كُلِّ مَا يَخْلُقُ اللَّهُ يَخْتَارُ وَيَضْطَفِي قَدْ سَمَّاهُ اللَّهُ خَيْرَتَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَمُضْطَفَاةً مِنَ الْعِبَادِ وَالصَّالِحِ مِنَ الْحَدِيثِ، وَمَنْ كَلَّ مَا أَوْتَيْتِ النَّاسُ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، فَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَأَتَّقُوا حَقَّ تَقَاتِهِ وَاصْدُقُوا اللَّهَ صَالِحِ مَا تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ، وَتَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ بَيْنَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ يَغْضِبُ أَنْ يُنْكَثَ عَهْدُهُ. وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ».

وروى ابن جرير عن سعيد بن عبد الرحمن الجُمَحِيِّ أَنَّهُ بَلَغَهُ عَنْ خُطْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَوَّلِ جُمُعَةٍ صَلاها بِالْمَدِينَةِ فِي بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ أَحْمَدُهُ وَأَسْتَعِينُهُ، وَأَسْتَغْفِرُهُ وَأَسْتَهْدِيهِ، وَأُؤَمِّنُ بِهِ وَلَا أَكْفُرُهُ، وَأُعَادِي مَنْ يَكْفُرُهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَخَدَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،

وَأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ، وَالنُّورِ وَالْمَوْعِظَةِ، عَلَىٰ قَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَقِلَّةٍ مِنَ الْعِلْمِ، وَضَلَالَةٍ مِنَ النَّاسِ، [وَانْقِطَاعٍ مِنَ الزَّمَانِ]، وَدُتُوٍّ مِنَ السَّاعَةِ، وَقُرْبٍ مِنَ الْأَجْلِ، مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشِدَ، وَمَنْ يَعْصِيهِمَا فَقَدْ غَوَىٰ وَفَرَّطَ وَضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا. أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّ خَيْرَ مَا أَوْصَىٰ بِهِ الْمُسْلِمُ الْمُسْلِمَ أَنْ يَحْضَهُ عَلَى الْآخِرَةِ، وَأَنْ يَأْمُرَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَاحْذَرُوا مَا حَذَّرَكُمْ اللَّهُ مِنْ نَفْسِهِ وَلَا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ذِكْرًا، وَإِنْ تَقْوَى اللَّهِ لِمَنْ عَمِلَ بِهِ عَلَى وَجَلٍ وَمَخَافَةٍ مِنْ رَبِّهِ عَوْنٌ صِدْقٍ عَلَى مَا تَبْتَغُونَ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ، وَمَنْ يُضْلِحِ [الذي] بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ مِنْ [أمره في] السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ لَا يَتَّوِي بِذَلِكَ إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ يَكُنْ لَهُ ذِكْرًا فِي عَاجِلِ أَمْرِهِ [وَدُخْرًا فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، حِينَ يَفْتَقِرُ الْمَرْءُ إِلَىٰ مَا قَدَّمَ. وَمَا كَانَ مِمَّا سِوَىٰ ذَلِكَ يَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] هُوَ الَّذِي صَدَقَ قَوْلُهُ، وَأَنْجَزَ وَعَدَهُ، لَا خُلْفَ لَذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَامٌ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق ٢٩] فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي عَاجِلِ أَمْرِكُمْ وَأَجِلِهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ فَإِنَّهُ ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق ٥] وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا. وَإِنْ تَقْوَى اللَّهِ تَوْقِي مَقْتَهُ وَتَوْقِي عَقُوبَتَهُ وَتَوْقِي سَخَطَهُ وَإِنْ تَقْوَى اللَّهَ تُبَيِّضُ الْوَجْهَ، وَتُرْضِي الرَّبَّ، وَتَرْفَعُ الدَّرَجَةَ. فَخُذُوا بِحَظِّكُمْ وَلَا تُفَرِّطُوا فِي جَنِّبِ اللَّهِ، فَقَدْ عَلَّمَكُمْ كِتَابَهُ، وَنَهَجَ لَكُمْ سَبِيلَهُ، لِيَتَعَلَّمَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَيَتَعَلَّمَ الْكَاذِبِينَ. فَأَخْسِنُوا كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ، وَعَادُوا أَعْدَاءَهُ، وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَسَمَاكُمْ الْمُسْلِمِينَ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال ٤٢] وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. فَأَكْثِرُوا ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَاعْمَلُوا لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، فَإِنَّهُ مَنْ يُضْلِحُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ يَكْفِيهِ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ يَقْضِي عَلَى النَّاسِ وَلَا يَقْضُونَ عَلَيْهِ، وَيَمْلِكُ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ. اللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ^(١).

تنبيهات

الأول: قال في الرُّوض: قَوْلُهُ ﷺ: «أَجِبُوا اللَّهَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكُمْ»، يريد أن تستغفرَ مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَىٰ جَمِيعَ أَجْزَاءِ الْقَلْبِ، فَيَكُونُ ذِكْرُهُ وَعَمَلُهُ خَارِجًا مِنْ قَلْبِهِ خَالِصًا لِلَّهِ. وَتَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى مَحَبَّتِهِ لِعَبْدِهِ، وَمَحَبَّةَ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ فِي اسْمِهِ ﷺ: «حَبِيبُ اللَّهِ».

وقوله ﷺ: «وَلَا تَمَلُّوا كَلَامَ اللَّهِ وَذِكْرَهُ». فَإِنَّهُ مِنْ كُلِّ مَا يَخْلُقُ اللَّهُ يَخْتَارُ وَيَضْطَلِفِي، قَالَ السَّهْبِيُّ: الْهَاءُ فِي قَوْلِهِ: (فَائِنُهُ) لَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ عَائِدَةً عَلَى كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَلَكِنِهَا

(١) أخرجه ابن جرير في التاريخ ٢/٢٥٥.

ضمير الأمر والحديث، فكأنه قال: إن الحديث من كل ما يخلق الله يختار، فالأعمال إذا كُلتها من خلق الله، قد اختار منها ما شاء، قال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾.

وقوله: «قد سمَّاه الله خَيْرَتَه من الأعمال»، يعني الذُّكر وتلاوة القرآن [لقوله سبحانه: «ويختار» فقد اختاره من الأعمال]. وقوله: «والمُصْطَفَى من عباده»: أي سَمَّى المصطفى من عباده بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج ٧٥] ويجوز أن يكون معناه المصطفى من عباده أي العَمَل الذي اصطفاه منهم واختاره من أعمالهم، فلا تكون «من» على هذا للتبويض، إنما تكون لابتداء الغاية، لأنه عمل استخرجه منهم لتوفيقه إياهم، والتأويل الأول أقرب مأخذاً. والله أعلم بما أراد رسوله.

وقوله في أول الخطبة: «إِنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ أَحْمَدُهُ»، هكذا برفع الدال [من قوله: الحمد لله] (٤) وَجَدْتُهُ مُقَيَّدًا مُصَحَّحًا عَلَيْهِ، وإعرابه ليس على الحكاية، ولكن على إضمار الأمر، كأنه قال: «إِنَّ الْأَمْرَ الَّذِي أَذْكَرُهُ»، حَذَفَ الْهَاءَ الْعَائِدَةَ عَلَى الْأَمْرِ كِي لَا يُقَدِّمُ شَيْئًا فِي اللَّفْظِ مِنَ الْأَسْمَاءِ عَلَى قَوْلِهِ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ». وليس تقديم «إِنَّ» في اللفظ من باب تقديم الأسماء لأنها حَرْفٌ مُؤَكَّدٌ لِمَا بَعْدَهُ مَعَ مَا فِي اللَّفْظِ مِنَ التَّحْرِي لِلْفِظِ الْقُرْآنِ وَالشَّيْئُ بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الثاني: اِخْتِلَافٌ فِي تَسْمِيَةِ الْيَوْمِ بِذَلِكَ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ اتِّفَاقًا يُسَمَّى فِي الْجَاهِلِيَّةِ: «الْعَرُوبَةُ» - بفتح المهملة وضمّ الراء وبالمُوحَّدة - قُلْتُ: قَالَ أَبُو جَعْفَرِ النَّخَّاسِ فِي كِتَابِهِ: «صِنَاعَةُ الْكِتَابَةِ»: لَا يَعْرِفُهُ أَهْلُ اللَّغَةِ إِلَّا بِالْأَلْفِ وَاللَّامِ إِلَّا شَاذًا، وَمَعْنَاهُ الْيَوْمُ الْمُبَيَّنُّ الْمُعْظَمُ مِنْ أَعْرَبَ إِذَا بَيَّنَّ. فَقِيلَ: سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّ الْخِلَافَ جُمِعَتْ فِيهِ، ذَكَرَهُ أَبُو حَذِيفَةَ الْبَخَارِيُّ فِي الْمَبْتَدَأِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ. وَقِيلَ: لِأَنَّ خَلْقَ آدَمَ جُمِعَ فِيهِ.

وروى الإمام أحمد والنسائي وابن خزيمة وابن أبي حاتم عن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَتَدْرِي مَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. قَالَ فِي الثَّلَاثَةِ: «هُوَ الْيَوْمَ الَّذِي جُمِعَ فِيهِ أَبُوكُمْ آدَمُ». الْحَدِيثُ، وَلَهُ شَاهِدٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِإِسْنَادٍ قَوِيٍّ، وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ مَرْفُوعًا بِإِسْنَادٍ ضَعِيفٍ. قَالَ الْحَافِظُ: «وَهَذَا أَصَحُّ. وَيَلِيهِ مَا رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ ابْنِ سِيرِينَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ إِلَيْهِ، فِي قِصَّةِ تَجْمِيعِ الْأَنْصَارِ، مَعَ أَسْعَدِ بْنِ زُرَّارَةَ. وَكَانُوا يَسْمُونُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ يَوْمَ الْعَرُوبَةِ، صَلَّى بِهِمْ فِيهِ وَذَكَرَهُمْ فَسَمَّوْهُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ حِينَ اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ». وَقِيلَ: «سُمِّيَ بِذَلِكَ لِاجْتِمَاعِ النَّاسِ لِلصَّلَاةِ فِيهِ». وَبِهَذَا جَزَمَ ابْنُ حَزْمٍ فَقَالَ: إِنَّهُ اسْمٌ إِسْلَامِيٌّ لَمْ يَكُنْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَإِنَّمَا كَانَ يُسَمَّى الْعَرُوبَةَ. وَفِيهِ نَظَرٌ، فَقَدْ قَالَ أَهْلُ اللَّغَةِ: إِنَّ الْعَرُوبَةَ اسْمٌ قَدِيمٌ كَانَ لِلجَاهِلِيَّةِ، وَقَالُوا: الْجُمُعَةُ هُوَ يَوْمُ الْعَرُوبَةِ. وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ غَيَّرُوا الْأَيَّامَ السَّبْعَةَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ: أَوَّلُ وَأَهْوَنُ وَجُبَّارٌ وَدُبَّارٌ وَمُؤْنِسٌ وَعَرُوبَةُ وَشِيَارٌ.

وقال الجوهري: وكانت العرب تسمي يوم الاثنين «أَهْوَن» في أسمائهم القديمة. فهذا يُشعرُ بأن لها أسماء وهي هذه المُتعارفة إلى آخرها الآن. وقيل: إن أول من سَمَى العَرُوبَةَ «الجمعة» كعب بن لُؤَيٍّ، فيحتاج من قال إنهم غَيَّرُوهَا إلى الجمعة، فَأَبْقَوْهَا على تسمية العَرُوبَةَ إلى نقل خاص.

الثالث: تَقَدَّمَ أن صلاة الجمعة صَلَّتها الصحابة بالمدينة قبل قدوم النبي ﷺ المدينة، فقيل ذلك بإذن من النبي ﷺ لِمَا رواه الدارقطني عن ابن عباس، قال: أذِنَ رسول الله ﷺ بالجمعة قبل أن يهاجر، ولم يستطع رسول الله ﷺ أن يجمع بمكة ولا [بيدي] لهم، فكتب إلى مُضْعَب بن عُمَيْر رضي الله عنه: «أما بعد فانظر اليوم الذي تَجْهَر فيه اليهود بالزبور لَسَبِّهِمْ، فاجمعوا نساءكم وأبناءكم، فإذا مال النهار عن شطره عند الزوال من يوم الجمعة فَتَقَرَّبُوا إلى الله تعالى بركعتين». قال: فَأَوَّلُ من جَمَعَ مُضْعَب بن عُمَيْر حتى قَدِم رسول الله ﷺ المدينة، فَجَمَعَ عند الزوال من الظهر، وأظهر ذلك. وفي سنده أحمد بن محمد بن غالب الباهلي، وهو متهم بالوضع. قال في الزهر: «والمعروف في هذا المتن الإرسال، رَوَيْنَاهُ في كتاب الأوائل لأبي عروبة الحرَّاني» قال: «حَدَّثَنَا هَاشِم بن القاسم حَدَّثَنَا ابن وَهَب حَدَّثَنَا ابن جُرَيْج عن سليمان بن موسى أن النبي ﷺ كتب إلى مصعب به». وقيل باجتهاد الصحابة، روى عبد الرزاق بإسناد صحيح عن محمد بن سيرين قال: جَمَعَ أَهْلُ المدينة قبل أن يَقْدَمَهَا رسول الله ﷺ، وقبل أن تنزل الجُمُعَةُ، فقالت الأنصار: إن لليهود يوماً يُجْمَعُونَ فيه كل سبعة أيام، وللنصارى مثل ذلك فَهَلُّمُوا فلنجعل يوماً نُجْمَعُ فيه فنذكر الله ونصلي ونشكر. فجعلوه يوم العَرُوبَةَ، واجتمعوا إلى أسعد بن زُرَّارة، فَصَلَّى بهم يومئذ، وأنزل الله تعالى بعد ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة ٩] قال الحافظ: وهذا وإن كان مُرْسَلًا فله شاهد بإسناد حسن، رواه أبو داود وابن ماجه، وَصَحَّحَهُ ابنُ خُرَيْمَةَ وغير واحد من حديث كعب بن مالك قال: «كان أول من صَلَّى بنا الجُمُعَةَ قبل مَقْدَم النبي ﷺ المدينة أسعد بن زُرَّارة»، الحديث وقد تَقَدَّمَ، فَمُرْسَل ابن سيرين يدل على أن أولئك الصحابة اختاروا يوم الجمعة باجتهاد، ولا يمنع ذلك أن يكون النبي ﷺ عَلِمَهُ بِالوَحْيِ وهو بمكة، فلم يتمكن من إقامتها كما في حديث ابن عباس والمُرْسَل بعده، ولذلك جَمَعَ بهم أول ما قَدِمَ المدينة كما حكاه ابن إسحاق وغيره، وعلى هذا فقد حصلت الهداية للجمعة بِخَبَرِ نَبِيِّ البَيَان والتوفيق. وقيل: الحكمة في اختيارهم الجمعة وقوع خَلْقِ آدَمَ فيه، والإنسان إنما خُلِقَ للعبادة، فناسب أن يشتغل بالعبادة فيه، وكان الله تعالى أكمل فيه الموجودات وأوجد فيه الإنسان الذي يَنْتَفِعُ بها، فناسب أن يشكر الله على ذلك بالعبادة فيه، ولهذا تَبَيَّنَتْ في الخصائص إن شاء الله تعالى.

الباب الثاني

في بناء مسجده الأعظم وبعض ما وقع في ذلك من الآيات

تَقَدَّمَ أَنْ نَاقَتْهُ ﷺ بَرَكَتٌ عِنْدَ بَابِ مَسْجِدِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا الْمَنْزِلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، ثُمَّ أَخَذَ فِي النُّزُولِ، فَقَالَ: «رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ» [المؤمنون ٢٩]. وكان مِرْبِداً لِيَتِيمَيْنِ هُمَا: سَهْلٌ وَسُهَيْلٌ، قال يحيى بن الحسن، والبلاذري وغيرهما: «ابنا رافع بن أبي عمرو بن عائذ بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار، وبذلك صرَّح ابن حزم، وأبو عمرو ورجحاه، وكانا في حجر أسعد بن زُرارة كما في صحيح البخاري عند أكثر رواته. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ أرسل إلى بني النجار بسبب موضع المسجد، فقال: «يا بني النجار، ثامثوني بحائطكم هذا»^(١)، فقالوا: «والله لا نطلب ثمنه إلا من الله» وفي رواية: فدعا بالغلامين وساومهما بالمِرْبِدِ لِيَتَّخِذَهُ مَسْجِداً. فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله. فأبى أن يقبله منهما هبةً حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجداً. وكان أسعد بنى المِرْبِدِ مسجداً قبل أن يقدّم النبي ﷺ.

وروى يحيى بن الحسن عن الثَّوَارِ بنت مالك أم زيد بن ثابت أنها رأَتْ أسعد بن زُرارة قبل أن يقدّم النبي ﷺ، يُصَلِّي بِالنَّاسِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَيُجْمَعُ بِهِمْ فِي مَسْجِدِ بِنَاهُ فِي مِرْبِدِ سَهْلٍ وَسُهَيْلٍ، ابْنَيْ رَافِعِ بْنِ أَبِي عَمْرٍو بْنِ عَائِذِ بْنِ ثَعْلَبَةَ، فَقَالَتْ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - لَمَّا قَدِمَ صَلَّى بِهِمْ فِي ذَلِكَ الْمَسْجِدِ، وَبِنَاهُ فَهُوَ مَسْجِدُهُ»، وذكر البلاذري نحوه.

وروى الشيخان والبيهقي عن أنس رضي الله عنه قال: كان المسجد جداراً ليس له سَقْفٌ، وَقَبْلَتُهُ إِلَى الْقُدْسِ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - بِالنُّخْلِ بِالْفَرْقَدِ أَنْ يُقَطَّعَ، وَكَانَ فِيهِ قُبُورٌ جَاهِلِيَّةٌ، فَأَمَرَ بِهَا فَنُبِّشَتْ وَأَمَرَ بِالْعِظَامِ أَنْ تُغَيَّبَ، وَكَانَ فِي الْمِرْبِدِ مَاءٌ فَسَيَّرَهُ حَتَّى ذَهَبَ، وَكَانَ فِيهِ خَرِبٌ فَأَمَرَ بِهَا فَسُوِّتْ، فَصَفَّوْا النَّخْلَ قِبْلَةً لَهُ، أَي جَعَلَتْ سَوَارِي لَهُ فِي جِهَةِ الْقِبْلَةِ فَسَقَّفَ عَلَيْهَا وَجَعَلُوا عَضَادَتِيهِ حِجَارَةً.

وروى ابن عائذ أن النبي ﷺ - صَلَّى فِيهِ وَهُوَ عَرِيشٌ اثْنِي عَشَرَ يَوْماً ثُمَّ سَقَّفَ، وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْمَخْزُومِيُّ، وَيَحْيَى بْنُ الْحَسَنِ عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ قَالَ: «لَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - أَنْ يَبْنِيَ الْمَسْجِدَ قَالَ: «ابْثُوا لِي عَرِيشاً كَعَرِيشِ مُوسَى ثَمَامَاتٍ وَخَشَبَاتٍ وَظُلَّةً كَظُلَّةِ مُوسَى وَالْأَمْرُ أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ». قِيلَ: وَمَا ظُلَّةُ مُوسَى؟ قَالَ: «كَانَ إِذَا قَامَ أَصَابَ رَأْسَهُ

(١) أخرجه البخاري ١١٧/١ ومسلم في كتاب المساجد (٩) وأبو داود (٤٥٣) وابن ماجه (٨٦).

الشَّقْفُ. وَعَمِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مع الصحابة في بناء المسجد، بنفسه الكريمة، كما في الصحيح أنه طَفِقَ يَنْقُلُ مَعَهُمُ اللَّيْلَ تَرْغِيْبًا لَهُمْ فِي الْعَمَلِ، وَيَقُولُ:

اللَّهُمَّ إِنَّ الْأَجْرَ أَجْرُ الْأَخِرَةِ فَارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ^(۱)

وَيُذَكَّرُ أَنَّ هَذَا الْبَيْتَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ، وَعَنْ الزَّهْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرَ الْآخِرَةِ فَارْحَمْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ. وَكَانَ لَا يَقِيمُ الشُّفْرَ.

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْمَخْزُومِيُّ عَنْ أُمِّ سَلْمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: «بَنَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَسْجِدَهُ فَقَرَّبَ اللَّيْلَ وَمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوَضَعَ رِجْلَهُ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الْمُهَاجِرُونَ الْأُولُونَ وَالْأَنْصَارُ الْقَوَّاءَ أَرَادُوا أَنْ يَكْسِبُوهُمْ وَجَعَلُوا يَرْتَجِزُونَ وَيَعْمَلُونَ وَيَقُولُونَ:

لَيْسَ قَعْدُنَا وَالنُّبِيُّ يَعْمَلُ ذَاكَ إِذَا لَعَمَلُ الْمُضَلُّ^(۲)

وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: لَمَّا بَنَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ أَعَانَهُ أَصْحَابُهُ وَهُوَ مَعَهُمْ يَتَنَاوَلُ اللَّيْلَ حَتَّى اغْتَبِرَ صَدْرُهُ. وَكَانَ عِثْمَانُ بْنُ مِظْعُونٍ رَجُلًا مُتَنَطِّعًا وَكَانَ يَحْمِلُ اللَّيْلَةَ فَيُجَافِي بِهَا ثَوْبَهُ، فَإِذَا وَضَعَهَا نَفَضَ كُمَّهُ وَنَظَرَ إِلَى ثَوْبِهِ، فَإِنْ أَصَابَهُ شَيْءٌ مِنَ التَّرَابِ نَفَضَهُ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَنشَدَ يَقُولُ:

لَا يَسْتَوِي مَنْ يَغْمُرُ الْمَسَاجِدَا يَذَابُ فِيهَا قَائِمًا وَقَاعِدَا

وَمَنْ يُسْرِى عَنِ الْغُبَارِ حَائِدَا

فَسَمِعَهَا عَمَارُ بْنُ يَاسِرٍ، فَجَعَلَ يَرْتَجِزُ بِهَا وَهُوَ لَا يَدْرِي مَنْ يَغْنِي بِهَا. فَمَرَّ بِعِثْمَانَ فَقَالَ: يَا بَنَ سُمَيْيَةَ، مَا أَغْرَفَنِي بِمَنْ تُغْرَضُ، وَمَعَهُ جَرِيدَةٌ، فَقَالَ: لَتَكْفُنُنِي أَوْ لَأَغْتَرِضُنِي بِهَا وَجْهَكَ. فَسَمِعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَغَضِبَ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ جِلْدَةٌ مَا بَيْنَ عَيْنَيْ وَأَنْفِي فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ مِنَ الْمَرْءِ فَقَدْ أَبْلَغَ». وَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ. فَكَفَّ النَّاسُ عَنْ عَمَّارٍ، ثُمَّ قَالُوا لِعَمَّارٍ: إِنْ النَّبِيُّ ﷺ - قَدْ غَضِبَ فِيكَ، وَنَخَافُ أَنْ يَنْزِلَ فِيْنَا قُرْآنٌ. فَقَالَ: أَنَا أَرْضِيهِ كَمَا غَضِبَ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لِي وَأَصْحَابِكَ؟ قَالَ: «مَا لَكَ وَلَهُمْ؟» قَالَ: يَرِيدُونَ قَتْلِي، يَحْمِلُونَ لَيْلَةَ لَيْلَةٍ وَيَحْمِلُونَ عَلَيَّ لَيْلَتَيْنِ لَيْلَتَيْنِ. فَأَخَذَ بِيَدِهِ وَطَافَ بِهِ فِي الْمَسْجِدِ، وَجَعَلَ يَمْسَحُ وَفَرْتَهُ بِيَدَيْهِ مِنَ التَّرَابِ وَيَقُولُ: «يَا بَنَ سُمَيْيَةَ، لَيْسُوا بِالَّذِينَ يَقْتُلُونَكَ، تَقْتُلُكَ الْفِئَةُ الْبَاغِيَّةُ، تَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيَدْعُونَكَ إِلَى النَّارِ»، وَيَقُولُ عَمَّارٌ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ.

(۱) انظر البداية والنهاية ۲/۲۱۵.

(۲) انظر البداية والنهاية ۳/۲۱۶.

وروى عبد الرزاق بسندٍ على شرط الشيخين عن أم سلمة، والبخاري والبيهقي^(١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «لما كان رسول الله ﷺ وأصحابه يبنون المسجد، جعل أصحاب رسول الله ﷺ يحمل كل رجل منهم لينة لينة، وعمار يحمل لبتين: لينة عنه ولينة عن رسول الله ﷺ، فمسح رسول الله ﷺ ظهره وقال: «يا بن سمية للناس أجر ولك أجران، وآخر زادك شربة من لبن، وتقتلك الفئة الباغية، تدعوهم إلى الجنة ويدعونك إلى النار، وعمار يقول: «أعوذ بالله من الفتن».

وروى أبو يعلى برجال الصحيح إلا أن التابعي لم يسمع عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما أسس رسول الله ﷺ مسجد المدينة جاء بحجر فوضعه، وجاء أبو بكر بحجر فوضعه، وجاء عمر بحجر فوضعه، وجاء عثمان بحجر فوضعه، قالت: فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «هذا أمر الخلافة من بعدي»^(٢).

وروى البيهقي بسند قوي جيد عن سفينة^(٣) رضي الله عنه نحوه، وفيه قال: «هؤلاء ولاية الأمر من بعدي». وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنهم كانوا يحملون اللبن إلى بناء المسجد ورسول الله ﷺ، قال: «فاستقبلت رسول الله ﷺ وهو عارض لينة على بطنه فظننت أنها شقت عليه، فقلت: «يا رسول الله ناولنيها». فقال: «خذ غيرها، لا عيش إلا عيش الآخرة». وهذا كان في بنائه المرة الثانية، لأن أبا هريرة لم يُسلم في الأولى. وروى يحيى بن الحسن عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما عن أبيه، قال: «خرج رسول الله ﷺ، ومعه حجر، فلقيه أسيد بن حضير، فقال: يا رسول الله أعطنيه. فقال: «اذهب فاختمل غيره فإنك لست بأفقر إلى الله مني»^(٤).

وروى الإمام أحمد ويحيى بن الحسن عن طلق بن علي رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو يبني المسجد، والمسلمون يعملون فيه معه، وكنت صاحب علاج وخلط طين، فأخذت المسحاة أخلط الطين والنبى ﷺ - ينظر إلي ويقول: «إن هذا الحنفي لصاحب طين». وكان يقول: «قرئوا اليمامي من الطين فإنه أحسنكم له مسكاً وأشدكم منكباً»^(٥).

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل ٢٦٩/٢.

(٢) أخرجه أبو نعيم في المسند ٢٩٥/٨ (٤٨٨٤) وذكره الهيثمي في المجمع ١٧٦/٥ وعزه لأبي يعلى وقال: ورجاله رجال الصحيح، غير التابعي فإنه لم يسم، وذكره ابن حجر في المطالب (٣٨٤١).

(٣) سفينة مولى رسول الله ﷺ.. قيل: كان اسمه مهران وقيل: طهمان وقيل: مروان وقيل: نجران وقيل: رومان وقيل: ذكوان وقيل: كيسان وقيل: سليمان وقيل غير ذلك الإصابة ١٠٩/٣.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٣٨١/٢.

(٥) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٤٠٢/٥.

وروى يحيى بن الحسن من طريق عبد العزيز بن عمر، عن يزيد بن السائب، عن خارجة بن زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال: «بنى رسول الله ﷺ، مسجده سبعين في ستين ذراعاً أو يزيد، ولبن لينة من بقيع الخبيخة وجعله جداراً وجعل سواريه خشباً شقة شقة، وجعل وسطه رحبة، وبني بيتين لزوجتيه».

وروى يحيى أيضاً عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: كان بناء مسجد رسول الله ﷺ - بالسميط لينة على لينة، ثم بالسعيد لينة ونصف أخرى، ثم كثر الناس فقالوا: «يا رسول الله لو زيد فيه» ففعل، فبنى بالذكر والأنثى وهي لبتان مختلفتان، وكانوا رفعوا أساسه قريباً من ثلاثة أذرع بالحجارة، وجعلوا طولهُ مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع، وكذا في العرض، وكان مربعاً. وفي رواية جعفر: ولم يُسطح فشكوا الحَرَّ، فجعلوا خشبهُ وسواريه جذوعاً وظلُّوه بالجريد ثم بالخصف، فلما وكف عليهم طيُّوه بالطين، وجعلوا وسطه رحبة، وكان جداره قبل أن يُسقف قامةً وشيئاً.

وروى يحيى عن [أسامة بن] زيد بن حارثة عن أبيه رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ - جعل قبلته إلى بيت المقدس وجعل له ثلاثة أبواب في مؤخره: باب أبي بكر وهو في جهة القبلة اليوم، وباب عاتكة الذي يُدعى باب عاتكة ويقال له باب الرحمة، والباب الذي كان يدخل منه رسول الله ﷺ، وهو باب آل عثمان اليوم، وهذان البابان لم يُغيِّرا بعد أن صرقت القبلة، ولما صرقت القبلة سدَّ النبي ﷺ الباب الذي كان خَلْفَه، وفتح هذا الباب، وحذاه هذا الباب أي ومحاذيه هذا الباب الذي سدَّ.

وروى ابن زبالة عن جعفر بن محمد أن النبي ﷺ - بنى مسجده مرتين: بناء حين قَدِمَ أقل من مائة في مائة، فلما فتح الله عليه خيبر بناه وزاد عليه مثله في الدور. وروى الزبير بن بكار عن أنس رضي الله عنه أنه قال: بنى رسول الله ﷺ - مسجده أول ما بناه بالجريد، وإنما بناه باللين بعد الهجرة بأربع سنين.

وروى الطبراني عن أبي المليح أنه قال: «قال رسول الله ﷺ - لصاحب البُقعة التي زيدت في مسجد المدينة، وكان صاحبها من الأنصار، فقال النبي ﷺ -: «لَكَ بِهَا بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ». قال: فجاء عثمان، فقال له: لَكَ بِهَا عَشْرَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ، فاشتراها منه، ثم جاء عثمان إلى النبي ﷺ - فقال: يا رسول الله اشتر مني البُقعة التي اشتريتها من الأنصاري، فاشتراها منه ببیت في الجنة. فقال عثمان: إني اشتريتها بعشرة آلاف درهم، فوضع رسول الله ﷺ - لينة، ثم دعا أبا بكر فوضع لينة، ثم دعا عُمر فوضع لينة، ثم دعا

عثمان فوضع لِبْنَةً، ثم قال للناس: «ضعوها»، فوضعوا^(١).

وروى الإمام أحمد والترمذي وحسنه في حديث قِصَّةِ إشراف عثمان يوم الدار، عن ثمامة بن حَزَن القَشِيرِي، والإمام أحمد والدارقطني عن الأحنف بن قيس، أن عثمان رضي الله عنه، أشرف على الناس فقال: «أههنا علي؟» قالوا: نعم. قال: «أههنا طلحة؟» قالوا: نعم. قال: «أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، أتعلمون أن رسول الله - ﷺ - قال: «مَنْ يَتَاعُ بُقْعَةَ بَنِي فَلَانٍ فَلْيَزِيدْهَا فِي الْمَسْجِدِ بِخَيْرٍ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ؟» وفي رواية: «غفر الله له». فاشتريتها من صُلب مالي بعشرين ألفاً فأتيت النبي - ﷺ - فقلت: قد ابتعتها. فقال: «اجعلها في مسجدنا ولك أجرها». قالوا: «اللهم نعم»^(٢).

وروى الزبير بن بَكَّار عن نافع بن جبير، وداود بن قيس، وابن شهاب وإسماعيل بن عبد الله الأزدي عن رجل من الأنصار، والطبراني بسند رجاله ثقات، عن الشُّمُوس بنت النعمان رضي الله عنها، ويحيى بن الحسن عن الخليل بن عبد الله الأسدي عن رجل من الأنصار، عن ابن عجلان والغرافي - بالغين المعجمة والفاء في ذيله - عن مالك بن أنس عن زيد بن أسلم عن ابن عمر أن رسول الله - ﷺ - أقام رهطاً على زوايا المسجد ليُعَدِّلَ الْقَيْلَةَ، فأتاه جبريل، فقال: «يا رسول الله ضَعِ الْقَيْلَةَ وَأَنْتَ تَنْظُرُ إِلَى الْكَعْبَةِ»، ثم قال بيده هكذا فأنماطَ كُلِّ جَبَلٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا فَوَضَعَ تَرْبِيعَ الْمَسْجِدِ، وهو ينظر إلى الكعبة لا يحول دون نظره شيء. فلما فرغ قال جبريل بيده فأعاد الجبال والشجر والأشياء على حالها وصارت قبلة إلى الميزاب، فقال رسول الله - ﷺ -: «ما وضعت قبلة مسجدي هذا حتى رُفِعَتْ لِي الْكَعْبَةُ فَوَضَعْتُهَا أَمَامَهَا»^(٣).

وقال الإمام مالك رحمه الله كما في العُثْبِيَّة: «سَمِعْتُ أَنَّ جَبْرِيْلَ هُوَ الَّذِي أَقَامَ لِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - قَيْلَةَ مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ». وروى البخاري وأبو داود عن نافع، وأبو داود عن طريق ابن عطية، كلاهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أن مسجد رسول الله - ﷺ - كانت سواريه على عهد رسول الله - ﷺ - من جذوع النَّخْلِ وأَعْلَاهُ مُظَلَّلٌ بِجَرِيدِ النَّخْلِ، ثم أنها نَحَرَتْ فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ فَبَنَاهُ بِجَذُوعِ النَّخْلِ وَبَجَرِيدِ النَّخْلِ، ولم يزد فيه، وزاد فيه عُمر، وبناه على بنائه في عهد رسول الله - ﷺ - باللِّين والجريد وأعاد عَمَدَهُ خَشْباً، ثم أنها نَحَرَتْ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ، فزاد فيه زيادة كبيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقِصَّة، وجعل عَمَدَهُ مِنْ حِجَارَةِ

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١٦٣/١ وذكره الهيثمي في المجمع ٧٦/٩.

(٢) أخرجه النسائي ٢٣٤/٦.

(٣) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٣٤٨٣٤).

منقوشة وسقفه بالشجاج. زاد في العيون: ونقل إليه الخضباء من العقيق.

وأول من اتخذ فيه المقصورة مروان بن الحَكَم بناها بحجارة منقوشة [وجعل لها كَوَى]، ثم لم يُخَدِّث فيه شيئاً إلى أن ولي الوليد بن عبد الملك بن مروان بعد أبيه، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة يأمره بهدم المسجد وبنائه، وبعث إليه بمال وفُسَيْفِسَاء ورخام وثمانين صائعاً من الروم والقبط من أهل الشام ومصر، فبناه وزاد فيه، وولى القيام بأمره والنفقة عليه صالح بن كيسان وذلك في سنة سبع وثمانين ويقال: من سنة ثمان وثمانين.

ولم يُخَدِّث فيه أحدٌ من الخلفاء شيئاً حتى استُخْلِف المَهْدِي. قال محمد بن عُمَرَ: بَعَث المَهْدِي عبد الملك بن شبيب الغَسَائِي ورجلاً من ولد عمر بن عبد العزيز إلى المدينة لبناء مسجدها والزيادة فيه، وعليها يومئذ جعفر بن سليمان بن علي، فمكثا في عمله سنة، وزاد في مؤخره مائة ذراع فصار طوله ثلاثمائة ذراع وعرضه مائتي ذراع. وقال علي بن محمد المدائني: «وَلَّى المَهْدِي جعفر بن سليمان مكة والمدينة واليمامة فزاد في مكة ومسجد المدينة، وتَمَّ بناء مسجد المدينة في سنة اثنتين وستين ومائة. وكان المَهْدِي أتى إلى المدينة في سنة ستين ومائة قبل الحج فأمر بقلع المقصورة وتسويتها مع المسجد، ويقال إن المأمون عمره أيضاً وزاد فيه. والله أعلم.

ثم لم يزد فيه شيئاً أحدٌ من الخلفاء بعد المأمون، ولم يُعَمَّرُوا إلا مواضع يسيرة، إلى أن حصل الحريق [في المسجد النبوي] في أول شهر رمضان سنة أربع وخمسين وستمائة أول الليل لدخول أبي بكر بن أوحد الفَرَّاش الحاصل الذي في الزاوية الغربية لاستخراج قناديل لمناثر المسجد. وترك الضوء الذي كان في يده على قفص من أقفاص القناديل وفيه مشاق فاشتعلت النار فيه وأعجزه إطفائها وعَلِقَتْ بِبُشْطِ وغيرها مما في الحاصل وتزايد الالتهاب حتى اتصلت بالسقف بسرعة [ثم دَبَّتْ فِي السَّقُوف] أخذة قِبَلَةَ فَأَعَجَلَت الناس عن إطفائها بعد أن نزل أمير المدينة واجتمع معه غالب أهلها، فلم يقدرُوا على قطعها، وما كان إلا أقل من القليل حتى استولى الحريق على جميع سقف المسجد الشريف وما احتوى من المنبر النبوي والأبواب والخزائن والمقاصير والصناديق ولم تَبْقَ خَشْبَةٌ واحدة، وكذا الكتب، وكُشُورَةُ الحجرة الشريفة. قال القُطْبِ القسطلاني: وكان عليها حينئذ إحدى عشرة ستارة، وأزالت النار تلك الزخارف التي لا تُرْضِي، وشوهد من هذه النار صِفَّة القهر والعظمة الإلهية مُسْتَوِيَّة على الشريف والمشروف. وكان هذا الحريق عَقِبَ ظهور نار الحجاز المُنْذِر بها من أرض المدينة، وحماية أهلها منها لما التجأوا إلى مسجدها، فانطفأت عند وصولها لحرمتها. قلت: وسيأتي بيان ذلك في المعجزات إن شاء الله تعالى.

وربما خَطَرَ ببال العوام أن حَبَسَهَا عنهم بركة الجِوَار مُوجِبٌ لِحَبْسِهَا عنهم في الآخرة، مع اقتراف الأوزار، فاقتضى الحال البيان بلسان الحال الذي هو أفصح من لسان المقال. والنار مُطَهَّرَةٌ لأدناس الذنوب وقد كان [ذلك] لاستيلاء الروافض حينئذ [على المسجد النبوي والمدينة] وكان القاضي والخطيب منهم، وأسأروا الأدب كما بسط ذلك ابن جبير في رحلته، ولذا وَجَدَ عَقِبَ الحريق على جدران المسجد:

لَمْ يَخْتَرِقْ حَرَمُ النَّبِيِّ لِرَيْبَةٍ يُخْشَى عَلَيْهِ وَمَا بِهِ مِنْ عَارٍ
لَكِنَّهَا أَيْدِي الرُّوَاغِضِ لَأَمَسَتْ تِلْكَ الرُّسُومَ فَطُهِرَتْ بِالنَّارِ

وَوُجِدَ أَيْضًا:

قُلْ لِلرُّوَاغِضِ بِالْمَدِينَةِ مَا بِكُمْ لِقِيَادِكُمْ لِلذَّمِّ كُلِّ سَفِيهِ
مَا أَضْبَحَ الْحَرَمُ الشَّرِيفُ مُحَرَّقًا إِلَّا لِسَبِّكُمْ الصُّحَابَةَ فِيهِ

ولم يَسْلَمْ من الحريق سوى القُبَّة التي أحدثها الناصر لدين الله لحفظ ذخائر الحَرَم. قال المؤرخون: وبقيت سواري المسجد قائمة كأنها جذوع النَّخْلِ إذا هَبَّت الرياح تتمايل، وذاب الرصاص من بعض الأساطين فسقطت ووقع السَّقْف الذي كان على أعلى الحجرة الشريفة على سقف بيت رسول الله ﷺ، فوقها جميعاً في الحجرة الشريفة وعلى القبور المقدسة.

وفي صبيحة الجمعة عزلوا مَوْضِعاً للصلاة وكتبوا بذلك للخليفة المُشْتَعِصِم بالله [أبي أحمد عبد الله] بن المُشْتَنَصِر بالله [في شهر رمضان]، فوصلت الآلات صُخْبَةَ الصُّنَاع مع رَكْب العراق في الموسم واثْنَيْ عَشَرَ بِالْعِمَارَةِ أول سنة خمس وخمسين وستمائة، وقصدوا إزالة ما وقع من السقوف على القبور الشريفة، فلم يجسروا على ذلك. واتفق رأي [صاحب المدينة يومئذ وهو] الأمير منيف بن شيحة [بن هاشم بن قاسم بن مهنيء الحسيني] مع رأي أكابر الحَرَم الشريف أن يُطَالَعَ الإمام المُسْتَعِصِم بالله بذلك فيفعل ما يصل إليه أمره. فأرسلوا بذلك فلم يصل جوابه لاشتغاله وأهل دولته بإزعاج التار لهم واستيلائهم على أعمال بغداد في تلك السنة. فتركوا الرُّدْم على حاله ولم يَنْزِلْ أَحَدٌ هناك. زاد المعجد اللغوي: ولم يَجْسُرْ أَحَدٌ على التَّعَرُّض لهذه العظيمة التي دون مرامها تَزِلُّ الأقدام ولا يتأتى من كل أحد باديء بدئه الدخول فيه والإقدام. ووصلت الآلات من صاحب اليمن [يومئذ وهو الملك] المُظْفَر شمس الدين يوسف بن المنصور عُمر بن رسول. ثم عُزِلَ صاحب مصر، وتولى مكانه مملوك أبيه المظفر سيف الدين قَطْر المِعْرِي واسمه الحقيقي محمود بن ممدود، وأمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه، وأبوه ابن عَمِّه، أمير عند غَلْبَةِ التار، فبيع بدمشق، ثم [انتقل بالبيع إلى] مصر،

وَتَمَلَّكَ فِي ثَامِنِ عَشْرِ ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ سَنَةِ سَبْعٍ [وْخَمْسِينَ وَسِتْمِائَةَ]. وَفِي شَهْرِ رَمَضَانَ مِنْ سَنَةِ ثَمَانٍ أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى الْإِسْلَامَ عَلَى يَدِهِ بِوَقْعِهِ عَيْنِ جَالُوتَ. ثُمَّ قُتِلَ بَعْدَ الْمَوْقِعَةِ بِشَهْرٍ وَهُوَ دَاخِلٌ إِلَى الْقَاهِرَةِ.

وَكَانَ الْعَمَلُ بِالْمَسْجِدِ الشَّرِيفِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ مِنْ بَابِ السَّلَامِ إِلَى بَابِ الرَّحْمَةِ [الْمَعْرُوفِ قَدِيمًا بِبَابِ عَاتِكَةَ] وَمِنْ بَابِ جَبْرِيلَ إِلَى بَابِ النِّسَاءِ. وَتَوَلَّى مِصْرَ آخِرَ تِلْكَ السَّنَةِ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ رُكْنُ الدِّينِ يَبْيُزْسُ الصَّالِحِيُّ الْبِنْدَقْدَارِيُّ، فَحَصَلَ مِنْهُ اِهْتِمَامٌ بِأَمْرِ الْمَسْجِدِ فَجَهَّزَ الْأَخْشَابَ وَالْحَدِيدَ وَالرِّصَاصَ، وَمِنَ الصَّنَاعِ ثَلَاثَةَ وَخَمْسِينَ صَانِعًا، وَمَا يُؤُونُهُمْ، وَأَنْفَقَ عَلَيْهِمْ قَبْلَ سَفَرِهِمْ وَأَرْسَلَ مَعَهُمُ الْأَمِيرَ جَمَالَ الدِّينِ مُخَيِّنَ الصَّالِحِيِّ وَغَيْرَهُ، ثُمَّ صَارَ يُمِدُّهُمْ بِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَلَاتِ وَالنَّفَقَاتِ. فَفُعِلَ فِي أَيَّامِهِ بَاقِي سَقْفِ الْمَسْجِدِ كَمَا كَانَ قَبْلَ الْحَرِيقِ سَقْفًا فَوْقَ سَقْفِ إِلَّا السَّقْفَ الشَّمَالِيَّ فَإِنَّهُ جَعَلَ سَقْفًا وَاحِدًا.

وَلَمْ يَزَلِ الْمَسْجِدُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى جُدِّدَ السَّقْفُ الشَّرْقِيُّ وَالسَّقْفُ الْغَرْبِيُّ اللَّذَانِ عَنِ يَمِينِ صَحْنِ الْمَسْجِدِ وَشِمَالِهِ وَذَلِكَ فِي سَنَتِي خَمْسٍ وَسِتِّ وَسَبْعِمِائَةٍ فِي أَوَائِلِ دَوْلَةِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ الصَّالِحِيِّ، فَجُعِلَ سَقْفًا وَاحِدًا شَبَهَ السَّقْفَ الشَّمَالِيَّ [أَيَّ سَقْفِ الدُّكَاكِ]. ثُمَّ فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ أَمَرَ الْمَلِكُ النَّاصِرُ مُحَمَّدٌ الْمَذْكُورَ بِزِيَادَةِ رَوَاقِيْنِ [فِي الْمُسَقَّفِ الْقِبْلِيِّ] مُتَّصِلِينَ بِمُؤَخَّرِهِ فَاتَّسَعَ مُسَقَّفُهُ بِهِمَا وَعَمَّ نَفْعُهُمَا. ثُمَّ حَصَلَ فِي هَذَيْنِ الرَّوَاقِيْنِ خَلْلٌ فَجُدِّدَهُمَا الْمَلِكُ الْأَشْرَفُ بَرْزَيْبَايَ سَنَةَ إِحْدَى وَثَلَاثِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ مِنْ مَالِ جُوَالِي قَبْرَصَ. وَجُدِّدَ الْأَشْرَفُ أَيْضًا شَيْئًا مِنَ السَّقْفِ الشَّامِيِّ [مِمَّا يَلِي الْمَنَارَةَ السَّنْجَارِيَّةَ].

ثُمَّ حَصَلَ خَلْلٌ فِي سَقْفِ الرَّوْضَةِ الشَّرِيفَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ سَقْفِ الْمَسْجِدِ فِي دَوْلَةِ الظَّاهِرِ جَقْمَقَ، فَجُدِّدَ ذَلِكَ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ. ثُمَّ جُدِّدَ السُّلْطَانُ الْمَلِكُ الْأَشْرَفُ قَايْتَبَايَ كَثِيرًا مِنْ سَقْفِ الْمَسْجِدِ، ثُمَّ احْتَرَقَ الْمَسْجِدُ النَّبَوِيُّ ثَانِيًا فِي الثَّلَاثِ الْآخِرِ مِنْ لَيْلَةِ الثَّلَاثِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، سَنَةِ سِتِّ وَثَمَانِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ، وَذَلِكَ أَنَّ رَئِيسَ الْمُؤَدِّينِ وَضَدْرَ الْمُدْرَسِينَ شَمْسَ الدِّينِ مُحَمَّدَ بْنَ الْخَطِيبِ قَامَ يُهْلَلُ حَيْثُذَ بِالْمَنَارَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْيَمَانِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالرَّئِيسِيَّةِ، وَصَعِدَ الْمُؤَدِّونَ بَقِيَّةَ الْمَنَائِرِ وَقَدْ تَرَاكَمَ الْقَيْمُ وَحَصَلَ رَعْدٌ قَاصِفٌ، فَسَقَطَتْ صَاعِقَةٌ أَصَابَ بَعْضُهَا هَلَالَ الْمَنَارَةِ الْمَذْكُورَةَ فَسَقَطَ شَرْقِيَّ الْمَسْجِدِ لَهَبٌ كَالنَّارِ وَانْشَقَّ رَأْسُ الْمَثَدَنَةِ، وَتَوَفَّى الرَّئِيسُ لَحِينَهُ صَبَقًا. وَأَصَابَ مَا نَزَلَ مِنَ الصَّاعِقَةِ سَقْفَ الْمَسْجِدِ الْأَعْلَى بَيْنَ الْمَنَارَةِ الرَّئِيسِيَّةِ وَقَبَةِ الْحِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ فَثَقَبَهُ ثَقْبًا كَالثُّرْسِ فَعَلِقَتْ النَّارُ فِيهِ وَفِي السَّقْفِ الْأَسْفَلِ، فَفُتِحَتْ أَبْوَابُ الْمَسْجِدِ وَنُودِيَ بِأَنَّ الْحَرِيقَ فِي الْمَسْجِدِ.

فاجتمع أمير المدينة قشطل بن زهير الجمّازي وأهلها بالمسجد الشريف، وصعد أهل

النَّجْدَةَ مِنْهُمْ بِالمِيَاهِ لِإِطْفَاءِ النَّارِ وَقَدْ التَّهَبَتْ سَرِيعاً فِي السَّقْفَيْنِ، وَأَخَذَتْ فِي جِهَةِ الشَّمَالِ وَالغَرْبِ، فَعَجَزُوا عَنِ إِطْفَائِهَا وَكَادَتْ أَنْ تَدْرِكَهُمْ فَهَرَبُوا. وَسَقَطَ بَعْضُهُمْ فَهَلَكَ، وَنَجَّى بَعْضُهُمْ مَعَ مَنْ حَالَتْ النَّارُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَبْوَابِ إِلَى صَحْنِ الْمَسْجِدِ. وَجَمَلَةٌ مِنْ مَاتَ بِسَبَبِ ذَلِكَ بَضْعَ عَشْرَةَ نَفْساً. وَعَظُمَتِ النَّارُ جِداً حَتَّى صَارَتْ كَبِحْرٍ لُجْجِيٍّ مِنْ نَارٍ، وَلِهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ وَأَلْسُنٌ تَصْعَدُ فِي الْجَوِّ، وَصَارَتْ تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَضْرِ وَيَسْقُطُ بِالْبُيُوتِ الْمُجَاوِرَةَ وَمَعَ ذَلِكَ فَلَا تُؤَثِّرُ فِيهَا. وَحَمَلُ بَعْضِ خَزَائِنِ الْكُتُبِ وَالرِّبَعَاتِ وَالْمِصَاحِفِ غَيْرَ مَا بَادَرُوا بِإِخْرَاجِهِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ فِي نَحْوِ عَشْرَةِ أَدْرَاجٍ فَأَصَابَهَا الشَّرُّ فَأَحْرَقَهَا. وَأَخْبَرَ أَمِيرَ الْمَدِينَةِ قَسْطَلِ الْجَمَّازِيَّ أَنَّ شَخْصاً مِنَ الْعَرَبِ الصَّادِقِينَ رَأَى فِي الْمَنَامِ قَبْلَ ذَلِكَ بَلَيْلَةً أَنَّ السَّمَاءَ فِيهَا جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ثُمَّ أَعْقَبَتْهُ نَارٌ عَظِيمَةٌ، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ - النَّارَ وَقَالَ: «أَمْسِكْهَا عَنِ أُمَّتِي».

قال السيد: وأخبرني جماعة أنهم شاهدوا أشكال طيور بيض تحوم حول النار كالذي يَكْفُها عن بيوت الجيران، مع هرب كثير منهم لما رأوا تساقط الشرر. وخرج بعضهم من باب المدينة لعظم ما شاهدوه من الهول وظنوا أنهم قد أُحيط بهم، ثم خمدت النار ثاني يوم وأرسلوا للسلطان قايتباي يُعَلِّمونه بذلك فاهتم بذلك رحمه الله تعالى الذي أهله لهذا الأمر وعمر المسجد الشريف والحجرة الشريفة العمارة المُخَكَّمَة الموجودة في زماننا.

تنبيهات

الأول: اخْتَلَفَ فِي اسْمِ أَبِي الْيَتِيمَيْنِ الَّذِينَ كَانَ الْمَسْجِدَ لهما فَقَالَ [موسى بن عقبة: هما ابنا رافع بن عمرو بن أبي عمرو]، وقال الزهري وابن إسحاق هما ابنا عمرو. قال في العيون: إنه الأشهر. وحاول السهيلي التوفيق بين القولين فقال: «هما ابنا رافع بن عمرو»، فعلى هذا نُسباً إلى جدِّهما. قال الحافظ: «والأرجح هو قول الزهري وابن إسحاق».

الثاني: ذكر ابن إسحاق أنهما كانا في جِجْرٍ مُعَاذِ بْنِ عَفْرَاءَ، وقال أبو ذرٍّ الهَرَوِيُّ أحد رواة الصحيح: أسعد بن زرارة بإثبات الألف في أسعد. قال الحافظ والسيد: «وهو الوجه». وقال ابن زبالة ويحيى إنهما كانا في جِجْرٍ أَبِي أَيُّوبَ وَقَدْ يُجْمَعُ بِاشْتِرَاكِ مَنْ ذُكِرَ فِي كَوْنِهِمَا فِي حُجُورِهِمْ، وَبِانْتِقَالِ ذَلِكَ بَعْدَ أَسْعَدِ بْنِ زُرَّارَةَ إِلَى مَنْ ذُكِرَ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ، سِيَمَا وَقَدْ رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْمُخَزُومِيُّ عَنِ ابْنِ أَبِي قُدَيْكٍ قَالَ: «سَمِعْتُ بَعْضَ أَهْلِ الْعِلْمِ يَقُولُونَ إِنَّ أَسْعَدَ تُوْفِيَ قَبْلَ أَنْ يَبْنِيَ رَسُولُ اللَّهِ الْمَسْجِدَ، فَبَاعَهُ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ سَهْلٍ وَسَهِيلٍ».

الثالث: في الصحيح أن رسول الله ﷺ - أَرْسَلَ إِلَى مَلَأِ بَنِي النَّجَّارِ بِسَبَبِ مَوْضِعِ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: «يَا بَنِي النَّجَّارِ ثَامِنُونِي بِحَائِطِكُمْ هَذَا»، فَقَالُوا: «وَاللَّهِ لَا نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلَّا مِنْ اللَّهِ». وَفِي رِوَايَةٍ: «فَدَعَا بِالغُلَامَيْنِ فَسَاوَمَهُمَا بِالْمِرْيَدِ بِتَخْذِهِ مَسْجِداً». وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ ابْنِ

عُثَيْبَةَ: «فَكَلَّمْ عَمَّهُمَا: أَي الَّذِي كَانَا فِي جِجْرِهِ، أَنْ يَبْتَاعَهُ مِنْهُمَا»، فَقَالَ: «مَا تَصْنَعُ بِهِ؟» فَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ أَنْ يَصُدَّقَهُمَا، فَأَخْبَرَهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَرَادَهُ، فَقَالَا: «نَحْنُ نَعْطِيهِ»، فَأَعْطَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبَنَاهُ. أَخْرَجَهُ الْجَنْدِيُّ.

وَذَكَرَ ابْنُ زَبَّالَةَ، وَيَحْيَى، أَنَّ أَبَا أَيُّوبَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَرْضِيهِمَا. وَذَكَرَ ابْنُ عُقْبَةَ أَنَّ أَسْعَدَ عَوْضَهُمَا عَنْهُ نَخْلًا، قَالَ: وَقِيلَ: ابْتَاعَهُ مِنْهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. وَطَرِيقُ الْجَمْعِ بَيْنَ ذَلِكَ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْحَافِظُ أَنَّهُمْ لَمَّا قَالُوا: «لَا نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلَّا مِنْ اللَّهِ» سَأَلَ عَمَّنْ يَخْتَصِرُ بِمِلْكِهِ مِنْهُمْ، فَعَيَّنُوا الْغُلَامَيْنِ، فَابْتَاعَهُ مِنْهُمَا أَوْ مِنْ وَلِيِّهِمَا إِنْ كَانَا غَيْرَ بِالْغَيْنِ، وَحَيْثُ فَيُخْتَمَلُ أَنَّ الَّذِينَ قَالُوا: «لَا نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلَّا مِنْ اللَّهِ تَحَمَّلُوا عَنْهُ لِلْغُلَامَيْنِ بِالثَمَنِ. فَقَدْ نَقَلَ ابْنُ عُقْبَةَ أَنَّ أَسْعَدَ بْنَ زُرَّارَةَ عَوْضَ الْغُلَامَيْنِ عَنْهُ نَخْلًا لَهُ فِي بِيَاضَةَ. وَتَقَدَّمَ أَنَّ أَبَا أَيُّوبَ قَالَ: أَنَا أَرْضِيهِمَا، فَأَرْضَاهُمَا، وَكَذَلِكَ مُعَاذُ بْنُ عَفْرَاءَ، فَيَكُونُ بَعْدَ الشَّرَاءِ. وَيُخْتَمَلُ أَنَّ كُلًّا مِنْ أَسْعَدَ، وَأَبِي أَيُّوبَ وَابْنِ عَفْرَاءَ أَرْضَى الْيَتِيمَيْنِ بِشَيْءٍ فَتَسَبَّبَ ذَلِكَ لِكُلِّ مِنْهُم.

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الْيَتِيمَيْنِ امْتَنَعَا مِنْ قَبُولِ عَوْضٍ، فَيُخْتَمَلُ ذَلِكَ عَلَى بَدءِ الْأَمْرِ، وَلَكِنْ قَالَ الْوَاقِدِيُّ: إِنَّهُ ﷺ اشْتَرَاهُ مِنْ بَنِي عَفْرَاءَ بِعَشْرَةِ دَنَانِيرَ ذَهَبًا دَفَعَهَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَعَلَّهُ رَغِبَ فِي الْخَيْرِ، فَدَفَعَ الْعَشْرَةَ مَعَ أَوْلَادِكَ، أَوْ أَنَّهُ ﷺ أَخَذَ أَوَّلًا بَعْضَ الْمِرْبَدِ فِي بِنَائِهِ الْأَوَّلِ سَنَةَ قَدُومِهِ، ثُمَّ أَخَذَ بَعْضًا آخَرَ لَمَّا سَبَقَ أَنَّهُ بَنَاهُ مَرَّتَيْنِ وَزَادَ فِيهِ فَكَانَ الثَّمَنُ مِنْ مَالِ أَبِي بَكْرٍ فِي إِحْدَاهُمَا وَمِنَ الْآخَرِينَ فِي الْآخَرَى.

الرَّابِعُ: ذَكَرَ السَّيِّدُ أَنَّ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ لِعَمَّارٍ: «تَقْتَلُكَ الْفِئَةُ الْبَاغِيَّةُ». كَانَ فِي الْبِنَاءِ الثَّانِي؛ لِأَنَّ الْبِيهَقِيَّ رَوَى فِي الدَّلَائِلِ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو بْنَ الْعَاصِ يَقُولُ لِأَبِيهِ عَمْرٍو: «قَدْ قَتَلْنَا هَذَا الرَّجُلَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهِ مَا قَالَ». قَالَ: «أَيُّ رَجُلٍ؟» قَالَ: «عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، أَمَّا تَذَكُّرُ يَوْمِ بَنَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ، وَكُنَّا نَحْمِلُ لَبِنَةَ لَبِنَةٍ، وَعَمَّارٌ يَحْمِلُ لَبِنَتَيْنِ لَبِنَتَيْنِ؟» فَمَرَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ «تَحْمِلُ لَبِنَتَيْنِ لَبِنَتَيْنِ وَأَنْتَ تُرْحَضُ؟ أَمَّا إِنَّكَ سَتَقْتَلُكَ الْفِئَةُ الْبَاغِيَّةُ، وَأَنْتَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ». فَدَخَلَ عَمْرٍو بْنُ الْعَاصِ عَلَى مَعَاوِيَةَ: فَقَالَ: «قَتَلْنَا هَذَا الرَّجُلَ، وَقَدْ قَالَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ» فَقَالَ مَعَاوِيَةُ: «اسْكُتْ فَوَاللَّهِ مَا تَزَالُ تَذَخِرُ^(١) فِي بَوْلِكَ، أَنْتَ حُنُّ قَتَلْنَا؟ إِنَّمَا قَتَلَهُ عَلِيٌّ وَأَصْحَابُهُ جَاؤُوا بِهِ حَتَّى أَلْقَوْهُ بَيْنَنَا. قَالَ السَّمْعُودِيُّ: «وَهُوَ يَقْتَضِي أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ لِعَمَّارٍ كَانَ فِي الْبِنَاءِ الثَّانِي لِلْمَسْجِدِ؛ لِأَنَّ إِسْلَامَ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ كَانَ فِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ لِلْهِجْرَةِ».

(١) تَذَخِرُ: أَي تَزَلُّقٌ. وَرَوَى بِالْعَصَادِ: أَي تَحَكُّ فِيهَا بِرَجْلِكَ. انظر النهاية ١٠٥/٢.

الخامس: في بيان غريب ما سبق:

«المِرْبَد»^(١) - بكسر الميم -: الموضوع الذي يُجْعَل فيه الثَّمَر.

«المَلَأ» - بفتح الميم واللام -: أشرف الناس ورؤساؤهم ومقدموهم الذين يُزَجَع إلى قولهم.

«التُّجَار» : بالنون والجيم.

«ثَامِنُونِي» : أي بايعوني وقاولوني.

«الحَائِط» هنا: البستان، وتَقَدَّم أنه كان مِرْبَدًا فلعله كان أولاً حَائِطًا ثم خَرِبَ فصار مِرْبَدًا، ويؤيده قوله: يُيْتَخَذُ مسجدًا.

«التُّوَار» : بفتح النون وتشديد الواو بعد الألف راء.

«عَايِد» : بالمشناة التحتية والذال المعجمة.

«الجِدَار» ككِتَاب: الحائط.

«الغَرْقَد»^(٢) بالغين المعجمة والراء والقاف والذال المهملة: ضَرْبٌ من شَجَر العِضَاه، واحده غَرْقَدَةٌ.

«خِرْب» بكسر الخاء المعجمة وفتح الراء وبالمُوَحَّدَة [جَمْع خِرْبَة وهي الموضوع الخراب]، وفي لفظ بالحاء المهملة وسكون الراء والمثلثة: [خَرَب].

«الغَرِيش» : السَّقْف وما يُسْتَنْظَلُ به، وهو المراد هنا.

«ثَامَات»^(٣) : جمع ثَمَام بضم المثلثة: نَبْتُ ضَعِيف له خوص أو شبيه بالخوص، وربما حُشِي به أو سُدَّ به بِخِصَاص^(٤) البيوت الواحدة ثَمَامَة.

«العِضَادَتَان» : تشنية عِضَادَة - بكسر العين المهملة والضاد المعجمة وبعد الألف دال مهملة -: جانب الباب.

«طَفِق» : جعل.

«الجِمَال» : بكسر الحاء المهملة من الحَمَل، والذي يُحْمَل من خَيْبَر: الثَّمَر. أي أن هذا

(١) انظر اللسان ١٥٥٦/٣.

(٢) انظر اللسان ٣٢٤٦/٥.

(٣) انظر الوسيط ١٠١/١.

(٤) الخِصَص: نَبْتُ يُقْتَل من الخشب والقصب، وجمعه خِصَاص، وأخِصَاص، سمي به لما فيه من الخِصَاص وهي الفَرْج والأنقاب. انظر النهاية ٣٧/٢.

في الآخرة أَفْضَلُ من ذاك وَأَحْمَدُ عاقِبَةً، كأنه جمع جَمَلٍ أو حَمَلٍ ويجوز أن يكون مصدر حَمَلَ أو حَامَلَ.

«خَيْرٌ»: يأتي الكلام عليها في غزوتها.

«أرديتهم»: جمع رداء.

«مُتَنَطِّعًا»^(١). - بميم مضمومة فمشناة فوقية فنون مفتوحتين فطاء مهملة مكسورة فعين مهملة: مِنْ تَنْطَعُ إِذَا تَعَمَّقَ وَتَغَالَى وَتَأَنَّقَ.

«الْوَفْرَةُ»: بواو مفتوحة ففاء فراء: الشَّعْرُ الْمُجْتَمِعُ عَلَى الرَّأْسِ، أو ما مال على الأذنين منه أو ما جاوز شَحْمَةَ الأذنين ثم الجُمَّة ثم اللُّعَّة.

«وَيْحٌ»: كلمة تَرْحُمُ وَتَوْجَعُ، يقال لمن وقع في هَلَكَةٍ لا يَسْتَحِقُّهَا، وقد يقال بمعنى المَدْحِ وَالتَّعْجِبِ، وهي منصوبة على المصدر.

«الْحَبْحَبَةُ»^(٢): بحاءين مهملتين بعد كل مُوَحَّدَةٍ وهي في الأصل جزي الماء قليلاً قليلاً كالحَبْحَبِ وَالْحَبْحَبَةِ الضعف وسوق الإبل ومن النار اتقادها والبطيخ الشامي الذي يُسَمِّيهِ أهل العراق الرَّقِّيَّ وَالْفُرْسُ تُسَمِّيهِ الهندي.

«بِالسَّمِيطِ»: أي على لينة واحدة، والسَّمِيطُ من التَّغْلِ: الطَّاقُ الواحد لا رقعة فيها.

«السُّوَارِي»: جمع سارية وهي الاسطوانة.

«السَّغْدُ»: ثَلْتُ اللَّيْنَةَ وَالسَّغْدُ كزُبَيْرٍ رُبْعُهَا.

«وَكَفَّ»: سال ماؤه.

«الْخُصْفُ»: بخاء معجمة فصاد مهملة مفتوحتين: المنسوج من الخوص.

«السُّمُوسُ» - بفتح الشين المعجمة وضم الميم وبالواو والسين: [بنت التُّعْمَانِ بن عامر بن مجمع] من الأنصار.

«الرَّحْبَةُ» - بالراء والحاء المهملة والموحدة المفتوحات، قال في الصحاح: رَحْبَةُ المسجد بالتحريك ساحته والجمع رَحْبٌ وَرَحْبَاتٌ وَرِحَابٌ.

«الزوايا» جمع زاوية: الناحية.

(١) التنطع في الكلام: التعمق فيه مأخوذ منه وفي الحديث «هلك المتنطعون» وتنطع في الكلام وتنطس إذا تأنق فيه وتمتق وتنطع في شهوراته: تأنق. اللسان ٤٤٦١/٦.

(٢) الحجة: الضعف، والحجاب: الصغير الجسم المتداخل العظام. اللسان ٧٤٧/٢.

«انْمَاطٌ»^(١): بالنون والميم والطاء المهملة بعد الألف: أي تَنْحَى.

«نَخِرَتْ»^(٢): بالنون المفتوحة والخاء المعجمة المكسورة والراء: يَيْسَتْ وَتَفَسَّتْ.

«الْمَنْقُوشَةُ»: بميم مفتوحة فنون قفاف فواو فشين معجمة: المُلُونَةُ بِلُونَيْنِ أو ألوان.

«السَّاج»: بسين مهملة وجيم مُخَفَّفَةٌ: نوع من الشجر.

«القَصَّة»: بفتح القاف وتشديد الصاد المهملة المفتوحة فتاء تأنيث: [الحجارة من

الجِصِّ].

«الْقُسَيْفِيَّاتُ»^(٣) قال في النور: بضم الفاء الأولى وفتح السين المهملة فتحية ساكنة ففاء

مكسورة ثم سين مهملة أخرى ممدودة، هكذا سُمِعَ الناس ينطقون به وكذا رأيتُه مُحَرَّرًا بخط

كمال الدين بن العديم في تاريخه في غير موضع، وكذا رأيتُه مضبوطاً بالقلم في مطالع ابن

فرفود، وهو فصوص صغار من ألوان الزجاج تُلصَق بالحائط وتُطلَى بماء الذهب، وهي كثيرة

بجامع دمشق وبيت المقدس [وهي غاية] في الحُسن والبهجة.

(١) من ماط مهطاً: من باب تاعد ويتعدى بالهمزة والحرف فيقال أماطه غيره إمطة ومنه: إمطة الأذى عن الطريق وهي التنحية لأنها إبعاد. المصباح المنير ص ٥٨٧.

(٢) انظر المفردات للراغب ٤٨٦.

(٣) انظر اللسان ٣٤١٣/٥.

الباب الثالث

في بنائه صلى الله عليه وسلم حجر نسائه رضي الله عنهن

قال في الروض: «كانت بيوته ﷺ تسعة: بعضها من جريد مُطَيَّن بالطين وسقفها من جريد، وبعضها من حجارة مَرْضُومَة بعضها فوق بعض، وسقفها من جريد أيضاً». قال الحافظ الذهبي في «بلبل الروض»: «لم يبلغنا أنه ﷺ بُنِيَ له تسعة أبيات حتى بنى المسجد ولا أَحْسَبُهُ فَعَلَ ذلك، إنما كان يريد بيتاً واحداً لَسَوْدَةَ أم المؤمنين رضي الله عنها. ولم يَخْتَجِ إلى بيت آخر حتى بَنَى لعائشة رضي الله عنها في شَوال سنة اثنتين، وكان ﷺ بناها في أوقات مختلفة». انتهى.

وتقدم في الباب الثاني أنه ﷺ بنى لِزَوْجَتِهِ: سَوْدَةَ وعائشة رضي الله عنهما، على نَعْتِ بناء المسجد؛ لأن عائشة كانت زَوْجَهُ حينئذ، وإن تَأَخَّرَ الدخول بها، ثم بنى بَقِيَّةَ الْحُجَرِ عند الحاجة إليها.

قال محمد بن عُمر الأسلمي: «كانت لحارثة بن النعمان رضي الله عنه منازل قُرب المسجد وَحَوْلَهُ، وكلما أحدث رسول الله ﷺ أهلاً نزل له حارثة عن منزل، أي مَحَلَّ حُجْرَةٍ حتى صارت منازلها كلها لرسول الله ﷺ وَأَزْوَاجِهِ». قال محمد بن عُمر: «حَدَّثَنَا عبد الله بن يزيد الهذلي قال: رَأَيْتُ بيوت أزواج النبي ﷺ حين هَدَمَهَا عمر بن عبد العزيز بأمر الوليد بن عبد الملك، كانت بيوتاً من اللَّيْنِ، ولها حُجْرٌ من جريد مَطْرُورَةٌ بالطين، عَدَدَتْ تسعة أبيات بِحُجْرِهَا، وهي ما بين بيت عائشة إلى الباب الذي يلي باب النبي ﷺ إلى منزل أسماء بنت حَسَنَ اليوم. قال: ورَأَيْتُ بيت أم سَلَمَةَ زوج النبي ﷺ وحجرتها من اللَّيْنِ، فسألت ابن ابنها فقال: لما غزا رسول الله ﷺ دُومَةَ الْجَنْدَلِ بَنَتْ أم سَلَمَةَ حجرتها بلَيْنِ. فلما قَدِمَ النبي ﷺ نَظَرَ إلى اللَّيْنِ ودَخَلَ عليها أول نِسائِهِ فقال: «ما هذا البناء؟» فقالت: «أَرَدْتُ يا رسول الله أن أَكْفُ أَبْصَارَ النَّاسِ». فقال: «يا أم سَلَمَةَ إن شَرَّ ما ذهب فيه مالُ المسلمِ البَيَانُ»^(١).

قال محمد بن عُمر: فَحَدَّثْتُ بهذا الحديث مُعَاذُ بن محمد الأنصاري فقال: «سَمِعْتُ عَطَاءَ الْخُرَّاسَانِي فِي مَجْلِسٍ فِيهِ عَمْرَانُ بن أَبِي أَنَسٍ يَقُولُ وهو فيما بين القبر الشريف والمنبر المنيف: أَذْرَكْتُ حُجْرَ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ [من جريد على أبوابها المسوح من شَقَرِ أَسْوَدٍ، فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يُقْرَأُ، بِأَمْرِنَا يَهْدَمُ حُجْرَ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ]، فما رأيت يوماً كان أَكْثَرَ بَأْكِيًا من ذلك اليوم. قال عطاء: «فَسَمِعْتُ سَعِيدَ بن المُسَيَّبِ يَقُولُ يومئذ:

(١) ذكره المتقي الهندي في الكنز (٤١٥٢١).

«والله لَوَدِدْتُ أَنَّهُمْ تَرَكَوْهَا عَلَى حَالِهَا، يَنْشَأُ نَاشِئَةً مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَيَقْدَمُ الْقَادِمُ مِنَ الْآفَاقِ فَيَرَى مَا اكْتَفَى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَيَاتِهِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مِمَّا يُزْهَدُ النَّاسُ فِي التَّفَاخِرِ وَالتَّكَاثُرِ» قَالَ مَعَاذُ: «فَلَمَّا فَرَّغَ عَطَاءُ الْخِرَاسَانِيِّ مِنْ حَدِيثِهِ قَالَ عِمْرَانُ بْنُ أَبِي أَنَسٍ: كَانَ فِيهَا أَرْبَعَةُ أَبْيَاتٍ يَلْبِنُ، لَهَا حُجْرٌ مِنْ جَرِيدٍ، وَكَانَتْ خَمْسَةَ أَبْيَاتٍ مِنْ جَرِيدٍ مُطَيَّنَةً لَا حُجْرَ لَهَا، عَلَى أَبْوَابِهَا مَسُوحُ الشَّعْرِ، ذَرَعَتْ السَّاتِرَ فَوَجَدَتْهُ ثَلَاثَةَ أَذْرَعٍ فِي ذِرَاعٍ وَعَظْمُ الذِّرَاعِ أَوْ أَدْنَى مِنَ الْعَظْمِ. فَأَمَّا مَا ذُكِرَ مِنَ الْبُكَاءِ يَوْمَئِذٍ فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْمَسْجِدِ وَفِيهِ نَفَرٌ مِنْ أَبْنَاءِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْهُمْ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وَأَبُو أَمَامَةَ بْنُ سَهْلِ بْنِ حَنِيفٍ، وَخَارِجَةُ بْنُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ^(١)، وَإِنَّهُمْ لَيَتَّبِعُونَ حَتَّى أَحْضَلُوا لِحَاهِمُ مِنَ الدَّمْعِ. وَقَالَ يَوْمَئِذٍ أَبُو أَمَامَةَ: «لَيْتَهَا تُرِكَتْ فَلَمْ تُهْدَمْ حَتَّى يَفْضَلَ النَّاسُ عَنِ الْبِنَاءِ وَيَرْوُوا مَا رَضِيَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ، وَمَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا بِيَدِهِ» وَرَوَى ابْنُ سَعْدٍ، وَالبخاري في الأدب، وابن أبي الدنيا، والبيهقي في الشعب عن الحسن البصري قال: «كنت وأنا مُرَاهِقٌ أُدْخِلُ بِيوتَ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فِي خِلَافَةِ عِشْمَانَ فَأَتَانِي سَقْفَهَا بِيَدِي» وَرَوَى البخاري في الأدب، وابن أبي الدنيا، والبيهقي عن داود بن قيس قال: «رَأَيْتُ الْحُجْرَ مِنْ جَرِيدِ النَّخْلِ تُغَشَّى مِنْ خَارِجٍ بِمَسُوحٍ مِنَ الشَّعْرِ، وَأَظُنُّ عَرْضَ الْبَيْتِ مِنْ بَابِ الْحِجْرَةِ إِلَى بَابِ الْبَيْتِ نَحْوًا مِنْ سِتِّ أَوْ سَبْعِ أَذْرَعٍ، وَأَخْزِرُ الْبَيْتَ مِنَ الدَّاخِلِ عَشْرَ أَذْرَعٍ، وَأَظُنُّ سُمْكَهُ بَيْنَ الثَّمَانِ وَالسَّبْعِ».

وروى محمد بن الحسن المخزومي عن محمد بن هلال قال: «أَدْرَكْتُ بِيوتَ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، كَانَتْ مِنْ جَرِيدٍ مَسْتُورَةٍ بِمَسُوحِ الشَّعْرِ، مَسْتُورَةٌ فِي الْقِبْلَةِ وَفِي الْمَشْرِقِ وَفِي الشَّامِ، لَيْسَ فِي غَرْبِيِّ الْمَسْجِدِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَكَانَ بَابُ عَائِشَةَ يُوَاجِهُ الشَّامَ وَكَانَ بِمِصْرَاعٍ وَاحِدٍ مِنْ عَرَعٍ أَوْ سَاجٍ». وَرَوَى ابْنُ مَنذُومٍ عَنْ بَشْرِ بْنِ صُخَّارِ الْعَبْدِيِّ قَالَ: «كَنتُ أُدْخِلُ بِيوتَ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فَأَنَالُ سَقْفَهَا». وَرَوَى ابْنُ سَعْدٍ عَنْ عَمْرٍو بْنِ دِينَارٍ، وَعُجَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي مَرْثَدٍ قَالَا: «لَمْ يَكُنْ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ حَائِطٍ، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ بَنَى عَلَيْهِ جِدَارًا عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ». قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ: «كَانَ جِدَارُهُ قَصِيرًا ثُمَّ بَنَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ».

تنبيهان

الأول: روى البخاري في تاريخه وفي الأدب عن أنس رضي الله عنه، والبيهقي في المدخل عن المغيرة بن شعبة قال: «كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقْرَعُونَ بَابَهُ بِالْأُظْفِيرِ تَأْدِبًا

(١) خارِجَةُ بْنُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتِ الْأَنْصَارِيِّ أَبُو زَيْدٍ أَحَدُ الْفُقَهَاءِ السَّبْعَةِ بِالْمَدِينَةِ ثَقَفَ عَنْ أَبِيهِ وَأَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَأُمَّ الْفَلَاءِ. وَعَنْهُ الزُّهْرِيُّ وَأَبُو الزُّنَادِ. قَالَ ابْنُ الْمَدِينِيِّ: مَاتَ سَنَةَ مِائَةٍ، وَقِيلَ: قَبْلَهَا بِنِسْبَةِ، قَالَ الْفَلَاسِيُّ، وَلَمَّا بَلَغَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ مَوْتَهُ قَالَ: ثَلَاثَةٌ وَاللَّهِ فِي الْإِسْلَامِ. الْخِلَاصَةُ ١/١٧٣.

وإجلالاً، وقيل إن بابه لم يكن له خَلْق يُطْرَقُ بها. قال السهيلي: الأول أولى.

الثاني: في غريب ما سبق:

«الرَضَم»^(١) - بفتح الراء والضاد المعجمة وتُسَكَّن -: حجارة مجتمعة بعضها فوق بعض، الواحدة رَضَمَةٌ.

«بَنَى» بفلاحة: دَخَلَ عليها، وقال ابن السكيت زُفْتُ إليه، وأصله أن الرجل إذا تزوج بنى للعروس بيتاً وجهزه بما يحتاج إليه، أو بُنِيَ له تكريماً، ثم كَثُرَ حتى كُفِيَ به عن الجِماع.

«الحُجْر»: عُزْفُ البيوت.

«المُشَوَّح»: جمع مِشَح وهو التلأس.

«مستطيرة» في القِبلة: أي مُتَشِيرَةٌ.

«المِضْرَاع» من الباب: الشطر، وهما مِضْرَاعَانِ.

«القرع» بفتح العينين وبالرأيتين المهملتين - قال في الصحاح: شجرُ السُرُو.

«السَّاج» بالسين المهملة والجيم: صُرِبَ من الخشب، عظيم من الشجر، يُجَلَّب من الهند، وجمعها ساجات. قال الزمخشري: الساج خَشَبٌ أسود رزين يُجَلَّب من الهند ولا تكاد الأرض تُبْلِيه، والجمع سيجان مثل نار ونيران.

«مطرورة»^(٢) بالطين - بالطاء المهملة المُشَالَّة -: أي مُطَيَّبَةٌ به.

«دُومَةُ الجَنْدَل» دُومَةٌ - بضم الدال المهملة، والجَنْدَل بالجيم والنون والدال المهملة [حِصْنٌ وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طَيْءٍ على سبع مراحل من دمشق].

«الأفُق» بِضَمَّتَيْنِ: الناحية.

«يُنشَأ»: يحدث وَيَتَجَدَّد.

«أَخْضَلَ» لِخَيْتِهِ، بخاء فضاء معجمتين: بَلَّها.

«مُزَاهِق»: مقارب الاحتلام.

«أنال»: أدرك وأبلغ.

«المُعْشَى»: المغطى المستور.

(١) انظر اللسان ١٦٦٣/٣.

(٢) انظر اللسان ٢٦٥٤/٤.

الباب الرابع

في بدء الأذان وبعض ما وقع فيه من الآيات

روى الشيخان والترمذي والنسائي عن ابن عُمر، وابن إسحاق، وإسحاق بن راهويه، وأبو داود بسند صحيح صحَّحه النووي عن محمد بن عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه، عن أبيه، وأبو داود بسند صحيح عن ابن عُمر عن أنس بن مالك عن عمومة له من الأنصار رضي الله عنهم، وإسحاق بن راهويه عن الشَّعْبِي مُرْسَلًا بسند حسن، وعبد الرزاق وأبو داود عن عُبيد ابن عمير أحد كبار التابعين، وابن أبي شَيْبَةَ، وأبو داود، وابن خُزَيْمَةَ، وأبو الشيخ، والدارقطني، والبيهقي، والطحاوي عن عبد الرحمن بن أبي لَيْلَى قال: «حَدَّثَنَا أَصْحَابُنَا - ولفظ ابن أبي شَيْبَةَ وابن خُزَيْمَةَ والطحاوي والبيهقي: حدثنا، أصحاب رسول الله ﷺ - حين قَدِمَ المَدِينَةَ إِنَّمَا كَانَ يَجْمَعُ لِلصَّلَاةِ حِينَ مَوَاقِيتِهَا بِغَيْرِ دَعْوَةٍ، فَلَمَّا كَثُرَ النَّاسُ اهْتَمَّ النَّبِيُّ ﷺ كَيْفَ يَجْمَعُ النَّاسَ لِلصَّلَاةِ؟ فَاسْتَشَارَ النَّاسَ، فَقِيلَ لَهُ: انْصِبْ رَايَةً عِنْدَ حُضُورِ الصَّلَاةِ إِذَا رَأَوْهَا أَعْلَمَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَذَكَرَ لَهُ الْقَنْعُ^(١) يَعْنِي شُبُور^(٢) الْيَهُودِ، وَفِي لَفْظِ: الْبُوقِ، وَفِي لَفْظِ: الْقُرْنِ الَّذِي يَدْعُونَ بِهِ لصلَاتِهِمْ، فَلَمْ يَعْجِبْ ذَلِكَ وَقَالَ: «هُوَ مِنْ أَمْرِ الْيَهُودِ»، فَذَكَرَ لَهُ النَّاقُوسُ فَقَالَ: «هُوَ مِنْ أَمْرِ النَّصَارَى»، فَقَالُوا: لَوْ رَفَعْنَا نَارًا، فَقَالَ: «ذَلِكَ لِلْمَجُوسِ»^(٣).

وفي حديث عُمر عند الشَّيْخَيْنِ وَغَيْرِهِمَا: فَقَالَ عُمر: «أَوَّلًا تَبْعَثُونَ رَجُلًا يَنَادِي بِالصَّلَاةِ؟» فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا بِلَالُ قُمْ فَتَادِ بِالصَّلَاةِ». فَانصَرَفَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ، وَهُوَ مُهْتَمٌّ لِهَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَرَى الْأَذَانَ فِي مَنَامِهِ. قَالَ: طَافَ بِي وَأَنَا نَائِمٌ رَجُلٌ عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَحْضَرَانِ يَحْمِلُ نَاقُوسًا فِي يَدِهِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَتَبِيعُ هَذَا النَّاقُوسَ؟ قَالَ: وَمَا تَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: قُلْتُ: تَدْعُو بِهِ إِلَى الصَّلَاةِ. قَالَ: أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ؟ قُلْتُ: بَلَى. فَقَالَ:

(١) قال ابن الأثير في النهاية في حديث الأذان «أنه اهتم للصلاة، كيف يجمع لها الناس، فذكر له القنع فلم يعجبه ذلك» فسر في الحديث أنه الشبور، وهو البوق هذه اللفظة قد اختلف في ضبطها، فرويت بالباء والتاء، والتاء والنون، وأشهرها وأكثرها النون. قال الخطابي: سألت عنه غير واحد من أهل اللغة فلم يثبتوه لي على شيء واحد، فإن كانت الرواية بالنون صحيحة فلا أراه سُئِيَ إِلَّا لِإِقْنَاعِ الصَّوْتِ بِهِ، وَهُوَ رَفَعُهُ. يُقَالُ: أَقْنَعُ الرَّجُلَ صَوْتَهُ وَرَأْسَهُ إِذَا رَفَعَهُ. وَمَنْ يَرِيدُ أَنْ يَنْفِخَ فِي الْبُوقِ يَرْفَعُ رَأْسَهُ وَصَوْتَهُ.. قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: «أَوْ لِأَنَّ أَطْرَافَهُ أَقْنَعَتْ إِلَى دَاخِلِهِ: أَيِ عَطَفَتْ» وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: وَأَمَّا «الْقَنْعُ» بِالْبَاءِ الْمَفْتُوحَةِ فَلَا أَحْسَبُ سَمِي بِهِ إِلَّا لِأَنَّهُ يَقْبَعُ فَمُ صَاحِبِهِ: أَيِ يَسْتَرُهُ، أَوْ مِنْ قَبْعِ الْجَوَالِقِ وَالْجِرَابِ: إِذَا ثَنَيْتَ أَطْرَافَهُ إِلَى دَاخِلِهِ. قَالَ الْهَرَوِيُّ: وَحَكَاهُ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ عَنْ أَبِي عَمْرِو الزَّاهِدِ: «الْقَنْعُ» بِالتَّاءِ قَالَ: وَهُوَ الْبُوقُ فَعَرَضْتُهُ عَلَى الْأَزْهَرِيِّ فَقَالَ: هَذَا بَاطِلٌ. وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: سَمِعْتُ أَبَا عَمْرِو الزَّاهِدَ يَقُولُهُ بِالتَّاءِ الْمَثَلَّةِ، وَلَمْ أَسْمَعْهُ مِنْ غَيْرِهِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ: فَتَحَ فِي الْأَرْضِ فَتْرَحًا إِذَا ذَهَبَ، فَسَمِيَ بِهِ لِذَهَابِ الصَّوْتِ مِنْهُ. قَالَ الْخَطَّابِيُّ: وَقَدْ رَوَى «الْقَنْعُ» بِنَاءِ بِنَقَطَتَيْنِ مِنْ فَوْقٍ، وَهُوَ دُودٌ يَكُونُ فِي الْخَشَبِ الْوَاحِدَةِ: قَنْعَةٌ. قَالَ: مَدَادُ هَذَا الْحَرْفِ عَلَى هَيْشَمٍ، وَكَانَ كَثِيرَ اللَّحْنِ وَالتَّخْرِيفِ، عَلَى جَلَالِهِ مَحَلَّةٌ فِي الْحَدِيثِ. النِّهَايَةُ ١١٥/٤، ١١٦.

(٢) الشُّبُورُ: هُوَ الْبُوقُ. وَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: اللَّفْظَةُ عِبْرَانِيَّةٌ. انظُرِ النِّهَايَةَ ٤٤٠/٢.

(٣) ذَكَرَهُ الْمُتَّقِيُّ الْهِنْدِيُّ فِي الْكِتَابِ (٢٣١٥٣).

تقول: «الله أكبر، الله أكبر - وفي لفظ الشعبي: إيت رسول الله ﷺ فَمُرَّه أَنْ يَقُولَ: - الله أكبر، الله أكبر - أشهد ألا إله إلا الله، أشهد ألا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله» - وفي رواية إسحاق بن راهويه: فقام على جذم حائط^(١)، وفي رواية: فقام على المسجد فأذن - قال: ثم استأخر عني غير بعيد ثم قال: تقول إذا أقيمت الصلاة: الله أكبر، الله أكبر، أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الفلاح، قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله». وفي رواية: «فأذن ثم قعد قعدة، ثم قام فقال مثلها إلا أنه يقول: قد قامت الصلاة، فلما أصبحت أتيت، رسول الله ﷺ فأخبرته بما رأيت، ولولا أن يقول الناس، لقلتُ إنني كنت يقظاناً غير نائم».

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنه عند ابن ماجه أن عبد الله بن زيد أتى رسول الله ﷺ ليلاً. وفي حديثه أيضاً عند ابن سعد «أن رسول الله ﷺ أراد أن يجعل شيئاً يجمع به الناس للصلاة فذكر عنده البوق وأهله فكرهه، وذكر الناقوس، وأهله فكرهه، حتى أرى رجل من الأنصار يقال له عبد الله بن زيد الأذان، وأرى عمر بن الخطاب تلك الليلة فأما عمر رضي الله عنه فقال: إذا أصبحت أخبرت رسول الله ﷺ، وأما الأنصاري فطرق رسول الله ﷺ ليلاً فأخبره. فقال رسول الله ﷺ: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله تعالى»^(٢). وفي رواية: «لقد أراك الله خيراً، فقم مع بلال فألقى عليه ما رأيت». وفي رواية «فمر بلالاً فليؤذن فإنه أئدى منك صوتاً، فقم مع بلال فجعلت ألقبه عليه ويؤذن به. فسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فخرج يجر رداءه وهو يقول: «والذي بعثك بالحق يا رسول الله لقد رأيت مثل الذي رأى».

وفي حديث أبي عمير بن أنس أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان رآه فكتمه عشرين يوماً. وفي حديث عبيد بن عمير: «بينما عمر بن الخطاب يريد أن يشتري خشبتين للناقوس إذ رأى في المنام: «لا تجعلوا الناقوس بل أذنوا»، فذهب عمر ليخبر النبي ﷺ بالذي رأى، وقد جاء الوحي فما راع عمر إلا بلال يؤذن. قال عبد الله بن زيد: فقال رسول الله ﷺ لعمر: «ما منعك أن تخبرني؟» فقال: سبقني عبد الله بن زيد فاستخفيت. فقال رسول الله ﷺ: «فليله الحمد فذلك ثبت»^(٣). قال الزهري، ونافع بن مجبب، وابن المسيب: وبقي

(١) جذم حائط: أي بقية حائط أو قطعة من حائط. انظر النهاية ٢٥٢/١.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٩) وأحمد في المسند ٤٣/٤ والبيهقي في السنن ٣٩٩/١ وابن حبان (٢٨٧) والدارمي ٢٦٩/١ وابن ماجه (٧٠٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٨) وذكره المتقي الهندي في الكنز (٢٣١٤٥).

ينادي في الناس: «الصلاة جامعة». للأمر يحدث فيحضرون له يُخبرون به وإن كان في غير وقت صلاة. وروى ابن ماجة عن شيخه أبي عبيد محمد بن عبيد، بن ميمون المدني قال: أخبرني أبو بكر الحكمي أن عبد الله بن زيد قال في ذلك شِعْراً

أَحْمَدُ اللّٰهَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ حَمْدًا عَلَى الْأَذَانِ كَثِيرًا
إِذْ أَتَانِي بِهِ الْبَشِيرُ مِنَ اللَّهِ فَأَكْرِمُ بِهِ لَسَدِّي بِشِيرًا
فِي لَيْالٍ وَآلِي بِهِنَّ ثَلَاثٌ كُلَّمَا جَاءَ زَادَنِي تَوْقِيرًا

قال الحافظ ابن كثير: «وهذا الشُّعر غريب، وهو يقتضي أنه رأى ذلك ثلاث ليلٍ حتى أخبر به رسول الله ﷺ». قلتُ: سَنَدُهُ منقطع وأبو بكر الحكمي مجهول. وروى البيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان رجل من اليهود تاجراً إذا سمع المنادي ينادي بالأذان قال: «أحرق الله الكاذب». فبينما هو كذلك إذ دخلت جارية بشعلة من نار فطارت شرارة منها في البيت فأحرقته. وروى ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن السُّدِّي قال: «كان رجل من النصارى إذا سمع المنادي ينادي: أشهد أن محمداً رسولُ الله قال: أحرق الله الكاذب: فدخلت خادمة ذات ليلة من الليالي بناه وهو نائم وأهله نيام فأحرقت البيت واحترق هو وأهله».

وروى مسلم عن سهيل بن أبي صالح قال: أرسلني أبي إلى بني حارثة ومعهم غلام لنا [أو صاحب لنا] فناداه مُنادٍ من حائط باسمه، فأشرف [الذي معي] على الحائط، فلم ير شيئاً، فذكرت ذلك لأبي، فقال: [لو شعرت أنك تلقى هذا لم أرسلك ولكن] إذا سمعت صوتاً فتأدى بالصلاة، فإنني سمعتُ أبا هريرة يُحدِّث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الشيطان إذا نُودي بالصلاة ولى وله حُصَّاص»^(١). وروى البيهقي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «إذا تَعَوَّلْتُ لأحدكم الغيلان فليؤذُن فإن ذلك لا يضره». وروى البيهقي عن الحسن أن عُمر بعث رجلاً إلى سعد بن أبي وقاص، فلما كان ببعض الطريق عَرَضَتْ له الغول، فأخبر سعداً فقال: «إنا كنا نُؤمر إذا تَعَوَّلْتُ لنا الغول أن ننادي بالأذان». فلما رجع إلى عُمر عَرَضَ له أن يسير معه، فنادى بالأذان، فذهب عنه، فإذا سكت عَرَضَ له، فإذا أذُن ذهب عنه.

تنبيهات

الأول: الأذان لُغَةً: الإعلام، قال الله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة ٣]

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة (١٦) وأحمد في المسند ٤٨٣/٢ والبيهقي في الدلائل ١٠٣/٧ والحاكم ١١٩/٤ وابن خزيمة (٣٩٣).

واشتهر به من الأذنين بِفَتْحَتَيْنِ وهو الاستماع، وشرعاً: الإعلام بوقت الصلاة المفروضة بألفاظ مخصوصة.

الثاني: في بعض أسرار الأذان وبدائعه، قال القاضي: «الأذان كلمة جامعة لعقيدة الإيمان مشتملة على نَوْعِيَّةٍ من العقلية والسمعية، فَأَوَّلُهُ إثبات الذات، وما يستحقه من الكمال والتنزيه عن أضدادها، وذلك بقوله: «الله أكبر»، وهذه اللفظة مع اختصارها ذالَّةٌ على ما ذكرناه، ثم صَرَّحَ بِإِثْبَاتِ الوحدانية ونفي ضدها من الشركة المستحيلة في حقه سبحانه وتعالى، وهذه عُمْدَةُ الإيمان والتوحيد المُقَدِّمَةُ على كل وظائف الدين ثم صَرَّحَ بِإِثْبَاتِ النبوة والشهادة بالرسالة لنبيه ﷺ، وهي قاعدة عظيمة بعد الشهادة بالوحدانية، وموضعها بعد التوحيد لأنها من باب الأفعال الجائزة الوقوع، وتلك المقدمات من باب الواجبات. وبعد هذه القواعد كَمُلَّتِ العقائد العقلية فيما يجب ويستحيل ويجوز في حقه سبحانه وتعالى. ثم دعاهم إلى ما دعاهم الله إليه من العبادات، فدعاهم إلى الصلاة، وعَقَّبَهَا بعد إثبات النبوة لأن معرفة وجوبها من جهة النبي ﷺ لا من جهة العقل. ثم دعا إلى الفلاح، وهو الفوز والبقاء في النعيم المُقِيم، وفيه إشعار بأمور الآخرة من البعث والجزاء، وهي آخر تراجم عقائد الإسلام. ثم كَرَّرَ ذلك بِإِقَامَةِ الصلاة للإعلام بالشروع فيها، وهو مُتَضَمِّنٌ لتأكيد الإيمان، وتكرار ذكره عند الشروع في العبادة بالقلب واللسان، ولِيَدْخُلَ المُصَلِّي فيها على بَيِّنَةٍ من أمره وَبَصِيرَةٍ بِإِيمَانِهِ، ويستشعر عظيم ما دخل فيه وعَظَمَةُ حق من يعبده وجزيل ثوابه». انتهى كلام القاضي. قال النووي: «وهو من النفائس الجليلة» وبالله التوفيق.

قلت: قد أَلَّفَ الإمام الحافظ برهان الدين البقاعي^(١) رحمه الله جزءاً لطيفاً في أسرار الأذان سَمَّاهُ «الإيدان بفتح أسرار التَّشْهُدِ والأَذَانِ». وأنا مُورِدٌ هنا ما ذكره في الأذان لِيُسْتَفَادَ فَإِنَّهُ نَفِيسٌ جَدًّا.

قال رحمه الله بعد أن أورد أحاديث بعض الأذان والتشهد: «مقصوده . أي الأذان . الإعلام بأوقات الصلاة تنبيهاً على أن الدين قد ظَهَرَ، وانتشر عَلِمَ لوائه في الخافقين واشتهر، وسار في الآفاق على الرؤوس فَبَهَرَ، وأذَلَّ الجبابرة وقَهَرَ وأَعْلَمَ أنه لما كان الدين المحمدي دين الإسلام الذي لا يَقْبَلُ اللهُ من أَحَدٍ ديناً غَيْرَهُ، قد عَلَا على كل دين، فَظَهَرَ كُلُّ مُخَالِفٍ،

(١) إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاطِ بن علي بن أبي بكر البقاعي، أبو الحسن برهان الدين: مؤرخ أديب. أصله من البقاع في سورية، وسكن دمشق ورحل إلى بيت المقدس والقاهرة، وتوفي بدمشق. له «عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران»، و«عنوان العنوان» مختصر عنوان الزمان، و«أسواق الأشواق» اختصر به مصارع العشاق، و«الباحة في علمي الحساب والمساحة» و«أخبار الجلال في فتح البلاد» و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» و«بذل النصح والشفقة للتعريف بصحبة ورفقة» وله ديوان شعر سماه «إشعار الواعي بأشعار البقاعي». توفي ٥٨٨٥هـ. الأعلام ٥٦/١.

وخفقت راياته بعد أن كانت خفيفة، وانتشرت أعلام الويتيه بعد أن كانت ملوية، وبعثاة أهل الأباطيل مطوية. وقد كان الشرك منذ أزمان في غاية الظهور، والباطل هو المعمول به والمشهور، فناسب أن يُصرح بأذانه، ويُشدى به على غاية إعلانه، ولما كانوا يشركون به سبحانه، ويتعبدون بسواه، كان نسب الأمور البدائية بالتنبيه على تفرده بالكبرياء، وتوحيده بالعلاء، فقال بادئاً بالاسم الأعظم، الدال على الذات، المشتجع لجميع الكمالات: «الله» أي الملك الذي لا كفاء له ولا سمي، ولا ضد ولا نظير، وأتى بالخبر نكرة ليُدل على إسناده إليه على الإطلاق، وأنه لا خفاء في انفراده بذلك، فقال: «أكبر»، ولم يذكُر متعلقاً، ذهاباً بالتعميم إلى أعلى الغايات وأنهى النهايات ولما كان قد طال ما قرّر الشرك في الأذهان، وصال به أهل الطغيان، اقتضى الحال تأكيد ذلك، ولأجل هذا نثي التكبير في الإقامة مع أنها فرادى.

«ولما كان المراد من جميع كلمات الأذان مُجرّدة الإعلام بالوقت وبهذه المقاصد المُراد بها نشخ ما عداه، قال مؤكداً من غير عطف لشيء من الجمل: «الله أكبر». ولما كان الحال من جميع الأكوان شديد الاقتضاء، لم يُذكر التأكيد لتطاول أزمان الشرك قال مُلذداً لأسماع الموجودات، ومزويماً لعطاش أكباد الكائنات: «الله أكبر». ولما تمّ تقرير ذلك في الأذهان، وعلم علماً تاماً أن التوحيد قد علا، وقهر جميع الأديان، ارتقب كل سامع ما يُقال بعده، فقال مبتدئاً ذوراً جديداً من هذا الإعلام لمزيد التقرير عند جميع الأنام: «الله أكبر».

«فلما علم أن ذلك إلى غير نهاية، ولا حدّ تقف عنده كل غاية، قال مُترجماً لما أنتجته، مُلقناً لكل سامع ما وجب عليه من الجواب، مُسيراً بذلك بعض الأسرار، إعلاماً بما كان من حال هذا الدين في أول الأمر، بُرهاناً على حُسن هذا التأكيد: «أشهد» أي أعلمُ علماً قطعياً أنني في مُريد بصري كالناظر إلى محسوس هو في غاية الجلاء: «ألا إله إلا الله». ولما كان المقام كما مضى شديد الاقتضاء للتأكيد قال ثانياً: «أشهد ألا إله إلا الله».

«فلما أخذ المقام حظه من التأكيد، ولم يخشع إلى مزيد، فتلقى ذلك بالقبول العبيد، فثبتت رسالة الذي أتى بهذا الدين، وجاهد به الجاحدين، حتى قهرهم وخذه صاغرين أجمعين، قال على طريق النتائج المُسلمة: «أشهد أن مُحَمَّدًا» - ذاكراً أشهر أسمائه وأطيبها وأظهرها - «رسول الله»، مُخصّصاً وصف الرسالة الذي هو بين الحق والخلق، لأن المقام داع إليه، ومقصود عليه، ثم أتبع ذلك ما اقتضاه الحال من تأكيد في تعظيمه وتمجيده فقال: «أشهد أن محمداً رسول الله». فلما أخذ المقام حظه من التأكيد للإعلام، بما كان فيه للإسلام من الشدائد والآلام، أتبع ما اقتضاه الحال، من رفع الصوت بهذا المقال مُشيراً مع ذلك إلى أن باطن الدين وظاهره سواء. ليس فيه حقيقة تُخالف شريعة، وخاصة أن المُتشرع به يجب

عليه أن يكون مثل الشُّرْع، ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ سَوَاءٌ، لَا يَفْأَقُ فِيهِ بَوَاجِهُ أَضْلًا، فَقَالَ: «أَشْهَدُ أَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

«فَلَمَّا اسْتَمَرَّ فِي الْأَذْهَانِ سِيرَ هَذَا الْإِعْلَانِ، أَتْبَعَهُ مَا اقْتَضَى الْحَالُ مِنَ الشَّهَادَةِ لِلَّاتِي بِهَذَا الدِّينِ مِنْ صِدْقِ الْمَقَالِ، فِي دَعْوَى الْإِرْسَالِ، فَقَالَ: «أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ»، ثُمَّ أَكَّذَهُ كَمَا مَضَى فَقَالَ: «أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ». وَلَمَّا ثَبَّتَ ذَلِكَ، وَانْجَلَّتْ دَيَاجِيرُ تِلْكَ الْأُمُورِ الْحَوَالِيكَ، فَتَيَسَّرَ السُّلُوكُ لِكُلِّ مَالِكٍ، فِي أَشْرَفِ الْمَسَالِكِ، قَالَ ذَاكِرًا لِمَا آثَرَتْهُ الرَّمَالَةُ مِنَ الْخِلَاصِ مِنْ أَشْرَاكِ الضَّلَالَةِ، وَالرَّؤْدِ عَلَى طُرُقِهَا التَّيَالَةِ، وَأَوْدِيَّتِهَا الْمُغْتَالَةَ: «حَيَّ عَلَى» - أَي هَلُمُّوا أَقْبِلُوا جَهَارًا غَيْرَ خَائِفِينَ مِنْ أَحَدٍ - إِلَى «الصَّلَاةِ»، بَادِئًا بِمَا هُوَ نِهَآيَةُ الدِّينِ، الْجَامِعِ لِشَمَلِهِ، الْمُمَيِّزُ لِأَهْلِهِ.

«وَلَمَّا كَانَ النَّاطِرُ لِذَلِكَ الْحَالِ، يَسْتَدْعِي عَجَبًا مِنَ الْوَصُولِ إِلَى هَذَا الْمَالِ، قَالَ مُؤَكَّدًا: «حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ». فَلَمَّا تَقَرَّرَ ذَلِكَ كَانَ كَأَنَّهُ قِيلَ: هَلْ مِنْ عَمَلٍ غَيْرِهَا؟ فَقَالَ: «حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ»، فَكَانَ ذَلِكَ، مَعَ أَنَّهُ دَعَاءٌ إِلَى كُلِّ عَمَلٍ يُوْجِبُ الْفَوْزَ وَالظُّفْرَ بِكُلِّ مُرَادٍ مُؤَكَّدًا لِلدَّعَاءِ إِلَى الصَّلَاةِ عَلَى أَبْلَغِ وَجْهِ.

«وَلَا شَكَّ أَنَّهُ أَحْسَنُ مِمَّا وَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَثَارِ الْمَوْقُوفَةِ فِي الثُّوْطِ، رَوَايَةُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ، وَجَاءَ مَعَ عَبْدِ الرَّزَاقِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَصَرَّحَ الْحَفَظُ بِأَنَّهُ لَمْ يَثْبُثْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَوْلُهُ: «حَيَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ»، لِأَنَّهُ مَعَ كَوْنِهِ لَمْ يَثْبُثْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ صَارَ شِعَارَ الرَّوَافِضِ لَا يَشْمَلُ جَمِيعَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَكَانَ الْوَارِدُ فِي الصَّحِيحِ أَبْلَغَ مِنْ وَجْهَيْنِ: مِنْ جِهَةٍ أَنَّهُ شَامِلٌ لِكُلِّ خَيْرٍ، وَمِنْ جِهَةٍ التَّعْبِيرِ عَنِ ذَلِكَ بِاللَّازِمِ الَّذِي هُوَ الْغَايَةُ الْمُرْتَبِةُ عَلَى الْعَمَلِ تَحْبِيًّا فِيهِ، وَتَشْوِيقًا إِلَيْهِ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُهُ بَعْدَ: «حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ».

«وَلَمَّا كَانَ تَطَاوُلُ الصُّوْلَةِ بِالْإِذْلَالِ وَالْقَهْرِ، مُوجِبًا لِاسْتِبْعَادِ الْإِقْبَالِ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ مِنَ أَعْمَالِ الشُّرْعِ عَلَى سَبِيلِ الْقَهْرِ، أَكَّدَ هَذَا الْكَلَامُ الدَّاعِي إِلَى كُلِّ خَيْرٍ لِهَذَا وَاللِّإِشَارَةَ إِلَى أَنَّهُ لِحُسْنِهِ جَدِيدٌ «بِالتَّأَكِيدِ»، وَأَمْلٌ لِأَنَّهُ يُعْرَفُ بِمَقْدَارِ لَجَلَالَةِ آثَارِهِ، فَقَالَ: «حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ»، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْأَمْرَ خَطِيرٌ، وَالطَّرِيقَ صَعْبٌ، فَلَا بُدَّ مِنَ التَّأَهُبِ لَهُ بِأَعْظَمِ الزَّادِ، لِتَحْصُلِ الرَّاحَةِ فِي الْمَالِ وَالْمَقَادِ.

«وَلَمَّا كَانَ الْمَدْعُوُّ قَدْ يَكُونُ نَائِمًا، وَكَانَ النَّوْمُ قَدْ يَكُونُ خَيْرًا، إِمَّا بِأَنَّهُ يَكُونُ الْقَصْدُ بِهِ رَاحَةَ الْبَدَنِ لِلتَّقْوَى عَلَى الطَّاعَةِ، أَوْ أَنَّ يَكُونُ لِلتَّخْلِي عَنْ الْمَعْصِيَةِ، وَكَانَ أَكْثَرَ مَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي آخِرِ اللَّيْلِ، كَانَ الشُّوْبُ خَاصًّا بِأَذَانِ الصَّبْحِ، فَقَالَ فِيهِ: «الصَّلَاةُ» - الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ الْفَلَاحِ، وَمِنْ أَعْظَمِ مَقَاصِدِ هَذَا الْأَذَانِ الْإِعْلَامُ بِرُفْقِهَا وَالنُّدَاءُ إِلَيْهَا - «خَيْرٌ مِنَ النَّوْمِ». وَلَمَّا كَانَ مِنَ تَهْلِيئِهِ

النوم محتاجاً إلى الإزعاج، أكد ذلك بالتكرير، فقال: «الصلاة خير من النوم». ولما كان للصبح أذانان كان الثوب ربما كان في الأول، فكان دُعَاءُ إِلَى قِيَامِ اللَّيْلِ الَّذِي شُرِعَ لَهُ ذَلِكَ الْأَذَانُ، كما تبين سيره في بعض الروايات في قوله: «لِيَرْجِعَ قَائِمُكُمْ وَيُنَبِّئَ نَائِمُكُمْ». وربما كان في الثاني، فكان دُعَاءُ إِلَى فَرَضِ الصَّبْحِ، وهو بالأول أنسب، لأن الفَرْضَ لَهُ خَاتٌ يَحْتُ عَلَيْهِ، ودَاعٍ مُلِحٌّ يَدْعُو إِلَيْهِ، وهو الوجوب الذي مَنْ أَخْلُ بِهِ عُوقِبَ، وَمَنْ جَاوَزَ حَدَّهُ لِيَمَّ وَعُدَّ ب.

«ولما تمَّ الدِّينُ بِجُمْلَتِهِ، وَكُمِّلَ أَصْلًا وَفِرْعَاءً، قَوْلًا وَنِيَّةً وَعَمَلًا، بِرُؤْمَتِهِ، عُلِّلَ الدُّعَاءُ إِلَيْهِ مُرَغَّبًا مُرْهَبًا، بِقَوْلِهِ، مُذَكَّرًا بِمَا بَدَأَ الْأَمْرَ بِهِ، لِاسْتِحْضَارِ عَظَمَتِهِ الَّتِي أَظْهَرَ بِهَا الدِّينَ، وَأَذَلَّ بِهَا الْمُعْتَدِينَ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا عَلَى ثِقَةٍ مِنْ أَنَّهُ لَا غَالِبَ لَهُمْ، «اللَّهُ أَكْبَرُ»، ثُمَّ أَكَّدَ بِمَسِيَسِ الْحَاجَةِ إِلَى ذَلِكَ فِي التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ، فَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ». فَلَمَّا تَمَّ الْأَمْرُ، وَجَلَّ التَّشْوِيقُ وَالتَّزْجِيرُ، لَمْ تَدْعُ حَاجَةٌ إِلَى تَرْيِيعِ التَّكْبِيرِ هُنَا كَمَا كَانَ فِي الْأَوَّلِ، فَخَتَمَ بِمَا بَدَأَ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ إِعْلَامًا بِأَنَّهُ لَا يُقْبَلُ شَيْءٌ مِنَ الدِّينِ إِلَّا بِهِ مُقَارِنًا لَهُ مِنْ ابْتِدَائِهِ إِلَى انْتِهَائِهِ، فَقَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

«ولما كان قد وصل إلى حد لا مزيد عليه، لم يَحْتَجِ إِلَى تَأْكِيدٍ، حَتَّى وَلَا بِلَفْظِ الشَّهَادَةِ إِعْلَامًا بِأَنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ هَذَا إِلَّا السِّيفُ لَوْ تَوَقَّفَ عَنْهُ، أَوْ مَا عَائِدَ فِيهِ. وَلَمَّا كَانَ مِنْ أَجَلٍ مَا يُرَادُ بِالْأَذَانِ - كَمَا مَضَى - الْإِعْلَامَ بِظُهُورِ الْإِسْلَامِ عَلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ، وَأَنَّهُ قَدْ أَوْزَقَ عُودَهُ، وَزَكَا وَجُودَهُ، وَثَبَّتَ عُمُودَهُ، وَعَزَّزَ أَنْصَارَهُ وَجُنُودَهُ، جَاءَ عَلَى سَبِيلِ التَّعْدِيدِ، وَالتَّقْرِيرِ وَالتَّأْكِيدِ، مِنْ غَيْرِ عَاطِفٍ وَلَا لَافِيٍّ عَنِ هَذَا الْمُرَادِ وَلَا صَارِفٍ تَنْبِيهًا عَلَيَّ أَنْ كُلُّ جُمْلَةٍ مِنْهُ رُكْنٌ بِرَأْسِهِ، مُسْتَقِيلٌ بِذَلِكَ بِنَفْسِهِ، مُغْرَبٌ عَمَّا هُوَ الْمُرَادُ مِنَ الْإِظْهَارِ بِالتَّعْدَادِ.

«هذا ما شرحه الله تعالى لعباده من الأذان في حال النوم واليقظة، في الليل والنهار، على وفاء لا مزيد عليه، كما صرح به في قوله - ﷺ -: «اللهم رب هذه الدعوة التامة، فمن زاد حزفاً فما فوقه فقد أساء وتعدى وظلم». ومن الواضح البين أن المعنى في إجابة السامع لألفاظه بها الإيدان باعتقاده، والإذعان لمُرَادِهِ، وَأَنَّهُ تَخْصِيصُ الْجَوَابِ فِي الدُّعَاءِ إِلَى الصَّلَاةِ وَالتَّوْحِيدِ، بِالحِوَالَةِ، وَالمُرَادُ بِهَا سَوَالُ المَعُونَةِ عَلَى تِلْكَ الْأَفْعَالِ الكَرَامِ بِالتَّبَيُّرِ مِنَ القُدْرَةِ عَلَى شَيْءٍ بِغَيْرِ تَقْدِيرِ اللَّهِ، رَدًّا لِلْأَمْرِ إِلَى أَهْلِهِ، وَأَخْذًا لَهُ مِنْ مَعِينِهِ وَأَصْلِيهِ، وَالإِقَامَةَ فرادى، لِأَنَّهُ لَمَّا ثَبَّتَ بِالْأَذَانِ أَمْرَ الوَحْدَانِيَّةِ وَالمُرَادِ، وَعَلِمَ المَدْعُوُّ مَا نُسِبَ إِلَيْهِ، صَارَ الْأَمْرُ نَحِيًّا عَنِ التَّأْكِيدِ، فَلَمْ يَحْتَجِ إِلَى غَيْرِ الْإِعْلَامِ بِالقِيَامِ إِلَى مَا قَدْ دُعِيَ إِلَيْهِ، وَأُعْلِمَ بِوقْتِهِ، وَأَكَّدَ التَّكْبِيرَ بِمَا ذَكَرَ فِي الْأَذَانِ تَوْعِ تَأْكِيدَ لَمَّا تَقَدَّمَ مِنْ مَزِيدِ الْإِحْتِمَامِ وَالإِقَامَةِ لِإِسْرَاعِ مَنْ عِنْدَهُ بِمَنْعِ غَفْلَةٍ أَوْ تَوَانٍ» انتهى.

الثالث: اختلف في السنة التي فيها شرع [الأذان]. قال الحافظ: «والراجح أنه كان في السنة الأولى، وقيل: بل في الثانية».

الرابع: قول ابن عمر: فقال عمر: «أو لا تبعثون رجلاً منكم يُنادي بالصلاة». فقال

رسول الله ﷺ: «يا بلال قم فنادِ بالصلاة». قال النووي: هذا الدعاء دُعاء إلى الصلاة غير الأذان وكان قد شُرِع قبل الأذان. قال الحافظ: والظاهر أن إشارة عُمر بإرسال رجل ينادي بالصلاة كان عُقب المشاورة فيما يفعلونه، وأن رؤيا عبد الله بن زيد كانت بعد ذلك. وكان اللفظ الذي يُنادي به بلال هو «الصلاة جامعة»، كما رواه ابن سعد، وسعيد بن منصور عن سعيد بن المُسيَّب مُرسلاً. وقد وقع للقاضي أبي بكر العربي هنا كلامٌ غير مُحرَّر طَعَنَ فيه في صحة حديث ابن عُمر الثابت في الصحيح، وقد بسط الحافظ الكلام على رَدِّه.

الخامس: روى الطبراني أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه رأى الأذان، وسنَّده واه، ووقع في الوسيط للغزالي أنه رآه بضعة عشر رجلاً. وعبارة الجيلي في شرح التنبيه: أربعة عشر رجلاً وأنكره ابن الصلاح^(١) [فقال: لم أجد هذا بعد إمعان البحث] ثم النووي [في تنقيحه فقال: هذا ليس بثابت ولا معروف وإنما الثابت خروج عُمر يَجُرُّ رداءه]، ونقل مغلطاي عن بعض كتب الفقهاء أنه رآه سبعة عشر رجلاً من الأنصار. قال الحافظ: «الحق أنه لا يثبت شيء من ذلك إلا لعبد الله بن زيد، وقصة عُمر جاءت في بعض الطرق».

وروى الحافظ ابن أبي أسامة عن كثير بن مُرَّة^(٢) أن رسول الله ﷺ قال: أوَّل من أذن بالصلاة جبريل في السماء فسمعه عُمر وبلال، فسَبَقَ عُمر بلالاً، فأخبر النبي ﷺ، ثم جاء بلال، فقال: «سَبَقَكَ بها عُمر»^(٣). وسنَّده /واه جداً، في سننه سعيد بن سنان^(٤)، قال الذهبي في المغني: «متروك مُتَّهَم».

السادس: وردت أحاديث تُدَلُّ على أَنَّ الأذان شُرِع بمكة قبل الهجرة، منها للطبراني عن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما، قال: «لما أُسْرِيَ برسول الله ﷺ أوحى الله تعالى إليه:

(١) عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى بن أبي نصر، الإمام العلامة مفتي الإسلام، تقي الدين، أبو عمرو بن الإمام البارع صلاح الدين أبي القاسم، النصرى - نسبة إلى جده أبي نصر - الكردي، الشهرزوري الأصل، المرصلي المربا، الدمشقي الدار والوفاة. ولد سنة سبع وسبعين وخمسمائة بشهرزور، وتفقه على والده، قال ابن خَلِّكَان: كان أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه. وقال ابن الحاجب: إمام ورع، وافر العقل، حسن السميت، متبحر في الأصول والفروع. ويحكى عنه أنه قال: ما فعلت صغيرة في عمري. ومن تصانيفه: مشكل الوسيط في مجلد كبير وكتاب الفتاوى كثير الفائدة، وعلوم الحديث، وكتاب أدب المفتي والمستفتي. توفي بدمشق في حصار الخوارزمية في ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وستمائة. الطبقات لابن قاضي شعبة ١١٣/٢، ١١٤، ١١٥، وطبقات الشافعية للسبكي ١٣٧/٥، ووفيات الأعيان ٤٠٨/٢ والطبقات لابن هداية الله ص ٨٤ والبداية والنهاية ١٦٨/١٣.

(٢) كثير بن مُرَّة الحضرمي أبو القاسم الزقاري ثم الجيمي تابعي. عن عُمر وثقاذ وعنه خالد بن مَعْدَان ويزيد بن أبي حبيب. وثقه المعجلي. قال أبو مُشَهر: مات في خلافة عبد الملك.

(٣) انظر فتح الباري ٧٨/٢.

(٤) سعيد بن سنان البرجي الشَّيْبَانِي أبو سنان الكوفي الأصغر نزل قزوين. عن طاووس والضحاك. وعنه الثوري. وثقه ابن معين وأبو حاتم. قيل: مات قبل الستين ومائة. الخلاصة ٣١٨/١.

بالأذان، فنزل به، فعلمه بلالاً، وفي سننِهِ، طَلْحَةَ بْنِ زَيْدِ الرَّقْمِيِّ هَالِك. قال الحافظ أبو الفرج بن رجب: هذا حديث موضوع بهذا الإسناد بغير شك، قلت: وبغيره أيضاً. ولا بن شاهين عن علي بن أبي طالب: «عَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - الأذان ليلة أُسْرِي به وفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصلاة»، وفي سننِهِ حصين بن مُحَمَّدٍ، وهو وَضَاع. وللدارقطني في الأفراد، وعن أنس رضي الله عنه «أَنَّ جِبْرِيلَ أَمَرَ النَّبِيَّ - ﷺ - بِالْأَذَانِ حِينَ فُرِضَتِ الصَّلَاةُ»، وسننُهُ ضعيف.

ولا بن مَزْدَوِيهِ من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: «لَمَّا أُسْرِيَ بِي أَذَّنَ جِبْرِيلُ، فَظَنَنْتُ الْمَلَائِكَةَ أَنَّهُ يُصَلِّيَ بِهِمْ، فَقَدَّمَنِي فَصَلَّيْتُ»، وفي سننُهُ من لا يُعْرَف. وقال الذهبي في مختصر الإمام، أصل الإمام لابن دقيق العيد^(١): «هذا حديث منكر بل موضوع». وللبنّاز وغيره من حديث قال: «لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُعَلِّمَ رَسُولَهُ الْأَذَانَ أَنَاهُ جِبْرِيلُ بِدَابَّةٍ يُقَالُ لَهَا الْبُرَاقُ فَرَكِبَهَا [حَتَّى أَتَى الْحِجَابَ الَّذِي يَلِي الرَّحْمَنَ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ خَرَجَ مَلَكٌ مِنَ الْحِجَابِ، فَقَالَ: يَا جِبْرِيلُ مِنْ هَذَا؟ قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنِّي لِأَقْرَبِ الْخَلْقِ مَكَاناً وَأَنَّ هَذَا الْمَلَكُ مَا رَأَيْتَهُ مِنْذُ خُلِقَتْ قَبْلَ سَاعَتِي هَذِهِ فَقَالَ الْمَلَكُ: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، فَقِيلَ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ: صَدَقَ عَبْدِي، أَنَا أَكْبَرُ، أَنَا أَكْبَرُ]، فَذَكَرَ بَقِيَةَ الْأَذَانِ، وَفِي آخِرِهِ: «ثُمَّ أَخَذَ الْمَلَكُ بِيَدِهِ فَأَمَّ أَهْلَ السَّمَاءِ..» وفي إسناده زياد بن المنذر^(٢) وهو متروك أيضاً. وقال ابن معين^(٣): عدو الله كذاب. وقال الذهبي: «هذا من وضعه». وقال ابن كثير: «هذا الحديث الذي زعم السهيلي أنه صحيح هو منكر، تفرّد به زياد بن المنذر الذي تُسَبَّبُ إِلَيْهِ الْفِرْقَةُ الْجَارُودِيَّةُ مِنَ الرَّافِضَةِ وَهُوَ

(١) محمد بن علي بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة القشيري، الشيخ الإمام، شيخ الإسلام تقي الدين أبو الفتح بن الشيخ القدوة العالم مجد الدين المنفلوطي المصري ابن دقيق العيد. وُلِدَ فِي شَعْبَانَ سَنَةِ خَمْسٍ وَعَشْرِينَ وَسِتْمِائَةَ. وَكَانَ وَالِدُهُ مَالِكِي الْمَذْهَبِ ثُمَّ تَفَقَّهَ عَلَى الشَّيْخِ عَزَّ الدِّينِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ، فَحَقَّقَ الْمَذْهَبَيْنِ وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي طَبَقَاتِهِ: أَحَدُ عُلَمَاءِ وَقْتِهِ، بَلْ أَجْلَهُمْ، وَأَكْثَرُهُمْ عِلْمًا وَدِينًا، وَوَرَعًا وَتَقَشُّفًا، وَمُدَامَةً عَلَى الْعِلْمِ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، مَعَ كِبَرِ السِّنِّ وَالشُّغْلِ بِالْحُكْمِ. وَلَهُ التَّصَانِيفُ الْمَشْهُورَةُ وَالْعُلُومُ الْمَذْكُورَةُ، بَرَعَ فِي عُلُومٍ كَثِيرَةٍ لَا سَبِيحًا فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ، فَاقَ فِيهِ عَلَى أَقْرَانِهِ، وَبَرَزَ عَلَى أَهْلِ زَمَانِهِ، رَحِلَتْ إِلَيْهِ الطُّلُبَةُ مِنَ الْآفَاقِ وَوَقَعَ عَلَى عِلْمِهِ وَوَرَعِهِ وَزُهْدِهِ الْإِتِّفَاقُ، وَمِنْ تَصَانِيفِهِ الْإِلْمَامُ فِي الْحَدِيثِ، وَتَوْفِي وَلَمْ يَبْيَضْ، وَكِتَابُ الْإِمَامِ - بِهَمْزَةٍ مَكْسُورَةٍ بَعْدَهَا مِيمٌ - شَرْحُ الْإِلْمَامِ، الْكِتَابُ الْكَبِيرُ الْعَظِيمُ الشَّانُ. تَوَفِّي فِي صَفْرِ سَنَةِ اثْنَيْنِ وَسَبْعِمِائَةٍ، وَدَقِيقِ الْعِيدِ لَقِبَ لَجْدِهِ وَهَبِ. الطَّبَقَاتُ لِابْنِ قَاضِي شَهْبَةَ ٢/٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، وَالتَّبَقَاتُ لِلْإِسْنَوِيِّ ص ٣٣٦، وَالتَّبَقَاتُ لِلْسَبْكِ ٢/٦، وَفَوَاتُ الْوَفِيَّاتِ ٢/٢٤٤.

(٢) زياد بن المنذر الهذلي. وقيل: الثقفى. ويقال: النهدي، أبو الجارود الكوفي الأعشى. عن أبي بردة، والحسن. وعنه مروان بن معاوية، ومحمد بن سنان العوفي. وعدة. قال ابن معين: كذاب. وقال النسائي وغيره: متروك. وقال ابن حبان: كان رافضياً يضع الحديث في الفضائل والمثالب. وقال الدارقطني: إنما هو منذر بن زياد. متروك. وقال غيره: إليه ينسب الجارودية ويقولون: إن علياً أفضل الصحابة وتبرؤوا من أبي بكر وعمر، وزعموا أن الإمامة مقصورة على ولد فاطمة. وبعضهم يرى الرجعة ويبیح المتعة. ميزان الاعتدال ٢/٩٣.

(٣) يحيى بن معين بن عَزُّونَ الْقَطَفَانِي أَبُو زَكَرِيَا الْبَغْدَادِي الْحَافِظُ الْإِمَامُ الْعَلِمُ. قَالَ أَحْمَدُ: كُلُّ حَدِيثٍ لَا يَعْرِفُهُ يَحْيَى فَلَيْسَ بِحَدِيثٍ. قَالَ ابْنُ أَبِي خَيْثَمَةَ: مَاتَ بِالْمَدِينَةِ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتَيْنِ، وَحَمَلَ عَلَى أَعْوَادِ النَّبِيِّ ﷺ وَنُودِيَ بِنِ يَدِهِ هَذَا الَّذِي يَذَّبُ الْكُذْبَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. الْخُلَاصَةُ ٣/١٦١.

من المتهمين، ولو كان النبي - ﷺ - سَمِعَهُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ لِأَمْرٍ بِهِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ. ولا بن شاهين من طريق زياد المذكور، قال: «قلت لابن الحنفية: كنا نتحدث أن الأذان كان رؤيا، فقال: هذا والله الباطل، لكن رسول الله - ﷺ - لما أُخْرِجَ بِهِ بُعِثَ إِلَيْهِ مَلَكٌ عَلَّمَهُ الْأَذَانَ». قال [الحافظ ابن حجر]: «هذا باطل ويمكن على تقدير صحته أن يُحْمَلَ عَلَى تَعَدُّدِ الْإِسْرَاءِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ وَقَعَ بِالْمَدِينَةِ، وَأَمَّا قَوْلُ الْقُرْطُبِيِّ لَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ سَمِعَهُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ أَنْ يَكُونَ مَشْرُوعاً فِي حَقِّهِ، فَفِيهِ نَظَرٌ لِقَوْلِهِ فِي أَوَّلِهِ: «لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُعَلِّمَ رَسُولَهُ الْأَذَانَ»، وَكَذَا قَوْلُ الْمُحِبِّ الطَّبْرِيِّ، يُحْمَلُ الْأَذَانَ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ عَلَى الْمَعْنَى اللَّغْوِيَّةِ وَهُوَ الْإِعْلَامُ، [وهذا] فِيهِ نَظَرٌ أَيْضاً لِتَصْرِيحِهِ بِكَيْفِيَّتِهِ الْمَشْرُوعَةِ فِيهِ».

ولا بن شاهين من طريق زياد أيضاً عن أنباقر عن أبيه عن أبي رافع عن علي رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله - ﷺ - : «يَا عَلِيُّ إِنْ اللَّهُ عَلَّمَنِي الصَّلَاةَ وَالْأَذَانَ، أَتَانِي جَبْرِيلُ بِالْبُرَاقِ»؛ وزياد [رَوَاهُ] كَذَابٌ. ولأبي الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نزل الأذان على رسول الله ﷺ مع فرض الصلاة»، وفي سنده عبد العزيز بن مروان^(١)، وهو تالف. قال الحافظ: «والحق أنه لا يَصِحُّ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ، وَقَدْ جَزَمَ ابْنُ الْمُنْذِرِ «أَنَّهُ - ﷺ - كَانَ يُصَلِّي بِغَيْرِ أَذَانَ، مِنْذُ فُرِضَتِ الصَّلَاةُ بِمَكَّةَ إِلَى أَنْ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَإِلَى أَنْ وَقَعَ التَّشَاوُرُ فِي ذَلِكَ عَلَى مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ثُمَّ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ». انتهى كلام ابن المنذر. وقد حاول السهيلي الجمع بينهما فتكلف وتَعَسَّفَ وَالْأَخْذُ بِمَا صَحَّ أَوْلَى، فَقَالَ بَانِيًّا عَلَى صِحَّةِ الْحَكْمِ فِي مَجِيءِ الْأَذَانَ عَلَى لِسَانِ الصَّحَابِيِّ فِي الْمَنَامِ فَقَصَّصَهُ فَوَافَقَ مَا كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - سَمِعَهُ فَقَالَ: «إِنَّمَا لَرُؤْيَا حَقٌّ»، وَعُلِّمَ حِينَئِذٍ أَنَّ مَرَادَ اللَّهِ بِمَا أَرِيَهُ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَكُونَ سُنَّةً فِي الْأَرْضِ، وَقَوَّى ذَلِكَ عِنْدَهُ مَوَافَقَتَهُ رُؤْيَا عُمَرَ لِلْأَنْصَارِيِّ لِأَنَّ السَّكِينَةَ تَنْطِقُ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ... انتهى.

ويؤخذ منه عدم الاكتفاء برؤيا عبد الله بن زيد حتى أُضِيفَ إِلَيْهِ عُمَرُ لِلتَّقْوِيَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا. ولكن قد يقال: فَلِمَ اقْتَصَرَ عَلَى عُمَرَ؟ فَيُمْكِنُ أَنْ يَجَابَ لِيَصِيرَ فِي مَعْنَى الشَّهَادَةِ. وقد جاء في رواية ضعيفة سَبَقَتْ مَا ظَاهَرَهُ أَنْ بِلَا أَيْضاً رَأَى، لَكِنَّمَا مُؤَوَّلَةٌ، فَإِنْ لَفْظُهَا: «سَبَقَكَ بِهَا عُمَرُ»، يَحْمَلُ الْمَرَادَ بِالسَّبْقِ عَلَى مَبَاشَرَةِ التَّأْذِينَ بِرُؤْيَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ.

السابع: قال السهيلي: «اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون الأذان على لسان غير النبي

(١) عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، أبو الأصمغ: أمير مصر. ولد في المدينة، وولي مصر لأبيه استقلالاً، سنة ٦٥هـ لسكن حلوان. وأعجبه، فبنى فيها الدور والمساجد، وغرس بها كرمًا ونخيلًا. وتوفي فيها. وهو والد الخليفة عمر بن العزيز. توفي سنة ٨٥هـ. الأعلام ٢٨/٤.

- **عليه السلام** . من المؤمنين لما فيه من التنويه من الله تعالى بعبده والرفع لذكره، فلأن يكون ذلك على لسان غيره أنوة به وأفحتم لشأنه، وهذا معنى بين، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [سورة الشرح، الآية: ٤]، فمن رفع ذكره أن أشار به على لسان غيره. انتهى كلام السهيلي . وهذا حسن بديع.

الثامن: من أغرب ما وقع في بدء الأذان ما رواه أبو الشيخ من طريق عبد العزيز بن مروان . وهو تالف . عن عبد الله بن الزبير قال: «أُخِذَ الأَذَانُ من أذان إبراهيم عليه السلام ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [سورة الحج، الآية: ٢٧] الآية، قال: «فَأَذَّنَ النَّبِيُّ - **عليه السلام** -؛ وما رواه أبو نعيم يستند فيه مجاهيل عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: «أن جبريل نادى بالأذان لآدم عليه السلام حين أُغْبِطَ من الجنة».

التاسع: ذكر بعضهم مناسبة اختصاص بلال بالأذان دون غيره، كونه لما عُذِّبَ ليرجع عن الإسلام كان يقول: أحد أحد، فجوزي بولاية الأذان المشتمل على التوحيد من ابتدائه إلى انتهائه.

العاشر: استشكل إثبات حُكْمِ الأَذَانِ برؤيا عبد الله بن زيد، ورؤيا غير الأنبياء لا يثبتني عليها حكم شرعي. وأجيب باحتمال مقارنة الوحي لذلك بأنه - **عليه السلام** - أمر بمقتضاها لينظر أيقره على ذلك أم لا، ولا سيما لما رأى نَظْمَهَا يُعِيدُ دخول الوسواس فيه، ويؤيد الأول حديث عُبيد بن عمير، أحد كبار التابعين: «أن عُمر لما رأى الأذان جاء ليخبر النبي - **عليه السلام** -: فوجد الوحي قد ورد بذلك فما راعه إلا أذان بلال». فقال له النبي **عليه السلام**: «سَبَقَكَ بِذَلِكَ الوَحي»^(١). وهذا أصح كما حكاه الداودي عن ابن إسحاق «أن جبريل أتى النبي - **عليه السلام** - بالأذان قبل أن يخبره عبد الله بن زيد بشمانية أيام».

الحادي عشر: قيل إن الحكمة في تشية الأذان وإفراد الإقامة أن الأذان إعلام للغائبين مُتَكَرِّرٌ ليكون أوصل إليهم، بخلاف الإقامة فإنها للحاضرين، ومن ثم اشْتُجِبَ أن يكون الأذان في مكان عالٍ بخلاف الإقامة، وأن يكون الصوت في الأذان أرفع منه في الإقامة.

الثاني عشر: في بيان غريب ما سبق:

«بَدء» الأذان، بفتح الموحدة وسكون الدال [المهملة] وبالهمزة، أي ابتداءه.

«الجين»: الزمان قل أو كثر.

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل (٨١) حديث (٢٠) وذكره السيوطي في الجامع الكبير من حديث الشعبي مرسلًا وعزاه للضياء في المختارة.

«يَتَخَيُّونَ» الصلاة: أي يطلبون حينها.

«المواقيت» جمع ميقات: وهو الوقت المضروب للفعل.

«الدُّعْوَةُ»: بالفتح: الأذان.

«القنق»^(١): بضم القاف وسكون النون هو البوق - بضم الموحدة - شيء مجوف يُنْفَخُ

فيه.

«الشُّبُور»^(٢): بشين معجمة مفتوحة فموحدة مضمومة مُشَدَّدة وهو البوق.

«النَّاقُوس»: آلة من النحاس يُضْرَبُ فِيصَوْتُ.

«حَيَّ» على الصلاة: أَقْبِلُوا.

«الفلاح»: أي الفوز، أي هَلُمُّوا إِلَى طريق النجاة والفوز.

«أَنْدَى»^(٣) صوتاً منك، أي أَمَدٌ وَأَبْعَدُ وَأَرْفَعُ غَايَةً، وقيل: أَحْسَنُ وَأَعْدَبُ.

«أَلْقِيهِ» عليه: أي عَلَّمَهُ إِيَّاهُ.

فما «رَاعَ» عُمر: أي ما شعر عُمرَ أي ما أَعْلَمَهُ.

«لَدَيْ»: بفتح اللام وتشديد التحتية: أي عِنْدِي، وَإِلَيَّ بِذَلِكَ تَابِعُ.

«التوقير»: التعظيم.

«الْحُصَاص»^(٤) بحاء مضمومة فصادين مهملتين: الضراط، وقيل شدة العذو، ويفعل

ذلك الشيطان لثلا يسمع الأذان فيُضْطَرُّ إِلَى الشهادة يوم القيامة.

«الغيلان»: واحدها غول، والغيلان جنس من الجن كانت العرب تَزْعُمُ أَنَّهَا تتراءى

للناس في الفلاة فَتَتَمَثَّلُ فِي صُورِ شَيْءٍ فَتَقُولُهُمْ أَي تُضِلُّهُمْ عَنِ الطَّرِيقِ وَتُهْلِكُهُمْ، فنفاه عَلَيْهِ السَّلَامُ

بقوله: «لَا غُولَ [وَلَا صَفْرًا]» [وقيل قوله: لا غول]، ليس نَفِيًّا [لَعَيْنِ الْغُولِ] ووجوده وإنما فيه

إِبْطَالُ زَعْمِ الْعَرَبِ فِي تَلَوْنِهِ بِالصُّورِ الْمَخْتَلِفَةِ وَاغْتِيَالِهِ، فيكون المعنى بقوله: لا غول أَنَّهَا لَا

تَسْتَطِيعُ أَنْ تُضِلَّ أَحَدًا. ومنه الحديث: «إِذَا تَعَوَّلَتِ الْغِيلَانُ فَبَادِرُوا بِالْأَذَانِ»، أي ادفَعُوا شَرَّهَا

بِذِكْرِ اللَّهِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُرَدِّ بِنَفْيِهَا عَدَمَهَا.

(١) وهو بالكسر: الطبق من عَسَبِ النَّخْلِ يَوْضَعُ فِيهِ الْعَطَامُ وَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: يُقَالُ لَهُ: الْقَعُّ وَالْقَنْعُ بِالْكَسْرِ وَالضَّمُّ لِلْسَانَ ٥ / ٣٧٥٦.

(٢) انظر اللسان ٤ / ٢١٨٤، ٢١٨٥.

(٣) المصباح الصغير ص ٥٩٩.

(٤) انظر اللسان ٢ / ٨٩٨.

الباب الخامس

في مؤاخاته صلى الله عليه وسلم بين أصحابه رضي الله عنهم

قال أبو عُمَرَ، وأقره في العيون، والفتح، ونقله في كتاب الصيام عن أصحاب المغازي: «كانت المؤاخاة مَرَّتَيْنِ: الأولى: بين المهاجرين بعضهم بعضاً قبل الهجرة على الحق والمواساة فأخى رسول الله - ﷺ - بين أبي بكر وعُمَرَ، وبين حمزة وزيد بن حارثة. وروى أبو يَعْلَى برجال الصحيح عن عبد الرحمن بن صالح الأسدي وهو ثقة عن زيد بن حارثة أنه قال: «إن رسول الله - ﷺ - أخى بيني وبين حمزة بن عبد المطلب، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، وبين الزبير بن العَوَّام وابن مسعود، وبين عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف وبلال، وبين مُضْعَب بن عُمَيْر وسعد بن أبي وقاص، وبين عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة، وبين سعد بن أبي زيد [بن عمرو بن نُفَيْل] وطلحة بن عبيد الله، وبين علي بن أبي طالب ونفسه ﷺ. وروى الحاكم والخَلْعِي عن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما قال: «أخى رسول الله - ﷺ - بين أصحابه، فأخى بين أبي بكر وعُمَرَ، وفلاناً، حتى بقي علي رضي الله عنه تَدْمَع عيناه، فقال: يا رسول الله آخَيْتَ بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد، فقال رسول الله - ﷺ -: «أما ترضى أن أكون أخاك؟ قال: بلى يا رسول الله رَضِيت. قال: «فأنت أخي في الدنيا والآخرة».

الثانية: قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «حالف رسول الله - ﷺ - بين المهاجرين والأنصار في دارنا» رواه الإمام أحمد والشيخان وأبو داود. وروى الإمام أحمد، وأبو داود الطيالسي، والبخاري، وأبو داود [السجستاني] وأبو الشيخ، والطبراني عن ابن عباس مُخْتَصِراً، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق عنه مُطَوَّلًا، وابن سعد والحاكم وصححه عن الزبير بن العَوَّام، وابن سعد عن الزهري، وإبراهيم التيمي، وضمرة بن سعيد، قالوا: لما قَدِم رسول الله - ﷺ - المدينة أخى بين المهاجرين والأنصار، أخى بينهم على الحق والمواساة، ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «فأخى بينهم على الحق والمواساة، ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «فأخى رسول الله - ﷺ - بين حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة، وبين أبي بكر الصديق وخارجة بن زيد بن الحارث، وبين عمر بن الخطاب وعُثْبَان بن مالك، وبين الزبير بن العوام وسَلْمَة بن سلامة بن وَفْش - ويقال: بينه وبين عبد الله بن مسعود، وبين طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، وقال لسائر أصحابه: «تَوَآخُوا وهذا أخي» - يعني علي بن أبي طالب.

قام المسلمون على ذلك حتى نزلت سورة الأنفال، وكان مما شدَّ الله عقْدَ نبيه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَضَرُّوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال ٧٢: ٧٤]

فأحكَمَ الله بهذه الآيات العَقْدَ الذي عَقَدَ رسول الله ﷺ - بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، يتوارث الذين آخوا دون من كان مقيماً بمكة من ذوي الأرحام والقربات. فمكث الناس على ذلك العَقْدَ ما شاء الله. فلما كان بعد بدر أنزل الله تعالى الآية الأخرى فنسخت ما كان قبلها، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال ٧٥] وانقطعت المؤاخاة في الميراث ورجع كل إنسان إلى نَسَبِهِ وَوَرَثِهِ ذُو وَرَجِيهِ.

وروى الخرائطي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قال المهاجرون: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قديمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بطلاً من كثير، لقد كفونا المَوْتَةَ، وأشركونا في المَهْتَأَ حتى لقد نحشينا أن يذهبوا بالأجر كُلِّهِ». قال: «لا ما أثبتتم عليهم ودعوتهم [الله] لهم»^(١).

وروى مسلم والنسائي والخرائطي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لقد رأيتنا وما الرجل المسلم بأحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم». قال الزهري، وإبراهيم التيمي، وحمزة بن سعيد، كما رواه ابن سعد عنهم: «كانوا تسعين رجلاً: خمسة وأربعون رجلاً من المهاجرين وخمسة وأربعون من الأنصار». ويقال: «كانوا مائة: خمسون من المهاجرين وخمسون من الأنصار». قال ابن إسحاق، وسنيد بن داود، وأبو عمر، وأبو الفرج: «أخى رسول الله ﷺ - بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبين نفسه - ﷺ»، قال أبو عمر: «وقال له: «أنت أخي في الدنيا والآخرة»».

وروى أبو بكر الشافعي عن أبي أُمَامَةَ رضي الله عنه قال: «لما أخى رسول الله ﷺ بين الناس أخى بينه وبين علي، وبين حمزة بن عبد المطلب وأُسَيْد - بضم الهمزة وفتح السين - ابن

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢٠٠/٣ وابن أبي شيبة ٦٨/٩ وانظر البداية والنهاية ٢٢٨/٣.

حُضَيْر - بضم الحاء المهملة وفتح الضاد المعجمة -، وبين جعفر بن أبي طالب وهو بأرض الحبشة ومُعَاذ بن جَبَل. واشْتَشِكِل ذلك ويأتي جوابه في ثالث التنبهات إن شاء الله، وبين أبي بكر وخارجة - بالخاء والعجم المعجمة - ابن زيد، وبين عمر بن الخطاب وَعِثْبَان بن مالك - بعين مهملة مكسورة ففوقية ساكنة فموحدة وقد تُضَم العين - وبين عثمان بن عَفَّان وأوس بن ثابت بن المنذر أخي حَسَّان بن ثابت، وبين طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك، وذكر أبو الفَرَج بدل كعب بن مالك، أبي بن كعب، وقيل أبي بن كعب وسعيد بن زيد، وبين الزبير بن العوام وسَلْمَة بن سلامة بن وَقْش - بفتح الواو وسكون القاف وبالشين المعجمة - كما ذكروا في حديث الزبير السابق أنه وَاخِي بين سعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة، وبين سعيد بن زيد وأبي بن كعب، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع.

وروى البخاري في أوائل كتاب البيوع بسند وعلقه في باب: كيف آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، والإمام أحمد والشيخان عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ وَاخَى بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فعرض سعد على عبد الرحمن أن يناصفه أهله وماله. قال سعد: أنا أكثر أهل المدينة مالاً فأقسيم لك نصف مالي وانظر أي زوجتي هويت، نزلت لك عنها، فإذا خلث تزوجتها. فقال عبد الرحمن: بارك الله عز وجل لك في أهلك ومالك دُلُونِي على السوق، فاشترى وباع^(١)، وسيأتي الحديث في المعجزات إن شاء الله تعالى. ووَاخَى بين أبي عُبَيْدَة بن الجراح وأبي طلحة زيد بن سهل الأنصاري النجاري، فهذا أصح مما ذكره ابن إسحاق وأبو عَمْرٍو إلا أن يكون آخى بين أبي عُبَيْدَة وسعد بن مُعَاذ. وذكر سُئِيد أنه وَاخَى بين سعد بن أبي وقاص ومحمد بن مَسْلَمَة بن خالد بن عدي الأوسي وبين سعد بن زيد وأبي بن كعب، وبين مصعب بن عُمَيْر وأبي أيوب، وبين عُمَار بن ياسر وحَدِيفَة بن اليمان، وقيل: بين عُمَار وثابت بن قيس بن الشَّامِس لأن حديفة إنما أسلم زمان أخذ، وبين أبي حَدِيفَة بن عُثْبَة بن ربيعة وَعَبَّاد - بموحدة ودال مهملة - ابن بَشْر - بكسر الموحدة وبالشين المعجمة - ابن وَقْش، وبين أبي ذَرِّ الغِفَارِي والمنذر بن عمر المُعْنِق لِيَمُوت.

وأنكر ذلك محمد بن عَمْرٍو الأسلمي لأن أبا ذَرِّ إنما قَدِم المدينة بعد بدر وأخذ، وعنده طَلَيْب - بالتصغير - ابن عُمَيْر والمنذر بن عَمْرٍو، وسيأتي الجواب عن ذلك في ثالث التنبهات إن شاء الله تعالى. ووَاخَى بين عبد الله بن مسعود وسَهْل بن حُنَيْف، وبين سَلْمَان الفارسي وأبي الدرداء عُوَيْمِر بن ثعلبة كما في صحيح البخاري عن أبي جُحَيْفَة [وهب بن عبد الله]

(١) أخرجه البخاري ٣٣٧/٤ (٢٠٤٩).

رضي الله عنه، وأنكر ذلك محمد بن عمر لأن سَلَمَانَ إنما أسلم بعد وقعة أُحُد، وأول مشاهدته الخندق، ويأتي الجواب عن ذلك.

[وَوَاخِي] بين بلال [بن رباح مولى أبي بكر] وأبي رُوَيْحَةَ - بضم الراء وفتح الواو وبعدها تحتية ساكنة فحاء مهملة - واسمه عبد الله بن عبد الرحمن الخَثْعَمِيُّ، وبين حاطب بن أبي بَلْتَعَةَ - بموحدة فلام ساكنة ففوقية فعين مهملة - وِعَوَيْم - بلفظ تصغير عام - ابن ساعدة، وبين عبد الله بن جَحْش وعاصم بن ثابت بن أبي الأَقْلَح - بفتح الهمزة وسكون القاف فلام فحاء مهملة، وبين عُبَيْدَةَ بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف وَعَمَيْر بن الحُمَام - بضم الحاء المهملة -، وبين الطفيل بن الحارث أخي عُبَيْدَةَ، وسُفْيَان بن نَسْر - بفتح النون وسكون المهملة - كما ضبطه الأمير، وقيل بالتصغير - ابن زيد بن الحارث الخزرجي، وبين الحصين بن الحارث أخي عُبَيْدَةَ وعبد الله بن جُبَيْر - بلفظ تصغير جبر - [ابن النعمان الأوسِي]، وبين عثمان بن مظعون - بالظاء المعجمة المُشَالَةَ - [ابن حبيب بن وهب القرشي الجَمَحِي] والعباس بن [عُبَادَةَ بن] نَضْلَةَ - بالنون والضاد المعجمة، وذكر سُنَيْد بَدَل العباس أبا الهيثم بن التَّيْهَان - بفتح الفوقية وكسر التحتية المُشَدَّدَةَ، وبين عُتْبَةَ بن غزوان - بغين مفتوحة فزاي ساكنة معجمتين - ومُعَاذ بن مَاعِص - بعين فصاد مهملتين ويقال فيه ناعص - [ابن قيس بن خَلْدَةَ بن عامر بن زُرَيْق]، وبين صَفْوَانَ [بن وهب بن ربيعة القرشي الفهري وهو المعروف] بابن بيضاء ورافع بن المُعَلَّى - بلفظ اسم المفعول من العُلُو بالعين المهملة - [ابن لَوْذَانَ بن حارثة]، وبين المقداد بن عمرو وعبد الله بن رَوَاحَةَ، وبين ذي السَّمَالِينَ [بن عبد عمرو بن نضلة بن عُبَيْشَانَ] ويزيد بن الحارث وبين أبي سَلَمَةَ بن عبد الأسد - بالمهملة - وسَعْد بن خَيْثَمَةَ - بخاء معجمة فتحتية فثاء مثلثة، وبين عامر بن أبي وَقَاصٍ وَخُبَيْب - بخاء معجمة مضمومة فموحدة مفتوحة - ابن عَدِيٍّ، وبين عبد الله بن مظعون وَقُطَيْبَةَ - بلفظ تأنيث قُطْب - ابن عامر، وبين سَمَاس - بشين معجمة مفتوحة فميم مُشَدَّدَةَ فالف فسین مهملة - ابن عثمان وحنظلة بن أبي عامر^(١)، وبين الأرقم بن أبي الأرقم وطلحة بن زيد الأنصاري، وبين زيد بن الحَطَّاب، ومَعْن بن عَدِيٍّ، وبين عمرو بن سُرَاقَةَ وسَعْد بن زيد الأشهلي، وبين عَاقِل

(١) حنظلة بن أبي عامر بن صيفي بن مالك بن أمية بن ضبيعة بن زيد بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس بن حارثة الأنصاري الأوسي المعروف بغسيل الملائكة. وكان أبوه في الجاهلية يعرف بالزاهب واسمه عمرو ويقال: عبد عمرو وكان يذكر البعث ودين الحنيفة فلما بُعث النبي ﷺ عانده وحسده وخرج عن المدينة وشهد مع قريش وقعة أُحُد ثم رجع مع قريش إلى مكة ثم خرج إلى الروم فمات بها سنة تسع، ويقال: سنة عشر، وأعطى هرقل ميراثه لكنانة بن عبد باليز الثقفي وأسلم ابنه حنظلة فحسن إسلامه واستشهد بأحد لا يختلف أصحاب المغازي في ذلك. الإصابة ٤٤/٢، ٤٥.

- بعين مهملة وبعد الألف قاف - ابن البُكَيْر - بموحدة تصغير بَكر - ومُبَشَّر بن عبد المُنذِر،
 وبين عبد الله بن مَخْرَمَة وفَزْوَة بن عَمْرٍو البياضي، وبين خُنَيْس - بخاء معجمة مضمومة ونون
 مفتوحة فتحية ساكنة فسین مهملة - ابن حُدَافَة، والمُنذِر بن محمد بن عُقْبَة بن أُخْبَة
 - بمهملتين - تصغير أخته، وبين أبي سَبْرَة - بسین مهملة مفتوحة فموحدة ساكنة - ابن أبي رَافِع
 - وهو بضمّ الراء وسكون الهاء، وعُبَادَة بن الخَشْحَاش - بخاءين الأولى مفتوحة وشينين الأولى
 ساكنة مُفَجَّمَات، كما ذكره الأمير، وبين مِشْطَح - بميم مكسورة فسین مهملة فطاء مفتوحة
 وحاء مهملتين - ابن أَثَاثَة - بالضم ومثلثين مُخَفَّفَة - وزيد بن المزين - ضبطه الدارقطني والأمير
 بضم الميم وفتح الزاي وآخره نون مُصَغَّر، وشَدَّد أبو عَمْرٍو بِخَطِّه التحتية - والله أعلم، وبين أبي
 مَرْثَد - بفتح السيم وسكون الراء فثاء مثلثة - العَنَوِي - بالعين المعجمة المفتوحة والنون -
 وعُبَادَة بن الصامت، وبين عَكَّاشَة بعين مهملة مضمومة فكاف تشديدها أفصح من تخفيفها
 - ابن مِخْصَن - بكسر الميم، - والمُجَدَّر - بضم الميم وفتح الجيم وتشديد الذال المعجمة
 المفتوحة ثم راء - ابن ذِيَاد - بكسر الذال المعجمة وتخفيف التحتية في آخره دال مهملة،
 وقيل إنه بفتح أوله وتشديد ثانيه، وبين عامر بن فَهَيْرَة - بالتصغير - والحارث بن الصُّمَّة
 - بكسر الصاد المهملة وتشديد الميم، - وبين مِهْجَع - بكسر الميم وسكون الهاء وفتح الجيم -
 مَوْلَى عُمَر، وشُرَاقَة بن عَمْرٍو بن عطية.

تنبيهات

الأول: قال في الروض: «أخى رسول الله ﷺ بين أصحابه حين نزلوا المدينة لتذهب
 عنهم وَخْشَة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد أزر بعضهم ببعض، فلما عزَّ
 الإسلام واجتمع الشُّنل وذهبت الوَخْشَة أنزل الله سبحانه: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى
 بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال ٧٥] أعني في الميراث، ثم جعل المؤمنين كلهم إخوة يعني
 في التوادد وشمول الدعوة».

الثاني: اختلف في ابتدائها فقيل بعد الهجرة بخمسة أشهر، وقيل بتسعة، وقيل وهو
 بيني المسجد، وقيل قبل بنائه، وقيل بستة، وقيل بثلاثة أشهر وقيل بدر، وتقدم عن أنس بن
 مالك أن ذلك كان في داره، وذكر أبو سعد النيسابوري في الشرف أن ذلك كان في
 المسجد. فالله أعلم.

الثالث: أنكر الواقدي مؤاخاة سَلْمَانَ لأبي الدرداء لأن سَلْمَانَ إنما أسلم بعد وقعة
 أُحُد، وأول مشاهدته الخندق. وأجاب الحافظ بأن التاريخ المذكور [هو] للأخوة الثانية وهو
 ابتداء الأخوة، واستمر ﷺ يُجَدِّدها بحسب من يدخل في الإسلام ويحضر إلى المدينة،

رئيس باللازم أن تكون المؤاخاة وقت زقمة واحدة حتى يرد هذا التعقيب. وبما أجاب به الحافظ يجاب به عن مؤاخاة أبي ذرٍّ والمنذر بن عمرو، وعن مؤاخاة حذيفة وعمار، وعن مؤاخاة جعفر ومعاذ بن جبل، ويقال بأن معاذاً أزيد لمؤاخاة جعفر حتى يتقدم.

الرابع: نقل محمد بن عمرو، عن الزهري أنه أنكر كل مؤاخاة وقعت بعد بدر، ويقول: قَطَعَتْ بَدْرُ الموارِيث. قال الحافظ رحمه الله تعالى: وهذا لا يدفع المؤاخاة من أصلها، وإنما يدفع المؤاخاة المخصوصة التي كانت عُقِدَتْ بينهم ليتوارثوا بها.

الخامس: أنكر الحافظ أبو العباس بن تيمية المؤاخاة بين المهاجرين وخصوصاً مؤاخاة النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه. قال: لأن المؤاخاة شرعت لإرفاق بعضهم بعضاً ولتألف قلوب بعضهم على بعض، فلا معنى لمؤاخاته لأحد ولا لمؤاخاة مهاجري لمهاجري. قال الحافظ: «وهذا ردٌّ للنصِّ بالقياس وإغفال عن حكمة المؤاخاة لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة والقوة، فوَاخَى بين الأعلى والأدنى ليرتفع الأدنى بالأعلى ويستعين الأعلى بالأدنى، وبهذا تظهر حكمة مؤاخاته ﷺ لعلي رضي الله عنه، لأنه هو الذي كان يقوم بعلي من عهد الصِّبَا قبل البعثة واستمر، وكذلك مؤاخاة حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة لأن زيدا مولاهم، فقد بُنِيَتْ إخوتهما وهما من المهاجرين، وفي الصحيح في عُمرَةَ القضاء أن زيدا قال: «إن ابنة حمزة ابنة أخي». وأخرج الحاكم وابن عبد البر بسندٍ حسن عن أبي الشعثاء^(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أخى النبي ﷺ بين الزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود، وهما من المهاجرين، وأخرجه الضياء المقدسي في المختارة، وابن تيمية يُصَرِّح بأن أحاديث المختارة أصح وأقوى من أحاديث المشدرك، قلت: يأتي الكلام مبسوطاً على أخوة النبي ﷺ في ترجمة علي رضي الله عنه عند ذكر تراجم العشرة إن شاء الله تعالى.

السادس: روى الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن جبان عن شعبة بن التوام - بفتح الفوقية والهمزة - أن رسول الله ﷺ قال: «لا جِلْفَ في الإسلام»^(٢)، زاد شعبة بن التوام: «ولكن تَمَسَّكُوا بِجِلْفِ الجاهلية». انتهى. «وأجما - وفي لفظ: كل - جِلْفَ كان في

(١) جابر بن زيد الأزدي أبو الشعثاء الجوفي بفتح الجيم البصري الفقيه، أحد الأئمة، عن ابن عباس فأكثر ومعاوية وابن عمر. وعنه قتادة وعمرو بن دينار وأيوب وخلق. قال ابن عباس: هو من العلماء. قال أحمد: مات سنة ثلاث وتسعين. وقال ابن سعد: سنة ثلاث ومائة. الخلاصة ١٥٦/١.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ١٩٦١/٤. (٢٠٦. ٢٥٣٠) وأبو داود (٢٩٢٥) وأحمد في المسند ١/١٩٠ والبيهقي في السنن ٢٦٢/٦ وعبد الرزاق (١٠٤٣٧) والطبراني في الكبير ٢٨٢/١١ والحاكم ٢٢٠/٢ والدارمي ٢٤٣/٢.

الجاهلية لم يَزِدْهُ الإسلام إلا جِدَّةً وشِدَّةً، وما يَسْرُنِي أن لي حُمرَ النعم وأنِّي نقضتُ الحلف الذي كان في دار الندوة».

وروى البخاري في الكفالة وفي الاعتصام، ومسلم في الفضائل، وأبو داود في الفرائض عن عاصم بن سليمان الأحول قال: «قلت لأنس بن مالك: أبلغك أن النبي ﷺ قال: لا جِلْفَ في الإسلام؟ قال: قد حالف النبي ﷺ بين قريش والأنصار في داري»^(١). قال الطبراني: ما استدلَّ به أنس على إثبات الحلف لا يُتَافَى الأحاديث السابقة في نفيه، فإن الإخاء المذكور كان في أول الهجرة، وكانوا يتوارثون به، ثم نُسِخَ من ذلك الميراث، وبقي ما لم يُنْطَلِهُ القرآن وهو التعاون على الحق والنصر والأخذ على يد الظالم، كما قال ابن عباس: «إلا النصر والنصيحة»، ويوصي به فقد ذهب الميراث.

وقال الخطَّابي: قال ابن عيينة: حالف بينهم: أي آخى بينهم، يريد أن معنى الجِلْفِ في الجاهلية معنى الحلف في الإسلام جارٍ على أحكام الدين وحدوده، وحلف الجاهلية جارٍ على ما كانوا يتواضعونه بينهم، فَبَطَلَ منه ما خَالَفَ حكم الإسلام وبَقِيَ ما عدا ذلك على حاله.

والجِلْفُ - بكسر الحاء المهملة وسكون اللام بعدها فاء، قال في النهاية: أصله المُعَاقِدَةُ والمُعَاهِدَةُ على التعاضد والتساعد والاتفاق، فما كان منه في الجاهلية على الفِتْنِ والقتال بين القبائل والغارات، فذلك الذي ورد النهي عنه في الإسلام بقوله ﷺ: «لا جِلْفَ في الإسلام». وما كان منه في الجاهلية على نُضْرِ المظلوم وِصْلَةِ الأرحام كجِلْفِ المُطَّيِّبِينَ وما جرى مُجْرَاهُ فذلك الذي قال فيه ﷺ: «وأَيُّما جِلْفَ كان في الجاهلية لم يَزِدْهُ الإسلام إلا شِدَّةً»، يُريد من المُعَاقِدَةِ على الخير ونُضْرَةِ الحق [وبذلك يجتمع الحديثان وهذا هو الجِلْفُ الذي يقتضيه الإسلام والممنوع منه ما خَالَفَ حُكْمَ الإسلام] والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) أخرجه البخاري ٥١٧/١٠ (٦٠٨٣) ومسلم في الموضع السابق (٢٠٥ - ٢٥٢٨).

الباب السادس

في قصة تحويل القبلة

روى ابن إسحاق وابن سعد، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والستة، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدارقطني، والبيهقي عن البراء بن عازب، وابن إسحاق وابن أبي شيبة، وأبو داود والنحاس في ناسخهما، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأبو داود في ناسخه عن أبي العالية مُرسلاً، ويحيى بن الحسن العلوي في أخبار المدينة عن رافع بن خديج رضي الله عنه، والإمام مالك، وعبد بن حميد والشيخان، وأبو داود في ناسخه، والنسائي، ويحيى بن الحسن، عن عثمان بن محمد بن الأحنس، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة، والزبير بن بكار عن عثمان بن عبد الرحمن، وابن سعد عن محمد بن عبد الله بن جحش، وابن جرير عن مجاهد، يزيد بعضهم على بعض: «أن أول ما نُسخ من القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله ﷺ كان يصلي وهو بمكة نحو بيت المقدس، والكعبة بين يديه». وقال ابن جرير، كما عند ابن جرير: «صلى النبي ﷺ أول من صلى إلى الكعبة ثم صُرف إلى بيت المقدس وهو بمكة فصلى ثلاث حجج ثم هاجر». ولما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود أمره الله سبحانه وتعالى أن يستقبل صخرة بيت المقدس، فعرض اليهود بذلك، وكان رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس. وكان يُعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، لأن اليهود قالوا: «خالفنا محمد ويتبع قبلتنا».

وقال جبريل ﷺ: «وَدِدْتُ أَنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ صَرَفَنِي عَنْ قِبْلَةِ يَهُودٍ إِلَى غَيْرِهَا»، فقال جبريل عليه السلام: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ مِثْلُكَ لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً إِلَّا مَا أَمَرْتُ بِهِ، فَادْعُ اللَّهَ تَعَالَى». فكان رسول الله ﷺ يدعو الله تعالى وَيُكْثِرُ النَّظَرَ إِلَى السَّمَاءِ يَنْتَظِرُ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى، وخرج رسول الله ﷺ زائراً أم بشر بن البراء بن معرور، في بني سَلَمَةَ - بكسر اللام - فصنعت له طعاماً، وحانت صلاة الظهر، فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه في مسجد هناك الظهر، فلما صلى ركعتين نزل جبريل فأشار إليه أن صل إلى البيت، وصلى جبريل إلى البيت فاستدار رسول الله ﷺ إلى الكعبة، واستقبل الميزاب. فَتَحَوَّلَ النِّسَاءُ مَكَانَ الرِّجَالِ وَالرِّجَالُ مَكَانَ النِّسَاءِ، فَهِيَ الْقِبْلَةُ الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿فَلَنَوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة ١٤٤] فَسُمِّيَ ذَلِكَ الْمَسْجِدَ مَسْجِدَ الْقِبْلَتَيْنِ. وَكَانَ الظُّهْرُ يَوْمَئِذٍ أَرْبَعًا: اثْنَانِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَاثْنَانِ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَخَرَجَ عَبَادُ بْنُ بَشَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ صَلَّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَرَّ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْأَنْصَارِ بَيْنِي حَارِثَةَ - بِالْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ وَالشَّاءِ الْمَثَلِثَةِ - وَهُمْ رَاكِعُونَ فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ، فَقَالَ: «أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ الْبَيْتِ». فَاسْتَدَارُوا.

قال رافع بن خديج: «وأتانا آت ونحن نصلي في بني عبد الأشهل فقال: إن رسول الله ﷺ قد أمر أن يوجه إلى الكعبة، فأدارنا إمامنا إلى الكعبة ودُزنا معه». قال ابن عمر: «وبينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت - قال ابن طاهر المقدسي: هو عبّاد بن بشر أيضاً - فقال: «إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة».

وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان رسول الله ﷺ يُصلي قبل بيت المقدس وأهل الكتاب فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك. وقال المنافقون: «خر محمد إلى أرضه». وقال المشركون: «أراد محمد أن يجعلنا قبلة له ووسيلة، وعرف أن ديننا أهدى من دينه، ويوشك أن يكون على ديننا».

وقال اليهود للمؤمنين: ما صرفكم عن قبلة موسى ويعقوب وقبلة الأنبياء؟ والله إن أنتم إلا قوم تفتنون. وقال المؤمنون: لقد ذهب منا قوم ماتوا وما ندري أكنّا نحن وهم على قبلة أو لا. وأتى رسول الله ﷺ رفاعة بن قيس، وكزّدم بن عمرو، وكعب بن الأشرف، ورافع بن أبي رافع، والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف، والربيع وكنانة ابنا الربيع بن أبي الحقيق. بلفظ تصغير حق - فقالوا: «يا محمد ما ولأك عن قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟ ارجع إلى قبلك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك». وإنما يريدون بذلك فتنة عن دينه، فأنزل الله عز وجل: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ - الجهال واليهود والمشركون والمنافقون ﴿مَا وَلَاهُمْ﴾ - أي صرفهم - ﴿عَنْ قِبَلَتِهِمْ﴾ - التي كانوا على استقبالها في الصلاة وهي بيت المقدس، والإنيان بالسین الذالة على الاستقبال من الإخبار بالغيب - ﴿الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ - أي الجهات كلها، فيأمر بالتوجه إلى أية جهة شاء لا اعتراض عليه - ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ - هدايته - ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة ١٤٢] - دين الإسلام، أي ومنهم أنتم، ذل على هذا ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي كما هديناكم إليه ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ يا أمة محمد ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ خياراً عدولاً ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ يوم القيامة أن رسلهم بلغتهم ﴿وَيَكُونَ الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ أنه بلغكم ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ صيرنا ﴿الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ أولاً وهي جهة بيت المقدس وكان رسول الله ﷺ يُصلي إليها قالفاً لليهود فصلّى إليها ستة أو سبعة عشر شهراً ثم حوّل ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ علم ظهور ﴿مَنْ يَتَّبِعِ الرُّسُولَ﴾ فيصدقه ﴿مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ﴾ أي يرجع إلى الكفر شكاً في الدين وظناً أن النبي في حيرة من أمره، وقد ارتد ذلك جماعة ﴿وَإِنْ﴾ مُحَقَّقَةٌ من الثقبلة واسمها محذوف، أي وإنها ﴿كَانَتْ﴾ التولية إليها - ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ شاقة على الناس ﴿إِلَّا﴾

عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ يُضَيِّعُ إِيمَانَكُمْ ﴾ أَي صَلَاتِكُمْ إِلَى بَيْتِ
المقدس بل يشيكم عليها لأن سبب نزولها السؤال عن مات قبل التحويل ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ ﴾
المؤمنين ﴿ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة ١٤٣] في عدم إضاعة أعمالهم، والرأفة شدة الرحمة
وقدم الأبلغ للفاصلة.

﴿ قَدْ ﴾ للتحقيق ﴿ نَرَى ثَقَلَبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ أَي تَصَرَّفَ وَجْهَكَ فِي جِهَةِ
السَّمَاءِ تَطَلُّعاً إِلَى الْوَحْيِ، وَتَشَوُّقاً لِلْأَمْرِ بِاسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ وَكَانَ يَوَدُّ ذَلِكَ لِأَنَّهَا قِبْلَةُ إِبْرَاهِيمَ وَلِأَنَّهُ
أَدْعَى إِلَى إِسْلَامِ الْعَرَبِ ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ ﴾ نُحُولَكَ ﴿ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ تُحِبُّهَا ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ اسْتَقْبَلْ فِي الصَّلَاةِ نَاحِيَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَي الْكَعْبَةِ ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ ﴾
خَطَاباً لِلأُمَّةِ ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ ﴾ فِي الصَّلَاةِ ﴿ شَطْرَهُ ﴾ ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ
أَنَّهُ ﴾ أَي التَّوَلَّى إِلَى الْكَعْبَةِ ﴿ الْحَقُّ ﴾ الثَّابِتُ ﴿ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ لِمَا فِي كُتُبِهِمْ مِنْ نَفْسِ النَّبِيِّ ﷺ
مَنْ أَنَّهُ يَتَّحَوَّلُ إِلَيْهَا ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة ١٤٤] [قرئت] بالتاء أي أيها
المؤمنون من امثال أمره، وبالياء أي اليهود من إنكار القبلة.

﴿ وَلَئِنْ ﴾ لَام قَسَمٌ ﴿ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ ﴾ عَلَى صِدْقِكَ فِي أَمْرِ الْقِبْلَةِ
﴿ مَا تَبِعُوا ﴾ أَي لَمْ يَتَّبِعُوا ﴿ قِبْلَتَكَ ﴾ عِنَاداً ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ قَطَعَ لَطَمِعِهِ فِي إِسْلَامِهِمْ
وَطَمِعِهِمْ فِي عَوْدِهِ إِلَيْهَا ﴿ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ أَي الْيَهُودُ قِبْلَةَ النَّصَارَى وَبِالعكس
﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ الَّتِي يَدْعُونَكَ إِلَيْهَا ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ الْوَحْيِ ﴿ إِنَّكَ
إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة ١٤٥] أَي إِنْ أَتَيْتَهُمْ قَرْضاً.

تنبيهات

الأول: تصوير ما ذكر من تحويل الرجال مكان النساء وتحويل النساء مكان الرجال أن
الإمام يتحول من مكانه في مُقَدِّمِ الْمَسْجِدِ إِلَى مُؤَخَّرِهِ، لِأَنَّ مِنْ اسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ بِالْمَدِينَةِ فَقَدْ
اسْتَدْبَرَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، وَهُوَ لَوْ دَارَ كَمَا هُوَ مَكَانَهُ لَمْ يَكُنْ خَلْفَهُ مَكَانَ يَتَمَعُ الصَّفُوفِ، فَلَمَّا
تَحَوَّلَ الْإِمَامُ تَحَوَّلَتِ الرِّجَالُ حَتَّى صَارُوا خَلْفَهُ، وَتَحَوَّلَتِ النِّسَاءُ حَتَّى صِرْنَ خَلْفَ الرِّجَالِ. وَهَذَا
يَسْتَدْعِي عَمَلًا كَثِيرًا فِي الصَّلَاةِ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ ذَلِكَ وَقَعَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الْعَمَلِ الْكَثِيرِ، كَمَا كَانَ قَبْلَ
تَحْرِيمِ الْكَلَامِ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ اغْتِيَابُ الْعَمَلِ الْمَذْكُورِ لِأَجْلِ الْمَصْلُحَةِ الْمَذْكُورَةِ، أَوْ لَمْ يَتَوَالَ
الخطأ عند التحويل بل وقعت متفرقة.

الثاني: اختلف في تاريخ تحويل القبلة، فقال البراء بن عازب كما عند البخاري: كان
على رأس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً. وقال ابن عباس كما عند ابن إسحاق، وأبي داود في
ناسخه سبعة عشر شهراً. وكذا قال عمرو بن عوف كما عند البزار والطبراني. وقال ابن عباس

أيضاً كما عند ابن أبي شيبه وأبي داود في ناسخه، والطبراني والزهري كما عند البيهقي، وسعيد بن المسيب كما عند الإمام مالك وأبي داود فيه، وابن جرير وقتادة كما عند عبد بن حميد، وابن المنذر «على رأس ستة عشر شهراً». وقال أنس بن مالك كما عند البزار، وابن جرير تسعة عشر شهراً. قال الحافظ: «فطريق الجمع بين رواية ستة عشر وسبعة عشر شهراً، ورواية الشك في ذلك: أن من جزم بستة عشر لفق من شهر القدوم وشهر التحويل شهراً وألغى الأيام الزائدة، ومن جزم بسبعة عشر عدّهما معاً، ومن شك تزدّد في ذلك، وذلك أن القدوم كان في شهر ربيع الأول بلا خلاف وكان التحويل بعد الزوال في نصف شهر رجب من السنة الثانية على الصحيح، وبه جزم الجمهور، ورواه الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس. وقول ابن جبان: سبعة عشر شهراً وثلاثة أيام مَبْنِي على أن القدوم كان في ثاني ربيع الأول، وأسانيد رواية ثلاثة عشر وثمانية عشر وتسعة عشر شهراً، وعشرة أشهر، ورواية شهرين، ورواية سنتين هي أسانيد ضعيفة، والاعتماد على الثلاثة الأول.

الثالث: اختلف في أي شهر كان تحويل القبلة. فقال محمد بن حبيب: في نصف شعبان، وهو الذي ذكره النووي في الروضة وأقرّه، مع كونه رجح في شرحه على صحيح مسلم رواية ستة عشر شهراً لكونها مجزوماً بها عند مسلم. ولا يستقيم أن يكون ذلك في شعبان إلا بإلغاء شهرَي القدوم والتحويل. وجزم موسى بن عُقبة بأن التحويل كان في جمادى الآخرة.

الرابع: اختلف في أي صلاة كان التحويل، ففي الصحيح عن البراء بن عازب أن أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ هي صلاة العصر، والأكثر على أنها صلاة الظهر. قال الحافظ: والتحقيق أن أول صلاة صلاها في بني سَلِمة - بكسر اللام - الظهر، وأول صلاة صلاها بالمسجد النبوي العصر، وأما الصبح فهو لأهل قُباء.

الخامس: اختلف في صلاة النبي ﷺ إلى بيت المقدس وهو بمكة، فروى ابن ماجه عن طريق أبي بكر بن عيّاش عن البراء أنه قال: «صَلَّيْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ثَمَانِيَةَ عَشْرِ شَهْرًا، وَصُرِفَتْ الْقِبْلَةُ إِلَى الْكَعْبَةِ بَعْدَ دُخُولِ الْمَدِينَةِ بِشَهْرَيْنِ». وظاهره أنه كان يصلي بمكة إلى بيت المقدس مَخْضاً. وحكى الزهري بخلافه في أنه جعل الكعبة خلف ظهره أو أنه جعلها بينه وبين بيت المقدس، وعلى الأول فكان يجعل الميزاب خلفه، وعلى الثاني كان يَصَلِّي بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ الْيَمَانِيَيْنِ. وزعم ناس أنه لم يزل يستقبل الكعبة بمكة، فلما قَدِمَ الْمَدِينَةَ اسْتَقْبَلَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ نَسِيَ. قال الحافظ: «وهذا ضعيف ويلزم منه دَعْوَى النَّسَخِ مَرَّتَيْنِ، وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ لِأَنَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ. وَقَدْ صَحَّحَهُ الْحَاكِمُ وَغَيْرُهُ. وَحَمَلُ أَبُو عَمْرٍ هَذَا

القول على الثاني ويؤيده في حمله على ظاهره إمامة جبريل، ففي بعض حُرُوقه أن ذلك كان عند البيت. وروى ابن جرير وغيره بسندٍ جيّدٍ قوِيٍّ عن ابن عباس قال: «لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وأمره الله تعالى أن يستقبل بيت المقدس» إلى آخره، وظاهره أن استقبال بيت المقدس إنما وقع بعد الهجرة إلى المدينة، لكن روى الإمام أحمد من وجه آخر عن ابن عباس قال: «كان النبي ﷺ يُصَلِّي وهو بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه»^(١). ورواه ابن سعد أيضاً وسنّده جيّد قوِيٍّ والجمع بينهما ممكن بأن يكون أمير لما هاجر أن يستمر على الصلاة إلى بيت المقدس.

وقوله في حديث ابن عباس الأول: «أمره الله» يردّ قول من قال: «إنه ﷺ صَلَّى إلى بيت المقدس باجتهاده»، كما رواه ابن جرير عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف. وعن أبي العالية أنه صَلَّى إلى بيت المقدس يتألف بذلك أهل الكتاب، وهذا لا ينبغي إلا بتوقيف.

السادس: الذين ماتوا قبل فرض الصلاة وقبل تحويل القبلة من المسلمين عشر أنفس: بمكة من قريش ١ عبد الله بن شهاب ٢ والمطلب بن أزهري، الزهريّان، ٣ والسكران بن عمرو العامري. وبأرض الحبشة منهم: ٤ خطّاب بن الحارث الجصّجيّ - خطّاب بالحاء المهملة - ٥ وعمرو بن أمية الأسدي، ٦ وعبد الله بن الحارث السهمي. ٧ وعزوة بن عبد العزّي، ٨ وعدي بن نضلة - بالنون والضاد المعجمة - العدويّان - ومن الأنصار بالمدينة: ٩ البراء بن معرور - بمهملات، ١٠ وأشد بن زرارة. فهؤلاء العشرة متفق عليهم، ومات في المدة أيضاً إياس بن معاد الأشهلي لكنه مختلف في إسلامه.

السابع: وقع في رواية زهير بن معاوية في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه في صحيح البخاري وغيره: أنه مات على القبلة - أي قبلة بيت المقدس من قبل أن تحوّل [قبلة البيت] - رجال قُتلوا [فلم ندر ما نقول فيهم]. قال الحافظ: «ذكر القتل لم أره إلا في رواية الزهري وباقي الروايات إنما فيها ذكر الموت فقط، ولم أجد في شيء من الأخبار أن أحداً من المسلمين قُتل قبل تحويل القبلة، لكن لا يلزم من عدم الذكر عدم الوقوع، فإن كانت هذه اللفظة محفوظة فتحمّل على أن بعض المسلمين ممن لم يشتهر قُتل في تلك المدة في غير الجهاد ولم يُضبط لقلة الاعتناء بالتاريخ إذ ذاك». قال: «ثم وجدت في التاريخ ذكر رجل

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣٢٥/١ وذكره الهيثمي في المجمع ١٥/٢ وزاد نسبه للطبراني في الكبير والبخاري وقال: ورجاله رجال الصحيح.

اختلف في إسلامه وهو سويد بن الصامت^(١) فذكر ما تقدم في بدء إسلام الأنصار. ثم قال الحافظ: «فيحتمل أن يكون هو المراد» قال: وذكر لي بعض الفضلاء أنه يجوز أن يُراد من قُتل بمكة من المُشْتَضَعَيْن كأبوي عمّار فقلت: يحتاج إلى ثبوت أن قتلها بعد الإسراء.

الثامن: في بيان غريب ما سبق:

«ججج»، بكسر الحاء المهملة وفتح الجيم الأولى وكسر الثانية [أي سنين].

«قيل» البيت - بكسر القاف وفتح الموحدة - : أي جهته.

«مغرور»^(٢) بعين مهملة.

«حانت» الصلاة: دنا وقتها.

(١) سويد بن الصامت بن خالد بن عقبة الأوسي. ذكره ابن شاهين وقال: شك في إسلامه وقال أبو عمر: أنا أشك فيه كما فيه غيري. الإصابة ١٨٩/٣.

(٢) انظر اللسان ٢٨٧٦/٤.

جماع أبواب بعض أمور دارت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين اليهود والمنافقين ونزول صدر من سورة البقرة وغيره من القرآن في ذلك

الباب الأول

في أخذ الله سبحانه وتعالى العهد عليهم في كتبهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، إذا جاءهم، واعتراف جماعة منهم بنبوته، ثم كفر كثير منهم بغياً وعناداً:

فذكرت أحاديث كثيرة في أول الكتاب وأذكر ما لم أذكر هناك. قال الله سبحانه وتعالى ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة ۴۰] روى ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن المنذر عن ابن مسعود رضي الله عنه في الآية، قال الله تعالى للأخبار من يهود: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي من بلائي عندكم وعند آبائكم لما كان نجاهم به من فرعون وقومه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ الذي أخذت في أعناقكم للنبي محمد ﷺ إذا جاءكم ﴿أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ﴾ يقول: أرض عنكم وأدخلكم الجنة. وروى ابن جرير عن أبي العالية في الآية قال: يقول: يا معشر أهل الكتاب، آمنوا بما أنزلت على محمد مُصَدِّقاً لما معكم لأنهم يجدونه عندهم مكتوباً في التوراة والإنجيل، ولا تكونوا أول كافر به، وبمحمد ﷺ. وروى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة ۴۲] أي لا تخلطوا الصدق بالكذب ﴿وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة ۴۲] أي لا تكتموا الحق وأنتم قد علمتم أن محمداً ﷺ رسول الله. وروى عبد بن حميد عن قتادة قال: ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام وأنتم تعلمون أن دين الله الإسلام، وأن اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله تعالى: ﴿وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه رسول الله ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف ۱۵۷] وروى ابن جرير عن الشدي في قوله ﴿وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ﴾ قال: هو محمد ﷺ. وروى البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: وصف الله محمداً في التوراة، أكحل العين، ربعة، جعد الشعر، حسن الوجه، فلما قديم رسول الله ﷺ حسده أخبار يهود، فغيروا صفة في كتابهم وقالوا: لا نجد نعتة عندنا، وقالوا: نجد النبي الأمي طويلاً أزرق سبط الشعر، وقالوا للسفلة: ليس هذا نعت النبي الذي يحرم كذا

وكذاه كما كتبوه، وغيروا نعت هذا كما وُصِف، فلَبَسوا بذلك على الناس. وإنما فعلوا ذلك لأن الأحبار كانت لهم مأكلة يُطعمهم إياها السَّفلة لقيامهم على التوراة، فخافوا أن يؤمن السَّفلة فتقطع تلك المأكلة.

وروى البيهقي عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة رضي الله عنهم قالوا: «كانت العرب تُمرُّ باليهود فيؤذونهم، وكانوا يجدون محمداً ﷺ في التوراة فيسألون الله تعالى أن يبعثه فيقاتلون معه العرب، فلما جاءهم كفروا به حين لم يكن من بني إسرائيل». وروى ابن إسحاق وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأبو نُعَيْم عنه من طُرق، وعَبْدُ بن حَمِيد، وابن جرير، وأبو نُعَيْم عن قتادة: أن يهود أهل المدينة قبل قدوم رسول الله ﷺ، كانوا إذا قاتلوا من يليهم من مُشْرِكِي العرب من أسد وعطفان وجُهينة وعذرة يستفتحون يدعون الله على الذين كفروا ويقولون: «اللهم إنا نستنصر بحق محمد النبي الأمي إلا نصرتنا عليهم»، فيُنصرون. وكانوا يقولون: «اللهم ابعث النبي الأمي الذي نجده في التوراة الذي وعدتنا أنك باعته في آخر الزمان». فلما جاءهم ما عرفوا، كفروا به حسداً للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ. فقال لهم مُعَاذُ بن جَبَل، وبشر بن البراء أخو بني سَلِمة: يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك وتخبروننا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته.

وروى ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جُرَيْج عن بعض من أسلم من أهل الكتاب، قال: «والله لَنَحْنُ أعرف برسول الله منا بأبنائنا من أجل الصفة والنعت الذي نجده في كتابنا، أما أبنائنا فلا نذري ما أخذت النساء» وروى ابن إسحاق، والبيهقي، وأبو نُعَيْم عن أم المؤمنين صَفِيَّة بنت حُيَيِّ رضي الله عنها أنها قالت: «لم يكن أحدٌ من وُلْدِ أَبِي وَعَمِّي أَبِي ياسر أحب إليهما مِنِّي، لم ألقهما قط مع وُلْدِ لهما إلا أخذاني دونه. فلما قَدِمَ رسول الله ﷺ - قُبَاءَ قرية بني عمرو بن عَوْفٍ غَدَا إليه أَبِي، حُيَيِّ بن أخطب وعمِّي أبو ياسر بن أخطب مُغْلَسَيْنِ، فوالله ما جاءنا إلا مع مغيب الشمس، فجاءنا بأمر أَبِي كَبْشَةَ [كَالَيْنِ كَشْلَانَيْنِ] ساقطين يمسيان الهونتي فهششت إليهما كما كنت أضع، فوالله ما نظر إليّ واحدٌ منهما، فسَمِعْتُ عمِّي أبا ياسر وهو يقول لأبي حُيَيِّ بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم. قال: أتقرُّه بِنَعْتِهِ وَصِفَتِهِ؟ قال: نعم والله. قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت».

وذكر ابن عُقْبَةَ عن الزُّهْرِيِّ قال: «إن أبا ياسر بن أخطب حين قَدِمَ رسول الله ﷺ - المدينة ذهب إليه فسَمِعَ منه وحاده ثم رجع إلى قومه فقال: يا قوم اطيعوني فإن الله تعالى قد جاءكم بالذي تنتظرونه فأتبعوه ولا تُخالفوه. فانطلق أخوه حُيَيِّ بن أخطب، وهو يومئذ سيّد

يهود، وهما من بني النضير، فجلس إلى رسول الله - ﷺ - وسمع منه، ثم رجع إلى قومه، وكان فيهم مطاعاً. فقال: أتيت من عند رجل والله لا أزال له عدواً. فقال له أخوه أبو ياسر: يا ابن أم أظعني في هذا الأمر واغصني فيما شئت بعد لأهلك. فقال: والله لا أظيئك. فاستحوذ عليه الشيطان، وتبعه قومه على رأيه.

وروى عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد المسند عن جابر بن سمرة رضي الله عنه، أنه قد جاء جزمقانيي^(١) إلى أصحاب محمد - ﷺ - فقال: أين صاحبكم هذا الذي يزعم أنه نبي، لكن سألته لأعلمني نبي هو أو غير نبي. ثم قال الجزمقانيي: «هذا والله الذي جاء به موسى»، الجزمقانيي بجيم مفتوحة فراء ساكنة فميم مفتوحة فقف فالف فنون، منسوب إلى الجرامقة. قال في الصحاح: قوم بالمؤصل أصلهم من العجم، وقال غيره: وجرامقة الشام أنباطها.

وروى البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن خيراً من أحبار اليهود دخل على رسول الله - ﷺ - فواقفه يقرأ سورة يوسف فقال: «يا محمد من علمكها؟ قال: «الله عز وجل علمنيها»، فعجب الخبر لما سمع منه. فرجع إلى اليهود فقال: «إن محمداً ليقرأ القرآن، كما أنزل في التوراة». فانطلق جماعة منهم حتى دخلوا عليه فعرفوه بالصفة، ونظروا إلى خاتم النبوة بين كتفيه، فجعلوا يستمعون إلى قراءته لسورة يوسف، فتعجبوا منه وأسلموا عند ذلك^(٢).

وذكر محمد بن عمر الأسلمي أن النعمان السبئي وكان من أحبار يهود اليمن فلما سمعوا برسول الله - ﷺ - قديم عليه فسأله عن أشياء، ثم قال له: «إن أبي كان يخبئ على سيفر ويقول: «لا تقرأه على يهود حتى تسمع بنبي قد خرج بيثرب، فإذا سمعت به فافتحه». قال النعمان: «فلما سمعت به فتحت السفر فإذا فيه صفتك كما أراك الساعة، وإذا فيه ما تحل وما تحرم، وإذا فيه أنك آخر الأنبياء، وأمتك آخر الأمم، واسمك أحمد، وأمتك قزبانهم دماؤهم، وأناجيلهم صدورهم، لا يخضرون قتالاً إلا وجبريل معهم، ويتحنن الله تعالى عليهم كتحنن الطير على أفراجه، ثم قال لي: إذا سمعت به فاخرج إليه وصدقته». وكان رسول الله - ﷺ - يحب أن يسمع أصحابه حديثه. فأتاه يوماً فقال: «يا نعمان حدثنا»، فابتدأ الحديث من أوله، فرأى رسول الله - ﷺ - يبتسم، ثم قال: «أشهد أنني رسول الله». ويقال إن النعمان هذا هو الذي قتله الأسود العنسي الكذاب وقطعه عضواً عضواً، والنعمان يقول: «أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وأنت كذاب مفتر على الله عز وجل». ثم حرقه بالنار، والآثار في هذا كثيرة لا تحصى.

(١) ذكرت هذه الكلمة بضم الجيم والميم وهو على خلاف ضبط المصنف. انظر اللسان ٦٠٧/١.

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٢/٤ وعزه للبيهقي في الدلائل.

الباب الثاني

في إسلام عبد الله بن سلام بن الحارث أبي يوسف

وهو من ذرية سيدنا يوسف الصديق عليه السلام حليف القواقل من الخزرج، الإسرائيلي ثم الأنصاري رضي الله عنه. كان اسمه الحُصَيْنَ فَعَبَّرَهُ النبي - ﷺ - وكان عالم أهل الكتاب، وكان إسلامه في اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ دار أبي أيوب أول ما قديم، كما في رواية عبد العزيز بن صهيب عند البيهقي. وروى ابن إسحاق عن رجل من آل عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: «لما قديم رسول الله - ﷺ - نزل بقاء في بني عمرو بن عوف. فأقبل رجل حتى أخبر بقدمه..» الحديث. وفيه: «فخرجت إلى رسول الله ﷺ - فأسلمت ورجعت إلى أهل بيتي. قال الحافظ عماد الدين بن كثير: «فَلَعَلَهُ رَأَهُ أَوَّلَ مَا رَأَهُ بِقُبَاءَ واجتمع به بعد ما صار إلى دار بني النجار والله أعلم.»

وروى البخاري والبيهقي عن أنس، وابن إسحاق عن رجل من آل عبد الله بن سلام، والإمام أحمد، ويعقوب بن سفيان عن عبد الله بن سلام، والبيهقي عن موسى بن عقيبة وعن ابن شهاب، قال: لما سمعتُ برسول الله - ﷺ - وعرفت صفته واسمه وهيئته وزمانه الذي كنا نَتَوَكَّفُ لَهُ^(١)، فكننتُ مُسِيرًا بِذَلِكَ صَامِتًا عَلَيْهِ حَتَّى قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - الْمَدِينَةَ، فَلَمَّا قَدِمَ نَزَلَ بِقُبَاءَ فِي بَنِي عَمْرٍو بْنِ عَوْفٍ، فَأَقْبَلَ رَجُلٌ حَتَّى أَخْبَرَ بِقَدُومِهِ، وَأَنَا فِي رَأْسِ نَخْلَةٍ لِي أَعْمَلُ فِيهَا، وَعَمَّتِي خَالِدَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ تَحْتِي جَالِسَةً. فَلَمَّا سَمِعْتُ الْخَبْرَ بِقَدُومِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - كَبُرْتُ. فَقَالَتْ عَمَّتِي حِينَ سَمِعَتْ تَكْبِيرِي: «لَوْ كُنْتُ سَمِعْتُ بِمُوسَى بْنِ عِمْرَانَ مَا زِدْتُ». قُلْتُ لَهَا: «أَيُّ عَمَّةٍ وَهُوَ، اللَّهُ أَخُو مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ، وَعَلَى دِينِهِ، يُعِثُّ بِمَا يُعِثُّ بِهِ». فَقَالَتْ لَهَا: «يَا ابْنَ أَخِي، أَهِيَ النَّبِيُّ الَّذِي كُنَّا نُخْبِرُ أَنَّهُ يُنْعَثُ مَعَ نَفْسِ السَّاعَةِ؟»^(٢) قُلْتُ لَهَا: «نَعَمْ». قَالَتْ: «فَذَلِكَ إِذَا». قَالَ: «فَخَرَجْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ عَرَفْتُ أَنَّهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ سَمِعْتَهُ يَقُولُ: «افشوا السلام، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسَ نِيَامًا، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»^(٣).

وعند البيهقي عن أنس قال: سمع عبد الله بن سلام بقدم النبي - ﷺ - فأتى

(١) توكف الخبر: إذا انتظر. انظر النهاية ٢٢١/٥.

(٢) يُعِثُّ فِي نَفْسِ السَّاعَةِ: أَي يُعِثُّ وَقَدْ حَانَ قِيَامُهَا وَقَرُبَ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَهَا قَلِيلًا، فَيَعِثُّ فِي ذَلِكَ النَّفْسِ، فَأُطْلَقَ النَّفْسُ عَلَى الْقُرْبِ. انظر النهاية ٩٤/٥.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٨٦/٤ (١٨٥٤) وقال: حسن صحيح غريب.

النبى فقال: «إني سائلك عن خلال لا يعلمهن إلا نبى: ما أول أشراط الساعة، وما أول طعام أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ وما هذا السواد الذي في القمر؟» قال: «أخبرني بهن جبريل آنفاً. قال: «جبريل؟» قال: «نعم». قال «عدو اليهود من الملائكة». ثم قرأ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة ٩٧] قال: «أما أول أشراط الساعة: فتأخر تخرج على الناس من المشرق [تسوقهم] إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد حوت، وأما الولد: فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد، وأما السواد الذي في القمر: فإنهما كانا شمسين. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء ١٢] فالسواد الذي رأيت هو المخو». فقال: «أشهد ألا إله إلا الله وأنت رسول الله». ثم رجع إلى أهل بيته فأمرهم فأسلموا وكنتم إسلامه. ثم خرج إلى رسول الله ﷺ - فقال: «يا رسول الله، إن اليهود قد علمت أنني سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، وأنهم قوم بُهت، وأنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني، وقالوا فيّ ما ليس فيّ، فأحب أن تُدخِلني بعض بيوتك». فأدخله رسول الله بعض بيوته، وأرسل إلى اليهود فدخلوا عليه فقال: «يا معشر يهود يا ويلكم اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنني رسول الله قد جئتكم بالحق فأسلموا». فقالوا: ما نعلمه. فقال: «أي رجل فيكم الحُصَيْن بن سلام؟» قالوا: «خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا». فقال: «أرأيتم إن أسلم؟» قالوا: «أعاده الله من ذلك». فقال: «يا بن سلام اخرج إليهم» فخرج عبد الله فقال: «أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله حقاً، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة: اسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله وأؤمن به وأصدقّه وأعرفّه. قالوا: «كذبت أنت شرنا وابن شرنا»، وانتصوه. قال: «هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله، ألم أخبرك أنهم قوم بُهت، أهل عُذْر وكذِب وفجور؟» قال: «وأظهورُ إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث وحسن إسلامها».

بيان غريب ما سبق:

«نفس الساعة» بفتح النون والفاء، أي بُعِثَتْ وقد حان وقت قيامها وقرب، إلا أن الله أخرها قليلاً، فبعتني في ذلك النفس، فأطلق النفس على القرب. وقيل معناه: أنه جعل للساعة

نَفْسًا كَنَفَسَ الْإِنْسَانُ أَرَادَ: إِنِّي بُعِثْتُ فِي وَقْتٍ قَرِيبٍ مِنْهَا أَحْسَنُ فِيهِ بِنَفْسِهَا كَمَا يُحْسِنُ بِنَفْسِ الْإِنْسَانِ إِذَا قَرَّبَ [المرء] مِنْهُ. يَعْنِي بُعِثْتُ فِي وَقْتٍ بَانَتْ أَشْرَاطُهَا فِيهِ وَظَهَرَتْ عَلَامَاتُهَا.

«نَزَعَ»^(١) إِلَى أَبِيهِ فِي الشُّبَّةِ: أَي ذَهَبَ.

«بُهِتَ»: ^(٢) جَمَعَ بَهْتٌ مِنْ بِنَاءِ الْمِبَالِغَةِ فِي الْبُهْتِ مِثْلَ صَبُورٍ وَصَبِيرٍ، ثُمَّ سُكِّنَ تَخْفِيفًا، وَالْبُهْتُ ^(٣) الْكُذْبُ [وَالْإِفْتِرَاءُ].

(١) انظر اللسان ٤٣٩٥/٦.

(٢) انظر اللسان ٣٦٨/١.

(٣) قال في القاموس: البهت: الباطل الذي يتحير من تطلّبه. انظر الترتيب ٣٣٠/١.

الباب الثالث

في مواعده صلى الله عليه وسلم اليهود، وكتبه بينه وبينهم كتاباً بذلك،

ونصبهم العداوة له ولأصحابه حسداً وعدواناً، ونقضهم للعهد

قال ابن إسحاق: «وكتب رسول الله - ﷺ - كتاباً بين المهاجرين والأنصار وأدع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم». أي لما امتنعوا من اتباعه، وذلك قبل الإذن بالقتال وأخذ الجزية ممن أبى الإسلام، وذكر ابن إسحاق نسخة الكتاب وهو نحو ورقتين بغير إسناد، ورواه أبو عبيد في كتاب الأموال^(١) بسند جيد عن الزهري، ولعلي أذكره في أبواب مكاتباته - ﷺ - .

(١) قال أبو عبيد في الأموال: حدثني يحيى بن عبد الله بن بكير وعبد الله بن صالح قالوا: حدثنا الليث بن سعد قال: حدثني عقيل بن خالد عن ابن شهاب أنه قال: بلغني أن رسول الله ﷺ كتب بهذا الكتاب: «هذا الكتاب من محمد النبي رسول الله بين المؤمنين والمسلمين قريش وأهل يثرب ومن تبعهم. فلحق بهم، فحل معهم وجاهد معهم. أنهم أمة واحدة دون الناس. والمهاجرون من قريش - قال ابن بكير: رباعتهم. قال أبو عبيد: والمحفوظ عندنا رباعتهم - يتعاقلون بينهم معاقلتهم الأولى وقال عبد الله بن صالح: رباعتهم، وهو يقدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين والمسلمين، وبنو عوف على رباعتهم يتعاقلون معاقلتهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والمؤمنين. وبنو الحرث بن الخزرج على رباعتهم يتعاقلون معاقلتهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو ساعدة على رباعتهم يتعاقلون معاقلتهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو جشم على رباعتهم يتعاقلون معاقلتهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو النجار على رباعتهم يتعاقلون معاقلتهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالقسط والمعروف بين المؤمنين وبنو عمرو بن عوف على رباعتهم يتعاقلون معاقلتهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو النبيت على رباعتهم يتعاقلون معاقلتهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الأوس على رباعتهم يتعاقلون معاقلتهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً منهم أن يُعينوه بالمعروف في فداء أو عقل، وأن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بنى واتقى منهم دسيمة ظلم أو اثم، أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعه. ولو كان ولد أحدهم. لا يقتل مؤمناً مؤمناً في كافر. ولا ينصر كافراً على مؤمن، والمؤمنون بعضهم موالى بعض دون الناس: وأنه من تبعنا من اليهود فإن له المعروف والأسوة غير مظلومين، ولا متناصر عليهم، وأن سلم المؤمنين واحد، ولا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم وأن كل غزاة غزت يعقب بعضهم بعضاً، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هذا وأقومه. وأنه لا يجير مشرك مאלاً لقريش ولا يمينها على مؤمن، وأنه من اعتبط مؤمناً قتلاً فإنه قود، إلا أن يرضى ولي المقتول بالعقل. وأن المؤمنين عليها كافة. وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة أو آمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو يؤويه. فمن نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه إلى يوم القيامة، لا يقبل منه صرف ولا عدل وأنكم ما اختلفتم فيه من شيء، فإن حكمه إلى الله تبارك وتعالى وإلى الرسول ﷺ. وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. وأن يهود بني عوف ومواليهم وأنفسهم أمة من المؤمنين، لليهود دينهم، وللمؤمنين دينهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يرتغ إلا نفسه وأهل بيته، وأن لليهود بني النجار مثل ما لليهود بني عوف، وأن لليهود بني الحرث مثل ما لليهود بني عوف، وأن لليهود بني جشم مثل ما لليهود بني عوف، وأن لليهود بني ساعدة مثل ما لليهود بني عوف، وأن لليهود الأوس مثل ما لليهود بني عوف، إلا من ظلم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وأنه لا يخرج أحد منهم إلا بأذن محمد ﷺ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النسيحة والنصر للمظلوم. وأن المدينة جوفها حرم لأهل هذه الصحيفة، وأنه ما كان =

وروى ابن عائد عن عُرْوَةَ بن الزبير: أن أول من أتى رسول الله - ﷺ - من اليهود أبو ياسر بن أخطب أخو حَيٍّ بن أخطب، فسمع منه، فلما رجع قال لقومه: «أطيعوني فإن هذا هو النبي الذي كُنَّا ننتظره» فعصاه أخوه، وكان مطاعاً فيهم، فاستحوذ عليهم الشيطان فأتاعوه.

وروى أبو سعيد النيسابوري في الشرف عن سعيد بن جبير قال: «جاء ميمون بن يامين، وكان رأس يهود، إلى رسول الله - ﷺ - فقال: «يا رسول الله ابعث إليهم واجعلني حَكَمًا بينهم فإنهم يرجعون لي» فأدخله داخلاً، ثم أرسل إليهم، فأتوه، فخاطبوه، فقال: «اختاروا رجلاً يكون حَكَمًا بيني وبينكم». قالوا: «قد رَضِينَا ميمون بن يامين». فلما خرج إليهم قال: «أشهد أنه رسول الله». فأتوا أن يُصدِّقوه. وروى الإمام أحمد والشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «قال رسول الله - ﷺ -: «لو آمن بي عشرة من أحرار يهود لآمن بي كل يهودي على وجه الأرض»^(١).

وروى ابن أبي حاتم وأبو سعيد النيسابوري وزاد في آخره قال: «وقال كعب: اثني عشر»، وتصديق ذلك في [سورة المائدة]: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة ١٢] قال الحافظ: فعلى هذا فالمراد عشرة مختصة، وإلا فقد آمن به ﷺ أكثر من عشرة، وقيل

= بين أهل هذه الصحيفة من حدث يخيف فسادهم فان أمره إلى الله وإلى محمد النبي، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب وأنهم إذا دعوا اليهود إلى صلح حليف لهم فإنهم يصلحونه، وإن دعونا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب الدين، وعلى كل أناس حصتهم من النفقة. وأن يهود الأوس ومواليهم وأنفسهم مع البر المحسن من أهل هذه الصحيفة، وأن بني الشطبة بطن من جفنة، وأن البر دون الأثم فلا يكسب كاسب إلا على نفسه وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره. لا يحول الكتاب دون ظالم ولا آثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن، إلا من ظلم وأثم، ولي أولاهم بهذه الصحيفة البر المحسن.

قال أبو عبيد: قوله «بنو فلان على رباعتهم» الرباعة هي المعاقل. وقد يقال: فلان رباعة قومه، إذا كان المتقلد لأمرهم، والوافد على الأمراء فيما يتوبهم. وقوله: «إن المؤمنين لا يتركون مفرحاً في فداء» المفرح: المشغل بالدين، يقول: فعليهم أن يعينوه، إن كان أسيراً فك من إيساره، وإن كان جنياً جناية خطأ عقلوا عنه وقوله: «ولا يجير مشرك مالا لقريش» يعني اليهود الذين كان وادعهم، يقول: فليس من مواعظهم أن يجيروا أموال أعدائهم، ولا يعينوهم عليه. وقوله: «ومن اعتبط مؤمناً قتلاً فهو قوده» الاعتباط: أن يقتله برياً محرم الدم. وأصل الاعتباط في الإبل: أن تنحر بلا داء يكون بها. وقوله: «إلا أن يرضي أولياء المقتول بالعقل» فقد جعل رسول الله ﷺ الخيار في القود أو الدية إلى أولياء القتيل. وهذا مثل حديثه الآخر «ومن قتل له قتيل فهو بأحد النظرين إن شاء قتل وإن شاء أخذ الدية» وهذا يرد قول من يقول ليس للولي في العمد أن يأخذ الدية إلا بطيب نفس من العاقل ومصالحة منه له عليها. وقوله: «ولا يحل لمؤمن أن ينصر محدثاً أو يؤويه» المحدث: كل من أتى حداً من حدود الله عز وجل، فليس لأحد منعه من إقامة الحد عليه. وهذا شبهه بقوله الآخر: «من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في أمره» وقوله: «لا يقبل منه صرف ولا عدل». حدثنا هشيم عن رجل قد سماه عن مكحول قال: «الصرف التوبة والعدل: القدية».

قال أبو عبيد: وهذا أحب إلي من قول من يقول الفريضة والتطوع لقول الله تبارك وتعالى. (ولا يؤخذ منها عدل) فكل شيء فدي به شيء فهو عدله وقوله «وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين» فهذه النفقة في الحرب خاصة، شرط عليهم المعاونة له على عدوه. ونرى أنه إنما كان يسهم لليهود إذا غزوا مع المسلمين بهذا الشرط الذي شرطه عليهم من النفقة. ولولا هذا لم يكن لهم في غنائم المسلمين سهم. الأموال ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧.

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣٤٦/٢ وابن عدي في الكامل ٢٢٢١/٦ وذكره المتقي الهندي في الكنز (١٣٤٧).

المعنى: «لو آمن في الزمان الماضي كالزمن الذي قبل قدوم النبي ﷺ - المدينة أو حال قدومه». قال الحافظ: «والذي يظهر أنهم وهم الذين كانوا حيث رؤساء في يهود، ومن عداهم كان تبعاً لهم، فلم يُسَلِّم منهم إلا القليل كعبد الله بن سلام، وكان من المشهورين بالرياسة في يهود بني قينقاع عند قدوم النبي ﷺ. ومن بني النضير: أبو ياسر - بتحتية وسين فراء مهملتين - ابن أخطب - بخاء معجمة فطاء مهمله فموحدة - وأخوه حُتَي بن أخطب، وكعب بن الأشرف وأبو رافع سلام بن الربيع بن أبي الحقيق - بقافين مُصغَّر. ومن بني قينقاع: سعد بن حنيفة، وفتحاص - بفاء مكسورة فنون ساكنة فحاء مهمله فألف فصاد مهمله - ورفاعة بن زيد [ابن التابوت]. ومن بني قُرَيْظَةَ: الزبير - بفتح الزاي - ابن بَاطِي بن وَهْب، وكعب بن أسد وهو صاحب عقد بني قريظة الذي نقض عام الأحزاب وشمويل بن زيد، فهؤلاء لم يثبت أحد منهم، وكان كل منهم رئيساً في اليهود، لو أسلم لتبعه جماعة، فيحتمل أن يكونوا المراد. وروى أبو نُعَيْم في الدلائل من وجه آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «لو آمن بي الزبير بن بَاطِي وذووه من رؤساء لأسلموا كلهم»^(١). وأغرب السهيلي فقال: لم يُسَلِّم من أحبار اليهود إلا اثنان: عبد الله بن سلام، وعبد الله بن صوري. قال الحافظ: كذا قال، ولم أر لعبد الله بن صوري إسلاماً من طريق صحيحة، وإنما نسبه السهيلي في موضع آخر لتفسير النقاش.

قال ابن إسحاق: «ونصبت بعد ذلك أحبار يهود لرسول الله ﷺ - العداوة بغياً وحتداً وضيغناً لما خص الله تعالى به العرب من اصطفاء رسوله منهم. وكانت أحبار يهود، هم الذين يسألون رسول الله ﷺ وَيَتَعَتُّونَهُ وَيَأْتُونَهُ بِاللُّبْسِ لِيَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وكان القرآن ينزل فيهم وفيما يسألون عنه، إلا قليلاً من المسائل في الحلال والحرام كان المسلمون يسألون عنها».

وذكر ابن إسحاق وغيره أسماء اليهود، ولا حاجة بي هنا إلى ذكرهم، بل من جاء ذكره في كتابي تكلمت عليه، وكانوا ثلاث قبائل: قينقاع - بفتح القاف وتثليث النون وبالعين المهمله، ويجوز صَرْفُهُ على إرادة الحَيِّ وتَرْكُ صَرْفِهِ على إرادة القبيلة أو الطائفة - وهم الوسط من يهود المدينة. وإذا قلت: بنو قينقاع فالوجه الصُّرْفُ، وقُرَيْظَةَ - بقاف مضمومة فطاء معجمة مشالة، وهو أخو النضير والوسط من يهود المدينة، والنضير - بضاد معجمة ساقطة وزن كريم. وحرابته الثلاثة، ونقضوا العهد الذي بينه وبينهم، فَمَنْ عَلَى بني قينقاع، وأجلى بني النضير، وقتل بني قُرَيْظَةَ، وسبى ذريتهم، ونزلت سورة الحشر في بني النضير، وسورة الأحزاب في بني قُرَيْظَةَ، وسيأتي بيان ذلك مُفَصَّلاً في المغازي إن شاء الله تعالى.

(١) انظر فتح الباري ٧/٢٧٥.

الباب الرابع

في سؤال اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح

روى الإمام أحمد والشيخان والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ - في حِزْبِ المدينة - وفي لفظ: حرث الأنصار وفي لفظ: في نخل - وهو مُتَوَكِّيٌّ عَلَى عَسِيب - وفي لفظ: ومعه جريدة - إذ مرَّ اليهود - وفي لفظ: إذ مرَّ بتَقْرِيرٍ مِنَ الْيَهُودِ - فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه، لا يُسْمِعُكُمْ مَا تَكْرَهُونَ - وفي لفظ: لا يَسْتَقْبِلُكُمْ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ - فقال بعضهم لبعض: لنسألكه، فقام إليه رجل - وفي لفظ: فقاموا إليه فقالوا: «يا محمد» - وفي لفظ: «يا أبا القاسم ما الروح؟» - وفي لفظ: «فأخبرنا عن الروح، كيف تُعَذِّبُ الرُّوحَ الَّذِي فِي الْجَسَدِ؟ وَإِنَّمَا الرُّوحُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَسَكَتَ - وفي لفظ: فما زال مُتَكَيِّفًا عَلَى الْعَسِيبِ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ، فَتَأَخَّرْتُ فَلَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ قَالَ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١). [الإسراء: ٨٥] وفي رواية عند ابن جرير بسند رجاله ثقات عن مغيرة عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود رضي الله عنه: فقالوا: «هكذا نجده في كتابنا». فقال بعضهم لبعض: «وقد قلنا لكم: لا تسألوه».

تنبيهات

الأول: دَلَّ حَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ عَلَى أَنَّ نَزُولَ هَذِهِ الْآيَةِ كَانَ بِالْمَدِينَةِ وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ، وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ جَبَّانٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَتْ قَرِيشُ لِيَهُودٍ: اعْطُونَا شَيْئًا نَسْأَلُ عَنْهُ هَذَا الرَّجُلَ. فَقَالُوا: سلوه عن الروح. فنزلت: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. قالوا: «أوتينا علماً كثيراً. أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً. فأنزل الله عز وجل ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف ١٠٩] سند رجاله رجال صحيح مسلم، ورواه ابن إسحاق من وجه آخر نحوه، وسبق في باب امتحان المشركين رسول الله ﷺ - بأشياء لا يعرفها إلا نبي.

وروى ابن إسحاق وابن جرير عن عطاء بن يسار قال: نزلت بمكة: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فلما هاجر رسول الله ﷺ - إلى المدينة أتاه أحبار يهود فقالوا: يا محمد، بلغنا أنك تقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أفعنيتنا أم عنيت قومك؟ قال: «لا بل

(١) أخرجه البخاري ٢٥٣/٨ (٤٧٢١).

عَنْتُكُمْ». فقالوا: «إنك تتلو أنا أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء». فقال رسول الله ﷺ: «هي في علم الله قليل وقد آتاكم الله ما إن عملتم به انتفعتم»، وأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامَ وَالْبَحْرِ يَمْدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾. [لقمان ٢٧، ٢٨] ودل حديث ابن مسعود، وأثر عطاء أن الآية نزلت بمكة، وجميع بينهما وبين حديث ابن مسعود رضي الله عنه بتعدد النزول، ويُحتمل سكوته في المرة الثانية على توقع مزيد بيان في ذلك إن ساغ ذلك، وإلا فما في الصحيح أصح. وقال الشيخ رحمه الله تعالى في الإتيان: «إذ استوى الإسنادان في الصحة فيرجح أحدهما بكون راويه حاضر القصة أو نحو ذلك من وجوه الترجيحات»، ثم ذكر [مثالاً له] حديث ابن مسعود وحديث ابن عباس المذكورين. ثم قال «فهذا - أي حديث ابن عباس - يقتضي أن الآية نزلت بمكة، والحديث الأول خلافه». ورجح أن ما رواه البخاري أصح من غيره، وبأن ابن مسعود كان حاضر القصة.

الثاني: قال أبو نعيم: «قيل من علامات نبوة سيدنا محمد ﷺ - في الكتب المنزلة أنه إذا سُئِلَ عن الروح فَوُضَّ العلم بحقيقتها إلى منشئها وبارئها، وأمسك عما خاضت فيه الفلاسفة وأهل المنطق القائلون بالحدس والتخمين، فامتحنه اليهود بالسؤال عنها ليقفوا من على نعتة المثبت عندهم في كتابهم، فوافق كتابه ما ثبت في كتبهم»

الثالث: قال ابن التين: «اختلف في الروح المسؤول عنها في هذا الخبر على أقوال الأول: روح الإنسان، الثاني: روح الحيوان. الثالث: جبريل. الرابع: عيسى. الخامس: القرآن السادس: الوحي. السابع: ملك يقوم وحده صفاً يوم القيامة. الثامن: ملك له سبعون ألف وجه لكل وجه منها سبعون ألف لسان لكل لسان منها سبعون ألف لغة يُسَبِّحُ الله تعالى [بتلك اللغات كلها] ويخلق الله سبحانه وتعالى من كل تسبيحة ملكاً يطير مع الملائكة، وقيل: ملك رجلاه في الأرض السفلى ورأسه عند قائمة العرش. التاسع: خَلَقَ كَخَلَقِ بَنِي آدَمَ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ، لَا يَنْزِلُ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَّا نَزَلَ مَعَهُ مَلَكٌ مِنْهُمْ. وقيل: هو صِنْفٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ». قال الحافظ: «وهذا إنما يجمع من كلام أهل التفسير في معنى لفظ «الروح» الوارد في القرآن لا خصوص هذه الآية، فمن الذي في القرآن: ١ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء ١٩٣]، ٢ ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا - إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى ٥٢]، ٣ ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [غافر: ١٥]، ٤ ﴿وَأَيُّدُهُمْ يَرْوِحُ مِنْهُ﴾ [المجادلة ٢٢]، ٥ ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبا ٣٨]، ٦ ﴿يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [النحل ٢]؟ فالأول: جبريل، والثاني: القرآن، والثالث: الوحي، والرابع: القوة، والخامس والسادس: مُخْتَلِفٌ لِجِبْرِيلَ أَوْ غَيْرِهِ، ووقع إطلاق الروح على عيسى.

وروى إسحاق بن راهويه بسند صحيح عن ابن عباس قال: «الروح من الله، وخلق من خلق الله، وضور كبني آدم، لا ينزل ملك إلا ومعه أحد من الروح». وقال الخطابي: «حكوا في المراد بالروح في الآية أقوالاً، وقال الأكثرون: سألوه عن الروح التي تكون بها الحياة في الجسد. وقال أهل النظر: «سألوه عن مسلك الروح وامتزاجها بالجسد، وهذا هو الذي استأثر الله بعلمه. وقال القرطبي: «الراجح أنهم سألوه عن روح الإنسان؛ لأن اليهود لا تعترف بأن عيسى روح الله، ولا نجعل أن جبريل ملك وأن الملائكة أرواح». وقال الإمام فخر الدين: «المختار أنهم سألوه عن الروح الذي هو سبب الحياة، وأن الجواب وقع على أحسن الوجوه، وبيانه: أن السؤال عن الروح يحتمل أن يكون عن ماهيتها، وهل هي متحيزة أم لا، وهل هي حالة في متحيز أم لا، وهل هي قديمة أو حادثة، وهل تبقى بعد انفصالها من الجسد أو تفتي، وما حقيقة تعذيبها وتنعيمها وغير ذلك من تعلقاتها؟ قال: «وليس في السؤال ما يخص أحد هذه المعاني إلا أن الأظهر أنهم سألوه عن الماهية، وهل الروح قديمة أو حادثة؟ والجواب يدل على أنها شيء موجود مغاير للطبائع والأخلاق وتركيبها، فهي جوهر بسيط مجرد لا يحدث إلا بمحدث، وهو قوله تعالى: «كن فكان». قال: هي موجودة مُحدثة بأمر الله عز وجل، وتكوينه، ولها تأثير في إفادة الحياة للجسد، ولا يلزم من عدم العلم بكيفيةها المخصوصة نفيها.

الرابع: تنطع قوم «فتباينت أقوالهم في الروح، فقيل: هي النفس الداخل الخارج، وقيل الحياة، وقيل: جسم لطيف يحل في جميع البدن، وقيل: هي الدم، وقيل: هي عرض، حتى قيل: إن الأقوال بلغت المائة، ونقل ابن مندة عن بعض المتكلمين أن لكل نبي خمس أرواح، وأن لكل مؤمن ثلاثاً، ولكل حي واحد.

الخامس: قال القاضي أبو بكر بن العربي: «اختلفوا في الروح والنفس، فقيل متغايران وهو الحق، وقيل: هما شيء واحد، وقد يُعبر بالروح عن النفس وبالعكس، كما يُعبر عن الروح وعن النفس بالقلب وبالعكس، وقد يُعبر عن الروح بالحياة حتى يتعدى ذلك إلى غير العقلاء بل إلى الجهال مجازاً.

قال تلميذه الشهيلي: يعني على مغايرة الروح والنفس قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة ١١٦] فإنه لا يصح جعل أحدهما موضع الآخر، ولولا التغاير لساغ ذلك.

السادس: في قوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، قال الإمام فخر الدين الرازي: «يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْأَمْرِ هُنَا الْفِعْلُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْرٌ إِلَّا لِعِزَّتِنَا﴾ [هود ٩٧]

أي فعله فيكون الجواب: الروح من فعل رَبِّي، إن كان السؤال: هل هي قديمة أو حادثة؟ فيكون الجواب: أنها حادثة.. إلى أن قال: «ولهذا سَكَتَ السلف عن البحث في هذه الأشياء والتعمق فيها». وقال الإسماعيلي: «يُحْتَمَلُ أن يكون جواباً وأن الروح من جملة أمر الله وأن يكون المراد: اختص الله عز وجل بعلمه ولا سؤال لأحد عنه».

وقال السهيلي بعد أن حكى ما المراد في الآية: «وقالت طائفة: الروح الذي سألت عنه اليهود هو روح الإنسان. ثم اختلف أصحاب هذا القول، فمنهم من قال: لم يُجِبْهُمْ رسول الله ﷺ على سؤالهم، لأنهم سألوهُ تَعَنُّتاً واستهزاءً، فقال الله عز وجل: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، ولم يأمره أن يُبَيِّنَهُ لهم. وقالت طائفة: بل أخبرهم وأجابهم بما سألوهُ، لأنه قال لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، وأمرُ الرَّبِّ هو الشرع والكتاب الذي جاء به، فمن دخل في الشرع وتَفَقَّه في الكتاب والسنة عَرَفَ الروح، فكان معنى الكلام: ادخلوا في الدين تعرفوا ما سألتكم عنه، فإنه من أمر رَبِّي أي من الأمر الذي جِئْتُ بِهِ مُبَلِّغاً عن الرَّبِّ، وذلك أن الروح لا سبيل إلى معرفتها من جهة الطبيعة ولا من جهة الفلسفة ولا من جهة الرأي والمعرفة، وإنما تُعْرَفُ من جهة الشرع. فإذا نظرت إلى ما في الكتاب والسنة من ذِكْرِهَا نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ﴾ [السجدة ٩] أي من روح الحياة، والحياة من صفات الله سبحانه وتعالى، وإلى ما أُخْبِرَ به رسول الله ﷺ بأن «الأرواح جنودٌ مُجَنَّدَةٌ»، وأنها تتعارف وتتشام في الهواء، وأنها تُقْبِضُ من الأجساد بعد الموت، وأنها تُسْأَلُ في القبر فتفهم السؤال وتسمع وترى، وتنعم وتُعَذِّبُ، وتلتذ وتتألم، وهذه كلها من صفات الأجسام، فإنك تعرف أنها أجسام بهذه الدلائل، لكنها ليست كالأجسام في كثافتها وثقلها وإظلامها، إذ الأجسام خُلِقَتْ من طين وحملاً مسنوناً، فهو أصلها، والأرواح خُلِقَتْ من ماء كما قال الله سبحانه وتعالى، ويكون النفخ المتقدم المضاف إلى المَلَكِ، والملائكة خُلِقَتْ من النور كما جاء في الصحيح وإن كان قد أضاف النفخ إلى نفسه سبحانه وتعالى وكذلك أضاف قبض الأرواح إلى نفسه فقال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر ٤٢]، وأضاف ذلك إلى المَلَكِ أيضاً فقال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة ١١]، والفعل مضاف إلى المَلَكِ مَجَازاً وإلى الرَّبِّ حقيقةً.

فالروح إذا جسم ولكنه من جنس الريح، ولذلك سُمِّيَ روحاً من لفظ الريح، ونَفَخَةُ المَلَكِ في معنى الريح، غير أنه ضُمَّ أوله لأنه نوراني، والريح هواءٌ مُتَحَرِّكٌ. وإذا كان الشرع قد عَرَفْنَا من معاني الروح وصفاتها هذا القدر، فقد عَرَفْنَا من جهة أمرها كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أُولَئِكَ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء ٨٥]، وقوله: «من أمر رَبِّي»، أيضاً، ولم يقل من

أمر الله، ولا من أمر ربكم، يدل على خصوص، وعلى ما قَدَّمنا من أنه لا يَعْلَمُه إلا من أخذ معناه من قول الله تعالى وقول رسوله ﷺ، بعد الإيمان بالله ورسوله واليقين الصادق والفقہ في الدين، فإن كان لم يخبر اليهود حين سألوا عنها، فقد أحالهم على موضع العلم بها.

السابع: قال ابن القيم: ليس المراد بالأمر هنا الطلب اتفاقاً، وإنما المراد به المأمور، والأمر يُطلق على المأمور، كالحلَق على المخلوق، ومنه ﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود ١٠١] الآية.

الثامن: قال ابن بطال: «معرفة حقيقة الروح مما استأثر الله عز وجل بعلمه بدليل هذا الخبر»، قال: «والحكمة في إبهامه اختبار الحَلَق لِيَعْرِفَهُمْ عَجْزَهُمْ عن علم ما لا يدركونه حتى يضطروهم إلى زَدَّ العلم إليه». وقال القرطبي: «الحكمة في ذلك إظهار عجز المرء، لأنه إذا لم يعلم حقيقة نفسه مع القطع بوجوده كان عجزه عن إدراك حقيقة الحق من باب أولى».

التاسع: ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان لا يُفسِّر الروح أي لا يُعَيِّن المراد بها في الآية. ومن رأى الإمساك عن الكلام في الروح أستاذ الطائفة أبو القاسم الجُنَيْد رحمه الله تعالى، كما في عوارف المعارف عنه بعد أن نقل كلام الناس في الروح، وكان الأولى الإمساك عن ذلك، والتأدب بأدب النبي ﷺ. ثم نقل عن الجُنَيْد أنه قال: «الروح شيء استأثر الله عز وجل بعلمه، ولم يُطْلِع عليه أحداً من خَلْقِه فلا تجوز العبارة عنه بأكثر من موجوده».

وعلى ذلك جرى ابن عطية وجموع من أهل التفسير، وأجاب من خاض في ذلك بأن اليهود سألوا عنها سؤال تفجيز وتغليظ لكونه يُطلق على أشياء، فأضمرُوا بأنه بأي شيء أجاب؟ قالوا: ليس هذا المراد، فَرَدَّ اللهُ كَيْدَهُمْ وأجابهم جواباً مُجْمَلًا مطابقاً لسؤالهم المُجْمَل.

وقال في العوارف: «ويجوز أن يكون كلامهم في ذلك بمثابة التأويل لكلام الله تعالى والآيات المُنزَّلة حيث حُرِّم تفسيره وجُوز تأويله، إذ لا يسوغ التفسير إلا نقلاً، وأما التأويل فتمتد العقول إليه بالباع الطويل وهو ذكر ما تتحمل الآية (من المعنى من غير القطع بأنه المراد). وإذا كان الأمر كذلك فللقول فيه وَجْهٌ وَمَحْمَلٌ. قال: وظاهر الآية المنع من القول فيها، فختم الآية بقوله: ﴿وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي اجعلوا حكم الروح من الكثير الذي لم تؤتوه فلا تسألوا عنه فإنه من الأسرار.

العاشر: نقل ابن منده في كتاب الروح له عن الإمام الحافظ المصنف على اختلاف الأحكام من عهد الصحابة إلى عهد فقهاء الأمصار محمد بن نصر المَرْوَزِيَّ أنه نقل الإجماع على أن الروح مخلوقة، وإنما نُقِلَ القول بقدمها عن بعض غلاة الرافضة والمتصوفة.

الحادي عشر: اختلف هل تنفى عند فناء العالم قبل البعث أو تستمر باقية؟ على قولين أزعجتهما الثاني عند الجمهور.

الثاني عشر: ذكر بعض المفسرين أن الحكمة في سؤال اليهود عن الروح أن عندهم في التوراة أن روح بني آدم لا يعلمها إلا الله عز وجل، فقالوا: نسأله فإن فسرها فهو نبي، وهو معنى قولهم: لا يجيء بشيء تكرهونه.

الثالث عشر: جنح ابن القيم في كتاب الروح إلى ترجيح أن المراد بالروح المسؤول عنها في الآية ما وقع في قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبا: ٣٨] وأما أرواح بني آدم فلم يقع تسميتها في القرآن إلا نفساً. قال الحافظ: وكذا قال ولا دلالة في ذلك لما رجحه، بل الراجح الأول: فتد روى ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه القصة أنهم قالوا: أخيرنا عن الروح، وكيف يُعذَّب الروح الذي في الجسد؟ إلى آخره [ما قالوا وقد تقدم بتمامه].

الرابع عشر: قال بعضهم: ليس في الآية دلالة على أن الله سبحانه وتعالى لم يُطلع نبيه على حقيقة الروح، بل يُحتمل أن يكون أطلعه، ولم يأمره أن يُطلعهم، وقد قال في علم الساعة نحو هذا كما سيأتي مبسوطاً في الخصائص إن شاء الله تعالى.

الخامس عشر: وقع في الصحيح في العلم والاعتصام والتوحيد، وكذا عند مسلم: إذ مرَّ بِنَقْرٍ، عند ابن حنبل من وجه آخر: إذ مررنا على يهود، ووقع في التفسير: إذ مرَّ اليهود، بالرفع على الفاعلية، ويُحتمل هذا الاختلاف على أن الفريقين تلاقوا فيصدق أن كلا مرَّ بالآخر.

السادس عشر: في بيان غريب ما سبق:

«حزث»: بفتح الحاء المهملة وسكون الراء بعدها مثلثة، ووقع عند البخاري في كتاب العلم خرب^(١) بخاء معجمة مفتوحة فراء مكسورة.

«يَتَوَكَّأ»: يعتمد.

«عسيب»: بعين فسين مهملتين وآخره موحدة بوزن عظيم وهو جريدة [النخل] التي لا خصوص عليها. قال ابن فارس: العسيبان من النخل كالقضبان من غيرها.

«يَهُود»: هذا اللفظ معرفة تدخله الألف واللام تارة وتارة يتجرّد، وحذفوا منه ياء النسبة تفرقةً بينه وبين مفرده، كما قالوا: زنج وزنجي.

(١) انظر اللسان ١١٢٢/٢.

الباب الخامس

في تحيرهم في مدة مكث هذه الأمة لما سمعوا الحروف المقطعة

في أوائل السور

قال ابن إسحاق - فيما ذكر لي عن عبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله بن رثاب -
 «إن أبا ياسر بن أخطب مرّ برسول الله ﷺ، وهو يتلو فاتحة البقرة ﴿الْم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا
 رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة ١، ٢]، فأتى أخاه حُثَيِّ بن أخطب في رجال من يهود،
 فقال: تَعَلَّمُوا، والله لقد سمعتُ محمداً يتلو فيما أنزل عليه: ﴿الْم ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ فقالوا:
 أنت سمعته؟ قال: نعم. فمشى حُثَيِّ بن أخطب في أولئك النفر من يهود إلى رسول الله ﷺ،
 فقالوا له: «يا محمد، ألم يذكر لنا أنك تتلو فيما أنزل عليك ﴿الْم ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾؟ فقال
 رسول الله ﷺ: «بلى». قالوا: «أجاءك بها جبريل من عند الله؟ قال: «نعم». قالوا: «لقد بعث
 الله قبلك أنبياء أنبياء ما نعلمه بين نبيي منهم ما مدة ملكه وما أجل أمته غيرك». فقام حُثَيِّ بن
 أخطب، وأقبل على من معه فقال لهم: «الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون فهذه إحدى
 وسبعون سنة، أفندخلون في دين [نبيي] إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة؟ ثم
 أقبل على رسول الله ﷺ فقال: «يا محمد هل مع هذا غيره؟ قال: «نعم» قال: ماذا؟ قال:
 ﴿المص﴾ [الأعراف ١] قال: هذا أثقل وأطول: الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون
 والصاد تسعون فهذه إحدى وستون ومائة سنة، هل مع هذا يا محمد غيره؟ قال: «نعم». [قال:
 وما ذاك؟] قال: ﴿الر﴾ [يوسف: ١] قال: «هذه أثقل وأطول: الألف واحدة واللام ثلاثون
 والراء مائتان، فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة فهل مع هذا غيره يا محمد؟ قال: «نعم»
 ﴿المر﴾ [الرعد ١]. قال: «هذه والله أثقل وأطول: الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون
 والراء مائتان، فهذه إحدى وسبعون ومائتا سنة». ثم قال: «لقد لبس علينا أمرُك يا محمد حتى ما
 ندري أقلبلاً أعطيت أم كثيراً». ثم قاموا عنه، فقال أبو ياسر لأخيه ولمن معه من الأخبار: «ما
 يدريكم لعله قد جُمع هذا كله لمحمد: إحدى وسبعون [وإحدى وستون ومائة]، وإحدى
 وثلاثون ومائتان، وإحدى وسبعون ومائتان، فذلك سبعمائة وأربع وثلاثون». فقالوا: لقد تشابه
 علينا أمره. فيزعمون أن هذه الآيات نزلت فيهم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ
 مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران ٧].

[قال ابن إسحاق]: «وقد سمعتُ من لا أتهم من أهل العلم يذكر أن هؤلاء الآيات
 أنزلت في أهل نجران حين قدموا على رسول الله ﷺ ليسألوه عن عيسى بن مريم. وقد حدثني

محمد بن أبي أمانة بن سهل بن حنيف أنه سمع أن هؤلاء الآيات إنما أنزلت في نفر من يهود ولم يُفسر ذلك لي، فالله أعلم أي ذلك كان.

تنبيهات

الأول: روى البخاري في تاريخه وابن جرير من طريق ابن إسحاق عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله فذكر الحديث السابق، فبان سند ابن إسحاق بذلك. ورواه يونس بن بكير عن ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، عن أبي سعيد. ورواه ابن المنذر من وجه آخر عن ابن جرير مفضلاً.

الثاني: قال السهيلي: «وهذا القول من أخبار يهود، وما تأولوه من معاني هذه الحروف مُخْتَمَلٌ حتى الآن أن يكون من بعض ما دلت عليه هذه الحروف المُقَطَّعة، فإن رسول الله ﷺ لم يكذبهم فيما قالوا من ذلك ولا صدقهم. وقال في حديث آخر: «لا تُصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمناً بالله وبرسوله»^(١). وإذا كان في حدّ الاحتمال وجب أي يُفحص عنه في الشريعة، هل يُشير إلى كتاب أو سنة؟ فوجدنا في التنزيل ﴿وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج ٤٧] ووجدنا في حديث زمل الخزاعي حين قصّ على رسول الله ﷺ رؤيا قال فيها: «رأيتك يا رسول الله على منبر له سبع درجات، وإلى جنبك ناقة عجفاء كأنك تبعثها». ففسّر له النبي ﷺ الناقة بقيام الساعة التي أنذر بها، وقال في المنبر ودرجاته: «الدنيا سبعة آلاف سنة يُبعث في آخرها ألفاً»^(٢) والحديث وإن كان ضعيف الإسناد فقد روي موقوفاً عن ابن عباس من طريق صحاح أنه قال: «الدنيا سبعة أيام كل يوم منها ألف سنة»^(٣)، وبعث رسول الله ﷺ في آخر يوم منها، وقد مضت [منه] سنون أو قال مئون: [قال السهيلي]: ولكن إذا قلنا: إنه عليه الصلاة والسلام يُبعث في الألف الأخيرة بعد ما مضت منه سنون، ونظرنا بعد إلى الحروف المُقَطَّعة في أوائل السور وجدناها أربعة عشر حرفاً يجمعها قولك: «ألم يسطع نصّ حق كره»، ثم نأخذ العدد على حساب أبي جاد: فنجد «ق» مائة و «ر» مائتين و «س» ثلاثمائة فهذه ستمائة و «ع» سبعين، و «ص» ستين، فهذه سبعمائة وثلاثون، و «ن» خمسين و «ك» عشرين، فهذه ثمانمائة و «م» أربعين و «ل» ثلاثين، فهذه ثمانمائة وسبعون، و «ي» عشرة و «ط» تسعة و «ا» واحد، فهذه ثمانمائة وتسعون، و «ح» ثمانية و «هـ» خمسة، فهذه تسعمائة وثلاثة. ولم يُسمّ الله عز وجل في أوائل السور إلا هذه

(١) أخرجه البخاري ٢٣٧/٣ والبيهقي في السنن ١٦٣/١٠.

(٢) انظر فتح الباري ٣٥١/١١.

(٣) أخرجه الفتي في تذكرة الموضوعات (٢٢٤).

الحروف، فليس يتعد أن يكون من بعض مقتضياتها وبعض فوائدها الإشارة إلى هذا العدد من السنين لِمَا قدمناه في حديث الألف السابع الذي بُعث فيه رسول الله ﷺ. غير أن الحساب يُحتمل أن يكون من مبعثه أو من وفاته أو من هجرته، وكلُّ قريبٍ بعضه من بعض، فقد جاءت شروط الساعة ولكن لا تأتيكم إلا بَعْتَةً. وقد رُوِيَ أن المتوكل العباسي سأل جعفر بن عبد الواحد القاضي، وهو عباسي أيضاً، عمًّا بقي من الدنيا فحدّثه بحديث رفعه إلى رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أحسنت أمتي فبقاؤها يَوْمٌ من أيام الآخرة وذلك ألف سنة، وإن أساءت فنصف يَوْمٍ»، ففي هذا الحديث تشييم للحديث المتقدم وبيان له، إذ قد انقضت الخمسمائة والأمة باقية والحمد لله. هذا آخر كلام السهيلي، وفيه مناقشات من الزهر والفتح مع زيادتها من غيرها.

الأولى: قوله: وجدنا في حديث زمل الخزاعي إلخ صوابه: ابن زمل، وسَمَّاه بعضهم: عبد الله، وبعضهم: الضُّحَاك، وبعضهم: عبد الرحمن، وصَوَّب الحافظ في الإصابة الأول، وقوله الخزاعي صوابه الجهني كما ذكره في الزهر.

الثانية: قوله: وإن كان إسناد هذا الحديث ضعيفاً. إلخ، اقتصر على ضَعْفِهِ، قال [ابن حجر] في الفتح: إسناده ضعيف جداً، وقال في الإصابة: «تَفَرَّد برواية [حديثه] سليمان بن عطاء القرشي الحراني عن مسلم بن عبد الله الجهني». انتهى. قلتُ: وسليمان بن عطاء. قال الذهبي في المغني: «هالك أتهم بالوضع». وقال الحافظ في التقریب: «منكر الحديث». وأورده ابن الجوزي في الأحاديث الواهية، ووصف بعض رجاله بوضع الحديث. وقال ابن الأثير: «ألفاظه مصنوعة مُلَقَّة».

وروى ابن عدي عن أنس مرفوعاً: «عُمِّر الدنيا سبعة أيام من أيام الآخرة». وفي سننه «العلاء بن زَيْدَل» وهو المتهم به. ورواه ابن عساكر من طريق أبي علي الحسين بن داود البلخي، قال الخطيب: «ليس بثقة، حديثه موضوع». وقال الحاكم: «روى عن جماعة لا يُحتمل سنده السماع منهم، وله عندهم العجائب يُشْتَدَلُّ بها علي حاله». وفي سننه أيضاً أبو هاشم الأيلي. ورواه الحاكم، والترمذي الحكيم في نوادره، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي سننه صالح ابن محمد، عن يَغْلَى بن هلال، عن ليث بن مجاهد.

الثالثة: قوله: «فقد رُوِيَ موقوفاً عن ابن عباس من طُرُقٍ صِحَّاحٍ»، قلت: لم أقف له إلا من طريق واحد غير صحيح، رواه ابن جرير في مقدمة تاريخه، ومنه أخذ السهيلي من طريق يحيى بن يعقوب وهو أبو طالب القاص الأنصاري، قال البخاري: منكر الحديث، وقال أبو حنيفة: محلّه الصدق. وذكره ابن جبان في الثقات وقال: يُخطئ.

الرابعة: ما ذكره في عدد الحروف مبني على طريقة المغاربة: السين بثلاثمائة، والصاد بستين، وعند المشاركة: السين سِتُون والصاد تسعون. فيكون المقدار عندهم ستمائة وثلاثة وتسعون، وقد مَضَتْ وزيادة عليها فإنه في سنة خمس وثلاثين وتسعمائة فالجملة على ذلك من هذه الحيشية باطلة.

الخامسة: ثبت عن ابن عباس الزُّجْر عن عدد أبي جاد، والإشارة إلى أن ذلك من جملة السُّخْر. قال الحافظ: «وليس يبعد فإنه لا أضلَّ له في الشريعة».

السادسة: قال القاضي أبو بكر بن العربي شيخ السهيلي في قوله ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ»، وأشار بالسَّبَابَةِ وَالْوُشْطَى. قيل: الوُشْطَى تزيد على السَّبَابَةِ بنصف سُبْعٍ إِضْبَعٍ، وكذلك الباقي من البعثة إلى قيام الساعة». قال «وهذا بعيد، ولا يُغْلَمُ مقدار الدنيا، فكيف يَتَحَصَّلُ لنا نصف سُبْعٍ أمد مجهول؟ فالصواب الإعراض عن ذلك». وقال القاضي في الإكمال: «حاول بعضهم في تأويله أن نسبة ما بين الإِصْبَعَيْنِ كنسبة ما بقي من الدنيا إلى ما مضى، وأن جملتها سبعة آلاف سنة، واستند إلى أخبار لا تصح، وذكر ما أخرجه أبو داود في تأخر هذه الأمة نصف يوم وفُتْرَهُ بخمسمائة سنة، فيؤخذ من ذلك نصف سُبْعٍ، وهو قريب مما يلي السَّبَابَةَ، وَالْوُشْطَى في الطول». قال: «وقد ظهر عدم صحة ذلك لوقوع خلافه ومجاوزة هذا المقدار ولو كان ذلك ثابتاً لم يقع خلافه». انتهى.

وقد انضاف إلى ذلك منذ عهد القاضي إلى هذا الحين نحو الأربعمائة سنة. وقال ابن العربي أيضاً في فوائد رحلته: «ومن الباطل علم الحروف المُقَطَّعة في أوائل السُّور، وقد تحَّصَّل لي فيها عشرون قولاً وأزید، ولا أعرف أحداً يحكم عليها بعلم ولا يصل فيها إلى فهم» إلى آخر ما ذكره. وقد ذكرته مع فوائد أخرى في الكلام على هذه الحروف في كتابي. «القول الجامع الوجيز الخادم للقرآن العزيز». لا توجد مجموعة في غيره.

السابعة: قال الحافظ: «وأما عدد الحروف فإنما جاء عن بعض اليهود، وعلى تقدير أن يكون ما ذكر في عدد الحروف فليُحْتَمَلِ على جميع الحروف الواردة ولا يحذف المُكْرَرُ فإنه ما من حرف إلا وله سِرٌّ يَخُصُّهُ، أو يُقْتَضِرُ على حذف المكرر من أسماء السُّور ولو تكررت الحروف فيها، فإن السور التي ابتدئت بذلك تسع وعشرون سورة، وعدد حروف الجميع ثمان وستون حرفاً وهي: الم: ستة، وح: سبعة، والر: خمسة، وطسم: اثنان والمص وكهيعص وطه وطس ويس وص وق ون. فإذا حُذِفَ ما كُرِّرَ من السُّور وهي خمس من الم وست من حم، وأربع من الر وواحدة من طسم، بقي أربع عشرة سورة عدد حروفها ثمان وثلاثون حرفاً.

فإذا حسبت عددها بالجُمْل المَغْرِبِي بلغت ألفين وستمائة وأربعة وعشرين، وأما بالجُمْل المَشْرِقِي فتبلغ ألفاً وسبعمائة وأربعة وخمسين. قال الحافظ: «ولم أذكر لِيُعْتَمَد عليه وإنما لِيَتَبَيَّن أن الذي جنح إليه السهيلي لا ينبغي الاعتماد عليه لشدة التخالف فيه».

الثامنة: في جامع مَعْتَمَر عن مجاهد وعِكْرِمَة في قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج ٤] لا يدري كم مضى ولا كم بقي إلا الله عز وجل.

التاسعة: ما نقله عن جعفر بن عبد الواحد، فهو شيء موضوع لا أصل له، ولا يُعْرَف إلا من جهته، وهو مشهور بوضع الحديث عند الأئمة، مع أنه لم يسبق له سَنَدٌ بذلك، والعَجَب من السهيلي كيف سكت عليه مع علمه بحاله.

الباب السادس

في سبب نزول سورة الإخلاص

روى أبو الشيخ في العظمة عن أنس بن مالك، وابن أبي حاتم، وابن عدي، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس والطبراني في السنة عن الضحّاك، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة، أن رَهْطاً من اليهود منهم كعب بن الأشرف وْحَيِّي بن أخطب، جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: «يا محمد، هذا الله خَلَقَ الخَلْقَ فمن خَلَقَ الله؟ فغَضِبَ النبي ﷺ حتى انثَقَعَ لَوْنُهُ، ثم ساوَرَهُم غَضَباً لِرَبِّهِ، فجاء جبريل فسكَّنه وقال: «خَفُضْ عَلَيْكَ يا محمد»، وجاءه من الله عز وجل بجواب ما سأله [عنه] فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص ١] (١)، أصل أَحَدٌ هنا واحد، لأنه بمعنى الواحد، قُلِبَتِ الواو هَمْزَةً، وهو ذَالٌ على جميع صفات الجلال، كما ذَلَّ اللهُ على جميع صفات الكمال، إذ الواحد الحقيقي ما يكون مُتَزَةً الذات عن اتحاد التركيب والتَّعَدُّد، وما يستلزمه أحدهما كالجسمية والتَّحْيِيز (الله الصَّمَد): المقصود في الحوائج على الدوام، أو هو الذي قد انتهى في سُودده، فيصلد الناس إليه في حوائجهم، والخلائق يفتقرون إلى رحمته، أو هو مَنْ لا جَوْفَ له، أو هو الكامل في جميع صفاته، أو الذي لا يطعم ولا يخرج منه شيء، أو الباقي بعد فناء خَلْقِهِ، والله تعالى هو الموصوف بهذا على الإطلاق، فإنه مُسْتَعْفٍ عن غيره مطلقاً، وكل ما عداه يحتاج إليه في جميع جهاته، وتعريفه بصمديته بخلاف أحديته. وتكرر الاسم الكريم للإشعار بأنه من لم يتصف به

(١) قال الرازي: في سبب نزولها وفيه وجوه: الأول: أنها نزلت بسبب سؤال المشركين، قال الضحّاك: إن المشركين أرسلوا عامر بن الطفيل إلى النبي ﷺ وقالوا: شققت عصانا وسبيت آلهتنا، وخالفت دين آبائك، فإن كنت فقيراً أغنيك، وإن كنت مجنوناً داويناك، وإن هويت امرأة زوجناكها، فقال عليه الصلاة والسلام: «لست بفقير، ولا مجنون، ولا هويت امرأة، أنا رسول الله أدعركم من عبادة الأصنام إلى عبادته»، فأرسلوه ثانية وقالوا: قل له بين لنا جنس معبودك، أمن ذهب أو فضة، فأنزل الله هذه السورة، فقالوا له: ثلثمائة وستون صنماً لا تقوم بحوائجنا، فكيف يقوم الواحد بحوائج الخلق؟ فنزلت: ﴿والصافات﴾ [الصافات: ١] إلى قول: ﴿إن إلهكم لواحده﴾ [الصافات: ٤] فأرسلوه أخرى، وقالوا بين لنا أفعاله فنزل: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض﴾ [يونس: ٣]. الثاني: أنها نزلت بسبب سؤال اليهود؛ روى عكرمة عن ابن عباس أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ ومعهم كعب بن الأشرف، فقالوا: يا محمد هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فغضب نبي الله عليه السلام فنزل جبريل فسكَّنه، وقال: اخفض جناحك يا محمد، فنزل: ﴿قل هو الله أحد﴾ فلما تلاه عليهم قالوا: صف لنا ربك كيف عضده، وكيف ذراعاه؟ فغضب أشد من غضبه الأول، فأتاه جبريل بقوله: ﴿وما قدرُوا اللهُ حق قدره﴾ [الأنعام: ٩١]. الثالث أنها نزلت بسبب سؤال النصارى، روى عطاء عن ابن عباس، قال: قدم وفد مجران، فقالوا: صف لنا ربك أمن زبرجد أو باقوت، أو ذهب، أو فضة؟ فقال: إن ربي ليس من شيء لأنه خالق الأشياء فنزلت ﴿قل هو الله أحد﴾ قالوا: هو واحد، وأنت واحد، فقال: ليس كمثل شيء، قالوا: زدنا من الصفة، فقال: ﴿الله الصمد﴾ فقالوا: وما الصمد؟ فقال: الذي يصمد إليه الخلق في الحوائج، فقالوا: زدنا فنزل: ﴿لم يلد﴾ كما ولدت مريم ﴿ولم يولد﴾ كما ولد عيسى ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ يريد نظيراً من خلقه. تفسير الرازي ١٦١/٣٢.

لم يستحق الألوهية، وإخلاء الجملة من العاطف؛ لأنها كالنتيجة للأولى أو الدليل عليها.

(لم يَلِدْ): المفعول محذوف أي لم يلد أحداً، والأصل يُولد، حُذفت الواو لوقوعها بين ياء مفتوحة ولام مكسورة فصار مثل «يَعِد». (وَلَمْ يُولَدْ): النائب عن الفاعل محذوف أي لم يَلِدْه أحد، وثبتت الواو في يُولد لأنها لم تقع بين ياء مفتوحة وكسرة. ولما كان الرَّبُّ سبحانه وتعالى واجب الوجود لذاته قديماً، موجوداً قبل وجود الأشياء، وكان كل مولود مُخَدَّثاً انتفت عنه الوالدية، ولما كان لا يشبهه أحدٌ من خَلْقِهِ ولا يجانسه حتى يكون له من جنسه صاحبة فيتوالد، انتفت عنه الوالدية، ومن هذا قوله تعالى: ﴿أَنْتَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ [الأنعام ١٠١]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾: أي لم يكن له أحدٌ يكافئه أي يماثله من صاحبة وغيرها «وله» متعلق بـ «كُفُوًا» وقُدِّم عليه لأنه مَحَطُّ القصد، وأخر «أحد» وهو اسم «يَكُن» عن خبرها رعاية للفاصلة. ولاشتمال هذه السورة مع قِصْرِها على جميع المعارف الإلهية والرّد على من ألحد فيها، جاء في الحديث أنها تُغْدِلُ ثُلُثَ القرآنِ فإن مقاصده محصورة في بيان الأحكام والقصاص، ومن عدلها اعتبر المقصود بالذات^(١). قال ابن إسحاق: «فلما تلاها عليهم، قالوا: «فَصِيفٌ لَنَا يَا مُحَمَّدُ رَبُّكَ كَيْفَ خَلَقَهُ، كَيْفَ ذَرَعَهُ، كَيْفَ عَضُدُهُ؟» فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ أَشَدَّ مِنْ غَضَبِهِ الْأَوَّلِ، وَسَاوَرَهُمْ غَضَبًا لِرَبِّهِ. فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَقَالَتِهِ وَجَاءَهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِجَوَابٍ مَا سَأَلُوهُ عَنْهُ. ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر ٦٧]، أي ما عرفوه حَقَّ معرفته وما عَظَمُوهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ حِينَ أَشْرَكُوا بِهِ وَشَبَّهُوهُ بِخَلْقِهِ. ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا﴾، جميعاً: حال، أي السَّبْعُ، ﴿قَبْضَتُهُ﴾ أي مقبوضة له أي في مِلْكِهِ وَتَصَرَّفِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ﴾ أي مجموعات، «بِيَمِينِهِ» أي بقدرته سبحانه وتعالى عما يُشْرِكُونَ معه.

تنبیه: کذا ذکر ابن إسحاق سبب نزول هذه الآية. وروى الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه في سبب نزولها غير ذلك والله أعلم.

(١) قال الرازي: اشتهر في الأحاديث أن قراءة هذه السورة تعدل قراءة ثلث القرآن، ولعل الغرض منه أن المقصود الأشرف من جميع الشرائع والعبادات، معرفة ذات الله ومعرفة صفاته ومعرفة أفعاله، وهذه السورة مشتملة على معرفة الذات، فكانت هذه السورة معادلة لثلث القرآن، وأما سورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكَافِرُونَ: ١] فهي معادلة لربع القرآن، لأن المقصود من القرآن إما الفعل وإما التوكيد وكل واحد منهما فهو إما في أفعال القلوب وإما في أفعال الجوارح فالأنعام أربعة، وسورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ لبيان ما ينبغي تركه من أفعال القلوب، فكانت في الحقيقة مشتملة على ربع القرآن، ومن هذا السبب اشتركت السورتان أعني ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في بعض الأسماء فهما المفسفستان والمبرستان، من حيث إن كل واحدة منهما تفيده براءة القلب عما سوى الله تعالى، إلا أن ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ يفيد بلفظه البراءة عما سوى الله وملازمة الاشتغال بالله و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يفيد بلفظه الاشتغال بالله وملازمة الإعراض عن غير الله أو من حيث إن ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ تفيده براءة القلب عن سائر المعبودين سوى الله، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تفيده براءة المعبود عن كل ما يليق به. اهـ تفسير الرازي ١٩٢/٣٢.

الباب السابع

في إرادة شأس بن قيس إيقاع الفتنة بين الأوس والخزرج

لما رأى كلمتهم مجتمعة

روى ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن زيد بن أسلم مَطْوُولاً، والفريابي وابن جرير وغيرهما عن ابن عباس مُخْتَصِراً، وابن المنذر عن عكرمة، وابن جرير وابن أبي حاتم عن الشَّدي كذلك واللفظ للأول، قال: كان شأس بن قيس شيخاً قد عَسَا، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، فَمَرَّ على نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جَمَعَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ فيه، فغاظه ما رأى من أَلْفِيهِمْ وجماعتهم وصلاح ذات بَيْنِهِمْ على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية. فلما أن جاء الإسلام اصطَلَحُوا وألَّف اللهُ بين قلوبهم. فقال: «لقد اجتمع مَلَأُ بني قَيْلَةَ بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع مَلَأُهُمْ بها من قرار». فَأَمَرَ قَتِي شَابِئاً من يهود كان معه فقال: «اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بُعِثَ وما كان قَبْلَهُ وَأَنْشِدُهُمْ بَعْضَ ما كانوا تَقَاوَلُوا فيه من الأشعار. ففعل، فَأَنْشَدَهُمْ بعض ما قاله أحد الحَيِّين في حربهم، فكأنهم دَخَلَهُمْ من ذلك [شيء] فقال الحَيُّ الآخرون: وقد قال شاعرنا في يوم كذا: كذا وكذا [فقال الآخرون: وقد قال شاعرنا في يوم كذا: كذا وكذا. فَتَكَلَّمَ القومُ عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا، حتى تَوَأَّبَ رجلان من الحَيِّين: أوس بن قَيْظِي [أحد بني حارثة بن الحارث] من الأوس، وجَبَّار بن صَخْر [أحد بني سَلِمْة] من الخزرج، فَتَقَاوَلَا، ثم قال أحدهما لصاحبه: «ان شِثْمُ رَدَدْنَاها الآن جَذَعَةٌ». فَغَضِبَ الفريقان جميعاً، وقالوا: «قد فعلنا، مَوَعِدُكم الظاهرة - والظاهرة الحَرَّة - السِّلَاحُ السِّلَاحُ». فخرجوا إليها. [فانضمت الأوس والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية].

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال: «يا مَعْشَرَ المسلمين: اللّهُ اللّهُ، أَيْدِعُوا الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألَّفَ به بينكم، فترجعون إلى ما كنتم عليه كُفَّاراً؟^(١) فَعَرَفَ القومُ أنها نَزْعَةٌ من الشيطان، وكَيْدٌ من عَدُوِّهم، فَأَلْقُوا السِّلَاحَ من أيديهم وبَكَوْا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بَعْضُهُمْ بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مُطِيعِينَ، قد أطفأ الله عنهم كَيْدَ عَدُوِّهم: عَدُوَّ الله شَأْسُ بن

(١) ذكره السيوطي في الدر ٥٧/٢ وعراه لابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

قَيْس، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ. قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَاللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران ٩٨، ٢٩٩].

وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَوْسِ بْنِ قَيْظِي، وَجَبَّارِ بْنِ صَخْرٍ، وَمَن كَانَ مَعَهُمَا مِنْ قَوْمِهِمَا الَّذِينَ صَنَعُوا مَا صَنَعُوا مَا أَذْخَلَ عَلَيْهِمُ شَأْسٌ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ. وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ، وَمَنْ يَغْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران ١٠٠، ١٠١].

تنبيه: في بيان غريب ما سبق:

«شَأْسٌ»^(١): بشين معجمة فهزرة ساكنة فسين مهملة.

«عَسَا» بعين فسين مهملتين: أي كَبِرَ وَأَسَنَّ.

«الضُّغْنُ» بكسر الضاد المعجمة: الحِقْدُ.

«قَيْلَةٌ» - بفتح القاف وسكون التحتية: أم الأوس والخزرج.

«بُعَاثٌ» بعين مهملة ومثلثة - وتَقَدَّمَ الكلام عليها مبسوطاً في أبواب بدء إسلام الأنصار.

«جَبَّارٌ»: بالجيم وتشديد المُوَحَّدَةِ.

«جَدَّعَةٌ» بفتح الجيم والذال المعجمة: أي أحدثنا الحرب.

«الْحَرَّةُ» بفتح الحاء المهملة والراء المُشَدَّدَةُ: [وهي الأرض ذات الحجارة السود].

والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) انظر اللسان ٢١٧٦/٤.

الباب الثامن

في سبب نزول قوله تعالى: ﴿لقد سمع الله قول الذين

قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ [آل عمران ١٨١] وقوله تعالى: ﴿إذ قالوا

ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ [الأنعام ٩١]

روى ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، وابن جرير عن الشدّي، وابن جرير عن عكرمة أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه دخل بيت المدراس بعد نزول قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة ٢٤٥] فوجد يهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص [بن عازوراء] وكان من علمائهم وأخبارهم. فقال أبو بكر: وَيَلَكْ يَا فَنَحَاصُ: «أَتَى اللَّهَ عِزُّ وَجَلٌّ وَأَسْلِمٌ، فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَقْلَمُ أَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ قَدْ جَاءَكَ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ فِي التَّوْرَةِ». فقال فنحاص لعنه الله: «والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإننا عنه لأغنياء [وما هو عَنَّا بَغْنِيٍّ] ولو كان عَنَّا غَنِيًّا ما استقرض منا أموالنا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويُعطيناه ولو كان عَنَّا غَنِيًّا ما أعطانا الربا». فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال: «والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك أي عدو الله».

فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، انظر ما فعل بي صاحبك. فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «ما حملك على ما صنعت؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله [إن عدو الله] قال قولاً عظيماً إنه زعم أن الله عز وجل فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبتُ لله بما قال فضربتُ وجهه. فوجد ذلك فنحاص، وقال: ما قلتُ ذلك. فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص [رداً عليه] وتصديقاً لأبي بكر رضي الله عنه: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران ١٨١] ونزل في أبي بكر الصديق، وما بلغه في ذلك في الغضب: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران ١٨٦] (١).

وروى ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن الشدّي في قوله تعالى: ﴿إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء﴾، قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى ﴿[الأنعام ٩١]﴾. قال فنحاص اليهودي: ما أنزل الله على محمد من شيء. قال الشدّي: والمشهور أنها نزلت في مالك بن

(١) ذكره السيوطي في الدر ١٠٥/٢ وعراء لاس إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

الضئيف. وروى ابن جرير، وابن المنذر عن عكرمة في الآية قال: نزلت في مالك بن الضئيف. وروى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، وابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الضئيف، ومعه جماعة فخاصم النبي ﷺ. وفي رواية: فقالوا: يا أبا القاسم، ألا تأتينا بكتاب من السماء كما جاء به موسى الواحاً. فأنزل الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء ١٥٣]. فقال له النبي ﷺ: يَا نُشْدُكَ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى أَمَا تَجِدُ فِي التَّوْرَةِ أَنَّ اللَّهَ يَنْعَقُ الْخَبَرَ السَّمِينِ؟ وَكَانَ خَبْرًا سَمِينًا. فَغَضِبَ وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ. فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ الَّذِينَ مَعَهُ: وَيْحَكَ! وَلَا عَلَى مُوسَى؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ [نَقَضًا لِقَوْلِهِمْ وَرَدًّا عَلَيْهِمْ]: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام ٩١].

الباب التاسع

في سؤالهم عن أشياء لا يعرفها إلا نبي وجوابه لهم
وتصديقهم إياه بأنه أصاب وتمردهم عن الإيمان به

روى ابن إسحاق والطيبالسي والفريابي والإمام أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي، وأبو نعيم عن غيرهم بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما، والبخاري في تاريخه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق آخر عنه مختصراً، قال: «حَضَرَتْ عِصَابَةُ مِنَ الْيَهُودِ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ حَدِّثْنَا عَنْ خِلَالٍ نَسَأَلُكَ عَنْهَا لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا نَبِيٌّ. قَالَ: «سَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ وَلَكِنْ اجْعَلُوا لِي ذِمَّةَ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ، وَمَا أَخَذَ يَعْقُوبُ عَلَيَّ نَبِيَّهُ لَنْ حَدِّثَكُمْ شَيْئاً لَتُبَايِعُنِي». قَالَوا: فَذَلِكَ لَكَ. قَالَوا: أَرَبِعٌ خِلَالٍ نَسَأَلُكَ عَنْهَا: أَخْبِرْنَا أَيَّ طَعَامٍ حَرَّمَ إِسْرَائِيلَ عَلَيَّ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْزَلَ التَّوْرَةُ؟ وَأَخْبِرْنَا كَيْفَ مَاءُ الرَّجُلِ مِنْ مَاءِ الْمَرْأَةِ، وَكَيْفَ الْأُنْثَى مِنْهُ وَالذَّكَرُ؟ وَأَخْبِرْنَا كَيْفَ هَذَا النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ فِي النَّوْمِ وَمَنْ يَلِيهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟ وَأَخْبِرْنَا مَا هَذَا الرَّغْدُ؟ فَأَخَذَ عَلَيْهِمْ عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ: «لَنْ أَخْبِرْتُمْ لَتُبَايِعُنِي». فَأَعْطَوْهُ مَا شَاءَ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ. قَالَ: فَأَنْشُدْكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَيَّ مُوسَى: هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ مَرِضٌ مَرَضاً طَالَتْ سَقَمُهُ فَذَرَّ لَنْ عَافَاهُ اللَّهُ عِزُّ وَجَلُّ لِيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحْمَانُ الْإِبِلِ وَأَحَبُّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُهَا»، وَفِي رِوَايَةٍ: كَانَ يَسْكُنُ الْبَادِيَةَ فَاشْتَكَى عِرْقُ النِّسَاءِ، فَلَمْ يَجِدْ شَيْئاً يَدَاوِيهِ إِلَّا لَحُومَ الْإِبِلِ وَأَلْبَانُهَا. فَقَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ. وَقَالَ: «أَنْشُدْكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مَاءَ الرَّجُلِ أَبْيَضٌ غَلِيظٌ، وَأَنَّ مَاءَ الْمَرْأَةِ أَصْفَرٌ رَقِيقٌ، فَأَيُّهُمَا عَلَاً كَانَ الْوَلَدُ وَالشَّبَّهَ يَأْذِنُ اللَّهُ عِزُّ وَجَلُّ: إِنْ عَلَا مَاءُ الرَّجُلِ كَانَ ذَكَراً يَأْذِنُ اللَّهُ تَعَالَى، وَإِنْ عَلَا مَاءُ الْمَرْأَةِ كَانَ أُنْثَى يَأْذِنُ اللَّهُ تَعَالَى». قَالَوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ اللَّهُمَّ اشْهَدْ. قَالَ: «فَأَنْشُدْكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَيَّ مُوسَى، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ تَنَامَ عَيْنُهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ؟» قَالَوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ اللَّهُمَّ اشْهَدْ. قَالَوا: أَنْتَ الْآنَ حَدِّثْنَا مَنْ وَرَيْكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟ فَعِنْدَهَا نَجَامِعُكَ أَوْ تُفَارِقُكَ قَالَ: «وَلِيِّي جِبْرِيلُ، وَلَمْ يَعْثُ اللَّهُ عِزُّ وَجَلُّ نَبِيًّا قَطُّ إِلَّا وَهُوَ وَرَيْهِ». قَالَوا: فَعِنْدَهَا تُفَارِقُكَ، لَوْ كَانَ وَرَيْكَ سِوَاهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَاتَّبَعْتَنَا وَصَدَّقْنَاكَ. قَالَ: «فَمَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُصَدِّقُونِي؟» قَالَوا: هَذَا عَدُوُّنَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عِزُّ وَجَلُّ: «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ» [البقرة ٩٧]. وَنَزَلَتْ: «فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَيَّ غَضَبٌ»^(١) [البقرة ٩٠]. وَفِي رِوَايَةٍ فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ نَسَأَلُكَ عَنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ. وَذَكَرَ نَحْوَ مَا تَقَدَّمَ. وَزَادَ: قَالَوا: أَخْبِرْنَا عَنْ هَذَا الرَّغْدِ. قَالَ:

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢٧٨/١.

«مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ، بِيَدِهِ - أَوْ قَالَ: فِي يَدِهِ - مِخْرَاقٌ^(١) مِنْ نَارٍ يَزْجُرُ بِهِ السَّحَابَ فَيَسُوقُهُ حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ». قالوا: فما هذا الصوت؟ قال: «صوته». قالوا: صَدَقْتَ.

وروى الإمام أحمد، والبخاري، والطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه أن يهودياً قال: يا محمد مِمَّ يُخْلَقُ الْإِنْسَانُ؟ قال: «يا يهودي، يُخْلَقُ مِنْ كُلِّ مِنْ نَظْفَةِ الرَّجُلِ وَمِنْ نَظْفَةِ الْمَرْأَةِ، أَمَا نَظْفَةُ الرَّجُلِ فَتُظْفَةُ غَلِيظَةٌ مِنْهَا الْعَظْمُ وَالْعَصَبُ، وَأَمَا نَظْفَةُ الْمَرْأَةِ فَتُظْفَةُ رَقِيْقَةٌ مِنْهَا اللَّحْمُ وَالْدَّمُ^(٢)». فقال اليهودي: هكذا كان يقول من كان قبلك.

وروى الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم وصححه، والبيهقي، وأبو نعيم عن صفوان بن عسال - بعين فسين مشددة مفتوحتين مهملتين - قال: «قال يهودي لصاحبه اذهب بنا إلى هذا النبي فنسأله. فقال له صاحبه: لا تَقُلْ نَبِيَّ فَإِنَّهُ لَوْ سَمِعَكَ تَقُولُ نَبِيَّ كَانَ لَهُ أَرْبَعَةٌ أَعْيُنٌ، فَانْطَلَقَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَاهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء ١٠١] فقال: «لا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا تَزْنُوا وَلَا تَشْرِكُوا وَلَا تَسْخَرُوا وَلَا تَمْشُوا بِرِيءٍ إِلَى ذِي سُلْطَانٍ فَيَقْتُلُهُ وَلَا تَأْكُلُوا الرِّبَا وَلَا تَقْدِفُوا مُخَصَّنَةً وَلَا تَفْرُوا مِنَ الزُّحْفِ وَعَلَيْكُمْ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ خَاصَّةً أَلَّا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ». فقَبِلَا يَدَيْهِ وَرَجَلَيْهِ وَقَالَا: «نَشْهَدُ أَنَّكَ نَبِيٌّ». قال: «فَمَا يَمْنَعُكُمَا أَنْ تُسَلِّمَا؟» فقالا: «إِنْ دَاوُدَ دَعَا اللَّهَ أَلَّا يَزَالَ فِي ذُرِّيَّتِهِ نَبِيٌّ، وَإِنَّا نَخَافُ أَنْ أَسْلَمْنَا أَنْ تَقْتُلَنَا يَهُودَ^(٣)».

وروى مسلم عن ثوبان رضي الله عنه قال: كنت عند النبي ﷺ فجاء خبرٌ من اليهود فقال: أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض؟ فقال رسول الله ﷺ: «في ظلمة دون الجسر». قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: «فقراء المهاجرين». فقال: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد نون». قال: «فما غذاؤهم على أثره؟» قال: «يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا». قال: فما شربهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسبيلاً». قال: صَدَقْتَ.

قال: وجئتُ أسأل عن شيء لا يعلمه أحدٌ من أهل الأرض إلا نبيُّ أو رجلٌ أو رجلان،

(١) انظر النهاية ٢/٢٦٦.

(٢) ذكره الهيثمي في المجمع ٢٤٤/٨ وعزاه لأحمد والطبراني والبخاري بإسنادين وقال: وفي أحد إسناده عامر بن مدرك وثقه ابن حبان. ضعفه غيره، وبقية رجاله ثقات. وفي إسناد الجماعة عطاء بن السائب وقد اختلط.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢٤٠/٤ والطبراني في الكبير ٤٣/٧ والحاكم في المستدرک ٣٥١/٤ وأبو نعيم في الحلية ٩٨/٥ والبيهقي في الدلائل ٢٦٨/٦.

جئت أسأل عن الولد. قال: «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا مَنِيَّ الرجل مَنِيَّ المرأة فَذَكَرَ يَأْذَنُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِذَا عَلَا مَنِيَّ الرَّأْسِ الرَّجُلِ فَأَنْشَى يَأْذَنُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ». قال اليهودي: صَدَقْتَ وَإِنَّكَ لَنَبِيٌّ. ثم انصرف. فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ سَأَلَنِي عَنْ هَذَا الَّذِي سَأَلَنِي عَنْهُ، وَمَا أَعْلَمُ شَيْئاً مِنْهُ حَتَّى أَنْبَأَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»^(١).

وروى ابن أبي شيبة، وأحمد بن منيع، وعبد بن حميد، والنسائي في الكبرى، والطبراني بسند صحيح عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: جاء رجل من اليهود يقال له ثعلبة بن الحارث فقال: يا أبا القاسم أتزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ وقال اليهودي لأصحابه: إن أقر بها خصمته. فقال رسول الله ﷺ: «تُؤْمِنُ بِشَجَرِ الْمِسْكِ؟» قال: نعم. قال: «وَتَجِدُهَا فِي كِتَابِكُمْ؟» قال: نعم. قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ أَحَدُهُمْ لَيُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ إِلَى الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالْجَمَاعِ». فقال اليهودي: الذي يأكل ويشرب يكون له الحاجة. فقال رسول الله ﷺ: «حَاجَتُهُمْ عَرَقٌ يَفِيضُ مِنْ جُلُودِهِمْ مِثْلَ رِيحِ الْمِسْكِ، فَتَضُمُّرُ بَطُونُهُمْ».

وروى سعيد بن منصور وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبزار، والحاكم، والبيهقي، وابن جرير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أتى النبي ﷺ يهودي فقال: يا محمد أخبرني عن النجوم التي رآها يوسف عليه السلام ساجدة له ما أسماؤها؟ فلم يجبه بشيء. فنزل عليه جبريل فأخبره [بأسمائها]. فبعث إلى اليهودي وقال له: «أَتَسْلِمُ إِنْ أَخْبَرْتُكَ بِأَسْمَائِهَا؟» قال: نعم فقال: «[هي]: حَرثَانُ وَطَارِقُ وَالذُّيَالُ وَذُو الْكِنْفَاتِ وَذُو الْفُرُغِ وَوَثَابُ وَعَمُودَانُ وَقَائِسُ وَالضُّرُوجُ وَالْمُصْبِحُ وَالْفَلِيقُ وَالضِّيَاءُ وَالنُّورُ. رَأَى يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ سَاجِدَةً لَهُ». فقال اليهودي: هذه والله أسماؤها. قال الحكم بن ظهير^(٢) أحد رواة: الضِّيَاءُ هُوَ الشَّمْسُ وَهُوَ أَبُوهُ، وَالنُّورُ هُوَ الْقَمَرُ وَهُوَ أُمُّهُ. قال الحافظ في حاشية كتبها على مجمع الزوائد: رأيت في نسخة مُصَحَّحَةٌ أَنَّهُ مِنْ ضَعْفَاءِ الْعُقَيْلِيِّ.

بيان غريب ما سبق:

«حَرثَانُ» بمهمله مفتوحة ثم مثناة.

«الذُّيَالُ»: بمعجمة ثم تحتية ثقيلة.

(١) أخرجه مسلم ٢٥٢/١ (٣١٤-٣١٥) والبيهقي ١٦٩/١ والطبراني في الكبير ٨٨/٥ وأبو نعيم ٣٥١/١.
(٢) الحكم بن ظهير الفزاري الكوفي. وكان أبو إسحاق الفزاري إذا روى عنه قال: الحكم بن أبي ليلى. روى عن عاصم بن بهدلة، والسدي. وعنه جماعة آخرهم عبد بن يعقوب الأسدي، والحسن بن عرفة. قال ابن معين: ليس بثقة. وقال مرة: ليس بشيء. وقال البخاري: منكر الحديث. وقال مرة: تركوه. عاش إلى سنة ثمانين ومائة. ميزان الاعتدال ٥٧١/١.

- «الكنفات» بنون ففاء وآخره مُثَنَّة.
- «الْفَرْغ» [بفاء وراء ثم غين معجمة].
- «عَمُودَان» [بلفظ تشبیه عمود].
- «قَابِس»: بقاف ومُوَحَّدة ثم مهملة.
- «الضُرُوج»: بفتح الضاد المعجمة وآخره جيم.
- «المُصْبِح»: بضَم الميم ثم فتح المهملة ثم مُوَحَّدة مُثَقَّلَة ثم مهملة.
- «الفَلِيق»: [بalfاء واللام والمثناة التحتية ققاف] (١).

(١) قال السيوطي في الدر: وأخرج سعيد بن منصور، والبخاري، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والعقيلي في الضعفاء، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي معاً، في الدلائل عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: «جاء بستاني اليهودي إلى النبي - ﷺ - فقال: يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف - عليه السلام - ساجدة له، ما أسماؤها، فسكت النبي - ﷺ - فلم يجبه بشيء، فنزل جبريل - عليه السلام - فأخبره بأسمائها، فبحث رسول الله - ﷺ - إلى البستاني اليهودي، فقال: «هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟ قال: نعم. قال: حرثان، والطارق، والذبال، وذو الكفتان، وقابس، ودنان، وهودان، والفيلق، والمصباح، والضروح، والفريخ، والضياء، والنور، رآها في أفق السماء ساجدة له، فلما قص يوسف على يعقوب، قال: هذا أمر مشتم بجمعه الله من بعده، فقال اليهودي: إي والله إنها لأسماؤها الاسرائيليات ص ٣٠٦.

الباب العاشر

في رجوعهم إليه صلى الله عليه وسلم في عقوبة الزاني وما ظهر في ذلك من كتمانهم ما أنزل الله عز وجل في التوراة من حكمه وصفة نبيه صلى الله عليه وسلم

روى ابن إسحاق وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه، وعبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن جرير، والبيهقي في الدلائل من وجه آخر عنه، وأحمد، ومسلم، وأبو داود، والنحاس في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن البراء بن عازب، والشيخان عن ابن عمر، وابن جرير، والطبراني عن ابن عباس، وعبد بن حميد في مسنده، وأبو داود، وابن ماجه وابن المنذر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما:

أن أحبار يهود اجتمعوا في بيت المذراس حين قدم رسول الله ﷺ، وقد زنى رجل بعد إحصان بامرأة من يهود قد أحصنت - قال جابر: من أهل فدك، كتب أهلها إلى أناس من يهود المدينة أن سلوا محمداً عن ذلك، فإن أمركم بالجلد فخذوه عنه وإن أمركم بالرجم فلا تأخذوه عنه. انتهى. قال أبو هريرة: فلما اجتمعوا في بيت المذراس قال: ابعثوا بهذا الرجل وبهذه المرأة إلى محمد، وفي لفظ: اذهبوا بنا إلى هذا النبي فإنه يبعث بتخفيف، فإن أفتانا بفثنا دون الرجم قبلناها واحتججنا بها عند الله وقلنا فثنا نبي من أنبيائك. وفي رواية: فقالوا: ولوه الحكم فيهما فإن عمل فيهما بعملكم من التوجيه - وهي الجلد بخبل من ليف مطلي بقار ثم تسود وجوههما، ثم يُخملان على جمارين وتجعل وجوههما من قبل أدبار الجمارين - فأتبعوه فإنما هو ملك سيد قوم، وإن هو حكم فيهما بالرجم فإنه نبي فاحذروه على ما في أيديكم أن يسلبكموه.

فأتوا رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد في أصحابه، فقالوا: يا أبا القاسم هذا رجل قد زنى بعد إحصانه بامرأة قد أحصنت فاحكم فيهما فقد وليتاك الحكم فيهما. فقال رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة؟» قالوا: نفضحهما ويجلدان. وفي رواية قالوا: دعنا من التوراة وقل ما عندك. فأفتاهم بالرجم، فأنكروه. فلم يكلمهم رسول الله ﷺ، حتى أتى بيت مذرايسهم، فقام على الباب فقال: «يا معشر يهود أخرجوا إلي علماءكم». فأخرجوا إليه عبد الله بن صوريا وأبا ياسر بن أخطب، ووثب بن يهودا، فقالوا: إن هؤلاء علماءونا.

فقال رسول الله ﷺ: «أنشدكم الله الذي أنزل التوراة على موسى ما تجدون في التوراة

على من زنى بعد إحصان؟ قالوا: يُحْمَمُ وَهُجَّب. فقال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها آية الرجم. فأتوه بالتوراة فنشروها فوضع [أحدهم] يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال عبد الله بن سلام: ارفع يدك. فرفعها فإذا آية الرجم تلوح. قال: صدق محمد. وفي رواية: أن رسول الله ﷺ لما أقسم عليهم بالله عز وجل سكت شاب منهم فلما رآه رسول الله ﷺ سكت أظ به المسألة، فقال: إذ نشدتنا فإننا نجد في التوراة الرجم. فقال النبي ﷺ: «فما أول ما رخصتم أمر الله عز وجل؟» قال: زنى رجل ذو قرابة من مَلِكٍ من ملوكنا فأختر عنه الرجم. ثم زنى رجل في أسرة من الناس فأرادوا رجمه فحال قومه دونه وقالوا: والله لا يُرجم صاحبنا حتى نجيء بصاحبك فتزوجمه، فاصطلحوا على هذه العقوبة بينهم. وفي رواية أن الزنى كثر في أشرافنا، فكننا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا حتى نجعل شيئاً ونقيمهُ على الشريف والوضيع. فأجمعنا على التحميم والجلد، أما والله يا أبا القاسم إنهم ليعرفون إنك نبي مُرْسَلٌ ولكنهم يخشُدونك.

فقال النبي ﷺ: «اللهم إني أول من أخيا أمرك إذ أماتوه قديماً بالشهوة»^(١). فجاؤوا بأربعة شهود فشهدوا بأنهم رأوا ذكره في فرجها مثل الميل في المكحلة، فأمر رسول الله ﷺ بهما فرجما عند باب مسجده، وفي رواية: بالبلاط. قال ابن عمر: فرأيت الرجل يُجنى على المرأة ليقيها الحجارة، وفي لفظ: فكنت فيمن رجمها فلقد رأيت يقيها الحجارة بنفسه.

تبيه: في بيان غريب ما سبق:

«بيت المذراس»^(٢): بكسر الميم وهو البيت الذي يقرأ فيه أهل الكتاب كُتُبهم.

«التجيه»^(٣): بفتح الفوقية وسكون الجيم وكسر الموحدة بعدها تحتية ساكنة ثم هاء، فُسِّرَ الحديث بالجلد والتحميم والمخالفة في الركوب قال ثابت بن قاسم: وقد يكون معناه التعبير والإغلاظ من جَبَّهْتُ الرجل أن قابلته بما يكره، وضبطها بعضهم بمشاة في آخره وقبلها حركة، وأصله البروك وهو بعيد هنا.

«صوريا»: بصاد مهملة مضمومة وآخره ياء وألف.

«يايسر»: بتحتية وسين مهملة.

(١) أخرجه مسلم (١٣٢٧) وأبو داود (٤٤٤٦) وابن ماجه (٢٥٥٥ . ٢٥٥٨) وأحمد في المسند ٢٨٦/٤ والطبراني في الكبير ١٥٠/٦.

(٢) انظر اللسان ١٣٦٠/٢.

(٣) انظر اللسان ٥٤٢/١.

«أخطب»: بوزن أفعال التفضيل من الخطبة.

«أنشدكم بالله»: أذكركم أو سألتكم به مُقسماً عليكم.

«تلوح»: تبدو.

«ألظ»: به: لازمه.

«النشدة»: بكسر النون من المناشدة.

«الأشرة»^(١): القوة.

«البلاط»^(٢) - بفتح الموحدة: الحجارة المفروشة، وموضع بالمدينة وهو المراد هنا.

«يُجنى عليها»: يَكِبُّ ويميل عليها.

(١) انظر اللسان ٧٨/١.

(٢) انظر اللسان ٣٤٤/١.

الباب الحادي عشر

في سؤاله لهم أن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين في دعاوى ادعواها

قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة البقرة، آية: ٩٤] روى ابن جرير عن أبي العالية أنه قال: «قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وقالوا: نحن أبناء الله وأحببواؤه». فأنزل الله تعالى الآية الأولى فلم يفعلوا. وروى البيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الآية الأولى لما نزلت قال لهم رسول الله ﷺ: «إن كنتم في مقاتلكم صادقين قولوا اللهم أمثنا فوالذي نفسي بيده لا يقولها رجل منكم إلا غصَّ بِرِيقِهِ فمات مكانه»، فَأَبَوْا أَنْ يَفْعَلُوا وَكَرِهُوا مَا قَالَ لَهُمْ، فَنَزَلَ: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة، آية: ٩٥] يعني عملته أيديهم. فقال رسول الله ﷺ عند نزول هذه الآية: «والله لن يتمنوه أبداً». وروى ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق آخر عنه، قال: «لو تمنى اليهود الموت لَشَرِقَ أَحَدُهُمْ بِرِيقِهِ». وروى الإمام أحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي، وابن مَزْدَوِيَه، وأبو نُعَيْم، عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن اليهود تمنوا الموت، لماتوا ولزأوا مقاعدهم من النار».

الباب الثاني عشر

في سحرهم إياه صلى الله عليه وسلم

روى الشيخان والإسماعيلي، وابن مَرَدَوِيَه، والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها، والإمام أحمد، وعبد بن حَمِيد، والبخاري، والنسائي عن زيد بن أَرْقَم، وابن مَرَدَوِيَه عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وابن سعد، والبيهقي، وابن مَرَدَوِيَه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن سعد عن عُمَر بن الحكم مُرْسَلًا، قال عُمَر بن الحكم: لما رجع رسول الله ﷺ من الحُدَيْبِيَّة في ذي الحجة ودخل المُحَرَّم سنة سَبْع جاءت رؤساء يهود [الذين بقوا في المدينة مِمَّن يُظهر الإسلام وهو منافق] إلى لَبِيد بن الأَعْصَم، وكان حليفاً في بني زُرَيْق وكان ساحراً [قد علمت ذلك يهود أنه أعلمهم بالسُّخَر وبالسُموم] فقالوا له: يا أبا الأَعْصَم أنت أشخَرنا، وقد سَخَرنا محمداً فلم نصنع شيئاً وأنت ترى أثره فينا، وخِلافه ديننا، ومن قتل منا وأجلى ونحن نجعل لك على ذلك جُغلاً على أن تسحره لنا سِخراً يَنْكُوهُ فجعلوا له ثلاثة دنائير على أن يسحر رسول الله ﷺ.

وقالت عائشة رضي الله عنها في رواية عبد الله بن عُمَيْر: سحر رسول الله ﷺ يهودي من يهود بني زُرَيْق. وفي رواية ابن عُيَيْتَةَ: رجل من بني زُرَيْق حليف يهود وكان منافقاً^(١). وفي حديث عبد الرحمن بن كعب بن مالك عند ابن سعد: إنما سَخَره بنات أَعْصَم أخوات لَبِيد وكُنَّ أشخَر من لَبِيد وأخْبَث وكان لَبِيد هو الذي ذهب به فأدخله تحت رَاغُوفَة البئر^(٢)، فلما عَقَدُوا تلك العُقَد أنكروا رسول الله ﷺ تلك الساعة بَصْرَه، ودَسَّ بناتُ أَعْصَم إحداهن فدخلت على عائشة رضي الله عنها [فخَبَرتها عائشة أو سمعت عائشة تذكر ما أنكروا رسول الله ﷺ من بَصْرَه] ثم خرجت إلى أخواتها [والى لَبِيد] فأخبرتهم بذلك. فقالت إحداهن: «إِنْ يَكُن نَبِيًّا فَسَيُخْبِر وَإِنْ يَكُ غَيْرَ ذَلِكَ فَسَوْفَ يُدَلُّهُ هَذَا السُّخَر حتى يذهب عقله».

وفي رواية في الصحيح [عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ سُخِرَ حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن»^(٣). قال سفيان: وهذا شرٌّ ما يكون إذا كان كذا.

وفي مُرْسَل يحيى بن يعمر عن عبد الرزاق: حتى أنكروا بَصْرَه، فدخل عليه أصحابه

(١) أخرجه البخاري ٢٣٢/١٠ (٥٧٦٣).

(٢) راعوفة البئر: هي صخرة تترك في أسفل البئر إذا حفرت تكون نائمة هناك، فإذا أرادوا تنقية البئر جلس المتقي عليها. وقيل: هي صخرة يكون على رأس البئر يقوم المتقي عليه. وتروى بالناء المثناة. انظر النهاية ٢٣٥/٢.

(٣) أخرجه البخاري ٢٤٣/١٠ (٥٧٦٥).

يعودونه فخرجوا من عنده وهم يرون أنه لما به [مطبوب]. وفي رواية عمرة عن عائشة عند البيهقي: فكان يذوب وما يدري ما وجَّعه فاشتكى لذلك أياماً. وفي رواية أبي ضمرة عند الإسماعيلي: مكث أربعين ليلة. وفي رواية وهيب عند الإمام أحمد: ستة أشهر، حتى إذا كان ذات يوم وهو عندي دعا الله عز وجل ثم دعا ثم قال: «يا عائشة أشعرت أن الله أفثاني فيما استفتيته فيه؟» قلت: وما ذلك يا رسول الله؟ قال: «أتاني رجلان^(١)». وفي حديث ابن عباس: جبريل وميكائيل. فقعد أحدهما عند رأسي. قال الدمياطي: هو جبريل. والآخر عند رجلي. ثم قال أحدهما لصاحبه. وفي حديث ابن عباس: فقال ميكائيل: يا جبريل إن صاحبك شاك. قال: أجل. قال: وما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب. قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودي. قال: فماذا؟ قال: «في مُشط ومُشاطة». وفي لفظ: مُشط ومُشاقة وجُفَّ طلع نخلة ذكره.

وفي حديث عائشة من طريق ابن عيينة، «فقال الذين عند رأسي». قال الحافظ: «وكانها أصوب». وفي حديث ابن عباس عند البيهقي قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذي أروان. وفي لفظ: بئر ذُرْوَان. وفي حديث ابن عباس عند ابن مَرْدَوِيَه: وهو بئر ميمون في كُدَيْة^(٢) تحت صخرة في الماء. قال: فما دواء ذلك؟ قال: تُنَزَّح البئر ثم تُقَلَّب الصخرة فتؤخذ الكدية فيها مثال إحدى عشرة عُقْدَةَ فتُحْرَق فإنه يَبْرَأُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى. فبعث رسول الله ﷺ عَلِيًّا وَعَمَّارًا. وفي حديث آخر: ذهب رسول الله ﷺ في أناس من أصحابه إلى البئر، فنظر إليها، وعليها نخل، فدخل رجل فاستخرج جُفَّ طَلْعَةَ [ذكر] من تحت الراعوفة، فإذا فيها مُشط رسول الله ﷺ، وإذا وَتَرٌ معقود فيه إحدى عشرة عُقْدَةَ مُغْرَزَةٌ بِالْإِبْرَةِ، فنزل جبريل عليه السلام بالمعوذتين: سورة الفلق وسورة الناس [وهما إحدى عشرة آية على عدد تلك العُقْدَةِ وأمر أن يُتَقَوَّدَ بهما] فجعل كلما قرأ آية انحلَّت عُقْدَةٌ، وكلما نَزَعَ إِبْرَةً وجد لها أَلْمًا ويجد بعدها راحة. فقام رسول الله ﷺ كأنما أنشط من عِقَال. قالت عائشة: فلما رجع قال: «لَكأنَّ ماءها نُقَاعَةُ الْجِنِّاءِ وكان رؤوس نخلها الذي يشرب ماءها قد التوى سَعْفُهُ كأنه رؤوس الشياطين». قلت: يا رسول الله أفلاً استخرجته؟ قال: «لا». وفي رواية من حديث عائشة في الصحيح وغيره: فقلت يا رسول الله: أفلاً. قال سفيان: أي تَشْرَبَتْ. فقال: «أما والله». وفي رواية: «أما أنا فقد عافاني الله وشفاني، وَخَشِيْتُ أَنْ أُتَوَّرَ». وفي رواية أُثَيْرَ. على الناس منه شَرَاهُ. وأمر بها فَدْفِنَتْ. فقيل: يا رسول الله لو قتلته فقال: «ما وراءه من عذاب أشد». وفي رواية: فأخذه رسول الله ﷺ فاعترف فعفا عنه ولم يقتله.

(١) أخرجه البخاري ١٧٧/٧ (دار الفكر) وابن ماجه (٢٦١).

(٢) الكدية: قطعة غليظة صلبة لا تعمل فيها القأس. وأكذى الحافر: إذا تلفها. انظر النهاية ١٥٦/٤.

تنبيهات

الأول: السُّحْر يُطْلَق ويراد به الآلة التي يُسحر بها، ويطلق ويراد به فعل الساحر، وتكون الآلة تارةً معنى من المعاني فقط كالرُّقَى والثَّفَث في العُقَد، وتارةً تكون بالمحسوسات. وتارةً تجمع الأمرين الحسي والمعنوي وهو أبلغ.

الثاني: اختلف في السحر، فقيل: هو تخيل فقط ولا حقيقة له، وهو اختيار أبي جعفر الأستراباذي من الشافعية، وأبي بكر الدارمي من الحنفية، وابن حزم الظاهري وطائفة. قال النووي: «والصحيح أن للسحر حقيقة، وبه قطع الجمهور، وعليه عامة العلماء، وبدل عليه الكتاب والسنة الصحيحة المشهورة» انتهى. ولكن محل النزاع: هل يقع بالسحر انقلاب عين أو لا؟ فمن قال إنه تخيل فقط، منع. وقيل إن له حقيقة. واختلفوا هل له تأثير فقط بحيث يُغَيَّر المزاج فيكون نوعاً من الأمراض، وينتهي إلى حالة بحيث يصير الجماد حيواناً مثلاً وعكسه؟ فالذي عليه الجمهور، الأول. وذهبت طائفة قليلة إلى الثاني.

فإن كان بالنظر إلى القدرة الإلهية فمُسَلَّم به، وإن كان بالنظر إلى الواقع فهو محل الخلاف، فإن كثيراً ممن يدَّعي ذلك لا يستطيع إقامة البرهان عليه. وذكروا قوماً أنكروا السحر مُطلقاً وكأنهم عنوا القائلين بأنه تخيل وإلا فهذه مكابرة. قال المازري: جمهور العلماء على إثبات السحر وأن له حقيقة، ونفى بعضهم حقيقته وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة، وهو مردود لورود النقل بإثبات السحر، ولأن العقل لا ينكر أن الله تعالى قد يخرق العادة عند نُطق الساحر بكلام مُلْفَق أو تركيب أجسام أو بمزج بين قُوَى على ترتيب مخصوص، ونظير ذلك ما يقع من حُذاق الأطباء من مزج بعض العقاقير ببعض حتى ينقلب الضَّارُّ منها بمفرده فيصير بالتركيب نافعاً. وقيل: لا يزيد تأثير السحر على ما ذكر الله تعالى في قوله: ﴿يُفَرِّقُونَ بَيْنَ السَّوْءِ وَالرَّحْمَةِ﴾^(١) [سورة البقرة، آية ١٠٢] لكَوْنُ المَقَامِ مَقَامَ تَهْوِيلٍ، فلو جاز أن يقع به أكثر من ذلك لذكره. قال المازري: «والصحيح من جهة العقل أنه يجوز أن يقع به أكثر من ذلك، والآية ليست نصاً في منع الزيادة ولو قلنا إنها ظاهرة في ذلك». ثم ذكر الفرق بين السُّحْر والمُفْجِزَة والكرامة، وقد ذكرته في أبواب المعجزات.

الثالث: قال النووي: «عمل السحر حرام وهو من الكبائر بإجماع، وقد عَدَّه النبي ﷺ من السبع المُوبقات، ومنه ما يكون كُفْراً، ومنه ما لا يكون كُفْراً بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكُفْر فهو كفر كالتَّعْبُد للشياطين أو الكواكب. وأما تَغْلِيْمُهُ وتَعَلُّمُهُ فحرام، فإن كان فيه ما يقتضي الكُفْر اشْتِيْبَ مِنْهُ [متعاطيه] ولا يُقْتَل. فإن تاب قُبِلَتْ تَوْبَتُهُ، وإن لم يكن فيه ما يقتضي الكُفْر عَزَّر. وعن الإمام مالك: السَّاحِرُ كافر يُقْتَل ولا يُسْتَأْتَب. بل يَتَحْتَمُّ

قَتْلَهُ كَالزُّنْدِيقِ. قال القاضي: «وبِقَوْلِ مالِك قال أحمد، وجماعة من الصحابة والتابعين». انتهى. وإلى ذلك جنح البخاري.

الرابع: قال الحافظ: «أجاز بعض العلماء تَعَلُّمَ السُّحْرِ لِأحد أمرين: إما لِتَمَيُّزِ ما فيه من كُفْرٍ من غَيْرِهِ، وإما لِإِزَالَتِهِ عَمَّن وقع/ فيه. فأما الأوَّل فلا محذور فيه إلا من جهة الاعتقاد، فإذا سَلِمَ الاعتقاد فمعرفة الشيء معرفة مجردة لا تستلزم مَنعاً، كمن يعرف عبادة أهل الأوثان؛ لأن كيفية ما يعرفه الساحر إنما هي حكاية قَوْلٍ وفِعْلٍ، بخلاف تعاطيه والعمل به. وأما الثاني فإن كان لا يَتَيَّمُ كما زَعَمَ بعضهم إلا بنوع من أنواع الكُفْرِ أو الفِشْقِ فلا يحل أصلاً، وإلا جاز للمعنى المذكور، ولهذا مزيد بَشَطٍ يأتي إن شاء الله في أبواب عصمته ﷺ.

الخامس: لبيد - بفتح اللام وكسر الموحدة بعدها تحتية ساكنة ثم مهملة - ابن الأعصم بوزن أحمر بمهملتين - وُصِفَ في رواية بأنه من يهود بني زُرَيْقٍ. وفي رواية [أخرى] بأنه رجل من بني زُرَيْقٍ حليف يهود، وكان منافقاً. ويُجَمَعُ بينهما بأن من أطلق أنه يهودي نظر إلى ما في نفس الأمر، ومن أطلق عليه منافقاً نظر إلى ظاهر أمره. قال أبو الفرج: وهذا يدل على أنه أسلم نفاقاً وهو واضح.

السادس: في مدة مُكْتَبِهِ ﷺ مَسْحُوراً: وقع في رواية أبي ضَمْرَةَ عند الإسماعيلي في صحيحه أنه مَكْتُبٌ أربعين ليلة. وفي رواية وَهَيْبٍ عن هشام عند الإمام أحمد ستة أشهر. ويمكن الجمع بينهما بأن تكون الستة أشهر من ابتداء تَغْيِيرِ مِزَاجِهِ والأربعين يوماً من استحكامه. قال السهيلي: لم أقف على شيء من الأحاديث المشهورة على قَدْرِ المدة التي مَكْتُبٌ ﷺ فيها من السحر، حتى ظَفِرْتُ به في جامع مَعْمَرٍ [بن راشد] عن الزُّهْرِيِّ قال: «سُحِرَ رسول الله ﷺ سَنَةً [يُحَيَّلُ إليه أنه يفعل الفِعْلَ ولا يفعله]. وقد وجدناه موصولاً بِإِسْنَادٍ صحيح فهو المعتمد.

السابع: قوله: «فدعا الله عز وجل ثم دعا الله عز وجل»: قال الإمام النووي: «فيه استحباب الدعاء عند حصول الأمور المكروهات وتكريره وحُشْنُ الالتجاء إلى الله تعالى في رفع ذلك». قال الحافظ: «سَلَّكَ النبي ﷺ في هذه القضية مَسْلَكَ التَّفْوِيزِ وتعاطي الأسباب، ففي أول الأمر قَوْضٌ وسَلْمٌ لأمر ربِّه، واحتسب الأجر في صبره على بلائه. ثم لما تمادى ذلك وَخَشِيَ من تماديه أن يَضْعُفَ عن عبادته جنح إلى التداوي ثم إلى الدعاء. وكل من التَمَقَّاتِ غَايَةً «في الكمال».

الثامن: وقع في حديث ابن عباس عند ابن سعد: أن رسول الله ﷺ أرسل علياً وعماراً لاستخراج السحر. وفي رواية عائشة في الصحيح: أنه ﷺ تَوَجَّهَ إلى البئر مع جماعة. وعند

ابن سعد عن عمر بن الحَكَم مُرَمَلًا: «فَدَعَا جُبَيْرَ بْنَ إِيَّاسِ الزُّرْقِيَّ فَدَلَّهُ عَلَى مَوْضِعِهِ فِي بَثْرِ ذَرَوَانَ تَحْتَ أَرْعُوفَةِ الْبَثْرِ فَخَرَجَ جُبَيْرٌ حَتَّى اسْتَخْرَجَهُ. قَالَ ابْنُ سَعْدٍ: وَيُقَالُ: إِنَّ الَّذِي اسْتَخْرَجَ السُّخْرَ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَيْسُ بْنُ مَخْصَنٍ الزُّرْقِيَّ. وَيُجْمَعُ بِأَنَّهُ أَعَانَ جُبَيْرًا عَلَى ذَلِكَ وَيَاسِرُهُ بِنَفْسِهِ فَتُسَبَّحُ إِلَيْهِ»

التاسع: في بيان غريب ما سبق:

«الْحَدِيثِيَّة»: يَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي غَزْوَتِهَا.

«الْحَلِيفُ»^(١): الْمُعَاهِدُ.

«بَنُو زُرَيْقٍ»: بِتَقْدِيمِ الزَّايِ تَصْغِيرُ أَرْقٍ.

«أَشْعَرَتِ؟»: أَعْلِمْتِ؟.

«مَطْبُوبٌ»: مَسْحُورٌ. يُقَالُ: طُبَّ الرَّجُلُ - بِالضَّمِّ - إِذَا سُحِرَ وَكُنُوا بِالطُّبِّ عَنِ السُّخْرِ تَفَاوُلًا بِالْبُزْءِ كَمَا كُنُوا بِالسَّلِيمِ عَنِ اللَّدِيغِ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي الْمُفْهِمِ: «إِنَّمَا قَالُوا لِلْسُّخْرِ طِبٌّ؛ لِأَنَّ أَصْلَ الطُّبِّ الْجِدْقُ بِالشَّيْءِ وَالتَّقْطُنُ لَهُ، فَلَمَّا كَانَ كُلُّ مَنْ عَالَجَ الْمَرَضَ وَالسُّخْرَ إِنَّمَا يَأْتِي عَنِ فِطْنَةِ وَجِدْقٍ، أُطْلِقَ عَلَى كُلِّ مِنْهُمَا هَذَا الْاسْمُ.»

«مُشْطٌ»: مَعْرُوفٌ وَتَقْدِمُ الْكَلَامِ عَلَيْهِ فِي شَرْحِ غَرِيبِ قِصَّةِ الْمِعْرَاجِ.

«مُشَاطَةٌ»: مَا مُشِطَ مِنَ الرَّأْسِ.

«مُشَاقَّةٌ» قِيلَ: مُشَاقَّةُ الْكَثَّانِ. وَقِيلَ الْمُشَاقَّةُ هِيَ الْمُشَاطَةُ بَعَيْنِهَا، وَالْقَافُ تُبَدَّلُ مِنَ الطَّاءِ لِقُرْبِ الْمَخْرَجِ وَهِيَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ.

«جَفٌّ»: بِالْجِيمِ وَالْفَاءِ: وَهُوَ الْغِشَاءُ الَّذِي يَكُونُ عَلَى الطَّلْعِ.

«الظَّلْعُ»^(٢): يُطْلَقُ عَلَى الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، فَلِهَذَا قَبِيْدُهُ بِالذَّكَرِ، وَفِي رِوَايَةٍ فِي الصَّحِيحِ بِتَنْوِينِ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ فَهُوَ صِفَةٌ أَلْحَقَتْ إِلَى ذَكَرٍ.

«بَثْرُ ذَرَوَانَ»: بِالذَّالِ الْمَعْجَمَةِ وَزَنْ مَرَوَانَ. وَفِي رِوَايَةٍ «ذِي أَرَوَانَ» وَهِيَ الْأَصْلُ فَسُهِّلَتْ الْهَمْزَةُ لِكثْرَةِ الْاسْتِعْمَالِ فَصَارَتْ ذَرَوَانَ. وَفِي رِوَايَةِ السَّهْلِيِّ: ذِي رَوَانَ بِإِسْقَاطِ هَمْزَتِهِ [وَهُوَ] غَلَطٌ.

«الرَّاعُوفَةُ»: كَذَا لِأَكْثَرِ رِوَاةِ الصَّحِيحِ بِزِيَادَةِ أَلْفٍ خِلَافًا لِابْنِ التَّيْنِ حَيْثُ زَعَمَ أَنَّ رَعُوفَةَ

(١) انظر اللسان ٢/٩٦٤.

(٢) انظر اللسان ٤/٢٦٩١.

للأصيلي فقط وهو المشهور في اللغة. وفي لغة أَرَعُوفَة. وفي رواية عند أحمد (رَعُوفَة)، بدء مثلثة بدل الفاء وهي لغة أخرى معروفة. وفيها لغة أخرى (زَعُوبَة) بنزوي ونموحدة، وهم بمعنى واحد. والراعوفة^(١) حَجَرٌ يُوضَع عند رأس البئر لا يُسْتَضَاعُ قَلْعُهُ؛ يقوّم عليه مُسْتَقْبِيٌّ؛ وقد يكون في أسفل البئر إذا اخْتَفِرَتْ، يجلس عليها الذي يُنْظَفُ البئر، وهو حجر يوجد صدق لا يستطاع قَلْعُهُ.

«أَتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتَهُ فِيهِ»: أَجَابَنِي فِيمَا دَعَوْتُهُ، فأطلق على الدعاء استفداء لأنّ الداعي طالب، والمُجِيب مُسْتَفْتِيٌّ، والمعنى: أَجَابَنِي عَمَّا سَأَلْتَهُ عَنْهُ؛ لأنّ دعاءه كان الله أضاعه عسى حقيقة ما هو فيه لما اشد عليه الأمر.

«أَنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ»^(٢): بضم الهمزة. وفي رواية إسقاط الألف، أي حُنْ كَمَا قَالَ فِي النِّهَايَةِ، وكثيراً ما يجيء في الرواية «كَأَنَّمَا نَشِطَ مِنْ عِقَالٍ» وليس بصحيح، يقال: نَشِطْتُ الْعُقْدَةَ إِذَا عَقَدْتَهَا، وَأَنْشَطْتُهَا وَأَنْشَطْتَهَا إِذَا حَلَلْتَهَا. انتهى. قال في البارع تقول العرب: «كَأَنَّمَا أَنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ»، بضم الهمزة. ويقال في المثل للمريض: يُسْرِعُ بُرُؤُهُ، وَالْمَغْشِيُّ عَلَيْهِ تُسْرِعُ إِفَاقَتَهُ فِي أَمْرٍ شَرَعَ فِيهِ عَزِيمَتُهُ: «كَأَنَّمَا أَنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ»، ويقال نشط، انتهى. فأثبت ما في الرواية لغةً، وهو أعرف باللغة من صاحب النهاية.

«تَنْشُرَتْ»: ظاهر صحيح البخاري أنه من التَّشْرَةِ، ويحتمل أنه من التَّشْرِ بمعنى الإخراج فيوافق رواية من رواه بلفظ «أَفَأَخْرَجْتَهُ؟» ورواية «أَفَلَا» وحذف المفعول للعلم به ويكون التَّشْرَاءُ بِالْمُخْرَجِ مَا حَوَاهِ الْجُفَى لَا الْجُفَى نَفْسَهُ، ليتأكد الجمع المتقدم ذكره. والتَّشْرَةُ ضَرْبٌ مِنَ الْعِلَاجِ يُعَالَجُ بِهِ مَنْ يُظَنُّ أَنَّ بِهِ سِحْرًا أَوْ مَسًّا. قيل للتَّشْرَةُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ يُكْشَفُ بِهَا عَنْهُ مَا حَاطَهُ مِنَ الدَّاءِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) انظر اللسان ١٦٧٣/٣.

(٢) انظر اللسان ٤٤٢٨/٦.

الباب الثالث عشر

في معرفة بعض طغاة المنافقين الذين انضافوا إلى اليهود وبعض أمور

دارت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم

سرد ابن إسحاق وجماعة أسماء المنافقين، وأنا ذاكِرُ هنا بعض من نزل القرآن الكريم بكشف حاله، وأقدم قبل ذلك معنى النفاق. النفاق: اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وهو فعل المنافق الذي يَشْتُرُ كُفْرَهُ وَيُظْهِرُ إِيمَانَهُ كَمَا يَتَسَتَّرُ الرَّجُلُ بِالتَّفَقُّ الَّذِي هُوَ الشَّرْبُ^(١)، فقبل هو اشتقاقه من هذا. وقيل من قولهم نافع اليربوع إذا دخل في قاصعائه وخرج من نفاقائه وبالعكس. وذلك أن اليربوع له جِجْرَةٌ أَرْبَعَةٌ: النَافِقَاءُ وَالْقَاصِعَاءُ وَالرَّاهِطَاءُ وَالذَّمَاءُ، فَهُوَ يُرْفَقُ أَقْصَى النَافِقَاءِ وَيَكْتُمُهَا وَيُظْهِرُ غَيْرَهَا. فَإِذَا قَصَدَ مِنْ غَيْرِهَا مِنَ الْجُحْرِ ضَرْبَ النَافِقَاءِ بِرَأْسِهِ فَانْتَفَقَ مِنْهَا أَي خَرَجَ. وَقِيلَ: إِنَّهَا نَافِذَةٌ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، فَمِنْ أَيُّهَا قَصَدَ خَرَجَ مِنَ الْآخَرَى. فَكَذَلِكَ الْمُنَافِقُ يَدْخُلُ فِي الْإِيمَانِ مِنْ جِهَةٍ وَيَخْرُجُ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى فَاشْتِقَاقُهُ مِنْ فِعْلِ الْيَرْبُوعِ. وَقِيلَ: اشْتِقَاقُهُ مِنْ صُورَةِ النَافِقَاءِ لَا مِنْ فِعْلِ الْيَرْبُوعِ، وَذَلِكَ أَنَّ النَافِقَاءَ ظَاهِرُهُ مَدْخُلٌ وَبَاطِنُهُ مَخْرُجٌ وَتَهَرَّبَ، فَكَذَا الْمُنَافِقُ ظَاهِرُهُ إِيمَانٌ وَبَاطِنُهُ كُفْرٌ، وَمَحَلُّ النِّفَاقِ الْقَلْبُ.

ولما قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَسْلَمَ بَشَرٌ كَثِيرٌ مِمَّنْ أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هِدَايَتَهُ. وَانْضَافَ إِلَى الْيَهُودِ أَنْاسٌ مِنَ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ مِمَّنْ كَانَ عَسَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَكَانُوا أَهْلَ نِفَاقٍ عَلَى دِينِ آبَائِهِمْ مِنَ الشُّرْكِ وَالتَّكْذِيبِ بِالْبَعْثِ، إِلَّا أَنَّ الْإِسْلَامَ قَهَرَهُمْ بِظُهُورِهِ، وَاجْتِمَاعِ قَوْمِهِمْ عَلَيْهِ، فَتَظَاهَرُوا بِالْإِسْلَامِ وَاتَّخَذُوهُ جُنَّةً مِنَ الْقَتْلِ وَنَافَقُوا فِي السَّرِّ، وَكَانَ هَوَاهِمُ مَعَ يَهُودٍ لَتَكْذِيبِهِمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجُحُودِهِمُ الْإِسْلَامَ.

وقد ذكر الله أخبارهم في سورة براءة وغيرها. فمن المنافقين: الجُلَّاسُ - بجيم مضمومة فلام مُخَفَّفَةٌ فَأَلِفٌ فَسِينٌ مَهْمَلَةٌ - ابن سُوَيْدِ بْنِ الصَّامِتِ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ يَمُنُّ تَخَلُّفَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ. وَرَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَبْدِ الرَّزَّاقِ، وَابْنِ سَعْدٍ، وَابْنِ الْمُنْذِرِ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ عَزْوَةَ قَالُوا: لَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ فِيهِ ذِكْرُ الْمُنَافِقِينَ قَالَ الْجُلَّاسُ: «وَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ صَادِقًا [عَلَى إِخْوَانِنَا الَّذِينَ هُمْ سَادَاتُنَا وَخِيَارُنَا] لَنَحْنُ شَرُّ مَنْ الْحَمِيرِ». فَسَمِعَهَا عُثْمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ فِي حَجَرِ جُلَّاسٍ خَلَفَ عَلَى أُمِّهِ بَعْدَ أَبِيهِ. فَقَالَ لَهُ عُثْمَيْرُ: «وَاللَّهِ يَا جُلَّاسُ إِنَّكَ لِأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَأَحْسَنُهُ عِنْدِي يَدًا وَأَعَزُّهُ عَلَيَّ أَنْ يُصِيبَهُ شَيْءٌ يَكْرَهُهُ، وَلَقَدْ قُلْتُ مَقَالَةً

(١) الشرب: النشك في حُفْيَةٍ. انظر النهاية ٣٥٦/٢.

لئن رَفَعْتَهَا عَلَيْكَ - لَأَفْضَحْتِكَ وَلئن صَمَتْتُ لَيَهْلِكَنَّ دِينِي وَإِحْدَاهُمَا أَيْسَرُ عَلَيَّ مِنَ الْآخَرَى. فَمَشَى إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ مَا قَالَ لَهُ جُلَّاسٌ. فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِ فَحَلَفَ جُلَّاسٌ بِاللَّهِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ كَذَبَ عَلَيَّ عُثَيْرٌ وَمَا قُلْتُ مَا قَالَ عُثَيْرٌ. فَقَالَ عُثَيْرٌ: «بَلِ وَاللَّهِ قُلْتَهُ فَتُبَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلَوْلَا أَن يَنْزِلَ قُرْآنٌ فَيَجْعَلُنِي مَعَكَ مَا قُلْتَهُ». فَجَاءَ الْوَحْيُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَكَتُوا لَا يَتَحَرَّكُ أَحَدٌ. وَكَذَلِكَ كَانُوا يَفْعَلُونَ لَا يَتَحَرَّكُونَ إِذَا نَزَلَ الْوَحْيُ، فَرَفِعَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ» [التوبة ٧٤] فَقَالَ [جُلَّاسٌ]: «قَدْ قُلْتَهُ وَقَدْ عَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ التَّوْبَةَ فَأَنَا أَتُوبُ». فَقَبِلَ ذَلِكَ مِنْهُ، وَكَانَ هُمْ أَنْ يَلْحَقَ بِالْمُشْرِكِينَ. [وَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِأُذُنِ عُثَيْرٍ وَقَالَ]: «يَا غُلَامُ وَفَتْ أَدُنُّكَ وَصَدَّقَكَ - رَبُّكَ».

تنبيهات

الأول: ذُكِرَ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ شَيْءٌ آخَرٌ: وَهُوَ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي فِي غَزْوَةِ الْمُرَيْسِيِّع: «وَاللَّهِ مَا مَثَلْنَا وَمَثَلُ مُحَمَّدٍ إِلَّا كَمَا قَالَ الْقَائِلُ: سَمَنْ كَلْبِكَ يَا كَلْبُكَ. وَاللَّهِ لئن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ». فَسَمِيَ بِهَا زَيْدُ بْنُ أَرْقَمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَأَرْسَلَ خَلْفَ ابْنِ أَبِي فَحَلَفَ بِاللَّهِ مَا قَالَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْآيَةَ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذَرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ قَتَادَةَ. وَسَيَأْتِي بَيَانُ ذَلِكَ فِي غَزْوَةِ الْمُرَيْسِيِّعِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

الثاني: رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ جَعْفَرٍ، أَنَّ الْجُلَّاسَ تَابَ وَحَسُنَتْ تَوْبَتُهُ، وَلَمْ يَنْزِعْ عَنْ خَيْرٍ كَانَ يَصْنَعُهُ إِلَى عُثَيْرٍ، وَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا عُرِفَتْ بِهِ تَوْبَتُهُ.

ومن المنافقين: نَبْتَلُ - بَنُونَ مَفْتُوحَةٌ فَمَوْحِدَةٌ سَاكِنَةٌ ففوقية مَفْتُوحَةٌ فلام - ابن الحارث، وَكَانَ رَجُلًا جَسِيمًا، أَذْلَمَ، نَاطِرَ شَعْرِ الرَّأْسِ أَحْمَرَ الْعَيْنِينَ، أَشْفَعَ الْخَدَّيْنِ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الشَّيْطَانِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى نَبْتَلِ بْنِ الْحَارِثِ».

وروى ابن إسحاق عن بعض بني العجلان أنه حَدَّثَ أَنَّ جَبْرِيلَ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ: «إِنَّهُ يَجْلِسُ إِلَيْكَ رَجُلٌ أَذْلَمَ نَاطِرَ شَعْرِ الرَّأْسِ أَشْفَعَ الْخَدَّيْنِ أَحْمَرَ الْعَيْنِينَ كَأَنَّهُمَا قِذْرَانِ مِنْ صُفْرِ، كَبِيدُهُ أَغْلَظُ مِنْ كَبِيدِ الْجَمَّارِ، يَنْقُلُ حَدِيثَكَ إِلَى الْمَنَافِقِينَ فَاحْذَرْهُ». وَكَانَتْ تِلْكَ صِفَةُ نَبْتَلِ بْنِ الْحَارِثِ يَأْتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَيَجْلِسُ إِلَيْهِ فَيَسْمَعُ مِنْهُ ثُمَّ يَنْقُلُ حَدِيثَهُ إِلَى الْمَنَافِقِينَ. وَهُوَ الَّذِي قَالَ لَهُمْ: «إِنَّمَا مُحَمَّدٌ أُذُنٌ، مَنْ حَدَّثَهُ بِشَيْءٍ صَدَّقَهُ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ

وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ [التوبة ٦١].

تنبیه: في بيان غريب ما سبق:

«الأذلم»^(١): بدال مهملة: الأسود الطويل.

«نائر شعر الرأس»: منتشر الشعر.

«أسفَع الخَدَّين»^(٢): الشفقة. بالضم: سَوَادٌ مُشْرَبٌ بِخُمْرَةٍ أَوْ زُرْقَةٍ.

«الصفْر» بضم الصاد المهملة وبالفاء: الثَّحَاسُ.

ومنهم: مِرْبَعٌ - بحميم مكسورة فراء ساكنة فموحدة مفتوحة فعين مهملة - ابن قَيْظِيّ - بقاف فتحية فضاء معجمة شالّة - وهو الذي قال لرسول الله ﷺ حين أجاز في حائطه، ورسول الله ﷺ عامدٌ إلى أحد: «لَا أُجِلُّ لَكَ يَا مُحَمَّدُ إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا أَنْ تَمُرَّ فِي حَائِطِي». وأخذ في يده حفنة من تراب ثم قال: «والله لو أعلم أنني لا أُصِيبُ بهذا التراب غيرك لَرَمَيْتُكَ بِهِ». فابتدره القوم ليقتلوه، فقال رسول الله ﷺ: «دَعُوهُ فَهَذَا الْأَعْمَى أَعْمَى الْقَلْبِ أَعْمَى الْبَصَرِ»^(٣).

ومنهم عبد الله بن أُبَيِّ بن سَلُولٍ، وسَلُولٌ هي أم أُبَيِّ وهو أُبَيِّ بن مالك العَوْفِيّ أحد بني الحُبَلِيِّ. وكان رأس المنافقين وإليه يجتمعون، وهو الذي قال: «لئن رجعنا إلى المدينة لِيُخْرِجُنَّ الْأَعْرُ مِنْهَا الْأَذْلَ» في غزوة بني الْمُصْطَلِقِ. وفي قوله ذلك نزلت سورة المنافقين بأسرها. وقديم النبي ﷺ المدينة وعبد الله بن أُبَيِّ سيد أهلها لا يختلف عليه في شرفه من قومه اثنان، لم يجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين غيرهِ حتى جاء الإسلام. وكان قومه قد نظموا له الخرزَ لِيَتَوَجَّوهُ ثم يُمْلِكُوهُ عليهم، فجاءهم الله عز وجل برسوله ﷺ وهم على ذلك فلما انصرف قَوْمُهُ عَنْهُ إِلَى الْإِسْلَامِ ضَغِينٌ، ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه مُلْكًا. فلما أن رأى قومه قد أَبَوْا إِلَّا الْإِسْلَامَ دخل فيه كَارِهًا مُصِرًّا على نفاق وضيغن.

وروى ابن إسحاق، والإمام أحمد، والشيخان عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما. قال: رَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جِمَارًا عَلَيْهِ إِكَافٌ فَوْقَهُ قَطِيفَةٌ فَدَكِيَّةٌ مُخْتَطَمَةٌ بِحِجْلِ مَنْ لَيْفٍ. قال: وَأَرْدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَلْفَهُ يَعُودُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ،

(١) انظر اللسان ١٤١٥/٢.

(٢) انظر اللسان ٢٠٢٧/٣.

(٣) انظر البداية والنهاية ٢٣٩/٣.

فمر بعبد الله بن أبيي وذلك قبل أن يُسَلِّم وهو في ظلِّ أُطَمٍ وفي مجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان، واليهود في مجلس عبد الله بن رواحة. فلما غَشِيَتِ المجلس عِجَاجَةُ الدَّابَّةِ خَمَّرَ عَبْدُ اللَّهِ بِنَ أَبِيي أَنفَهُ بِرِدَائِهِ وَقَالَ: لَا تُغَبِّرُوا عَلَيْنَا. فَسَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَوَقَفَ فَنَزَلَ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ فَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ وَحَدَّرَ وَبَشَّرَ وَأَنْذَرَ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بِنَ أَبِيي: «يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ إِنَّهُ لَا أَحْسَنَ مِنْ حَدِيثِكَ هَذَا إِنْ كَانَ حَقًّا فَلَا تُؤْذِنَا بِهِ فِي مَجْلِسِنَا، وَارْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ فَمَنْ جَاءَكَ فَاقْصِصْ عَلَيْهِ». قَالَ: فَقَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ: «بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ فَاعْشِنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا فَهُوَ وَاللَّهُ مِمَّا نُحِبُّ». فَاسْتَبَّ الْمُسْلِمُونَ وَالْمَشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ حَتَّى كَادُوا يَتَشَاوَرُونَ. فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكْتُوا. فَرَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَابَّتَهُ حَتَّى دَخَلَ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ لَهُ: «أَيُّ سَعْدٍ أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ؟» يَرِيدُ عَبْدُ اللَّهِ بِنَ أَبِيي. فَقَالَ سَعْدٌ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْفُ عَنْهُ وَاصْفَحْ فَلَقَدْ أَعْطَاكَ اللَّهُ مَا أَعْطَاكَ، وَلَقَدْ اجْتَمَعَ أَهْلُ الْبُخَيْرَةِ عَلَى أَنْ يُتَوَجَّهَ فِي عَصْبِهِ، فَلَمَّا رُدُّوا ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَ شَرِيقًا، فَذَلِكَ الَّذِي فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ»^(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قلت: يا نبي الله لو أتيت عبد الله بن أبيي؟ فانطلق إليه النبي ﷺ، فركب جماراً، وانطلق المسلمون يمشون، وهي أرض سبخة. فلما أتاه رسول الله ﷺ، قال: إلتيك عنِّي فوالله لقد أذاني نثنُ جمارك. فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيَّب ريحاً منك.

فغضب لعبد الله رجل من قومه فشمته، وغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهم ضربٌ بالجريد. وفي لفظ بالحديد. والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أنزل فيهم ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلَا فَأُضِلُّوهَا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات ٩]. رواه الشيخان.

قال ابن إسحاق: وقال عبد الله بن أبيي حين رأى من خلاف قومه ما رأى:

مَتَى مَا يَكُنْ مَوْلَاكَ خَضَمَكَ لَا تَزَلْ تَذِلُّ وَيَضْرَعُكَ الَّذِينَ تُصَارِعُ
وَهَلْ يَنْهَضُ الْبَازِي بِغَيْرِ جَنَاحِهِ وَإِنْ جُدَّ يَوْمًا رِيشُهُ فَهَوَّ وَاقِعُ

ومنهم أبو عامر الفاسق واسمه: عبد عمرو بن صيفي بن النعمان الأوسي أحد بني ضبيعة بن زيد، وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة. وكان أبو عامر قد ترهب في الجاهلية وليس المسوح، فكان يقال له الراهب. وكان شريفاً مطاعاً في قومه فشقى بشرفه وضره.

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة أتاه أبو عامر قبل أن يخرج إلى مكة فقال: يا محمد ما

(١) أخرجه البخاري ١٥٤/٧ ومسلم في كتاب الجهاد (١١٦) وأحمد في المسند ٢٠٣/٥ وعبد الرزاق (٩٧٨٤) والطبراني في الكبير ٦٧/٦.

هذا الدين الذي جئت به؟ فقال رسول الله ﷺ: «جئت بالحنيفية دين إبراهيم». قال: فإني عليها. فقال رسول الله ﷺ: «لست عليها [لأنك أدخلت فيها ما ليس منها]». قال: بل أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها. قال: «ما فعلت بل جئت بها بيضاء نقيّة». فقال أبو عامر: أمات الله الكاذب [منا] طريداً وحيداً. وإنما قال ذلك يُعَرِّضُ برسول الله ﷺ حيث خرج من مكة. فقال رسول الله ﷺ: «نعم أمات الله الكاذب منا كذلك». فكان ذلك هو غدو الله فخرج إلى مكة. فلما فتح رسول الله ﷺ مكة، خرج إلى الطائف فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام فمات بها طريداً غريباً وحيداً^(١).

(١) أخرجه أبو نعيم في الدلائل ١٩/١ وذكره القرطبي في التفسير ٣٢٠/٧.

فهرس الجزء الثالث
من
سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد

جماع أبواب معراجه صلى الله عليه وسلم

- الباب الأول: في بعض فوائد قوله تعالى ﴿سبحان الذي أسرى...﴾ ٤
- الباب الثاني: في تفسير أول سورة النجم ٢٢
- الباب الثالث: في اختلاف العلماء في رؤية النبي ﷺ لربه تبارك وتعالى ليلة المعراج ٥٥
- الباب الرابع: في أي زمان ومكان وقع الإسراء ٦٤
- الباب الخامس: في كيفية الإسراء برسول الله ﷺ وهل تكرر أم لا ٦٧
- الباب السادس: في دفع شبهة أهل الزيغ في استحالة المعراج ٧٤
- الباب السابع: في أسماء الصحابة الذين رووا القصة عن النبي ﷺ ٧٦
- الباب الثامن: في سياق القصة ٧٩
- الباب التاسع: في تنبيهات على بعض فوائد تتعلق بقصة المعراج ٩٦
- الباب العاشر: في صلاة جبريل بالنبي ﷺ ليلة الإسراء وكيف فرضت الصلاة ١٧٧

جماع أبواب بدء إسلام الأنصار

- الباب الأول: في نسبهم ١٨١
- الباب الثاني: في فضلهم وحبهم والوصية بهم والتجاوز عن مسيئتهم والنهي عن بغضهم ١٨٣
- الباب الثالث: في بدء إسلامهم رضي الله عنهم ١٨٩
- الباب الرابع: في ذكر يوم بعث ١٩٢
- الباب الخامس: في بيعة العقبة الأولى ١٩٤
- الباب السادس: في بيعة العقبة الثانية ١٩٧
- الباب السابع: في إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ١٩٨
- الباب الثامن: في بيعة العقبة الثالثة ٢٠١
- الباب التاسع: في إسلام عمر بن الجموع ٢٢٢

جماع أبواب الهجرة إلى المدينة الشريفة

- الباب الأول: في إذن النبي ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى المدينة ٢٢٤
- الباب الثاني: في سبب هجرة النبي ﷺ بنفسه الكريمة وكفاية الله تعالى رسوله مكر المشركين حين أرادوا ما أرادوا ٢٣١

الباب الثالث: في قدر إقامة النبي ﷺ بمكة بعد البعثة ورؤياه الأرض التي يهاجر

إليها إليها ٢٣٦

الباب الرابع: في هجرة رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة وما وقع في ذلك من الآيات ٢٣٨

الباب الخامس: في تلقي أهل المدينة رسول الله ﷺ ونزوله بقاء وتأسيس مسجد

قبا قبا ٢٦٦

الباب السادس: في قدومه ﷺ باطن المدينة وما آلت إليه ٢٧١

جماع أبواب بعض فضائل المدينة الشريفة

الباب الأول: في بدء شأنها ٢٨١

الباب الثاني: في أسماء المدينة مرتبة على حروف المعجم ٢٨٦

الباب الثالث: في النهي عن تسميتها يشرب ٢٩٦

الباب الرابع: في محبته ﷺ لها ودعائه لها ولأهلها ٢٩٧

الباب الخامس: في عصمتها من الدجال والطاعون ببركته ٣٠٣

الباب السادس: في الحث على الإقامة والموت بها والصبر على لأوائها ونفيها الخبث

والذنوب واتخاذ الأصول بها والنهي عن هدم بنيانها ٣٠٦

الباب السابع: في وعيد من أحدث بها حدثاً أو آوى محدثاً ٣١٢

الباب الثامن: في تفضيلها على البلاد لحلوله ﷺ فيها ٣١٥

الباب التاسع: في تحريمها ٣١٨

الباب العاشر: في ذكر بعض خصائصها ٣٢٠

جماع أبواب بعض حوادث من السنة الأولى

والثانية من الهجرة

الباب الأول: في صلاته ﷺ الجمعة بيني سالم بن عوف ٣٣١

الباب الثاني: في بناء مسجده الأعظم وبعض ما وقع في ذلك من الآيات ٣٣٥

الباب الثالث: في بنائه ﷺ حجر نساءه رضي الله عنهن ٣٤٨

الباب الرابع: في بدء الأذان وبعض ما وقع في ذلك من الآيات ٣٥١

الباب الخامس: في مؤاخاته ﷺ بين أصحابه رضي الله عنهم ٣٦٣

الباب السادس: في قصة تحويل القبلة ٣٧٠

جماع أبواب بعض أمور دارت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم

وبين اليهود والمنافقين

- الباب الأول: في أخذ سبحانه وتعالى العهد عليهم في كتبهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ
 إذا جاءهم واعتراف جماعة منهم بنبوته ثم كفر كثير منهم بغياً وعناداً ٣٧٦
- الباب الثاني: في إسلام عبد الله بن سلام بن الحارث بن أبي يوسف ٣٧٩
- الباب الثالث: في موادعته ﷺ اليهود وكتبه بينه وبينهم كتاباً بذلك ٣٨٢
- الباب الرابع: في سؤال اليهود رسول الله ﷺ عن الروح ٣٨٥
- الباب الخامس: في تحيرهم في مدة مكث هذه الأمة لما سمعوا الحروف المقطعة في
 أوائل السور ٣٩١
- الباب السادس: في سبب نزول سورة الإخلاص ٣٩٦
- الباب السابع: في إرادة شأس بن قيس إيقاع الفتنة بين الأوس والخزرج ٣٩٨
- الباب الثامن: في سبب نزول قوله تعالى ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير
 ونحن أغنياء﴾ ٤٠٠
- الباب التاسع: في سؤالهم عن أشياء لا يعرفها إلا نبي وجوابه لهم ٤٠٢
- الباب العاشر: في رجوعهم إليه ﷺ في عقوبة الزاني ٤٠٦
- الباب الحادي عشر: في سؤاله لهم أن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين ٤٠٩
- الباب الثاني عشر: في سحرهم إياه ﷺ ٤١٠
- الباب الثالث عشر: في معرفة بعض طغاة المنافقين ٤١٦



